المركز القومى للترجمة



هارى سينت فيلبى

قلب الجزيرة العربية

سجل الأسفار والاستكشاف

الطبعة الثانية

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن

مراجعة : رءوف عباس

الجزء الأول

2/607



القســـم الأكبر من هذا الكتاب يغطى الفترة من شهر يونيو من عام 1918 الميلادى إلى شهر أغسطس من العام نفسه، باستثناء رسالتين كتبهما فيلبى فى فترة متأخرة، فى عام 1921-1922 الميلادى.

وتــرجع الأهمـية البالغة لتلك الرسائل إلى أنها ترسم - من ناحية - صورة حية لفراسة فيلبى ونفاذ بصيرة بريطانيا فى مطلع علاقتها بابن سعود، وتعد - من ناحية ثانية - قبسات نورانية قيمة من إلمام فيلبى إلماماً وثيقًا ودقيقًا بالشئون العربية، كما توضح - من ناحية ثالثة - رأيه الشخصى والصريح فى أولئك الناس الذين تعرّفهم تعرفًا جيداً ووثيقًا، هذه الرسائل تكشف عن رغبة متقدة داخل فيلبى فى استكشاف المناطق المجهولة، وإبراز مشاعر الود والاحترام والولاء التى كان يكنها لابن سعود. أهم من كل ذلك أن تلك الرسائل ترسم صورة مبهرة للسعودية فى بداية تأسيسها، ومع ذلك يظل كتاب "قلب الجزيرة العربية" موضوع هذا العرض بمثابة حجر الزاوية من بين كل أعمال وكتابات فيلبى.

تصميم الغلاف: عبد العزيز السماحى

قلب الجزيرة العربية

(سجل الأسفار والاستكشاف)

الجزء الأول

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦٠٧ / ٢
- قلب الجزيرة العربية (سجل الأسفار والاستكشاف) الجزء الأول
- هارى سينت فيلبى
- صبرى محمد حسن
- رءوف عباس
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

The Heart of Arabia

A Record of Travel & Exploration

By: H. ST. Philby

Volume 1

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House. El Gezira. Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

قلب الجزيرة العربية

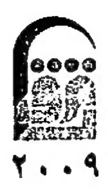
(سجل الأسفار والاستكشاف)

الجزء الأول

تأليـــــــف: هارى سينت فيلبــــى

ترجمـــــــة: صبرى محمد حســن

مراجعـــــة: رءوف عبـــــاس



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فيلبى، هارى سينت، ١٨٨٥ - ١٩٦٠.
قلب الجزيرة العربية: سجل الأسفار والاستكشاف ج١،
تأليف: هارى سينت فيلبى؛ ترجمة: صبرى محمد حسن؛
مراجعة: رءوف عباس. ط٢ - القاهرة، المركز القومى
للترجمة، ٢٠٠٩
٤٩٦ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية - وصف ورحلات
٢- الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- عباس، رءوف (مراجع)
ج- العنوان
٩١٥،٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٢
الترقيم الدولى: 3 - 187 - 479 - 977 -978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة الترجمة 11

تصدير 19

مقدمة 23

الفصل الأول : عتبة الجزيرة العربية 33

١ – من البحرين إلى العقير 33

٢ – العقير 35

٣ – من العقير إلى الأحساء 43

٤ – الأحساء 50

الفصل الثانى : الصحراء الشرقية 77

١ – الخزام 77

٢ – الصُّمَّان 81

٣ – الدَّهناء 91

٤ – السَّهب الداخلى 95

الفصل الثالث : العاصمة الوهابية (الرياض) 109

١ – الوصول إلى الرياض 109

٢ – الرياض – المدينة وما يحيط بها 114

٣ – أيامى الأولى فى الرياض 128

الفصل الرابع : طريق الحج 161
١ – الدرعية 161
٢ – وادى العمّارية وجبل طويق 169
٣ – عبر الطريق 178
٤ – نجد العليا 189
٥ – مضارب السُّبيع 221
الفصل الخامس : الأراضى المقدسة 243
١ – السَّهب الشرقى والتلال المجاورة لسفوح الجبال 243
٢ – الطائف 256
٣ – وادى فاطمة 278
٤ – جدة 300
الفصل السادس : أراضى ما وراء الساحل فى منطقة الفرات 315
١ – الباطن 315
٢ – الدبدبة والصُّمّان 347
٣ – الدهناء 359
الفصل السابع : زيارة الرياض مرة ثانية 371
١ – هضبة عارمة 371
٢ – "الجوم" الوهابى فى المعسكر 378
٣ – دعامة السحاب أثناء النهار 419
٤ – الرياض فى زمن الربيع 440

قائمة الصور

– الدهو(*)، وعليه البعثة البريطانية، تقطره السفينة التجارية لورانس إحدى سفن صاحب الجلالة ؛ فى حين يقف العقيد كينلف فى المنتصف .

– العقير : جيتى ، مستودعات خزن البضائع ، والقلعة .

– مجموعة فى الهفوف : (الجلوس من اليسار إلى اليمين) محمد أفندى ، وعبد الله بن جلوى وابنه سعود ، والمراسلون واقفون فى الخلف .

– الهفوف ، عاصمة الأحساء : منظر عام ، ومسجد إبراهيم باشا فى خلفية الصورة .

– الهفوف : سوق الخميس فى يوم السوق وأعمدة القيسارية على اليسار ، وأسوار الكوت على اليمين .

– الهفوف : مسجد إبراهيم باشا ، وخليل أفندى على الجانب الأيسر ، وسليمان الحريقى إلى جواره ، ومراسلان على الجانب الأيمن .

– العين الحارّة : العين السخنة بالقرب من المبرّز .

– مؤلف الكتاب .

– وادى الشجرة : وقفة لأداء صلاة العصر .

– وادى وأبيار أبى جيفان .

(*) قارب يستعمله البحارة العرب فى تجارتهم مع الشواطئ والسواحل . (المترجم)

- خشم أوساع : معسكر سوته العاصفة فى سهل الترابى .

- العقيد آر. إى . إيه . هاملينون فى اليسار ، ومعه فهد من الحرس الملكى فى الرياض .

- عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن سعود ، حاكم الأرض الوهابية ، جهة اليمين ، مع ابن عمه سلمان العرافة .

- القصر الملكى فى الرياض .

- المسجد الكبير فى الرياض .

- قلعة الرياض ، ومنظر عام من الجهة الشمالية الشرقية من القصر ، ومنزل محمد بن سعود فى الجهة اليمنى ، ومنزل المرحوم سعد بن سعود فى منتصف الصورة من الأمام ، والشارع الرئيسى المؤدى إلى البوابة الشمالية الشرقية فيما بينهما .

- بستان فى واحة الرياض : عبد الله أفندى جالساً على السور .

- جماعة فى الرياض : الأطفال الملكيون فى المقدمة، ويقف خلفهم من اليسار إلى اليمين : فيصل بن هاشر ، وفيصل بن الرشيد، وابن سعود نفسه، وسعود بن عبد العزيز العرافة ، وتركى بن سعود، وسعود بن عبد الرحمن بن سعود، وعضوان آخران من أعضاء الأسرة المالكة .

- بعض من صاحبوا المؤلف فى رحلته التى قام بها عبر الجزيرة العربية : الوقوف من الشمال إلى اليمين : مطيليج، وتامى، وإبراهيم، والمؤلف، وسعد إزماى، وحيلان ، وبدر. الجلوس: شايا، وسعيد، و ؟ ، وابن نصار، وأبو نورة، وجرمان.

- واحة الدرعية ، مع قناة العواصف فى المنتصف ، وأطلال المدينة القديمة جهة اليسار ، وهجرة ملوى والضهارة الغصيبة جهة اليمين .

- ممر سقطة فى جبل طويق .

- واحة القويعية فى مرتفعات الأرض ، ومدافن وهابية فى مقدمة الصنورة .

- جبل فريدة فى سلسلة جبال دمخ .

- سهل سيرا ، يطل ناحية الشرق على سلسلة جبال دمخ ، وجبل فريدة جهة اليمين وجبل نصيفة جهة اليسار .

- قرية الخورمة .

- قصر شبرا فى وادى الطائف .

- الطائف .

- قصر الملك حسين فى الطائف ، دمره الأتراك قبل تسليم المدينة فى عام ١٩١٦ الميلادى .

- واحة الشامية (فاطمة) ، عند مصب حراضة . إبراهيم ، وعبد الملك ، ومبعوثه راكبًا ، ومن خلفه الخادم .

- واحة مضيق فى وادى الليمون (فاطمة) .

- خط تلغراف وطريق قوافل مكة جدة عند النقطة البيضاء فى تلال الحافة .

- المنظر الأول للبحر فى رغامة .

- بعض المصاحبين للمؤلف راكبون فى جدة .

- جدة : بوابة مكة .

- جدة : الثكنات الشريفية فى مقدمة الصورة وقبر حواء فى المقبرة الخلفية .

- مجموعة من مشايخ الصحراء : من اليسار لليمين - محمد بن صالح الصبحان، والشيخ إبراهيم من الزبير ، وضارى بن طوالة وحمود بن سويق .

- أبيار حفر الباطن ، وجمال لجلب الماء .

- بحيرة الخفس ، وصخرة عارمة فى خلفية الصورة .

- عاصفة رملية تكتسح معسكراً بالقرب من خفس ، وصخرة عارمة غير واضحة تماماً فى خلفية الصورة .

المخططات

- مخطط الرياض

مقدمة الترجمة

اسمه هارى Harry سينت .St جون John بردجر Bridger فيلبى Philby ، وهو مستكشف ومؤلف بريطانى . ولد فى عام ١٨٨٥ الميلادى ، أى قبل أن يبدأ بالجريف رحلته "وسط الجزيرة العربية وشرقها" بعام واحد ، ومات فى عام ١٩٦٠ الميلادى . هذا يعنى أن هذا المؤلف الرصين عاش حوالى خمسة وسبعين عامًا . وفى عام ١٩١٧ الميلادى ، أى عندما كان فى الثانية والثلاثين من عمره التحق بالعمل فى وزارة الخارجية البريطانية ، وأوفد فى مهمة خاصة إلى الجزيرة العربية على رأس بعثة نجد التى تشكلت مؤخرًا للمشاركة فى المناقشات المهمة مع حاكم نجد والأحساء عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود ، الذى يعرفه العرب باسم ابن سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣) .

كان هدف البعثة الرئيسى هو مناقشة ابن سعود فى الرياض فى إمكانية تجريد حملة عسكرية على حائل ، التى كانت حليفًا لتركيا فى ذلك الوقت ، ومناقشة بعض المسائل الخاصة بكسر الحصار الذى كان مفروضًا على الكويت من قبل البريطانيين لوقف استيراد البضائع من الخليج ومنع وصولها إلى الأتراك وحلفائهم . وكان من بين أهداف تلك المناقشات البحث عن وسائل لتهدئة العلاقات بين ابن سعود والشريف حسين فى مكة ، استهدافًا لضمان اشتراك الشريف حسين فى الثورة العربية على الأتراك وعدم انسلاخه عنها .

وعلى الرغم من نجاح فيلبى فى إقناع ابن سعود (وذلك على العكس مما نصحه به شعبه) فى تجريد حملة على حائل ، فإن السياسة البريطانية الرسمية طويلة الأمد لم تكن تتفق أو تتطابق دومًا مع سياسة ابن سعود . إذ كانت بريطانيا تود للحاكم السعودى هو والشريف حسين فى مكة أن يعيشا فى سلام ووفاق ووئام (فى حين

واصل ابن سعود فى عشرينيات القرن العشرين ضم الحجاز وبعض المناطق الأخرى ليكون دولة موحدة هى السعودية) . وكانت بريطانيا تود أن تقتصر مطامح ابن سعود الإقليمية على الشمال وتأمين استقلال دولة شرق الأردن الجديدة (الأردن حاليًا) ، وبذلك تكون تلك السياسة هى أنجح السياسات . ومع ذلك ، أحس فيلبى بالصدمة والاستياء عندما نقض البريطانيون وعودهم ورفضوا إمداد ابن سعود بالمال والسلاح . وكان السبب في ذلك أن الحملة المزمع قيام ابن سعود بها على حائل أصبحت غير ذات بال بعد استيلاء البريطانيين على كل من القدس ودمشق . وبالرغم من كل ذلك ، تواصلت علاقة الاحترام المتبادل والصداقة بين ابن سعود وفيلبى سنوات طويلة بعد ذلك . وبذلك أصبح فيلبى أول أوروبى يزور المناطق الجنوبية من نجد . والغريب فى الأمر أن ذلك الرجل عمل طوال ما يقرب من ثلاثين عامًا مستشارًا لابن سعود ، ملك السعودية .

كان فيلبى مستشرقًا مستعربيًا بارزًا ، سافر إلى الشرق الأوسط فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وسرعان ما ذاع اسمه وصيته ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أمضى بضع سنوات فى استكشاف السعودية ، ووضع مجموعة من الكتب هى التى فتحت شبه الجزيرة العربية المجهول أمام القراء فى كل أنحاء الدنيا . زد على ذلك أن النسخ الخاصة التى احتفظ بها فى مكتبته ، وكذلك الطبعات النادرة من كتاب "جنوبى نجد" على سبيل المثال ، والذى طبع منه فى القاهرة مائة نسخة فى عام ١٩١٩ ، وكذلك كتاب "الربع الخالى" الذى طبع فى لندن فى عام ١٩٣٢ الميلادى ، إضافة أيضًا إلى مجموعة كبيرة من الكتب الكثيرة التى كانت فى مكتبه ، ومن بينها الكتاب الذى كتبه ولستد Wellsted عن أسفاره وترحاله فى الجزيرة العربية ، والذى نشر فى لندن فى عام ١٨٤٨ ، كل هذه الكتب الكنوز موجودة حاليًا فى جامعة جورج تاون George town، التى تلقت تلك الكتب وكتبًا وأبحاثًا أخرى هدية من السيدة هوب هيدلى Hope Headly ابنة روبرت ولستد Robrt Wellsted . وبعد أن أسلم فيلبى أطلق على نفسه اسم عبد الله فيلبى ، وكتب كتابًا عن "هارون الرشيد" نشرته دار بيتر ديفز ليمتد فى عام ١٩٣٣ كما كتب كتابًا آخر بعنوان "الحاج فيلبى" وكتابًا أيضًا بعنوان "الجزيرة العربية فى ظل الحكم الوهابى" .

وجديد فيلبى الذى رحل عنا منذ ما يقرب من اثنين وأربعين عامًا أن صالة سوذبى للمزادات فى لندن ، عرضت للبيع فى اليوم العاشر من شهر مايو من عام ٢٠٠١ الميلادى ، ثمانى عشرة رسالة بالغة الأهمية ، لم يسبق نشرها ، وحددت لها ثمنًا يتراوح بين ٨٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى . وهذه الرسائل كلها تقريبًا معنونة إلى السير Sir بيرسى PERCY كوكس Cox المفوض المدنى فى بلاد الرافدين فى ذلك الوقت ، كما يتعلق أيضًا بالمهمة التاريخية التى قام بها فيلبى فى الجزيرة العربية فى أواخر الحرب العالمية الأولى . الأهم من ذلك أن تلك الرسائل لها صلة أيضًا بتعاملات فيلبى مع عبد العزيز بن سعود ، الأسطورى ، مؤسس السعودية وأول ملك لها ، يضاف إلى ذلك أن الرسائل تحكى بالتفصيل عن أول رحلة يقوم بها رجل من الغرب إلى جنوب نجد وعن قبيلة الدواسر الموجودة فى تلك المنطقة . وفيلبى ، فى تلك الرسائل ، يعلق بين الحين والآخر على النجاح وكذلك على الفشل الذى أصاب معاصره لورانس الذى أطلق عليه اسم "لورانس العرب" .

والقسم الأكبر من تلك الرسائل يغطى الفترة من شهر يونيو من عام ١٩١٨ الميلادى إلى شهر أغسطس من العام نفسه ، باستثناء رسالتين كتبهما فيلبى فى فترة متأخرة ، أى فى عام ١٩٢١ - ١٩٢٢ الميلادى .

وترجع الأهمية البالغة لتلك الرسائل إلى أنها ترسم - من ناحية - صورة حية لفراسة فيلبى ونفاذ بصيرة بريطانيا فى مطلع علاقتها بابن سعود ، وتعد - من ناحية ثانية - قبسات نورانية قيِّمة من إلمام فيلبى إلمامًا وثيقًا ودقيقًا بالشئون العربية ، كما توضح - من ناحية ثالثة - رأيه الشخصى والصريح فى أولئك الناس الذين تَعرَّفهم تَعرُّفًا جيدًا ووثيقًا . هذه الرسائل تكشف عن رغبة متقدة داخل فيلبى فى استكشاف المناطق المجهولة ، وإبراز مشاعر الود والاحترام والولاء التى كان يكنها لابن سعود . أهم من كل ذلك أن تلك الرسائل ترسم صورة مبهرة للسعودية فى بداية تأسيسها ، ومع ذلك يظل كتاب "قلب الجزيرة العربية" موضوع هذا العرض بمثابة حجر الزاوية من كل أعمال فيلبى وكتاباته .

قلب الجزيرة العربية

إذا كان بالجريف ، صاحب كتاب "وسط الجزيرة العربية وشرقها" قد تنكر فى زى طبيب مزيف ، عجزت السلطات المحلية كلها عن اكتشاف حقيقته ، مما جعله يتمكن من جمع مادة كتابه بعيداً عن أعين السلطة وعن رقابتها ، ليخرج على القراء وعلى الباحثين وعلى المهتمين بشئون الجزيرة العربية – فى ذلك الوقت – بكتاب ينطوى على مادة غزيرة جمعها ذلك الرجل من أفواه الناس ، وإذا كان بالجريف قد بَعُد عن أعين السلطات المحلية تخوفًا منها وتجنبًا لها ، فإن فيلبى philby فى كتابه "قلب الجزيرة العربية" الذى نشره فى عام ١٩٢٤ الميلادى عن "القسم الأول فقط من تجوالى فى الجزيرة العربية ، والذى انتهى بعودتى إلى العاصمة الوهابية بعد رحلة قمت بها فى صيف العام ١٩١٨ الميلادى إلى المناطق الجنوبية" ، جمع مادته العلمية تحت أعين السلطة ، وهذا لا يعنى أن الرجل كان يتحسب لتلك السلطة أو يحاول التزلف إليها ، وإنما كان الأمر عكس ذلك تماماً ، إذ كان فيلبى مطلوبًا من السلطة ومرغوبًا فيه أيضًا .

والغريب فى الأمر أن فيلبى كان مساعداً للقائد العام للقوات البريطانية المتمركزة فى بغداد فى ذلك الوقت ، كانت تركيا وألمانيا قد بدأتا تتقاربان تقاربًا شديداً ، مما عكر صفو بريطانيا العظمى وجعلها تتخوف من ذلك التعاون وتعمل له ألف حساب وحساب ، ولذلك كان الهدف الرئيسى لفيلبى عندما نوى السفر إلى الرياض ، هو العمل على استعداء القيادات المحلية ممثلة فى الشريف حسين فى الحجاز ، وابن سعود فى الرياض ، على الأتراك وقواتهم من ناحية ، وإحكام الحصار حول الحاميات التركية التى كانت فى الأحساء وفى الجنوب من ناحية أخرى .

كانت بريطانيا قد أنعمت على الشريف حسين بلقب "ملك الحجاز" ، الأمر الذى أثار حمية ابن سعود وأغاظه ، وهنا حاولت بريطانيا اللعب على حبل التوتر بين الشريف حسين وابن سعود ، استهدافًا لتحقيق الهدف الرئيسى . والمؤسف أن الحكام المحليين لم يدركوا ذلك أو يفطنوا إليه ، ولذلك استطاعت بريطانيا توظيف جهود الشريف حسين لتحقيق مآربها ، ثم لعبت على حبل الخلاف بين الشريف حسين وابن سعود مما أسفر عن هزيمة الثانى للأول بتحريض من بريطانيا .

كان ابن سعود – كما يقول فيلبى – قد وقَّع اتفاقية رسمية مع بريطانيا فى عام ١٩١٦ الميلادى ، واعتماداً على تلك المعاهدة وجه ابن سعود ضرباته إلى الحاميات التركية الموجودة فى الأحساء وفى الجنوب مما أسفر عنه جلاء الأتراك عن بلاده ، وبخاصة بعد أن تورطت تركيا فى أتون الحرب إلى جانب ألمانيا .

كسر شوكة ابن الرشيد

وبحكم المعاهدة الرسمية ومن باب اللعب على حبل الخلاف مع الشريف حسين من ناحية ، ومن باب التلويح باستقلال العرب وإعطائهم حقوقهم من الناحية الأخرى ، أصبح فيلبى مرغوباً من الطرفين ، ولم يغب عن باله ، حسب الخطط الموضوعة ، أن يعمل على كسر شوكة ابن الرشيد فى حائل ، فى شمال الجزيرة العربية ، نظراً لأن حائل كانت تناصر الأتراك .

والغريب فى الأمر أيضاً ، أن فيلبى زار الرياض مرتين : المرة الأولى اتجه منها مع ركب وفره له ابن سعود ، إلى جدة كى يلتقى الشريف حسين بعد أن أنعمت عليه بريطانيا العظمى بلقب "ملك الحجاز" ، ولكنه كان يطمع فى لقب "ملك البلاد العربية" الأمر الذى أغضب بريطانيا ، وأثار حمية ابن سعود ، الذى أصر على مخاطبته بلقب "ملك الحجاز" وعندما التقى فيلبى الشريف حسين ، ولم يصل مع الأخير إلى تحقيق مبتغاه أصر الشريف حسين على ألا يعود فيلبى إلى الرياض بطريق البر ، وإنما عن طريق البحر ، وذلك على سبيل تحقيره والانتقام منه .

ويعود فيلبى إلى بريطانيا ليواجه بإصرار مليكها على عودته مرة أخرى إلى بغداد ومنها إلى الكويت ، ومن الكويت على رأس وفد صغير إلى الرياض فى شهر أكتوبر من عام ١٩١٧ الميلادى ، حيث يبقى إلى جانب ابن سعود فترة من الوقت انتظاراً لتنفيذ المطلوب ، ويستغل فيلبى الوقت المتاح فى القيام برحلة إلى الجنوب ، ظاهرها الاستكشاف ، وباطنها الوقوف أيضاً على مسألة إحكام الحصار ووقف تهريب المؤن للقوات التركية المشاركة فى القتال .

يجمع فيلبى مادته العلمية تحت أعين السلطة ودون اعتراض منها ليكتب كتاباً فى جزأين ، يكشف فيهما الكثير مما كان يدور فى تلك المنطقة ، وعن أهلها ، والتيارات القوية والضعيفة فيها ، وكلمة ابن سعود التى كانت نافذة ولها مكانتها فى تلك الأماكن .

قسم فيلبى الجزء الأول إلى ستة فصول : عتبة الجزيرة العربية ، والصحراء الشرقية ، والعاصمة الوهابية (الرياض) ، وطريق الحج ، والأراضى المقدسة ، ثم أراضى ماوراء الساحل فى منطقة الفرات وأخيراً زيارة الرياض مرة ثانية . ثم يعزز المؤلف مادة هذا الجزء الأول بأربعين صورة التقطها هو بنفسه لبعض الأفراد والأشياء والأماكن ذات الصلة بموضوع الكتاب .

دقة فيلبى فى الوصف

ويتناول فيلبى ، فى الفصل الأول ، بالوصف الدقيق الطريق من البحرين إلى العقير، ثم يبدأ بعد ذلك فى الإسهاب فى وصف العقير نفسها ، ثم يصف بعد ذلك الطريق من العقير إلى الأحساء ، التى يسهب أيضاً فى وصفها . ترى لماذا لجأ فيلبى إلى الإسهاب فى الوصف ؟ معروف أن كل من سبقوا فيلبى لم تكن معلوماتهم أو معطياتهم من الطراز الأول . إن بعض من سبقوه كانوا يقولون بوجود بحيرة كبيرة فى وسط الجزيرة العربية، ولكن بعض المستكشفين أثبتوا عدم صحة ذلك . يضاف إلى ذلك ، أن الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن أفادت كثيراً من دقة فيلبى فى الوصف ، والتى مكنت المتخصصين فى تلك الجمعية من توقيع تلك المعطيات والأوصاف على خرائط دقيقة بعد ذلك ، وفيلبى نفسه يقول : "تمكن خبراء الجمعية الجغرافية الملكية من الإفادة من بيانات تجوالى المفصلة فى إعداد ورسم خرائط مناسبة لذلك البلد الذى ظل حتى ذلك الحين موقعاً على الخرائط من واقع معلومات من الدرجة الثانية" .

والجزء الثانى يشتمل على أربعة فصول : الثامن الخرج ، والتاسع الأفلاج ، والعاشر وادى الدواسر ، و الحادى عشر حاجز هضبة الطُّوَيْق . وينهى فيلبى الجزء

الثانى بملحق عبارة عن مقتطفات من تقرير أعده ر. ب . نيوتن ، من المتحف البريطانى ، عن مجموعة من الحفريات جرى الحصول عليها من وسط الجزيرة العربية (جبل طويق) ، ويضيف ملحقًا آخر بالمصطلحات والكلمات والتعبيرات العربية التى وردت فى الكتاب . وإمعانًا من فيلبى فى تأكيد الحقائق التى أوردها يعزز المجلد الثانى بتسع صور التقطها هو شخصيًا لبعض الأماكن والمعالم التى تخدم موضوع كتابه القيِّم .

لم يغب عن بال فيلبى أن يعزز ذلك المجلد بخارطتين ؛ إحداهما لجنوب نجد ، وتبين الطرق والمسارات فيما بين الرياض ووادى الدواسر ، وذلك من واقع المسح الذى قام به فيلبى شخصيًا . والخارطة الثانية لوسط الجزيرة العربية ، وفيها يبين الطريق الذى سلكه من الخليج العربى إلى البحر الأحمر ، وذلك أيضًا من واقع المسح الذى قام به فيلبى شخصيًا. وإمعانًا أيضًا من فيلبى فى نسب الفضل إلى أهله ، أقر فى تصدير المجلد ، بأن أساتذة وفنيى الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية هم الذين ساعدوه على الوصول بخرائطه إلى الشكل الذى هى عليه فى الكتاب .

مادة علمية دقيقة

وفيلبى إذا كان قد قرأ كتاب بالجريف قبل أن يقوم هو برحلته ، فإنه لم يغب عن باله أن يخصص حوالى خمسين صفحة أو ما يزيد على ذلك قليلاً ، لمناقشة بعض المقولات ، وبعض التعبيرات التى وردت عند بالجريف . والفارق هنا كبير بين هذا وذاك ، نظرًا لأن بالجريف ادَّعى أن قسمًا كبيرًا من المادة العلمية التى جمعها ضاعت منه فى حادث انقلاب القارب الذى وقع له ، وأنه كان يكتب معتمدًا على الذاكرة ، أما فيلبى فكان على العكس من ذلك ، لديه الأدوات التى - برغم عدم كفايتها - مكنته من جمع مادة دقيقة إلى حد بعيد جدا . يضاف إلى ذلك أن السلطات المحلية كانت تتودد إليه وتسترضيه . ولذلك كان حرا فى تجواله وفى تنويع المصادر التى كان يجمع منها مادته ومعطياته .

ولا يسعنا إلا أن نقول : إن كتاب فيلبى يغطى فترة زمنية غاية فى الأهمية ، هى فترة الحرب العالمية الأولى والصراع الذى دار فى تلك المنطقة بين تركيا وبريطانيا من

جهة ، وبين السلطات المحلية والحاميات التركية من جهة ثانية ، والصراع الذى دار بين حائل ، بحكم موالاتها للأتراك ، والقوى المحلية من جهة ثالثة .

والمهتمون بتاريخ تلك الفترة الزمنية الدقيقة ، فى تلك المنطقة بالذات التى هى بمثابة الدماغ من الجسم البشرى المتمثل فى الجزيرة العربية يجدون ، فى كتاب فيلبى ، الكثير من الحقائق الخفية والمهمة أيضاً .

ولو قدر لهذا الكتاب أن يرى النور مترجماً على يدى ناشر محترم فسوف يشكل إضافة قيمة إلى المكتبة العربية .

صبرى محمد حسن

تصدير

حاولت خلال العام الجميلْ الذى أمضيته مترحلاً وجائلاً بين صحراوات وواحات الجزيرة العربية وضع سجل مدون لذلك الترحال والتجوال ، على أن يكون وصفيًا تمامًا منذ الوهلة الأولى ، ويتناول تجاربى الخاصة كلها ، مستهدفًا بذلك أن يكون عونًا ومرشدًا أمينًا لمن يجىء بعدى فى ترحاله وتجواله ، على أن يقوم هو بدوره برفع المشعل الذى رفعته في الماضى أياد كثيرة مميزة - أمثال تيبور ، وبركخاردت ، وسادلير Sadlier ، وبيرتون Burton ، ودوتى Doughty ، وبلنتس Blunts ، ووالين Wallin، وويلستد Wellsted ، وهوبر Huber ، وهاليفى Halévy ، وإيوتنج Euting ، وجوارمانى Guarmani ، إضافة إلى كل من شكسبير(*) ، وجرترود بيل Gertrude Bel ، فى العصر الحديث ، وهذا غيض من فيض الأسماء التى سجلت على درع نبالة مستكشفى الجزيرة العربية .

دخلت الجزيرة العربية وأنا غير مؤهل تأهيلاً تامًا للاضطلاع بالأبحاث الجغرافية أو العلمية من أى نوع كان ، ولكن الحظ ساقنى إلى حقل بعيد عن مسارات أولئك الذين تجولوا قبلى فى ذلك البلد ؛ يضاف إلى ذلك ، أن فضولى الطبيعى ، المعزز بإحساسى بالواجب . دفعنى وحتَّم علىَّ أن أسجل يَومًا بيوم ، بل وساعة بساعة كل ذلك الذى رأيته أو سمعته طوال ترحالى وتجوالى ، أملاً فى فصل البذرة عن القش فى يوم من الأيام ، على أن تتبقى بعد ذلك مادة مفيدة يجدر أن يطلع العالم عليها . وقد تمكنت من ذلك بفضل الأدوات العلمية القليلة التى كانت فى حوزتى ، وبفضل معرفتى

(*) هو النقيب شكسبير الذى عبر الجزيرة العربية . (المترجم)

المحددة باستعمال تلك الأدوات استعمالاً صحيحًا ، وتمكن خبراء الجمعية الجغرافية الملكية من الإفادة من بيانات تجوالى المفصلة فى إعداد ورسم خرائط مناسبة لذلك البلد الذى ظل حتى ذلك الحين موقعًا على الخرائط من واقع معلومات من الدرجة الثانية . وقد استطعت بفضل الجهود الحثيثة لأولئك الخبراء ، نشر هاتين الخريطتين مع هذين المجلدين ؛ وأجد من المناسب هنا أن أعترف بفضل أولئك الخبراء وبفضل أعمالهم ، وبفضل تشجيعهم السخى الذى شملونى به من خلال الجمعية الجغرافية منذ عودتى من الجزيرة العربية .

وقد حتمت الظروف اقتصار هذين المجلدين على تسجيل القسم الأول فقط من تجوالى فى الجزيرة العربية ، والذى انتهى بعودتى إلى العاصمة الوهابية بعد رحلة قمت بها فى صيف العام ١٩١٨ الميلادى إلى مناطق نجد الجنوبية . يضاف إلى ذلك ، أن الظروف وحدها هى التى ستحدد أيضًا إن كان القسم الثانى من ذلك التسجيل المدون لتجوالى وترحالى ، هو والحملة الوهابية على حائل فى خريف العام نفسه ، سيريا ضوء النهار . وفيما يتعلق بما أنا فيه الآن ، فقد وجدت من الأفضل أن أبدأ على الفور فى سرد التفاصيل الكاملة لجزء من تجاربى وخبراتى ، بدلاً من تناول فترة مقامى كلها فى الجزيرة العربية بشىء من الإيجاز والاقتضاب . وأخيرًا ، فإن الظروف التى لا قبل لى بها ولا سيطرة لى عليها ، هى التى ستحدد أيضًا إن كنت سأعود إلى صحراوات الجزيرة العربية لاستكمال مهمة ، أنا على يقين من أنها لم تكتمل بعد .

وأنا أضيف شيئًا عن الموضوع المحير الذى يتمثل فى التدوين الصوتى للأسماء العربية . وفى غياب التوحد بين مختلف الهيئات الرسمية وغير الرسمية ، والتى أتيحت لها – من خلال أبحاثها – فرصة دراسة هذه المشكلة ، قامت الجمعية الجغرافية الملكية خلال العام الماضى بتولى زمام القيادة وراحت تعمل سعيًا لاكتشاف إن كانت الفروق الحالية يمكن التوفيق بينها ، عند التطبيق ، عن طريق اتباع منظومة موحدة تقوم على استبعاد كل العلامات الكتابية أو الطبيعية التى تحدد نطق الحروف هى وعلامات النبر أيضًا . وبعد مناقشة الموضوع مناقشة مستفيضة من قبل أبطال المنظومات التى

تتناول ذلك الموضوع ، والذين كانوا قد تجمعوا لذلك الغرض ، استقر الأمر بهم ، إلى التوصل فى النهاية إلى قرار لصالح منظومة مبنية على شىء قليل جدا من الاختلاف عن تلك المنظومة التى كانت تستعملها هيئة أركان الجيش الإنجليزى العامة فى الهند . فقد استعملت تلك المنظومة فى أغراض المسح فى أثناء الحرب فى بلاد الرافدين ؛ وليس هناك من شك أن التعديل الذى طرأ على تلك المنظومة من قبل الجمعية الجغرافية يعد اقترابًا كبيرًا من المنظومة الأنموذج التى يسهل الوصول إليها فى الظروف الراهنة .

ومن سوء الطالع أن ذلك القرار اتخذ بعد أن اكتملت مخطوطة هذا الكتاب ، ووجدت أنه ليس من الضرورى القيام بكثير من التغيير الذى قد يترتب على إحداث التصحيح المطلوب فى هذا الصدد ، على الرغم من أن ذلك التصحيح سوف ينصب فقط على أمرين : لام التعريف فى العربية يجب أن يعتريها شىء من المماثلة فى المنظومة الجديدة ؛ أى أنها تتماثل مع الحرف الأول من الكلمة التالية لها فى جميع الأحوال ، التى تحدث فيها مثل هذه المماثلة فى نطق اللغة العربية ، وقد دونت تلك الأداة بمعادلها الحرفى الإنجليزى L فى جميع الأحوال[1] كما استعملت أيضًا اللاحقة IYYA - باعتبارها تدوينًا صوتيا للاحقة التى تنتهى بشدة وفتحة ، فى حين أن المنظومة التى أقرت تستعمل اللاحقة IYA الأسهل .

وبهذين الاستثنائين تكون المنظومة التى سرت على هداها تتفق مع تلك المنظومة التى أقرتها الجمعية الجغرافية الملكية ، التى أعد - من نافلة القول - أننى سوف استعملها مستقبلاً . ولكنى فى سياق هذا الكتاب وجدتنى ألجأ هنا وهناك إلى النطق اللهجى العام باعتباره أساسًا لهذا التدوين الصوتى ، وهدفى الرئيسى من ذلك هو توضيح طبيعة ذلك النطق ؛ يضاف إلى ذلك أننى ميزت الصوائت الطويلة كلها فى الفهرس فقط ، كى يستفيد منها أولئك الذين يودون الإحالة إليها . يضاف إلى ذلك ، أن أسماء المكان الواردة على خريطة منطقة نجد الجنوبية جرى تدوينها تدوينًا صوتيًا طبقًا للمنظومة التى سبق أن أقرتها الجمعية الجغرافية الملكية ، ولكنها لا تستعمل حاليًا ، ولكن بعد

(١) فى وسط الجزيرة العربية ، يستغنى الناس فى كلامهم عن مماثلة أداة التعريف .

أن تمت طباعة الخارطة بالفعل ، كان من المستحيل إدخال أي تعديل عليها طبقًا للمنظومة الجديدة .

ويجب أن أعترف هنا بفضل المقترحات التي قدمت إليّ للإفادة منها في تحسين هذين المجلدين ، وأخص بالذكر هنا المكرم السير بيرسي زد كوكس Percy Z . Cox وجي . سي . آي . إي G . C .I . E وكي.سي.إس.آي K.C.S.I ، وكي.سي.إم.جي K.C.M.G وإتش.بي.إم. H.B.M ، وكذلك المندوب السامي للرافدين ، وخالص امتناني أيضًاللسيدة جرترود ل . بل ، الذين قرءوا هذين المجلدين في أثناء تصحيح البروفات . وخالص شكري أيضًا للناشرين على صبرهم وطول بالهم .

بغداد ، ديسمبر ١٩٢٠

مقدمة

"بعد مرور سنوات عدة ظهر فى منطقة العارض مذهب جديد - أو بالأحرى - دين جديد، تسبب ربما مع مرور الزمن فى إحداث تغييرات فى الحكومات العربية وفى مصداقيتها" . هذا هو ما كتبه كارستن نيبور Corsten Neibuhr ، أبو الاستكشافات العربية ، فى سجله المدون عن رحلة استكشاف قام بها إلى جزيرة العرب فى زمن الحكومة الدانمركية ، أى فى منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب .

وقد جاءت المعلومات التى جمعها نيبور من مصادر مغرضة ومتحاملة تبعد مسافة كبيرة عن مسرح الأحداث ، التى سجلتها تسجيلاً موجزًا ومقتضبًا ، جاءت غير كاملة على نحو لم نكن نتطلع إليه ؛ ولكننا يتبقى أن ننسب إليه فضل أنه كان أول من حمل إلى أوروبا أخبارًا عن البدايات الأولى عن حركة لم تؤكد فقط مجرد نبوءته بمغزى تلك الحركة وفحواها خلال نصف قرن من قيامها ، وإنما أكدت أيضًا صمود تلك الحركة لكل تقلبات الحظ مع تغيير طفيف فى الشكل أو المحتوى إلى يومنا الحالى ، ويحتمل لها فى ظل ظروف العالم الحديث التى تغيرت أن تحقق الهدف الذى رسمه لها منشئوها .

فى تلك الأيام ، كانت تسكن صحراء الجزيرة العربية قبائل بدوية مترحلة ، تحتفظ لنفسها بوجود متأرجح فى ظل ظروف تختلف اختلافًا طفيفًا إن لم يكن كاملاً عن تلك الظروف التى أسفرت عن العصور القبلية وشيوخ القبائل ، يوم أن كانت تلك الصحراء مقسمة أيضًا إلى عدد من الولايات أو الإمارات المستقلة ، التى كان البعض منها يدين بالولاء للشيخ عرير Arair ، كبير شيوخ بنى خالد فى منطقة الأحساء . وكانت للصراع اليد العليا إلى أن ولد ذلك "الدين الجديد" ، الذى بدأ معه السلم والحرب يتناوبان على الجزيرة العربية بحسب صعود نجم ذلك الدين أو أفوله .

واستطرد نيبور يقول : "بعض الشيوخ المستقلين حديثى الدخول فى الدين ، الذين كانوا يحاربون بعضهم بعضاً بصورة مستمرة ، أصبحوا أصدقاء بواسطة عبد الوهاب ، واتفقوا على ألا يقدموا على فعل أى شيء مهم قبل أن يكونوا قد استشاروا إمامهم الجديد . من هنا اضطرب الميزان السياسي بين أمراء العارض الصغار : لأن شيوخاً كثيرين كانوا من قبل يستطيعون مجابهة جيرانهم ، لم يعودوا فى حالة تمكنهم من تعضيد بعضهم البعض فى مواجهة ذلك الكم من الشيوخ المجتمعين ."(*)

قد يكون من المستحيل إيجاز أو تلخيص طابع وأساليب سياسة مجاهدة تناضل من أجل السلام على نحو أفضل وأدق مما جاء به نيبور . وتتمثل الأداة التى جرى اختيارها لتنفيذ سياسة الجهاد هذه ، فى شريف صغير من أشراف عشيرة عنزة 'Anaza'، كان مجلسه يعقد على الطريقة البدوية فى قلعة بناها أسلافه على صخرة الدرعية وسط مجارى سيول وادى حنيفة . ومثلما حدث لـ روب روى Rob Roy ، الذى ينحدر من عشيرة ماك جريجور Mac Gregor ، فى أراضى إسكتلندا المرتفعة ، والذى أسفرت معاركه وحروبه مع دوقات أرجيل Argyll ومونتروز Montrose جيرانه من الجانبين، عن بث آلام الموت فى النظام القبلى فى جزرنا ، مثلما حدث لذلك الرجل ، أدرك محمد الشيخ الثالث أو الرابع ، حسب ترتيبه فى نسب سعود الأول ، السلف البطل لأسرة ابن سعود المالكة ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، أدرك أنه يحيط به جيران أقوياء طموحون ، أقواهم وأشدهم بأساً فى إمارة العيينة وإمارة منفوحة ، اللتين كانتا تتصارعان دوما على الخرائب والأطلال التى تمخضت عنها العمليات الحربية المستمرة التى دارت بينهما من أجل السيطرة والسيادة على وسط الجزيرة العربية .

(*) هذه الفقرة وردت باللغة الفرنسية وقد ترجمها إلى العربية الدكتور رفيق بركات - جريدة الجمهورية - جمهورية مصر العربية. (المترجم)

ولكن أمير العيينة تغاضى عن الفرصة عندما سنحت له ، ولكن الفرصة سنحت لإمارة الدرعية ، التى اقتضت فيها تقاليد الكرم الحاتمى العنزى امتلاء مجالس محمد ابن سعود بالضيوف من البدو ، عندما جاء إليها فى حوالى العام ١٧٥٩ الميلادى نبى لم يجد لنفسه كرامة فى وطنه . عاد محمد بن عبد الوهاب الذى ولد فى حى المحمل لأبوين من تميم فى منطقة حريملاء ، فى العقد الثالث من القرن الثامن عشر ، وأمضى فترة شبابه يدرس فى جامعات بغداد ودمشق ، عاد إلى العيينة برسالة استهدفت إلهاب حماس إخوانه مواطنى العيينة ، ولكنه طرد على الفور من تلك المدينة باعتباره شخصاً قد يشيع الاضطراب فى إمارة هى راضية عن سننها واتجاهاتها .

ولكن أمير الدرعية ومن بعده خلفه سعود الثانى رحبا بذلك العرّاف من منطلق أنه أداة مناسبة لتوسيع مطامحهما الدنيوية ، وظهر المذهب الوهابى باعتباره نتيجة من نتائج التعاون الوثيق فيما بينهما . وعلى الرغم من ابتعاد العرب عن عقيدة الإسلام الحق ، فقد كانوا فى داخلهم متمسكين بتعاليم مذهب أحمد بن حنبل المتشدد ، ولذلك لم تتطلب إثارة جمار التشدد فى العقيدة الكامنة فى قلوب ساكنى صحراء الجزيرة العربية جهداً كبيراً . وجرى تنقية العقيدة الحقة من نفايات عبادة الأصنام ، كما جرى أيضاً تنقية وإبراز مبادئ العقيدة المحتضرة لتسطع من جديد وتكون هادياً ودنياً لكل الجائلين فى قفار الشك . كانت وحدانية الله وخشيته ، وأهمية العقيدة وحسية [illegible] المؤمنين ، كل ذلك[1] كان بمثابة لبنات الأساس فى ذلك الصرح الكبير . الذى شرع الأمير هو وابن عبد الوهاب فى تشييده على رمال المجتمع البدوى المتنقلة : والصرح الكبير الذى شيد على تلك الأسس هو إمبراطورية الجزيرة العربية .

وقبل أن يلحق كل من سعود الثانى ومحمد بن عبد الوهاب بواليهما فى أواخر القرن الثامن عشر كانا قد حققا أحلامهما ؛ فقد سقطت كل من العيينة ومنفوحة أمام

(١) حدد مؤسس المذهب الوهابى أسس ذلك المذهب فى كتيب عنوانه "المبادئ الثلاثة والدليل عليها" ، والذى أعاد ابن سعود طبعه مؤخراً (١٩١٨) فى بومباى بالتعاون مع حركة الإخوان .

هجوم جيوشهما العنيف ، كما خضعت لهما الأحساء أيضًا ، كما اختفت من مسرح الأحداث أيضًا الإمارات الأصغر من هاتين الإمارتين ، وهنا صحت الإمبراطورية العثمانية نفسها صحوة مباغتة على استشعار الخطر المحدق .

ونهج عبد العزيز الثانى ابن وخلف سعود الثانى ، نهج أبيه وأصاب نجاحًا ، وصل إلى حد تعرض معه ضريح الشيعة ، فى كربلاء ، على حدود بلاد الرافدين ، للتحرش الوهابى فى العام ١٨٠١ الميلادى ، كما جرى بعد ذلك بعامين ، ضم مكة نفسها إلى الإمبراطورية الصاعدة . ولكن انتهاك قدسية كربلاء كان بمثابة الذنب الذى لا يمكن التكفير أو الصفح عنه ، وشهد العام الذى دخل فيه عبد العزيز مكة منتصراً ، سجوده لربه فى مسجد الدرعية الكبير للمرة الأخيرة ، وقد انغمس خنجر القاتل فى ظهره ، فيما بين كتفيه .

وبعد أن أكمل عبد الله ، ولد عبد العزيز ، آخر حملات أبيه بالاستيلاء على المدينة المنورة فى العام ١٨٠٤ الميلادى ، حول انتباهه على وجه السرعة إلى مناطق الميدان البعيدة ونصَّب نفسه سيداً على عُمان وعلى اليمن قبل أن تمضى فترة طويلة على تبوئه العرش ؛ وقد أدى ذلك إلى إثارة مخاوف تركيا . وفى العام ١٨٠٥ الميلادى أصبح محمد على باشا والياً على مصر ، وصدرت له الأوامر بجعل الإمبراطور الوهابى يركع على ركبتيه . وفى العام ١٨١٠ الميلادى ، قاد طوسون الحملة التى سبق التحضير لها تحضيراً جيداً ، وكان طوسون قد لقى فى العام ١٨١٢ هزيمة ساحقة فى الممرات الجبلية بين ساحل البحر الأحمر والمدينة المنورة بسهولة كبيرة . وفى الوقت نفسه ، حالف النجاح الشأن التركى فى الجنوب ، ثم جرى على وجه السرعة احتلال كل من جدة ومكة والطائف على التوالى ؛ ولكن فى شتاء العام ١٨١٣ - ١٨١٤ الميلادى انهزم طوسون فى تربة ، وقد ترك لنا بركخاردت Burkhardt الذى زار منطقة الحجاز فى صيف العام التالى تلخيصاً مدهشاً لأحداث تلك الفترة ، يسجل فيه أن اليأس والقنوط تفشيا وشاعا فى الجيش التركى بسبب مجموعة من الأسباب نتجت عن جشع القيادة العليا وتكالبها وعدم كفايتها .

شن الوهابيون – فى الوقت نفسه – حرب عصابات أصابت نجاحًا كبيرًا ، ضد قوات العدو المبعثرة ، ولم تصبح الظروف مواتية للأتراك ، مرة ثانية إلا فى ربيع العام ١٨١٥ الميلادى ، عندما وضع انتصارهم فى بوسال Busal فى المنطقة بين الطائف وتربه ، حدًا لتأثير ونفوذ عبد الله فى الجنوب ، فى الوقت الذى وصل طوسون فيه ، بغاره خاطفة ، إلى القصيم ومنها إلى داخل المدينة المنورة ، وأجبر الملك الوهابى على الموافقة على عقد هدنة ، كانت شروطها لصالح الأتراك .

وبدا أن عبد الله ، عند هذه المرحلة ، فقد كثيرًا من الحماس الذى كان يستلهمه من أسلافه ومن العمليات السابقة التى قام بها ، وهنا انتقلت المبادأة ، بلا أدنى شك ، إلى محمد على ، الذى كان قد أمضى عامين فى التحضير والتجهيز لاستئناف المعارك والقتال ، وسيَّر فى العام ١٨١٢ حملة بقيادة أحد أبنائه ، هو إبراهيم باشا ، الذى كلفه بتحقيق الهدف الذى كان يعمل له منذ ثلاثة عشر عامًا .

وحاصر الجيش التركى الدرعية ، وأجبرت مدفعيته سكان الدرعية على اللجوء إلى المضايق ، الأمر الذى أجبر عبد الله على الاستسلام بشرط احترام حياة وشرف رعاياه . وجرى الاحتفاظ بعبد الله والأفراد المهمين من الأسرة المالكة ليضفوا المزيد من الشرف فى القاهرة على انتصار المنتصر ، أما بقية الأسرة المالكة ، هم واتباع المذهب الوهابى ، وزعماء الناس الآخرين ، فقد جرى التخلص منهم عن طريق حيلة بسيطة تمثلت فى مذبحة عامة أقيمت لهم . وجرت تسوية أسوار الدرعية وقصورها ومساجدها ومنازلها بالأرض تمامًا ، لتبقى أطلالها إلى يومنا هذا أثرًا شاهدًا على أيام عظمة الإمبراطورية الوهابية ، وعلى سطوع نجمها السريع ، وعلى سقوطها السريع أيضًا ، وعلى قاهرها الذى تكال له اللعنات والشتائم من أحفاد ضحاياه بعد مرور قرن كامل من الزمان .

واحتفظ الأتراك لأنفسهم ، طوال الثلاثين عامًا التى تلت ذلك ، بموقع قدم متأرجحة وسط حطام الإمبراطورية التى دمروها ، ولم تعرف الجزيرة العربية السلم طوال تلك الأعوام الثلاثين . وقريبًا وبعيدًا راحت البقية الباقية من الأسرة المالكة

الوهابية تتحدى الولاة الأتراك ، ويشهد تاريخ تلك الفترة بأنه كان سجلاً لحرب العصابات التى دارت بين العرب والأتراك . وفى حوالى العام ١٨٢٠ الميلادى ، قام تركى – ولد عبد الله – الذى لم يحضر المأساة الأخيرة ، بحشد ، يرفع الروح المعنوية بين أفراد شعبه ، عن طريق تولى عرش والده وتأسيس عاصمة جديدة له فى الرياض ؛ وبعد ذلك بعشر سنوات ، حكم عبد الله بن ثنيان ، سليل أحد أفرع الأسرة السعودية ، الأراضى الوهابية فترة قصيرة من الزمن ؛ ولكن فيصل بن تركى ، الذى نقل بصحبة جده إلى المنفى فى مصر ، هو الذى هرب من سجنه فى مصر ، وعاد ليعيد تنظيم شراذم بلاده ويضع حداً للسيطرة التركية عليها .

وبعد محاولتين فاشلتين ثبَّت فيصل نفسه على عرش الرياض فى العام ١٨٤٢ الميلادى ، وعند وفاته ، وبعد ذلك بحوالى ربع قرن من الزمان ، كان قد استعاد شيئًا من الحماس والحيوية التى تميزت بهما الدولة الوهابية فى أيامها الأولى ؛ ولكن فى تلك الأثناء كانت دولة جبل شمر المنافسة قد سطع نجمها بفضل القادة المهرة مؤسسى أسرة ابن الرشيد المالكة ، ولم يبلغ فيصل ، فى أى وقت من الأوقات ، من القوة مبلغاً يستطيع معه تأكيد زعم أسلافه السيطرة والهيمنة على حائل . وليكن ما يكون ، فنحن لدينا شهادة معاصرة من كل من بالجريف وبيلى Pelly ، مفادها أن الدولة التى خلفها فيصل لمن جاءوا بعده ، على الرغم من انكماش أبعادها الأصلية ، قد اختلفت قليلاً ، إن لم يكن كلية ، عن تلك الدولة التى ورثها جده عن سعود الكبير ، إضافة إلى أن دولة فيصل كانت أحسن تنظيمًا من جميع الجوانب اللهم باستثناء جانب واحد .

وسوف يتيح لى تجوالى وترحالى فى قلب الجزيرة العربية فرصة الكتابة عن الخلاف والنزاع وخيم العاقبة على تولى العرش ، الذى نشأ بين ولدى فيصل الكبيرين عند وفاته ، كما سيتيح لى ذلك التجوال أيضًا فرصة الكتابة عن الاحتلال الرشيدى الذى نتج عن ذلك النزاع خلال ثمانينيات القرن الماضى ، وعن استرداد العرش الوهابى فى عام ١٩٠١ الميلادى بفضل الأخ الأصغر فى تلك الأسرة المالكة ، والذى لا يزال يجلس عليه لصالح رعاياه .

وأقل ما يقال ، إن الصحوة المثيرة للقوة الوهابية جاءت مقلقة للسياسة التركية التي كانت قد توصلت مع ابن الرشيد إلى حل مؤقت لحين التوصل إلى تسوية نهائية ؛ وعقب ذلك أرسلت القوات التركية لمساعدة الشمَّر في وقف تقدم ابن سعود في العام ١٩٠٤ الميلادى ، في اتجاه الشمال . ولكن ابن سعود استرد القصيم في العام ١٩٠٦ ، كما أن غزو قوات شريف مكة للقصيم في العام ١٩١٠ لم يوقف إعادة تأسيس النفوذ والسلطة الوهابية في كل أنحاء الأراضي التي اعترفت بفيصل ملكًا عليها . ومع ذلك ، بقيت في ذهن ابن سعود مسحة من الشك مفادها أن الأتراك كانوا يتحينون الفرصة التي تتيح لهم سحق ابن سعود ، مثلما سبق أن سحقوا جده الأكبر قبل قرن من الزمان ، وهنا كان من الطبيعي أن يبحث ابن سعود حوله عن الوسيلة التي يتوقى بها الخطر الذي كان يتهدده .

وهنا تطلع ابن سعود إلى بريطانيا العظمى ، رغم أن تطلعه ظل بلا جدوى طوال فترة من الزمن . وكانت السحب السوداء قد بدأت تنتشر في الأفق السياسي ، وتحولت تركيا بسرعة إلى مخلب قط للمطامع الألمانية . وبدأ خط بغداد الحديدى ينقل ببطء القوات الألمانية داخل نطاق منطقة الضرب في المركز العصبي للإمبراطورية البريطانية . وهنا أدرك ابن سعود ، الذى كان قد تربى في منفاه في الكويت ، المحطة النهائية في الخط الإستراتيجي الألماني ، أدرك أن أمنه وسلامته هو شخصيًا ، يدخلان في الصراع المنتظر ، من هنا حرص ابن سعود على تردد البريطانيين على بلاده وشجع على زيارتها ، ووطد صداقته مع المرحوم النقيب و . هـ . شكسبير ، الذى كان مندوبًا سياسيًا في الكويت خلال تلك السنوات المشئومة ، التي سبقت هبوب العاصفة .

لم يكن أحد يعرف موعد هبوب تلك العاصفة على العالم ؛ ولكن مع بداية مطلع العام ١٩١٤ الميلادى استشعر ابن سعود أن قوته كانت كافية لتوجيه ضربة إلى تركيا لحسابه الخاص . وانقض ابن سعود فجأة على الأحساء ، التي كان الأتراك يسيطرون عليها ويحتلونها منذ أن قام مدحت باشا بضمها إلى تركيا في العام ١٨٧١ ، واكتمل انتصار ابن سعود وغادرت القوات التركية بلاده إلى الأبد . وقبل أن تتاح للأتراك

فرصة تنظيم حملة ينتقمون بها لهزيمتهم أطاحت بهم حماقتهم إلى أتون الحرب الأوروبية .

وسرعان ما أوفد السير بيرسى كوكس Cox - الذى رافق قوة حملة بلاد الرافدين، باعتباره الضابط السياسى الرئيسى - النقيب شكسبير ليحرض ابن سعود ويحثه على شن عمليات عسكرية نشطة ضد الأتراك ، وعلى حليفهم الطبيعى ، ابن الرشيد . وشن ابن سعود حملته فى شهر يناير من العام ١٩١٥ الميلادى ، وأنا كنت أزعم دوماً ، أنه لولا الحادث الجلل الذى تمثل فى وفاة النقيب شكسبير فى المعركة الأولى التى دارت بين القوات المتناحرة ، لما أتيحت للعقيد لورانس فرصة المبادأة ومواصلة الحملات الناجحة التى ارتبط بها اسمه والتى استطاع بفضلها الدخول إلى دمشق منتصراً على رأس جيش الحجاز .

واهتزت - فترة من الزمن - ثقتنا فى مقدرة العرب على التعامل مع قواتنا فى الحرب الحديثة ، وبالرغم من استمرار تأكيد العلاقات الودية بيننا وبين ابن سعود وذلك عن طريق توقيع اتفاقية رسمية فى العام ١٩١٦ الميلادى ، فإننا لم نكن نتطلع إلى مساعدة ابن سعود لنا ، وإذا ما تطلبت الأمور القيام بجهد ما من جانبنا لضمان تعاون العرب تعاوناً فعلياً معنا فى العمليات التى نقوم بها ضد الأتراك .

وهنا قام شريف مكة بملء الفراغ الذى انسحب منه ابن سعود ، ومجرى الأحداث على مسرح الحرب فى الجزيرة العربية معروف بما فيه الكفاية ولا يحتاج منا إلى أن نُجْمِل ذلك الذى سبق أن تكلم عنه الآخرون بالتفصيل . ومع ذلك ، شجع النجاح الذى حققته قوات الحجاز فى البداية ، سلطات بلاد الرافدين على التطلع إلى مجهود مماثل من جانب ابن سعود ، الذى يمكن لتعاونه - إذا ما أمكن الحصول عليه بشروط معقولة - أن يكون ذا قيمة كبيرة فيما يتعلق بعمليات الحصار التى كان يجرى إحكامها على نهر الفرات . وكنا نتطلع ، علاوة على ذلك ، إلى أنه فى ضوء زيادة التوتر بين ابن سعود والملك حسين ، فإن جهود وطاقات ابن سعود ربما أمكن الاستفادة من تحويلها إلى هجوم على حائل ، التى كان ابن الرشيد يشكل فيها ، بفضل تشجيع الأتراك له ومعاونتهم إياه ، شوكه كبيرة فى أجنابنا .

وبناء عليه ، تقرر فى الوقت المناسب إرسال بعثة بريطانية إلى الرياض لدراسة احتمالات الموقف على الطبيعة ، ومن حظى السعيد أن عينت للمشاركة فى مهمة هذه البعثة التى غادرت بغداد فى شهر أكتوبر من العام ١٩١٧ الميلادى . وبصفتى خبيراً عسكرياً وممثلاً لقائد عام قوة بلاد الرافدين ، رافقنى مراسله العسكرى هـ . شوفيلد Schofield، ذلك الشاب اليوركشيرى الوسيم الواعد ، على حين تقرر أن يلحق بنا فى الرياض المقدم أر. إى . إيه . هاميلتون ، الذى كان قد سبقنا إليها بالفعل لأمر يتعلق بحادث ناتج عن عمليات الحصار التى كنا قائمين بها .

كان الوقت ثميناً ، ولم يكن بوسعنا انتظار إقرار الخطط التى كانت قيد الدراسة ، وتنص على أن ينضم إلينا ممثلون للمندوب السامى فى مصر وملك الحجاز ، فضلاً عن مندوب طبى وجماعة من جماعات الاتصالات اللاسلكية . وتقرر للاثنين الأولين (ممثل المندوب السامى وممثل ملك الحجاز) أن ينضما إلينا فى محطة الوصول عن طريق الحجاز ، ولكنهما لأسباب سوف أوضحها خلال الحديث عن الرحلة ، فشلا فى الحفاظ على موعدهما : ولم يتوفر لنا فى ذلك الوقت مندوب طبى ، يضاف إلى ذلك أن فكرة اتصال البعثة بالعالم عن طريق اللاسلكى جرى التخلى عنها أيضاً . يضاف إلى ذلك أنه خلال شهر من نزولنا إلى الجزيرة العربية ، توقفت البعثة عن الوجود ، وأدى رحيل العقيد هاميلتون فى البداية ، ثم من بعده العقيد كينلف أوين Owen ومعه مراسله شوفيلد Schofield، إلى كونى الشخص الوحيد الذى تبقى من تلك البعثة التى ربما كانت مهيبة ، لأظل طوال الجزء الأكبر من ذلك العام الممثل الوحيد لبريطانيا فى قلب الجزيرة العربية ، حاملاً لعرب الأرض الوهابية رسالة النية الحسنة العظيمة ، والتى سرت طوال أيام الحرب المظلمة ، ولنؤكد لهم أرض السباق الواسعة تحت أقدام الأتراك العثمانيين والحرية التى تنتظرهم بعد انتهاء العاصفة . وعندما بدأنا نهيب بالعرب ونطلب منهم القيام بدورهم فى العمليات التى تستهدف تحقيق تحريرهم من الاستبداد التركى نفينا وأنكرنا على أنفسنا وعلى حلفائنا وجود أية دوافع للكسب المادى أو المطامع الإمبريالية. ومر عامان ، أنسيانا الارتياح الداخلى الذى هللنا خلاله لانتصارنا

الشاق . والعرب الذين طال صبرهم وبدأوا يتململون ، مازالوا ينتظرون تحقيق الوعود التى قطعناها لهم . وأنا باعتبارى واحداً من صغار المتحدثين بلسان حكومة صاحب الجلالة ، عن توصيل النية الحسنة للعرب وتأكيدها لهم ، يحق لى أن أعبر عن الأمل ، بل وعن القناعة الكاملة ، أنه أيًّا كانت المغريات القائمة ، ومهما كانت المغريات المغايرة للسياسة أيضًا ، فإن بريطانيا لن تحنث فى الوعود التى قد قطعتها على نفسها فى الشرق .

الفصل الأول

عتبة الجزيرة العربية

١- من البحرين إلى العقير

ظُهيرة اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر من عام ١٩١٧ الميلادى لم تستطع الموجات الصغيرة تحريك سطح خليج البحرين ، عندما تَرَكَنا الزورق البخارى التابع للباخرة لورانس التابعة لبحرية صاحب الجلالة لحال سبيلنا عند المدخل المؤدى إلى القنال الضيق الذى يغلق الأعشاب المرجانية تحت سطح الماء ، ليعود مسرعًا إلى السفينة الجيدة التى أقلتنا إلى هذا المكان البعيد عن البصرة . كان البحر متورداً وهجًا على الجانبين محذراً الملاحين من أخطاره الخبيئة ، وكان القنال أخضر اللون ، ومن خلفنا كان هامش السلامة الضيق ، هو البحر الهائج المائج . وبقينا هادئين بلا حراك . فى حين كان الشراع يرفرف بكامل امتداده ليحتضن النسيم ؛ وفى مؤخرتنا كان بيرق الأراضى الوهابية يرفرف متكاسلاً ، بلونه الأخضر الكالح وحدوده البيضاء ، وقد انعكست صورته على صفحة البحر الأخضر الكالح . كانت البحرين من ورائنا ، الموقع الأخير من مواقع الحضارة ؛ وكانت الجزيرة العربية من أمامنا . وعن يميننا وعن شمالنا كتل جبال الظهران[١] وجبال دخان[٢] الصخرية ، كانت الأولى على الأرض الأم فى اتجاه الشمال الغربى ، فى حين كانت الأخرى ناحية الجنوب الغربى على جزيرة البحرين، وكلها عبارة عن تلال قليلة الارتفاع ولكنها تبدو لنا عالية ، وبوابات مناسبة للمجهول الذى خَلْفَها .

كانت مركبتنا عبارة عن دهو(*) صغير ، وكنا نحن الثلاثة ومعنا طاقم البحارة المكون من سبعة أفراد ، يرأسهم القبطان على الذى استطاع فى سفن مماثلة لهذا الدهو - ولكن تكبره - أن يتحاشى أخطار المحيط فى أسفاره التى وصلت إلى زنزبار . وقد التقيت كثيراً من البدو فى وسط الجزيرة العربية ، الذين حدثونى فيه عن زمن تحدثوا فيه عن ثقتهم بالمستقبل فى البحر وهم يبحثون عن لقمة العيش التى تعذر عليهم كسبها من البر . وهناك كثير من العتوب (العتبان) ، وكثير أيضاً من الدواسر ، وآخرون كثيرون ينزلون إلى البحرين للعمل فى أثناء موسم صيد اللؤلؤ ؛ وكان البعض منهم يرتاد حياة البحر ليكسب ما يستطيع به شراء الإبل والزواج .

وملأ النسيم العابر شراعنا فترة وجيزة من الزمن فى فترة ما بعد الظهيرة ، ولكنه خيب أملنا قبل غروب الشمس ، واقتربنا من جرف ناتئ داخل البحر كى نلقى مراسينا على تلك الجزيرة الموازية لجبل الدخان . وعند منتصف الليل استأنفنا إبحارنا إلى الأمام مرة ثانية ومن خلفنا نسيم لطيف ، استمر معنا حتى وقت الظهيرة ، حيث وقفنا بلا حراك على مرمى البصر من برج المراقبة فى العقير . وفى ظل الظروف المعتادة يقطعون المسافة بين البحرين والعقير فى ثمانى ساعات ، فى حين كانت قد مضت علينا ست وعشرون ساعة بعد أن غادرنا السفينة لورانس التابعة لبحرية صاحب الجلالة ، ولم يعاودنا النسيم مرة ثانية إلا بعد الساعة الثانية مساء . ومع ذلك بدأنا نبحر إبحاراً منتظماً ، وسرعان ما وصلنا إلى لسان الحضض الخفيض الذى يفصل ميناء العقير العميق عن الخليج الضحل الذى تنتشر على أرضه الشعاب المرجانية .

هذا هو عمود غير منتظم موضوع فى البحر بعيداً عن الطرف الجنوبى لذلك اللسان، ويستعمل إشارة لإرشاد السفن إلى الميناء الذى تحولنا داخلين إليه أمام ضربة مفاجئة جاءتنا من اتجاه الجنوب[٣] ، وراح كل لوح من الألواح الخشبية وكل حبل من الحبال يتوتر ويُزَيِّق ونحن نتسابق وصولاً إلى الرصيف . وأخيراً وبعد سباق دام اثنتين وثلاثين ساعة ، وبينما كانت الشمس تغرب خلف التلال الرملية على الأرض الرئيسية وصلنا إلى هدفنا ووقفنا على أعتاب الأرض الوهابية .

(*) الدهو : قارب يستعمله البحار العربى انظر الصورة المرفقة فى نهاية الكتاب . (المترجم)

٢- العقير

ومـا إن ربطنا الدهو إلى واحـد من المدفـعين القـديمين المركـبين بحـيث تكون ماسورتاهما متجهتين نحو الأسفل ، ويقع كل واحد منهما عند نهاية حاجز الأمواج لاستعماله عموداً للربط ، حتى ظهر أمامنا الأمير - أو الحاكم المحلى - عبد الرحمن ابن خير اللّـه بشخصه ليرحب بنا باسم ابن سعود ويدعونا إلى زيارة مسكنه فى القلعة . كانت الحامية المحلية مكونة من حوالى أربعين رجلاً مسلحين ، جرى جلبهم عند مدخل القلعة كى يرحبوا بنا ويستقبلونا ، وبعد أن مررنا من فناء القلعة ، صعدنا الدرج لنصل إلى غرفة استقبال الأمير فى الطابق الثانى ، وهى عبارة عن غرفة صغيرة قذرة ومعتمة مفروشة بعدد وفير من السجاد ، وبها قليل من التكّايات التى اتكأنا عليها ، ورحنا نتحدث مع مضيفنا ، واثنين من كبار خدمه ، بينما كان يجرى صبُّ القهوة والشاى . وعبد الرحمن مواطن من القطيف ، يشغل منصب الأمير منذ ما يقرب من أربع سنوات اعتباراً من مطلع ربيع عام ١٩١٤ الميلادى ، عندما قام ابن سعود باقتطاع العقير وبقية منطقة الأحساء من الأتراك . وطوال هذه المدة لم يزر عبد الرحمن موطنه سوى مرة واحدة استمرت شهراً خلال شهر رمضان من العام السابق . والقلعة ليس بها مكان لإقامة السيدات ، وتحدث لنا عن رغبته فى الانتقال إلى منصب مناسب يستطيع معه التمتع بصحبة مجتمع زوجته وأسرته . ويصرح عبد الرحمن قائلاً : "ومع ذلك ، كانت هذه إرادة الإمام(٤) ، وذلك قانون لابد أن ألتزم به" . كما تحدث عبد الرحمن أيضاً بحماس كبير عن التغيير الكبير الذى طرأ على المنطقة كلها على أثر تغيير الحكام ؛ فالحامية التركية الضعيفة لم تستطع أن تفعل أى شيء مطلقاً سوى الاحتفاظ بالبلدان والمواقع الواقعة على خط المواصلات ، الأمر الذى جعل لصوص البدو يعيثون فساداً فى الطرق والريف المحيط بها ، فى حين استطاع ابن سعود عن طريق مواجهة الغزو بغزو مضاد أن يصل إلى أعماق الصحراء الخالية من الماء والحياة التى كان اللصوص يحتمون بها إلى أن ينسى الناس جرائمهم ، كما استطاع ابن سعود أيضاً عن طريق سياسته الحكيمة التى تقوم على تقديم

المعونات للقبائل ، وتحجيم القبائل وإلتزامها بالنظام بشكل لم يسبق له مثيل . وعلى أى حال فقد توقفت القبائل عن إثارة القلق والمتاعب فى العقير ، وفى بلدان وقرى الأحساء ، كما توقفت القبائل أيضاً عن التعدى على حركة الملاحة الساحلية وإزعاجها .

وعندما هممنا بالانصراف نوهت إلى انشغالنا ببدء رحلتنا على الفور ، وبدهاء ولباقة ومكر العرب الذين أحسنت تربيتهم ، رد الأمير عليَّ قائلاً : إنه كان يتوقع بل وينتظر قدومنا قبل يومين ، وكانت لديه بالفعل الإبل اللازمة لبدء الرحلة على الفور ، ولكنه فقد الأمل منذ ذلك الحين فى وصولنا فى وقت مبكر ؛ وبالتالى أرسل الجمال إلى المراعى. ويلخص سعدى Sa'di الأمر : "كذبة سياسية خير من حقيقة مزعجة" . ومع ذلك ، فقد خفف عبد الرحمن من كذبته السياسية الواضحة بأن أكد على مجىء الجمال فى اليوم التالى ؛ وبناء عليه أمر بعمل الترتيبات المؤقتة اللازمة لبدء الرحلة عند فجر اليوم التالى ، وعدنا إلى زورقنا مؤجلين هموم إبحارنا وتمتعنا بالمناظر إلى صباح اليوم التالى .

والعقير التى تقع على شريط قفر ضيق من الأرض التى تظهر بعد انحسار الجزر ، فيما بين التلال الرملية والبحر ، لا يمكن أن تكون أكثر مما هى عليه الآن بأى حال من الأحوال ، مجرد خان لاستراحة القوافل ، تزداد أهميته التجارية وتقل أهميته الإستراتيجية ، ويعيش سكانها غير الدائمين من القوات والتجار عيشة كفاف وضنك معتمدين على أعمال التجارة أو الرسوم الجمركية ، وذلك على العكس من كل القطيف والجبيل[٥] التى لعبت الزراعة فيها دوراً أهم من التجارة فى دعم وتقوية كثير من المستوطنات التى يرجع تاريخها إلى عدة قرون . واسم العقير هى وميناؤها يغريان الإنسان بالتأمل فيما إذا كان هذا المكان هو الموقع نفسه الذى قامت عليه مدينة جيراً Gerra التى أنشأها بطليموس ، ذلك المثيل الذى أنا على يقين من أن له نظراء آخرين ، ولكن التأمل هنا يصبح بلا قيمة فى غياب الآثار أو إن شئت فقل : الأطلال المادية ، ومن غير المحتمل أن تكون قد نشأت أية مستوطنة من المستوطنات الرئيسية فى ذلك الموقع الذى لا يوجد فيه اليوم سوى بئر واحدة[٦] . ومرفأ جيراً القديم ، الذى انطلقت

منه – قبل بداية العصر المسيحى وعلى امتداد قرون قليله منه – طرق القواقل التى وصلت إلى أقصى أطراف الجزيرة العربية ، إلى عُمان ، وإلى حضرموت ، وإلى اليمن ، وإلى بيترا Petra ، يمكن التحقق منه بلا أدنى شك من أطلال ميدان واسع يقال إنه جرى اكتشافه منذ زمن طويل عند الزاوية الجنوبية من خليج البحرين . وقد فقد ذلك المرفأ أهميته عندما هجر الناس استعمال طرق القوافل الجنوبية وعندما حلت القطيف محله ، بفعل القوة عند الطرف الشمالى من الخليج المواجه للبحرين ، هذا فى الوقت الذى لا تكون فيه للعقير أية قيمة أثرية ، وعلى الرغم من الاسم الذى تحمله والذى ينطقونه عقير ، أو عجير أو ريجع (بتعطيش الجيم) يبدو كأنه ما يزال يحتفظ باسم المستوطنة الرئيسية والمرفأ.

والمبانى الوحيدة فى العقير عبارة عن قلعة مربعة على شكل برج صغير ومخزن كبير للبضائع[٧] ؛ والقلعة والمخزن يشكلان كتلة بيضاوية مستمرة من الطين ، يصل طولها إلى حوالى ١٥٠ ياردة ، وعرضها إلى حوالى ٧٠ ياردة ، ويواجهان حاجز الأمواج الذى يمتد ناحية الجنوب داخل المرفأ من جزء ناتئ داخل البحر منبثق عن أرض خفيضة تبرز من الأرض الرئيسية ممتدة إلى مسافة حوالى ١٠٠ ياردة من لسان الحضض الممتد فى البحر . والأرض الرئيسية تحيط بالمرفأ ، وجرف العقير الناتئ هو ولسان حضض الناتئ أيضًا ، حيث يقع مدخل المرفأ بين الطرف الجنوبى للسان والساحل المواجه ، هذا المرفأ تحميه من الناحية الجنوبية جزيرة زخنونيًا Zakhnuniyya التى تبعد عنه عدة أميال . وهناك مجرى ضيق يقع بين جرف عقير ولسان حضض ، يربط المرفأ بالبحيرة التى تمتد مسافة ميل تقريبًا فى اتجاه الشمال إلى النقطة التى يظهر عندها لسان حضض بارزًا عن الأرض الرئيسية . وإلى ناحية الشرق من مخزن البضائع تقع بقعة من الأرض المالحة ، يستفيد الناس منها فى المخيمات ، فى حين يمتد فى اتجاه الغرب فى المنطقة ما بين القلعة والتلال الرملية خط عريض من البوص والشجيرات ، وعند الطرف البعيد من ذلك الخط تقع البئر التى سبقت الإشارة إليها . ويحميه برج مراقبة أبو زحمول Abuzahmul الدائرى[٨] . وتكمل المنظر هنا مقبرة مخربة تؤبن بعض أفراد الحامية التركية الذين أقاموا فترة قصيرة فى تلك المنطقة .

وفى صبيحة اليوم التالى نزلنا إلى البر ، وبعد أن أمضينا شيئًا من الوقت فى ترتيب متاعنا ونصب خيامنا رجعنا إلى القلعة التى كان الأمير قد عزمنا على تناول طعام الإفطار فيها . كان الإفطار عبارة عن وجبة بسيطة من الأرز ، ولحم الضأن ، والخضراوات والتمر ، وقُدِّم لنا على حصير دائرى الشكل مدوّه وسط المجلس . وعقب تناول الإفطار شربنا القهوة وتجاذبنا أطراف الحديث ، ثم سمعنا صوت المؤذن يدعو المؤمنين لأداء صلاة الجمعة فى جامع القلعة ، وكان الأذان بمثابة إنذار لنا بالانصراف .

وعلى حد يقينى فإن إمارة العقير لا تزيد عن كونها منصب شكلى - رغم أهميته - يدرُّ دخلاً ولا يتطلب عملاً ، ولا ينطوى على أى قدر من العمل أو المسئولية ، باستثناء قيادة القوة المحلية وإشراف غير واضح على إدارة الجمارك التى يديرها ويشرف عليها مدير . وهذا المدير هو بدوره أيضًا من أبناء القطيف ويساعده بلا حدود أخوه ومجموعة من العبيد الذين ينفِّذون الأوامر تنفيذًا أعمى ، وتتمثل مهمة ذلك المدير فى تفتيش كل السفن القادمة ، وتحديد قيمة الرسوم المستحقة على حمولاتها وكذلك تحديد الرسوم المستحقة التى تجلب من الداخل للتصدير . وفى أثناء زيارتنا كانت فى الميناء سبعة من قوارب الدهو تقوم بتفريغ حمولاتها التى كانت خليطًا من الأرز ، والسكر ، والبن ، وصفائح الكيروسين الفارغة التى تشكل مع لفَّات المنسوجات ، والشاى، والتوابل الجزء الأكبر من احتياجات وسط الجزيرة العربية من العالم الخارجى ، إذ تستعمل الصفائح الفارغة فى تعبئة التمر والسمن (المسلى)(٩) . والتمر والمسلى والجلود والحصير المصنوع من البوص هى سلع التصدير الدائمة ، والتمر والحصير يأتيان أصلاً من الأحساء ، فى حين يمثل المسلى والجلود مساهمة البدو فى الأسواق العالمية .

والتعريفة الجمركية فى الأراضى الوهابية هى تلك المنصوص عليها فى القرآن الكريم ، والتى حددها النبى ﷺ لكل الأزمان ، وتقدر بحوالى ثمانية فى المائة على جميع البضائع الواردة أو المصدرة ، ومعدل ثابت مقداره دولار واحد من التصدير ، يحسب بطبيعة الحال ، بالطريقة السابقة نفسها ، فى حالة التمر والمسلى . وهو الفارق الوحيد عن ذلك المعدل العام ، وهذا هو ما حصلتُ عليه من فم مدير الجمارك نفسه ،

برغم أن الخبرة التى اكتسبتها بعد ذلك تجعلنى أشكك فى ذلك الذى رأته عيناى أو بالأحرى أتشكك فى أمانة المدير ، يتمثل فى الجمارك المفروضة على التبغ (الدخان) الذى تجىء عنه جمارك بنسبة عشرين فى المائة ، رغم تحريم استيراده فى أراضى ابن سعود بحكم العقوبات المباشرة المفروضة عليه . ومع ذلك فمن المعروف أن الدخان يدخل هذه البلاد وبخاصة منطقة الأحساء كلها بصورة منتظمة ، وليس هناك أى اعتراض على شرب الدخان فى المجالس الخاصة ، وهذه عملية يمارسها مدير الجمارك هو وشقيقه عندما يكونان متأكدين ممن يرافقونهما . أما عن طريقة تعاطى الدخان فى قلب الجزيرة العربية فسوف أتكلم عنها فى مناسبات أخرى .

والعملة المستخدمة فى الجزيرة العربية هى الريال[١٠] أو دولار ماريا تريزا ، ولكن الأحساء يشيع فيها استعمال الروبية ، كما يشيع استعمالها أيضًا فى أماكن أخرى ولكن بمستوى أقل وبسعر الصرف المعتاد ، والذى تراوح خلال العام الذى أمضيته فى التجوال هناك بين ٢٣٠ و ٢٦٠ روبية لكل مائة ريال . والبيزة المسقطية (العمانية) تتساوى من حيث القيمة مع البيزة الهندية ، والتى يشيع استعمالها فى كل أنحاء بلاد ابن سعود ، هذا فى الوقت الذى لا يحظى فيه النيكل الهندى أو التركى ولا العملات الفضية ذات القيمة الأصغر بتداول كبير فى المراكز التجارية . وإضافة إلى ما سبق فإن الأحساء أو إن شئت فقل : الأحساء وحدها ، توجد بها عملة فضية نحاسية تعرف باسم الطويلة[١١] وهى على شكل U ؛ والمعروف أن البيزتين[١٢] تساويان ثلاثة طويلات ، والنقود الورقية لا تستعمل بطبيعة الحال فى المناطق الداخلية ، بالرغم من أن التجار الكبار يقبلونها ، دون شك ، من عارضيها بعد خصم معقول من قيمتها ، وباعتبار ذلك جميل يصنعه التاجر فيمن يعرض عليه تلك النقود . والذهب بنوعيه البريطانى والتركى يجرى التعامل فيه بالأسعار السائدة[١٣] ، ولكن يصعب القول إن النقود الذهبية كانت سائدة وتستعمل فى الأغراض المعتادة ، قبل ثورة الشريف[١٤] ، التى بدأت النقود الذهبية بعدها فى اكتساح شبه الجزيرة العربية ؛ والواقع أن الذهب يكثر استعماله فى غرب الجزيرة العربية ، إلى حد أن الناس

يتحاكون فى نجد ، الأقل حظًا ، عن ذلك البدوىّ الذى دفع جنيها ذهبيًا إنجليزيًا نظير علبة من الثقاب وانصرف لحال سبيله دون أن يطلب الباقى .

الرسوم الجمركية تدفع فى معظمها بالروبية ، وقد بلغ إجمالى متحصلات دخل خزانة الرياض من موانئ الأحساء الثلاثة فى عام ١٩١٧ الميلادى حوالى ٤ لاكات Lacs روبية . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن ذلك العام كان واحداً من أعوام الحرب العالمية الأولى وحظر الحركة الملاحية ، وقد يكون من المعقول هنا القول: إنه فى ظل الظروف المعتادة كانت حصيلة الرسوم الجمركية تقدر بما يتراوح بين ٨ إلى ١٠ لاكات روبية كانت كلها تدخل بيت المال ، أو إن شئت فقل خزانة الدولة ، ممثلة لتجارة الصادرات والواردات التى تتراوح قيمتها الإجمالية بين ١٠٠ و ١٢٠ لاكا من الروبيات ، تمثل رسوم الواردات منها حوالى الثلثين ، وذلك باستثناء جميع البضائع التى يجرى استيرادها لحساب ابن سعود بطبيعة الحال . كان تجار الأحساء يحصلون على الجزء الأكبر من وارداتهم من الأسواق الهندية التى كانت تقبل المدفوعات العينية ممثلة فى فائض إنتاج البلاد ، كما كانت تقبل أيضًا المدفوعات النقدية فى الميزان التجارى ، بل كان التجار يتخلصون من بضاعتهم فى داخل البلاد عن طريق مقايضتها بمنتجات الواحات والمنتجات الصحراوية مثل التمور ، والمنتجات البستانية ، والجلود، والمسلى ، والحصير ، وأخيراً وليس آخراً ، الجمال التى تعد المعدات الرئيسية فى تجارة البدوى الحق الذى من سوء حظه وقلقه تبدلت أحواله خلال العقد الأخير وبخاصة خلال سنوات الحرب الأربع ، التى فاق خلالها ارتفاع مستوى معيشته بشكل تجاوز كل التوقعات بسبب زيادة قيمة الجمل . فمنذ أربعين عامًا كان دوتى Doughty يحسب أن الريالات القليلة التى ما زالت فى حوزته تكفى انتقاله من القصيم إلى الكويت ، أما اليوم فإن الأجرة المعتادة للجمل الذى يسافر من الداخل إلى الشاطئ تتكلف ٣٠ ريالاً ، وأنا منذ أشهر قلائل[١٥] حاولت وبلا جدوى استئجار خمسة جمال بالسعر نفسه للانتقال من الزلفى إلى الكويت . والناس هنا يتحدثون عن الأيام الخوالى التى كان يمكن خلالها شراء حيوان نقل الأمتعة بحوالى عشرين ريالاً ، فى حين إن أسعار ذلك الحيوان تتردد حاليًا بين

٨٠ و ١٥٠ ريالاً . والجزيرة العربية البدوية لم تشهد مطلقًا رواجًا مثل الذى تشهده اليوم ، ولكن منجم الذهب توقف وسرعان ما سيختفى أثره فى مستوطنات الخيام السوداء ، شأنها فى ذلك شأن مجارى سيول الشتاء عندما تتحول إلى مجارى جرداء عندما ينتهى فصل الصيف .

وفى غياب الإحصائيات الدقيقة يستحيل علينا التعنت فيما يتعلق بالأهمية النسبية لمرافئ الأحساء الثلاثة فى ظل الظروف الراهنة ؛ القطيف ، بالرغم من تنافسها على التجارة الداخلية تعتمد عليها اعتماداً كليًا ، كما أنها هى التى تحتكر ، وبلا منازع ، توريد كل تموينات ومستلزمات المنطقة الزراعية الرائجة والكثيفة السكان والتى هى عاصمة لها بالفعل ؛ والجبيل ما تزال فى مرحلة الحضانة من التطور التجارى ولكن من المرجح لها أن تحرز تقدمًا كبيراً إذا ما توفر لها الدعم المالى اللازم لإنشاء الأرصفة والمخازن الضرورية ؛ فى حين أن العقير التى تتعامل حاليًا مع ما لا يقل عن نصف إجمالى تجارة ساحل الأحساء الداخلية ، تتمتع أيضًا بميزة القرب من واحة الأحساء ، تبدو أنها كتب عليها التخلى عن اتصالاتها الداخلية بميناء الجبيل عندما يبدأ ذلك المرفأ فى القيام بدوره . اللهم إلا إذا جرى ، فى الوقت نفسه ، تطهير ذلك المرفأ الرائع الذى يعد من أفضل مرافئ ساحل الجزيرة العربية عن طريق التكريك أو أية وسيلة أخرى من ذلك الهم الثقيل الذى يتمثل فى المدخل السيئ الذى لا يسمح حاليًا إلا بمرور السفن قليلة الغاطس[١٦].

أضف إلى ذلك أن مرافئ الأحساء تقع تحت رحمة البحرين ، التى يقوم الشيخ عيسى فيها ولمصلحة خزانته بفرض رسوم جمركية على شحنات البضائع المتجهة إلى نجد ، فى الوقت الذى يجرى خلاله عبور تلك الشحنات خلال مياهه الإقليمية ، الأمر الذى ترتب عليه انحراف الجزء الأكبر من تجارة وسط الجزيرة العربية وتحولها إلى الكويت التى لا تدفع فيها البضاعة التى ستباع فى بلاد ابن سعود وبلاد ابن الرشيد سوى رسوم جمركية واحدة لخزانة الشيخ سالم . وعلى ذلك ففى الوقت الذى تدفع الأحساء فيه رسومًا جمركية مزدوجة على جميع البضائع التى تستوردها

للاستهلاك ، يجد تجارها أنفسهم معزولين ، فيما يتعلق بالسلع عالية القيمة ، فى أسواق الرياض وجنوبى نجد ؛ نظراً لأن تجار شقراء يستوردون بضائعهم عن طريق الكويت ثم ينقلونها بعد ذلك إلى العاصمة الوهابية[١٧].

من الواضح أن أسس علم الاقتصاد لم تصل بعد إلى بلاط أمراء الجزيرة العربية ، وعلى حد معرفتى إنه لم يخطر ببال ابن سعود الذى يعد الخاسر الأكبر فى ظل الظروف الحالية أن يسائل جيرانه فى أحقية الاستفادة من موقعهم الجغرافى على حسابه هو ، أو يواجه سيطرتهم على الموقف مستخدمًا فى ذلك أسلحة أكثر فاعلية من الأحلام الغامضة بإنشاء ميناء منافس على ساحله هو . وهنا يتعين علينا ألا تغيب عن أذهاننا الحقيقة التى مفادها أن الوضع الراهن هو إرث من أيام الحكم العثمانى وأن أربعة أعوام من الحرب مع سلسلة مشكلاتهم السياسية أصبحت عاملاً مناوئًا أمام حل أو حتى مناقشة المشكلات الاقتصادية للأراضى الوهابية . وتطوير العقير أو الجبيل عملية طويلة ومكلفة وتنطوى أيضًا على التضحية بقسم كبير من الدخل فى حين تؤدى العوائد السريعة لإبرام إنفاق التعريفة الجمركية مع البحرين أو إنشاء كردون جمركى برى[١٨] حول الكويت إلى انسياب الأرصدة على خزانة ابن سعود ، الأمر الذى يمكن أن يفيد منه فى إنشاء ميناء فيما بعد .

ومن وقت لآخر فى أثناء النهار كانت مجموعات من الإبل تظهر وتختفى عند خط السماء فى التلال الرملية ، كما كان الرصيف يشكل منظراً عامراً بالحياة نظراً لأن أطقم القوارب وحداة الإبل كانوا ينوءون بحمل بالات البضاعة ، وكانت أصوات الإبل مختلطة بصراخ حداتها ، أولئك البدن المخشوشنين الذين كانوا يطيلون النظر إلى ملابسنا الإنجليزية غير المألوفة ، ونحن نتجول ونتنقل فيما بينهم ؛ وكانت تسير مع الجمال حمير الأحساء البيضاء العظيمة وأصحابها على ظهورها ، وهؤلاء هم القرويون يمارسون حرفة الاستئجار شأنهم فى ذلك شأن حداة الإبل ، ويستمر ذلك السيل على هذه الوتيرة طوال اليوم ، ومع ذلك لم تظهر بعد إبلنا ، وعندما غربت الشمس كنا نتساءل إن كانت تلك الإبل ستظهر أو لن تظهر مع صبيحة اليوم التالى .

٣- من العقير إلى الأحساء

صحونا مبكرًا فى صبيحة اليوم التالى استعدادًا لبداية رحيلنا فى ساعة مبكرة ، ولكننا كنا جديدين على الطرق والأساليب المتبعة فى الجزيرة العربية ، وترتب على ذلك أن أصابنا الإحباط وخاب أملنا . فلم نر ولو مجرد أثر أو حتى إشارة إلى الإبل التى رأيناها بالأمس ، أو حتى القادمين الجدد إلى العقير . كانت زوارق الدهو لا تزال راسية فى الميناء وبلا أى عمل ، وكان الشاطئ مثلما تركناه بالأمس عند غروب الشمس تتناثر عليه بالات الجوالات والأكياس ، ولم يكن عليه أى كائن من الكائنات الحية أو البشرية . وبدأت الشكوك تراودنا حول إمكانية أو احتمال بداية الرحلة فى ذلك اليوم ، وبناء على ذلك قصدت إلى حيث يقيم الأمير لكى استنكر حنث الأمير فى وعده . واعترف لى الأمير بعدم وصول الإبل ، ولكنه احتج مؤكدًا أنها سوف تصل خلال وقت قصير ، اقترح علىَّ فى الوقت نفسه أن الحمير ستكون أكثر إراحة لنا فى الركوب، كان ذلك اقتراحًا مشئومًا ؛ إذ كان من الواضح أنهم لم يتخذوا أية ترتيبات بشأننا ، وأنه حتى فى حال وصول الإبل فسوف يتعين علينا ركوب دواب الحمل (الحمير) - وهذا هو ما حدث بالفعل . وحتى عندما كنت أتحدث مع الأمير فى شرفة القلعة شاهدنا خمسة من الجمال تتحرك متثاقلة عند خط السماء وهى تنزل منحدر التلال الرملية ، وتعجب الأمير بشىء من الارتياح الواضح قائلاً : "ها هى الإبل قادمة" ، ونظرًا لضعف الأمل فى استعجال قدوم بقية القافلة عن طريق الانشغال بالحديث مع الأمير سارعت بالعودة إلى معسكرنا كى أبلغهم بأمور رحيلنا .

ومع ذلك ما إن هدأنا واستقر حالنا ورضخنا لانتظار غير مسمى حتى رأينا موكبًا مهيبًا برئاسة الأمير ومعه مدير الجمارك وآخرون ، جاءوا إلى معسكرنا ليعلنوا وصول الإبل . وجاء معهم شخص يسرُّ الخاطر ولكنه من النوع الثرثار ، هو سلطان ابن سويلم الذى أبلغنى أنه شقيق عبد الرحمن أمير القطيف ، كما كان يحدثنى أيضًا عن مهمة سرية سوف يوفده فيها ابن سعود نيابة عنه إلى مسقط ، وهنا بدأت أرض المعسكر تشهد العشرات من الجمال وعشرات من الحمير بصحبة الحمارين

وحداة الإبل من الرجال والنساء ، وترتب على ذلك مشهد من مشاهد الفوضى التى لا يمكن وصفها ، بُرِّكت الجمال وتناثرت أمتعتنا هنا وهناك ، وقامت مجموعة من النساء الماهرات فى تصنيف الأمتعة إلى أحمال تناسب قدرات الدواب المختلفة ، ورحن تصدرن قراراتهن على شكل صراخ وصياح كان ينبعث من خلف خمرهن السوداء المصنوعة من الموسلين الأسود السميك ، ويطلب من الجميع التزام الاحترام العام والطاعة .

وفى الوقت نفسه جرى تحميل الأمتعة الخفيفة على الحمير ، فى حين بقيت الأحمال الثقيلة على الأرض بعد تصنيفها على جوانب الجمال استعداداً لتحميلها عليها ، ثم خيم السكون والهدوء على المكان من جديد نظراً لإبعاد الدواب والرجال غير المطلوبين عن المكان . وأنزلوا خيامنا ووضعوا الأحمال بدلاً منها وأصبح الجميع على استعداد لبدء المسير . وجرى حجز ثلاثة من الجمال الواعدة كى نركب عليها ، فى حين كانت بقية الإبل تزمجر وتكشر عن أنيابها فى أثناء نهوضها ، أمام استبداد الرجال الذى لا يطاق ، واستأنفت الجمال مسيرها فى اتجاه التلال الرملية فى المدقات نفسها التى سارت فيها الحمير التى كانت قد سبقت الجمال .

وراح الأمير وهو يشير فى اتجاه الركب الراحل مهنئاً نفسه على حظه السعيد يوبخنى حزناً منه على نفاذ صبرى فى الصباح قائلاً : "كل ما ينتهى بخير فكله خير" ، ومع كل ذلك فالفرق طفيف بين الفجر والظهيرة . وطيَّبت خاطره بكلمات طيبة وساعة أعطيتها له هدية ، وقبل ظهر اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر ركبنا الجمال وبدأنا رحلتنا إلى الداخل .

كانت جماعتنا مكونة منا نحن الثلاثة الذين كنا نركب الجمال بالإضافة إلى طباخ ورجل آخر يجيد الأعمال اليدوية اسمه أحمد ، انتقيناه عندما كنا على سطح قارب الدهو ، والذى هجرنا دون أن يحصل على إذن منا أو الحصول على أجره عندما وصلنا إلى جيشه Jisha إضافة إلى حرس مسلح مرافق مكون من أربعة أفراد ، وفرهم لنا أمير العقير ، إضافة إلى خمسة عشر حماراً يقوم على أمرها ستة من الحمَّارين ، فضلاً عن اثنين وعشرين جملاً لحمل الأمتعة وتحت إمرة شخص يدعى علياً

من فخذ ابن شريب[١٩] من قبيلة مرة ومعه ثلاثة رجال أحدهم رجل عجوز هرم ، ركب المسافة بطولها وراح يتمتم لنفسه طول الوقت ، فضلاً عن امرأتين ، وكلهم ينتمون إلى الفخذ نفسه . وركبنا نحن وحرسنا الحرس المرافق لنا على الطريق بطولها ، أما البقية باستثناء العجوز ، فقد تناوبت المشى والركوب ، أما النساء اللواتى حظين بإعجابنا لمهارتهن التى تشبه مهارة القردة ، عندما كن يتسلقن جملاً بعد آخر ليعدلن الأحمال ولشد الأحبال عندما لا يكن ماشيات ، فضلاً عن أن مشيهن كان أكثر من ركوبهن .

حمار الأحساء الأبيض الذى له جسم ضخم مثل جسم البغل ويميل لونه الأبيض إلى الاصفرار الباهت ، يبدو وكأنه ينتمى إلى فصيلة مستقلة بذاتها . وحمير الأحساء مثل سائر الحمر ، بالرغم من أن عين الخبير الماهر تستطيع تمييز تلك الحمر عن حمير الصلوية Suluba[٢٠] التى شاهدتها مرات عديدة وفى مناسبات عدة أيضًا ؛ وحمير الصلوبة ، يستعملها أصحابها الذين يشبهون الغجر فى رحلات الصيد التى يقومون بها فى مسارب صحراء النفود الشاسعة فى شمال الجزيرة العربية ، وهذه الحمر تشتهر بسرعتها وقوة تحملها للعطش ، فى حين يقتصر استعمال حمير الأحساء على أبيار السقيا فى الواحات وفى عملية النقل بين الهفوف والساحل ، وهذه الحمر أثقل من حمير الصلوبة وأبطأ منها ، ولكنها تعد بديلاً كفؤا عن الإبل حتى فى السير على الرمال شريطة أن يتوفر الماء لتلك الحمر على مسافات معقولة . وعلى حد معرفتى فإن حمير الأحساء لا تستعمل مطلقًا على الطرق الصحراوية بين الهفوف والرياض[٢١] . ونظرًا لأن تلك الحمير يربيها أهل قرى الأحساء بأعداد كبيرة ، يقال إن الطلب يتزايد عليها فى كل من مكة والمدينة ، والأرجح أن يكون ذلك لأغراض الركوب ، ولقد رأيت الناس فى الرياض يستعملون تلك الحمر على نطاق واسع ، كما تستعمل أيضًا فى شقراء وفى القصيم فى سحب مياه الرى من الآبار . والحمار الجيد من ذلك النوع يصل ثمنه إلى حوالى مائة ريال فى حين يتراوح سعر حمار المناطق الداخلية بين خمسين وستين ريالاً .

وبعد ربع ساعة من مغادرتنا لبرج المراقبة عن يميننا وصلنا إلى سفح التلال الرملية ، ومن أولى الحواف المرتفعة لتلك التلال ألقينا نظرة على ميناء العقير وعلى خليج البحرين السماوى الواسع من خلفه ، فى حين كنا نرى أمامنا بحراً من الرمال المتحركة الذى بدأنا نخوض فيه فى اتجاه بقعة سواد Suwad السوداء الصغيرة ، التى هى عبارة عن مجموعة من أدغال النخيل القزم الصغير(٢٢) وتتخللها أشجار المرخ (٢٣)، والتى تقع فى غور ضحل يبعد حوالى ميلين عن العقير . وهذا النخيل القزم يحمل تمراً صغيراً لا طعم له لا يأكله إلا البدو الجوعانين . وفى أقصى الجنوب تراءت لنا تلة صغيرة يطلق عليها اسم القارة Alqara .

ويطول خمسين(٢٤) ميلاً تقريباً كان ذلك الجدب الموحش يعترض سد الرمال بين البحر وواحة الأحساء ؛ ومن ناحية الجنوب كان ذلك الجدب الموحش يحد من ناحية البر بروز قطر الناتئ داخل البحر ، ويمتد على ما يبدو إلى ما وراء ذلك النتوء فى متاهات رمال الربع الخالى ؛ وفى اعتقادى يمتد ذلك الجدب الموحش أيضاً فى اتجاه الشمال بطول ساحل الكويت . وراحت الإبل المتعبة تخوض خلال تلك الرمال فى المرتفعات والمنخفضات ، وعبر الأغوار والحواف المرتفعة ، فى حين غابت عن أنظارنا الحمير التى سارت فى طابور واحد من تلقاء نفسها ، ولم تنضم إلينا إلا بعد أن خيمنا لقضاء الليل . ورمل تلك البرية التى يطلق عليها اسم بر الأحساء Barr al Hasa حبيباته بيضاء اللون ؛ وأساس ذلك النوع من الرمال – إذا ما حكمنا عليه من واقع الصخور التى كانت تواجهنا من حين لآخر – هو الحجر الجيرى . والحياة النباتية وفيرة فى المنحدرات الرملية ، التى تنمو فيها حشائش من أنواع بعينها ، وفى الأغوار تنمو نباتات الفاكهة . وذاك المدق تسير فيه بلا انقطاع القوافل الغادية والقوافل القادمة أيضاً .

وبعد أن تجاوزنا السواد Suwad بثلاثة أميال ونصف مررنا بمنخفض لاساف Lasaf ، الذى تعيش فيه بعض الأعشاب على المياه السطحية الملحة . وتقع منطقة أبو خيالة Abu Khayala وثقوب مياهها العذبة على مسافة ميل ونصف الميل بعد منخفض لاساف ،

وبعد ذلك بفترة وجيزة عبرنا غور أم الضّر Um al Dharr الذى يمتد – شأنه شأن المنخفضات الأخرى المماثلة له – فى اتجاه البحر ناحية الشمال الشرقى . وفى اتجاه الجنوب من مسارنا عند هذه النقطة تقع حفرة الماء التى يطلق عليها اسم نبع Nabae، التى يوجد فيها أيضًا بئر الغينة Al Ghina على بعد ثلاثة أميال فى اتجاه الغرب . وهنا وصلنا إلى سلسلة من الجبال المنخفضة الجيرية التى يطلق عليها اسم الجسرة Jasra، والتى تمتد شمالاً وجنوبيًا إلى مسافة نصف ميل عبر الرمال الجرداء . وهنا انقسم المدق إلى قسمين ، أحدهما يتجه ناحية الشمال من سلسلة الجبال فى اتجاه بئر قحدية Qahdiyya ، فى حين سرنا نحن فى الطريق الآخر ، ومررنا بين رافدين من الصخور اللذين ألقينا منهما النظرة الأخيرة على البحر البعيد من وراء التلال الرملية ، لنهبط بعد ذلك إلى منخفض بورايمان Buraiman الضحل الذى خيمنا فيه لقضاء الليل .

كنا عندئذ نبعد حوالى ١٥ ميلاً عن العقير وعلى ارتفاع حوالى ٢٥٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، وكانت تحيط بنا بقع مبعثرة من النخيل القزم الذى يكافح من أجل الحياة مع الرمال المتنقلة التى كانت قد طمست تمامًا آثار البيت التركى المبنى من الآجر، والذى كانت تقيم فيه القوات التركية التى كانت تحمى طريق القوافل . وحكوا لنا – وهم يوقدون نار المخيم – أن الرحالة فى الأيام الخوالى لم يتلكّأوا فى هذا المكان خوفًا من البدو ، ولكنهم كانوا يتعجلون بعد الحصول على الماء من عيون الماء الضحلة ، التى كان يغترف منها كل من يصل تلك الرمال ، والسبب فى ذلك أن الحامية التركية التى كانت آمنة خلف الجدران المصنوعة من الطين لم تكن توفر الحماية لأولئك الموجودين خارج تلك الجدران . وجلسنا على أرض المخيم التى تقاسمناها مع عبد الله ابن شريدة ، سليل إحدى الأسر العريقة فى بريدة ، والذى كان عائدًا من زيارة المنطقة الوسطى ، إلى منزل له فى البحرين . كان عبد الله بن الشريدة يصحب معه نساء الأسرة اللواتى جلسن خلف ساتر مكون من دغل من النخيل ، فى حين انضممت أنا إلى الرجال لشرب القهوة معهم وهم يتحلقون حول النار ساطعة اللون . لم يحضر رجالنا معهم أى نوع من أنواع المؤن التى يمكن أن يقتاتوا بها على الطريق ، ولكنهم

قبلوا على الفور وبلا أى نقاش علبة لحم محفوظ مما كنا نحمله معنا ، ونامت النساء صائمات .

وانقضى الليل دون حدوث أى شيء اللهم باستثناء زيارة ذئب لنا ، ولم تفسد علينا نومنا الطلقة النارية التى انطلقت من إحدى البنادق بعد فوات الأوان ولم تتمكن من إنقاذ الطلى المخصص لغداء ابن شريدة فى العقير ؛ وفى الصباح أشاروا لنا على الجثة التى كانت ما تزال حارة وتركوها تتعفن فى شمس الصحراء ، وها هو البدوى الذى لم يرفض علبه اللحم المحفوظ التى أعطيناه إياها مساء الأمس يعاف تلك الميته . والرأى العام فى مسائل التحيز الدينى تكون له الغلبة والقوة ، ومع ذلك فإن لحم الطريدة يمكن تحليله بعد موت الذبيحة إذا ما بسمل فاتح النيران على الزناد قائلاً : "بسم الله" .

وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، عبر التلال الرملية فى بقعة من الأرض يقال لها نقيعات العيش Nuqaicat al Aish التى عبرناها إلى أن نجد به تموجات رملية أكثر ارتفاعًا يطلقون عليها اسم الأعلا Al Aala التى كنا كلما وصلنا إلى قممها – من وقت لآخر – نلقى نظرات خاطفة على تلال الأحساء . البريقة Al Buraiqa فى اتجاه الغرب ، وهى سلسلة طويلة من الجبال الوعرة ، والقارة[٢٥] Al Qara ناحية الجنوب الغربى من أمامنا ، وهى عبارة عن تل صغير مستوى السطح ، والربوات الأربع التى يقال لها الأربعة فى أقصى الجنوب الغربى ، وقيل لنا إنها تقع عبر الطريق القادم من قطر إلى الأحساء . كانت تتناثر فى الريف الذى سرنا عبره الشجيرات الصحراوية القصيرة الكثيفة ، كما شاهدنا – فى كل مكان – قطعان الأغنام التى كانت ترعى ، والتى قيل لنا إن أصحابها هم بنو هاجر Bani Hajir ، وفى ناحية الجنوب كانت توجد مراعى آل مرة Al Murra والمناصير ، أما فى اتجاه الشمال فكانت توجد مراعى العجمان Ajman والعوازم .

وعلى مسافة حوالى ١٤ ميلاً من البوريمان Buraiman يعبر تلك التلال الرملية شريط عريض من التربة المشبعة بالملح ، هو الحوض الجاف – على حد اعتقادى –

للمجرى المائى الذى يمتد جنوباً وشمالاً من الطريق الذى نسير فيه ، وهنا ظهر أن ذلك المجرى يغيِّر اتجاهه من الجنوب الغربى إلى الشمال الغربى . أما من أين يبدأ ذلك المجرى وأين ينتهى فتلك مسألة أنا لست متيقنًا منها ، وليس لدىَّ مزيد من المعلومات عنها ، باستثناء أن الماء إذا كان مالحًا فى أبيار شاتار Shatar التى تقع على طريقنا فإن ماء المريذيب Muraizib وماكو Makku – اللذين يقعان جنوب وشمال أبيار شاتار واللذين يقعان مثل شاتار على حافة الشريط المالح – عذب وليس مالحًا . وعندما وصلنا شاتار تتبعنا حوض ذلك المجرى المائى الذى يطلقون عليه اسم السَّبخة[٢٦] فى اتجاه الجنوب إلى النقطة التى ينحرف عندها ذلك المجرى مبتعداً عن الجنوب الشرقى فى هذه المنطقة بين بقعة من الأدغال عن شمالنا تعرف باسم سح البرانى Sah al Barrani ، وقلعة قديمة يطلقون عليها اسم الخوينيج Khuwainij، التى لا نراها تمامًا ، وعلى بعد مسافة منا من الجانب الأيمن دخلنا من جديد إلى المنطقة الرملية الجدبة حيث مجموعة من النخيل القزم يطلقون عليه اسم الخيسة Al khisa ، التى يبدو أنها النقطة التى تلتقى عندها الطرق الثلاثة البديلة بين العقير والأحساء . وأحسن تلك الطرق الثلاثة هو ذلك الطريق الذى سلكناه ؛ أما الطريقان الآخران فيقعان على جانبى هذا الطريق وعلى مقربة منه ، والطريق الموجود فى أقصى الشمال يفترق عن طريقنا فى المنطقة أمام سلسلة جبال جسرة Jasra ويسير على شكل خط خلال أبيار قحدية Qahdiyya ، وذقين Zuqain ، وأبو المرس Abul Maris ، وماكو ، والخوينيج ، فى حين يتفرع الطريق الجنوبى الذى لا يحبذه المسافرون فى معظم الأحيان فى المنطقة المجاورة لأبى خيالة Abu Khayala ويتلامس مع أبيار نبع Naba' وأبيار غينا ، والمريذيب ، ثم ينضم من جديد إلى الطريق الرئيسى عند الخيسة عن طريق سح البرانى .

والطريق – عند هذه النقطة – يعبر سلسلة من الجبال المنخفضة المتوازية التى تغطيها قشرة نحيفة نسبيًا من الرمال فوق أساس من الحجر الجيرى ، وهذا أمر متكرر ويطلقون عليه اسم النقيرات Al Nuqairat ، وتنتهى تلك السلسلة بحاجز عميق

من الرمل المتراكم ، رحنا نهيم بصعوبة بين كتلها المتداعية ، فتارة نسير فى منخفض عميق وتارة أخرى بحذاء جانب منحدر إلى ما قبل وقت قصيرمن الساعة الرابعة مساءً ، وبعد أن سرنا بلا توقف منذ الساعة الثامنة صباحًا ، وعندما وصلنا إلى آخر قمة من قمم تلك البرية الرملية المتموجة رحنا ننظر ناحية الأسفل إلى مشهد محبب إلى النفس بشكل غريب ؛ مشهد حزام أسود واسع من النخيل ومن خلفه الشمس فى أثناء غروبها .

٤- الأحساء

"لا إله إلا الله ! لا إله إلا الله !" قالها كل واحد من أولئك المنهكين ، عندما وصل إلى قمة التل شاهدًا على وحدانية الله ، خالق التناقضات كلها ، وخالق الليل والنهار ، وخالق البحار والأرضين ، وخالق الصحراء والنماء ، كنا نرى أمامنا واحة الأحساء بخلفيتها الكريهة التى تتكون من صحراء شاسعة مترامية كما كنا نشاهد أيضًا الدخان المتصاعد من كفورها (هجراتها) المبعثرة هنا وهناك ، الأمر الذى حثنا على إسراع الخطى إن أردنا الوصول إليها قبل حلول الليل .

وعلى الرغم من أنها بدت قريبة لنا ، فإن حافة حزام النخيل ما تزال تبعد عنًّا مسافة ثلاثة أميال ، هذا يعنى مسيرة ساعة كاملة بالجمال ، وكانت الساعة فى ذلك الوقت الخامسة مساء قبل أن نهم بعبور السهل الذى يتوسط هذه المنطقة ، وحوَّلنا اتجاه دوابنا جنوب الفضاء الواسع الواقع بين قرية جيشة وحزام النخيل . ولما كنا نعانى من الالتهابات والإنهاك بفعل السفر الذى استمر يومًا كاملاً ، فقد تركنا رجالنا ينصبون الخيام ويساومون القرويين ، الذين سرعان ما ظهروا لنا ومعهم بضاعتهم التى كانوا يعرضونها للبيع – البرسيم الحجازى الذى تأكله الإبل ، والتمر الذى يأكله الرجال – ورحنا نتجول فى بيارات النخيل . كان منظر المجارى المائية هى وخريرها جميلاً ، وهى تشق لنفسها طريقًا بين بيارات النخيل ، وكانت حقول البرسيم الحجازى

تسر الخاطر أيضًا هى وحقول القمح التى كانت على شكل بادرات خضراء صغيرة ، كما كانت الأشجار المثمرة ، وأشجار الليمون ، والرمان ، والتين ، والعنب ، تشرح الصدر وتسر الخاطر أيضاً .

وعندما بدأ الليل يرخى سدوله على ذلك المشهد ، عدنا إلى المخيم لنجد أن الرجال الذين أوفدوا إلى القرية لإحضار الطعام اللازم للعزيمة لم يعودوا بشىء سوى عنزة صغيرة طلب صاحبها ثمنًا لها لا يقل عن خمسة ريالات . وعلى الفور جرى إيفاد مبعوثين آخرين إلى الأمير المحلى الذى لم يقتصر على مجرد تزويدنا بما طلبناه وإنما قام أيضًا بزيارتنا وبصحبته ولده ، وبعد أن تناول معنا القهوة فى المخيم أصرَّ على مرافقتى له لشرب القهوة في منزله فى الوقت الذى يجرى فيه تجهيز طعام العشاء .

كان أحمد بن سيل Sail أمير جيشة Jisha رجلاً كبير السن مصابًا بشىء ما فى بصره ؛ ومع ذلك وعلى الرغم من فقدان البصر فإنه كان قد عاد مؤخرًا من مكة التى سافر إليها لأداء فريضة الحج لأول مرة ضمن الموكب الراكب العظيم الذى انطلق من نجد فى فصل الصيف . لقد غاب أحمد سيل أربعة أشهر انتقلت خلالها مهام وظيفته إلى ابنه ناصر Nasir ، ذلك الصبى الذكى المليح الذى يبلغ من العمر ستة عشر صيفًا . وسرعان ما امتلأ بالناس مجلس الأمير الضيق عندما بدأت تدوى ضربات الهون ، أما أنا فقد حشرونى فى مكان الشرف القريب جدا من الوجار الذى جلس مضيفنا خلفه مباشرة ، وقد بلغ من الضعف مبلغًا لا يستطيع معه القيام وحده بشرف إعداد القهوة لنا ، ولذا قام أحد كبار الأسرة بإعداد القهوة والشاى نيابة عنه . ومن بين مجموعة الجالسين كان هناك شخص يدعى حمود ، يبدو أنه من أهل القرية ومن أقارب الأمير ، وهو الذى أدار الحديث وأثبت لنا بملاحظاته أنه كان من المهتمين بالشئون العالمية وليس من بين من يجهلونها . وتساءل حمود قائلاً : "أين عجيمى السعدون ؟ وما الذى حدث لعبد الله ولد فالح Falih هو وإخوانه ؟ هل صحيح أن الحكومة البريطانية صادرت ممتلكاتهم ؟" وزاد على كلامه الكثير من الأسئلة التى على هذه الشاكلة . كان حمود قد سافر إلى البصرة فى إحدى المهام وبدأ يهتم

اهتماماً شديداً بمستقبلها ، والأرجح أن حموداً كان يفكر في الهجرة إلى البصرة إذا ما ضربت تشددات المذهب الوهابي جذورها في وطنه الأحساء . وفي النهاية وزع الشاي على الحاضرين ، والحليب لا يستعمل هنا ولكنهم يضعون السكر في براد الشاي مع أوراق الشاي ثم يتركون البراد بالقرب من النار كي يُطهى على نار هادئة ، والسائل الذي ينتج عن تلك العملية مر بشكل غير مستساغ على الرغم من السكر ، وهو يقدم في كئوس من الزجاج ، ويجرى الإصرار على أن يتناول الضيف كأساً ثانية وثالثة . ثم تصب القهوة بعد الشاي ، والبن المستخدم في شرق الجزيرة العربية هو البن الهندي ، اللهم باستثناء الأسر الثرية، التي تحتفظ لديها بمخزون ثمين من حبوب البن اليمنية لاستعمالها في المناسبات الخاصة التي يقدم خلالها ذلك المشروب الحلو النكهة للضيف مصحوباً بكل مظاهر الأفضلية البريطانية . وفي جنوب الجزيرة العربية ، مثلما سأحكي في الوقت المناسب ، قد يرضى أفقر الفقراء بخلو منزله من البن ، غير أن الآخرين قد يسبونه ويلعنونه إن هو قدم بناً آخراً غير البن اليمني . وعلى الرغم من أن العربي لا يفهم الشاي أو يذوقه فإنه خبير في القهوة بفطرته ، فالقهوة هي الشراب المنبة الوحيد عند العربي ، والسبب في ذلك أن شرب النبيذ والدخان ممنوعان في هذه البلاد ، والقهوة تقدم بكميات صغيرة جداً في فناجيل من الفخار ، والفناجيل اليابانية الصنع هي الفناجيل المفضلة ، والفنجال لا يملأ إلا لضيف الشرف ، وليس كما يقال ، للعدو المكروه ، هذه هي تجربتي ، في أضعف الأحوال في نجد ، التي سمعت الناس فيها ، وألفاظ السباب تنهال والانتقاد يكال إلى من يسوى القهوة من أهل الحجاز . وملء الفنجال لعدوك باعتبار ذلك إشارة له بالتعجيل بالرحيل يمكن أن يكون من قبيل مسايرة السلوكيات والتصرفات المتحضرة في المدن الكبرى – مثل مكة ، ودمشق وغيرها من المدن – ولكنه يُعد شيئاً غريباً تماماً على المجتمع البدوي وقانون "الأيام الثلاثة" الشفهي الخاص بإكرام الضيف ، ويلتزم به كل من الضيف والمضيف ، ويندر أن يخرج عليه أي منهما .

وعندما هممت بالاستئذان أخروني بطريقتهم الودية . "تطيَّب ، يا صاحب ، هات الطيب يا ولد"،[٢٧] قال المضيف هذه العبارة ، ورأيت بعدها ولأول مرة السر البسيط

لتحضير الطِّيب ؛ قطعة من خشب الأثل ، أو إن شئت فقل خشب الطرفاء ، محلاة بخطوط من القصدير أو الصفيح ، جرى إحضارها من دولاب صغير قريب من الوجار ، ووضعوا بداخلها قليلاً من الجمرات المشتعلة ، ومن فوق تلك الجمرات وضعوا عسلوجًا ذكى الرائحة. ثم جرى نفخ تلك الجمار مرة أو مرتين ، تصاعد بعدهما حلزون رفيع من الدخان، منبعثًا من المبخرة ، التى راح الحاضرون يتناولونها الواحد بعد الآخر واضعًا إيَّاها لمدة لحظة تحت طرف غترته ثم تحت ذقنه ، وفى النهاية وقبل تمريرها إلى من يجلس بجواره يقوم بوضعها تحت أنفه كى يشم عبيقها بطريقة طبيعية جدا يصعب تقليدها أو محاكاتها . ويمرر الطيب ثلاث مرات على الجالسين ، ويقوم المضيف بنفخ المبخرة كى تتوهج فى كل مرة تصل إليه ، وبعد أن يتطيب الحاضرون يصبح من حق الحاضرين أن يهمُّوا بالانصراف .

وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخرًا عندما عدت إلى المخيم ، لم تكن وجبة العشاء قد أعدت بعد ، وانضممت إلى حلقة الجالسين حول النار ؛ ومبلغ علمى أن أحدًا من هذه الجماعة لم يكن قد أكل أى شىء منذ أن غادروا العقير ، اللهم باستثناء علبة اللحم المحفوظ فى الليله السابقة ، وبقايا الجبن والبسكويت الذى حملناه معنا لوجبة الغذاء . وقد حرصت على توزيع ذلك الجبن والبسكويت على الأفراد ، ولم أنس المرأتين ، اللتين كان تقديرهما الواضح للطعام دليلاً كافيًا على امتنانهما الذى لم تعبرا عنه .

وفى النهاية طُهى الطعام ؛ وكانوا قد استعاروا من القرية صينية كبيرة لتلك المناسبة ، وجرى تكويم أطراف الطلى على تلك الصينية فوق كومة من الأرز الذى يتصاعد منه البخار . وسرت همهمة بشكر الله من جميع الأفواه قائلين : "لله الحمد والشكر ، بسم الله الرحمن الرحيم" ؛ وامتدت نحو الطبق اثنتا عشرة يدًا يمنى ، لتحمل كل واحدة منها قبضة من الأرز ، لأن ذلك هو التقليد المتبع عند بداية أية وجبة من الوجبات، وتلا ذلك صراع كما لو كانت ذئاب تتصارع . ولم يحدث من قبل أو من بعد أن شاهدت مشهدًا شبيهًا بذلك المشهد الغريب العجيب لأناس جوعانين يتناولون اللحم على ضوء نور المخيم الخافت . وتراجعت أصابعى ، التى لم أستعملها منذ فترة طويلة ،

عن الأرز الذى كان يغلى ، وراحت تتحسس المواقع الباردة من الطبق ، وتحدت الأوصال الساخنة كل محاولاتي المتحفظة ، وفى حين أدت القطع التى وضعها بالقرب منى المضيفون المراعون لشاعر الآخرين إلى التهاب لسانى وحلقى ، وفى اللحظة التى بدأ فيها الصراع ، والتمزيق ، والبلع ، رحت أعجب وأنا أشاهد كومة اللحم وهى تختفى على وجه السرعة هى وكومة الأرز ، إن كان الناس قد تركوا نصيباً للمرأتين ، اللتين كانتا لا تقلان جوعاً عن الرجال أنفسهم .

قرية جيشة ، التى تعد أقصى المواقع الخارجية فى الأحساء من ناحية البحر ، هى قرية مهملة صغيرة تقع خارج حزام النخيل فى سهل الحجر الجيرى على ارتفاع ٢٧٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، ومن حول هذه القرية يوجد سطح السهل الذى تنتشر عليه المحاجر ، التى يقتطعون منها أحجار البناء ، وبيوت هذه القرية كلها مبنية من كتل الحجر الجيرى المرصوص بشكل غير منتظم أو باستعمال الملاط المكون من خليط من الطين المضاف إليه الأسمنت أو الجص Juss (الجبس) ، والمنازل الأجود هى التى يليسونها بالجص أو الأسمنت الأبيض الناتج عن الحجر الجيرى(٢٨) الذى يجدونه فى أماكن متفرقة حول قرية طرف Taraf التى تقع داخل نطاق حزام النخيل فى اتجاه الجنوب ؛ والقرية مسوَّرة بسور قريب إلى حد كبير من القرية وله أربعة أضلاع ، ويصل ارتفاعه فى أحد أضلاعه إلى ٢٠٠ ياردة ، وبه بوابة فى كل ضلع من الأضلاع الأربعة . وشوارع القرية ضيقة ولكنها نظيفة وتخلو أيضاً من البنايات الفارهة ، وسوق تلك القرية ينعقد يوم الاثنين ، وأبعاده متواضعة ، وتباع فيه المنتجات البستانية من القرى المجاورة . وهذا هو حال جيشة بسكانها البالغ عددهم حوالى ٢٠٠٠ نسمة ، تعيش فى أمن ورخاء ، ولا يخشى أهلها الجفاف أو القحط ، ولم يعد أهلها يخافون العدو أو يخشونه بعد أن رحلت عنهم القوات التركية . ومما لا شك فيه أن ذلك هو حال كثير من قرى واحة الأحساء التى لم نرها مثل قرية عمران Amran، فى الشمال وقرية طرف Taraf فى الجنوب وبعض القرى الأخرى .

واستأنفنا مسيرتنا فى صبيحة اليوم التالى . كان المدق الضيق يتجه ناحية الغرب مخترقاً حزام النخيل ، قاطعاً ومتقاطعاً مع متاهة المجارى المائية ذات الخرير

بواسطة معديات بدائية من كتل النخيل ، أو فى معظم الأحيان عن طريق برابخ مصنوعة من كتل الأسمنت الصلبة ، وكانت تنتشر هنا وهناك غيطان البرسيم الحجازى والقمح الأخضر الداكن ، ومن حين لآخر كنا نرى شريطًا من الأرض المنزرعة بالأرز يكافح من أجل الحياة وسط مستنقع البوص ، وهذه جذوع النخيل تنتشر فى كل مكان ، وتنعكس أسفل تلك الجذوع ظلال قمم ذلك النخيل التى تنمو فيها الأشجار المثمرة والأعشاب والخضراوات .

وعلى بعد مسافة ميلين من جيشة Jisha تقع قرية جفار Jafar البيضاوية على مساحة واسعة خالية يحيط بها النخيل . وخارج أسوار تلك القرية يقع العديد من الأكشاك المصنوعة من الحصير ، شيدها أصحابها بطريقة الأكشاك التى يشيدها أهل الأحساء يوم السوق ، ومن حول تلك الأكشاك يوجد جمع من الناس المسرورين والمبتهجين يبيعون ويشترون فى الوقت الذى يقصدهم القادمون من كل الاتجاهات من القرى المجاورة جالبين معهم بضاعتهم ؛ نظرًا لأن يوم الاثنين هو يوم انعقاد السوق فى كل من جفار وجيشة ، ومن لا يجدون زبائن فى أحد السوقين يتجه إلى الآخر عبر مسافة بسيطة . وسواء جاءوا راجلين أو راكبين على ظهور الحمير أو الإبل فهم يحملون بضاعتهم على رءوسهم أو على دوابهم . كل شىء هنا قابل للتسويق : النوعيات الجيدة من التمر ، والنوعيات الرديئة تباع علفًا للماشية ، والبرتقال ، والليمون ، والقرع العسلى ، والباذنجان ، والباميا ، والبرسيم الحجازى ، والحصير المصنوع من البوص ، وسعف النخيل ، وليف النخيل . أو إن شئت فقل : كل شىء أو أى شىء تنتجه بساتينهم اليانعة . والمشترون ، معظمهم من أولئك التجار الذين يجمعون المواد التموينية ليبيعوها فى المراكز الكبيرة ، والسبب فى ذلك أننا لا نتصور أن تجد المنتجات البستانية زبائن لها وسط تلك القرى التى يقوم كل واحد فيها بزراعة بيارته أو حقوله أو بيارات أو حقول الآخرين .

وسكان جفار يُقدَّرون بحوالى ١٥٠٠ نفس ؛ وسباط Subat تلك "الكتكوت الصغير" تقع على بعد نصف ميل تقريبًا ناحية الشمال ، ويقدر عدد سكانها بحوالى ٤٠٠ نسمة ،

فى حين تقع قرية المركز Al Markaz التى يطلق عليها دومًا اسم مركاز القارة بحكم موقعها القريب أسفل تل قارة ، قد يصل عدد سكانها إلى حوالى ألف نسمة . وهناك قرى أخرى بلا شك بين البيارات على جانبى الطريق ولكنى لم أحصل على أسماء تلك القرى .

وخلف قرية جفار تقع أعظم بساتين الأحساء كلها ، وهى عبارة عن بيارات رائعة ومنظمة عامرة بأشجار البرتقال والليمون ، شديدة الخضرة وعلى شكل صفوف منتظمة وسط أبهاء جذوع النخيل العظيمة . هذه هى مرضية Mardhiyya التى كانت فى يوم من الأيام من ممتلكات السلطان العثمانى وأصبحت تعرف الآن باسم بيت المال ، وهى من الممتلكات الخاصة بالملك الوهابى . وقد خلَّد أبو ليلى ذكراها برواية خيالية عمرها سنوات طوال ، عندما شغف مالك تلك المدينة الأول حبًا بجمال امرأة من نساء الهفوف ، والتى لا تزال على قيد الحياة تنعم بثمار صفقتها السهلة ، قايضت فيها ليلة واحدة من السعادة بحق الولادة المكتسب لأطفالها وامرأة أخرى لم ألاحظ اسمها ابنة واحد من تجار الهفوف الذين يعتنقون المذهب الجعفرى[٢٩] . وينساب خلال تلك البيارات مجرى برابار Barabar المائى الرئيسى ، الذى يشكل مع مجريين آخرين ، هما السليسيل Sulaisil والوجاج Wajjaj المصدر الرئيسى فى منظومة الرى فى ذلك الجزء من واحة الأحساء .

ويصل عمق حزام النخيل إلى حوالى أربعة أميال من الشرق إلى الغرب ، أما من الشمال إلى الجنوب فلا يقل عمق ذلك الحزام عن ضعف هذه المسافة ، وحول هذا الحزام توجد الصحراء التى ترتفع ناحية الغرب ارتفاعًا مفاجئًا يصل إلى أربعين أو خمسين قدمًا ، مشكِّلة بذلك هضبة منخفضة جرداء ، يقع خلفها هى أيضًا حزام آخر من النخيل – واحة الأحساء الأساسية – على مستوى أعلى من المستوى الأول . ومبلغ يقينى أن منطقة الأحساء[٣٠] تتكون من هاتين الواحتين ، الواحة الشرقية والواحة الغربية ، اللتين يصل فارق مستوى الارتفاع بينهما إلى أكثر من مائة قدم ، كما تصل المسافة من أقصى الواحتين إلى أقصاهما عبر الهضبة التى تتوسطهما إلى حوالى ميلين . والطريق يبتعد عن الواحة الشرقية متجهًا إلى الهضبة عند قرية فضول Fudhul

المسوَّرة ، والشبيهة بالدائرة ، وتقع على حافة محجر من محاجر الحجر الجيرى التى يجرى استغلاله استغلالاً كبيرًا ، وعلى مسافة ميل واحد فى اتجاه الشمال الغربى وعلى حافة منطقة النخيل تقع قرية المنيزلة Munaizila الصغيرة . وهنا تطل صخور بريقة Buraiqa غير المتناسقة شامخة فى اتجاه الشمال ، فى حين تقع قرية قارة Qara على مسافة أقرب ناحية الشمال الشرقى ، ويستر حزام النخيل جزءًا منها . وعدد سكان فضول قد يصل إلى حوالى ١٠٠٠ نسمة ، وسكان المنيزلة على حد معرفتى من ذلك المنظر البعيد يُقدرون بنصف عدد سكان قرية فضول . ويقال إن قرية طرف Taraf، التى لم أشاهدها قط ليست أصغر من جيشة ، وهى تشتهر مثلما قلنا بالحجر الجيرى ذى النوعية الممتازة . وترف تشارك فضول فى مياه مجريىْ الوجَّاج Wajjaj والسليسيل Sulaisil ، هذا فى الوقت الذى تعتمد فيه مستوطنات الجزء الشمالى من الواحة على مياه مجرى برابار Barabar المائى . على العموم فنحن عندما نسلم بوجود قرى أخرى غير القرى التى ذكرناها وعندما نسلم أيضًا بوجود سكان فى المساكن البستانية المنعزلة يمكن لنا أن نقدر إجمالى عدد سكان الواحة الشرقية بحوالى ١٥٠٠٠ نسمة ، ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن قسمًا كبيرًا من بساتين تلك الواحة الشرقية مملوك لتجار الهفوف وبعض السكان الآخرين .

والهفوف نفسها عاصمة الأحساء تقع على ارتفاع ٤٧٥ قدمًا فوق مستوى سطح البحر فى الطرف الجنوبى من الواحة الغربية ، وطريقنا ينحرف قليلاً ناحية الجنوب عن غرب قرية فضول ليسير عبر قطر الهضبة ، والطريق بعد أن يتجاوز بربخًا مبنيًا على مجرى الوجاج المائى سريع الجريان الذى تأتى مياهه من عين فى الواحة القريبة تتخلله سلسلة من أبراج المراقبة التى جرى التخلى عن معظمها منذ رحيل الأتراك . ويشهد الخراب التى هى عليه بالسلام والأمن الذى يسود هذه المنطقة حاليًا ، وذلك على العكس تمامًا من الفوضى التى كانت سائدة فى تلك المنطقة أيام الحكم التركى ؛ فقد كان الباشوات الأتراك ينتقلون من موقع إلى آخر فى صحبة الحراسة العسكرية ، وكان القرويون يتحاشون الطرق الرئيسة التى لا يقل بل يزيد طمع وجشع رعاة السلام عليها عن طمع وجشع مقيضية .

وبعد أن عبرنا الهضبة وصلنا إلى حافة الواحة الغربية عند برج حراسة عويمل Uwaimil بعد مسير دام أربعة أميال ، زدنا عليها ميلاً آخر سرناه خلال بيارات النخيل المسورة ، ووصلنا بعد ذلك إلى الفضاء الواسع على الجانب الآخر الذى كانت قبة مسجد إبراهيم باشا البيضاء تبدو فيه مرتفعة من بين أسطح الهفوف المستوية ، ولا تبعد كثيراً عن البوابة التى دخلنا منها خلال لحظات قليلة إلى الـرِّفـا ع Rifa' أو إن شئت فقل : الحى الشمالى الشرقى من المدينة ، لنعبره هو ومنطقة سوق الخميس الواسعة التى تفصل الرِّفا ع عن الكوت Kut ، أو إن شئت فقل القلعة مقصدنا ومقر مركز رئاسة الحكومة المحلية .

أقمنا فى الهفوف مدة يومين إلى مساء اليوم الحادى والعشرين من شهر نوفمبر ، ثم بدأنا التحرك إلى أرض المخيمات بالقرب من قلعة خيزام استعداداً لاستئناف رحلتنا فى وقت مبكر من صبيحة اليوم التالى لنقطع الرحلة الصحراوية التى كانت تنتظرنا . وطوال تلك الفترة أقمنا فى شقة واسعة تماماً ولكنها كانت قليلة التأثيث ، خصَّصوها لاستعمالنا فى الطابق العلوى من واحد من عدة أحواش يتكوَّن منها السراى Sarai ، ذلك الاسم الذى يطلقه الأتراك على كل ديوان من دواوين الحكومة . وعندما وصلنا إلى بوابة السراى استقبلنا بعد أن نزلنا من فوق الإبل محمد أفندى ابن على مدير إدارة الإيرادات ، ثم رحب بنا بعد ذلك بدقائق قليلة عند أعلى الدَّرج (السلم) المؤدى إلى شقتنا ، عبد الله بن جلوى شخصيًا أمير الأحساء كلها بما فى ذلك القطيف والجبيل وعقير التى يعد المشرف العام على أمرائها ، وعبد الله ابن جلوى هو ابن عم ابن سعود من جيل سابق ، ووالد عبد الله هو جلوى شقيق فيصل الكبير . وبعد أن أوصلنا عبد الله إلى غرفة الجلوس (المجلس) التى مكث معنا فيها بضع دقائق ، ودار بيننا وبينه خلالها حديث رسمى استأذن منصرفًا ، واختفى عنَّا من خلال باب صغير يصل حوشنا بحوش المواطنين ، وترك معنا سكرتيره خليل أفندى ، وهو تركى من الصلاحية Salahiyya فى ولاية الموصل ، وهو مثل محمد أفندى أثر من آثار الإدارة التركية السابقة ، تركه عبد الله معنا ليلبى لنا حاجاتنا .

وفى ساعة متأخرة من المساء استدعانا الأمير إلى مجلسه ، وفى أثناء مرورنا أدخلنا خليل أفندى ، من خلال صالة ضيقة يقف على جانبها صف من العبيد ، يلبسون زيًا مرحًا موحدًا وطويلاً يطلقون عليه اسم الزّابون ، مصنوع من القطيفة نارية اللون ، ويتسلح كل واحد منهم بسيف . ودخلنا بعد ذلك غرفة طويلة ضيقة ، مرصوصة فيها صفوفٌ من الكراسى والأرائك الطويلة ، وينهض واقفًا لاستقبالنا عبد الله الذى كان يجلس فى الجانب الآخر من تلك الغرفة . وقدم أحد العبيد القهوة على صينية اتجه العبد بها إلىّ أولاً بناءً على إشارة من سيده ، ولم استحسن ذلك التكريم وأومأتُ برأسى فى اتجاه الأمير الذى قاطع ذلك الاحتجاج المؤدب بعبارة وجيزة "ما تشرب" مصحوبة بتحريك طرفى فمه بطريقة آمره ، ورضخت لذلك وتناولت فنجال القهوة وتناول فنجالاً من بعدى ، وبإصرار منه سرى ذلك النظام فى شرب القهوة كلما اجتمعنا سويا .

وعبد الله بن جلوى متوسط العمر ومتوسط الطول أيضًا ليس بدينًا ولا نحيفًا ، ولحيته كاملة سوداء قصيرة ، وهو حذر ضعيف الملامح مقطب الوجه ، ليس ضحوكًا ، ويتكلم بطريقة رسمية ، والأهالى يعدونه عظيمًا من عظماء الجزيرة العربية الحديثة ، ترتيبه الثانى ، بعد مليكه فى الأراضى الوهابية . وهو اعتبارًا من ذلك اليوم المشئوم من العام ١٩٠٠ الميلادى[٣١] ، عندما وقف إلى جانب ابن عمه الأصغر فى المخاطرة البائسة التى أعادت الأسرة المالكة السعودية إلى عرش الرياض ، أصبح يحظى بثقة ابن سعود التى لا تعرف الحدود . وكان عبد الله بن جلوى طوال فترة الصراع الذى أعقب استعادة العاصمة بمثابة ذراع مليكه اليمنى وناصحه ومستشاره الأمين ، وجرى تعيينه أميرًا على القصيم بعد أن جرى اقتطاعها من ابن الرشيد ، وبقى عبد الله يشغل ذلك المنصب الحساس والدقيق الذى أنجز مهامه بنجاح واضح إلى عام ١٩١٤ الميلادى عندما استدعاه ابن سعود إلى الأحساء لإعادة النظام إلى ذلك البلد بعد الفوضى التى ترتبت على سوء الحكم التركى . بعض الرجال تقحم عليهم العظمة وعبد الله بن جلوى واحد من أولئك الرجال ، ولما كان عبد الله من النوع المتواضع والخالى تمامًا من الطموح فهو لا يتطلع إلى أى شىء سوى الحياة المسالمة الهادئة فى ربوع وطنه ، وقد كتبت عليه مزاياه هذه النفى شبه المستمر فى

مناطق الحدود البعيدة ؛ ففي الأحساء أثبت أنه لا يمكن الاستغناء عنه ولم يسمح له بترك منصبه ولو للحظة واحدة. من هنا ، فقد ارتكز عبد الله بن جلوى على مشيئة العناية الإلهية وعلى ولائه وضميره الحي وبدون حماس أو تهور ، وراح يكرس نفسه عامًا بعد عام لإنجاز مهام منصبه ؛ مقسمًا بذلك وقته بين الترويح عن حريمه وأداء مهام الدولة ، إلى حد أنه من النادر - إن لم يكن يفعل مطلقًا - أن يغادر جدران القلعة (كوت) الأربعة ، إلى الحوش الواسع الذى يسمح للجميع بالدخول إليه ، والذى يستمع فيه عبد الله بن جلوى إلى شكاوى المواطنين ويبت فيها ، كما يتلقى فى ذلك الحوش أيضًا تقارير عن أعمال المواطنين وعن مخالفاتهم . وفى المنطقة التى تمتد من منطقة الحدود مع الكويت إلى أقاصى كل من جبرينJabrin وجافورة Jafura فى رمال الجنوب يثير ذكر اسم عبد الله بن جلوى الرعب الحقيقى ، وتسرى معاملاته المكتوبة بلا قيد أو شرط ، كما أكسبته عدالة الأحكام التى يصدرها وتنفيذه السريع لتلك الأحكام الرادعة شهرة ذاع صيتها بين الناس . وبلا خوف أو محاباه يقيم عبد الله بن جلوى إدارته على أساس من مبدأ Parcere subiectis et debellare superbos ، وإذا صحّ ما يقولونه عن الاضطرابات القبلية التى حدثت فى الأحساء فى الماضى فإن السلام والنظام والأمن الذى تشهده هذه المنطقة فى هذه الأيام يعد أقوى دليل على نجاح أسلوب الحكم الذى يسير عليه ذلك الرجل .

حدث ذات يوم - وقد حضر عبد الله مجلسًا من مجالسه الشعبية - أن دخل عليه رجل فقير من أهل الهفوف . وولول الرجل بالخطاب المعتاد قبل أن يبدأ فى عرض قضيته قائلاً: "طوَّل الله عمرك ، يا الأمير !" واستطرد الرجل قائلاً : "كنت أسير فى الشارع العام وفاجأنى من الخلف رجل كان يركب حصانًا وأنا لم أره ولم أبتعد عن طريقه ، وفجأة ! ضربنى بعصاه وسبنى . العدل.، أيها الأمير !".

"ومن هو الذى كان يركب الحصان ؟"

"يا طويل العمر! ابنك ، فهد".

"أرسلوا ، فى طلب ولدى ، فهد" ، وعندما ظهر فهد تساءل الأمير قائلاً : "أهذا هو الرجل الذى ضربك ؟ وهل هذه هى العصا التى ضربك بها ؟" ورد العجوز قائلاً : "إى ، بالله !" وسأل عبد الله ولده الأكبر قوى البنية ، الذى يبلغ من العمر حوالى ثمانية عشر

عامًا : " "هل ضربته ؟" ويرد الابن : "إى ، بالله !" ويحول عبد الله بصره ناحية العجوز ويقول له : "إذن تناول هذه العصا واهوِ بها على الصبى بكل قوتك، وإلا ، بالله ! سوف يهوى بها أولئك العبيد إلى أن تصرخ مرة أخرى ." وسجد العجوز عند قدمَىْ الأمير وراح يرجوه الصفح عن بذاءته ، ورجاه أن يجنبه عار رفع يده على واحد من آل سعود . وهنا أمر عبد الله ولده قائلاً : "تقدم هنا ، ضب بشتك"[٣٢] . وبيديه ألبس المدعى عباءة ولده وأرسله لحال سبيله بعد أن أعطاه مبلغًا من النقود على سبيل الهدية .

وفى مرة أخرى جاء قروى يشكو من أن بدويًا كان يمر ومعه جمله على حقل ذلك القروى غير المسور والمزروع بالبرسيم الحجازى ، وأن ذلك البدوى حول اتجاه الجمل إلى حقل البرسيم ليرعى فيه بالرغم من اعتراض القروى . وأرسل الأمير فى طلب المتهم الذى أنكر الاتهام الموجه إليه . وهنا قال الأمير عبد الله : "حسن ، إن الأمر فى غاية البساطة ؛ إذن ، فسوف يذبح الجمل ، وإذا ما وجدنا البرسيم فى كرشه فإن المدعى سوف يحصل على لحم الجمل تعويضًا له عن الضرر الذى أصاب محصوله ، وإذا لم نجد البرسيم فى كرش الجمل فإن المتهم سيحصل على ثمن الجمل من المدعى على سبيل التعويض ."

هذه هى بساطة حكمة الأيام والمعرفة العميقة للطبيعة البشرية ؛ ومع ذلك فإن عدل سليمان وحكمته تستثير مزيداً من الثناء بدلاً من المحاكاة والتقليد ، وفقهاء الإسلام فى الجزيرة العربية يدينون الطاغوت ، أو إن شئت فقل : القانون البدوى العرفى الشفهى غير المدون ، لا لمزاياه وإنما لأنه من أعمال الجاهلية[٣٣] ، التى سبقت اتباع وممارسة العقيدة السليمة .

ومصطلح الأحساء Al Hasa معناه "الحجر الجيرى" وهو لا ينطبق إلا على سهل الحجر الجيرى الواقع بين منحدر الصمّان Summan الصحراوى وحزام الرمل الشرقى، وهو ينطبق بصورة أكثر تحديداً على المنطقة المجاورة بالفعل للواحتين التوأم ؛ والمصطلح من الناحية الإدارية يستعمل استعمالاً واسعًا ليشمل كل المنطقة الخاضعة لسلطة الأمير . والواحة الغربية وحدها هى التى تحمل اسم الأحساء Al Ahsa المميز الذى يدل

على "الهمس" أو "الهمهمة" الصادرة عن المجارى المائية التى وفرتها الطبيعة لرى الأراضى الخصبة فى الواحة . وكلمة "حسا" فى نجد هو مصطلح لكل الصخور أو الأحجار ، أما الكلمة "حجر" فهى نادرة الاستعمال أو قد لا تستعمل مطلقًا ، ويجرى تمييز أنواع الصخور من ألوانها وليس بمكوناتها المادية ؛ ومن هنا فهم يقولون للجرانيت الأحمر "حسا أحمر" ، أما البازلت ، والجرانيت الرمادى ، وكذلك الصخور البركانية فيقولون لها "حسا أسود" ، والحجر الأخضر يقولون له "حسا أخضر" ، إلخ . ومبلغ علمى أنى لم أسمع قط اسمًا محدداً لأى نوع من أنواع الصخور ، يضاف إلى ذلك أن البدوى العادى لا يخطئ مطلقًا اسم أى نبات من النباتات ، والبدوى عندما يركب دابته تتركز عيناه على الأرض ، بحثًا عن علف لركوبته من ناحية وقصًا أيضًا لأثر العدو المحتمل ، وعندما يقع بصره على شىء من العشب المفضل ينزل عن دابته ؛ إذ إن الجمل الذى يركبه هو كل ثروته وشغله الشاغل ، وهو يشعر بالسعادة كلما حصل ذلك الجمل على الطعام بالرغم من أنه هو نفسه قد يسير بغير طعام .

والهفوف التى تضم ٦٠٠٠ منزل شهير ، والتى لا يقل عدد سكانها كثيراً عن ٣٠٠٠٠ نسمة هى ، إلى حد بعيد ، أكبر المدن من بين ممتلكات ابن سعود ؛ ومدينة الهفوف بيضاوية الشكل تقريبًا ، ويحيط بها سور لا مثيل له فى ارتفاعه ، مبنى من كتل الحجر الجيرى الذى جرى جلبه من المحاجر المحلية ، وهو مليَّس بالطين فى بعض أجزائه . والمدينة تقع بين الشمال الغربى والجنوب الشرقى ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية : هى حى الكوت ، وحى الرفاع ، ثم حى النياثل Nayathil التى يمكن أن نضيف إليها ضاحية الصالحية ذات الجدران . والحائط الغربى الذى يلتصق تمامًا مع بيارات النخيل لا توجد به بوابة معتادة ، ومهدم فى بعض أجزائه ، ومخرَّم بطريقة غير رسمية فى بعض البساتين . والحائط الجنوبى توجد به بوابة واحدة يطلق عليها اسم باب نجد ، وهو منفذ المرور الوحيد من الداخل وإليه . والحائط الشرقى توجد به بوابتان، باب الصالحية ، على الطريق القادم من طراف Taraf فى الواحة الشرقية ، ويخترق الضاحية التى يحمل اسمها ، وباب جيشة الذى دخلنا منه شأننا فى ذلك شأن كل القادمين من مرافئ الأحساء . وأخيراً الحائط الشمالى وبه أيضًا بوابتان ،

إحداهما تسمى باب إبراهيم باشا ، الذى يؤدى مباشرة إلى الكوت فى المنطقة المجاورة للجامع الكبير والقلعة التى تحمل اسم الحاكم المصرى المناب السابق(٢٤) ، على حين يؤدى باب الخميس كما يوحى اسمه إلى الساحة الواسعة التى ينعقد فيها سوق الخميس الذى يشق المدينة طوليا إلى أن يصل إلى منتصفها ، والذى يطلق عليه اسم الحميدية التى هى بمثابة قاعة للمدينة منذ أيام العثمانيين ، ولكنها تحولت اليوم إلى مستودع لتخزين ممتلكات بيت المال ، ويوم أن زرناها كانت عبارة عن مستودع كبير لتخزين التمور ، يُسمع من حوله أزيز الدبابير التى كانت تدخل إليه من خلال الفجوات الموجودة فى النوافذ.

سوق الخميس عبارة عن شارع مترب واسع يصل عرضه إلى حوالى ٥٠ ياردة ، أما طوله فيقدر بحوالى مائة ياردة ، والسوق من الناحية الغربية يحف به من أوله إلى آخره الخندق وسور الكوت الذى يمكن الدخول إليه من هذا الجانب عن طريق بوابة محصنة تحصينًا جيدًا بحواجز حديدية مشبكة فى البوابة . وعند ناصية الكوت بالقرب من الحميدية يوجد برج مرتفع ، يمتد منه جدار مرتفع ناحية الغرب إلى أن يتصل بسور المدينة الخارجى . وحى الكوت يشكل بذلك قلعة مربعة الشكل داخل مدينة محصنة ، وبداخل ذلك الكوت يوجد السراى ، ومسكن الأمير الخاص ، ومنازل بعض المسئولين الآخرين ، والقلعة ، وجامع إبراهيم باشا ، كما يوجد بالكوت أيضًا سجن ، وعدة صفوف من المنازل العادية ، ومحلات مختلفة الأنواع ، وعلى ذلك يكون الكوت كاملاً بحد ذاته ومزودًا تزويدًا جيدًا تحسبًا للطوارئ التى قد تنتج عن الحصار حسب مقتضيات الحال فى زمن الحكم التركى ، سواء أكان ذلك الحصار من الداخل أم من الخارج ، أو إن شئت فقل : متراس للمدينة فى مواجهة الغزو الأجنبى وملاذًا للحامية فى حال الثورة الشعبية . وبالرغم من كل قدرات الأتراك فى نظريتهم الدفاعية فشلوا فى توفير الضمانات الكافية اللازمة لمواجهة إهمالهم هم أنفسهم ، ففى ليلة معلومة من ليالى ربيع عام ١٩١٤ الميلادى ، استيقظ الحراس النائمون من نومهم فى ظروف أصبحت المقاومة معها أمرًا ميئوسًا منه وبلا جدوى ، فقد قام مائة من المتهورين الوهابيين الذين لم يرتَبْ الأتراك فى وجودهم فى المدينة بمطاردة الضباط الذين

أصابهم الرعب والفزع هم ورجال الحامية التركية أمامهم ، ومع طلوع الفجر كانوا قد استولوا على الكوت كله باستثناء جامع إبراهيم باشا الذى هرب إليه القائد هو وضباطه ومعهم زوجاتهم وأسرهم ، وكذلك أيضاً أناس آخرون من الحامية ، كانوا قد هربوا إلى الجامع فى أثناء الفوضى التى جرت فى الليل ، وتجمعوا كلهم فى الجامع استعداداً لمقاومة الغزاة . وبقى على الحياد أهل الهفوف الذين لم يرغبوا فى استمرار الحكم التركى ولا فى السيادة الوهابية ، ولكن بوابات المدينة والكوت انفتحت لابن سعود فى صباح اليوم التالى بفعل رجاله ، وجاء تعامله مع الموقف تعاملاً مشهوداً ؛ فقد جرى على وجه السرعة بث لغم تحت أرض الجامع ، وجرى تجميع كل البارود المتوفر ووضعه ضمن اللغم ، وتلقى القائد إنذاراً صيغت كلماته صياغة مهذبة . ولم يتردد القائد طويلاً فى الخيار بين الاستسلام بلا قيد أو شرط والموت المفاجئ .

وبهذه الطريقة وبدون إراقة نقطة دم واحدة أصبح ابن سعود سيداً على مدينة الأحساء ، وخرجت الحامية التركية بدون إزعاج ولكن تحت الحراسة إلى أن وصلت إلى الشاطئ الذى استقلوا منه سفينة إلى البحرين . واستسلمت حامية القطيف وحامية العقير بلا مقاومة ، وعوملتا بالطريقة السابقة نفسها ؛ وبذلك اختفت آخر نقاط السيطرة التركية من مناطق الخليج إلى الأبد .

وسوق الخميس يظل مهجوراً طوال أيام الأسبوع باستثناء أيام الخميس التى تنصب فيها الأكشاك الصغيرة المصنوعة من حصير البوص على شكل صفوف ويفد إليها البائعون والمشترون بالآلاف لحضور السوق الأسبوعية . وفى ذلك السوق تجرى تجارة رائجة فى التمور ، والحاصلات البستانية بكل أنواعها ، وفى اللحم ، وبخاصة أفخاد الجمال الحمراء ، وقطعان الماعز والأغنام ؛ ولأن الأسر كلها هنا تأكل اللحم طوال أيام الأسبوع ، ولأن الفقراء لا يأكلونه إلا يوم الجمعة ، اليوم الذى تقام فيه صلاة الجمعة ، وهو اليوم أيضاً الذى يتسوق رب الأسرة فيه مقاضى بيته ؛ فالأسعار هنا ليست ثابتة وكل شىء يباع ويشترى بطريقة المساومة (المكاسرة) ؛ ولا تباع عنزة أو خروف إلا بعد أن تجسها وتفحصها أيادى الخبراء .

والقيسارية تقع ناحية الجانب الشرقى من السوق ، والقيسارية متاهة كبيرة من "البواكى" المسقوفة أو المكشوفة التى توجد فيها الدكاكين الرئيسية : البقالون ، وباعة القبعات ولوازمها ، وباعة لوازم الخياطة ، وتجار الأقمشة ، وباعة السجاد ، وصناع المعادن ، وصناع أطقم الخيل ولجمها ، وتجار العملة وما إلى ذلك . والحضر والبدو يتجولون طوال اليوم فيما عدا أوقات الصلاة بين تلك الدكاكين بحثًا عن الصفقات شوقًا إلى الشراء ، ولا يهدأون طالما كانت لديهم النقود التى ينفقونها . والجزء الأكبر من البضائع التى فى تلك الدكاكين يأتى من الهند ، ويدعمها التجار بالأشغال المعدنية المحلية ، وكذلك المشغولات الخشبية ، والمشغولات الجلدية ، ودلال القهوة ، والأخراج ، وسروج الخيل ، والمباخر ، والنعال ، وأخيرًا وليس آخرًا ، البشوت السوداء المزينة بياقات من خيوط الفضة أو المزركشة بخيوط الذهب والتى تشتهر بها الأحساء وحدها . وفيما عدا ذلك الاستثناء الوحيد لم يكن فى ذلك المكان شىء ذو قيمة فضلاً عن ارتفاع الأسعار .

وحى الرفاع يشتمل على القيسارية ويشغل الجانب الشرقى كله فى المدينة ، وتوجد فى ذلك الحى منازل التجار ، ومنازل الأثرياء . وشكل المبانى فى هذا الحى يوحى بالتواضع الكامل من الخارج ؛ فهى مبنية من الحجر الجيرى الشائع فى هذه المنطقة ، والمليس بالجبس أو بالطين ، ولكن هذه المنازل فارهة من الداخل اعتماداً على قدرات أصحابها . ومن سوء الطالع أننى لم أستطع بسبب ضيق الوقت رؤية أى منزل من تلك المنازل من الداخل وذلك باستثناء السراى Sarai .

وحى الكوت هو والرفاع ربما يشغلان ثلاثة أخماس المدينة كلها ، أما الجزء المتبقى أو إن شئت فقل : القسم الجنوبى الغربى من المدينة فهو بشكل ما يطلق عليه اسم النياثل Nayathil أو إن شئت فقل الحى الفقير المكتظ بالسكان . والشوارع ضيقة فى هذا الحى وليست مطروقة مثل سائر الشوارع الأخرى ، والمنازل أقل رونقًا لافتقارها إلى الطلاء بالجبس ، فى حين كانت تبدو خربة . ويفصل حى النياثل عن حى الرفاع شارع ضيق ، يمتد من الحميدية إلى منطقة واسعة يطلقون عليها اسم القرن Al Qirn وتقع أمام بوابة نجد .

وضاحية الصالحية التى تقع خارج سور القسم الجنوبى الشرقى من المدينة ، حديثة العهد ، ويُشتق اسمها من اسم القلعة التى بناها الأتراك لحماية المدينة من ذلك الجانب . وسكان تلك الضاحية السابقون كان معظمهم من الضباط والمسئولين الأتراك هم وعائلاتهم والذين لم تتوفر لهم الإعاشة الكافية أو المناسبة فى حى الكوت المكتظ . ومحمد أفندى هو وخليل السكرتير ومعهم قلة قليلة أخرى من بقايا العهد القديم ، متأصلون فى التربة التى اختاروها ، يكفلون أنفسهم بحماس الأيام الخوالى نفسه ، يخدمون أسيادهم الجدد بإخلاص لا يقل عن إخلاصهم لأسيادهم القدامي ! لقد ضاع وولى كل شيء ونصت الشريعة الإسلامية السمحة على كفالة الزوجات والعائلات التى راحت تحيى تلك الأيام الموحشة ، فقد كانوا يتجولون خلالها فى أراض بعيدة .

وإدارة المدينة العربية غاية فى البساطة فهى خالية من التعليم ، والتصحاح ، والإضاءة ، وبالتالى ليست هناك مصروفات أو ضرائب فيما عدا ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه الحساب "الإمبراطورى" . والأحساء فى هذا الصدد ، هى بقرة الإمبراطورية الوهابية الحلوب ، فهى المنطقة الوحيدة – وربما القصيم إلى حد ما – اللتان تحققان بعد دفع نفقات الإدارة المحلية فائضًا كبيرًا للخزانة المركزية . والمصدر الرئيسى للدخل هو الجمارك(٣٥) ، والمكوس ، والزكاة أو إن شئت فقل ضريبة الأرض . والزكاة تجيء بمقدار العشر من إجمالى إنتاج المحاصيل الأساسية مثل التمور والقمح والأرز وتدر على الخزانة دخلاً سنويًا يقدر بحوالى ستة لاكات روبية ، أما الزراعات الثانوية مثل الفواكة ، والخضراوات ، ومحاصيل علف الماشية وما إليها ، معفاة من الضرائب ، وأراضى التاج هى والحيازات الكبيرة الأخرى لا تدفع إيجارًا . ونظام كهذا يخلو كما يبدو من مبادئ التقييم العلمى ، تكون له ميزة إعطاء التشجيع المطلوب لمستأجرى الأرض كى يقوموا بتحسين حيازاتهم ، ويضعوا فى اعتبارهم متطلبات السوق ، فى الوقت الذى يعد تحسبًا كبيرًا للوسيلة الفريده غير العادلة تمامًا التى يفضل الأتراك اتباعها فى بعض أجزاء بلاد الرافدين وبخاصة فى أراضى نهر الفرات المنخفضة والتى تصنف أراضى النخيل فيها على أنها أراضٍ خراب (أى غير مزروعة) ، نظرًا لأن المحاصيل الثانوية لا تزرع فيها ، وتفرض عليها معدلات

زكاة أعلى من المعدلات التي تفرض على الأرض العمار (المنزرعة) ، والتي تزرع فيها الخضراوات وأشجار الفاكهة إلى جانب النخيل ، ويجرى تحسين مصادر دخل الخزانة التي تضيع بهذه الطريقة عن طريق فرض ضرائب تسمى ضرائب الخضراوات ، وهي لا تفرض على كل أنواع الخضراوات المزروعة وإنما على الخضراوات التي يجرى جلبها إلى الأسواق في المدن . والهدف من ذلك تشجيع زراعة الخضراوات وهو هدف ممتاز ولكن أفضل النوايا لا تستطيع تغيير أو تعديل السياسة السيئة ، ومن المعروف أن الحالة الأخيرة التي تسمى البساتين الخراب أسوأ من الحالة الأولى . ويضاف إلى مصادر الدخل هذه ضريبة أخرى مقدارها ريال واحد تفرض على كل جمل يدخل مدينة الهفوف ، وعلى كل كشك من الأكشاك التي تجرى إقامتها في يوم السوق ، وفي الأيام الأخرى غير أيام السوق تفرض ضريبة أرضية بمعدل ريال واحد كل شهر عن كل نوع من البضاعة داخل الكشك .

وتحصيل الضرائب موكل إلى محمد أفندى المواطن الموصلي الذي جرى اختياره بعد خدمة دامت مع الأتراك ثلاثين عامًا للبقاء في منصبه بعد سقوط الأحساء ، وهو يتقاضى مرتبًا مقداره ٢٠٠ ريال في الشهر ، علاوة على المستلزمات الأخرى التي يضيفها على حسابه أو لصالحه . ومحمد أفندى لا يُساءل طالما قدم موازنة تبدو مقنعة ، وطالما حول مبالغ كبيرة بصورة منظمة إلى الرياض . والنظام السائد الذي يقوم على التقدير السنوي لقيمة الحاصلات يعطي من يعمل على أرض الواقع – أو إن شئت فقل : من يقوم على تحصيل هذه الضرائب – مجالاً واسعًا ، فقد همس لي الحاسدون لأولئك المحصلين من الرياض بأن حساباتهم لا تتحمل التوتر الناتج عن المراجعة المحترفة . وابن سعود هو وزير ماليته الخاص ، وهو بنفسه الذي يشرف على الإنفاق من الخزانة بكل تفاصيله ؛ ولكنه لا يخطر بباله مطلقًا أن خزانته ربما تمتلئ أكثر وأكثر إذا ما أخضع إدارة متحصلات ممتلكاته للإشراف العلمي . ومحمد أفندى هو الحارس الحاقد الذي يقوم على أمر أسرار الأحساء المالية ، ويساعده في ذلك ملازمه خليل ؛ وهذان الاثنان إذا ما أبعدا عن وظيفتيهما سوف تعقب ذلك فترة من الفوضى المالية . والضرائب يجرى تحديدها عينيا وتدفع إما عينيا أو نقدًا ،

وأمير كل وحدة من مستوى القرية هو المسئول عن جباية ودفع الضرائب المستحقة من أهل قريته ، وهذا يوفر على القروى الأعباء المترتبة على وكالة التحصيل الرسمية ، بل إن أعمال تقييم المحاصيل موكولة أيضًا إلى سلطات القرية ، وتخضع للتفتيش الرسمى حسب ما يراه المدير .

وعلى بعد مسافة ثلاثة أو أربعة أميال إلى الشمال الغربى من الهفوف تقع مدينة المبرَّز الشقيقة التى يصل تعداد سكانها إلى ما يقرب من ٢٠٠٠٠ نسمة ؛ وهذه المدينة ليس لها رُواء العاصمة ، فشوارعها ضيقة ومتعرجة ، ومنازلها مبنية من الحجر الجيرى الذى لا مفر منه ، ومنخفضة وغير مطلية بالجبس ، والسور الذى يحيط بالمدينة بدون أبراج ، وبوابات ذلك السور عبارة عن فجوات عديمة الشكل ، وتوجد بوابة فى كل ركن من أركان السور الأربعة . وبعد البوابة الشرقية من الداخل يوجد فضاء ضئيل يمتد بطول جانب من الأجناب ، وهو الذى يقع عنده بيت الأمير محمد بن ثنيان الذى زرته فى إحدى المرات التى خرجت فيها من مدينة الهفوف طلبًا للتنزه . ولأنهم أخطروه بوصولى ، فقد خرج ممتشقًا سيف الحكم ويحيط به بعض أتباعه ، واقتادنى إلى مقعد من الطين مفروش عليه حصير ويبعد قليلاً عن الجدار الذى يستعمله مقعداً للحكم فى أثناء انعقاد المجلس الخارجى كل يوم . وجرى صب الشاى والقهوة وتوزيعهما على الجالسين الذين تجمعوا لرؤية الغريب . والأمير من أهل البلدة ، وهو يدير أمر هذه البلدة تحت إشراف عبد الله .

وأنا لم يتوفر لى الوقت الذى أستطيع معه زيارة قرى الواحة الغربية . ومن بين القرى الأخرى قرية رُقَيْقة Ruqaiqa التى تبعد حوالى ميلين إلى الجنوب الغربى من الهفوف ، وقرية شاهرين فى اتجاه الشمال على الحافة الشرقية للواحة ، وقد شاهدت القريتين من مسافة قريبة ، كما شاهدت أيضًا قرية المطيفى وجليجلة Julaijila ؛ أما بقية القرى فلم أعرف سوى أسماء[٣٦] القليل منها ، ولكن من السهل أن نقدر إجمالى عدد سكان القرى البعيدة فى ذلك القطاع بما لا يزيد عن ١٠٠٠٠ نسمة ، وهذا الرقم يصل بإجمالى سكان الواحة الغربية إلى حوالى ٦٠٠٠٠ نسمة ؛ وبذلك يرتفع عدد سكان

الأحساء بكاملها إلى حوالى ٧٥٠٠٠ نسمة . ولم تتح لى فرصة زيارة القطيف والجبيل وتقدير عدد سكانهما ، ويمكن أن يكون فى حدود ٢٥٠٠٠ نسمة . وإذا كانت تلك التقديرات - وكلها تقريبية بالضرورة - تتسم بالصحة إلى حد ما ، فذلك يعنى أن غزو ابن سعود للأحساء أضاف حوالى ١٠٠٠٠٠ نسمة إلى سكانه الذين يستوطنون الأراضى الوهابية ، وهؤلاء السكان الجدد يشكلون عائقًا من عوائق التزمت والهرطقة ، والسبب فى ذلك أن نسبة كبيرة من سكان الأحساء ، وغالبية سكان القطيف يعتنقون المذهب الشيعى ، بين جماهير وسط نجد الملتزمة وجماهير الدنيا الخارجة عن نطاق معرفتهم .

وتتمثل ثروة الأحساء فى عيونها المعدنية ومجاريها المائية ووفرة المياه بها . وقلة قليلة من منازل الهفوف هى التى لا تحتوى على بئر خاصة للماء الذى يمكن الحصول عليه من أعماق تتراوح بين اثنى عشر قدمًا وعشرين قدمًا ، ولكن نوعية الماء تتباين من بئر لأخرى ، ومن عمق إلى عمق ، ومياه آبار حى الكوت وحى النياثل عذبة ، فى حين إن مياه الجزء الأكبر من حى الرفاع وحى الصالحية بكامله لها مذاق مالح ، والمجارى المائية التى تعتمد عليها بساتين الواحتين ترتفع من عدد من الآبار والعيون التى تنتشر فى كل أنحاء الواحة الغربية ، ثم تتحول بعد ذلك إلى قنوات مكشوفة تتبع الانحدار الطبيعى للأرض من الغرب إلى الشرق . وانسياب هذه المياه دائم وكاف ، ولكن طرق الرى غير الرشيدة التى لا تخضع لأى نظام من نظم السيطرة ، والزراعة الكثيفة المركزة ، أضرت بالتربة التى تحكى آلامها وأوجاعها المستنقعات التى تنتشر هنا وهناك وغابات النخيل المتحلل . والمصادر التى تستقى منها مجارى الأحساء المائية وجودها على حد معرفتى ، يصل عددها إلى عشرة مصادر . صحيح أن هناك مصادر أخرى ولكنها فى معظمها قليلة الأهمية أو المنفعة ، فهى مجرد فتحات (أوعيون) صغيرة تنبثق من شقوق الصخور ، والموروث الشعبى أو الخيال يعزى تلك العيون ، إلى سقوط النجوم . وأشهر تلك العيون هى العين الكبريتية أو إن شئت فقل : عين نجم Ain Najm التى تقع فى تلة صغيرة تحمل ذلك الاسم ، وتقع إلى الشمال من مدينة المبرز .

وأعظم تلك العيون هي: (١) العين الحارة ، التي تندفع المياه منها ساخنة بشكل ملحوظ في بحيرة كبيرة فاترة تكونت من مياه العين نفسها ، وتتفرع منها قنوات في اتجاهات مختلفة نحو بيارات النخيل التي حول مدينة المبرز[٣٧] . وهذه البحيرة تقع على بعد مسافة ميل واحد من المدينة ، وتمتد إلى مسافة أربعمائة ياردة من حيث الطول أما عرضها فيقدر بحوالي مائة ياردة ، وعلى حواف تلك البحيرة توجد بيارات النخيل ، وبئر أو اثنتان ، وأطلال بعض المساكن . وهذه البحيرة جانب من جوانب الجمال في تلك المنطقة ، ويقصدها الجنسان للاستحمام في مائها ، والجنس اللطيف يقصد بحكم العرف والتقاليد الطرف البعيد من البحيرة حيث يوجد البوص المرتفع ، وتوفر ظلال بيارة النخيل نوعًا من الخصوصية ، والماء على الرغم من سخونته بالقرب من العين نفسها ، ودفئه في بقية البحيرة ، فإنه عديم الطعم . ومبلغ علمي أنه لا تأثير له على المنظومة الإنسانية (٢) و (٣) عين الخدود The khudud وعين حقل Haqal التي تبعد الواحدة منهما عن الأخرى حوالي ربع ميل تقريبًا ضمن حزام النخيل الذي يمتد حوالي ميل ونصف الميل إلى الشرق من الهفوف ، والعينان تنبعان من القيعان الرملية صغيرة الحجم ، التي تخرج من كل واحدة منها قناة تتجه نحو الجنوب لتصل إلى نقطة تتحد عندها لتكون نهر السليسيل ، الذي ذكرنا بالفعل أنه واحد من المجاري المائية التي تروي الواحة الشرقية ؛ وفي البحيرات التي تحيط بها الحياة النباتية النمطية والتي تنتشر من حولها مناطق زراعة الأرز الواسعة تكون المياه دافئة ولها لون أخضر شفاف جميل كما أن جوانب تلك البحيرات مجوفة بفعل الحركة الدائمة للمياه المتزايدة . (٤) وبالقرب من عين الخدود تقع بركة صغيرة اسمها أم الجمال Umm al Jamal، وهي تروي قليلاً من حقول الأرز في المنطقة المجاورة لها. (٥) وفي مكان بالقرب من مدينة المبرز تقع عين أم الخريسان Umm al Khuraisan التي تسير بحذاء الطريق المؤدي إلى الهفوف ، ويعتقد الناس أن مياه هذه العين لها خواص كيماوية عجيبة لا تأثير لها على الأصباغ الطبيعية ولكنها تؤثر تمامًا على الأصباغ الصناعية وتتلفها ، ويجري اختبار بشوت الأحساء المصنوعة محليًا بغمرها في مياه تلك العين ، ثم الحكم عليها من مياهها السوداء اللون ، ولابد أن مياه تلك العين قد أنقذت كثيرًا من المشترين من

الغش . (٦) و (٧) و(٨) عين المطيـفى The Mutaifi ، وعين جليـجلة Julaijila ، وعين الجوهرية Jauhariyya ، والاثنتان الأوليان من هذه العيون ترويان القريتين اللتين تحملان هذين الاسـمين ، فى حين تروى العين الثـالثـة بيـارات النخـيل المعـروفـة باسم البطالية Battaliyya بالقرب من الهفوف . ولم أستطع زيارة أية عين من تلك العيون أو قرية من تلك القرى . وأخيراً (٩) و (١٠) عين الوجاج وعين برابار Barabar، اللتان لم أزر منابعهما ، وتقعان على ما أعتقد فى مكان ما من الطرف الشمالى للواحة الغربية.

وكمـا سبق أن أوضـحت فإن حى الكوت أو القلعة يشكل وحدة مستقلة ذاتيًا ، تكتمل فيها كل الضروريات ، كما تستطيع الاتصال بالخارج عن طريق البوابة الشمالية ، وتتصل ببقية المدينة عن طريق بوابة ضخمة الأبعاد فى جدار السور الذى يسير بحذاء سوق الخميس .

ومن داخل البوابة الأولى هناك برحة (منطقة مخيمات) واسعة ، يوجد على جانب من جانبيها وبالقرب من البوابة مبنى يشبه القلعة ، لا يستعمل حاليًا إلا مجرد سجن فقط . وعلى الجانب الآخر من تلك البرحة الواسعة يوجد الحجز الداخلى ، ويبدو أنه الحجز الخاص بالقلعة ، وهو عبارة عن قلعة واسعة سميكة الجدران يرتفع داخلها مسجد إبراهيم باشا ، الذى تساعد قبته العظيمة ومئذنته السامقة اللتان تجمعان بين السمات المهمة فى كل من العمارتين البيزنطية والإسلامية ، فى جعل ذلك المسجد أجمل المبانى فى وسط الجزيرة العربية وفى شرقها . كنا متشوقين تمامًا لفحص ودراسة ذلك المسجد الجميل عن قرب ومن الأحياء القريبة منه وليس من سطح المنزل الذى كنا نقيم فيه ، ومن بعض النقاط المفضلة الأخرى ، ولم نكن متشوقين فقط لزيارة المسجد ، وإنما كنا نود أيضًا أن نكوّن فكرة جيدة عن المخزونات العسكرية فى ذلك المكان ، وهذا هو ما أكده لى فى لحظة من لحظات السهو خليل أفندى الذى أفاد أن هناك بالفعل مخزونات عسكرية فى ذلك المكان ، ومن بينها ، كما يبدو ، بعض مدافع الماكينة التى أهدتها السلطات البريطانية فى بلاد الرافدين إلى ابن سعود بمناسبة الزيارة التى قام بها إلى البصرة فى العام السابق ، أملاً فى أن يستعملها

ضد ابن الرشيد . ومع ذلك ، اتضح لنا على الفور بعد ذلك ، أن مضيفنا لم يكن متحمسًا تمامًا لإطلاعنا على كل مصادره العسكرية ، وعلى الرغم من أنه أجاب على اقتراحي التجريبي الأول بعبارة "ما يخالف" ، فإنني توصلت ، بعد أن اقترحت على خليل أفندي ترتيب زيارة لذلك المكان ، إلى أن رئيسه أصدر له أمرًا بعدم تشجيعي على القيام بتلك الزيارة ، إذا ما استطاع خليل أفندي أن يفعل ذلك . ومع ذلك ، فقد كنت مصممًا على مشاهدة الأسلحة ومشاهدة المسجد أيضًا من الداخل ، وفي النهاية انتصر إلحاحي وجرى تحديد موعد للقيام بالزيارة. وبينما كنا في طريقنا إلى القلعة توقفنا برهة في البرحة التي اقتطع جزء منها لاستعماله إصطبلاً مكشوفًا ، شاهدنا فيه حوالي عشرين أو أكثر من الخيول العربية ، البعض منها من خيول الدرجة الأولى ، وكلها مملوكة لمضيفنا . ثم تحركنا بعد ذلك إلى بوابة القلعة ، حيث استقبلنا سليمان الحريقي استقبالاً رسميًا ، وسليمان الحريقي هو القائد ، وكان معه جزء من الحامية المحلية ، يقدر بحوالي خمسين رجلاً كانوا يرتدون ملابس ناصعة البياض ومسلحين ببنادق حديثة جيدة . وإجمالي القوة العسكرية ، التي تأتمر بأمر عبد الله ابن جلوي لحماية المواقع التي من قبيل العقير ، والقطيف ، والجبيل ، والأحساء ذاتها لا يزيد عددها بأي حال من الأحوال عن ٥٠٠ أو ٦٠٠ رجل ، ربما يكون نصفهم متمركزًا في العاصمة . وتجول القائد بنا في أنحاء القلعة ، ومن أمام دارة القلعة كانت توجد على مسافات متساوية فتحات كثيرة ، وضع أمامها حوالي سبعة عشر مدفعًا حقيقيًا ، بدون العربات الحاملة لها ، وكانت كلها غير صالحة للاستعمال ، وفي الغرف الموجودة في الدور الأرضي كان يوجد مخزون من الذخيرة الحديثة وبعض المدافع الصالحة للاستعمال ، وهي بالتحديد مدافع الماكينة الأربعة التي جرى الحصول عليها مؤخرًا من الحكومة البريطانية ، وبعض المدافع التركية التي كان قد تم الاستيلاء عليها من آخر الحاميات التركية في هذه المنطقة . وكانت ثلاثة من بين هذه المدافع الأربعة لا تزال داخل صناديقها التي شحنت فيها ؛ ولم يكن قد تم إخراج سوى مدفع واحد منها لفحصه وربما أيضًا للتدرب عليه بين الحين والآخر ، غير أن المشكلة الحقيقية وخيبة الأمل والإحباط كانت تكمن في الحقيقة التي مفادها أنه من بين الرجال الأربعة

الذين تدربوا على إدارة مدافع الماكينة بواسطة السلطات البريطانية فى البصرة قبل عام مضى ، كان ثلاثة منهم قد توفوا بالفعل ، وأن الشخص الباقى ، الذى كان اسمه حسين[٣٨] ، كان قد نسى بالفعل كل ما سبق أن تعلمه . ونحن بدورنا لم نتأثر كثيراً بالاستعراض العسكرى فى الهفوف ، وهنا يجب أن أعترف أنه على الرغم من أننى ظننت ذات مرة أن عرب ابن سعود ربما يستطيعون الاستعانة بالمدافع إذا ما توفرت لهم ، فإن تجاربى وخبراتى اللاحقة مع جيش ابن سعود ، والنتائج المحزنة التى حققتها مدفعية شريف مكة خلال مختلف مراحل الاشتباكات العسكرية حول الخورمة Khurma جعلتنى أصدق أن الجيش العربى يكون أكثر فاعلية بدون المدفعية عنه فى وجودها . وبعد أن تفحصنا تسليح القلعة ، عدنا إلى القبة الكبيرة ، التى جرى تحويلها من الداخل إلى ثكنة عسكرية ؛ إذ كانت أرضيتها عارية تماماً باستثناء قليل من فراش الحامية ، وفى حين كانت تتدلى من السقف بعض السلاسل كان واضحاً أنها كانت تستعمل فى تعليق الثريات أو النجف . يضاف إلى ذلك أن زيارتى بلغت من الرسمية حداً كان من الصعب معه أن يسمحوا لى بقياس أبعاد تلك القبة ، وكان لابد أن أكتفى بتصوير القائد وكبار عبيده الذين ينفذون أوامره تنفيذاً أعمى وهم يقفون أمام ابيضاضها الذى يبهر الأبصار .

الهوامش

(١) ٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر .

(٢) ٤١٠ قدم فوق مستوى سطح البحر .

(٣) تعرف تلك الضربة باسم الكوس Kos .

(٤) عبد العزيز بن سعود ، حاكم نجد ، هو الرئيس الشرفى أو إن شئت فقل إمام الوهابيين ، على الرغم من إسباغه هو نفسه ذاك اللقب على والده عبد الرحمن .

(٥) يشيع بين العرب إطلاق اسم العينين على هاتين المنطقتين .

(٦) جرى حفر بعض الآبار الأخرى من حين لآخر ، ولكن مياهها كانت ملحًا أجاجًا .

(٧) هذا المبنى بيضاوى الشكل فى وسطه فناء تطل عليه مخازن الدور الأرضى لخزن المشتروات والبضائع ، فى حين يتكون الطابق العلوى من غرف المعيشة ومكاتب هيئة العاملين فى الجمارك ، وكذلك الوكلاء المحليين لتجار الأحساء .

(٨) هناك برج مراقبة آخر على بعد أميال قليلة من العقير مقابل جزيرة زخنونيا ، والبرج الذى من هذا القبيل يطلق عليه اسم مفتول (جمعه مفاتيل) ؛ وشكل تلك الأبراج دائرى ، مستدق الطرف عند الأعلى ، وتوجد شرفة تحيط بنقطة المراقبة فى البرج . وأسفل نقطة المراقبة توجد غرفة معيشة الحرس المعتمة ، وتوجد أسفل هذه الغرفة غرفة أخرى تستعمل مخزنًا للذخيرة .. إلخ . وهناك مدخل صغير فى الطابق الأرضى هو المكان الوحيد المحدد للدخول والخروج ، وهو مغلق دومًا بالمزلاج . ولم يسمح لى بالدخول إلا بعد نقاش طويل وباعتبار ذلك مكرمة خاصة . كان الحرس فى ذلك الوقت مكونًا من عشرة رجال ، شأنهم شأن بقية حامية العقير ، مسلحين ببنادق حديثة .

(٩) السمن (المسلى) Saman . (المترجم)

(١٠) جمعه أريال Aril .

(١١) الشىء الطويل .

(١٢) فى المعاملات العامة الريال يساوى ١٤٠ بيزة ، والبيزتان تساويان عشر بارات (تركية) أو ثلاثة طويلات ؛ والروبيات المستخدمة فى دفع ثمن البضاعة يقدر سعر صرفها طبقًا للسعر السائد لصرف الدولار ، أما الفكة المعدنية فيتم دفعها بالبيزات والطويلات . والتاجر بهذه الطريقة لا يخسر فى بيع بضاعته .

(١٣) يتراوح سعر الصرف بين ٦ و ٧ دولارات للجنيه الإسترلينى .

(١٤) حوالى عام ١٩١٦ الميلادى .

(١٥) أكتوبر ١٩١٨ .

(١٦) القتال الحالى لا يسمح سوى بمرور السفن التى يصل غاطسها إلى ١٢ قدماً .

(١٧) المسافة من الكويت إلى الرياض عن طريق شقراء هى ضعف المسافة من العقير إلى الرياض مباشرة .
ولنفترض على سبيل المثال أن حمولة جمل من الحرير الغالى قيمتها ٥٠٠ روبية يجرى استيرادها عن طريق البحرين (حيث معدل الرسوم الجمركية ١١ فى المئة) ورسوم العقير (الجمركية حوالى ٨ فى المئة) ، (وأجرة الجمل إلى الرياض حوالى ٢٠ دولاراً) فذلك يعنى أن التكلفة الإجمالية لهذه الشحنة عندما تصل إلى الرياض ستكون على النحو التالى بالروبية ٥٠٠ + ٥٥ + ٤٠ + ٢٠ = ٦١٥ روبية . هذه الشحنة نفسها إذا ما استوردت عن طريق الكويت (حيث الرسوم الجمركية ١١ فى المئة) إلى الرياض عن طريق شقراء (حيث أجرة الجمل ٤٠ دولاراً) سوف تكلف المستورد ٥٩٥ روبية . والمواد الغذائية ، بحكم صغر قيمتها ، يجرى استيرادها إلى الرياض مباشرة من العقير بالرغم من ازدواج الرسوم الجمركية .

(١٨) أعتقد أن الكردون الجمركى البرى ، مسألة غريبة على الأفكار العربية ، ولكنها لن تشكل صعوبة كبيرة ، نظراً لأن مراكز تحصيل الرسوم الجمركية سيجرى إنشاؤها عند سلسلة الأبيار التى تعرف باسم طول المطير ، أى صافة وقرعاء وحابا ... إلخ .

(١٩) انظر المجلد الثانى ص ٢١٧ للمزيد عن قبيلة مرة .

(٢٠) انظر صفحة ٢٦٨ وما بعدها (النص الإنجليزى) .

(٢١) انظر صفحة ٤٤ وما بعدها .

(٢٢) يطلقون على ذلك النخيل اسم خيس Khis .

(٢٣) نوع من نبات الوزَّال .

(٢٤) المسافات الواردة فى الكتاب كلها تقريبية ، والخرائط تعطى فكرة أدق عن تلك المسافات .

(٢٥) القارة هنا ليست هى التى سبقت الإشارة إليها ، والكلمة هنا تعنى "التل مستوى السطح" . وهذا شىء دائم الحدوث فى هذه البلاد .

(٢٦) الأرض المالحة .

(٢٧) كلمة "صاحب" بدأت تكتسب المعنى الذى لها فى الهند .

(٢٨) مما لا شك فيه أن هذا الإسمنت يصنع من الجبس الذى يوجد بكميات كبيرة فى أماكن كثيرة من صحراء الحجر الجيرى .

(٢٩) شيعى .

(٣٠) يبدو أن هناك بعض القرى النائية الأخرى ذات النخيل غير هاتين الواحتين .

(٣١) انظر صفحة ١٠١ وما بعدها .

(٣٢) اخلع عنك عباءتك .

(٣٣) الجاهلية من منظور الإسلام تعنى الفترة السابقة على ظهور النبى محمد ﷺ ، ولكنها فى اللهجة الوهابية غالباً ما تعنى الفترة السابقة على ظهور محمد بن عبد الوهاب .

(٣٤) ليس هو مدمر القوة الوهابية ، والأرجح أن يكون حاكمًا منابًا من المنطقة عندما أصبحت جزءًا من الممتلكات العثمانية قبل قيام الأسرة الوهابية المالكة ، ولكنى لم أستطع الحصول على أية معلومات دقيقة عن الجامع .

(٣٥) انظر صفحة ٦ ، ٧ وما بعدهما .

(٣٦) من بينها قرية عيون والكلابية .

(٣٧) كما أحسب أيضًا أن الماء يتفرع فى الاتجاه العكسى أيضًا ليصل إلى واحة أخرى يطلق عليها اسم "عيون" ، ولكنى لم أر المجرى المائى أو الواحة .

(٣٨) انظر صفحة ٢٨٤ وما بعدها .

الفصل الثانى

الصحراء الشرقية

١- الخزام

كنا أحرارًا فى تلك الأيام القليلة الجميلة التى أمضيناها فى التجوال فى الهفوف ، التى رافقنا فيها خليل أفندى وقلة قليلة من حرس الأمير المكوّن من العبيد المتمنطقين بالسيوف ويأتمرون بأمره ، فقد كنا نتجوّل حيثما نشاء ، تارة سيرًا على الأقدام داخل حدود المدينة ، وتارة أخرى على ظهور الخيل عندما كنا نذهب للتجوال فى الحقول البعيدة ، إذ كان عبد الله قد وضع إسطبله بكل ما فيه تحت تصرفنا . وبالرغم من ذلك ، كانت ملابسنا الأجنبية مصدر الكثير من الحرج لمرافقينا ؛ فقد كانت حشود البشر تتجمع فى أى مكان من الأماكن التى كنا نقصدها فى أثناء تجوالنا فى الأسواق ، كما كانت جموع الأطفال الطائشين تتبع خطانا وتجىء من الطرق الفرعية لتلتف حولنا وتطيل النظر إلينا ، ولم تكن إطالة النظر تلك فى صمت . وراح حملة السيوف من حرس الأمير عبد الله يكيلون السباب والشتائم لأولئك الشباب الذين لا يحسنون التصرف ، وأفصح أولئك الحراس عن رغبتهم الشديدة فى الوصول إلى المنزل عن طريق بعض الحارات غير المطروقة ، على حين كانت رغبتنا الوحيدة هى إطالة تجوالنا عبر المناطق المكتظة بالسكان . ولكن أفظع الأشياء كان يتمثل فى الخروج على التقاليد الدينية بوضع القدمين داخل الحذاء ، والجلوس حاسر الرأس فى حضور الأمير نفسه . لقد كنا على أعتاب الأراضى الوهابية ، ووسط أناس ليسوا من الجاهلين ، ومن ثم كانوا متسامحين مع شذوذ الأزياء غير الدينية ، ولكن القلق الذى أثرناه هنا كان ينذر بسوء

المستقبل ، ومن هنا أكد كل من محمد وخليل فى نصحهما لنا اقتناعهما بأننا يجب أن نستفيد ولو قليلاً عن طريق إبراز الحاجز القومى والدينى الذى يفرقنا عن أهل هذه البلاد . من هنا قررنا، وكان قرارنا صائبًا ، أن نرتدى ملابس هذه البلاد منذ لحظة مغادرتنا الهفوف ، وشغل خليل نفسه طوال صباح اليوم الأخير لمقامنا فى منزل عبد الله فى إحضار الملابس المطلوبة لنا .

وفى الوقت نفسه اتُّخذت كل الإجراءات اللازمة للرحلة التى كانت تنتظرنا ، وبعد ظهر اليوم الحادى والعشرين من شهر نوفمبر شقت قافلة طويلة من الجمال طريقها عبر سوق الخميس والحارة التى تفصل حىّ الرفاع عن حىّ النياثل ، متجهة إلى بوابة نجد ، لنخرج منها وننحرف قليلاً فى اتِّجاه الجنوب الغربى إلى ميدان قلعة الخزام . وتقرر لنا أن نقضى الليل فى تلك المنطقة حتى نتمكن من سقيا الجمال عند فجر اليوم التالى ، ونتأكد من أن كلَّ شىء على ما يرام قبل أن نبدأ فى عبور الصحراء . كلُّ شىء لم يكن على ما يرام ، والكل كانوا يعرفون ذلك باستثنائنا ، ولكن هذه كانت أول تجربة لى مع ما يسمونه التبريز[١] أو إن شئت فقل "المتنفس" أو البداية الزائفة التى لا يمكن أن يقبل أعرابى بدونها على القيام برحلة أو النجاح فيها ، والسبب فى ذلك أن الأعرابى فى زحمة المدينة وضجيجها تضيع منه قدرته على التفكير الجاد ، وينفق وقته فى شرب القهوة ، أو فى ملاحظة حريمه ، إن كان من سكان المكان ، وبذلك يضيع منه الوقت الذى كان من المفترض له أن ينفقه فى التجهيز لمغامرة الغد ؛ وبذلك يجده الغد غير مستعد ، وخاوى الأخراج ، وقِرَب الماء مثقوبة ، ويرتكن إلى أن ليلة الغد كفيلة بإصلاح كل ذلك الذى حدث نتيجة استهتاره وعدم اهتمامه .

ولم نبتعد عن الكوت سوى ميلين ، عندما أطلَّ علينا خليل أفندى ، الذى كان قد رافقنا طوال هذه المسافة ، أطلَّ الرجل علينا بعد أن نصب الرجال الخيام ، وبعد أن جهزنا متاعنا للتفتيش عليه للمرة الأخيرة ، الأمر الذى كشف لنا عن نقص خطير فى قرب الماء وأشياء أخرى كثيرة ، الأمر الذى جعله يستأذن منا على وعد منه بالعودة إلينا عند الفجر ومعه كل تلك النواقص . بعض آخر من الجماعة راح يتعلل بهذا العذر

أو ذاك ؛ طمعًا فى العودة إلى منازلهم فى المدينة لقضاء ليلة أخيرة مع عائلاتهم ، وهنا تركونا مع الجمال والأمتعة .

وحاولنا الاستفادة من الفترة القصيرة التى تسبق غروب الشمس فى القيام بزيارة للقلعة ، التى وجدنا فيها حامية قوامها عشرون رجلاً ، مسلحون ببنادق جيدة حديثة الطراز ، ويقودها قائد رافقنا فى الجولة التى قمنا بها داخل القلعة . وعلى ذروة القلعة وعلى مسافات متساوية شاهدنا مواسير المدافع تتجه نحو الخارج من خلال فتحات الجدار السميك . كان عدد تلك المدافع يقدر بحوالى عشرة مدافع بدون عربات وبلا أية تثبيتات على الإطلاق ، ولابد أن تاريخ تلك المدافع يعود إلى أيام الغزو المصرى فى عام ١٨١٨ الميلادى ، وأنها لم يجر استعمالها منذ ذلك التاريخ . ومن مزغل من تلك المزاغل استطعنا أن نرى كل البلاد المحيطة بنا فى تلك المنطقة ، ورأينا أيضًا بيارات نخيل الأحساء من خلفنا ، ورأينا الصحراء التى تحيط بنا وتتخللها الروابى والسلاسل الجبلية من ناحية الغرب .

وبعد عودتنا إلى المخيم شغلنا أنفسنا بتحضير كل ما يلزم لرحلة الغد ، وبمساعدة تلك القلة القليلة من الرجال الذين بقوا معنا وأعربوا عن اهتمامهم وسرورهم بالعملية ، رحنا نحوِّل أنفسنا تشبها بالعرب . وثياب الجزيرة العربية ، التى صُمِّمت لتوفير الراحة وإضفاء الوقار على من يرتديها ، لا تختلف كثيرًا عن ثياب وملابس بلاد الرافدين ، والطربوش هو والملابس الغريبة الأخرى التى يلبسها أهل الحضر فى العراق لا طاقة للناس بها هنا ، على الرغم من ظهورها بين الحين والآخر فى بعض منازل الأحساء والقصيم التى تبدو عليها مظاهر الرشاقة والأناقة ، وغطاء الرأس العراقى الثقيل يندر أن تجده فى أى مكان باستثناء القصيم ، وفيما عدا ذلك هناك تشكيلة متباينة ، هناك الدشداشة ، أو ذلك القميص الداخلى الكتانى الطويل الذى يلبس على اللحم ويتدلى إلى ما بعد الوسط ليغطى البنطلون الفضفاض الذى يسمونه السروال ، والسروال يلف حول الوسط بواسطة شريط يُمرَّر من خلال « باكية » مخارجها ضيقة لا تسمح بمرور ظاهر القدم ، ومن فوق هذه الملابس يلبسون ثوبًا ، أو إن شئت فقل

قميصًا خارجيا فضفاضًا ، له أكمام طويلة وواسعة ، ومن فوق الثوب يلبسون «الزابون» أو المعطف ، الذى يُصنع عادة من قماش فاقع اللون ، يصل إلى الركبة أو إلى ما بعدها ، ومن فوق كل هذه الملابس يرتدى الناس البشت (أو ما يسمونه العباءة فى بلاد الرافدين) ، وعادة ما يكون لون البشت أسود أو بنيًا وله ياقة مطرزة من الخيوط الذهبيَّة أو الفضيَّة . ويرتدى الناس على الرأس منديلاً أو "كوفية" وهى إما أن تكون بيضاء (يطلق عليها اسم غترة فى معظم الأحيان) أو خليطًا من الأبيض والأحمر [وتسمى الشماغ] ، وتثبَّت على الرأس بعقال أسود أو أبيض مصنوع من الصوف قطره حوالى بوصة ، ومضغوط إلى حد ما ، ولكنه ليس مجدولاً ، ويُلبس على شكل دائرة مزدوجة . ويكتمل ذلك اللبس بارتداء النعال .

والطبقات الفقيرة ، التى تشتمل على غالبية البدو ، لا يلبسون ، فى معظم الأحيان ، أكثر من دشداشة أو ثوب ومعه بشت ، إذا ما استطاعوا إلى ثمنه سبيلاً ، كى يحميهم ، أو يلبسونه فى المناسبات الخاصة ، عندما يكونون فى المدينة على سبيل المثال . أما غطاء الرأس ، الذى لا يزيد فى معظم الأحيان على مجرد خرقة رثَّة ، فهم لا يتخلون عنه مطلقًا .

ومن فوق الزابون يوجد الحزام ، والزابون هو حامل الطلقات ، وهو مجزأ عند الخصر ومحمول بواسطة حزامين متقاطعين مصنوعين من الجلد ، وتعلق فى هذا الحزام الجانبية ، أو إن شئت فقل الخنجر القصير المعقوف ، الذى لا يتوفر إلا لمن يقدرون على اقتنائه فقط ، فى حين تتدلى البندقية من معلاق أعلى عدة الجمل . والبشت يلقى عادة إلى الخلف فى أثناء الركوب ، ولكنه يكون دومًا فى المتناول تحسبًا لاستعماله إذا دعت الضرورة ، والسبب فى ذلك ، أنه من اللياقة أن يلبس المواطن البشت عندما يدخل مدينة أو قرية ، أما التلويح بالبشت فى الخلاء ، عند الاقتراب من مخيم من المخيمات البدوية أو قافلة من القوافل ، فتلك إشارة إلى عدم العداء أو سوء النيَّة ، والسبب فى ذلك أن الجماعة الغازية تترك أشياءها الثمينة وأشياءها غير الثمينة فى المنازل قبل القيام بالغزو .

أما المرأتان اللتان رافقتانا من العقير ومعهما رجلاهما فقد بقيتا معنا ، وكانت إحداهما ترتدى ثوبًا فضفاضًا من فوق « كلسون » أسود وممسحة للوجه وقناعًا من «الموسلين» الأسود يغطى الرأس ويتدلى من الأمام منسدلاً على أكتافهما وصدورهما ، أما أقدامهما فلم تكن بحاجة إلى الحماية . وتلك كانت ملابس النسوة من الطبقات الفقيرة .

وبعد اكتمال تغيير شكلنا ، وبعد أن تناولنا غداءً مكونًا من لحم الضأن البارد ، والخبز غير المخمر والتمر ، تفضل الأمير به علينا ، بدأنا نعد أنفسنا للنوم ، أملاً فى أن يشهد الغد بداية رحلتنا .

٢- الصُّمَّان

كان المخيم يموج بالحركة عندما استيقظنا فى صبيحة اليوم التالى ، وكان المتغيبون بدون إذن قد عادوا ، وكان خليل أفندى قد أوفد أحد أتباعه ، عبد الله ، ومعه النواقص التى كنا بحاجة إليها . كانت كل الأحمال جاهزة ، وكان كل حمل منها بجوار الحيوان الذى سيحمله ، ولم يستغرق الأمر سوى لحظات قليلة لإنزال الخيام وحزمها . وأشرقت الشمس ونحن نتناول طعام الإفطار على عجل ونهنئ أنفسنا على أملنا المرتقب فى قطع مسافة لابأس بها خلال فترة نسيم الصباح ، فكل شىء الآن جاهز وعلى ما يرام . هذا هو ما كنا نظنه على أقل تقدير ، ولكن كان أمامنا مسير مائة وخمسين ميلاً أو إن شئت فقل مسير خمسة أيام عبر صحراء خالية من الماء ، وفى ظل ظروف تجعل الأعرابى الذى يتركز همه دومًا على دابته ، يترك سقيا تلك الدابة إلى اللحظة الأخيرة . كانت أبيار رقيقة Ruqaiqa على مسافة نصف ميل ناحية الجنوب ، وصبَّرنا أ نفسنا قدر المستطاع، فى حين كانت الإبل تخرج طلبًا للماء والسقيا .

أخيرًا ، وقبل الساعة الثامنة صباحًا بوقت قليل ، زمجر آخر الإبل استياء من استبداد الإنسان ، بعد أن حمل حمله وسارت القافلة صفًا واحدًا متجاوزة منطقة

القلعة إلى الأرض القفر . كان هناك ستة رجال لايزالون جالسين بالقرب من جمار نار المخيم ليأتوا على البقية الباقية من قطرات القهوة المتبقية فى « دلَّة » القهوة ، وكانت ركوبات أولئك الرجال وركوباتنا على أهبة الاستعداد . قال رئيس القافلة وهو ينهض متثائبًا من بين أولئك الرجال : "يا الله ! توكلوا على الله" . وهنا ركبنا فوق سُرُج دوابنا فى الوقت الذى كان رفاقنا يمسكون فيه بذللنا (واحدها ذلول) وهى ما تزال جاثية على ركبها . وهنا مع الزمجرات ، واحتكاك أطراف الدواب بأحجار الصوان المنتشرة على الأرض ، نهضت (الدواب) لتقوم بمهمتها ضمن قافلة الدواب التى تحمل أمتعتنا .

شاهدنا أمامنا منحدر الصُّمان الصحراوى العظيم الذى يمتد بلا أى عائق من الباطن Batin فى الشمال إلى بحر الرمال الجنوبى ، ومن التلال الرملية الموجودة ناحية الشرق إلى حاجز الرمال المركزى المتمثِّل فى الدهناء Dahana. وأقسام تلك الرقعة الشاسعة لها أسماء محددة ، ولكنها جميعًا تتفق من حيث المكوِّنات الأساسية ، والدهناء كلها أرض قفر خراب من الحجر الجيرى ، والحجر الجيرى فى هذه المنطقة أملس وناعم الملمس شأنه شأن البحر ، فذلك منخفض لطيف ، تحوَّل بفعل الرياح والتعرية إلى جرف شديد الانحدار ، وإلى تلال صغيرة تشبه كاسرات الأمواج فى الشواطئ التى تُحيط بها الشُّعب المرجانية .

كان مسارنا فى اتجاه الجنوب الغربى صوب سلسلة جبال مالدة Malda مستوية السطح ، وفى ناحية الشمال كانت توجد قمة أبو غنيمة قليلة الارتفاع والمخروط المزدوج لجبل فر Jabal Farr الذى توجد خلفه منخفضات معمة Ma'ama مع سلسلة جبال غوار Ghawar ناحية الغرب ، وإلى الجنوب من سلسلة جبال مالدة توجد تلَّة مزدوجة مستوية السطح يطلق عليها اسم التماتين Tamatain ، وفى أقصى اتجاه الجنوب ترتفع سلسلة جبال عويسة Uwaisa' والخرمة Kharma ، وقد انحفر ذلك المسار أو المدق فى الحجر بفعل حركة أقدام الجمال والإبل عبر أجيال عديدة ، ويمتد عبر واد يصل اتساعه إلى نصف ميل فى اتجاه قمة بارزة تشبه سنام الجمل يسمونها العثمانية Uthmaniyya، عند حافة سلسلة جبال غور Ghawar، التى ألقينا منها النظرة الأخيرة على بيارات نخيل الأحساء الداكنة التى نبعد عنها مسافة تقدر بحوالى ثمانية عشر ميلاً .

وهنا توقفنا قليلاً فى جزء « مكلكع » من البلاد ، داخل منخفض تتخلله الحشائش ، وفى اتجاه سلسلة جبال داكنة تمتد أمامنا على شكل خط ، وصلناها بعد أن قطعنا خمسة وعشرين ميلاً من النقطة التى بدأنا منها ، وفى تلك السلسلة خيَّمنا عند سطح جرف حاد يطلقون عليه اسم غار الشيوخ Ghar al Shuyukh، أو إن شئت فقل "الغار الملكى" ، الذى أُطلق عليه ذلك الاسم نظرًا لزيارة ابن سعود أو أحد أسلافه لذلك الغار مرة واحدة أو مرات عدة . وهذا "الغار" لايزيد عن كونه بروز معلق لصخرة من الصخور ، ويتراوح ارتفاعه بين أربعين وخمسين قدمًا(*) يُهيئ ظلة عند الظهيرة لمن يصل إليه بعد مسيرة طويلة فى الصحراء . وبعد أن سرنا طوال حرارة النهار القائظ تحت أشعة الشمس التى كانت تنعكس على التربة الصلبة ، كان طبيعيًا جدًا ألا نشعر بالأسف لإنهاء الرحلة والوقوف لنيل قسط من الراحة ، فى ظلال تلَّة رملية صديقة ، رحنا نشاهد منها الإبل وهم يسوقونها إلى المراعى ، ونشاهد ضرب الخيام ، وشب النار ، وكل الأعمال المتصلة بالمراح[٢] .

ومثلما سبق كان لدينا تموينا الخاص وترتيباتنا الخاصة ، كما كان لدينا أيضًا ست من قراب الماء[٣] المخصصة لاستعمالنا شخصيًا ، وكان لكل فرد من أفراد الجماعة قربته الخاصة ، ولكن الخبرة التى اكتسبناها من إسراف البدو فى رحلتنا إلى الأحساء ، علمتنا أن نزيد على تموينا جوالاً من الدقيق وآخر من الأرز تحسبًّا للطوارئ . وقد صدق حدسنا ، إذ لم يُحضر أى فرد من أفراد الجماعة – باستثناء عبيد وعبد الله – الذين رافقونا بوصفهم مرافقين خاصين لنا ، أىَّ شىء سوى التمر .

كانت قافلتنا تضم أكثر من ثلاثين جملاً ، وحوالى خمسة وعشرين شخصًا بما فيهم أنا بطبيعة الحال ، وكان عامر Amir ، الدوسرى الأصل ، والحضرى بحكم إقامته

(*) بالغ بالجريف فى تقدير ارتفاع الصخرة إذ قدره بألف وأربعمائة قدم ، كما يضفى طابعًا محليًا على روايته بأن يجعل القرية تختبئ بين التلال الرملية المحيطة بالمكان ، ويضيف أيضًا أن أقرب مصدر للماء يقع على مسافة عشرين ميلاً . (المترجم)

فى الهفوف منذ أجيال عدة ، والذى اشتهر بمهنة إرشاد قوافل التجارة فى المسافة ما بين الهفوف ومدن الداخل ، كان هو المرشد الذى اختاره محمد أفندى وأناط به الإشراف على كل الترتيبات ، بحكم أنه كان شريكًا لمحمد أفندى فى عدد قليل من الجمال التى كانوا يطرحونها للإيجار بمعرفة عامر . كان ذلك العامر مداهنًا ومدمنًا للتغنى بمناقبه ومناقب من يستمعون إليه ، ومع ذلك كان قليل السلطة والفعل فى القافلة ، كما كان دائم الخصام مع الأعضاء الذين كانوا يرافقوننا ، الذين لم يتوقفوا مطلقًا عن إبلاغه بأنهم يستمدون سلطتهم لا من راعيه وإنما من راعى راعيه ، أو إن شئت فقل : من عبد الله بن جلوى نفسه نائب ابن سعود والوصى على العرش ، وأنهم لا يهتمون بمحمد أفندى أو به هو شخصيًا ؛ ومع ذلك ، يتعين علىَّ أن أنسب الفضل إلى أهله ، فى أن عامرًا ، دون سائر القافلة كلها ، كان على علم كامل بالبلاد والمناطق التى نمر خلالها ، وأنه كان مستعدًا دومًا لتقاسم تلك المعرفة معنا . وكان عايض Aidh أشد منافسى عامر ، فقد كان عايض حضريًا أيضًا من أهل الهفوف ، ولكنه كان من أصل قحطانى ، وصلفًا بصورة دائمة ، كما كان مكّارًا وخدّاعًا ، ويلبس زابونًا زاهى اللون ، وكان مغرمًا بالتنصت ، وبذيئًا ولا نفع فيه ، وكان يسارع دومًا إلى تصليح القهوة لنفسه أولاً ولواحد أو اثنين آخرين من أصدقائه الحميمين من بين العبيد المرافقين لنا . أما سعود العبد فكان متعاليًا ، ومتحفِّظًا ، ومتجهِّمًا ، يبدو مسرورًا بملابسه بهيجة الألوان ، كان حاله مثل حال أبناء جلدته . وقد أوكلت مسئولية مرافقتنا ، لو كنا فعلاً بحاجة إلى تلك المرافقة ، إلى كل من صالح وغارب ، وهما رجلان من أصل مختلف ، وظريفين أيضًا ، ولا ينقطع غناؤهما أو نكاتهما طوال الوقت ، ولكنهما لا يستنكفان أن يمدّا يد العون من حين لآخر ، إلى من يقومون بنصب الخيام .

كان صالح وغارب مثلنا ، يركبان ذلولين ، أو إن شئت فقل : جملين ، ولم يكن ذلولاهما محملين بالأمتعة ، اللهم باستثناء أن كل واحد منهما كان يحمل معه على جمله قربة من الماء الخاصة به . أما الأمتعة فقد جرى توزيعها على جمال البدو التى استؤجرت أو جلبت لهذا الغرض من أربع قبائل ، وبذلك يصبح وضعهم وضع الرفاق والحمالين أيضًا . كانت تلك الجمال قد جلبت من الدواسر ، ومن مُرَّة (أولئك الذين

كانوا معنا فى رحلتنا إلى الهفوف بما فى ذلك النساء) ، ومن قحطان ، ومن بنى هاجر . وكان من أفراد القبيلتين الأخيرتين كل من ذيب ، الشيخ المشارك مع محمد بن تيزة Taiza شيخ فخذ محمد ، ومعه ابنه ، وكانا فى طريقهما إلى الرياض استجابة لاستدعاء ابن سعود لهما ، وواقع الأمر وحقيقته أنهما كانا ذاهبين لاستلام المكافأة المالية على الخدمات الإضافية التى قدماها ، هذا علاوة على المعونة السنوية التى كانا يحصلان عليها بواقع ٤٠٠ ريال عن كل عام .

واكتملت جماعتنا برجلين من الهفوف ، فرضا نفسيهما علينا دون دعوة منا عندما كنا فى قلعة الخيزام ، كانا ذاهبين إلى الرياض فى عمل تجارى ، وكانا يركبان جحشين صغيرين ، استطاعا بحكم صغر سنهما ، أن يسيرا معنا جنبًا إلى جنب ، بشكل مدهش ، وأثبتا أنهما لا يقلان عن الإبل من حيث تحمل العطش ، إذ لم يشربا قطرة واحدة من الماء طيلة أربعة أيام ونصف اليوم . كما انضم إلى جماعتنا أيضًا درويش على شىء من الظرف ، كان فى طريقه إلى بيت الله (الحرام) ، ولم تكن لديه مركبة فآثر أن تحمله قدماه مسيرة طولها يزيد على ثمانمائة ميل فى الصحراء ، وخطر بباله أن يحصل على توصيلة من حين لآخر ، وشيئًا من الزاد والماء عن طريق مرافقته لقافلتنا فى طريقها إلى الرياض ، ولم نخيب أمله ؛ ورد على ذلك بحمده لربه وشكره لمن أعطوه بلغة هجين ليست عربية فصيحة . ولسبب من الأسباب لقَّب نفسه فى البداية بالسندى Al Sindi ، وذلك اللقب الذى كان يستجيب له كلَّما ناداه الناس به . قال لنا : إنه جاء جارمسير Garmsir ، غير أن لغته الفارسية كانت ضعيفة ضعف لغته العربية ، فى حين كان يكشف عن ومضات من الفهم والذكاء عندما كنت أختبره وأنا أتحدث إليه بلغة الباشتو على حدٍّ معرفتى لها . الواضح أنه سافر مرارًا سيرًا على الأقدام ، من بلاد بعيدة ، سيعود إليها بلا أدنى شك مثلما جاء منها ، مستمدًا قوته من المدينة المقدسة .

وعندما غربت الشمس خلف الأفق ، التزم كل رجل من الرجال ، وترك كل واحد منهم المهنة الموكلة إليه ، لينظم إلى جماعة المصلين التى اصطفت من خلف علامة شبه

دائرية فى الرمال تمثل القبلة ، أو اتجاه مكة ، ووقف واحد من الجماعة فى الأمام ليؤم المصلين ، وبعد أن تلا الآيات المطلوبة ركع ثم سجد ثم قام ثانية ، وحذا المصلون حذوه ، فى ذلك العدد المحدد من الركوع والسجود والنهوض ، إلى أن انتهوا من الصلاة بالتسليم : "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" ، الذى قاله الإمام ، متجهًا برأسه ناحية اليمين ثم بعد ذلك ناحية اليسار ، الأمر الذى انتهى بعده المأمومون ليعود كل منهم إلى عمله .

وفى الصباح التالى (الموافق ٢٣ نوفمبر) استيقظنا مبكرًا ، وقطعنا اثنى عشر ميلاً فى اتجاه الجنوب الغربى عبر أرض جرداء معظمها من المنخفضات الزلطية ، يميزها الناس باسم نعلة Na'ala ، وتمتد من سلسلة الجبال التى تشكل صخرة غار الشيوخ Ghar Shuyukh جزءًا منها ، إلى حافة وادى فاروق Wadi Faruq. كانت ثنيات المنخفضات هنا وهناك تكسوها أعشاب الثمام Thammam الخشنة ، هى والأعشاب الأخرى ، وخلال فترة الصباح مررنا خلال قطعان ابن داعث Ibn Da'ath أحد أفخاذ قحطان ، والتى كانت عبارة عن قطعان من الإبل تتحرك صوب الشمال بحثًا عن مراعى جديدة ، نظرًا لعدم سقوط الأمطار بعد ، والبدو فى الجزء الأخير من موسم الجفاف يضطرون إلى الحركة المستمرة حتى لا تنفق منهم قطعانهم . وكل أربعة أو خمسة أيام تتجه الإبل إلى الهفوف طلبًا للماء والسُّقيا ، ولكن عندما تسقط الأمطار تتيح الصحراء من الماء ما يكفى الإنسان والدواب .

ووادى فاروق ، الذى مررنا بالقرب منه بقافلة كانت فى طريقها من نجد إلى الأحساء ، عبارة عن واد أو منخفض واسع من التربة الرملية يتجه من الجنوب إلى الشمال وسط الصحراء ، ومن المحتمل أن يكون ممتدًا فى قناة صحابة Sahaba عند الطرف الجنوبى لاستقبال مياه الصرف التى تأتيه من المنخفضات الموجودة ناحية الشرق والغرب ، ولكنى لم أستطع الحصول على معلومات دقيقة عن هذا الموضوع ، ولذلك فأنا لا أستطيع الجزم بما أقول . وهذا الوادى الذى يبلغ عرضه حوالى ستة أو سبعة أميال ، ينخفض حوالى عشرين أو ثلاثين قدمًا عن مستوى سطح الصحراء ، وتحف به من

ناحية الغرب هضبة الربيداء Rubaida، التى دخلناها عن طريق وادى ضيق عميق هو وادى شجرة Shajara ، الذى سُمى بهذا الاسم بسبب مجموعة من أشجار السنط التى تنمو على مقربة من نقطة اتصاله بوادى فاروق . كانت تلك الأشجار الوحيدة التى رأيناها منذ أن غادرنا الهفوف ، فضلاً عن كوننا البشر الوحيدين ، الظاهرين على الطريق فيما بين الأحساء وسهل الترابى خلف أبو جيفان . وكنا قد سبقنا بقية القافلة التى كانت تحمل أمتعتنا ، وكانت أشعة الشمس قاسية على تلك الأرض القفر الجدباء . كان وقت الصلاة - صلاة العصر - قد دخل، وكان عايض قد قام بتجهيز أوانى القهوة ؛ ولذلك أمضينا ساعة طيِّبة فى ظلال تلك الأشجار البائسة ، التى عسكرت بالقرب منها ، منذ قرن من الزمان ، قوات إبراهيم باشا ، وحاولت حفر بئر من الآبار ولكن دون جدوى .

وبعد مسير ثلاثة أميال أخرى وصلنا إلى شعبة Sha'aba ، ذلك المنخفض الشعبى فى هضبة الربيداء ، وهنا كنا قد قطعنا ما يزيد على خمسة وعشرين ميلاً مما جعلنا مرهقين تماماً ؛ ولذا نصبنا خيامنا وخلدنا إلى الراحة وسط هذه الأرض القفر الجرداء .

وفى الصباح التالى استأنفنا مسيرنا عبر الهضبة التى تتخللها الكتل الصلبة ، والجرداء تماماً باستثناء غطاء منقطع من النباتات يطلقون عليه اسم الشبرام ، ورُجَم من الحجارة تنتشر هنا وهناك ، على ربوات لتكون بمثابة إشارات تهدى البدو الجائلين فى الصحراء والرحالة والمسافرين الذين يضلُّون الطريق . وبشكل غير ملحوظ ، دخلت خطوط الطريق الرئيسية غير المنتظمة والمتعرجة إلى سهل واسع جدب خال من الماء والنبات ، ممتد على شكل تموج طفيف ناحية الأفق البعيد على كل جانب من الجانبين ، وهذا السهل هو ما يطلق عليه هنا اسم الصُّمان Summan . ومن خلف سلسلة الجبال التى تحد ذلك السهل من ناحية الغرب أرض الصلب Sulb أو حزوم الصلب Huzumal Sulb ، وهو سهل منتفخ قليلاً ، تتخلله من حين لآخر سلاسل منخفضة من الجبال . والتربة هنا تكون رملية فى بعض الأحيان ، وزلطية أو حصوية فى أحيان أخرى ، أو قد تكون مكونة من اللَّهْم(*) الذى يقول له أهل هذه البلاد "بات" . وتوجد هنا وهناك

(*) لَهْم : تربة مكونة من الطين والغرين والصلصال . (المترجم)

منخفضات صغيرة ، فى كل منها مجموعة من أشجار السنط الصغيرة التى يسميها أهل هذه البلاد "أوشاز" ، والتى تحتجز فيما بينها كمية من الأمطار التى تبعث الحياة ، بعد موسم الأمطار ، فى الأعشاب الصحراوية . وقد اعترض طريقنا ، واحد من تلك المنخفضات الذى يطلقون عليه اسم روضة الحناى Raudhat al Hanai ، فى حين يجىء المنخفض الآخر ، الذى يسمونه روضة البيضاء Raudhat al Baidha ، بمثابة المنطقة التى تنتقل عندها حزوم الصلب إلى بقعة الحصى التى يميل لونها إلى البياض فى منطقة البيضاء ، التى خيمنا فيها فى الليلة الثالثة بعد مغادرة الهفوف ، والتى شاهدنا منها رمال الدهناء على مرمى البصر . وهنا كنا قد عبرنا أو أنهينا تقريبًا منحدر الصُّمان الصحراوى ، الذى قُدِّر لى أن أجدد تعرُّفى إياه فى مناسبتين أخريين فى أثناء وجودى فى الجزيرة العربية ، والذى قد يكون له مثيل من حيث الملل والسأم ، ولكن المؤكد أن ذلك المنخفض لا مثيل له فى العالم .

فى المخيمات تستقل كل جماعة ، أو إن شئت فقل : خبرة ، عن الجماعات الأخرى ، أى كل قبيلة لوحدها ، ويشكل الحضر جماعة مستقلة بذاتها ، وتتحلق كل حلقة من تلك الحلقات حول وجارها ومن خلفهم إبلهم باركة لتكون بمثابة مصدٍّ لرياح الشتاء الباردة . وفى تلك الأمسية رحَّب بى الهواجر[٤] Hawajir ضيفًا حول وجارهم ، وأجلسونى على جلد من جلود الغنم بين ذيب Dhib وولده ، وتقاسمت معهم وجبتهم البسيطة المكونة من الأرز المسلوق والسمن ، الذى يشكل مظهر الترف الوحيد عند البدو فى الجزيرة العربية ، والذى سكبوه بكرم على الجزء المواجه لى من الطبق الكبير المسطَّح ، زعمًا منهم ، وهم يفعلون الشىء نفسه فى الأمور كلها ، أن ذلك الذى يدخل السرور على أنفسهم إنما يسرُّ كل الرجال الآخرين أيضًا . وبعد أن انتهينا من تناول الوجبة تحلقنا انتظارًا لشرب القهوة ، التى يطحنون حبوبها فى "هاون" من النحاس الأصفر له يد من الرخام ، والرخام – أو نوع من أنواع الحجر الأخضر – يجرى الحصول عليه من مدينة المذنب فى جنوب القصيم ، ويصنعون منه أيادى للهون مختلفة الأطوال ، يصل طول البعض منها إلى قدمين أو أكثر ، وعمال الحجر فى كل من عنيزة وبريدة هم الذين

يصنعون تلك الأيدى كى يصدرونها إلى كل المستوطنات فى أنحاء الجزيرة العربية ، وقد يستعملون أيادى الهون التى تصنع من النحاس الأصفر ، غير أنهم يفضلون عليها الأيدى المصنوعة من الحجر . وفى أثناء الكلام عن الحجر حدَّثونى عن جافورة ، وأنهم يجدون فيها نوعًا عجيبًا من الحجر المتحرك ، الذي ينتقل ، إلى حد قولهم ، بمحض اختياره عبر الرمال ، مخلِّفًا وراءه أثرًا يخفى به مساره . حدث ذات مرة ، فى حضرة عبد الله بن جلوى ، أن سمع عن وجود ذلك الفأل السيِّئ فى رمال الجنوب ، فأرسل بعض المبعوثين لإحضار عينه من ذلك الحجر ، وعاد المبعوثون فى الوقت المناسب بحجرين من ذلك الصنف ، وجداهما فى أثناء السير . فى تلك الأمسية استدعى عبد الله بن جلوى الضيوف فى منزله ، ليضع الحجرين أمامهم ليروا قدراتهما ، ولكن الحجرين خيبا كُل آمال المتفرجين المندهشين ، عندما لم يكشفا عن أى أثر من آثار الحياة . وفشل ذلك الاختبار ، ولكن البدو مازالوا على قناعتهم ، لأنهم رأوا تلك الحجارة وهى تتحرك . كنت أطمح فى الحصول لنفسى على عينة من تلك الأحجار ، ولكنى غادرت الجزيرة العربية خائب الأمل . وأنا لا أستطيع القطع بحقائق تلك الظاهرة ، ولكن ربما كانت الحركة الظاهرية لتلك الأحجار عبر الرمال، راجعة فى واقع الأمر إلى حركة الرمال نفسها .. وسوف أورد الكثير عن جافورة Jafura فى مرحلة لاحقة ، وبالتحديد فى المجلد الثانى على صفحة ٢٢١ .

والبدو لا يملُّون مطلقًا الحديث عن العجائب ، وهم يقولون : إن الجزء الجنوبى من الصمَّان به حفرة عميقة نسبيًا من حفر الماء ، التى يمكن الحصول على الماء منها عن طريق كشط الطين ، أو الأرض ، ولكن أحدًا لا يتعين عليه النزول فى تلك الحفرة إلا باستعمال حبل يؤمن به عودته ، والسبب فى ذلك أن هناك رجلاً فى حائل ، أبيض الشعر والبشرة ، فقد لونه الطبيعى منذ حوالى عشر سنوات مضت نتيجة التجارب التى مرَّ بها فى العالم السفلى ، الذى طفت فيه المياه فجأة من حول ذلك الرجل ، وحملته عبر قناة تحت الأرض ، ثم ظهر بعد ذلك ثانية ، بعد عدة أشهر ، عاش طوالها على الأعشاب فقط ، ليروى هذه الحكاية بعيدًا عن حفرة الماء تلك . الواقع أن هناك

رقعة من الأرض تعرف باسم الدُّهول Duhul ، أو إن شئت فقل : "ثقوب الماء" ، التى وصلت إليها فى فترة لاحقة ، وهى عبارة عن متاهة تحت الأرض ، يبدو أنها من صنع الطبيعة ، ينزل الرجال إليها بحثًا عن الماء ، والتى قد يضيع الإنسان داخلها إذا ما غامر بالذهاب إلى منطقة بعيدة داخلها .

وذيب Dhib بصفته شيخًا لواحدة من القبائل التى عاشت أيام الحكم التركى على الابتزاز والسَّرقة وقطع الطرق فيما بين الأحساء والساحل ، استطاع بين الحين والآخر الاتصال بالسلطات التركية ، وقام بزيارات إلى البحرين ، الأمر الذى جعله على معرفة بشكل البريطانيين وبسمعتهم . وقد تنبأ منجِّم بحرانى مؤخرًا ، بانتصار بنى عصفر أو إن شئت فقل البيض من الناس ، على المسلمين فى سبعة أشهر أو فى سبع سنين أو خلال سبعين عامًا ، وأن ضابطًا تركيًا قال لذلك المنجم : "لا تعطنا سوى عبد الحميد ، وأن الإمبراطورية العثمانية ستظل قوية ، ولكن الكوراث والمصائب سوف تتضاعف فى زمن محمد رشاد" . والعرب يعلمون جيدًا أن إنجلترا تقع ناحية الشرق من بلادهم ؟ وهم يتساءلون ألا تأتى سفن الإنجليز Inqlis من اتجاه الشرق ؟

وعلى الرغم من أن ذيبًا وابنه كانا شيخين فى قبيلة كبيرة ، فإنهما كانا يلبسان ثيابًا فضفاضة ويسيران حافيين ، على الرغم من أنهما يلفان بشتيهما المصنوعين محليًا من الصوف المحلى الخشن أيضًا حول نفسيهما أسوة بما يفعله الآخرون . ولعل الله فى الرياض يمن عليهما ببشتين جديدين ، نظرًا لأن الطقس سيكون شديد البرودة فى رحلة العودة وبخاصة فى أثناء الليل . يضاف إلى ذلك أن أفضلهما لا يتورع عن الاستجداء أو السؤال .

وبنو هاجر Bani Hajir يتجولون فى المنطقة ما بين حدود الكويت وساحل قطر وحدودهم من ناحية الغرب تتمثل فى وادى فاروق . وأبرز أفخاد بنى هاجر هم آل محمد ولهم أيضًا شيخان . وآل مخضُبة Mukhadhdaba ، وهم ينقسمون إلى قسمين فرعيين هما : المظفرة Mudhafara ويزيد Yazid ، وهذان الفرعان يدينان بالولاء لشافى بن سالم باعتباره كبير شيوخ القبيلة . وفى ناحية الجنوب ، تتداخل الحدود مع

حدود الهواجر Hawajir ، حيث يعيش المناصير ، أو إن شئت فقل : آل منصور وآل مرة ، في حين يعيش بنو خالد في الناحية الشمالية ، التى تتمركز فى منطقة القطيف ، حيث يشاركون فى ملكية بيارات النخيل فى تلك المنطقة ، كما توجد فى هذه المنطقة أيضاً القبيلتان المحليتان العوازم والرشايدة الذين من أصل كويتى ، ناهيك عن العجمان ، الذين كانوا فى يوم من الأيام حكاماً للأحساء ويملكونها كلها ، ولكنهم منفيين حالياً ويعيشون فى المنفى فى أراضى تابعة لشيخ الكويت . وقبيلة قحطان هى وقبيلة الدواسر الموجودتان فى أقصى الجنوب الغربى تتجولان إلى حد الوصول إلى حدود الأحساء ، وهاتان القبيلتان تتداخل حدودهما فى المنطقة ما بين الأحساء ووادى فاروق ، مع حدود مجموعة القبائل الشرقية . وإلى الغرب من وادى فاروق توجد قبائل الدواسر ، وقحطان، والسبيع Subaic والسُّهول Suhul ، كما توجد قبائل مرة فى الجنوب والمطير فى الشمال .

٣- الدَّهناء

هنا اجتزنا شريطاً ضيِّقاً من الأعشاب الصحراوية ودخلنا منه إلى وسط المنطقة الريفية التى هى عبارة عن نموذج معقول من الرمال والحصى المتناثر الذى تتخلله جلاميد من صخور الحجر الجيرى . هذه هى الملسونية ، همزة الوصل بين المنحدر والرمال ، التى تمتد إلى عمق حوالى أربعة أميال وتنتهى بصورة مفاجئة قبل الدهناء بمسافة قصيرة فى منطقة السلابخ Salabikh المستوية التى تتخللها الصخور ، والتى تغطيها "على مدد الشوف" من ناحية الشمال والجنوب شظايا إسطوانية من الصخور والأحجار(٥) التى تأثرت بعوامل التعرية . وبعد خمسة أميال من تلك المنطقة ، دخلنا دون أن ندرى جسراً مرتفعاً من التكوين نفسه ، يسمونه جسرة Jasra ،الذى يمتد على شكل إسفين مسافة أربعة أميال أخرى فى الدهناء ، التى يطبق حاجزها الرملى الخارجى على المدق بصورة متدرِّجة .

والجسرة Jasra التى لا يزيد عرضها هنا عن عرض الطريق تتجه بصورة مفاجئة ناحية اليسار وتنجرف داخل بحر الرمال . وقد وطئت أقدامنا فى النهاية أرض الدهناء وعبرنا أول سلسلة من سلاسل جبالها بالقرب من تلَّة متهدمة معدومة الاسم . والمدق الذى نسير عليه هنا - واعتباراً من هذه المنطقة - ينحدر وسط التربة الصحراوية الصلبة ، وهو يقع تحت رحمة الرياح والأمطار . وبعد أن سرنا بضع خطوات وصلنا ربوة رملية يعلوها تل من الحجارة التى تستعمل فى تحديد الأماكن وتعيينها ، وهذا التل من الحجارة يطلقون عليه اسم رجم الشوير Rijm al Shuwair ، ومن بعد هذا الرجم يتعين على من يسير فى ذلك الطريق وصولاً إلى السقيا التالية ، أن يصاحبه مرشد خبير أو تكون بصحبته بوصلة تساعده على السير ، اللهم باستثناء إذا كان حظيظاً إلى الحد الذى يعثر معه على أثر أحد القوافل التى سبق أن سارت فى ذلك الطريق ولم تطمس الريح أثر مسيرها من فوق الرمال ، ومع ذلك قد يضلل ذلك الأثر كثيراً من المسافرين ، والسبب فى ذلك أن الدهناء أغنى بكثير من حيث الحياة النباتية عن الصحراء الواقعة على جانبيها ، ولذلك يعدها البدو من أراضى الرعى المفضلة ، والويل للمسافر الذى يقتفى أثر مدقات الإبل التى تتجول فى المراعى ، وعلى الرغم من ذلك يبالغ الناس كثيراً فى أهوال ذلك الحاجز الرملى .

وتحتم علينا عبور الدهناء من المنطقة التى عبرها بالجريف قبل خمسة وخمسين عامًا ، وما لم تكن الطبيعة قد ندمت على عطاياها ، وسوت العقبات المخيفة التى تحجب بها أسرار وسط الجزيرة العربية عن عيون الغرب التى كانت تتلصص عليها فى الزمن الماضى ، فسوف أجد لنفسى العذر فى القول : إن بالجريف اعتمد إلى حد كبير ، على شطحات خياله أكثر من اعتماده على الحقائق الفعلية ، فى رسم الصورة المتوهجة التى قدَّمها فى كتابه عن وسط الجزيرة العربية . وإذا ما نحَّينا جانبًا مغامرات ومخاطر - إذ أصبحت المخاطرة والمغامرة شيئًا من أشياء الماضى - مواجهة العداء البشرى ، فإن أى إنسان ، يكون قد اتخذ الاحتياطات المعتادة اللازمة للتأكد من الاتجاه العام الذى يتعين السير نحوه، واتخاذ الاحتياطات اللازمة لتزويد نفسه بالماء

اللازم له طوال رحلته ، لن يكون أمامه ما يخشاه أو يخافه من عبور الدهناء ، فى حين عُرف عن العرب أنهم كانوا يقطعون الرحلة من أبو جيفان Abu Jifan إلى الهفوف سيرًا على الأقدام ، دون تزود بالماء أو الطعام، ارتكازًا على قدراتهم على التحمل ، ومقابلاتهم العارضة مع القوافل أو البدو الجائلين ، ثم يصلون سالمين إلى محطة الوصول .

كان لا يزال أمامنا منخفض طويل من سلاسل التلال الرملية والروابى التى تنتشر هنا وهناك ، وتغطيها الحشائش والشجيرات القصيرة والكثيفة الذاوية بفعل فترة الجفاف الطويلة . كان المسير سهلاً بما فيه الكفاية ، وكان فارق المستوى بين الغور وسلسلة الجبال لا يزيد بأى حال من الأحوال عن ثلاثين أو أربعين قدمًا ، مع انخفاض طفيف ، ومع ذلك كنا قد قطعنا بالفعل ما يقرب من سبعة عشر ميلاً[٦] قبل أن ندخل منطقة الرمال الحقيقية ، علاوة على أن إبلنا ، التى امتد عطشها أربعة أيام ، بدأت تكشف عن تعبها وإرهاقها ؛ ولذلك قررنا التوقف لقضاء الليل عندما وصلنا إلى سلسلة الجبال التوأم التى يقال لها : بنى بدلى Bani Badali التى تبعد حوالى ثمانية أميال عن الحافة الشرقية للرمال ، وقد وصل ارتفاعنا عن مستوى سطح البحر فى هذه المنطقة إلى حوالى ١٥٥٠ قدمًا .

وجرت بعض المحاولات لإغرائنا على استئناف مسيرنا فى أثناء الليل ؛ إذ من عادة العرب أن يسيروا فى أثناء الليل ليقطعوا المسافات التى تخلوا من الماء . والواقع أن أسفار الليل والنهار مع التوقف لتناول القهوة أمر نادر جدا عند العرب ، ولكننا سبق أن أوضحنا عندما كنا فى الهفوف ، أننا جئنا هذه المنطقة لا لمجرد عبورها والتفرج على البلاد ، ومن ثم فسوف نواصل المسير فى أثناء النهار ، كما هى العادة . وادَّعوا ، أننا أسأنا فهم القصد ، وأكَّدوا لنا أننا لا بد أن نرضخ للمسير فى أثناء الليل ونوافق عليه طوال الجزء الأخير من الرحلة ؛ ومن ثم بدأوا يفرطون فى الماء ، الأمر الذى أصبح الكثيرون منهم ، على أثر ذلك ، بلا ماء . يضاف إلى ذلك أن إحدى القربّ سحبها أحد الذئاب فى الليلة السابقة . وفى النهاية ، وجدنا ، فى الصباح ، أن الماء الذى تركناه فى أثناء الليل ، فى واحدة من قرب الماء ، كان قد نقص وقلت لهم : ربما شرب جنٌ عطشان من ذلك الماء . ولم نحد عن رأينا بعدم التحرك إلا فى الصباح ، وفى تلك الليلة لم يتحلق المسافرون حول نار المخيم أو يتناولوا العشاء ، والسبب فى ذلك هو نقص

الماء الذى يعتبر العنصر الأساسى فى هاتين العمليتين ، وأن الماء المتبقى كانوا يقتصدون فيه ليستفيدوا به فى ترحال الصباح .

وفى صبيحة اليوم التالى كانت هناك حركة ونشاط ، إذ صحا الجميع مبكرين ، وراحوا يستحثون السرعة والتعجيل إن أردنا وصول مكان السقيا قبل حلول الليل . وكنا قد اقتصدنا تماماً فيما معنا من ماء ، على الرغم من العبث بإقفال تلك القرب من حين لآخر ؛ الأمر الذى ترتب عليه أن بقيت لدينا من القرب الست التى كانت معنا ، قربتان مملوءتان تماماً ، ولكن بقية الجماعة كانوا فى ورطة لا يحسدون عليها ، إذ بدأت خطورة مشكلاتهم المائية تظهر بشكل واضح قبل أن نقطع مسافة طويلة . وهنا سرعان ما بدأ يظهر تفوق البدو على الحضر ، فالبدو لديهم القدرة على تحمل العطش بحكم تعودهم على ذلك منذ زمن طويل ، فى الوقت الذى راح فيه عايض Aidh هو ورفاقه يتفرقون فى البرارى متذرعين بالبحث عن طرائد الصيد ، وعن آثار قطعان الغزال ، التى كانت تعترض الطريق على مسافات متساوية ، ولكنهم فى حقيقة الأمر كانوا يبحثون عن رعاة الأغنام والماشية الجائلين ، أملاً فى أن يستولوا على - أو يسرقوا - ما لديهم من ماء قليل .

ولم يلحق بنا عايض ، هو وزملاؤه ، إلا بعد أن تجاوزنا الدهناء تماماً ؛ إذ لم يحالفهم الحظ فيما ذهبوا إليه ، ولكن على الرغم من إيمانهم المغلّظة على العكس من ذلك ، فإنهم كانوا قد أصابوا نجاحاً كبيراً فى الهدف الرئيسى من رحلتهم . وفى كل الأحوال ، لم يمنعهم ذلك الذى قاموا به من التربص بإحدى القوافل الصغيرة ، التى مرت بهم على طريق سفرها الطويل إلى الهفوف ، بعد وصولنا إلى منطقة التخييم بفترة قصيرة ، وحصلوا منها على قربة من الماء . وعندما أبديت اعتراضى واحتجاجى على مثل تلك السلوكيات ، أجاب عايض إجابة حادة - بكل صلافة الحضر ، وبدون إبداء الأسباب - مفادها أنه هو وأمثاله لم يدخلوا خدمة ابن سعود لأى سبب من الأسباب سوى حماية الطرق الرئيسية من سلب ونهب البشر من أمثال أولئك الذين جردهم هو من مائهم ؛ "والذى ما يظلم يظلم" (من يظلم لا يظلم) ، يضاف إلى ذلك إن البدو لا يحترمون إلا أولئك الذين يفرضون الاحترام بالقوة والاستبداد . واقع الأمر أن المنطق الساذج لذلك الوغد كان ينطوى على شىء لا يمكن الرد عليه ، ولكن لو كان ذلك الوغد قد اقتسم المسروقات مع رفاقه العطشى لكنت قد رضيت عنه تماماً .

ومن سلسلة جبال بني بدلي Bani Badali، دخلنا بعد مسيرة عشرة أميال إلى منطقة المعزلات Ma'zalat ، التى تكثر فيها الرمال العميقة والروابى المرتفعة ، والتى همنا فيها على وجوهنا على امتداد سته أميال بلا هدف واضح ، تنقلنا خلالها بين أعراف موجات الرمل الذى كسحته الريح من ناحية ، والسير على حواف تلك الموجات من ناحية ثانية ، وبين أغوار الرمال التى بين تلك الموجات من ناحية ثالثة . وقد أحسن من أطلق على تلك المنطقة اسم "منازل الغضب" ، إذ تتعب فيها الإبل والطريق غير آمن أيضًا . وفجأة وجدنا أنفسنا قد تخلصنا من الدهناء وأصبحنا نسير على شريط ضيق من منخفض أرضي يعرف باسم مرباخ Marbakh وينتهي بعد حوالى ثلاثة أو أربعة أميال عند حافة سهب عارمة Arma' ، مترامى الأطراف ذى النُّبوت الصحراوية . وكانت سلاسل الجبال الرملية فى الخلف ، تظهر بشكل أوضح مما هى عليه ناحية الشرق ، وتمتد ناحية الأفق البعيد فى الشمال والجنوب ، قد بدأت تنحسر كلما واصلنا المسير ، ويتحول لونها إلى اللون البرتقالى الغامق كلما اقتربت الشمس من المغيب . وطوال عبورنا للدهناء لم نر ذرًى رملية مرتفعة ، أو سلاسل الجبال المتغيرة ، كما اختفت أيضًا وديان الشمال واضحة المعالم ، وظهرت الدهناء لنا فى ذلك القطاع كما لو كانت مجرد حزام منخفض من الرمال الجرداء ، اللهم باستثناء لونه المائل إلى الاحمرار الذى يميزه عن مناطق الرمال فى الهند وفى الأماكن الأخرى . وعلى حد معرفتى فإن عرض الدهناء من أول سلاسلها الجبلية إلى آخر سلاسلها الجبلية أيضا ، أو إن شئت فقل : من حافتها الغربية عند جسرة Jasra إلى حافتها الشرقية عند مرباخ Marbakh ، يقل إلى حد ما عن خمسة وعشرين ميلاً ، أو مسير يوم كامل على وجه التقريب .

٤- السُّهب الداخلى(*)

الحاجز الرهيب الذى يحمى قلب الجزيرة العربية من التسلل الأجنبى الفاسد والنفوذ الأجنبى العفن ، هو حاجز مخيف بحق ، وهذا الحاجز يرتفع طبقه فوق أخرى

(*) السهوب : سهول مترامية الأطراف صحراوية النُّبوت . (المترجم)

اعتباراً من المحيط الشرقى إلى أن يصل إلى الهضبة الوسطى ، وأولى تلك الطبقات تتمثل فى الشريط الرملى الساحلى الذى يرتفع مستواه خلال خمسين ميلاً ليصل إلى ٣٥٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . وتجىء الصُّمَّان التي يتدرج ارتفاعها بصورة منتظمة ليصل ارتفاعها عن مستوى سطح البحر إلى حوالى ٩٠٠ قدم فى مساحة ٩٠ ميل ، ثم تجىء الدهناء بعد الصمان ، والتى يتراوح ارتفاعها عن مستوى سطح البحر بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ قدم على امتداد ٢٥ ميلاً ، وبعد ذلك تجىء القلعة التى تقع على مسافة بعيدة من دفاعاتها الأخيرة التى تتمثل فى ذلك السَّهب المُنحدر .

وجسر جسرة Jasra الحجرى فى الجانب الشرقى له نظير على الجانب الغربى فى منطقة جارى Jari التى دخلناها حاليًا ، وجسر جارى هذا عبارة عن شريط من الصلصال المغطى تمامًا بالثمام Thamam الخشن والحرمل Harmal ثخين الأوراق ، ويمتد كما لو كان أسفينًا دخل كثبان المرباخ Marbakh الرملية . وفى أثناء تقدمنا كانت الرمال تنهال من الجانبين انهيالاً مفاجئًا إلى منحدر متدرج تنتشر فيه كتل الحجر ، ويمر من فوق ذلك المنحدر مجرى الجارى Jari ، الذى هو الآن عبارة عن منخفض ضحل يصل عرضه إلى حوالى ميل تقريبًا ، ويرتفع بعد ذلك إلى سلاسل الجبال المنخفضة الموجودة على الجانبين . ويمتد ناحية الشمال والجنوب فضاء سهب عرمة Arma' الواسع ، لينتهى فى أقصى اتجاه الغرب عند حافة منخفضة ترسم الشمس الغاربة حدودها الخارجية .

كنا لا نزال بعيدين عن السقيا ، وكان أملنا ضعيفًا فى الوصول إليها قبل حلول الليل ، وعلى الرغم من ذلك واصلنا المسير ، بأقصى ما وسعت السرعة الدواب التى كنا نستعملها ، واعترضت طريقنا غزالة وحيدة ، هى الغزالة الوحيدة التى شاهدناها فى الصحراء كلِّها ، بالرغم من أننا شاهدنا فى الدهناء آثاراً لا تحصى ولا تعد لتلك الغزلان ، وكانت تلك الآثار تعترض طريقنا ، ويقتفيها بلا جدوى بعض البدو العطشى أصحاب القلوب الغليظة . وبعد ذلك بوقت قصير مررنا بدوسرى يرعى قطيعاً صغيراً من الأغنام متجهًا إلى الأحساء ليبيع غنمه يوم الخميس فى السوق الكبير ،

ورحنا ننادى عليه ونحن مرهقون ، نطلب منه التوقف لنشترى منه لحمًا لليل ، وأجمع الكل على التوقف عن السير ، واشترينا اللحم، خروفين جميلين ، اشتريناهما بعد مساومة طويلة ودفعنا عشرة ريالات ثمنًا لكل واحدة منهما ، ولكن الماء اللازم لطبخ هذين الخروفين لا نملك منه شيئًا ؛ وأوفدنا جملين لإحضار قربة أو قربتين من الماء من أبى جيفان Abu Jifan ونصبنا خيامنا ورحنا ننتظر عودة الجملين . وأخيراً ، وبعد أن يئسنا من عودة أولئك الذين أوفدناهم لإحضار الماء ، تناولنا العشاء من لحم البقر المحفوظ ، وكان الوقت منتصف الليل تقريبًا عندما قطعت صرخات السعادة علينا نومنا ، وهى تتصايح ترحيبًا بوصول الجملين ؛ الآن كان الجميع فرحين ومسرورين ، وأطفأ الماء ظمأ الناس الذى دام طويلاً ، وأعيد إشعال جمر المخيم من جديد .

وفى اليوم التالى استأنفنا مسيرنا فى أعالى منخفض جارى Jari خلال الأرض القاحلة نفسها ، التى لا يوجد فيها سوى تلّة واحدة بارزة يطلقون عليها اسم فرحة Farha ، وسلسلة الجبال القصيرة المنخفضة التى يطلقون عليها اسم تنية آل بلال Thaniyyat al Bilal التى توجد فى الجانب الأيسر ناحية الجنوب الغربى . وعلى الجانب الأيمن وعلى بعد مسافة قريبة منا شاهدنا مجموعة من الأدغال ، يطلقون عليها اسم روضة آل هلال Raudhat al Hilal ، وهى سقيا بديلة لسقيا أبى جيفان ، وتقع على طريق فرعى يتجه نحو الشمال ، ليتصل بالطريق الذى مشينا فيه فى الدهناء . ومياه سقيا روضة آل هلال أقل وفرة من مياه سقيا أبى جيفان ، ويتردد على السقيا الأولى معظم أولئك الذين يسافرون على عجل من الرياض ، أى أولئك الذين يستعملون الطريق المباشر من أبيار عاقلة Aqla' إلى الروضة Raudha مختصرين بذلك تحويلة أبى جيفان .

وينتهى منخفض جارى ، بعد مسير دام حوالى أربعة أميال بدأناها من المخيم ، ومضت خلال مستجمع مياه منخفض ، ينزل الطريق من خلفه منحدراً سهلاً يتجه ناحية الغرب . وهنا أصبح سطح السَّهب أكثر تموُّجًا بفعل ربوة رملية منخفضة جرداء كانت تمتد هنا وهناك فى أنحاء ذلك الطريق . ومررنا بقافلة من القصيم كانت تسير شرقًا باتجاه البحرين ، التى كان يقصدها ذلك التاجر الثرى القادم من عنيزة ، وكان

معه نساؤه وأطفاله على شكل حاشية . كانت تلك القافلة قد غادرت أبا جيفان عصر اليوم السابق ، وأمضت الليل فى دغل منخفض يطلقون عليه اسم روضة آل ضلَّة Raudhat al Dhulla ، التى سرعان ما وصلنا إليها . وروضة آل ضلة هذه عبارة عن مبرز مفضل ، أو إن شئت فقل : متنفس للقوافل المسافرة من أبى جيفان . وفى تلك الروضة فرغت قرب الماء فى أثناء وقفة المساء ، وكان لابد من إعادة ملئها قبل فجر اليوم التالى ، موعد استئناف القافلة مسيرها الأخير فى الصحراء . وعندما دخلنا منطقة الأدغال فر ذئب كبير ناحية اليسار دون أن يصيبه أذى من وابل الرصاص الذى انهال عليه محيِّيا إياه فور ظهوره .

وهنا بدأ سطح السُّهب ينقسم إلى ربوات وعرة من جلاميد الصخر التى تنتشر هنا وهناك ، وهنا بدأ يظهر أمامنا الجزء الأمامى من خشم أُوساع[٧] Khashm Ausax، وفجأة وصلنا إلى حافة واد عميق يمتد من الجنوب إلى الشرق . ها نحن قد وصلنا أخيراً إلى أبى جيفان ، وها هى آبار أبى جيفان تقع تحت أقدامنا فى قاع الوادى الصخرى ، تلك الآبار التى سبق أن تكلمنا عنها كثيراً وحلمنا بها كثيراً أيضًا طوال الأيام الخمسة الماضية. وهنا كنا قد أمضينا ١٢٤ ساعة منذ أن بدأنا مسيرنا من قلعة الخيزام ، ومنذ آخر سقيا للإبل من أبيار رقيقة Ruqaiqa .

وراحت الدواب المرهقة تتنقل من حافة صخرية صلدة إلى حافة أخرى وهى تمشى متثاقلة نحو الأبيار عبر السطح المائل المنحدر الذى تنتشر فيه جلاميد الصخر ، وعند تلك الآبار كانت أيدى أولئك الذين سبقونا إلى تلك الأبيار مشغولة بسحب الماء ليملأوا به تلك المنخفضات الصخرية المحاطة بسياج من الطين ، كى تشرب منها دوابهم ودواب من سيأتون بعدهم . كانت فى منطقة الأبيار جماعة أخرى مسافرة إلى الأحساء ، ولكنها كانت قد انتهت من سقيا الدواب والتزود بالماء ، ولم تتأخر تلك القافلة عن استئناف مسيرها إلا لمجرد تبادل الأخبار المثيرة . وبعد إنزال الأحمال من فوق الإبل اقتادها الناس إلى منخفضات الماء ، التى اندفعت نحوها الدواب العطشى ، وراحت كل دابة منها تبحث لنفسها عن مكان حول ذلك الماء ، وراحت تمد أعناقها الطويلة نحو الماء ، وتسحب منه جرعات طويلة ، وكانت تتوقف هنيهات قصار كى تهز شفاهها التى

يتساقط منها الماء ، ثم تخفضها مرة ثانية إلى حفر الماء ، الذى كان الرجال يسحبونه من الآبار ، وكانت الجلبة الناتجة عن تلك العملية ، ثم اختفاء ذلك الماء بفعل تلك الأعناق الطويلة الممتدة إلى تلك الحفر .

وفيما يتعلق بنا ، فرشنا بسطنا وفراشنا فى ظل حافة صخرية كبيرة معلقة ، لننال قسطًا من الراحة . ووادى أبى جيفان عبارة عن منخفض كبير فى السَّهب ، وهو أيضًا مجرى من مجارى السيول الذى تتخلله الكتل الصخرية المتناثرة هنا وهناك ، ويصل عرضه إلى حوالى ستين ياردة بين صخور وعرة يتراوح ارتفاعها بين خمسين ومائة قدم ، والأبيار تقع فى وسط ذلك الوادى ، وهم يقولون : إن عدد تلك الأبيار يصل إلى حوالى خمسة وعشرين بئرًا ، ولكن المستعمل منها بالفعل هو ثلاثة أبيار فقط ، أما بقية الأبيار فهى إما مدفونة فى بعض أجزائها تحت الحطام أو نضب ماؤها إلى حد ما . والقمُّوص Qammus ، أو إن شئت فقل : أفضل تلك الأبيار ، شأنه شأن بقية الأبيار ، يصل عمقه إلى اثنى عشر قدمًا ، ومبطن تبطينًا غير منتظم بالحجر الجيرى ، الذى تآكل عند أعلى البئر على شكل أخاديد عميقة نتجت على مر القرون ، من الحبال التى كان الناس يستعملونها لإخراج أو سحب الماء من تلك الأبيار . والماء فى الآبار الثلاثة المستعملة حاليًا عذب ووفير ، وتربة الوادى فيما بين فجوات الصخور من النوع الرملى وتغطِّيها الجلَّة Jalla ، أو إن شئت فقل : روث الإبل . وفى وسط ذلك الغور أخلى الرجال مكانًا ضيِّقًا من الرمال وحوَّلوه إلى مصلًّى ، أحاطوه بالأحجار وجعلوا له محرابًا وكل شىء . ومما لا شك فيه ، أن أجيالاً من القوافل التى مرت على ذلك المكان كانت تقيم الصلاة وتشكر الإله الحق ، فى الوقت الذى كانت إبلهم فيه تروى ظمأها . وفى تلك الأماكن التى يكون الحجر فيها فى متناول اليد ، يمضى المسلم المتديِّن الساعة أو الاثنتين اللتين لا ينشغل خلالهما ، فى إقامة نصب تذكارى دائم رغم بساطته ، يتقرب به إلى الله القوى القدير ، شأنه فى ذلك شأن ذلك البدوى الوثنى الذى كان ينفق ساعات الرعى فى إقامة كوم من الأحجار ، يحدد به منطقة الرعى ، وهذا هو ما يفعله ذلك البدوى إلى يومنا هذا . والصخور ، فى الصحراء ، هى من قبيل اللُّعَب المسلية ، وأنا عندما كنت أجلس على إحدى الصخور الجرداء ، كى ألاحظ منظرًا من مناظر

الأرض القاحلة ، كنت أنظر حولي فأرى رفاقي منهمكين في عملية البناء تلك . وكانوا يقولون لي : "يا أنت ، هل دونّت اسم هذه الأشياء ؟" وكنت أرد عليهم قائلاً : "وما هو اسمها حتى أدونّه ؟" ويردُّون عليَّ قائلين : "ترى ، يا صاحب ، اكتب اسمه [كذا] المطوع" .ثم ينفجرون بعد ذلك ، في موجة من الضحك ، وأنا أسجل طرفتهم الصغيرة البذيئة المستخفَّة بالمقدسات . وكنت أتساءل في كثير من الأحيان عن الأسباب التي تجعل تلك الأكوام تنتشر في الصحراء بشكل يثير الضيق والضجر . وتفسير ذلك غاية في البساطة ، وهو أيضًا إنذار للمتهوِّرين .

القاعدة العربية في الصحراء تقول : "اسق وافسح المجال للآخرين" ، والأعراب يندر أن يخيِّموا بالقرب من آبار المياه اللهم إلا إذا كانوا قريبين من إحدى القرى المجاورة للبئر أو منزل من منازل البدو الرُّحل ، وهذه القاعدة صحيحة ، والسبب في ذلك أن الأماكن التي يندر فيها الماء تجعل من آبار المياه مكانًا هادئًا، يرتاده الأمناء والمخادعون على حد سواء ، ويقصده أيضًا الأصدقاء والأعداء ، وتصبح القافلة النائمة تحت رحمة العدو الذي يمر بها . وسرعان ما وصلت فترة راحة القيلولة - التي أمضيناها في ظل الصخرة المعلَّقة - إلى نهايتها ، وبدأت شمس العصر تصلى ذلك الغور الضيق طوال تحميلنا لمتاعنا على الدواب ، وعندما بدأ السير أيضًا . وهذا المضيق الذي يسير بين الصخور العالية في اتجاه الجنوب الغربي ، مخترقًا ذلك الجزء من سهب عارمة Arma' ، ومارا بحدوده الخارجية ليدخل بعد ذلك السهل الترابي Turabi Plain ، الذي يمتد بدوره ناحية الجنوب ، حيث يتصل بمجرى الصحابة Sahaba Channel . ولو سرنا في ذلك الوادي لأوصلنا إلى مسافة بعيدة جدا ناحية الجنوب ، في حين يسير المدقُّ (الطريق) الذي يؤدِّي إلى الرياض عبر الضفة اليمنى من ذلك الوادي ، وفوق هضبة وعرة تنتهي بجرف عارمة الغربي شديد الانحدار . وبعد أن يممنا السير في ذلك المدقّ، مررنا بتل سنام آل حوار Sanam al Hawar الكبير الذي يشبه الهرم ، ومنه إلى الهضبة ، التي اتَّجهنا منها ، على ما يبدو ، إلى شفا الجرف شديد الانحدار . ومن ذلك الجرف تبدَّى لنا منظر رائع ، وعن اليمين وعن الشمال كانت تقف صخور خشم أوساع البارزة وصخور خشيم رضى Khushaiyim Ridhi حراسًا لمدخل سهل الترابي

الواسع ، الذى تمتد خضرته وأشجاره حتى تصل إلى خط التلال البعيد ، وإلى ساحل الشديدة Shadida المنخفض فى الناحية الجنوبية ، ليعزل منطقة الخرج الخصبة وسلاسل جبال جبهة Jabha والجبيل من ناحية الشمال .

وهنا اقتادنا مرشدونا جانبًا إلى حافة صدع كبير ، وعلى بعد مسافة ١٥٠ أو ٢٠٠ قدم فى الأسفل كانت توجد غابة جميلة من أشجار السنط وأشجار السدر الصحراوية ، وكانت تحيط بتلك الغابة الجميلة ، من ثلاثة جوانبها الأربعة صخور الجرف العابسة العالية التى ترتكز على الكتل المنهارة من سطوح الجبال ، والمكوَّنة من حطام الصخور الرسوبيَّة ، والتى تفتح من ناحية الجانب الرابع ، أو إن شئت فقل : من الناحية الغربية على السهل الذى يليها . وكان هنا ممر منحدر ضيِّق وملتو يؤدى إلى حافة الصخرة ومنها إلى الكتل المنهارة من سطوح الجبال ، ثم إلى الغابة الموجودة فى الأسفل . ونزلنا عن الجمال ، ورحنا نضربها لنجبرها ، على غير رغبة منها ، على السير عبر تلك الحافة . وبعد ذلك ، راحت الجمال ترعى نفسها بنفسها ، لتصل إلى القاع بلا إضرار . وتلك الغابة يطلق عليها بحق اسم أبو خشبة Abu Khishba أو إن شئت فقل : "أبو الخشب" .

وكما كنا قد نزلنا إلى المنخفض سيرًا على الأقدام ، فقد ركبنا الإبل مرة ثانية ثم دخلنا سهل الترابى بعد فترة وجيزة . ومن الهفوف كان مسارنا يسير بصفة عامة صوب الجنوب الغربى وصولاً إلى النقطة التى نحن فيها الآن ، ولكن من الآن فصاعداً سوف يكون اتجاهنا ناحية الشمال الغربى عبر ذلك السهل . وعن يميننا وناحية الشمال والجنوب وعلى مدد الشوف يوجد الجرف شديد الانحدار الذى يطلقون عليه اسم جرف عارمة الذى يرتفع من وسط السهل إلى ارتفاع يتردد بين ٢٠٠ و ٤٠٠ قدم ، والذى تأوى إليه النسور والوعول ، ولكن من هذا الجانب يتعذر على الإنسان النزول منه إلى الوادى باستثناء بعض الأماكن المحددة التى توجد فيها بعض المدقات (الطرق المطروقة . وعن يسارنا تمتد عبر الوادى كل سلاسل الجبال التى سبق أن أشرنا إليها. والسهل بكامله تجرى فيه قنوات من المجارى المائية الصغيرة التى تتجه جنوبًا إلى صحابة Sahaba .

وفى تلك الأثناء كنا نقترب ما أمكن من تحت الجرف ، وبعد أن تجاوزنا دعامة قوية كانت تبرز من الجرف كما لو كانت قلعة عظيمة ، اقتربنا من منطقة تبعد حوالى نصف ميل عن خشم أوساع ، ونصبنا خيامنا لقضاء الليل فيها ، وكانت صخرة ذلك الخشم تتطاول من فوقنا متشامخة فى ضوء القمر الذى كان بدراً .

واعتباراً من يوم مغادرتنا للهفوف كان يصاحبنا دوماً نسيم عليل ، كان يخفف من درجة حرارة أشعة الشمس فى أثناء النهار ويجعل الليل لذيذاً ؛ كان المناخ يزداد برداً كلما زاد ارتفاعنا ، وفى ذلك الصباح الذى أمضيناه فى مخيم جارى Jari سجّل مقياس الحرارة الذى كنت أحمله معى ٤٨,٢° فهرنهيتية عند الساعة السادسة مساءً . ومع ذلك ، تغير هبوب الريح فى أثناء النهار تغيُّراً مفاجئاً إلى اتجاه الجنوب ، وبذلك أدى الكوس، أو إن شئت فقل الريح الجنوبية ، إلى رفع درجة الحرارة من ٥٥,٤° عند الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً ، فى الليلة السابقة (٢٦ نوفمبر) إلى ٧٣,٤° فهرنهيتية فى التوقيت نفسه فى الليلة التى خيَّمنا خلالها فى سهل الترابى . كان ذلك التغيير ، تغييراً مؤقتاً ، أو إن شئت فقل : انتقالياً ، إذ سرعان ما بدأت الريح بعد منتصف الليل ، فى التحول من جديد إلى اتجاه الشمال مرة ثانية ، متحولة إلى عاصفة قوية هدمت خيامنا فوق رءوسنا قبل أن نتمكن من الهرب منها إلى العراء . وفجأة هدأت الريح ونمنا فى سلام فى العراء بجوار حطام مخيَّمنا . وفى صبيحة اليوم التالى سجلَ مقياس الحرارة ٦٢,٦° فهرنهيتية عند الساعة السادسة والنصف مساءً ، ولكن الهواء كانٍ عامراً ببرودة الشتاء ، وتأخر رحيلنا بسبب قصة مفتعلة عن شرود جمل من الجمال .

كانت الساعة قد أوشكت على التاسعة قبل وضع الأحمال على ظهور الجمال واستئناف المسير . كان سهل الترابى قد تغير تغييراً مقبولاً عن تلك الأرض الجرداء القاحلة التى خلَّفناها وراءنا ، وتحسن الجو فى اليوم السابق لليوم الذى استجمعت الشمس فيه قوتها كى تحدث شيئاً من التعادل مع لسعات البرد القارس التى هبَّت علينا من ناحية الشمال . فى هذه المنطقة يوجد العشب الأخضر ، وكذلك العشب بكميات وفيرة ، كما

تتناثر هنا أيضًا مجموعة من أشجار السنط تشبه الأدغال . وفى بعض المناطق القريبة كان يتخلل تلك الخضرة حزام أسود اللون ، ومجرى سيل يمتد جارفًا من منخفض عارمة Arma' عبر السهل ، كما لو كان مجرى من مجارى الحمم البركانية . كما كانت الروابى تنتشر فى ذلك السهل أيضًا ، فى حين كانت تقع سلاسل الجبال المتهاوية فى الناحية الشمالية ، ومن أمام الجرف كانت تقف روابى آل أبرق Al Abrag وروابى الرحية Rahaiya ، وكانت روابى آل أبرق بمثابة العلامة المميزة لما يسمى درب الحج Darb al Hajj، أحد طرق القوافل الرئيسية بين الرياض والأحساء ، والذى يتصل بالطريق الذى كنا نسير فيه عند نقطة أبيار عقلة Aqla' . وفى الأفق الشمالى كانت تتبدى لنا سلاسل جبال حزوم سيلان Huzum Sailan ودغم Dughm ، ومن خلف دغم كانت توجد سقيا المياهية Miyahiyya ، التى كانت تعد إشارة إلى مدق (طريق) آخر يربط الرياض بالأحساء . والطريق المباشر من الأحساء إلى منطقة الخرج لا يمر بأبى جيفان ، ويصيب الماء من أبيار وسيعة Wasi'a ، بالقرب من ملتقى الطرق فى سهل الترابى ومجرى سحابة المانى ، ويتجه من هذه النقطة جنوبًا إلى سلاسل جبال شديدة .

والحياة الحيوانية فى هذه المنطقة هى الأكثر وضوحًا حتى الآن ، فقد شاهدنا الغزال وطاردناه ولكننا لم نفلح فى صيده أو الإمساك به ، كما اعترض طريقنا طير من طيور الحبارى ، والتى يقلل طيرانها البطىء من سرعتها . وكما هو الحال فى الهند ، يمكن الحصول على ذلك الطائر بسهولة بالغة عن طريق التحايل عليه ، فى حالة عدم اصطياده عن طريق الصقور ، يضاف إلى ذلك أن كلٍّ من يحاول اصطياد ذلك الطائر بطريقة مباشرة يمنّى بالفشل والإحباط . وفى هذه المنطقة أيضًا يحفر الضب Dhabb سميك الجلد جحوره داخل جدائل الحصى الأسود ، والضب نوع من السحالى يأكله البدو بشهيّة كبيرة ، ولكنه يتمتع بسرعة خرافية . ويبنى الجربوع مسكنه أيضًا فى هذه المنطقة ، ويمكن الحصول عليه مباشرة عن طريق حفر الجحر الذى يختبئ فيه توفيرًا واختصارًا للوقت والعمليات الأخرى اللازمة لإخراجه من جحره ، والجربوع ، هو أيضًا ، من اللحوم المفضّلة . وكنا نشاهد أيضًا النسور وهى تحلّق فوق صخور عارمة بين الحين والآخر .

وشاهدنا ، هنا أيضاً ، رعاة من الدواسر ومن السبيع وهم يرعون قطعانهم ، كما شاهدنا أيضاً قافلة كبيرة متَّجهة إلى الأحساء مرت بنا فى أثناء النهار . والشوَّان Shuwwan، أو إن شئت فقل عناصر الرعى فى القبائل الكبيرة ، يحتلُّون على السلم الاجتماعى منزلة أقل من منزلة البدو ومربِّى الإبل المُغيرين ولا شىء غير ذلك .

وأمضينا اليوم بطوله فى ذلك السهل الطويل ، وأخيراً ظهر أمامنا جبل عقلة المنخفض وهممنا بالمسير ، ولكن الإبل كانت قد شربت لحدِّ الامتلاء ، وكنا بدورنا قد حصلنا على ما يكفينا من الماء ، ولذلك آثرنا نصب خيامنا لقضاء الليل ، على بعد أميال قليلة من الأبيار ، إذ كنا قد وصلنا الحافة الشرقية لمنحدر الجبيل Jubail الطويل .

وفى أثناء مواصلتنا المسير فى صباح اليوم التالى ، سجل مقياس الحرارة درجة حرارة مقدراها ٤٨,٢ْ فهرنهيتية عند الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً ، وهب على السهل نسيم عليل جاء من الناحية الشمالية ، واستطعنا الوصول إلى أبيار عقلة Aqla' فى زمن زاد على نصف الساعة . والأبيار يتراوح عددها بين تسع أبيار وعشر ، ولكن ما يستعمل منها بالفعل ثلاث أبيار فقط ، وهى موجودة فى منخفض رملى ضحل محصور بين الروابى الجرداء المنخفضة وسلاسل الجبال . ومن حول حواف الطبق كان لون الأرض أسود بفعل روث الأغنام ، التى لا يزال قطيع منها باقياً فى مكان الليلة السابقة نفسه ، انتظاراً للسقيا قبل أن يتحرك إلى منطقه المرعى . واستعرنا من الرعاة أحواض علف الماشية وسقيها ، والتى كانت مكونة من إناء جلد مشدود على إطار ، وجلبنا الماء وصببناه فى تلك الأحواض ، ولكن الإبل تشمَّمت الماء عند سطحه ورفضت الشرب منه .

وواصلنا مسيرنا فوق سهب الجبل القاحل الطويل الذى تتناثر فيه كتل الأحجار ، والتى ترتفع بصورة متدرجة عن سلسلة جبلية إلى سلسلة جبلية أخرى ، ليمر خلال منخفض رملى تارة ، ثم بعد ذلك عبر مجرى متعرج من مجارى السيول ، وتارة أخرى عبر المنحدر الموحش ، إلى أن ابتعدنا عن نقطة البداية بحوالى خمسة عشر ميلاً ، هبطنا بعدها إلى غور شعب أبَاناس(٨) Shaxib Abbanas ، الذى يأتى من الشمال على

شكل فرعين ، ليتحول هنا إلى مجرى واحد يتجه جنوباً في صدعه العميق لينساب في النهاية في وادي سُلَيٍّ Wadi Sulaiy. وهذا الغور لا يختلف عن غور أبي جيفان، وإنما ليس به أبيار . وهنا أخذنا قسطاً من الراحة ، وبعد أن واصلنا المسير مسافة ثلاثة أميال أخرى ، اكتشفنا فجأة أننا كنا على شفا الجروف المنحدرة ، التي تشكل الحافة الخارجية للجبيل ؛ وشاهدنا أمامنا منظراً طبيعياً متضارباً من الأراضي المنخفضة ، ومن خلفها في اتجاه الغرب تبدت لنا الحدود الخارجية المسوَّرة لمدينة الطُّويق Tuwaiq .

من ناحية المواصفات والخصائص يمكن القول : إن سهبي عارمة والجبيل ليسا سوى مبشرين بسهب الطويق نفسه ، الذي هو بحد ذاته صورة مصغرة من الهضبة الجرداء الواسعة وصحراوية البنوت التي هي بمثابة العمود الفقري في الجزيرة العربية كلها ، ففي كل سهب من تلك السهوب نجد منحدراً طويلاً متدرجاً يمتد من ناحية الشرق إلى خط بارز من الجروف الرسوبية العالية المنحدرة ، التي تواجه على ما يبدو حاجزاً لأبراج ناتئة قوية في الجانب الغربي . والمنحدر هنا لم يشكل أي عائق لنا ، إذ سرعان ما وجدنا أنفسنا في سهل دائري يمتد على شكل خليج داخل سلاسل الجبال وتحيط به الجروف المنحدرة من ثلاثة جوانب ، في حين كان الجانب الرابع مغلقاً بالمنخفضات الجرداء الوعرة ، التي يسير الطريق خلالها منبسطاً ثم ينزل بعد ذلك إلى صدع منحدر ملتوٍ ليتَّصل بوادي سُلَيٍّ الرملي الواسع .

وهنا أصبحنا على مقربة من الرياض ، ونصبنا خيامنا بجانب شجرة وحيدة من أشجار السنط في الوادي ، ومن خلفنا أراضي الجبيل الرئيسية البارزة ، وهذا هو خشم العان في أقصى الشمال ، في حين نرى خشم السُّلَيِّ يجاور مخيمنا تماماً ، وهذا هو خشم الهيث في اتجاه الجنوب . وهذه هي قمة جبل طويق المنبسطة تبدو واضحة ومن خلفها سماء المساء ، على حين تخيم سحابة من الغبار على سلسلة جبال دريبات الخيل Duraibat al Khail المشرشرة. كانت الرياض تقع خلف سلسلة الجبال تلك . والمثل العربي يقول : "صبِّح الدار ولا تماسيها" ، والسبب في ذلك أن اليوم عند العرب ينتهي بانتهاء صلاة العشاء ، وأن ساعات الظلام هي الساعات التي يخصصها

المرء لأهله ولأصدقائه ، ومن غير اللائق أن ينشد الغريب الاهتمام والكرم فى مثل ذلك الوقت . وهناك سبب آخر ، موروث عن عصور وأزمان التوحش ، مفاده أن الإنسان لابد أن يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، وفى الظلام يصعب على المرء أن يميز بين منازل Manzils الأصدقاء ومنازل الأعداء ؛ ومن هنا يتعين الاقتراب من خيام الغرباء فى أثناء النهار ، وأن يكون الاقتراب حذرًا ، تحسبًا من أن يكون هناك دم (ثأر) بينك أو بين ذويك ، وبين أى إنسان آخر .

تركنا الإبل ترعى فى مراعى الوادى ، وتجمَّعنا حول نار واحدة كى نناقش الرحلة الطويلة التى تنتظرنا ، ولنمدَّ أيدينا للمرة الأخيرة ، فى طبق واحد . وتناسى الجميع الخلافات الصغيرة والكلمات القاسية التى قيلت طوال المسيرة الصحراوية الطويلة ، نسى الجميع كل ذلك فى زحمة الفرح الذى عمَّ الجميع ، وعندما راح رفاق سفرنا الفقراء الجشعين يقدِّرون وبلا خجل قيمة الخدمات التى قدموها . ودارت فناجيل القهوة مرات ومرات ، وصنعوا من تجريف هاون القهوة ، مبخرة ، وقام عايض بإحضار بعض عيدان الطِّيب التى كان يحتفظ بها فى فتحة من فتحات سرج الجمل ، وأحضر المدخنون من أمثال ذيب وعايض وواحد أو اثنين آخرين ، غلايِّتهم وراحوا يتحدثون بنفس مكتوم عن زهد العاصمة الكئيب ، ودورة الصلاة الأبدية فيها ، والتى تفرضها بالقوة عصى المطوعين، ومطاردة المدخنين بلا هوادة بواسطة البوليس السرى الذى يحرس المذهب الوهابى ويرعاه . ولما كانت الرياض والهفوف على طرفى نقيض من حيث الروح والفضاء ، وتواجهان بعضهما البعض فى مسألة القحولة التى لا تعرف حدودًا : لأن الأولى (الرياض) عماد الروحية الدينية الخالصة ، فى حين إن الثانية (الهفوف) هى رائدة المروق المادى ، والرفض والاختلاف قائم ومتبادل بين الطرفين ، فذلك يعنى أن "الاثنين سوف لا يلتقيان مطلقًا" بالرغم من أنهما سيكونان على مر الأزمان عضوين فى وحدة سياسية واحدة .

وأنا قد انتهيت الآن من كتابة رسالة إلى ابن سعود أبلغه فيها بالمكان الذى وصلنا إليه ، ورتبنا أنفسنا كى ننال قسطًا من الراحة فى الوقت الذى ركب فيه كل من

ذيب وعايض دابته ، وسارا في أثناء الليل في ضوء القمر ليسبقونا إلى ابن سعود ومعهم أخبار وصولنا . وفي صبيحة اليوم التالي ، المصادف لليوم الأخير من شهر نوفمبر ، استيقظنا مبكرًا ، وتركنا الدواب التي تحمل أمتعتنا لتأتي بعدنا ، وأخذنا معنا مجموعة صغيرة من رفاقنا لنقوم بالجزء الأخير من رحلتنا . ورحنا نتنقل بين المنحدرات والوديان ، ونواصل المسير إلى أن وصلنا إلى سفح آخر منحدر طويل من منحدرات دريبات الخيل . وصعدنا أكثر فأكثر في اتجاه خط التلال الصغيرة المدببة التي تشكل خطًا عند قمة المنحدر . وأخيرًا وصلنا القمة . "لا إله إلا الله ! لا إله إلا الله !" ها هو خط غير منتظم له خضرة الزمرد ، ويقع في ثنيات الوادي الرمادي الذي يقع أسفل الهضبة التي نقف عليها ، إنها حدائق الرياض ، وتلك هي أبراج العاصمة الوهابية المبنية من الطين تتراءى لنا معتمة من خلال النخيل الذي يشبه الشاشة الكبيرة .

الـهـوامـش

(١) الاسم مبرز مشتق من هذا الجذر ، وهو يخفى الحقيقة التى مفادها أن المدينة الحالية ربما كانت فى الأصل مكانًا تتزود منه القوافل التى تغادر الهفوف بالماء .

(٢) المعنى الحرفى لكلمه "المراح" هو "مكان الراحة" ، ولكن من الناحية الفنية لا تطلق تلك الكلمة إلا على المكان الذى يتوقف الإنسان فيه لقضاء الليل .

(٣) تتكون كل قربة من جلد ماعز كامل ، أو قد تتكون من جلد جمل كامل (ويطلق عليها اسم "مزادة") وهى تستخدم عندما تخصص جمال بعينها لحمل المياه اللازمة لجماعة كاملة .

(٤) بنى هاجر .

(٥) من سوء الحظ أننى لم أحضر أية عيِّنة من تلك الأحجار لفحصها ودراستها ، ولكن إذا لم تخنِّى الذاكرة ، فإن تلك الأحجار لم تختلف عن عينة الأحجار التى أحضرتها معى من منطقة بالقرب من سدوس Sa-dus، فى جبل طويق ، والتى صُنِّفت على أنها صخور مرجانية وصخور إسفنجية من العصر الجوارسى .

(٦) أى اعتباراً من آخر مخيم كنا فيه .

(٧) يلفظه أهل الجنوب أساع ، أى بفتح الهمزة ، والخشم معناه الأنف ، والخشيِّم معناه الأنف الصغير (أنيِّف) والجمع خشوم ، وكل الأراضى البارزة فى هذه المنطقة يطلقون عليها اسم خشوم عارمة Khushum 'Arma .

(٨) شعب أباناس : عبارة عن مجرى مائى جاف .

الفصل الثالث

العاصمة الوهابية (الرياض)

١- الوصول إلى الرياض

وبينما كنا نقف ، بعد أن نزلنا من فوق ظهور الإبل ، على قمة سلسلة الجبال ، ورحنا نستوعب كل تفاصيل المشهد من أمامنا ، اقترب منا ثلاثة من الخيالة الذين كانوا يجرون بخيولهم في اتِّجاه أعلى المنحدر . وبعد أن وصلوا إلينا ، نزلوا من على ظهور جيادهم نزولاً رشيقًا ، وراحوا يقتربون منا ، ويرحِّبون بنا في الرياض . كان عايض ، من بين أولئك الثلاثة ، وكان قد سبقنا ، ثم قدَّم لنا رفيقيه ، اللذين كان أحدهما عبدًا من عبيد البلاط الملكي ، ويدعى سعيد ، أما الثاني وهو المتكلم الرسمي باسم الجماعة ، واسمه إبراهيم بن جميع ، رئيس تشريفات ابن سعود وقائد الحرس ، الذي اعترتني كراهية فطرية شديدة له فور رؤيتي إياه ، والذي تعيَّن على طوال الأشهر التي تلت ذلك أن أكون على معرفة حميمة به ، والذي كان صدودي له يزداد مع كل يوم من أيام تعارفنا ، إلى أن تمكنت - بعد أكثر من ثمانية أشهر - من تخليص نفسي من كابوس اهتماماته عن طريق شقاق علني وصريح . وسوف يتعرف القراء علينا أكثر ويحكمون علينا حكمًا صادقًا من خلال أحداث هذه القصة ؛ ولتلك المرة الوحيدة التي كان إبراهيم فيها حاملاً لترحاب ابن سعود .

وبعد التبادل المعتاد للتحية الرسمية ، ركبنا كلنا دوابنا ، ورحنا نتحرك ببطء أسفل التل في اتِّجاه النخيل ، على حين كان إبراهيم يبدو شخصية عظيمة في ثيابه

الرائعة ، وهو يركب جواده الأصيل المزين بزينة عربية ، ويسير إلى جوارى ، ويتبادل معى الأخبار والترحيب . وفى منتصف الطريق المنحدر ، كانت هناك مجموعة من الأعراب فى انتظار وصولنا ، وقد بركّوا ذلولهم بالقرب منهم . وعندما اقتربنا منهم ووقف قائدهم لتحيّتنا ، تعرفّنا فيه على العقيد هاميلتون ، الممثل السياسى فى الكويت ، الذى كان قد وصل إلى الرياض عن طريق القصيم قبلنا بثلاثة أسابيع .

وبعد انضمامنا إليهم ، اتجهنا جميعًا ، ونحن نركب دوابنا إلى حافة حزام النخيل ، الذى توقفنا عنده انتظارًا لفتح بوابات المدينة ، نظرًا لأن ذلك اليوم كان مصادفًا ليوم الجمعة الذى تفتح فيه ، عند الظهر ، بوابات المدينة . وكان كل سكان المدينة الذكور قد تجمعوا فى الجامع الكبير لأداء صلاة الجمعة ، ولذلك أغلقت كل بوابات المدينة فى وجه الدخول والخروج . ونزلنا من على دابتنا ، على طريق ترابى يقع بين بيارتين مسورتين من بيارات النخيل ، وجلسنا أرضًا فى ظل أحد أسوار الحدائق العالية إلى أن خلا لنا الجو . وطوال تلك الفترة كان العويل الطويل المنبعث من بكرة أحد الآبار المجاورة ، هو الذى يبرز صمت المشهد المطبق ، كما لو كان ذلك العويل صرخة عالية صادرة عن مؤذن شيطانى يدعو الدنيا كلّها إلى صلاة لا تنتهى .

وفجأة حدث حفيف يشبه حفيف أوراق الشجر ؛ وعرفنا بشكل أو بآخر أن البوابات فتحت على مصاريعها ؛ وراحت الحياه تستأنف دورتها فى ذلك العالم الذى بدا لنا ميتًا . ونهضت على قدمىَّ ؛ وعدلت سرج الجمل ثم ركبته ، واستأنفنا المسير من جديد خلال شارع البيارات المسورة ، والذى وصلنا منه إلى أرض مفتوحة لنجد أنفسنا نطل على أسوار الرياض . كانت أكشاك البدو السوداء تنتشر هنا وهناك أمام المدينة ، وشققنا طريقنا عبر تلك الأكشاك إلى البوابة الشمالية . ودخلنا من البوابة لنسير فى شارع ترابى وتجاوزنا القلعة ذات الأبراج ، وكانت الجماهير الحاشدة التى خرجت لتوّها من الجامع تحملق فينا وتطيل النظر إلينا ، ونحن نسير بخطى بطيئة صوب ميدان القصر ، الذى امتلأ عن آخره الآن بالناس ، وبعد أن بركّنا الجمال عند بوابة القصر ، دخلنا فيه . واقتادنا إبراهيم عبر ممر طويل مزدحم ، إلى فناء فى داخل

القصر ، ثم صعدنا بعد ذلك درجًا ، كان يقف على جانبيه عبيد مسلحون وبعض أفراد الحرس ، ثم سرنا بعد ذلك في ممر مزدحم أيضًا ، لنمر بعد ذلك من بهو مكشوف إلى المكتب الملكي[1] .

وبعد أن خلعنا نعالنا عند الباب ، دخلنا غرفة كبيرة مربعة ، ليستقبلنا بحفاوة بالغة رجل عجوز ضعيف البنية ، لامع العينين ، اقتادنا إلى أرائك المجلس في ركن من أركان الغرفة بجوار إحدى النوافذ المفتوحة ؛ وبحكم الغريزة ، بدأت أعي وجود شخص آخر في الغرفة ، كان العمود المركزي يستره عنا عندما دخلنا الغرفة أول مرة ، شخصية بهية الطلعة ، طويل وفارع ، يرتدي ثيابًا فضفاضة بيضاء وبشتًا لونه بني فاتح ، ووجه رجولي يوحي بالعطف والحنان ، يقف منعزلاً كما لو كان خجلاً . كان ذلك ، ابن سعود بشحمه ولحمه ، عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، إمام المذهب الوهابي وحاكم الأراضي الوهابية . أما الشخص الآخر فكان والده ، عبد الرحمن ، الذي كانوا يطلقون عليه من باب التأدب اسم الإمام . ولم يحدث بعد ذلك قط أن رأيت الأب والابن مرة ثانية ، وأنا أعد نفسي حظيظًا لأن وصولي إلى الرياض صادف يوم الجمعة ، الذي شاهدنا فيه عجيبتين من عجائب النظام الوهابي وهما : قفل بوابات المدينة في وقت الصلاة ، والالتزام الصارم بأعراف التقاليد الأسرية في ظل ظروف يصعب أن نجد لها مثيلاً . ففي يوم الجمعة ، وبعد أداء الصلاة ، وبخاصة في أيام شيخوخته ، يخرج الإمام التقي من خلوة منزله ، ليزور ولده زيارة رسميةً في القصر . وتصادف وصولنا في ذلك اليوم الموعود ، يوم الجمعة ، مع قيام الإمام بتلك الزيارة ، وبناءً عليه ، لما كنّا قد حضرنا بصفتنا مبعوثين من الحكومة البريطانية إلى حاكم تلك البلاد ، فقد استقبلنا ورحّب بنا والده في صالة المواطنين العامة ، في الوقت الذي كان يجلس فيه ابن سعود شخصيًا في ركن منعزل متواضعًا وملتزمًا بطاعة الله . وفي الهند ، شاهدت والدًا وولده في غرفة واحدة ، كان الأول يجلس القرفصاء على الأرض ، أما الثاني ، الذي تلقى علوم المحاماة في إحدى الجامعات البريطانية ، فقد كان يجلس على كرسي وثير ، ويتولى إدارة الحديث ؛ كان الأول مدججًا تمامًا بوده ،

أما الآخر فكان يخجل قليلاً من والده . وفي الأراضي الوهابية الناس بعيدون جدا عن تلك المرحلة من مراحل التحضُّر ، وما تزال تقاليد العالم القديم بخير ، وتسري على الراعي والرعايا على حد سواء . والابن يرفض أن يدخل غرفة تعلو الغرفة التي يجلس فيها والده ؛ وأمام الناس يجلس الابن في حضرة والده ، في المكان الأكثر انخفاضاً .

هاهو الإمام عبد الرحمن يجلس على مقعده بجوار النافذة ، وهو يشير إلينا بيده لنجلس على كرسي بجانبه ؛ ثم ظهر عبد أولاً بالشاي ثم بعد ذلك بالقهوة ، وكان في كل مرة يقدم للإمام أولاً ، ثم نحن من بعده ثم يتجه بعد ذلك ليصب القهوة لابن سعود . والحديث في مثل هذه المناسبات يمكن أن يكون رسمياً ومن قبيل المجاملات ، وبعد دقائق قليلة نهض عبد الرحمن من مقعده ، مبدياً ملاحظة مفادها أنه لابد من أن نكون متعبين من الرحلة الطويلة ، ثم خرج بعد ذلك من الغرفة بلا أية جلبة أو ضجيج . وهنا جاء ابن سعود ليشغل المقعد الشاغر ، وهنا بدأت من جديد دورة الشاي ثم القهوة ، مع صبِّ أول فنجان له هو نفسه بطبيعة الحال ؛ وأعقب ذلك تبادل التحيات والمزيد من المجاملات ، وشكرت ابن سعود على الترتيبات التي أمر بها تسهيلاً لرحلتنا ، كما هنَّأته على السلام والهدوء اللذين يسودان ممتلكاته واللذين جاءا نتيجة من نتائج إدارته ؛ وأعرب عن سروره البالغ لاستقباله مبعوثي الحكومة البريطانية وسأل عن صحة كثير من الأصدقاء الذين صادقهم في أثناء زيارته للبصرة قبل اثني عشر شهراً ؛ ودار الحال على هذا المنوال إلى أن اقترح هو علينا أننا ربما كنا نود قسطاً من الراحة بعد الإجهاد الذي أصابنا جراء المسير والترحال .

وبعد استئذاننا من ابن سعود ، أوصلنا إبراهيم إلى المسكن الذي سننزل فيه ، والذي كان العقيد هاميلتون ينزل فيه بالفعل ، وكان عبارة عن منزل مكوَّن من ثلاثة غرف وحمام في الطابق العلوي الذي يطل على فناء كبير ، ويكوِّن بذلك جزءاً من جناح القصر الشرقي ، ويفصله عن صالة المواطنين فناء مربع صغير مكشوف ، فيه درج (سلم) خاص يؤدي إلى مدخل خاص لذلك المنزل الذي نقيم فيه . أما الجزء المتبقي من ذلك الفناء ، فقد كان يشغله عبيد القصر هم وعائلاتهم ، وكان قد تمَّ إغلاق الأبواب

التى تربط ذلك الفناء بالمنزل مما أدى إلى عزله تماماً . وكما علمت فيما بعد ، فإن ذلك الجناح الذى نشغله الآن ، جرت العادة أن يخصصه ابن سعود لإقامة البدوية التى قد يتخذها زوجة له من حين لآخر فى أثناء جولاته الإقليمية ، ورغبة منه فى الاستمرار "فى عملية التعدد" كلما عاد إلى المدينة . وسوف أتحدث بالمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع فى مرحلة لاحقة ؛ والغرض الذى خصص له ذلك الجناح يوحى بأنه ربما كان نوعًا من الترتيبات الجيِّدة التى لا تتوفر إلا لأثرياء الرياض . والدرج الخارجى لذلك الجناح هو بمثابة المدخل الخاص الذى لا يدخل منه سوى ابن سعود وحده ؛ أما الأبواب الداخلية فهى مخصصة لدخول الخادمات إلى ذلك الجناح من داخل القصر ؛ والجناح مكون من غرفة مركزية كبيرة محمولة على ثلاثة أعمدة ، وبها حاجز يمتد إلى ثلثى عرضها بالقرب من الباب الداخلى ، وهذا الحاجز يعزل الجناح من الداخل عن المنظر المؤذى عندما يفتح الباب لدخول الخدم . وهذه الغرفة على ما يبدو ، هى غرفة الاستقبال ، وفيها باب يؤدى إلى غرفة نوم صغيرة مربعة الشكل أما الغرفة الثالثة فهى غرفة بيضاوية صغيرة زائدة عن الحاجة ، وهى مثل الحمَّام ، تفتح على صالة صغيرة عند أعلى الدرج (السلم) الخارجى . والحمام مكوَّن من ردهة صغيرة يمكن الدخول منها إلى مكان الاستحمام ، والمرحاض يلى مكان الاستحمام ، وهو عبارة عن غرفة صغيرة خالية من الأثاث ، اللهم إلا من كوم من الأحجار لغرض واضح ، فضلاً عن حلية صغيرة مرتفعة مصنوعة من الصلصال وفيها قناية صغيرة منحدرة إلى فتحة فى المنتصف ؛ وأثاث الحمام مكون من أوان للماء مصنوعة من النحاس الأصفر أو البيوتر الذى هو سبيكة من الرصاص والقصدير ؛ والغرف الأخرى مزودة بالحصير ، والسجاد ، والمخدات ، مع قليل من الكراسى المتصدعة المكسوَّة بالقطيفة ، ولعل هذه الكراسى أضيفت كى نستفيد منها . هذا وصف حقيقى لجناح أندرونى فى الرياض ، وتقرر أن يكون ذلك الجناح منزلاً لى طوال سبعين يومًا فى المناسبات المختلفه طوال الأشهر التى تلت ذلك .

وعقب وصولنا ظهرت أمامنا مأدبة ملكية جلسنا خلالها أرضًا حول حصير وضعت عليه أطباق مختلفة من الخضراوات وأطعمة أخرى وضعت من حول كومة رئيسية من الأرز والضأن ، بصحبة كل من إبراهيم والملاَّ عبد الله بن عبد الله ، من

الوكالة الكويتية ، ومنشى Munshi الذى رافق العقيد هاميلتون فى رحلته . وبعد تناول الطعام زارنا شاب صغير بهى الطلعة ، هو عبد الله سعيد أفندى ، أحد الأعراب من الموصل ، ومن قبيل المصادفة صهر لمحمد أفندى الذى التقيناه فى الأحساء ؛ وعبد الله سعيد هذا درس الطب عدَّة سنوات فى القسطنطينية ، وحصل على شهادة تركية فى الطب ، وقضى أشهر عدة فى باريس . وأنا أحسب أن عبد الله هذا كان فى البصرة قبل اندلاع الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا ، وأنه سافر من البصرة إلى الهفوف إما للزواج أو لأنه كان قد تزوج من كريمة محمد الذى كان واحداً من أهل بلده ، وأنه ربما قرر – بعد أن أعجزته العمليات الحربية فى بلاد الرافدين (العراق) عن العودة إلى بلده – أن يبقى فى الجزيرة العربية طوال فترة الحرب ، وبالتالى عرض خدماته على ابن سعود ، الذى انتفع به فى ناحيتين : مستشار طبى ومستشار سياسى . كان عبد الله سعيد يتكلم فرنسية ممتازة ، ولما كان ابن سعود قد أنابه فى تلبية احتياجاتنا ، فقد أصبح رفيقاً مستديماً لنا وصديقاً ذا قيمة كبيرة .

أنفقنا بقية فترة العصر فى فك أمتعتنا والتصرف على راحتنا فى منزلنا الجديد ، وأرسلنا الرسائل التى حملناها معنا هى والهدايا التى أحضرناها إلى ابن سعود عن طريق عبد الله أفندى ، ووزعت الهدايا والهبات ، على شكل نقود وبشوت ، على من رافقونا فى رحلتنا من الأحساء . وعند الساعة الخامسة والنصف مساءً قدَّموا لنا العشاء ، وأعقبته فترة راحة ، انتهزتها فى الاستحمام الذى كنت بحاجة ماسة إليه ؛ وعند الساعة السابعة والنصف مساءً استدعونا لحضور أول اجتماع رسمى لنا مع ابن سعود .

٢- الرياض ، المدينة وما حولها

طوال الأيام العشرة التى أمضيتها فى التجوال خلال العاصمة الوهابية بمناسبة وجودى بها ، بلغ انشغالى بالأعمال الرسمية المتعلقة بالمهمة التى كنت مكلفاً بها من ناحية ، والمناقشات الطويلة مع ابن سعود ، من الناحية الأخرى – حول المشكلات التى

أوصلتنى إلى بلاطه الملكى - حداً لم يتوفر لى معه الوقت الذى أتمكن فيه من وصف طبوغرافية الرياض والحياة فيها وصفًا مفصلاً يوفى هذه الطبوغرافية وتلك الحياة حقهما . زد على ذلك أننى كنت أكثر اقتناعًا بترك ذلك المجال الواسع لمزيد من الاستكشاف فى المستقبل خلال الأشهر القادمة التى كانت تنتظرنى ، ولسبب مفاده أن الأمل ضعيف فى قيامى - تحت أى ظرف من الظروف - بتوسيع أو تصحيح أو حتى تحسين تلك الصورة الحية التى رسمها لتلك المدينة ولسكانها ، منذ حوالى خمسة وخمسين عاماً مضت ، وليام جليفورد بالجريف ، الرحالة الجيزويت سليل اليهود ، والذى عاش فى مدينة الرياض اثنين وأربعين يوماً منتحلاً شخصية حكيم (طبيب) سورى ، فى عهد فيصل القاسى ، جد ابن سعود الذى يستضيفنى الآن .

ومع ذلك ، فوصف الأراضى الوهابية فى الأزمان الحديثة لن يكتمل إلا بوصف المدينة الرئيسة فى تلك الأراضى هى والحياة التى تدور فيها . يضاف إلى ذلك ، أن النقطة التى وصلت إليها حاليًا فى روايتى عن تجوالى فى الجزيرة العربية ، تسمح لى بتجميع وتصنيف المعلومات والانطباعات التى جمعتها بطريقة عفوية فى فترات مختلفة من إقامة قصيرة دامت سبعين يومًا ، انقسمت إلى ثلاث فترات مختلفة تفصل بينها فترات تقدر بأشهر عدة ؛ زد على ذلك أننى أتجرأ على فعل ذلك فى وجود فنان أعظم منى لمجموعة من الاعتبارات المتباينة : أولها صروف الدهر وتقلباته والطوفان السياسى والاجتماعى الذى صاحب تلك التقلبات والظروف ، ولابد من أن يكون قد أثّر ، ليس فحسب من الناحيه الأخلاقية وإنما من الناحية المادية أيضًا على عاصمة الدولة الوهابية على امتداد السنوات الطويلة التى مرت على زيارة بالجريف . وثانى تلك الاعتبارات أن ظروف تجوالى فى الرياض سمحت لى بأن أستعمل وأحمل معى بوصلة وأدوات علميه أخرى ، لم يجرؤ بالجريف أن يضمها إلى مستلزمات صيدليته المتنقلة . أما الاعتبار الأخير وليس بآخر - وأنا أقولها بكل التواضع وبلا ادعاء للمعصومية من الخطأ - أن هناك بعض المناسبات التى تعثر فيها بالجريف ، سواء اكان ذلك التعثر من قبيل النسيان ، أو الإفراط فى الخيال أو يرجع لأسباب أخرى .
. dormitat Homerus

وسوف أورد الكثير عن بالجريف في مرحلة لاحقة[٢] . وبينما كنت أنتقل راكبًا الجمل من جهة الشرق قاصداً سلسلة جبال دريبات الخيل المنخفضة ، وعندما نظرت من حرف تلك السلسلة من الجبال ، نحو الأسفل ، ولأول مرة ، على "الرياض[٣] ، الهدف الرئيسى لرحلتنا الطويلة ، وعاصمة نجد ونصف الجزيرة العربية ، بل وقلب قلوب الجزيرة العربية" رحت أتعجب عما إذا كان ذلك المشهد الذى أراه أمامى ، هو المشهد نفسه الذى فتحت رؤيته أول مرة من حرف الجبل المقابل عند سلفى أبواب الخيال الشعرى الدافق. وبحثت دون جدوى عن "التلال الزرقاء ، سلسلة جبال اليمامة الدبية غير المتناسقة" فى خلفية المشهد من الناحية الجنوبية ، وعن "السهول الخصبة" فى المنطقة نفسها ، والتى "تتناثر فيها بيارات النخيل الكثيف والقرى المزدحمة أيضًا" ؛ بحثت دون جدوى عن منظر الأرض الطبيعى "الأكثر اتساعًا وتباينًا" من ذلك المشهد الذى يراه كل من يقترب من مدينة دمشق "حيث يحتضن خط الرؤية سهولاً أكثر اتساعًا وجبالاً أكثر وعورة ؛ فى حين يبدو الخليط المكوَّن من الجدب المدارى ، والاخضرار الشديد ، ومن ازدحام السكان ، والأراضى الجرداء شيئًا فريداً لا يتوفر إلا للجزيرة العربية وحدها ، وإذا ما قورن بنظيره السورى أو الإيطالى ، بدا السورى متواضعًا ، والإيطالى مثيرًا للملل"[٤].

واقع الأمر أنى شاهدت ما يكفى بل ويزيد ، من الجدب المدارى والأراضى القاحلة؛ فأنا أرى أمامى حوض ضحل يشبه حبة الكمثرى وسط نجد قفر قاحل ، تصطبغ صخور طرفه البعيد القاحلة بخطوط متقاربة خضراء أو سوداء اللون ، هى التى تشكل واحتى الرياض ومنفوحة ، داخل ذلك الغور . وهذا لسان ضيِّق من المنحدر القاحل الذى نقف عليه هو الذى يفصل بين الواحتين ، إذ يمتد من الجنوب إلى الغرب بين هاتين الواحتين متجهًا إلى صدع فى المنحدر التالى ، الذى توجد فيه بقعة ، أو إن شئت فقل نخلتان تميِّزان موقع واحة الباطن ، ومجرى وادى حنيفة الذى يحفر لنفسه طريقًا فى قلب جبل طويق . وهذه هى أبراج العاصمة الطينية الضخمة ترتفع هاماتها فوق هامات النخيل بالقرب من طرف الواحة الشمالى ؛ وفى الأماكن الأخرى يتراءى لنا برج أو منزل من خلال ستار من الأشجار ؛ وهذه هى أبراج المراقبة المهدمة على طريق منفوحة ما تزال تروى حكاية الصراع القديم .

ومنذ اليوم الأول لوصولى كنت أشاهد هذا المشهد نفسه من الأراضى المرتفعة على كل جانب من جوانب حوض الرياض ؛ وهذا المشهد واحد من كل المنطلقات ، فهى عبارة عن ستارة داكنة الخضرة من النخيل من ورائها صحراء ، ولكن الناحية الجنوبية تستثنى من ذلك ، إذ يمكن منها - بحكم انحدار الحوض فى ذلك الاتجاه - أن نرى امتداد الواحة المزدوجة رؤية واضحة ، ويبدو على شكل معين شاسع من الحياة النباتية والاخضرار يرتكز على مجرى وادى حنيفة .

وسوف أتحدث عن واحة منفوحة وواحة الباطن فى فصل لاحق(٥) فى إطار بعض الزيارات التى أتيحت لى فرصة القيام بها إلى هذين المكانين ، وواحة الرياض التى يفصلها عن واحة منفوحة ذلك الشريط الصحراوى الذى سبقت الإشارة إليه ، وعن واحة الباطن منحدر الطويق العلوى ، تمتد من الضفة اليسرى لوادى حنيفة من نقطة تقع فى منتصف الطريق بين الواحتين تمتد شمالاً عبر خليج ضحل أو إن شئت فقل غور يشكل جزءاً من حوض الشمسية Shamsiyya . وواحة الرياض لها شكل الماسة على وجه التقريب ، إذ تتجه زواياها صواب الاتجاهات الأربعة فى البوصلة ، وطول واحة الرياض من الطرف الجنوبى إلى حديقة الشمسية فى الناحية الشمالية يقدر بحوالى ثلاثة أميال وعرضها يقل كثيراً عن ميل واحد فى أقصى أجزائها اتساعاً ، ومدينة الرياض نفسها تقع فى حديقة الشمسية ، والمدينة عامرة ببيارات النخيل الكثيفة فى كل الجوانب ما عدا الجانب الشمالى الشرقى من المدينة ، الذى تتناثر فيه بضع بيارات قليلة هى التى تعوق المنظر من ناحية مرتفعات أبو مخروق Abu Makhruq ، الذى ينساب عنده مجرى الشمسية المائى - وريد الواحة الرئيسى - إلى الحديقة التى تحمل ذلك الاسم ، ثم يتجاوز سور المدينة الشرقى متجهاً إلى منفوحة .

ومدينة الرياض مُنشأة على صخرة منخفضة من الحجر الجيرى تنحدر نحو الأسفل من جميع الجوانب ، من ربوة عالية يطل منها مجمع القصر الملكى متشامخاً على كل المنازل التى فى المناطق المحيطة . والمخطط الذى رسمه بالجريف للعاصمة الوهابية - ذلك المخطط الذى لا يعدو أن يكون مجرد مخطط تقريبى من الذاكرة -

يجعل لمدينة الرياض حدوداً مستطيلة شبه متوازية به تثليم داخلي في الزاوية الشمالية الشرقية واتساع بمقدار النصف من الشرق إلى الغرب ، واتساع مماثل من الشمال إلى الجنوب ؛ ربما حدثت أيضًا تغييرات في الحدود الخارجية للمدينة على مدى نصف قرن من الصراع والاضطرابات ، ومع ذلك أرى أن مخطط بالجريف يبلغ من الغموض والافتقار إلى التحديد حدا يصبح معه غير مقنع بالرغم من التفاصيل الداخلية الممتازة التي يحتوي عليها ذلك المخطط ، ومع ذلك فالمخطط يوحي برياض حديثة ، على العكس من الوصف الذي أورده أحد الرحالة مؤخراً وقال فيه إن المدينة على شكل الحرف A الإنجليزي ، ويحدد مكان القصر الملكي في زاوية ذلك الحرف .

وقد أمضيت ساعات كثيرة مبهجة بصحبة البوصلة وكراسة الملاحظات ، وهما بصحبتي وأنا أسير بجوار أسوار المدينة في محاولة مني للوصول إلى ما يشبه الفكرة الصحيحة عن شكل هذه المدينة ، واتجاهها وأبعادها ؛ ونتيجة محاولاتي ، التي توقفت في أحيان كثيرة بسبب فضول السكان المتشككين ، ولكنها استمرت إلى أن تحقق الهدف الذي أبتغيه ، يمكن الوقوف عليها في المخطط المرفق ، الذي يوضح العاصمة الوهابية على أنها شكل متعدد الأضلاع ، يمكن بشيء بسيط من الخيال اعتباره مثلث كروي متساوي الأضلاع ، يصل طول قاعدته إلى أكثر من ٦٠٠ ياردة من ناحية الشمال ، وتقع رأسه ناحية الجنوب ، مع مساحة سطحية تقدر بحوالي مائة فدان ، وبها شوارع متشعبة في جميع الاتجاهات تربط الوسط بالمحيط ، وأرض دائرية وعرة مسدودة المسالك مقام عليها القصر الملكي .

ومدينة الرياض محاطة تماماً بسور سميك من كتل الطين التي جففته الشمس ، ويصل ارتفاع ذلك السور إلى حوالي خمسة وعشرين قدماً ، وتعلوه فرنسة (حافة) تشبه أسنان سمك القرش ؛ وبطول ذلك البرج ، توجد أبراج للمراقبة على مسافات متساوية[٦] ناتئة ، دائرية الشكل في معظمها ومستدقة الطرف قليلاً عند قممها ، ولكن بعضًا قليلاً من تلك الأبراج مربع الشكل أو مستطيل ، ويتراوح ارتفاعها بين ثلاثين وأربعين قدماً ، وتبرز قليلاً عن خط السور إلى الخارج تسهيلاً لعملية الدفاع . والجزء

الأكبر من السور هو وتحصيناته بالصورة التى هو عليها حاليًا ، وبخاصة من الناحيتين الشمالية والشرقية ، تم إنشاؤه حديثًا ، والسبب فى ذلك ، أن احتلال آل الرشيد Rashidian للعاصمة الوهابية تميز بتدمير دفاعات المدينة . وهذا العامل هو الذى سهَّل فى النهاية القضاء على المذنبين نظرًا لأن ابن سعود استطاع دخول المدينة من خلال أسوارها المدمرة دون أن يراه أحد ؛ ولكن الأسوار والأبراج النائتة من الناحيتين الغربية والجنوبية تبدو بحكم حجمها الكبير وبحكم صلابتها ، وبحكم وجود غور كبير يشبه الخندق ، تبدو كما لو كانت جزءًا من التحصينات الأساسية التى ربما يرجع تاريخها إلى يوم أن كانت منفوحة والرياض خصمان متكافئان من حيث القوة . وقد زاد ذلك الاحتمال عندى بسبب وجود مجموعات من الخرائب على الحدود الخارجية للواحة من ناحية الجنوب ومن ناحية الغرب أيضًا ، يضاف إلى ذلك أن تلك الخرائب كانت على شكل هجر (كفور) ونقط أساسية منعزلة ، بنيت من الحجر الجيرى المتوفر فى المنحدرات المجاورة ، مع استعمال أو عدم استعمال الملاط فى تثبيت تلك الأحجار ، هذا علاوة على أن أفضل بيارات النخيل وأنضرها تمتد فى تلك المستوطنة لتصل إلى الأسوار فى الناحيتين الجنوبية والغربية . وهذا يوضح أن أسوار المدينة ، بالصورة التى هى عليها الآن ، هى بمثابة الحدود الأساسية للمدينة فى ذلك الاتجاه .

والموروث التاريخى يشير هنا إلى مجموعة غير ذات بال من الخرائب التى يطلقون عليها اسم هجر اليمامة Hajar al Yamama ، التى تبعد مسافة حوالى ربع ميل من ناحية الشمال الشرقى من المدينة الحالية ، فى اتجاه حديقة الشمسية ، باعتبار أن ذلك المكان كان هو الموقع الأصلى للرياض ، غير أن الامتداد الكبير للخرائب والدمار ربما يبرر الاستنتاج الذى مفاده أن موقع الرياض الأصلى لم يكن سوى مجرد موقع لهجرة (كفر) من الهجر التقليدية المعتادة التى يرجع تاريخها إلى ما قبل قيام الرياض ، يوم أن كانت منفوحة السيدة التى لا تنازع فى الحوض بكامله .

ومحيط السور توجد به تسع بوابات فى تسعة أماكن ، وبعض هذه البوابات لم تعد تستعمل بعد بصورة منتظمة باستثناء الدخول منها إلى بيارات النخيل المسوَّرة

التى تجاوز تلك البوابات ؛ وأهم البوابات الأخرى هى بوابة الثميرى وبوابة الضهيرى Dhuhairi . وبوابة الثميرى تقع فى الجانب الشرقى من المدينة ، وهى بمثابة المخرج الرئيسى المؤدِّى إلى المسارات والطرق المتجهة شمالاً وشرقًا ، والمتجهة جنوبيًا أيضًا إلى منفوحة ؛ أما بوابة الضهيرى فتقع فى الركن الشمالى – الغربى وهى تؤدى إلى الطريق الشمالى الغربى المؤدى إلى الوشم والقصيم وإلى طريق الحج الغربى الذى يؤدى إلى مكة ؛ وتلى ذلك بوابتا دُخنة والمريقيب فى الناحية الجنوبية الغربية ؛ وفيما بين هاتين البوابتين يوجد مخرج آخر لا اسم له . وهاتان البوابتان وذلك المخرج تؤدى إلى الطريقين : الجنوبى والجنوبى الغربى . وهناك أيضًا بوابة البديعة Budaila ، التى تؤدى إلى طريق الباطن Batin . وهناك أخيرًا بوابة الشمسية ، التى يمكن للإنسان أن يخرج منها إلى الطريق الشمالى .

زد على ذلك أن التنسيق الداخلى للشوارع خال من التوازى ، وذلك باستثناء ملتقى الطرق الطبيعى الذى سبقت الإشارة إليه فى كل طرق المرور داخل المنطقة المركزية مسدودة المسالك والشارع الرئيسى هو الشارع الذى يمتد على شكل خط مستقيم من بوابة الثميرى إلى القصر ، ومن القصر عبر السوق إلى بوابة بُديعة Budaia، وتتفرع منه تفريعة بزاوية قائمة من الطرف الغربى فى السوق إلى بوابة الضهيرى .

والسوق ، الذى يشغل كل الفراغ الواسع الذى يقع فى الجهة الشمالية من القصر ، ينحدر ناحية الغرب انحدارًا شديد الميل ، مقسم إلى قسمين عن طريق حائط أو جدار ، والقسم المحصور بين هذا الجدار وسور القصر يقتصر على النساء وحدهن فقط – باعة الخضراوات ، ومتعهدى المواد الغذائية ، والمستلزمات المنزلية ، وما إلى ذلك – بينما يشتمل القسم الثانى ، وهو القسم الأكبر ، على حوالى ١٢٠ دكانًا من الدكاكين البسيطة على جانبى الشارع العام وجزء آخر منها ظهر على جزيرة ضيقة من الأرض ليست طويلة من المنتصف . والدكاكين على طول الجانب الأيسر من السوق تقع خلفها ظهور منازل السكنى المعتادة ، وبعض آخر من تلك الدكاكين يقع خلفها الجدار الجنوبى من الجامع الكبير نفسه . والسوق فى أيام انعقاده ، وطوال ساعات الزحام

فى الأيام المعتادة، يُعد مشهداً من المشاهد الحية بحق ، والدكاكين تعرض تشكيلة مختلفة من البضائع التى تتدرج من لفات أو بالات المنسوجات إلى المشغولات الجلدية وسروج الجمال والخيل والحمير ، وتنتهى بالشاى ، والبن ، والسكر ، والتوابل ، واللحم ، والأرز ، وضرورات الحياة الأخرى ، فضلاً عن السلع الكمالية الأخرى ، أو السلع المطلوبة التى من قبيل البنادق ، والذخيرة ، والساعات ، ونظارات الميدان ، وسلع أخرى كثيرة . والشارع الرئيسى تسده قطعان الأغنام ، التى يدور من حولها كثير من المساومة والأخذ والعطاء بين أصحاب تلك القطعان والمشترين المنتظرين ، الذين ينتقلون من حيوان إلى آخر فى صبر بغية المساومة والمكاسرة ، ويروحون يتحسَّسون بأصابعهم الخبيرة الأجزاء السمينة فى تلك الحيوانات التعيسة . وترى هنا وهناك صاحب دكان من الدكاكين أو بائعًا من الباعة الجائلين يدخل أو يخرج من بين الحشد الضاج أو الصاخب ، وهو يحمل بندقية أو نظارة ميدان ، أو بشتًا من صناعة الأحساء وهو يصيح معلنًا آخر سعر ومحاولاً الحصول على سعر أفضل . ونرى من حين لآخر جملاً أو جملين محملين بالعلف أو الوقود ، يشقان طريقهما بلا مبالاة خلال جموع الناس وجموع الحيوانات والدواب متَّبعين طريقهما خلال الزحام بالذكاء المعهود فى ذلك الصنف من الحيوانات ، ويدفعان الواقفين جانبًا بفعل حمليهما البارزين . وعندما يدخل وقت الصلاة يتغير المشهد تغيراً مفاجئًا ، فعندما يبدأ المؤذن فى رفع الآذان يغلق أصحاب الدكاكين محلاتهم ، وينصرف ذلك الجمع للوضوء ، ويروح المطوِّعون يتجوَّلون فى الشوارع الخالية من البشر ؛ وإن هى إلا لحظات حتى تمتلئ الشوارع بالناس من جديد ، وهم يتوجهون بأبصار خاشعة صوب المساجد لأداء الصلاة ، وينكسر الصمت بعد ذلك عندما تؤمِّن جماهير المصلين بعد قراءة الإمام ؛ وبعد انتهاء الصلاة تفتح الدكاكين أبوابها مرة ثانية ، وهنا يمتلئ السوق من جديد بصياح البائعين والمشترين . ويستمر تناوب الضوء والصمت طوال يوم السوق .

ومسجد الرياض الكبير ، أو إن شئت فقل جامع الرياض عبارة عن مُسَوَّر واسع مستطيل الشكل يصل طوله ستين ياردة وعرضه خمسين ياردة ، ومدخل المسجد

الرئيسى يطل على السوق من خلال فتحة بين الدكاكين التى تحاذى حائط المسجد الجنوبى ، فى حين تُعَلِّمُ القبلة ، التى يتجه نحوها الجامع بكامله بانتفاخ يميل قليلاً نحو الجنوب الغربى فى واجهة المسجد الغربية الطويلة ، كما يوجد مدخلان فرعيًّان أحدهما فى الجانب الغربى بالقرب من القبلة والثانى فى الجانب الشرقى بالقرب من القبلة أيضًا . والجامع من الداخل مقسم إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأوسط منها عبارة عن فناء واسع تصل مساحته إلى حوالى ربع مساحة الجامع بالكامل ، أما القسمان الآخران فمسقوفان بأسقف منخفضة تحملها صفوف عدة من الأعمدة المبنية من الأحجار لتكون بمثابة أروقة أو إيوانات لحماية المصلين من ساعات الحرارة فى أثناء النهار . والأوجه الداخلية لتلك الأروقة من ناحية الفناء الواسع تشكل مجموعة من الأعمدة التى تشكل عقوداً معمارية وهابية أصيلة ، لها فوائد كثيرة ، برغم أن مصنعية تلك العقود من النوع البسيط غير المصقول . والإيوان الموجود على جانب القبلة يشغل حوالى نصف مساحة المسوّر ، تاركًا الربع المتبقى للإيوان الموجود على جانب القبلة من الناحية الأخرى . وأسقف الأروقة ، خالية من الزينة ، إذ إنها محاطة بحاجز منخفض به مُنْشأ له درج منخفض وشكله غير رشيق ويقع بالقرب من منتصف الجانب الأيسر ، ويستعمل مئذنة أو إن شئت فقل منارة ، والسبب فى ذلك أن المآذن المعروفة فى البلدان العربية الأخرى ملعونة عند الوهابيين المتشددين Puritan ، الذين ينظرون إلى أى شكل من أشكال الزخرفة فى أماكن الصلاة على أنه من عمل الشيطان . وهناك أيضًا بروز آخر مماثلٌ ولكنه أصغر من البروز الأول ، يزين الركن الجنوبى الشرقى من الجامع ، فى حين يبرز تجويف القبلة أيضًا بروزًا طفيفًا فوق مستوى السطح .

وإلى جانب الجامع الكبير والقصر بحد ذاته فإن البناية الوحيدة ذات الطابع المعمارى المميز إلى حد ما فى مدينة الرياض هى القلعة ، ذلك المبنى الكبير مربع الشكل ، والذى له أسوار ضخمة ، وأبراج ناتئة تستثير الملل فى أركانه الأربعة التى تقع على مسافة قليلة من الجانب الأيسر من الشارع الرئيسى فى منتصف الطريق بين القصر وبوابة الثميرى والقلعة بشكلها الحالى ، ترجع إلى حوالى نصف قرن تقريبًا ، أى فى أواخر عهد فيصل أو إلى بداية عهد ولده عبد الله الذى خلفه ، والذى تدين

القلعة بوجودها له . والقلعة يستخدمها ابن سعود حاليًا ترسانة للأسلحة ، وسجنًا ، ومخزنًا وقت السلم الذى بدأ بعودته من منفاه . كما أدرك ابن سعود أيضًا أن كبر مساحة القصر الذى تركه له جده تتناسب وتتفق مع دور ملك عظيم عن ذلك الدِّيماس ، أو إن شئت فقل: ذلك السجن سميك الجدران المبنى تحت الأرض الذى حاول به عمه تفادى خيانة ابن طموح من أبنائه .

وليكن ما يكون ، ونحن إذا ما استثنينا القلعة التى بنيت فى بريدة ، لا نجد فى أراضى ابن سعود كلها بناية لها مثل روعة مكونات قصر الرياض الملكى أو جماله ، والذى يمثل أفضل ما وصلت إليه العمارة العربية الحديثة . وتكمن مزايا ذلك القصر الملكى ، الذى يعيش فيه ابن سعود ، فى تصميمه البسيط جدا ، وفى غياب الزينات والزخارف التى تناسب مبنى شُيد لا لمجرد توفير الراحة لساكنيه وإنما لتوفير الأمن والسلامة أيضًا لكل من يعيشون بين أسواره . وفى أثناء زيارتى ، كان قسم كبير من الجناح الغربى من القصر متداعيًا ومهدمًا إلى حد ما ، كما كان البناءون مشغولين بتحويل الفوضى إلى نظام ، وبالتالى كانوا يقومون بتوسيع أماكن الإقامة والمعيشة الداخلية حتى يمكن أن تتسع لأسرة ، ابن سعود وحاشيته المتناميتين ، والتى تشغل الأماكن المخصصة لإقامتها مكانًا رئيسيًا بجوار سور القصر الجنوبى ، وترتبط عن طريق ممرات ببناية مماثلة تقع عند منتصف السور الشمالى ، والتى توجد فيها مجالس المقابلات الشعبية ومكاتب الإدارة المركزية . ويمكن الدخول إلى المجالس الشعبية مباشرة هى ومكاتب الإدارة المركزية عن طريق المدخل الرئيسى من بناء بارز يسمح برؤية الجماهير الغفيرة التى تحاصر ذلك المدخل الرئيسى فى جميع الأوقات ، والتى يمكن رؤيتها من علٍ عن طريق مجموعة من نوافذ شبكية الشكل فى صومعة ابن سعود الخاصة التى توجد فى الطابق الأول من القسم البارز فوق الباب مباشرة . والقسم الشرقى من ذلك المبنى ، يخصص الجزء الأكبر منه لهيئة العاملين داخل القصر ، وللعبيد والخدم من الجنسين ، الذين يعيشون فى حوش أو فناء فى الركن الشمالى الشرقى ؛ كما أن ذلك القسم الشرقى مخصص أيضًا للمطابخ والإسطبلات التى تنتشر فى القسم الجنوبى الشرقى والمطابخ والإسطبلات لها مدخلان مستقلان

على الجانب الشرقى من القصر . والأبراج النائية هى التى توفر الحماية للقصر على بعد مسافات متساوية من محيطه الخارجى ، ولكن أجمل أقسام القصر قاطبة هو بالقطع ذلك الجزء الذى يطالع المتجهين للقصر بطول الشارع الرئيسى الذى يمر بالبوابة الشرقية فى المدينة . وبرج المراقبة الواسع الذى يقع عند الناصية ، والذى يُعد امتداداً للسور المبنى من الطين ، وكذلك ثقوبه الدقيقة مثلثة الشكل ، وحافة الذرًى المدرجة التى تحيط به ، وتنكسر عند نهاية ذلك القسم من سور القصر ، عن طريق زاوية تنحصر بين البرج البارز والجزء الأوسط المرتفع الذى يمتد نحو الداخل اعتباراً من البرج وبنفس ارتفاعة ، كل هذه الأشياء مجتمعة تشكل واجهة بديعة للغاية تسرُّ الناظرين ، وتطل على الميدان الواسع وعلى السوق أيضًا . وفى أثناء الطقس الحار كانوا يخصصون سقف الجزء المركزى المرتفع لاستعمالى فى أثناء الليل . ومن ذلك الموقع الحاكم ، أو إن شئت فقل من أعلى نقطة فى المدينه كلِّها ، استطعت أن أرى الأسطح المجاورة ، وكذلك الريف البعيد الواسع الذى يحيط بالمدينة . ومن فوق ذلك السطح المركزى كان هناك عمود طويل مُخلَّع ، يبدو كما لو كان سارية من ساريات الأعلام والبيارق ، ولكنه فى حقيقة الأمر كان واحداً من أعمدة الإنارة ، أو إن شئت فقل لمبة قوس كهربى ضخمة جلبوها من بومباى ويجرى وضعها على قمة ذلك العمود كل ليلة كى تنير أسقف القصر الكثيرة ، التى ينتشر النزلاء فوقها ؛ كى يتمتعوا بهواء المساء البارد ؛ وقد جرت العادة أن يتم إنزال تلك اللمبة الكهربية ، وإطفاؤها قبيل منتصف الليل أو عندما يدخل ابن سعود إلى غرفة نومه ، أما فى شهر رمضان فقد كانوا يتركون ذلك الضوء العظيم طوال الليل كى يضىء الطريق للمصلين ، وكان إنزال تلك اللمبة قبيل طلوع الفجر يعد إيذانًا للمدينة كلها بأن صيام اليوم التالى أوشك على البداية .

والقصر الذى تشغل كتلته غير المنتظمة القسم الأكبر من الموقع الرئيسى ، مسدود المسالك . يضاف إلى ذلك أن مساكن مختلف أعضاء الأسرة المالكة تشغل حسب تقديرى التقريبى ، حوالى ربع مساحة المدينة تقريباً . ويتراوح عدد المساجد بين خمسة عشر وعشرين مسجداً ، ولكنها لا تحتوى على أى شكل من أشكال النقوش

المعمارية . هذا بالإضافة إلى الجامع الكبير[٧] والقلعة . وهذه المساجد والقلعة تشغل مساحة كبيرة أيضًا ، فى حين إن النصف الآخر من المساحة والذى به سور دائرى ، تزداد فيه كثافة المساكن العادية التى لسنا بحاجة إلى الإتيان على ذكرها .

والمدينة كلها تحيط بها من جميع النواحى – فيما عدا ناحيتها الشمالية الشرقية – بيارات الواحة ، وهى كثيفة النخيل ، ويحتوى الكثير منها على منازل يستخدمها أصحابها منتجعات كلما أرادوا الابتعاد عن روتين حياة المدينة . وفى تلك البيارات توجد آبار الرى الوسيعة فى كثير من الأحيان والتى يطلقون عليها اسم الجوالب Jalib ، والتى يبدو عليها ليلاً ونهارًا – من كثرة الأصوات الناتجة عن دوران بكراتها – أنها تستعمل دومًا وبلا توقف . وكل بئر من تلك الآبار يتشابه تمامًا مع الآبار الأخرى ، والبئر الذى يقع فى الوسط يروى الحديقة التى يسمونها الوسيطة Wusaita ، تلك البيارة الرائعة التى تقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من المدينة ، يمتلكها الإمام عبد الرحمن ، لابد أن تكون مثل سائر البيارات الأخرى . وفتحة البئر فى بيارة الإمام تصل مساحتها إلى عشرة أقدام مربعة عند الأعلى وتضيق تدريجيًا إلى أن تصل إلى مستوى سطح الماء ، الذى يقع على بعد مسافة تتراوح بين أربعين وخمسين قدمًا تحت سطح الأرض ؛ ونظرًا لأن الجزء العلوى من البئر يكون منحوتًا فى صخور الحجر الجيرى الصلبة ، فإنه يجرى تقوية الثلث الأول من ذلك البئر عن طريق ألواح من الحجر يجرى لصقها إلى بعضها بطريقة بدائية . وفتحة البئر مركب عليها من أعلى هيكل علوى مثلث الشكل ثقيل جدًا يسمونه العدة Idda ، والعدة تصنع من فلوق النخيل ، كما يستعمل خشب الأثْل فى صناعة الأجزاء الفرعية من تلك العدة ؛ والدعامة المستعرضة من العدة مزودة ببكرة (مهالة) فى الجانبين ، ويصل عدد كل ذلك البكر إلى اثنتا عشرة بكرة ، فى حين تكون العارضة الأساسية التى تثبت فى تجاويف مبنية فوق فتحة البئر بعدد مماثل من البكر الذى يسمونه (الدرَّاجة) . وهذه حبال غليظة من القنب ، مربوط فى أحد أطرافها دلاء مصنوعة من الجلد (يسمونها قراب وواحدتها قربة) وتكون الواحدة منها مصنوعة من جلد عنزة بكامله ، ويجرى تحريكها على البكر

وذلك بربط الحبل فى حمار متين من سلالة حمر الأحساء ، وقد تستعمل البغال هى والحمير[٨] فى بعض الأبيار ، أما الحبل الأرفع الذى يتحرك فوق الدرّاجة فيجرى ربطه من أحد طرفيه بالحمير فى حين يربط طرفه الآخر بعنق القربة ، المصنوعة من جلد الماعز ، والتى يجرى الحفاظ على توازنها عن طريق أحجار يجرى تثبيتها فى الأطراف السميكة من القربة . وعلى جانبى فتحة البئر يوجد منحدر شديد طوله يساوى طول المسافة من فتحه البئر إلى سطح الماء ؛ والحمير التى يجرى ربط كل منها بالحبلين الغليظ والرفيع ، تسير على شكل طابور ، ستة من الحمير فى كل جانب ، لتنزل إلى أسفل المنحدر ، وهى عندما تصعد المنحدر تسحب القرب بعد أن تكون قد امتلأت بالماء ؛ والحمير عندما تصل إلى آخر المنحدر تكون الأطراف الغليظة من القرب ، أو إن شئت فقل أجسام القرب ، قد وصلت إلى المهالة الموجودة فى العارضة العليا ، فى الوقت الذى تكون فيه أعناق تلك القرب قد وصلت إلى الدرّاجة ، لتفرغ ما بها من ماء فى حوض مبنى أسفلها مباشرة ، والذى ينساب الماء منه فى قنوات لتوزيعه على كل أجزاء الحديقة . والحيوانات عندما تصل إلى آخر المنحنى تنتظر برهة لتستدير ويعود كل منها إلى محوره (مساره) المحدد له ؛ وهنا يصعد طابور الحمير المنحدر مثلما نزله من قبل ، وبتكرار هذه العملية يجرى إنزال القرب الثقيلة إلى الماء ، ويجرى بعد ذلك تكرار تلك العملية إلى ما لا نهاية . ورغم أن تلك الآلة البئريّة البسيطة تبدو ثقيلة الحركة فإنها تعمل بطريقة منتظمة وبكفاءة عالية ؛ وقد تحتاج الأعمال الخشبية فى تلك النواعير إلى الإصلاح بين الحين والآخر ، كما قد يحتاج سطح المنحدر إلى شىء من الإصلاح أيضًا ، ولكن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو انقطاع الحبل بسبب احتكاكه مع الدرّاجة ؛ وإذا ما حدث ذلك ، يترتب عليه بقاء القربة الثقيلة بطبيعة الحال ، فى قاع البئر ، وهنا يتناول أحد القائمين على الأمر الطرف الحر من الحبل ويمسك به لينزلق عبر الحبل الرئيسى إلى مكان الحادث ، وبعد أن ينتهى من عمل الإصلاح المطلوب يجرى سحبه مرة ثانية على القربة إلى أعلى البئر ليصل إلى المهالة ، التى يقفز منها بخفة ورشاقة إلى اليابسة مرة أخرى . والبغال التى يجرى استعمالها فى بعض حدائق الرياض مملوكة كلها لابن سعود ، الذى استولى عليها من آخر الحاميات

التركية التى كانت فى الأحساء – ومع أن بئر الوسيطة يمكن اعتبارها صورة طبق الأصل من آبار الواحة – بل ووسط الجزيرة العربية كله – فإنها لا تعد أكبر هذه الآبار بأى حال من الأحوال ؛ وعلى سبيل المثال ، هناك بئر فى إحدى الحدائق التى يطلقون عليها اسم الحوطة يجرى تشغيلها باستعمال أربعة عشر حماراً ، سبعة منها على كل جانب ، فى حين تسمح بئر العتيقية Ataiqiyya بتشغيل ثمانية حمير فى كل جانب من الجانبين ، كما أخبرونى أيضًا – رغم أنى لا أذكر أنى رأيت شيئًا من هذا القبيل – عن حالب (بئر) يعمل فيه عشرون حيوانًا : عشرة على كل جانب . وقد تحدث معى ابن سعود فى إحدى المناسبات ، عن فن السباحة وأن ذلك الفن عرفه العرب ، ومن الغريب حقا أن يعرف السباحة عربى يعيش فى بلد يندر فيه الماء ، ومع ذلك فالعرب سباحون مهرة . كما أكد لى أنه يعرف أناسًا يغوصون فى تلك الآبار عن طريق الدعامة الرئيسية ويخرجون منها دون أن يصيبهم أى أذى ، ووعدنى أن يطلعنى على شجاعة أولئك الرجال فى هذا الصدد، ولكن من سوء الحظ أنى نسيت أن أذكِّره بوعده وبالتالى لم أر ذلك الاستعراض . وعمق الماء ، فى تلك الآبار ، يتباين ، بطبيعة الحال ، مع تباين الفصول ، ولكنه لا يزيد بأى حال من الأحوال عن عشرين أو ثلاثين قدماً .

وفى المنطقة الخالية الواسعة التى بين بوابة الشمسيَّة وبيارات النخيل التى على ذلك الجانب ، والتى تشمل أيضًا حديقة الحوطة وتمتد شمالاً حتى حديقة الشمسية ، فى هذه المنطقة تقع أكبر الجبانتين اللتين يدفن فيهما أهل العاصمة بعد أن يتوفاهم الله وتنتهى حياتهم على الأرض . والجبانة لا تزيد عن كونها أرضًا قفراً من اللحود الطينية المنخفضة والحطام المتهدم ، وتلك الجبانة تذكرة لأولئك الذين يعيشون غرور الحياة الدنيا ، إذ يدفن فى ذلك التراب كل من الأمير والحقير بلا أى تمييز ، على الرغم من أن أولئك الذين دفنوا موتاهم الأعزاء يذكرون ويتذكرون ذلك الموقف ، بل ويزورون تلك المقابر من حين لآخر ليدعوا لهم بالرحمة والمغفرة ، وإن أحفادهم ينسون كل ذلك ، ولم يستطع أحد – وقد لا يستطيع – أن يحدد لى مقبرة الملك فيصل العظيم هو وأسلافه . وأنا لست متأكداً إن كان ذلك القبر موجوداً هنا فى هذه المقبرة ، أو فى

المقبرة الأخرى الصغيرة التي يطلقون عليها اسم المقبرة الملكية التى فى أقصى الشرق على الضفة اليسرى من مجرى السيل فى الشمسية ، والتى يجرى حاليًا دفن موتى الأسرة المالكة فيها .

وفى منتصف الطريق بين الجبانتين وأمام البوابة الشرقية الرئيسية يقع مُصَلّى العيد، وهو عبارة عن مكان بيضاوى قفر يحيط به سور منخفض من الطين (اللِّبن) وبه قبلة فى منتصف الجانب الغربى . وهذا المصلَّى مخصص لصلاة العيد ، وهو يتسع لكل من بلغوا سن الصلاة من ذكور العاصمة ، أما النساء اللاتى يسمح لهن بصلاة العيد ، فتؤدين الصلاة فى ملحق منفصل عن ذلك المصلَّى فى الخلف .

تلك كانت سمات الرياض الرئيسية ، أو إن شئت فقل : العاصمة الوهابية ، ملكة صحراء الجزيرة العربية ، التى نصبت على عرش من الصخور ، ويحيط بها النخيل من كل جانب ليفصلها عن البرارى القاحلة التى تحيط بها ، والتى تنعكس قفورتها وقحولتها فى قلوب أهل هذه العاصمة والمقيمين فيها .

٣- أيامى الأولى فى الرياض

سرعان ما أدركت أن ابن سعود لديه طاقة فائقة ، فهو رجل وضع شئون دولته فوق الاعتبارات الأخرى كلها ولم يأل هو أو مرءوسوه جهدًا فى تنسيق تلك الشئون وتنظيمها . و كان ابن سعود صاحب بنية بدنية قوية وقامة طويلة يندر أن يصل العرب إليها ؛ إذ يبلغ طوله حوالى ستة أقدام وثلاث بوصات ، بل إنه يبدو أطول من ذلك بكثير بفضل الثياب الفضفاضة التى يرتديها - وهو لا ينام سوى سويعات قليلة ، وربما كانت أربع ساعات فى الليل وساعتين فى النهار وهو لا ينال من الترفيه والسمر إلا ما يسمح به وقته ، وفيما عدا ذلك فهو مواظب على مواعيد الصلاة ، وهو يُعد إلى حد ما غير مبال وغير مواظب على مواعيد الطعام ، والساعات المتبقية بعد ذلك ينفقها فى المهام التى تخصه هو شخصيًا باعتباره حاكمًا للبلاد ، وفى إدارة شئونه

العائلية التى يوليها اهتمامه بصورة دائمة ، واضعًا فى اعتباره خبرة أسلافه الذين علَّموه أن الملك ، الذى هو رب العائلة وعلى نطاق واسع ، لا يمكن له أن يغفل وبلا حصانة مسألة إقامة علاقات شخصية حميمة مع أفراد عائلته . ولعل مسألة شغفه الملحوظ بزوجته ليس سوى تطور طبيعى لسمة منزلية واضحة فى شخصيته ، والتى تزيد من كفايته بوصفه كبيرًا للعائلة ، أكثر من كفايته بصفته رئيسًا لدولة .

وأنا أستطيع الحكم على مقدرة ابن سعود على العمل من واقع خبرتى خلال الفترة الأولى من مقامى فى الرياض ؛ فقد جئت إليه ، فى مهمة أوفدتنى فيها حكومتى وصرَّحت لى بأن أناقش معه بعض الأمور ، وأكتب لها تقريرًا عن وسط الجزيرة العربية وموقفها من الحرب ، التى كنا نأمل أن يلعب فيها دورًا أكثر وضوحًا من الآن فصاعدًا . وكانت سياسة حكومة صاحب الجلالة (ملك بريطانيا) ، طبقًا لما كان ينفذه المفوض المدنى فى بلاد الرافدين (العراق) ترمى إلى تحقيق ثلاثة أهداف : أولها إقامة علاقات وديِّة مع مختلف الدول العربية ، التى التزمت بقضية الحلفاء . وثانيها اتخاذ الإجراءات القانونية الكافية لمحاصرة أراضى العدو من الجانب الغربى . وأخيرًا الاستفادة من المصادر العسكرية فى الدول العربية الصديقة فى الاتجاه الذى يناسب كل حالة على حدة. وسرعان ما أدرك ابن سعود ، الذى كان يعى قدرته على مساعدتنا ، ويرغب أيضًا فى تقديم تلك المساعدة ، المزايا التى يمكن أن تعود عليه من التعاون معنا فى تحقيق تلك الأهداف ، تلك المزايا التى تتمثل أولاً فى تثبيت وضع ابن سعود وترسيخه بين جيرانه . وثانيًا فى مساندة الحكومة البريطانية له ماليًا ، وأهمية تلك المساعدة فى تنمية بلد ما زال يحمل دلائل فترة طويلة من الفوضى والنزاع .

وإدراك ابن سعود أن التباطؤ لن يفيده فى شىء ، وفهمه وإدراكه أيضًا للموقف السريع الحاكم الذى وصل إليه شريف مكة فى الشئون العربية ، هما اللذان أنذراه وحذراه من أن مستقبله السياسى يعتمد على اتخاذه أو انتهاجه سياسة حيَّة ، وأن الوقت كان مناسبًا تمامًا لمثل هذه السياسة . فقد هيأ له وصول البعثة البريطانية الفرصة المناسبة لترتيب منزله ، كما انتهز تلك الفرصة انتهازًا سليمًا . وتوالت

الاجتماعات سراعًا الواحد تلو الآخر ، وبانتهاء اليوم الخامس من مقامي في الرياض اكتشفت أن ما لا يقل عن ٣٤ ساعة من إجمالى ١٣٢ ساعة انقضت منذ وصولى وحتى منتصف ليلة الخامس من ديسمبر ، اكتشفت أن تلك الساعات الأربع والثلاثين ، أو إن شئت فقل أكثر من ربع إجمالى عدد الساعات ، قد انقضت فى مقابلات رسميةٍ مع ابن سعود ، ناهيك عن الوقت الذى أنفقناه فى المحادثات غير الرسمية مع سكرتيرى ابن سعود ، الذين كانوا يزوروننا بمناسبة وبغير مناسبة ، طوال فترة الاجتماعات ، لاستيضاح بعض النقاط التى جرت مناقشتها ، أو للتمهيد للأمور التى ستطرح للمناقشة .

وعند هذه المرحلة ، كنا قد غطينا مرارًا كل ما يتعلق بمهمة البعثة ، وأحسست ، وأنا هنا أزعم أن ابن سعود كان لديه الإحساس نفسه ، أننا كنا قد توصلنا إلى أساس لكل الأمور التى جرت مناقشتها فيما بيننا ؛ وهنا أصبح بإمكانى أن أعدَّ تقريرًا عمَّا دار بيننا وأضيف إليه توصياتى ثم أرفعه إلى السلطات البريطانية ، وبعد إرسال ذلك التقرير أصبح الجزء المتبقى من رحلتى غير ملح ، وتهيَّأت لى فرصة التجوال خارج القصر ، بين الحين والآخر ، كى أرى شيئًا من المدينة وما يحيط بها .

وحتى عصر اليوم الرابع من شهر ديسمبر ، يوم أن ودَّعت العقيد هاميلتون بمناسبة عودته إلى الكويت ، كان العقيد هاميلتون يرافقنى فى معظم الاجتماعات الملكية ، والتى يحضرها معنا أيضًا – ولكن من حين لآخر – العقيد كنلف أوين Cunliffe Owen ، الذى لم يكن يظهر إلا عند مناقشة المسائل العسكرية ، فى حين كان يعاون ابن سعود كل من أحمد بن ثنيان ، ابن عم ابن سعود ومستشاره السياسى ، وعبد الله أفندى . وبعد أن وصلت محادثاتنا إلى مرحلة متقدمة ، وبدأت تطول بلا داع بسبب تباين وجهات النظر التى جرى التعبير عنها فى الاجتماعات ، تجرأت وطلبت من ابن سعود مقابلة خاصة ، وجرى خلال تلك المقابلة وضع اللمسات النهائية على المرحلة الأولى من مباحثاتنا فى جلسة خاصة بينى وبين ابن سعود ، دامت خمس ساعات فى خدر دافئ صغير بجوار المسكن الملكى .

وفى إحدى المرَّات شرَّفنا ابن سعود بزيارته لنا فى السكن الذى نقيم فيه ، وقد حدثت تلك الزيارة مباشرة عقب انصراف المراسل ، الذى جاء ليبلغنا بمقدم ابن سعود ، إلى حد أن العقيد كنلف هاميلتون وأنا أيضًا لم نتمكن من دس الغلايين وعلب التبغ (الدخان) ، هى ودلائل عاداتنا السيئة خلف وتحت حشيَّات الأرائك ، الأمر الذى دخل على أثره ابن سعود إلى جو الغرفة المشبع بالدخان النفَّاذ ، وبعد أن سلَّمنا عليه جلس فيما بيننا ، وراح يتحدث وكأنه لم يلاحظ أى شىء ؛ ولكننا لم نترك لحال سبيلنا بمثل هذه البساطة ، نظرًا لأن العبد الذى رافق سيده إلى محل إقامتنا ظهر من جديد بعد برهة قصيرة ، وفى يده مبخرة ، قام بتمريرها علينا نحن الاثنين ، ثم تركها بعد ذلك على الأرض أمامنا علّها تطهر ذلك الهواء النفَّاذ . وكانت تلك هى المرة الأولى ، ولم تكن بأى حال من الأحوال المرة الأخيرة ، التى يفاجئنى فيها ابن سعود وأنا متلبس تمامًا ، والذى ثبت لديه معلومة إدمانى التدخين ، وأن صحبتى كانت ملجأ لرجاله الذين كانوا يتعاطون الدخان أيضًا ، بالرغم من أن الملك كان يعرب عن كراهيته لذلك العشب المحرَّم كلما ورد ذكره فى أثناء الحديث .

والترويح الوحيد الذى كان ابن سعود يحظى به طوال فترة وجوده فى عاصمته كان يتمثل فى التنزه من حين لآخر ، إما سيرًا على الأقدام أو راكبًا حصانه إلى الأماكن المناسبة لمثل ذلك التنزه داخل الواحة أو عند حدودها الخارجية . وقد تم تنظيم واحدة من تلك الجولات التى حضرتها فى تلك الأيام ، من قبيل الوداع الرسمى للعقيد هاميلتون ، وقد قمنا بتلك الجولة عصر اليوم السابق لعودة العقيد هاميلتون إلى الكويت ؛ وتسهيلاً لبداية الجولة فى توقيت مبكر فى اليوم التالى جرى نقل خيام العقيد هاميلتون وأمتعته من المدينة إلى منطقة التخييم بالقرب من حديقة الشمسية ، وتوجَّهنا بصحبة ابن سعود إلى حديقة الشمسية ؛ وكان يرافق ابن سعود كثير من أفراد أسرته وأفراد البلاط والحاشية ، وكانوا جميعًا يركبون خيولاً ؛ كان موكبًا مهيبًا ونحن نتقاطر خارجين من المدينة ونسير فى مجرى الماء الرملى ، وكان ابن سعود على رأس الموكب ونحن على مقربة منه تمامًا ومعنا أطفال الأسرة المالكة ، الذين كان كل واحد منهم يركب مهرًا يناسب حجمه ويحيط به العبيد . وبعد أن ابتعدنا عن أسوار حديقة

الشمسية رفع ابن سعود نفسه واقفًا على ركاب حصانه ، واستدار فى سرج الحصان ناحية تابعيه وراح ينشد بعض الأبيات الشعرية الافتتاحية من واحدة من قصائد الحرب المؤثرة ، والتى كان يرددها كل من كانوا فى المؤخرة ، وتحول الموكب إلى الخبب ، وبدأ الخيالة فى الانتشار وهم يجرون عبر السهل الواسع ، وهنا قسَّم الخيالة أنفسهم إلى قسمين استعدادًا للقيام باستعراض عسكرى؛ وتبدأ المباراة بإشارة متفق عليها ؛ وراح الخيالة يواجهون بعضهم بعضًا ، ويخترقون الصفوف ويروحون ويجيئون ، ويدورون ويلفُّون ، ويركضون وهم يطلقون صرخات التحدى ، رافعين سيوفهم أو بنادقهم إلى أعلى كما هو الحال فى المعارك العربية، ولكنهم لم يطلقوا طلقة واحدة ، والسبب فى ذلك ، أن الذخيرة ، فى الجزيرة العربية ، أو إن شئت فقل : فى وسط الجزيرة العربية لها ثمنها ولا يجرى تبديدها فى معارك وهمية . كان ابن سعود على ظهر حصانه ، وسط هؤلاء الخيالة ، يبدو شخصية عظيمة فوق ركوبة عظيمة أيضًا ، وكان أبناؤه الكبار يتمتعون بذلك المرح شأنهم فى ذلك شأن بقيه الموجودين ، وكانوا يتخذون أوضاعًا معيَّنة عند مرور خيولهم وهى تجرى بالربوة التى وقفت عليها ومعى آله التصوير لمشاهدة ذلك المنظر والتقاط صور له .

وبعد أن تدربوا بما فيه الكفاية تجمعنا من جديد فى ظل سور حديقة الشمسية ، حيث جلسنا على مرتفع واسع من الأرض ، ورحنا نتحدث فترة من الوقت إلى أن حان موعد ذهابنا إلى خيام العقيد هاميلتون حيث كان يجرى تجهيز القهوة . كان الوقت يقترب من موعد صلاة المغرب ، وفى الوقت المحدد اصطفَّ الجمع كلُّه فى السهل الواسع خلف ابن سعود ، ومن مسافة محترمة رحنا نشاهد ذلك التناغم المنسق فى الركوع والسجود والنهوض فى الصلاة عند المسلمين ، فى احتفاء مهيب ، غاية فى البساطة وغاية فى الزهد أيضًا . وتنتهى الطلعة (الجولة) بالانتهاء من الصلاة ، وتركنا ابن سعود يعود مع رجاله إلى المدينة ، وبقينا لتناول الشاى فى مخيم العقيد هاميلتون والذى انضمَّ إلينا فيه عبد الله أفندى ، الذى أحضر معه - بناء على أمر من سيده - غزالين[٩] ، تلكم الحيوانات العظيمة التى تعيش فى الصحراء الرملية الكبرى ، غزالان كبيران لونهما أبيض وقرونهما طويلة ومستقيمة ، ليقدما على سبيل المثال

هدية إلى ملك بريطانيا . ثم عدنا قبل حلول الليل إلى المدينة تاركين العقيد هاميلتون في مخيمه ، الذي تقرر له أن يطوى قبل طلوع الفجر .

وفي تلك الطلعة رأيت ولأول مرة تركيًا ، أكبر أولاد ابن سعود وولي عهده ، وقدموني له . وكان تركي قد عاد لتوِّه إلى الرياض بعد أن أمضى أشهرًا عدة في قيادة القوات في تلك المنطقة ، وأصيب بنوبة من الحمى ، عاد على أثرها إلى الرياض طلبًا للنقاهة واسترداد صحته ؛ كان تركي صبيًا أنيقًا ، صاحب سلوكيات سهلة تسر الخاطر ، شاحب البشرة إلى حد ما ، بسبب وعكته الصحية الأخيرة ، ولكن قامته الرفيعة وملامحه الرقيقة لا تدل على صفات البطولة التي كان الرأي العام يضفيها عليه بالإجماع ، أو على خبرة القتال الطويلة . ومع ذلك ، فقد بدأ تركي مستقبله العسكري وهو في سن الثامنة ، وأصبح الآن الرجل الثاني بعد والده في قيادة الجيش ، وهو في سن الثامنة عشرة .

كان محمد وخالد أصغر أبناء ابن سعود من بين الأطفال الذين حضروا تلك الطلعة (الجولة) وكان عمر الأول تسع سنوات والثاني ست سنوات ، كما حضر تلك الطلعة أيضًا كل من فيصل وفهد وسعود الذين كانت أعمارهم تتراوح بين ثماني سنوات ومادون ذلك ، أيتام أخيه الحبيب سعد ، الذي لم ينس اغتياله في عام ١٩١٥(١٠) بأيدي قبيلة عجمان ، ولم يصفح عنه ، أو توقف عن الحزن عليه ، على الرغم من – وهذا إحقاقًا للحق – أن سعدًا استحق ذلك المصير الذي جرَّه على نفسه بسبب ارتكابه عملاً مشينًا من أعمال الخيانة . كانت كراهية ابن سعود للعجمان وتصميمه على الانتقام لمقتل أخيه في ذلك الوقت معلمًا أساسيًا في سياسة ابن سعود ، وهي التي أعطته ، فيما يبدو ، فكرة متكررة كان يلعب بها على مشاعر الجماهير عند الضرورة ؛ وتحقيقًا لذلك الهدف تزوج أرملة أخيه ، وحملت منه ووضعت بنتًا في شهر إبريل من العام التالي ، وتحقيقًا للهدف نفسه أيضًا راح يستعرض اليتامى الصغار ، كما لو كانوا أولاده من صلبه ، وعلى مرأى ومسمع الجماهير في جميع المناسبات التي كانت تسمح بذلك . وفي معظم الأحيان كان يشير إلى هؤلاء الأيتام ، ثم يدخل بعد ذلك في خطبة

طويلة مملة عن خيانة العجمان وضرورة تصفية الحسابات معهم . ومأساة سعد تعد وصمة فى حوليات حكم ابن سعود ، بالرغم من كونها حادثًا عارضًا - ولا تعد الحادث النهائى بأى حال من الأحوال - فى سجل الصراع الطويل بين رجال قبائل العجمان والفرع الحاكم من أسرة آل سعود المالكة .

وفى يوم آخر شرفنا باستدعائنا لحضور اجتماع مع الإمام عبد الرحمن الذى لم نره منذ أن التقيناه أول مرة فى مكتب ابن سعود ، وذهبتُ مع العقيد كنلف أوين Cunliff Owen فى صحبة الشخص الذى حمل إلينا الدعوة ، إلى منزل الرجل العجوز ، وهو منزل كبير ولكن بسيط يقع فى الشارع الرئيسى مقابل القلعة . وبعد أن دخلنا من الباب الخارجى إلى فناء محاط بسور من الطين ، صعدنا درجًا ضيِّقًا ملتويًا يؤدى إلى الطابق الأول ثم دخلنا حجرة الاجتماعات ، وهى عبارة عن صالة طويلة غير مؤثثة ، طولها أربعين قدمًا ، وعرضها نصف طولها ، ويصل ارتفاعها إلى حوالى ثمانية عشر قدمًا ، وفيها صف من الأعمدة المليَّسة بالجبس تحمل سقف الحجرة ؛ وكانت أرضيَّة الغرفة مفروشة بالسجاد ، وكان ركن من أركان تلك الغرفة مزوَّدًا بمسندين ، كل واحد منهما على جانب من جانبى الإمام فى المكان الذى يجلس فيه ، كما كانت هناك أيضًا ، مساند أخرى يتكئ عليها الزوار ؛ وحضر الإمام عقب وصولنا مباشرة ، وقُدمت القهوة بينما كنا نتحدث مع مضيفنا . كان الإمام عبد الرحمن قد زار بغداد عندما كان شابًا ، أى قبل أربعين عامًا ، وإنه اعتبارًا من ذلك التاريخ ، وطوال فترة المنفى ، لم يزر البصرة سوى مرة واحدة ، وكان ذلك قبل عشرين عامًا على وجه التقريب ، وبخلاف هاتين الزيارتين لم يصل الإمام عبد الرحمن إلى أبعد من البحرين والكويت ، التى أمضى فيها مع أسرته سنوات نفيه الاختيارى من نجد . وإنه فى صيف العام المنصرم قام مع ولده الثانى محمد وقافلة الحج الوهابية ، أملاً فى تحقيق المطمح المشترك بين كل المسلمين الصالحين ، ولكن متاعب الرحلة الطويلة لم تتحملها عظامه المسنَّة مما اضطره للعودة إلى الرياض بعد أن وصل المرحلة الخامسة من مراحل تحقيق ذلك الهدف ، تاركًا ولده محمد وآخرين معه ليتموا حجهم . كان الاحتفال مشهودًا ، فقد

كان الأول من نوعه تحت رعاية ملك الحجاز الجديد ، وقيل إن النجديين الذين شاركوا في قافلة الحج تلك ، لم يقل عددهم عن ٧٠٠٠ نفس[١١] ، رجالاً ، ونساءً ، وأطفالاً . وتكلم عبد الرحمن بحماس كبير عن رابطة الود والصداقة التى أوجدتها الحرب بين بلاده وبلادنا . وقد شهد فى مطلع شبابه بدايات التحالف الحالى فى الزيارة التى قام بها العقيد لويس بيلى Pelly إلى بلاط والده ، فيصل[١٢] . وتحدث عبد الرحمن بفخر واضح عن المكانة العظيمة التى حققها ولده لنفسه ، كما تحدث متفاخراً أيضًا بروابط الولاء التى توحد الأسرة المالكه لخدمة الله وخدمة بلادهم . وابن سعود يزور والده المسن مرة واحدة كل يوم على أقل تقدير ، وهو لا يقبل على اتخاذ أى إجراء من الإجراءات المهمة إلا بعد الرجوع إلى والده ، وعندما يتغيب ابن سعود تصبح مقاليد المهام الإداريه العامة بيد والده المسن ، الذى يهتم اهتمامًا شخصيًا كبيراً بتنمية عقاراته وعقارات التاج . وفى السنوات الأخيرة بدأ يكشف عن ميل متزايد نحو العادات والأعمال التى تتطلب الجلوس لفترات طويلة ، ويندر أن يغادر الإمام منزله إلا لحضور صلاة الجمعة فى الجامع الكبير ولزيارة ولده عند عودته من الصلاة ، وهو يقضى القسم الأكبر من وقته فى الصلاة ، فى مسجد داخل المنزل ، وفى القراءة أو التأمل ، استشعاراً منه لنهاية الأجل ، وأن المسافة أصبحت قريبة بينه وبين حالة السعادة التى يعلِّق عليها أفضل آماله ومحاولاته التى لم تشبها شائبة منذ مطلع شبابه .

من الطبيعى أن حلولنا ضيوفًا على ابن سعود فى العاصمة الوهابية لم يمر دون إبداء بعض الملاحظات ، على الرغم من عدم الإعراب صراحة عن عدم الرضا أو العداء تجاهنا ، وقد استطعت أن أجمع من ملاحظات المضيف أن الجوَّ مشحون بكثير من الانتقاد غير العلنى لسياسته ، وفى واحدة من مقابلاتنا أحضر ابن سعود خطابًا طويلاً مجهولاً وقرأه علىَّ ، وحذره مرسل الخطاب من أن الإنجليز جاءوا إلى نجد من أجل هدف أحمق ، مفاده أن الإنجليز ، على الرغم من أنهم سيعطونه ما يريده مقابل مساعدته لهم فى تنفيذ مخططاتهم ، فإن ذلك لن يكون حبًا منهم له ، وأنهم سوف يبتلعونه ويجهزون عليه إن كان ذلك من مصلحتهم . كانت تلك الرسالة من متطرف

جاهل ، ولكنها كانت تشير إلى اتِّجاه الرأى العام ، وكانت بمثابة إنذار لنا بالتزام أقصى الحذر عند ظهورنا بين الناس . وتأسيًا بالعقيد هاملیتون ، الذی كان قد سبقنا إلى الرياض ، بدأنا نحن بدورنا أيضًا نرتدى الملابس العربية ، قبل وصولنا إلى العاصمة ، ولكن العقيد كتلف لم يفعل إلا بعد أن أقنعته بذلك بالرغم من قناعتى التامة بعدم الرضا عن ذلك التصرف ، فى حين أن شوفيلد Schofield لم يحاول قط التشبه بالعرب بأى حال من الأحوال . كانت هناك فروق أخرى فى طريقة تناول الطعام ! فقد استطعتُ أنا وهاميلتون أن نكتسب مهارة تناول الطعام بأصابعنا ، وتعلمنا أيضًا طريقة أكل اللحم مع الزوَّار الآخرين الذين كانوا يتناولون الطعام معنا دون خروج على آداب المائدة وآداب الطعام ، فى حين كان شوفيلد يخوض معركة يدوية لم يصب فيها سوى قليل من النجاح ، مع اللحم والأرز والحساء فى حين أن كتلف ، بحكم وضعه الآمن داخل المسكن الذى كنا نعيش فيه ، كان يفضل دومًا تناول الطعام باستعمال السكين ، والشوكة ، والملعقة . ومسألة أن العقيد هاميلتون وأنا كنَّا على حق فى وجهة نظرنا التى مفادها أن أولئك الذين قد يسافرون إلى الجزيرة العربية يتعين عليهم أن يفعلوا أو يتصرفوا كما يتصرف العرب فى كل أمر من الأمور ، هذه المسألة لم يعد يخامرنى فيها أى ظل من ظلال الشك ، وأنا لا أتعاطف بأى شكل من الأشكال مع ذلك التحيز الذى يدين منافقة البريطانى بشخصيته "باعتباره ضابطًا بريطانيًا ورجلاً كريم المحتد" ، ذلك التحيز الذى ربما كلف النقيب شكسبير[١٣] حياته فى عام ١٩١٥ الميلادى ، ولا يمكن أن يزيد من صعوبات التنقل فى البلدان المتعصبة . ولكن غرائب الرحالة تعد ظواهر فريدة ، وهى تعتمد على مزاج الفرد وظروف كل حالة على حدة ، ويجب ألا نناقش فى عجالة سريعة Quot hominestot sententiae ! ويتعين على كل إنسان أن يتخذ قراره بنفسه ، مستفيداً من خبرة من سبقوه بالقدر الذى يناسب حالته، ولكنى أقول لكل من يطلب نصيحتى فى هذا الأمر ، إننى لن أتردد فى تزكية المبادئ والطرق التى اتبعها كارلو جُوَرمانى Carlo Guarmani ذلك الإيطالى الذى ينتسب إلى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط ، الذى توغل فى بلاد الشمَّر Shammar وترك لنا آراءه مسجلة[١٤] : على بوابة [حائل] علقت جثة أحد اليهود الفرس وتركوها

تتعفن ، فقد قتله السكان لأنه تظاهر بأنه مسلم ، ثم رفض بعد ذلك الانصياع للإسلام ...
وإذا كان مصيره حزينا ومؤلما فلأنه يستحق ذلك . والمرء عندما يتخذ قراراً بالمخاطرة بحياته فى مغامرة كبيرة ، يتحتم عليه استعمال كل الوسائل التى تتيسر له ، وأن يكون على استعداد لتحمل كل النتائج التى يمكن أن تترتب على ما هو مقدم عليه . لقد ظنوا أن وفاته هى وفاتى ... فقد قام شخص عديم اللياقة بإبلاغ عائلتى المسكينة بذلك الخبر وحزنت الأسرة حزنًا شديداً فى الوقت الذى كنت فيه بصحة ممتازة ، آكل البلاو(*) Pilaf أو إن شئت فقل : التِّمين Temmen وأؤدى صلاتى Rikat الخاصة لربى بقلبى ، فى حين أؤدى صلاة محمد بشفتاى وبوقار تام ؛ متذكراً العظة التى ألقاها المسيح على الجبل ، بألا آت على ذكر الرائحة الخبيثة الصادرة من جثة ذلك اليهودى المتعفنة ، وكنت قد اتخذت قراراً ألا أكون بين من يفتقرون إلى الروح ، وأدخل الجنة مع الحمقى والمغفَّلين " .

ظروف المهمة التى كنا نقوم بها هى التى جعلت مسألة مراعاة الشأن الدينى أمراً غير ضرورى أو ملح ، ولكن عبد الله بن جلوى كان مصراً تماماً على ارتدائنا اللباس العربى تحسباً لمقابلات الصحراء المفاجئة ، ولم يكن ابن سعود أقل إصراراً من ابن جلوى إشارة منه أن ذلك ضرورى لمصلحتنا أولاً ، ولمصلحته أيضًا وبخاصة إذا ما قللنا بقدر المستطاع من استرعاء الانتباه ولفت الأنظار طوال فترة تجوالنا داخل أراضيه .

كانت وجباتنا تأتينا من المطابخ الملكية ، التى كانت تعمل فيها هيئة من الطباخين المحترفين فى طهى كميات كبيرة من الأرز واللحم لأهل القصر ولضيوف القصر أيضاً ، ولكن الأصناف الأكثر دقة والتى تدخل ضمن قوائم الطعام اليومية كان القسم الأكبر منها يقع على عاتق العبدات ، اللاتى كن خبيرات فى تسوية الخبز وتجهيز الكعك ، والحلوى ، والمرق ، والتوابل ، وأطباق البيض وما إلى ذلك ، والتى لم تكن تقدم إلا لابن سعود وحاشيته المقربة وأفراد العائلة ، ولنا أيضًا بطبيعة الحال . ففى الصباح ،

(*) يقال أيضا Pilau أو Pilaw وهو طبق شرقى مُعد من الأرز واللحم والتوابل . (المترجم)

وقبل أن ننهض من فراشنا ، كانوا يحضرون لنا الشاى والسويا تيس مع عسل الطائف إن توفر ؛ وبعد ذلك بساعة أو ساعتين تدخل علينا مجموعة من العبيد حاملة إلينا طعام الإفطار ؛ ويقومون بفرش حصير مستدير أحمر اللون على الأرض ، ثم يضعون عليه طبقًا معدنيًا كبيرًا عليه كومة كبيرة من الأرز الحار من فوقها بعض أجزاء طلى ممتاز ؛ ويرصون من حول ذلك الطبق الكبير الأطباق الثانوية ، سلاطين الحساء اللذيذ ، أو المزوَّد بقطيعات صغيرة من اللحم ، ويطفو فيه العظم ، وكل ذلك حار ، ليجرى وضعه على الأرز حسب الطلب ؛ وسلاطين مملوءة بحليب النياق الطازج ، أو لبن الغنم ؛ وأطباق التمر ، وسلاطين الماء العذب ؛ وأنواع من الخبز ، بعضه مخمور ، والبعض الآخر غير مخمور؛ وأطباق المهلبية المصنوعة من الحليب والسكر والتوابل ؛ وأطباق من الكعك المحمر الذى يطلقون عليه اسم قماط Qaimat . وهنا يقول كبير الخدم : "سَم" ، أى تفضل ، ابن مسلم الذى لم يتخلف مرة واحدة عن الإشراف على تحضير مائدتنا ، وهنا كنا ننهض واقفين من المكان الذى نجلس فيه ، ويتقدم عبد إلى الأمام ومعه إبريق ، ووعاء ، وفوطة ، وصابون ، ليقوم كل واحد منا بغسل يديه ، ثم نجلس على الأرض من حول الحصير الأحمر ، مع بقية الضيوف الحاضرين ، ونبدأ تناول الأطعمة والمأكولات الموضوعة أمامنا ، وبعد أن ينتهى كل واحد منا من تناول الطعام ، ينهض من مكانه ويغسل يديه بالصابون والماء فى الوعاء المجهز لذلك بواسطة عبد من العبيد ، ثم يجلس على السجادة ويسند ظهره إلى الحائط ، وينتظر أن ينتهى الآخرون من الطعام ثم تُصب القهوة. كانوا يجهِّزون لنا الشاى بصفة مستمرة ، عندما كنا نطلبه ، فى العصر . أما القهوة فكانت جاهزة دومًا ، أما وجبة العشاء - وهى صورة طبق الأصل من وجبة الإفطار التى سبق أن وصفناها - فكانت تقدم لنا بعد حوالى ساعتين من غروب الشمس ، بالرغم من أن أفراد الأسرة المالكه كانوا يتناولون العشاء بعد صلاة العصر مباشرة .

كان عبد الله سعيد أفندى مرافقًا دائمًا ولصيقًا معنا سواء عند تناول الوجبات أو فى الرحلات خارج القصر أو حتى فى الاجتماعات الشعبية التى كان يحضرها ابن سعود ؛ وعبد الله سعيد أفندى يلتزم من الناحية الشكلية بمفاهيم المذهب الوهابى

الضيِّقة ، التى تحرِّم الدخان ولكنها تسمح بتعدد الزوجات ، وقد تنكر عبد الله سعيد أفندى لتأثير التربية الأوروبية عليه بأن تزوج من قرينة واحدة فقط - بالرغم من صغر سنه الذى فيه متسع من الوقت الذى يسمح له بمراجعة آرائه فى ذلك الموضوع - وهو صديق حميم للتبغ (الدخان) ، الذى ينغمس فى تعاطيه عندما يكون فى مسكنه الخاص أو فى مسكننا ؛ وهو يعتبر صحراء الجزيرة العربية مجرد ملجأ مؤقت طوال فتره الحرب التى تثير الكثير من القلاقل والاضطراب ، وقد ألمح فى أحيان كثيرة إلى رغبته فى الحصول على وظيفة مناسبة فيما بعد فى بلاد الرافدين ، التى كان ينظر إليها بالفعل باعتبارها من ممتلكات الإمبراطورية البريطانية ، بالرغم من أنه لم يخطر على باله قط أن وطنه ، بلده وولاية الموصل ، سوف تخضع للسيطرة البريطانيه . وفى الوقت نفسه كان عبد الله سعيد أفندى معجبًا إعجابًا شديدًا بابن سعود ، الذى اعتبره مثالاً بارزًا للحكم العربى الخالص الأصيل فى ظل الظروف المواتية التى لم توجد بعد - بفضل الأتراك - لا فى بلاد الرافدين أو فى أى جزء من أجزاء الإمبراطورية التركية مترامية الأطراف . وراح عبد الله سعيد أفندى طوال منفاه الاختيارى يدرس بنفسه سياسة الجزيرة العربية ، وقد توفر له الوقت الكافى لتلك الدراسة عن طريق مهنة الطب التى كان يتقاضى عليها أجرًا بلا عمل يقوم به فى البلاط الوهابى . وقد أدى تطبيق عبد الله سعيد أفندى للدروس التى استفادها من خبراته الواسعة ، على المشكلات الخاصة فى البلد الذى كان يقيم فيه ، وكذلك تمرسه المكتسب على رؤية الأمور من وجهات نظر مختلفة ، إلى أن يصبح مستشارًا لا يقدر بثمن عند ابن سعود ، كما جعلاه أيضًا وسيطًا كفئًا فى عملية التواصل بينى وبين ابن سعود ، فى المسائل الصعبة التى كانت تحتاج إلى دراسة متأنية من الجانبين قبل طرحها فى اجتماعات رسمية . يضاف إلى ذلك ، أن معرفته باللغة الفرنسية ، واهتمامه الشديد بشئون العالم فيما وراء حدود الجزيرة العربية ، فضلاً عن دماثة طبعه ، كل ذلك جعل صحبته مصدرًا من مصادر السرور الدائم لنا طوال الأيام الأولى من مقامنا فى ذلك البلد الغريب الذى لا يشجع مناخه على المعيشة فيه ؛ وعندما غادرتُ الرياض فى رحلة الى البحر الأحمر ، كان عبد الله سعيد أفندى هو الذى يرعى طلبات أولئك الذين تركتهم

ورائى ، وكان هو أيضًا الذى أوصلهم بسلام إلى الخليج الفارسى ؛ ومضت أشهر عدة قبل أن ألتقى عبد الله أفندى مرة ثانية – والسبب فى ذلك أن بيته وزوجته محبوبة قلبه كانا فى الهفوف وبالتالى لم يكن أى شىء يمكن أن يبعده عن الهفوف – وأنا لا يراودنى شك فى أن العقيد كنلف Cunliff أوين Owen سوف يشهد ويقر بالخدمات الجليلة التى لا تقدر بثمن ، التى قدمها عبد الله أفندى للعقيد كنلف Cunliffe شخصيًا وللعقيد شوفيلد Schofield طوال الأسابيع الستة التى أمضيناها فى الجزيرة العربية بعد أن رحلت أنا عنها .

كانت هناك شخصية مختلفة المزاج ومختلفة الطابع تمامًا بالرغم من تلقيها التعليم نفسه ولها نفس المكتسبات ، وكانت من بين أولئك الذين كانوا يرافقونا بصورة دائمة ؛ أحمد بن ثنيان ، ذلك الشاب الذى يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا ، وكان شديد الشقرة إلى الحد الذى يصعب معه اعتباره من مواطنى الجزيرة العربية ، شكله يعطيه عمرًا أكثر من سنوات عمره الحقيقية ، يكاد يكون بلا أسنان ، وبنيته هزيلة للغاية ، كما تظهر عليه عاديات مرض جرى تشخيصه منذ عامين أثناء زيارته إنجلترا مع بعثة وسط الجزيرة العربية ، على أنه مرض السكر ؛ وأحمد بن ثنيان ، هو أحد أفراد الأسرة المالكة ، وهو ابن العم الثالث أو الرابع من أعمام ابن سعود ، وهو أيضًا حفيد عبد الله بن ثنيان، الذى تربع على عرش نجد فى الفترة من عام ١٨٤٠ إلى عام ١٨٤٢ الميلادى بوصفه واحدًا من إقطاعيى السلطان التركى إبان حكم خورشيد باشا ، آخر حاكم تركى مُناب فى وسط الجزيرة العربية ، وضاع منه العرش هو وحياته أيضًا عندما استأنف فيصل ذلك الحكم الذى اعترضه التدخل التركى مرتين ؛ كان والد أحمد ، عبد الله، قد تقاعد طواعية أو عن غير طيب خاطر ، فى المنفى ، واستقر به المقام مؤخرًا فى القسطنطينية ، التى ولد فيها أبناؤه الأربعة وربُّوا فيها أيضًا ، والذين بقى ثلاثة منهم فى القسطنطينية ، عندما تملكت أحمد نفسه رغبة فى رؤية العالم والتفرج عليه ، مما جعله يقوم برحلة أوصلته إلى البحرين بعد أن أمضى فترة من الوقت فى كل من تونس والقاهرة . ووصل أحمد بن ثنيان إلى أرض أجداده فى الوقت المناسب ، ويستقر فيها ، مبتهجًا بالفرصة التى خلصته من الالتزام بخدمة

الحكام الأتراك فى أثناء المغامرة الطائشة التى كانوا قد أقدموا عليها بالفعل . وبنيته الهزيلة التى جعلته يتجه بفكره نحو الأدب والتعلم بدلاً من التوجه إلى حياة عملية أكثر نشاطًا ؛ كانت اللغة التركية ، لغة أحمد بن ثنيان ، الثانية ، وقد عرفتُ أن ذلك الرجل ينتقل فراراً من العربية إلى اللغة التركية دون أن يدرك أنه لم يعد مفهوماً بعد ، يضاف إلى ذلك ، أنه كان يتقن الفرنسية إلى حد كبير ، والتى ما زال يتكلمها بطلاقة ، ولكن ليس مثل إتقان عبد الله سعيد أفندى لتلك اللغة ؛ يضاف إلى مكتسباته اللغوية أنه (أحمد) كان واسع القراءة والاطلاع على الأدب العربى والتاريخ الأوروبى وكذلك تاريخ الشرق . وقد أقرَّ ابن سعود مزايا أحمد بن ثنيان عندما جعله واحداً من مستشاريه المقربين ؛ ومع أنى أرى أن أحمد بن ثنيان لم يستفد كثيراً من تدريبه المبكر ، كما أرى أنه ليس رجلاً متحضراً مثل عبد الله أفندى ، إلا أن أحمد الثنيان كان يمتاز على عبد الله أفندى فى أنه لم يكن مجرد عضواً من أعضاء الأسرة المالكة وإنما كان أيضًا وهابيًا متشدداً قولاً وفعلاً . وعلى الرغم من تباهيه بانحداره انحداراً مباشراً من الحاكم الفعلى للبلاد ، فإنه كان حريصًا دومًا على عدم الكشف عن ذلك التباهى ، فى وجود ابن سعود ، ومن غير المحتمل ، حتى فى حالة شطط أحلامه ، أن يتصور أو يخطر بباله أو ببال ذريته ، أن يجلس على عرش الرياض ؛ ومع ذلك ، لم يراود ابن سعود ذرة شك واحدة فى ولاء أحمد بن ثنيان وإخلاصه له ، وكان من الطبيعى جداً ، أن يظهر أحمد بن ثنيان فى كل المناسبات طوال تلك الفترة ، التى كان يجرى خلالها مناقشة كل أسرار الدولة بحرية مطلقة . كان أحمد بن ثنيان على معرفة ممتازة بتاريخ نجد ، وبتاريخ أسرة ابن سعود المالكة ، وكان حديثه شيِّقًا وعذبًا فى مثل هذه الأمور ، ولكن آراءه فى السياسة العالمية كانت عقيمة وغير ممتعة ، وقد بدا لى أحمد بن ثنيان ، من باب أولى ، أنه كان يجرى تلقينه فيما يتعلق بالأحكام الوهابية التى يصعب تطبيقها .

أمضينا أمسية من أمسيات تجوالنا فى زيارة القلعة ، بعد الحصول على إذن بذلك تعللنا فيه بأن العقيد كنلف أوين ، بصفته من ضباط المدفعية ، يسعده أن تتاح له فرصة إلقاء نظرة على مدفعية ابن سعود ، وربما استطاع بحكم هذه الزيارة من ناحية وبحكم منصبه من الناحية الأخرى ، أن يقدم النصح والمشورة فيما يتعلق بصيانة

المدفعية . وعلى أحد جوانب الميدان المفتوح الموجود أمام القلعة ، ومقابل بوابتها الوحيدة ، أشاروا لنا إلى مبنى بسيط مربع الشكل يعرف باسم بيت عجنان Bait Aj-nan ، المقر الرسمى لحاكم الرياض الرشيدى (من آل الرشيد) أيام الاحتلال الأجنبى ؛ فى الحائط الأمامى من ذلك المقر كانت توجد مشربية ضيِّقة مصنوعة من الخشب ، وقف أسفلها ابن سعود ومعه حفنة من رفاقه الشجعان ، وراحوا طوال ليلة كاملة يقرءون ما تيسر لهم من القرآن ، ويحتسون القهوة ، ويراقبون خوخة (بُويِّب) القلعة الموجودة وراء المربع إلى أن طلع الفجر الذى شهد آخر مراحل الصراع مع قوات ابن الرشيد واستعادة أسرة آل سعود المالكة عرش الرياض[١٥].

وداخل الطريق المؤدى من القلعة إلى بوابة القصر وجدنا أنفسنا داخل فناء صغير الأبعاد تحيط به جدران عالية ، فى حين كانت بقية المساحة الداخلية عبارة عن مخازن ، وغرف للحرس ، إلخ ، ولم يَدْعُنَا أحد لزيارة تلك المخازن أو هذه الغرف ، هذا بالرغم من أننا من خلال واحد من الأبواب التى تفتح على الفناء ، استطعنا أن نرى رجلين من الواضح أنهما كانا يمضيان عقوبة السجن ، فى حين كان ينبعث من غرفة أخرى هراء غير مفهوم ، صادر عن امرأة أُدخلت الزنزانة فى السجن بسبب الجنون ؛ كان هناك باب آخر من تلك الأبواب يفتح على الترسانة نفسها ، ولكننا لم نر ذلك الذى كان داخل تلك الترسانة ، نظراً لأن المدفعية المحلية كلها ، والتى كانت مكوَّنة من مدفعين ميدانيين قديمين إلى حد ما ، جرى إخراجهما كى نلقى عليهما نظرة فى الفناء ؛ كان عيار كل مدفع من هذين المدفعين سبعة أرطال ، وكان المدفع الصالح منهما من مدافع الميدان التركية القديمة ، فى حين كان المدفع الآخر صناعة ألمانية واسمه التجارى Von Broadwell - karlsruke – 1872 ؛ ويبدو أن الذخيرة المشوَّنة كانت خاصة بالمدفع الألمانى ، وكانت مكوَّنة من بعض الدانات القديمة وبعض الأظرف الفارغة – والمؤسف أنها كلها كان يعلوها الصدأ .

وقد حالت مشاغلى الرسمية ، طوال تلك الفترة ، بينى وبين تلبية دعوة مضيفى لى بحضور أحد اجتماعاته الشعبية – فقد أجلتُ ذلك الشرف إلى زيارة لاحقة – وكانت

المناسبة الاجتماعية الوحيدة التى شاركت فيها ، بعد طلعة حديقة الشمسية ، هى وليمة الزواج التى أقامها ابن سعود بمناسبة زواج أحد أفراد الأسرة المالكة - الذى نسيت اسمه ؛ وقد سبق للعريس والعروس الزواج من قبل ، ولذا لم يجر التمسك بالأبهة ولا بالاحتفال ، الذى يشيع بين الوهابيين عندما يتزوج شاب من فتاة بكر عذراء ، ولم نشاهد فى تلك المناسبة سوى حشد لاستعراض قوة أفراد الأسرة المالكة ، مع قلة قليلة من كبار الضيوف[١٦] الذين جاءوا لحضور العشاء . ومن الطبيعى ، أن ينصب الحديث فى تلك المناسبة على الزواج والطلاق . وتساءل ابن سعود قائلاً : "لماذا أنتم أيها الإنجليز تجعلون من الطلاق عملية صعبة ؟ وعندنا ، عندما تصبح الزوجة غير مرضية لزوجها ، فنحن نتخلص منها بترديد كلمة بسيطة ثلاث مرات : طالق ، طالق ، طالق ؛ وهذا يكفى ، إن شاء الله لقد تزوجت خلال حياتى خمساً وسبعين زوجة[١٧] ، أنا لم أنته بعد من الزواج ، فأنا ما زلت شاباً وقويا . ولكن مع الخسائر الكبيرة الناجمة عن الحرب ، سوف يجىء الوقت الذين سيتعين فيه على الأوروباويين أن يتزوجوا أكثر من واحدة" . والزوجات اللاتى تكون لهن عند ابن سعود اعتبارات خاصة بسبب إنجاب الأطفال ، حتى وإن جرى طلاقهن بعد ذلك ، يعطيهن ابن سعود بيوتاً خاصة بهن ، ومنشآت خاصة بهن أيضاً ، كى تربين فيها أصحاب السمو الأمراء ، ولا يحق لهن أن يتزوجن من أزواج آخرين ، وهذا هو أيضاً حال الزوجات المطلقات اللاتى لم ينجبن أطفالاً . وأم تركى ، ولى العهد ، كانت تعيش فى ذلك الوقت عزباء مع ولدها ، إذ كان ابن سعود طلَّقها منذ زمن بعيد ، والذى جرت العادة أن تكون فى عصمته ثلاثة نساء فى آن واحد ، ويترك المكان الرابع شاغراً لتشغله أية فتاة ، وبصورة مؤقته ، قد تروق له خلال جولاته خارج الرياض ؛ وفى تلك المناسبات ، يوفد ابن سعود ، بعد أن يضرب خيامه ، مندوبيه الثقات ليبحثوا له عن مرشحة مناسبة يتزوجها لفترة قصيرة فى حفل بسيط ، لا يحتاج سوى حضور الشيخ وأربعة شهود ، وتعود بعد ذلك إلى والديها عندما لا يصبح بحاجة إليها .

وزوجة ابن سعود الرئيسيةُ أو إن شئت فقل : الملكة ، التى شغلت المسكن الملكى فى القصر ، التى كانت أما لكل من ولديه ، محمد وخالد ، كانت ابنة عمه ، وهى

الجوهرة بنت مساعد ، امرأة جذَّابة جدا بكل المعايير ، وجميلة جدا ، وجاءت وفاتها خلال وباء الإنفلونزا الذى حدث فى شتاء عام ١٩١٨ الميلادى ، بمثابة لطمة قاسية لابن سعود ، سببت له ألمًا أكثر من الألم الذى نزل به عندما توفى ابنه الأكبر ، وابناه الآخران اللذان فقدهما فى فترة ذلك الوباء أيضًا ، وعندما زار مندوبوه إنجلترا بعد ذلك بعام أبلغونى أن مكان الملكة لم يشغله أحد بعد ، وأن المسكن الذى كانت تعيش فيه تركوه على الشاكلة نفسها التى كان عليها يوم أن كانت الملكة على قيد الحياة ، وهذا إسهام بارز فى إحياء ذكراها وإحياء ذكرى المكان وسط حنان وحنو الملك الوهابى .

زوجة أخرى ، من زوجات ابن سعود فى تلك الفترة ، هى أرملة شقيقه سعد الذى أضنته وفاته على أيدى الثوار العجمان ، كما سبق أن أوضحت . وثمة زوجة ثالثة ، بنت دُخَيِّل ، التى كانت تقيم فى القصيم فى ذلك الوقت بصورة دائمة ، ولا ترى زوجها الملك إلا نادرًا ، وبخاصة عندما تحمله شئون الدولة إلى منطقة قريبة منها ؛ ومع ذلك ، لم يطلقها ابن سعود ، نظرًا لوجود ابن سعود معها فى خريف عام ١٩١٨ الميلادى بمناسبة الزيارة التى قام بها للقصيم لأمور تتعلق بالترتيبات الخاصة بالحملة التى سيشنها على حائل . أما زوجته الرابعة فكانت بنت السديرى ، واحدة من أكبر عائلات منطقة سدير ، ولكن لابد من أن يكون ابن سعود قد طلَّقها فى أثناء غيابى عن الرياض فى فصل الشتاء ، نظرًا لأنى وجدت ابن سعود ، عندما عدت إلى الرياض ، حرا ويستطيع الزواج من رابعة ؛[١٨] ومما لا شك فيه أن الطلاق حدث عندما انتقل إلى الصحراء للقيام بالتدريب السنوى ، الذى أجراه ابن سعود مع مطلع ربيع ذلك العام ، وأن من عاداته ، كما سبق أن أوضحت ، أن يحتفظ لنفسه أو يوجد مكانًا شاغرًا فى مؤسسته الزيجية ، التى تحتم عليه طبقًا لنصوص القرآن ألاَّ يجمع بين أكثر من أربع زوجات فى آن واحد ، وبخاصة عندما يُحتمل أن يتغيب عن مركز الرئاسة لأية فترة من الزمن ؛ وهو بهذه المناسبة أيضًا يستفيد من الامتياز الذى تمنحه الشريعة الإسلامية إلى مالكى العبدات غير المتزوجات ويخوِّل لهم استعمالهن محظيَّات ، هذا على الرغم من أنى لم أقف على ذلك إلا بعد أشهر عدة ، عندما رافقته إلى بريدة ، وعرفت ، من خلال عبد غير فطن ، أن ابن سعود يمارس ذلك الامتياز ، الذى كنت أحسب حتى ذلك الوقت أنه مخالف لتعاليم المذهب الوهابى .

وإذا قدِّر ، وهو ما يحدث بين الحين والآخر ، لحكاية الزوجات الأربع أن تكتمل ، وانجذب ابن سعود ، خلال تجواله ، إلى امرأة تتحدث الإشاعات عن جمالها وحسنها ، فإن الشريعة الإسلامية ، الفضفاضة من منظور التفسير الوهابى ، لا تقف فى وجه ابن سعود ، أو تسد عليه الطريق ، إذإن الأمر لا يحتاج منه إلا إلى إرسال رسالة لواحدة من زوجاته اللاتى ينتظرن عودته فى الرياض ، يقول لها فيها إنه لن يعود إليها بعد اليوم ، ويصبح اعتباراً من تلك اللحظة حراً ويدخل فى مراسم الزواج مع العروس الجديدة التى اختارها . ويبدو أن طلاق والدة (الأمير) تركى من واقع كل الروايات التى سمعتها ، كانت من قبيل ذلك العمل الذى يستثير الشفقة ، وأن ذلك الطلاق فُرض على ابن سعود بفعل أحد العوائق القليلة التى لا تجيزها الشريعة الاسلامية ، نظراً لأن الشريعة الاسلامية تحرم الجمع بين الأختين ، وتصادف ، عندما كان ابن سعود فى الأحساء ، أن شغل المكان الشاغر فى مؤسسته الزيجية ، إذ اتضح فيما بعد ، بل أصاب الملك بالرعب والفزع - لا فى أثناء الخطوبة فقط وإنما بعد إتمام الزواج - أن الزوجة الجديدة هى شقيقة والدة (الأمير) تركى ؛ وسويت هذه المشكلة بإرسال رسالة الطلاق ، التى أعلنت محتوياتها على أم تركى .

ومع أن ابن سعود تعامل مع مسألة الزواج بطريقة الفرسان إلى الحد الذى عرضه لاتهامه بتهمة الهيام بالنساء ، فإنه يجب ألا يغيب عن بالنا مطلقًا أن ابن سعود استغل حريته أيضًا فى إبرام تحالفات من هذا القبيل من أجل تحقيق أهداف سياسية ، مستهدفًا بها تجميع حب وولاء العناصر الرئيسية المشتتة هنا وهناك والتى يتكون منها سكان بلاده ، إذ لم يعد يتبقى من كبار عائلات وسط الجزيرة العربية سوى قلة قليلة هى التى لم يصالحها ابن سعود مرة أو مرتين عن طريق رابطة الزواج منه هو شخصيًا أو من أى فرد آخر من أفراد الأسرة المالكه . والتحالفات التى من هذا القبيل لا تتأثر بعملية الطلاق الذى لا يعد وصمة ، أما الزيجات التى تثمر عن أطفال وبخاصة الأبناء للأسرة المالكة ، فلها تأثير كبير على كل الأطراف الداخلة فيها . وعلى الجانب الآخر ، فإن ارتباط ابن سعود وإخلاصه الطويل لابنة عمه ، الملكة الجوهرة ، وسجل بُنُوَّته الذى لا تشوبه شائبة ، وكذلك سجل أخوَّته ، وسجل أبوَّته

أيضًا ، هى بحد ذاتها دليلٌ كافٍ على امتلاك ذلك الرجل لسمات عائلية من النوع الممتاز ؛ وقد رأيت الكثير من ذلك الجانب ، فى حياة ابن سعود ، ولكن ما رأيته كان أقل بكثير مما كنت أطمح إليه ، ومع ذلك كانت تلك اللمحات التى كنت أحصل عليها بين الحين والآخر من حياة مضيفى وحياة عائلته ، ومنها على سبيل المثال وجوده فى حضرة والده ، أو بصحبة أبنائه الصغار وأبناء أخيه ، وبخاصة فى جو الرحلات الخلويّة السلسة والخالية من الرسميات ، والتى كانوا يمضونها فى بيارات النخيل حول الرياض ، أو عندما يكون أيضًا بصحبة إخوانه وأبناء عمه ، كل ذلك كان يؤكد كثيراً من الحكايات الكثيرة السارة التى سمعتها من الرسميين الذين يعملون فى القصر ومن العبيد عن الحياة العائلية وراء تلك الجدران الطينية فى ذلك القصر . ولا تمض سوى أيام قليلة حتى يقوم ابن سعود بعدها بجولة فى محيط العائلة ، يزور خلالها والده العجوز فى معتكفه ، كما يزور خلالها أيضًا أبناءه وإخوانه ، وبخاصة شقيقاته اللاتى يدخل معهن فى صخب صبيانى ، كانت تتناهى إلىَّ أصداؤه المرحة فى غرفتى عبر الأبواب التى كانت تفصل سكنى عن الفناء الكبير المخصص لنساء الأسرة . وأخت ابن سعود الكبرى ، نورا - ويخاطبونه تكريمًا لها باسم أخو نورا(١٩) - مثلما هو سائد فى وسط نجد ، وهى التى تشرف على كل شئون الأسرة الداخلية والمنزلية : المطبخ ، والعبيد ، ومستودعات المواد المنزلية وما إلى ذلك ، وهى لا تظهر إلا على من يعرفونها جيداً ، لتبدو بشوشة ولطيفة مثلما هى لمن ومتحمسة وذات كفاءة. أما بقية شقيقاته ، وعددهن خمس عشرة ، فتتردد أعمارهن بين الثلاثين عامًا وسن الطفولة ، والسبب فى ذلك أن الإمام عبد الرحمن استمر فى إنجاب الأطفال وهو فى سن شيخوخته ، ومع ذلك فإن دور أولئك البنات الصغار يُعد دوراً ثانوياً قياسًا على الدور الذى تقوم به أختهن الكبرى ، شأنهن فى ذلك شأن الدور الثانوى الذى يلعبه أشقاء ابن سعود فى تصريف أمور الدولة ، قياسًا على الدور الذى يلعبه ابن سعود نفسه . كان عدد أبناء الأسرة المالكة ، فى ذلك الوقت سبعة أبناء ، أما عدد البنات فكان يقدر بحوالى اثنتى عشرة ابنة، والمؤسف أن عدد الأبناء أصبح أربعة أبناء ، نظراً لأن تركى ، وفهد وسعد ، أكبر وثالث وأصغر أبناء الملك ماتوا فى شتاء عام ١٩١٨-١٩١٩

الميلادى ، تاركين وراءهم سعوداً وريثًا للعرش ، وإخوته من الأب : فيصلاً ، ومحمداً وخالداً ليحملوا سلالة والدهم ويواصلون تقاليده . ومبلغ علمى أن تركى لم يترك من خلفه ذرية ، وهو على الرغم من زواجه مرات عدة لم تنتج تلك الزيجات - حسب اعتقادى - سوى ابنتين ماتتا فى بداية طفولتهما .

معدل وفيات الأطفال سوط من السياط المخيفة فى الجزيرة العربية ، والسبب فى ذلك يرجع إلى انتشار مرض الجدرى ، ومع أن الظروف لم تتهيأ لى تمامًا بإجراء إحصاء بعدد الوفيات والخسائر الناتجة عن ذلك المرض ، فقد أجريت بعض التقديرات التقريبية ، من الاستفسارات التى حصلتُ عليها من الذين كنت على اتصال بهم ، والتى توصلت منها إلى أن نسبة تتراوح بين خمسة وسبعين وثمانين فى المائة من الأطفال الذين يولدون فى المناطق الوهابية لا يتعدون العام الأول من حياتهم . والواقع أن الأمور هنا تثير القلق والفزع ، بل إن الأمر يزداد سوءًا بسبب عادات الحرب والعمليات الحربية بين أولئك الذين يبقون على قيد الحياة إلى أن يصلوا إلى سن المراهقة . والمسنون يندرون فى الجزيرة العربية ، ولكن ، وبعد أن أصبحت الأسلحة الحديثه أكثر شيوعًا بين العرب أكثر من ذى قبل ، يصبح من الصعب علينا أن نتصور أو نتخيل أى شىء غير تناقص أعداد السكان بشكل سريع ، والذى تجعله وفيات الأطفال عند أدنى مستوى له ، ما لم يتم وقف الحرب وقفًا حقيقيًا ؛ وهذا هو على وجه الدقة ما كان ابن سعود يحاول عمله أو إنجازه منذ اعتلائه عرش البلاد ، وذلك عن طريق شن سلسلة من الحملات القوية ، محاولاً بها تحاشى أو درء الأخطار التى كان عرشه معرضًا لها ؛ يضاف إلى ذلك ، أنه أثبت وعيه لضرورة إدخال مزايا الأساليب الطبية الحديثة إلى بلاده ، ولم يكن عبد الله أفندى وحده رمزًا من رموز التحسن الكبير الذى طرأ على الدجالين الطبيِّين المحليِّين ، بفضل تدريبه الطبى الأوروبى ، وإنما حدث خلال السنوات القليلة الماضية أن حظيت الرياض بمزايا زيارة الدكتور هاريسون - أحد أطباء البعثة الأمريكية فى البحرين - لها مرتين ، وقد راجت شائعة فى الرياض عندما كنت فيها فى شتاء عام ١٩١٧ الميلادى ، مفادها أن الذى عجَّل برحيل الدكتور هاريسون فى زيارته الأولى[٢٠] هو اكتشاف بعض المرضى أنه

كان يلف الدواء الذى كان يعطيهم إياه فى أوراق تدعو إلى المسيحية ومكتوبة باللغة العربية ، ولكن مسألة دعوته لزيارة الرياض مرة أخرى فى أثناء وباء الأنفلونزا الذى حدث فى ١٩١٨ - ١٩١٩ أثبتت أن استعماله أوراق الدعاية فى مثل ذلك الغرض - بفرض أنه استعملها لذلك الغرض - لم تؤثر على شعبيته. ومع ذلك ، فالجزيرة العربية ليست أرضاً واعدة فيما يتعلق بالحماس التبشيرى ، على الرغم من أن لديها من الأسباب ما يجعلها تعترف بفضل العمل الطبى الممتاز الذى أنجزته على مدى السنوات الكثيرة الماضية مختلف فروع البعثة الأمريكية التى تنتشر على طول شاطئ الخليج الفارسى .

وعلى الرغم من سعادة ابن سعود فى أحواله المنزلية ، فإنه لم ينس الإنذار المكتوب ببنط كبير فى حوليات أسرته المالكة ، والذى مغزاه أن النظام الذى يقوم على التعدد لابد أن تتفجر فيه الصراعات الداخلية من حين لآخر . يضاف إلى ذلك ، أن وجود ابن عمه سعود بن عبد العزيز بن سعود الفيصل ضمن بلاطه ؛ وكذلك المصاعب التى كانت بينه وبين قبيلة العجمان ، والتى أسفرت مؤخراً عن وفاة شقيقه المفضل سعد ؛ وكذلك علاقاته غير المرضية مع شيخ الكويت ؛ كل هذه الأشياء مجتمعة ذكرت ابن سعود أنه لا يجلس على العرش بحكم الوراثة وإنما من وجهة نظره [بحكم] الموضوعية ، وأن أعداءه يحيطون به من كل جانب ويتمنون الإطاحة به ؛ يضاف إلى ذلك ، أن كل تلك الأمور ترددت عند العقيد هاميلتون كما ترددت عندى أيضاً خلال الأيام القليلة الأولى من تجوالى فى الرياض ، وعندما انتهزنا الفرصة التى سنحت لنا بمناقشة كل تلك الأمور مع مضيفنا ، الذى كانت الحكومة البريطانية ، بحكم علاقتها الودية معه من ناحية ومع الشيخ سالم شيخ الكويت من الناحية الثانية ، تتطلع إلى إعادة العلاقات الودية بينهما .

كانت الأسرة السعودية ، وبخاصة الحاكم الوهابى الحالى نفسه ، مدينة طوال منفاها فى الكويت ، خلال العقد الأخير من القرن الماضى ، بالكثير لمكرم محمد بن صباح ومساعدته لها هو وأخوه مبارك ، السفاح والوريث ، أو إن شئت فقل : ذلك البطل المقدام ، الذى كان مبدأه الرئيسى طوال سنين حكمه يتمثل فى الاعتماد على

صداقته مع بريطانيا العظمى ، باعتبار أن تلك الصداقة هى الوسيلة الوحيدة لإنقاذ دولته الصغيرة من ابتلاع الإمبراطورية العثمانية لها ، والذى أمهلته المنية ليرى الجيش البريطانى وهو يحطِّم الآمال التركية فى تحقيق ذلك الهدف ، ليموت بعد ذلك قرير العين فى شهر ديسمبر من عام ١٩١٥ الميلادى . كانت العلاقات ، طوال تلك الفترة ، ودية تمامًا بين كل من نجد والكويت[٢١] ، على الرغم من هبوب العواصف من حين لآخر . وواصل الشيخ جابر ، ولد الشيخ مبارك ووريثه ، سياسة والده نفسها ، إلى أن توفى المأسوف عليه بعد ذلك بثمانية عشر شهراً . ولكن الشيخ جابر لم يخلفه ولده أحمد[٢٢] ، وإنما أخوه سالم الطموح ، الذى تولى حكم الكويت منذ ذلك التاريخ ، والذى أعقب اعتلاءه للعرش تدهور العلاقات الودية مع ابن سعود ، تلك العلاقات التى تميزت بها سياسة أسلافه . وقيل ، إن سالمًا ، بحكم تعصبه للمذهب المالكى ، كان من داخله متعاطفًا مع الأتراك ، ومع ذلك ، وأيًا كان الحال ، فليس هناك من شك أنه كان يقف موقفًا معاديًا لابن سعود ، وأن عداءه اتخذ شكل إيواء قبيلة العجمان فى أراضى الكويت متحديًا بذلك تعهد الشيخ جابر بعدم منح قبيلة العجمان ملاذًا أو مأوى .

من هنا يتضح أن مشكلة عجمان فى ذلك الوقت كانت وراء المصاعب التى نشأت بين كل من نجد والكويت ، وهو ما كانت الحكومة البريطانية ترغب فى تسويته لصالح جميع الأطراف . فالعجمان تخلوا عن ابن سعود عن طريق الخيانة فى معركة جرَّاب Jarrab التى حدثت فى شهر يناير من عام ١٩١٥ الميلادى ، بل إنهم قتلوا شقيقه سعداً أيضًا فى صيف العام التالى فى معركة جرت فى الأحساء ، واستثارت أحداثها كل حنق ابن سعود وغضبه من العجمان ، الأمر الذى جعله يعقد العزم على استئصال شأفة تلك القبيلة انتقامًا منها لمقتل أخيه ؛ ولكن عداء ابن سعود الشديد لتلك القبيلة كان يرجع أيضًا لأسباب أعمق من ذلك بكثير ، وهذا يأخذنا إلى نهاية حكم (الملك) فيصل فى أواخر ستينيات القرن الماضى ، والتى لها علاقة بوجود سعود بن عبد العزيز ابن عم ابن سعود فى مدينة الرياض فى الظروف الحالية كما سبق أن أوضحنا .

كان فيصل ، عند وفاته ، قد ترك عرشه لأكبر أبنائه عبد الله ، وهو يعلم يقينا أن صراعًا شديداً سوف ينشب بين ولديه عبد الله وسعود بعد أن يوارى جثمانه التراب ،

ومعروف أن والدة سعود كانت من قبيلة عجمان ، ويخاصة أن سعود كشف عن عدائه لعبد الله إبان حياة والدهما فيصل . يضاف إلى ذلك أن سعوداً انتهز فرصة القيادات العسكرية المهمة التى عهد إليه بها ، لا لشىء سوى إبعاده عن العاصمة ، وتخلصاً من شخصيته الجذابة التى تسر الخاطر ؛ استثمر سعوداً كل ذلك فى إغواء القوات والقبائل التى كانت تحت إمرته وإقناعها بعدم الولاء الذى ينتظره منها شقيقه عبد الله مستقبلاً ؛ أكثر من ذلك ، إن سعوداً حصَّن نفسه تماماً بفضل حظوته فى قبيلة والدته ، التى تعد واحدة من أقوى قبائل الجزيرة العربية وأشرسها ، بأن تزوج إحدى بنات شيخ من شيوخ تلك القبيلة .

هذا يعنى أن المسرح كان معداً لمزيد من المتاعب . كما زادت توجسات فيصل بالشر أكثر من ذى قبل ؛ وسرعان ما تحطمت تلك الدولة المنظمة التى أسسها بكثير من الصبر والمشاق ، بسبب الشقاق والخلاف بين ولديه اللذين خلفهما وراءه ليتصارعا على العرش ؛ وبعد أن يئس عبد الله من الانفراد بالحكم وإطلاق يديه فيه ، استنجد بمحمد بن الرشيد وطلب مساعدته ، وكان محمد بن الرشيد - حاكم حائل فى ذلك الوقت - أقوى رجال الجزيرة العربية قاطبة . كان سعود بدوره قد احتل الرياض وبقى العرش شاغراً نظراً لفرار شقيقه إلى حائل ، ولكن قبل مضى عدة سنوات اضطر سعود إلى مواجهه قوة جبل شمَّر كلها ، ودارت معركة حاسمة فى جودى Judi فى صحراء الأحساء ، فى حوالى العام ١٨٨٥ الميلادى على وجه التقريب . وانهزم سعود ، وقُتِل ؛ وضاعت قضية ذلك الرجل الذى كان يطالب بالعرش ؛ ولكن عبد الله ، سرعان ما أدرك فى لحظات النصر ، أنه باع بلاده لمنجده ومساعده . وقرر محمد بن الرشيد ضم البلاد الوهابية إلى إمبراطوريته ، وأمضى عبد الله بقيه حياته سجيناً فى حائل ، التى مات فيها ، ولم يكن له ولد .

وفى الوقت نفسه تشتتت البقية الباقية من الأسرة السعودية فى المنفى فى أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية ، مفضلة ذلك على العيش فى وطن يخضع لنير مغتصب أجنبى : فقد نأى أبناء سعود بأنفسهم بأن ذهبوا إلى الحجاز ، فى حين انسحب عبد

الرحمن ، الابن الرابع من أبناء فيصل[٢٢] ومعه أسرته الكبيرة كثيرة الأطفال ، إلى شواطئ الخليج الفارسى . وبقيت الأراضى الوهابية أكثر من عقد من الزمان طريحة تحت أقدام حائل ، إلى أن بلغ أولئك الأطفال عهد الرجولة ، وخلف عبد العزيز بن الرشيد عمه بسبب كبر سنه وشيخوخته .

وطوال تلك الفترة رضى أباء وأحفاد سعود الذى فشل فى المطالبة بالعرش ، رضوا بما قسم لهم ، ولم يكونوا هم الذين تحملوا واضطلعوا بمسئولية تحرير أرض أسلافهم من الأجنبى ، ولكن الذى فعل ذلك هو عبد الرحمن ، وبتشجيع حثيث ومساعدة منتظمة من الشيخ مبارك فى الكويت . وفى العام ١٨٩٩ أو ١٩٠٠ الميلادى حدثت الخطوة الأولى، فقد تحرك كل من عبد الرحمن ومبارك بقوتهما الرئيسية صوب القصيم ، على حين تحرك عبد العزيز ، أكبر أبناء عبد الرحمن ، وكان عمره آنئذ ثمانية عشر عامًا ، تحرك ومعه أتباع قليلون ليحدث تحولاً فى اتجاه الرياض نفسها . والتقت قوات الطرفين المتعادين الرئيسية فى ملاحة الطرفية Tarafiyya ، فى أثناء سقوط المطر ، وكان النصر حليفًا لابن الرشيد بعد مذبحة مروعة دارت على الجانبين ، وقد أكد لى كثيرون ممن خاضوا تلك المعركة وشاركوا فيها أن المطر المختلط بدماء القتلى والجرحى انساب على شكل نهر أحمر إلى حوض الملح الذى يشبه ابيضاضه ابيضاض الثلج . وتسببت أخبار الهزيمة التى حاقت بعبد الرحمن ، فى تراجع عبد العزيز عن مغامرته دون تحقيق أى شىء، وتأسيسًا على ذلك ، تنازل الوالد رسميًا لأكبر أبنائه عن حقه فى المطالبة بعرش الرياض .

ولم يتوان عبد العزيز فى الاضطلاع بالمهمة التى أوكلها إليه والده ، وفى شتاء عام ١٩٠٠-١٩٠١ الميلادى خرج عبد العزيز من الكويت ومعه حاشية صغيرة لكنها مخلصة ومنتقاة ، ومكونة من مائتى رجل ، من بينهم صديقه وابن عمه القوى المتين عبد الله بن جلوى . وعندما أصبح عبد العزيز وأتباعه على بعد مسافة قصيرة من العاصمة ، أوقف جماعته الصغيرة ، وانتقى من بينها خمسة عشر رجلاً ، وتقدم معهم خلال فترة الغسق ، تاركًا بقية أتباعه وراءه وطلب منهم العودة إلى حيث جاءوا إذا لم تصلهم عنه

أخبار فى صبيحة اليوم التالى . وقال لهم : "انتبهوا يا قوم ، واعلموا أن الطاقة والقوة من عند الله ؛ ولكن ، إذا لم تصلكم منى أخبار فى الغد أسرعوا بالعودة إلى حيث جئتم ؛ إذ ستعرفون أننا متنا" .

وفى فترة الغسق ، دخل عبد العزيز هو ورجاله الخمسة عشر العاصمة من فوق أسوارها المهدمة وشقُّوا طريقهم إلى منزل حاكم الرياض من أبناء الرشيد ؛ وطرقوا الباب ففتحته لهم امرأة ؛ وكان الحاكم قد غادر المنزل إلى القلعة ، طلبًا لقضاء الليل فى ظل المزيد من الأمن ، وإنه لن يعود إلى المنزل قبل فجر اليوم التالى ؛ وبالرغم من ذلك، دخل عبد العزيز هو وأتباعه ، وبعد أن جمعوا النساء كلهن فى غرفة واحدة ووضعوهن تحت الحراسة ، وحذروهن من أن تأتين بأية حركة أو صوت ، اتخذوا لأنفسهم مواقع بالقرب من إحدى المشربيات التى تشرف على الميدان الموجود أمام القلعة ؛ وراحوا يراقبون الميدان طوال تلك الليلة الليلاء ، ويتزودون بالتمر والقهوة اللذين حصلوا عليهما من مستودع الحاكم ، كما راحوا يحضُّون أرواحهم بقراءة ما تيسر لهم من القرآن ، إلى أن طلع الفجر ، وفُتحت البوابات الضخمة على مصاريعها ليدخل منها الحاكم ومعه حرسه الخاص متجهًا إلى منزله . كان الرجال الستة عشر ينتظرون عند الباب ، الذى فتحوه على مصراعيه ، واندفعوا صوب العدو شاهرين سيوفهم ومسدساتهم فى وجه الحاكم وحرسه الخاص . وإن هى إلا لحظة من لحظات الصراع الشرس الوحشى ، حتى تحددت المشكلة على إثرها ، إذ نودى بعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن سعود ملكًا على أرض آبائه .

وأمضى عبد العزيز السنوات التى أعقبت ذلك فى إصلاح منطقة إثر أخرى من مناطق بلاده مخلِّصًا إياها من سيطرة الأجانب ، ولكن نجاح فرع من شباب الأسرة فى استرداد أرض الأسلاف أثار غضب فرع الشيوخ وكبار السن ، وأقصد بهؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة من أبناء سعود الذى سبق وطالب بالعرش . ورحب عبد العزيز بن الرشيد بانضمام ذلك الفرع إلى جانبه فى الصراع الذى نشب بعد ذلك ، الذى أفصح من خلاله عن رغبته فى استعادة حقوقه الوراثية المشروعة فى العرش ،

ولكن النجاح حالف فرع الشباب ، ودارت المعركة الحاسمة فى حقول القمح فى روضة المهنا Raudhat al Muhanna التى لا تبعد كثيراً عن المسرح الذى دارت عليه معركة الطَّرفية . وانهزم ابن الرشيد وقتل فى معركة روضة المهنا ، وعندما انطلق المنتصرون يخربون معسكر ابن الرشيد ، وجدوا بين الأمتعة أناساً من نسل سعود يرتعدون خوفاً ، بعد أن شاركوا فى الحرب ، وأطلق المنتصرون عليهم ذلك المصطلح الذى يطلقه البدوى على الإبل التى يجرى استردادها بعد الاستيلاء عليها عن طريق الغزو – العرايف[٢٤] – وقد التصق ذلك الاسم بذلك الفرع منذ ذلك التاريخ ليكون كُنية لهم .

تلك كانت الخطوة الأولى من خطوات إصلاح ذات البين ، والتى لم يتحرك ابن سعود بعدها قط ، والتى يشهد على نجاحها الواضح ، وجود سعود بن عبد العزيز ، أو إن شئت فقل سعود العرافة ، كما يسميه العامة ، هو وأناس آخرون من ذلك الفرع ، فى البلاط الوهابى الحالى . ومع ذلك فقد كلفت تلك النتيجة ابن سعود بعض المتاعب ، إذ كان لابد للعجمان ، ووفاء منهم لروابطهم الأسرية مع العرايف ، أن يقولوا كلمتهم ويلعبوا دورهم. ففى عام ١٩١٠ الميلادى ، رفع سعود العرافة ، الذى كان واضحاً أنه لم يشارك فى معركة روضة المهنا ، رفع لواء التمرد فى منطقة الحريق ، واستطاع خلال فترة من الزمن أن يجمع جنوب البلاد ويجعله يقف وراءه ، ولكن ابن سعود سحقه تماماً ، على النحو الذى سأوضحه فيما بعد[٢٥] ، ويبدوا أن هروب سعود العرافة إلى مكة ثم استسلامه فى النهاية قد أنهى مسألة ولاية العرش هى ومشكلة العجمان . وعلى أى حال فقد وجدنا أن تلك القبيلة شاركت بقوة عسكرية فى القوات الوهابية فى مطلع عام ١٩١٥ الميلادى فى الحملة التى جردها ابن سعود على ابن الرشيد ، ولكن رجال القبائل الخونة لم يستطيعوا مقاومة الإغراء الذى اعترض طريقهم ، بأن وقفوا موقفاً تثور من حوله الشكوك ، وأسفر فرارهم فى لحظة حرجة فى معركة جرّاب Jarrab ، عن تحويل النصر إلى هزيمة محققة .

ولم ينس ابن سعود للعجمان خيانتهم أو يصفح عنها ، ولكن إعلان خروج العجمان على النظام أسفر عن تفشى وذيوع الخلاف على تولى العرش ، الأمر الذى

جعل اثنين من العرايف هما : سلمان بن محمد بن سعود وحسين بن سعد بن سعود ، يطلبان مساعدة قبيلة العجمان لهما في محاولة أخرى - وأخيره - لاستعادة العرش . وتحرك ابن سعود ومعه شقيقه سعد ، لمواجهة ذلك الخطر ، وبدأت الجيوش المتنافسة تناور طلبًا للسيطرة على موقع العمليات ؛ وعندما تأكد العجمان من تفوق جيش ابن سعود على جيشهم من ناحية المناورة طلبوا عقد هدنة تحت اسم مناقشة المسائل المعلقة مناقشة ودية ، وأجابهم ابن سعود ، فى غيبة أخيه ، إلى طلبهم ، وكان سعد يعد لهجوم مباغت على معسكر العدو . وبعد أن انتهى سعد من توزيع قواته عاد ليكشف أن ما قام به أصبح هباءً منثورًا ؛ وثار سعد على حنان ابن سعود ورحمته التى كانت فى غير محلها ، وأصر على تنفيذ الخطط التى وضعها رغم قيام الهدنة ، وفى لحظة ضعف استسلم ابن سعود لمشاورات خيانته . ونفذ سعد الهجوم المفاجئ ، وعندما وجد العجمان أنهم أصبحوا ضحية الخيانة والمكر والخداع ، وإنهم محاصرون ، خاضوا معركة شرسة ؛ وخسر العجمان المعركه ولكن قُتِل سعد ، وهنا أضاف ابن سعود إهدار دم أخيه إلى قائمة جرائم العجمان التى كان لابد من التكفير عنها . وهنا هربت قبيلة العجمان من أراضى ابن سعود إلى حدود الكويت ، التى بقوا فيها منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا ، ليكونوا بمثابة شوكة فى جنب ابن سعود - إذ أفشلوا خطة الحملة التى كان ينوى تجريدها على ابن الرشيد فى عام ١٩١٦ الميلادى بأن قاموا باحتلال موقع خطير على أحد جانبيه - ولكن فى ساعات الخطر المحدق ، هل يتعين عليه أن يكون فى الموقع الذى يتمناه ، إذا ما اضطر للهجوم عليهم ؟

وعن طريق التآمر والدس حينًا مع ابن الرشيد وحينا آخر مع سالم بدأ العجمان يشكلون وجودًا متأرجحًا فى منطقة الحدود الصحراوية ، ولكن فى الفترة التى أكتب عنها ، وهى شتاء عام ١٩١٧ الميلادى ، كان الشيخ سالم قد أعطى العجمان حق اللجوء إلى أراضيه ، على الرغم من أن الشيخ جابر كان يتصرف على العكس من ذلك ، وكانت الحكومة البريطانية ترغب بطبيعة الحال فى إزالة أى مصدر من مصادر المتاعب والاضطرابات المحتملة بين كل من نجد والكويت . ولذلك فقد شعرتُ بالرضا تمامًا أنا والعقيد هاميلتون عندما تمكنا من التوصل - بعد مناقشة الأمر مناقشة مستفيضة مع

ابن سعود – إلى ترتيب ، تعهد ابن سعود بمقتضاه ، مقابل إبعاد قبيلة العجمان عن حدود الكويت ، بالسماح لهم (العجمان) بالعودة إلى حظيرته وإلى حمايته ، وبضمانات مناسبة ، إذا ما أعلنوا خضوعهم له . كما جرت أيضًا الموافقة على حق الشيخ سالم فى فرض ضريبة على العوازم ، تلك القبيلة البدوية الرعوية التى تتبادل الإقامة فى أراضى الكويت وفى الأراضى النجدية طبقًا لفصول السنة . كما تم الاتفاق أيضًا على التعاون الصادق مع الشيخ سالم فى حصار الأراضى المعادية ، وذلك عن طريق التأكيد على ألا يسمح بانتقال أى أحد من نجد إلى الكويت ، سوى الأشخاص المرخص لهم بالدخول لشراء المؤن والتموينات الغذائية . والعجمان ، فى حقيقة الأمر ، لم يقبلوا ويوافقوا على البديل الذى عرض عليهم ، وهو الخضوع لحاكمهم الشرعى ، كما أن الاحتكاك بين كل من نجد والكويت لم يختف تمامًا ، ولكن أمكن تحقيق شىء من التقدم عندما جرى الاعتراف بخروج القبيلة المتمردة على العرف والنظام ، وسوف أحاول فى مرحلة قادمة توضيح الطريقة التى أمكن من خلالها التوصل إلى حل لمشكلة الحصار(٢٦) .

هنا يكون الترتيب – الذى أمكن التوصل إليه مع ابن سعود – بمثابة تمهيد للهدف الرئيسى من المهمة التى كنت مكلفًا بها ، وهى بالتحديد إقناع ابن سعود بتجريد وشن حملة قوية على حائل . وقد تطلب ذلك مناقشات مطولة لطرق ووسائل تحقيق هذا الهدف المرتقب ، كما أسفر الأمر عن إرسال بعض المقترحات لطرحها على الحكومة البريطانية قبل مغادرة الرياض إلى الحجاز ؛ وقد يكون من الأفضل تأجيل تناول تلك الموضوعات إلى أن يحين موعد تسجيل مجريات أحداث حملة حائل التى جرى شنها فى خريف عام ١٩١٨ الميلادى .

كنت قد غادرت بغداد اعتقادًا منى أن ضابطًا ممثلاً للمندوب السامى فى مصر سوف ينضم إلىَّ فى الرياض كى نستعرض سويًا الموقف السياسى فى وسط الجزيرة العربية ، ومدى تأثير ذلك الموقف على الموقف العربى بكامله ، والموقف فى الحجاز بصفة خاصة. وكان معروفًا تمامًا أن العلاقات بين ابن سعود والشريف لم تكن ودية

على الرغم من تحالفهما مع البريطانيين ، ولكن لم يكن معروفًا لنا مدى تناقض مطامح الشريف حسين مع مفهوم ابن سعود للدور الذى كان مقررًا لابن سعود أن يلعبه على المسرح العربى . صحيح أن الشريف حسين كان قد بدأ يظهر بمظهر الزعيم الطبيعى للشأن العربى ، كما أضاف ، بلا تفويض أو مبرر ، إلى اسمه لقب "ملك البلدان العربية" ، ومع ذلك ، فإن الخطوات التى كان يتمنى أن تعينه على الاعتراف بمزاعمة من قبل أولئك الذين تأثر استقلالهم بفعل تلك المزاعم ، لم تكن معروفة إلا للشريف حسين وحده . كان الشريف ، فى ذلك الوقت ، يتلقى إعانة كبيرة من الحكومة البريطانية ، يضاف إلى ذلك أن الحملة التى قرر فيصل تجريدها أو شنها على حدود فلسطين ، هى والقتال المبدئى الذى جرته تلك الحملة على سكك حديد الحجاز ، هيأت للشريف حسين هو ومستشاريه فرصة تناول ومناقشة أمور كثيرة . ومع ذلك ، كان الباب لا يزال مفتوحًا أمام الشريف كى ينتهج سياسة مصالحة مع جيرانه العرب ، وكان من رأى الحكماء الأكفاء - على الرغم من أنى لم أقرهم قط على رأيهم - أن الملوك والأمراء الكبار من أمثال ابن سعود والإدريسى قد يوافقون فى الوقت المناسب على التنازل عن استقلالهم مقابل شرف بقائهم ضمن تُبَّع الملك . خلاصة القول ، لم يكن هناك مبرر لليأس من إيجاد شكل من أشكال التفاهم الودِّى بين مختلف وحدات تحالفنا العربى ، من هنا جاءت فكرة قيام أحد الضباط بزيارة من مصر إلى الرياض ، باعتبار أن تلك الزيارة خطوة فى ذلك الاتجاه .

وعلى كل حال ، اتضح على الفور أن الشريف لم تكن لديه الرغبة فى التعاون فى ذلك المشروع ، وقد بلغنى ، عندما كنت فى الرياض ، أن الملك رفض السماح لأى ضابط بريطانى الوصول إلى نجد عن طريق الغرب . متعللاً بأن الطرق التى سيسلكها مثل هذا الضابط خطرة وليست آمنة . وسرعان ما رجانى ابن سعود - وكان مشغولاً بفرصة يشرح فيها الأمر للسيد رونالد ستورز Ronald Storrs(٢٧) الضابط المعين لتمثيل المندوب السامى - أن أقترح على رونالد ستورز أن يحضر ابن سعود بطريق البحر إلى البحرين ، ولكن عندما أوضحت له أن مثل ذلك المقترح سوف ينطوى على رحلة طويلة جدا ، وأن تلك الرحلة لن يكون لها معنى إلا بعد أن

يتشاور روناك ستورز مع الملك (الشريف) ، اقتنع بمنطقى تمامًا وألقى بنفسه قلبًا وقالبًا فى مشروع داهية بدأت طرحه عليه .

وأنا هنا ، يجب أن أعترف أن دوافعى فى طرح ذلك المشروع ربما كانت ذات طابع مختلط ، وأن هذه الدوافع لم تكن كلها قائمة على متطلبات الموقف الفعلية ، لأنه أمر تافه، ولم أندم قط على التصرف الذى أقدمت عليه . كنت قد أوضحت أن الشريف رفض المضى قدمًا فى مسألة زيارة السيد روناك ستورز ، فقط من منطلق - حسب علمنا - الخطر الذى يكتنف القيام بمثل هذه الزيارة ؛ وهنا واصلت كلامى إلى ابن سعود قائلاً : "هناك طريقة واحدة هى التى تضمن مجىء السيد روناك ستورز ، هى أن تسمح لى بالذهاب بصحبة مرافق لى إلى الطائف لأعود ومعى السيد ستورز" .

كان ابن سعود شغوفًا مثلى باحتمالات هذه اللحظة وإمكاناتها ، فقد كان موقفه من الشريف موقف حقد وحسد دفين ، سرعان ما تحول إلى كراهية يخفيها قناع رقيق جدا ؛ "ألم يكن" ، يتحدث ابن سعود مندفعًا فى لحظاته العفوية عندما تخونه قوة بلاغته ، ثم يردف قائلاً : "ألم يكن منذ وقت قريب مجرد قائم مقام للحجاز فى أثناء حكم الأتراك ؟ من هو إذن ذلك الذى يسمى نفسه ملكًا ، ملك العرب ، بحق ؟" ولكن الذى كان يعتمل بشدة وعنفوان داخل صدر ابن سعود هو ذلك الراتب الضخم الذى كانت الحكومة البريطانية تغدقه على غريمه ، ولا تعطيه سوى أجر متواضع ، وكان عبثًا أن أشرح لابن سعود الحقيقة التى مفادها أن الإعانة التى كانت بريطانيا تدفعها للشريف ، كانت نظير الخدمات الكبيرة التى أدَّاها أو سوف يؤدِّيها فيما يتعلق بالحرب التى ستُشن على القوات المسلحة التركية . وفى لحظات صراحته ، اعترف ابن سعود أنه كان ينتظر من الحكومة البريطانية أن يكون على قدم المساواة مع غريمه من الناحية السياسية والمالية ، كما طالب ابن سعود أيضًا بألا يتعدى غريمه (الشريف) على حقوقه السيادية ، نظرًا لأنه أبدى رغبة فى فرض هيمنته وسيطرته على قبيلتى عتيبة وحرب داخل حدود نجد .

ومع ذلك ، كان ابن سعود ، فى تلك الأثناء مشغولاً بتحويل رفض الشريف الموافقة على مهمة السيد روناك ستورز ، لمصلحته هو ، وجاء المشروع الذى عرضته

عليه بمثابة الفرصة التى تسمح له بتنفيذ ما يريد . قال لى ابن سعود : "والله ، يا صاحب ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! إنها رحلة ، ونحن فى كل الأوقات بين يدى الله ؛ ولكنى سوف أرسلك مع جماعة من رجالى إلى الطائف كما قلت أنت ، وسوف تصلها ، إن شاء الله ، بلا شر ، نظراً لأن الشريف يكذب عندما يقول : إن الطريق محفوف بالمخاطر" . وجرى اتخاذ الترتيبات حسبما اتفقنا عليه ؛ إذ كانت السرعة أمراً ضروريا فى تحقيق الهدف الرئيسى للرحلة التى أقوم بها ، وفى مساء اليوم الخامس من شهر نوفمبر أرسلت رسولاً خاصاً لتبليغ القرار الذى اتخذته إلى السلطات المعنية فى بغداد . وأمضيت الأيام الثلاثة التى تلت ذلك فى ألم وانتظار مخافة أن أتلقى أوامر أو معلومات لا تتفق أو تناسب الخطط التى وضعتها ، ولكن الحظ حالفنى ووصلت إلى جدة بسلام ، وعلى الجانب الآخر من الجزيرة العربية ، الذى كنت فيه على اتصال ببغداد .

الهوامش

(١) الناس هنا يطلقون على ذلك المكتب اسم دفتر Daftar، وينجز فيه ابن سعود الأعمال التى لا يمكن إنجازها على مرأى ومسمع من الناس .

(٢) انظر المجلد الثانى ص ١١٧ .

(٣) انظر وليام جليفورد بالجريف ، المجلد الأول ، ص ٣٨٨ .

(٤) انظر وليام جليفورد بالجريف ، المجلد الأول ، ص ٣٨٨ .

(٥) انظر صفحة ٣٦٦ وما بعدها .

(٦) أحسب ، أن تلك المسافات يصل عددها إلى ٢٢ مسافة .

(٧) وأهم المساجد بعد الجامع الكبير هو جامع الشيخ الذى يقع فى اتجاه الشرق من القصر ، والجامع يطلق عليه هذا الاسم نظراً لأن شيخه هو الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب ، وهو من آل الشيخ ، ويؤم الناس فى كل الصلوات ما عدا صلاة الجمعة ، التى يؤم الناس فيها فى الجامع الكبير . والإمام عبد الرحمن له مصلى خاص به فى منزله ، كما أن هناك مسجداً آخر فى القصر ، يحضر ابن سعود الصلاة فيه عندما لا يصلى فى الجامع الكبير . هناك مسجد آخر يقع بجانب القلعة فى المنطقة المحصورة بين القلعة والشارع الرئيسى .

(٨) الجمال لا يجرى استعمالها فى جلب الماء من الآبار فى الرياض ، على الرغم من استعمالها فى أحيان كثيرة فى مناطق أخرى . وفى القرى الفقيرة يجرى استعمال الدواب والحمير من السلالات الأدنى فى القيام بذلك العمل .

(٩) وصل أحد هذين الغزالين إلى إنجلترا فى شهر مايو من عام ١٩٢٠ الميلادى ، على سبيل الهدية لصاحب الجلالة ملك إنجلترا ، وأودع ، بأمر من جلالته ، حدائق حيوان لندن فى اليوم الرابع عشر من شهر مايو . وهذا الغزال وعل من فصيلة الوعول البيضاء . وأنا لا أعرف ماذا جرى للغزال الآخر .

(١٠) انظر صفحة ١٠٣ وما بعدها .

(١١) يختلف هذا الرقم ويتباين تبايناً كبيراً ؛ فقد أبلغنى محمد نفسه أن حاشيته كانت تضم ١٧٠٠٠ نسمة (انظر صفحة ٢٧٨ وما بعدها) ، ولكن يبدو أن الرقم ٧٠٠٠ هو الرقم الصحيح .

(١٢) حدث ذلك فى عام ١٨٥٦ الميلادى ، عندما كان بيلى ممثلاً سياسيًا مقيمًا لصاحب الجلالة (ملك بريطانيا) فى الخليج الفارسى ، وزار الرياض بصحبة بعثة بريطانية صغيرة : انظر "تقرير عن رحلة إلى الرياض العاصمة الوهابية ، فى وسط الجزيرة العربية" ، بقلم العميد لويس بيلى . بومباى ١٨٦٦ .

(١٣) انظر صفحة ٣٨٤ وما بعدها .

(١٤) صفحة ٥٤ ، شمالي نجد ، تأليف كاربو جورماني . ترجمة السيد د . كريوثرز ، مطبعة حكومة القاهرة ١٩١٧ .

(١٥) انظر الصفحة ١٠١ وما بعدها .

(١٦) في هذه المناسبة تعرفت على فيصل الدويش ، الضوء الهادي بين الإخوان ، والذي ظل إلى وقت قريب شيخًا لقبيلة مطير .

(١٧) أحسب أن هذا الرقم يزيد حاليًا على المائة .

(١٨) انظر صفحة ٣٢٦ وما بعدها .

(١٩) الناس ينادون ابن الرشيد حاكم حائل بالكنية نفسها ، التي أصبحت لقبًا يتوارثه أفراد تلك الأسرة المالكة ؛ ولكن الأمر ليس على هذه الشاكلة في الرياض ، والناس ينادون ابن سعود بتلك الكنية لأن اسم نورا هو اسم شقيقته الكبرى . كما تشيع تسميته أيضًا بأبي تركي اسم أكبر أبنائه الذكور ، ولكن يندر أن يناديه الناس باسم عبد العزيز أو ابن سعود . والغرباء ينادونه باسم الإمام أو قد ينادونه باسم الحكيم في بعض الأحيان ؛ بينما الحديث عنه مع الآخرين يسود فيه اسم الشيوخ أو الإمام .

(٢٠) جرت تلك الزيارة في صيف عام ١٩١٧ الميلادي .

(٢١) يرجع ذلك ، بدرجة كبيرة ، إلى العمل الرائع الذي قام به النقيب و . هـ . جـ شكسبير ، إبَّان كونه مندوبًا سياسيًا لدى الكويت خلال السنوات السابقة لاندلاع الحرب العالمية الأولى ، . فقد قام بجولة واسعة داخل أراضي ابن سعود ، وأقام أحسن العلاقات الودية مع ذلك الحاكم .

(٢٢) أحمد هو الذي ترأس بعثة الكويت إلى ذلك البلد في خريف عام ١٩١٩ الميلادي نيابة عن عمه . وقد خلف أحمد الشيخ سالم بعد وفاته في شهر فبراير من عام ١٩٢١ الميلادي.

(٢٣) مات محمد ، الابن الثالث من أبناء الملك فيصل ، بلا ذرية ؛ وأنا لا أعرف إن كانت الوفاة حدثت قبل أو بعد سقوط الرياض في يد ابن الرشيد .

(٢٤) واحد هذا الاسم عريفة أو عرافة – وهو الشيء الذي يجري الاعتراف به أو الممتلكات الضائعة التي يجري استعادتها .

(٢٥) انظر المجلد الثاني ص ٧٨ و ٢٧٥ .

(٢٦) انظر صفحة ٣٥٩ وما بعدها .

(٢٧) عُيِّن رونالد ستورز حاكمًا عسكريًا للقدس في ذلك الوقت .

الفصل الرابع

طريق الحج

١- الدرعية

في صباح اليوم التاسع من شهر ديسمبر كانت هناك جلبة وضجيج في القصر ؛ تلك هي الإبل التي كان مفروضًا لها أن تصل صباح اليوم السابق ، ولكن مجيئها تأخر إلى فترة المساء ؛ ها هي الإبل بمظهرها الخشن باركة "متشاكية" في ميدان القصر وسط حشد كبير من الناس ، تجمعوا ليشاهدوا رحيل القافلة ، نظرًا لأن رحيلها وقدومها يعد مناسبة مهمة في حياة مدن البدو ؛ إذ يجرى خلال تلك المناسبات الوقوف على الأخبار من القادمين ، كما يجرى أيضًا استقبال الأصدقاء والأقارب الذين يتغيبون فترات طويلة ، في حين تجد المسافر ، ومعه أصدقاؤه جاءوا لوداعه وليذكِّروه بالرسائل أو الأمانات التي عهدوا إليه بها لتسليمها ، أو المهام التي كلَّفوه القيام بها بعد أن يصل إلى نهاية الرحلة. وفي الفناء الداخلي ، أرى أربعة من إبل الذلول عليها سُرجٌ مزركشة زاهية الألوان ، فوق كل واحدة منها خرج جميل ، ذو شراريب جميلة . كان من بين تلك الإبل الأربعة، ذلول واحد خصَّصوه لي شخصيًا ، أما الثلاثة الباقيات فكانت لقادة الجماعة التي تقرر لها أن ترافقني في رحلتي إلى الطائف . وداخل مسكننا كانت هناك جلبة وضوضاء كبيرة بسبب عمليات حزم الأمتعة وتوزيع الصدقات والإعانات على مجموعة كبيرة من المرءوسين ، الذين لا يمكن أن أنسى واحدًا منهم ، على الرغم من صعوبة الوقوف على ما فعلته تلك المجموعة – أو السواد الأعظم منها في أضعف الأحوال – طوال الأيام العشرة الماضية ، حتى يمكن القول :

إنهم يستحقون ذلك الذى حصلوا عليه . وعند الساعة العاشرة صباحًا ، وبعد أن أصبح - على حد معرفتى - كل شىء على ما يرام ، ظهر الإفطار ، واقتادونى بعد أن تناولت الوجبة ، إلى المكتب كى أستأذن من ابن سعود .

قال ابن سعود : "كل شىء على ما يرام الآن بالنسبة لك . لقد خصصت لك مجموعة لطيفة من خيرة الجمَّالة التى لدىَّ ، ولابد أن يكونوا كلهم جيدين . أمامك سفر طويل وطريق شاق ولكن طب نفسًا وقرَّ عينًا ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، فليس هناك ما تخافه أو تخشاه ؛ ومعك رجال من كل القبائل ، رجال أشداء ومخلصون ، اهتم بالدواب ولا تقس عليها ، ولكن داوم المسير ، ثم عد على الفور وبلا تأخير ، لأنى سوف أنتظر عودتك بشوق كبير . انتبه ، سوف أصدر ، فى حضرتك ، آخر تعليماتى للرجال الذين أسندت إليهم مسئولية جماعتك ". واستجابة لطلبات ابن سعود ظهر أمامنا رجلان : إبراهيم بن جميع وسعد اليمينى ، ذلك الرجل الطويل المشوق الذى تتدلى خصل شعره المجدول على كتفيه من حول محيًا صبوح وأنيق . قال لهما ابن سعود : "اجلسا" . وهنا سقط الرجلان على الأرض متكئين على عمود من الأعمدة ، فى الوقت الذى راح ابن سعود يصدر أوامره المفصلة الخاصة بترتيب المسير ، ويستطرد ابن سعود فى حديثه قائلاً : "وعندما تصلان الطائف ، انتبها ، الدَّبرة بيد الله ، ثم بيد ها الرجل ، هذا (الأسر بيد الله ، ثم بيد هذا الصديق (مشيرًا إلىَّ) ؛ أطيعاه بلا تردد فى كل شىء ، ولا تعارضاه . انهضا ، وثقا بالله". وهنا نهض الرجلان ، وتقدما إلى الأمام ، ثم خطا كل منهما إلى الأمام وقبَّل سيده على جانب خشمه (أنفه) من باب الاستئذان . ونهضت أنا بدورى لألحق بهما ، وهنا قال لى ابن سعود : "اعتمد على الله ، وفى رعاية الله ، مع السلامة ".

وبعد نزولى من القصر وجدت ذلولى بالفعل فى ميدان القصر ، ووسط ذلك الحشد الكبير انتهيت من عمليات الوداع وركبت الجمل ، ونهضت الجماعة كلها بضجيجها ، وسرنا ببطء عبر السوق المزدحمة إلى بوابة الضهيرى Dhuhairi فى الطرف الشمالى الغربى من المدينة ، ثم مضينا على طريق الطائف . واعتبارًا من تلك اللحظة أصبح

تجوالى فى الجزيرة العربية على انفراد ؛ فقد عاد العقيد هاميلتون إلى الكويت ، فى حين بقى كل من العقيد كنلف أوين هو وشوفيلد Schofild فى الرياض ، ليقوما بزيارة قصيرة إلى منطقة الخرج[1] خلال تلك الفترة وحتى نهاية شهر ، موعد عودتهما إلى الساحل وإبحارهما من القطيف .

طريقنا الذى نسير فيه متجه صوب الشمال الغربى ، وها هو حزام النخيل أخذ ينتهى تدريجيًا ليسلم فى النهاية إلى منحدر من الصخور الجيرية الكلسية ، التى يممنا المسير فوقها شطر سبيل مطروق ، تقع فيه تلال وروابى المغرزات Mugharrizat وأبو مخروق Abu Makhruq عن يميننا وغور وادى حنيفة هو وبيارات نخيل الباطن التى توجد فى وسطه ، عن شمالنا ؛ وها هى أمامنا السهول الصحراوية الموحشة والمترامية الأطراف وهى ترتفع على شكل تموجات لطيفة وتتقاطع على بعد مسافات مع الشِّعاب المتجهة إلى الوادى . وأكبر تلك الشِّعاب هو شعب ميضار Shaib Maidhar الذى يمتد إلى مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل من الرياض ، وهذا الشعب عبارة عن مجرى حجرى رملى من مجارى السيول ، وهو يمتد هابطًا من الأرض المرتفعة التى عن يميننا ، إلى الوادى عند الباطن Batin . وفى مقابل ذلك الشعب بيت ريفى كبير ، أو إن شئت فقل: قصر وسط مزرعة صغيرة من مزارع النخيل التى جرت زراعتها مؤخرًا ، كما توجد قطعة صغيرة من الأرض مزروعة قمحًا أيضًا . وتلك بئر جرى حفرها مؤخرًا وتقع على جانب الطريق على بعد ثلاثة أميال بالقرب من قرية وواحة عرقة[2] ، التى تظهر قمم نخيلها من فوق ضفة غور وادى حنيفة عن يسارنا .

وإلى الوراء يوجد منخفض قحل متموِّج يعرف باسم هيشة الدرعية Hishat Dara'iyya ، ويممنا مسيرنا شطر ربوة بارزة تعلوها تلة يطلقون عليها اسم رجمة سعود ، وهذه الرجمة تعد علامة بارزة فى تاريخ نجد أيام فترة الاضطرابات ، فعلى هذه التلة البارزة نصب إبراهيم باشا – فى عام ١٨١٨ الميلادى – مدافعه ليقصف بها الدرعية قصفًا وحشيًا ، نتج عنه هو والخيانة الداخلية استسلام القوات الوهابية وتدمير مدينة الدرعية المتباهية وأفول نجم الأسرة المالكة بصورة مؤقتة ، تلك الأسرة التى

وصلت حدود إمبراطوريتها إلى أبعد حدود الجزيرة العربية ، واستشعرت سطوتها المدن المقدسة مثل مكة ، والمدينة ، وكربلاء .

وفى الحال وصلنا حافة وادى حنيفة ، ووقفنا أمام أنبل أثر فى الأراضى الوهابية كلها ، وقفنا أمام مدينة الموتى ! فهذه صخرة ضخمة تقع فوق انتفاخ ضخم بيضاوى الشكل يقع بدوره فى منتصف وادى حنيفة ، وقاعدة تلك الصخرة بحقول القمح التى تشبه الشرفة التى تطل عليها المدينة ، كما تحيط بها أيضًا حدائق النخيل والبساتين ، فى حين تتوج قمة تلك الصخرة أبراج وقصور الدرعية المهدمة ، التى كانت فى يوم من الأيام العاصمة الفخورة لسعود الكبير ، إمبراطور الجزيرة العربية كلها . وأرض الوادى المنخفضة فى الناحية الشمالية والشرقية تغطيها غابة من النخيل ، تقع فى وسطها هجر (كفور) الفلاحين الذين انتقل إليهم موروث فارغ لاسم عظيم اقترن بحدائق أبائهم . ومجرى سيل وادى حنيفة الزلطى الذى يشبه الخط الأبيض ، يمتد خلال النخيل وينقسم إلى قسمين شرقى وغربى يلتفان حول الصخرة الكبيرة ليتجها بعد ذلك نحو الجنوب . ومن حول الوادى يوجد حزام من القمم الصخرية التى ترتفع ارتفاعًا شبه عمودى لتصل إلى بقايا السور الحجرى الخارجى الذى يثير الملل فى النفس ، والذى تتخلله أبراج صغيرة مهدمة أو بوابات صغيرة مدمرة أيضًا . ويطل قصر سعود على هذا المشهد من الخراب والدمار .

والطريق ينزل إلى الوادى عن طريق غور فى الصخرة الشرقية ثم يتجه بعد ذلك إلى مجرى السيل . كنا عند هذا الحد قد قطعنا مسافة عشرة أميال بعد أن غادرنا الرياض ، وهذه مسافة معقولة من رحلة طويلة فى يومها الأول ، وخيمنا لقضاء الليل تحت الصخرة الرئيسية مقابل الهجرة (كفر) الصغيرة التى يقال لها ملْوى Malwi . ورحت أتجوَّل خلال حطام المدينة القديمة وخلال التحصينات الخارجية بصحبة سعد اليمينى ، إلى غروب الشمس ، ثم رجعت إلى المخيم لتناول العشاء والنوم .

وهم يطلقون على الحطام الموجود على الصخرة اسم الطريفة Turaifa تمييزًا له عن الدمار الذى عليه الدرعية نفسها ، يضاف إلى ذلك أن حطام الطريفة مهجور وخالٍ

من البشر تمامًا ، والمبانى القديمة بصورتها المدمرة ما تزال باقية ، فذلك عمود هنا، وهذا جدار هناك ، وهذا عقد مهدَّم ، وذلك مدخل بلا منزل ، كل ذلك يشكل فى مجمله خرابًا عظيمًا . وكل شىء هنا مصنوع من كتل الطين اللهم إلا باستثناء الأعمدة ، المصنوعة من كتل مستديرة من الحجر الجيرى ملصوقة إلى بعضها البعض باستعمال الملاط ومليسة من الخارج بالملاط أيضًا ، والعقود المستخدمة فى المبانى هنا من النوع المدبب ومحمولة على أعمدة تيجانها خالية من الزخارف . والجانب الشرقى من المدينة كان مخصصًا لقصور العائلة السعودية ، كما توجد فيه أيضًا الجوامع الكبيرة ، والمبانى العامة الأخرى، ودور الضيافة ، ومساكن الأعيان . فى حين يبدو أن الجانب الغربى كان مخصصًا للطبقات الفقيرة ، والعمال ، والحرفيين وغيرهم ، وهذا الجانب الغربى يغطيه حطام منازل العامة . وهذا الميدان الواسع الموجود فى الركن الشمالى الشرقى من المدينة كان بلا أدنى شك سوق المدينة العامة ، يضاف إلى ذلك أن الشوارع المتفرعة عن ذلك الميدان كانت بمثابة الحى التجارى فى تلك المدينة . ولابد أن الحياة يوم ميلاد الوهابية فى تلك البلاد ، كانت مثلما هى عليه حاليًا فى الرياض فى أثناء هذه الصحوة الدينية . ونحن نعتبر عبد العزيز بن سعود هو والشيخ عبد الله ، كبير الدعاة والحاكم الروحى ، ممثلين لأسلافهما وأنماطهما الأولى ، محمد بن سعود ، ومحمد بن عبد الوهاب ، راعى وإمام ذلك المذهب الوليد ؛ فهما بطريقتهما البدوية الخشنة ، وإنفاق أيامهما فى الصلاة ، ومحاولتهما فى صباهما وشيخوختهما تسود أسرار الأبجدية ، وحفظهما كلام الله عن ظهر قلب ، يرسمان لنا صورة المحاربين القدامى الأشداء ، الذين تدفقوا على بلاط واحد من بين الأمراء الكثيرين فى تلك الأيام ، مشدودين إليه بفعل شائعة سرت عن كشف جديد عن الحقيقة . ففى واحدة من الصالات العظيمة جلس محمد ، كبير الدعاة يقتطف من القرآن ومن السنة مقتطفات ليصنع منها رسالة مبسطة يستعملها الإنسان البسيط ويفيد منها . وهنا انصرف البدوى ، الذى شتته الجدل العقيم ، والمراسم المعقدة عن الله وعن وسطائه ، وتركهم يدبرون شئونهم بأنفسهم ، ليرتد إلى طريق الوثنية ؛ وأمكن إعادة أولئك البدو إلى الطريق المستقيم عن طريق إزالة الغشاوات التى غشَّت دين النبى راعى الغنم ، وفى تلك الصالات الكبيرة ،

أو إن شئت فقل المجالس العامة ، اندهش شاربوا القهوة البسطاء ؛ لأن محمد بن عبد الوهاب كان يتكلم ويقول :

" اسمعوا ما قاله نبي الله : قد افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ... وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ... ولتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار "(*).

وراق كلام محمد بن عبد الوهاب للحاضرين واستساغوه ؛ بل إنه استثار فضولهم؛ ونحن نعرف النتيجة التي ترتبت على ذلك . في تلك الأيام ، كما هو الحال في أيامنا الحالية كانت مجالس الأمير وبيوت الله تعجُّ بالجموع المتزايدة من الخائفين ، الذين يسعون إلى الجنة ويعملون لها ؛ وقد وجدوا تلك الجنة في ميادين القتال في الجزيرة العربية . ومن حول ذلك البلاط الذي اشتهر بكرمه الحاتمي للغرباء في دياره ورعايته السخية للدعاة ، نشأت سوق متأرجحة الوجود ، راحت تعتني برعاية وإطعام مجموعة صغيرة من المواطنين الفقراء المقيمين في تلك الديار . والدرعية كانت هي النمط الأعلى، في كل شيء ، بالنسبة للرياض الحديثة ، التي بنيت لتحل محل الدرعية . ومن سخريات القدر ، أن الرياض بنيت على أنقاض منافستها السابقه وضحيتها الأولى(٢) .

الدرعية الحديثة مكوَّنة من خمس هجر (كفور) متباعدة ، منها هجرتان : العودة والعلب Al 'Ilb تقعان على الضفة اليمنى لقناة العاصفة الموجودة أعلى الوادي ، في حين تقع الهجر الثلاث الأخرى : ملوى Malwi ، والضهارة Al Dhahara ، والغصيبة Al Ghasiba على شكل خط متصل داخل غابة النخيل على الضفة اليسرى لقناة العاصفة . وتلك الهجر الخمس لا تعدو أن تكون مجرد تجمعات من الأكواخ الطينية التافهة ، وليس لها أي معلم من المعالم الواضحة المميزة ؛ وإجمالي عدد سكان تلك التجمعات ربما يصل إلى حوالي ٧٠٠٠ نسمة ، السواد الأعظم منهم من سلالة بني تميم القديمة ، وهم ينتمون إلى مذهب أبي حنيفة(**) الذي –

(*) أوردت الحديث بنصه بدلا من الترجمة . (المترجم)
سنن ابن ماجة ، الفتن ، باب ١٧ افتراق الأمم. (التحرير)

(**) أو حنيفة النعمان ، أحد الأئمة الأربعة المشهورين عند أهل السنة ، توفي سنة ١٥٠هـ. (انظر : تاريخ بغداد ، ودائرة المعارف الإسلامية) .
وبنو حنيفة من بكر بن وائل ، كانت منازلهم اليمامة ، وخاصة «حَجْر» الرياض فيما بعد (انظر معجم ما استعجم – المقدمة ، ومعجم البلدان –حَجْر). (التحرير)

يحسبون أنه – استوطن ذلك الوادى وأطلق عليه اسمه ، أيام الجاهلية ؛[٤] وكان مقر هؤلاء الناس فى الجبيلة أعلى الوادى، وقد زرت الجبيلة فى مناسبة لاحقة ، وقد هاجر أهل الجبيلة منها ورحلوا عنها بعد أن دمرها أمير العيينة Ayaina'[٥] . وهناك بعض العناصر الأخرى ضمن السكان ، وهذه العناصر من أصول قحطانية ومن الدواسر أيضًا ، هذا بالإضافة أيضًا إلى بنى خضير Bani Khadhir الذين هم من أصل أجنبى تمامًا ، أو إن شئت فقل : هم بقايا وسقط الجماعات النازحة ، التى اجتاحت شبه الجزيرة العربية منذ قديم الأزل قادمة من الجنوب الغربى ومتجهة إلى الشمال الشرقى ، أى من اليمن إلى العراق ، مطرودين من اليمن السعيد العامر بالتوابل إلى سهول بلاد الرافدين الخصيبة ، وربما حدث ذلك بعد انهيار سد مأرب[٦] . أو كما يقول العرب : "اليمن مهد العرب ، والعراق لحدهم" .

وعواصف الشتاء والربيع ، عندما تتكسر أربع أو خمس مرات كل عام ، على صخور جبل طويق ، ينساب على أثرها سيل عارم إلى حوض وادى حنيفة ، ويندفع ذلك السيل الهادر المزيد من ضفة إلى أخرى على امتداد مساره غير المستقيم ، متجهًا صوب رمال الجنوب ، مصطدمًا بلا جدوى بالصخور الصلدة التى لا تلين ، وناشرًا الدمار فى الحقول والحدائق غير المحمية ، ثم تنتهى العاصفة خلا سويعات قليلة ، ينتهى على أثرها السيل ، وتنساب مئات الجداول المائية الصغيرة عبر الشاطئ الزلطى إلى بحيرات وبرك المياه الصغيرة ، وتصحو الأرض العطشى لتحمل عبء إنتاج محصول جديد . وتجرى هناك وهنا تقوية ضفتى قناة العاصفة حتى تستطيع مقاومة السيل ، عن طريق حوائط سميكة من الحجر الصلد ، الذى يقطعونه إلى كتل بيضاوية الشكل طول الواحدة منها قدمان ، ويجرى جلبها من غور أو منخفض الحجر الجيرى ، ويجرى رصُّها بطريقة منسقة الواحدة فوق الأخرى دون استعمال الملاط إلى ارتفاع يصل إلى عشرة أقدام أو ما يزيد على ذلك . وارتفاع الوادى يصل إلى حوالى ٢٢٥٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر، أو حوالى ٤٠٠٠ قدم فوق مستوى الزياض ، وهنا يمكن القول إن ارتفاع الصخرة الرئيسة لابد من أن يكون أعلى من هذا المستوى بحوالى ١٠٠ قدم أخرى .

وفى أثناء الليل بدأت السحب تتراكم ناحية الجنوب ، منذرة بأولى عواصف الموسم ، وسجل الترمومتر درجة حرارة مقدارها ٥٤,٥ فهرنهيت عند الساعة العاشرة والنصف مساءً . وكانت الخيمة المخصصة لى من الخيام التى تزن الواحدة منها ٤٠ رطلاً ، أما بقية الجماعة فكانت معها خيمتان مصنوعتان من الخيش ، وفى صباح اليوم التالى كان الجو لا يزال مظلمًا عند الساعة الخامسة والنصف صباحًا ، وهنا استيقظت عندما كان التربيع القمرى يطل على هيكل المدينة الميتة الهزيل من أعلاه ، وكانت الصخور المحيطة بالمدينة تردد أصداء أذان الفجر . وعلى الرغم من أن الوقت كان لا يزال مبكرًا فإن جمعًا من أهل القرية كانوا قد تجمعوا حول المخيم ، وكانت غالبية ذلك الجمع من النساء والأطفال ، وراحوا يجمعون روث الإبل الذى كان قد تجمع خلفها بعد وقفة الليل ، وكان بعض ذلك الجمع أكثر شجاعة وجرأة من بقية الجمع ، فاندفعوا إلى الأمام صوب خيمتى يتسولون منى ويشحذون ، إلى أن راح سعد يطاردهم بسيل من الحجارة والسِّباب.

وعند السادسة والنصف ركبنا ثانية على ظهور الجمال وواصلنا المسير فى اتجاه أعلى مجرى السيل ، وخلال دقائق قليلة اجتزنا الطرف الشمالى للصخرة الرئيسية ، وبدأت بيارات النخيل تحف جانبى مجرى السيل ، وأنا أرى على ضفة مجرى السيل اليمنى صخرة منخفضة يغطيها حطام قرية قديمة كانت مقامة من قبل فى هذا المكان . وهنا انقطع تواصل بيارات النخيل مسافة قصيرة عاد بعدها إلى التواصل مرة أخرى على الضفتين ، عندما وصلنا إلى هجرة (كفر) العودة ، التى ليست سوى مجموعة غير منظمة من الأكواخ الصغيرة على الضفة اليمنى لمجرى السيل . وهنا بدأت تقل كثافة النخيل لتتحول إلى غابة صغيرة من أشجار الحور (الفاف) القرمة[٧] ، التى تنتشر على امتداد عرض الوادى بكامله ، الذى يضيق مجراه هنا ليصل إلى حوالى ٣٠٠ ياردة فقط ، ثم يبدأ الوادى فى الاتساع من جديد عند آخر بيارات النخيل فى الدرعية التى تقع داخل هجرة (كفر) العلب ، التى يحيط بها سور غير منتظم ، وبيارات النخيل هذه من أملاك عبد الله بن جلوى ، أمير الأحساء .

والوادى فى هذه المنطقة ينحنى انحناءً مفاجئًا فى اتجاه الشمال الغربى ثم يستقيم مساره بعد ذلك ، متحولاً إلى وادٍ رملى قحل يصل اتساعه إلى حوالى ٤٠٠

ياردة بين مجموعة من الصخور التى يتردد ارتفاعها بين خمسين وسبعين قدمًا . وكانت تتخلل الرمال هنا وهناك قطرات الأمطار التى يبدو أنها هطلت فى أثناء الليل . وبذلك سرنا أكثر من ميلين آخرين إلى أن وصلنا دائرة واسعة مكونة من ملتقى ثلاثة وديان : وادى حنيفة من ناحية اليسار ، وشعب ملقة Malqa من ناحية الشرق ، ومعه نخيل وهجرة (كفر) ملقى الصغيرة ، التى هى ملك خاص لابن سعود ، فى المنطقة التى يلتقى فيها ذلك الشعب بوادى حنيفة . ثم يجىء بعد ذلك وادى العمارية من الناحية الغربية . وفى وسط تلك الدائرة توجد أطلال قرية صغيرة من قرى الماضى .

٢- وادى العمارية وجبل طويق

فى أعالى وادى حنيفة يقع الطريق المؤدى إلى الوشم والقصيم ، أو إن شئت فقل : طريق قوافل الحجاج ، ويعد ممر الحيْسيَّة Haisiyya أسهل الممرات المؤدية إلى ذلك الطريق عبر جبل طويق الذى يشكل عائقًا أمام الوصول إلى ذلك الطريق ، وتقع على ذلك الممر أطلال بعض المدن القديمة مثل الجبيلة ، والعيينة ، وسدوس Sadus ؛[8] وعند العمارية يوجد مدق (طريق) آخر أقصر من المدق السابق ، ولكنه أكثر منه وعورة . وعندما وصلنا إلى ملتقى الوديان الثلاثة ، تشاورنا فى عجالة ، وكان من رأى البعض مواصلة المسير فى الطريق السهل ، فى حين رأى البعض الآخر أن الطريق الأقصر الأكثر وعورة هو الأسهل ، واستقر الأمر على أن ما سأفضله هو الذى سيحل ذلك الخلاف ، الواقع أن المدن القديمة كانت تشدنى وتغرينى ، ولكنى كنت أتطلع إلى زيارتها ، بعد عودتى ، عندما يتعين علينا الاتجاه صوب الشمال ، ومبلغ علمى أن الطريق الثانى لم يكن مطروقًا . من هنا قررت السير فى وادى العمارية ، ثم عدنا بعد ذلك إلى اتجاه الغرب .

كان طريقنا يسير عبر وادٍ وعر تتناوب عليه الرمال والزلط واللهم(*) ، ويصل اتساعه إلى حوالى ٤٠٠ ياردة ، وينحصر بين صخور مكشوفة للرياح يتراوح ارتفاعها

(*) اللَّهَمُ : بتشديد اللام وفتح الهاء هو "التربة المكونة من غرين ورمل وصلصال" . (المترجم)

بين سبعين ومائة قدم ، وتبرز بعض أركانها بروزًا واضحًا على جانبي الوادى . وبعد أن سرنا مسافة ميلين شاهدنا حائطًا صخريًا عبر الوادى ، يتسبب فى انحرافه ناحية الشمال الغربى عبر أطلال قرية كبيرة هجرها أهلها ، يطلقون عليها اسم شجرة أبى قباس Shajara Abu Qubas ، تيمنًا باسم مجموعة من أشجار الطرفاء . وهذه الأشجار هى وبرج المراقبة الوحيد ، هما الطللان الوحيدان اللذان يشيران إلى وجود مستوطنة زاهرة فى ذلك المكان فى يوم من الأيام . ولم يتبق فى تلك المنطقة سوى بضع نخلات راحت تغالب الموت ، بعد أن كانت بيارات النخيل الممتدة هنا وهناك تحيط بتلك القرية فى أيامها الخوالى ومن حول كل تلك الأطلال ، هناك طلل آخر يتمثل فى أنقاض سور دائرى ، يصل طوله إلى حوالى ٧٠٠ ياردة ، بينما يصل طوله على الجانبين إلى نصف هذا الطول ووسط ذلك السور توجد أنقاض المنازل المهدمة . ويقال إن رحيل الناس عن تلك القرية كان بسبب الجفاف الذى استمر فترة زمنية طويلة .

وبعد أن تجاوزنا تلك الأنقاض اتجهنا مرة ثانية صوب الغرب فى اتجاه جبال العمارية المخروطية الشكل تمامًا ، قبل أن تلتقى تلك الجبال بمجموعة من النخيل داكنة الخضرة ، يقع خلفها خط هضبة الطويق الداكن . وبعد مسير ثلاثة أميال أخرى عبرنا سلسلة منخفضة من الجبال تمتد عبر الوادى من ناحية اليسار ، ثم وصلنا قرية العمارية، التى أخذنا فيها قسطًا قصيرًا من الراحة ووجبة سريعة كنا بحاجة إليها ، والتى بدأ الناس ينادون بها بعد أن تركنا هجرة (كفر) ملقة Malqa .

ومستوطنة العمارية تتكون من بيارتين من بيارات النخيل ملحق بكل منهما هجرة (كفر) ، والهجرة التى فى الجنوب كلها أنقاض فيما عدا الجوالب Jalibs ، أو إن شئت فقل : آبار الماء التى تروى رقعة واسعة من أشجار النخيل وغيطان القمح . أما الهجرة التى فى الشمال فهى عبارة عن كتلة صخرية مكتنزة مربعة الشكل ، طول ضلعها حوالى مائة ياردة ، مع وجود بيارة نخيل صغيرة على أحد الأجناب ، ومنازل تلك الهجرة مرتبة على نحو يجعل الجدران الخارجية تشكل حاجزًا واقيًا مستمرًا . وأركان الهجرة محصنة بأبراج منخفضة وليست بها بوابات عامة ، وكل منزل من المنازل

يضم حوالى ٥٠٠ نسمة هم خليط من الدواسر ومن العنزة من فرع الصقور Suqur ، الذى ينتمى إليه الأمير محمد بن برقة Burqa ، الذى انضمَّ إلينا لشرب القهوة بعد تناول الوجبة ، بحكم كونه من أنساب سعد اليمينى . والتل المخروطى يقع بالقرب من القرية التى فى الناحية الغربية ، وفيما بين القرية والتل المخروطى توجد جبانة وهابية تمامًا ، فيها القبور كلها مسوَّاة بالأرض ، ولا توجد بها أية علامات سوى شاهد الرأس والقدمين والتى لا يزيد ارتفاع أى منهما على قدم واحدة .

هذا التجمع غير المنتظم من الروابى والسلاسل الجبلية من حول الرياض يجعل من الصعب علينا تحديد الحافة الشرقية التى يبدأ عندها سهل الطويق ذو النبوت الصحراوية. والذى لاشك فيه أن وادى حنيفة اعتباراً من الباطن فما دونها هو حد من حدود ذلك السهل ، على الرغم من أن السهل فى هذه المنطقة يبرز فى بعض أجزائه إلى ما بعد حافته اليسرى . ومن ناحية شمال الباطن يتمثل الحد الغربى لواحة الرياض فى امتداد عبر المغرَّزات Mugharrzat وتلال أبى مخروق Abu Makhruq إلى بنبان Banban ، ثم يمتد هذا الحد نفسه بطول الحافة الرملية الغربية للمنطقة الرملية التى يطلقون عليها اسم عرق بنبان Arq Banban ، ثم يمتد بعد ذلك إلى أعالى الوادى الذى يفصل كلا من السهول والوديان الموجودة فى شمالى الطويق أو سدير Sudair عن سهول عرمة Arma . هذا الحد فى اعتقادى ، هو أنسب الخطوط الذى يمكن أن يمثل الحدود الشرقية لحاجز الطويق Tuwaiq . ويترتب على ذلك ، أن مسيرنا منذ اللحظة التى غادرنا فيها الرياض ، كان عبر الجانب الخارجى لسلسلة الجبال ، وأننا اعتباراً من الدرعية فما بعدها كنا نسير داخل منطقة السهول ، الآخذة فى الارتفاع تدريجيًا ، ولما كنا حاليًا وراء العمارية ، فقد وجدنا أنفسنا وسط الهضبة الرئيسية ، على الرغم من أننا لم نصل بعد إلى أعلى نقطة فيها . وينفتح من أمامنا وادٍ واسع يدور على شكل نصف دائرة فى اتجاه الجنوب وفى اتجاه الغرب أيضًا بين سلسلتين مشرشرتين من الجبال يتراوح ارتفاع كل منهما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ قدم ، ومن سلسلة الجبال التى عن يميننا ، والتى توجد من خلفها ، سلسلة أخرى أعلى منها ، هى بمثابة العلامة الدالة على الحافة الداخلية للأرض المستوية التى تعلو تلك السلسلة من الجبال ١٧٠٠ من سلسلة الجبال

هذه التى عن يميننا تتفرع سلاسل جبلية منخفضة وبارزة ، متجهة نحو الوادى ، من وقت لآخر . وهنا يتجه الطريق إلى الخلف مرة أخرى ، عبر تلك السلاسل المنخفضة ، ليمر هنا أو هناك بمنحدر وعر من حين لآخر ، وذلك تحاشيًا منا للسير فى طريق قناة العاصفة الأطول من الطريق الذى نسير فيه .

وبعد أن عبرنا جزءًا أثريًا من الوادى من جهة اليمين ، والذى يطلقون عليه اسم شعب مزيرة Muzaira ، وصلنا بعد ساعة ونصف الساعة من العمارية إلى ملتقى مجارى مائية صافية تعد نواة للوادى نفسه . ومن الناحية الشمالية الغربية يجرى شعب ضبيعة Dhubai'a متجهًا إلى الوادى من الهضبة العالية ، فى حين ينساب شعب سقطة Saqta إلى الوادى من الجنوب الغربى ، وطريق هذا الشعب هو الطريق الذى سرنا فيه . هذا الشعب كانت تنساب فيه من الجانبين ثروات قادمة من أبى طى Abu Taiy ، وأبى سوس Sus ، ومن الحدّاوى Haddawi ، ومن أماكن أخرى . وهذا الشعب الذى يأخذ فى الضيق بين رافديه الصخريين البارزين يتجه إلى الأعلى نحو قلب الطويق ، على شكل قناة عواصف زلطية ضيقة تمتد من جانب إلى الجانب الآخر ، عبر وادٍ لا يزيد عرضه فى معظم الأحيان على ٣٠ ياردة . وسرعان ما بدأت تطالعنا علامات الحياة وإشاراتها ؛ فقد اندفعت أربعة من طيور الحبارى طائرة عندما اقتربنا من أحد الوديان الجانبية العامر بالأدغال والأشجار الصغيرة ، وفوق سلسلة الجبال التى تعلو أبا سوس شاهدنا قطيعًا من الأغنام وهى ترعى ، وكانت راعية ذلك القطيع واحدة من بنات الدواسر ، وكانت تقف على القمة كى تراقب تحركاتنا ، وكان ثوبها الواسع القرمزى اللون يضفى لمسة لونية على جوانب التلال سنجابية اللون . وفى أعلى الوادى الذى كان عن يميننا كان هناك بعض الأطفال الصغار الذين كانوا يعتنون بقطيع من الحملان حديثة الولادة ، ومن خلف إحدى انحناءات هذا الوادى الصغير كانت هناك ثلاث خيام سوداء من خيام القريدان Quraidan، أحد سلالات الشّمر غير المباشرة .

كانت الساعة تقترب من الثانية مساءً ، وتعالت بعض الصرخات التى راحت تطالب بوقفة للراحة ، وحدث صخب فى الصباح طالب الناس فيه بالتوقف لتناول طعام الإفطار ، وها نحن لم يمض علينا سوى ساعتين فقط منذ أن استأنفنا المسير ، والذى

تزعم ذلك الصخب هو تامي السَّلامي Aslami ، الذي يلقبونه "الجمل" أو "الباشا" ، والذي تعلل بأنه قد يموت إذا لم يقَدِّموا له الطعام في الحال . وتذمر الجميع عندما رفضت الاستسلام لطلبهم ، والذي عدَّلته بأن اقترحت عليهم توزيع الخبز على أن يأكلوه في أثناء المسير ؛ والطعام عند العرب منشط شديد للأرواح . وهنا جرى إحضار سعيد القحطاني ، ذلك الشاب صاحب الوجه الصبوح الذي كان مرشداً لنا طوال الجزء الأول من رحلتنا . قال سعيد : "والله ، يا صاحب ، ينبغي أن نخيِّم هنا لقضاء الليل ؛ ألا ترى أن هذه المنطقة فيها عشب وفيها حطب أيضًا ؟ والله ، لن يوجد عشب أو حطب إلا بعد مسير يوم كامل" . وهنا تعالى الصخب والتذمر ، وأصبح واضحًا لي أن مسألة الاستسلام في هذا الموقف يمكن أن تكون سابقة خطيرة ، واتضح لي بنفس القدر أيضًا أن سعيداً كان يكذب ، بموافقة كل من إبراهيم والآخرين ؛ وهنا رفضت الموافقة على رأيهم ، وجرى مزيد من التذمر والهمهمة . ما نوعية ذلك الرجل الذي يرفض أخذ الأمور مأخذاً سهلاً ؟ لابد أن هذا الرجل مجنون . قلت لهم : "إن شاء الله ، سيهدينا الله إلى مكان نخيم فيه يكون مليئًا بالعشب والحطب" . وبعد ذلك بساعة واحدة أعلنوا ، وهم واجمون وعابسون ، أنهم سوف يتوقفون لأداء صلاة العصر ، ورددت عليهم قائلاً : "حسن ، توقفوا وأدوا صلاتكم ، وسوف أواصل أنا المسير ببطء" . ولكن راكب الدابة غير الخبير ينبغي ألا يسافر على ظهر دابتة إلا بصحبة جماعة من الناس المسافرين أيضًا ، وهذا هو ما اكتشفت أنه كلفني الكثير . وهنا نظر ذلولي (جملي) حوله نظرة قلق ، عندما رحت أحثه على السير ، في الوقت الذي نزل فيه أفراد الجماعة عن ظهور إبلهم لأداء الصلاة . كنا في ذلك الوقت نجتاز أكثر الأجزاء ضيقًا ووعورة في المضيق كله ، وكان مسارنا يمر بحذاء حافة صخرية ، تنتشر على سطحها جلاميد الصخور ، كما توجد فيه أيضًا فجوة عمقها ستة أقدام تؤدي إلى حوض مجرى السيل ، ورحت استحث الدابة الحرون بالركاب حينًا وبالعصا حينًا آخر ، وزمجر الذلول وهو يلقي نظرة اشتياق إلى الحيوانات التي توقفت ، ثم واصل المسير ، وفي النهاية أضرب الذلول وتوقف عن المسير ، وأخذ زمام المبادرة ، واستدار وراح يجري بجنون على الحافة الصخرية الضيقة ، وأمسكت بسرج الجمل وتشبثت به تمامًا ، ورحت أشد

السُّرع واللجام ، ولم يتوقف إلا عند الخط المحدد قبلة للصلاة ؛ وهنا نزلت ورحت أنتظر الانتهاء من الصلاة . وهنا قلت لرفاقى وأنا أؤنبهم فى أثناء المسير : "ألا تعتقدون - بحكم معرفتكم أنى لست خبيراً فى ركوب الجمال أو مزاجها - أنه كان من الأفضل أن يرافقنى واحد أو اثنان منكم ، بينما تقوم بقية الجماعة بأداء الصلاة ؟ ألم يوصيكم ابن سعود برعايتى ؟" وهنا رد علىَّ سعد اليمينى : "كان يجب عليك الانتظار حتى نفرغ من أداء الصلاة " وأردف سعد اليمينى يقول : "لو أن عباس باشا نفسه هو الذى جاء وطلب منى الانسحاب من الصلاة ، لكنت قد صليت رغماً عنه فى الوقت المحدد للصلاة ." وسألت سعد قائلاً : "ومن هو عباس باشا ؟ ولم يعرف سعد الإجابة عن ذلك السؤال ، وهنا دوت بين الجميع ضحكة أعادت المرح إلى الجماعة كلِّها .

ثم وصلنا إلى شِعْبٍ صخرى ضيق منحدر ، راحت الإبل تمشى خلاله متثاقلة تماماً وبصعوبة بالغة ، وبعد أن وصلنا إلى أعالى ذلك الشِّعب دخلنا هضبة واسعة تحدها من الناحية اليسرى سلسلة جبال الحمرة Hamra التى تتجه من الشرق إلى الغرب متوازية مع الطريق الذى تسلكه وعلى الناحية اليمنى كانت الهضبة تنحدر إلى متاهة من الوديان والشقوق العميقة ، وعلى مسافة بعيدة منا كانت تمتد أراضى الطويق العالية ، طيَّة إثر طيةٍ ، وسلسلة إثر سلسلة أخرى . وهنا سرعان ما وصلنا إلى حوض مجرى مائى صغير ضحل ، ينحدر من سلسلة جبال الحمرة إلى شلال حاد ينحدر الماء منه فوق بلاطات من الصخور الجيرية ، ليصل إلى وادى شِعب مُخلب Mukhlab العميق ، وفى هذا المكان من مجرى ذلك الوادى الرملى تتناثر أدغال أشجار السنط ويكسوه بساط من الأعشاب الصحراوية الخضراء . كانت الساعة تقترب من الرابعة ، وهنا قلت متسائلاً : "ما كل هذا الذى أراه ؟ مبلغ ظنى أن المكان عامر بالعشب والحطب ". ورد الجميع بلا خجل : "حقًا ، حقًا" . وهنا توقفنا طلباً للراحة .

وبينما راحت الجماعة تنصب الخيام سرت مع سعد إلى قمة جرف الحمرة العالى ، وكان سعد قد أحضر معه بندقيته أملاً فى العثور على وعل من الوعول ، ولكننا لم نر شيئًا منها ، وهنا أخرجت غليونى ورحت أطيل النظر إلى ذلك المشهد وأراقبه تماماً ، وسألت سعداً : "لماذا لا تدخن ؟" ورد على قائلاً : "إن إبراهيم يحمل الغليون معه ،

ولكني سوف آخذ نفثة من غليونك بعد أن تنتهي أنت من التدخين ". وهنا أعطيت سعداً الغليون . وعلى بعد مسافة كبيرة ناحية الغرب كنت أشاهد وميضًا ذهبيًا ينبعث من الرمال الواقعة خلف الطُّوَيِّق ، الذى كانت حافته الخارجية تنعكس انعكاسًا خافتًا على تلك الرمال ، وفى ناحية الشمال أشار سعد إلى أماكن كل من الحيسية Haisiyya وسدوس . كانت السحب التى تنذر بالعواصف تزداد كثافتها وعتامتها فوق السلاسل الجبلية البعيدة ، يضاف إلى ذلك أن ومضات البرق كانت تنذر بمقدم عاصفة عاتية ، وغربت الشمس فى وميض العظمة ، فى حين نزلنا نحن عائدين إلى المخيم . والهضبة التى تعرف باسم الضهارة Dhahara تقع على ارتفاع حوالى ثلاثة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر ، وأعلى نقاط سلسلة جبال الحمرة لابد أن يكون ارتفاعها ٢٠٠ قدم .

ومع بداية المساء تساقطت قطرات قليلة من المطر ، ومع تقدم الليل تزايدت شدة الرياح ، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً سجل مقياس الحرارة ٦٠,٨° فهرنهيتية ، وتلبدت السماء بالغيوم ، وسمعنا عواء الريح على الهضبة المكشوفة ، وكانت تتساقط بين الحين والآخر قطرات المطر على الخيمة : كنا قد أمضينا يومًا طويلاً ، قطعنا خلاله ما يقرب من ثلاثين ميلاً فوق أرض وعرة يصعب التحرك عليها . وكان إبراهيم وسعد وتامى Tami قد اجتمعوا فى خيمتى ؛ فقد بدأنا نتعرف على بعضنا البعض ؛ صحيح أننا اختلفنا فى أثناء النهار ، ولكن العربى لا يصر على تذكر الأحداث المؤسفة ولا يختزنها ، يضاف إلى ذلك أنهم تفهموا عن طيب خاطر ، أو أعربوا عن تفهمهم لاهتمامى بعدم تبديد الوقت سدى بقدر المستطاع حتى يتسنى لنا الوصول بأسرع وقت ممكن إلى الطائف . وراح تامى Tami يحكى لنا عن مغامراته العاطفية ، وعن غزواته، الحقيقية والخيالية ، والماضية والمستقبلية ؛ وتامى فى مطلع حياته ، كان بدويًا ، يعيش على فطنته ، مثلما يعيش البدو ، إذ كان يغزو ويسرق كى يحصل لنفسه ولأسرته على الطعام ، وعلى مَر الأيام كان قد تزوج سبع زوجات أو ثمانٍ وكان قد أنجب أطفالاً كثيرين ، راح عدد كبير منهم ضحية لمرض الجدرى ، تلك الآفة التى تصيب حياة الأطفال فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، ولم يتبق له من كل أولئك الأبناء سوى اثنين فقط ، وهما بنتان ، تزوجت إحداهما وهى أم لحفيده الحالى ، أما الابنة

الثانية فهى لا تزال طفلة فى العام الخامس من عمرها ، وقد استقر به المقام أخيراً فى بريدة مع زوجة لم يسأم مطلقًا الكلام عن جمالها أو فضيلتها . وتامى رجل فى منتصف العمر ، والشيب قليل بينٍ خصل شعره المجدول ، وفى لحيته المشذَّبة ، وهو غندور ، وهو أيضًا شاعر جيد ، ومغن أيضًا ذائع الصيت بين العرب المحبين للأغانى غير متآلفة الألحان والنغم . وفى الأيام الخوالى كان تامى من بين رعايا ابن الرشيد ، ولكنه أصبح منذ سنوات كثيرة من بين العاملين فى خدمة ابن سعود(٩) الذى أدرك فطنته وسرعة بديهته ، ومعرفته بالعالم ، وخلوه من الهوى والغرض ، فقرر الاستفادة منه مؤخراً فى حمل الرسائل إلى السلطات البريطانية فى كل من الكويت والعراق ، وأن يقوم بمرافقة الضباط البريطانيين الذين يزورون نجد . وكان تامى قبل بدء الحرب قد رافق النقيب و . هـ . س. شكسبير خلال جزء من رحلته التى قام بها عبر الجزيرة العربية فى عام ١٩١٤ الميلادى (١٠) ، وبعد ذلك كان تامى أيضًا من بين من رافقوا السيد رولاند ستورز Storrs فى رحلته التى تحدد لها عام ١٩١٧ الميلادى ، ثم كان بعد ذلك مرافقًا أيضًا للعقيد هاميلتون فى المنطقة من القصيم إلى الرياض .

جاء صباح اليوم التالى بارداً وملبداً بالغيوم ، وسجل مقياس الحرارة عند الساعة السادسة صباحا ٥١,٨ْ فهرنتية . وواصلنا المسير عبر الهضبة ، وكانت تطالعنا بين الحين والآخر ، ومضات الرمال على مرمى البصر ، كما طالعتنا أيضًا أكثر أراضى جرف الطويق ارتفاعًا ، وبخاصة من ناحية سلسلة جبل عالية Alaiya فى الناحية الجنوبية ، وخاصة أن ذلك الجبل يبدو أعلى بكثير من أى جزء آخر من أجزاء تلك السلسلة الجبلية . وبعد أن سرنا حوالى ميلين وصلنا إلى أعالى منخفض سقطة وحافة الجرف شديد الانحدار وعن اليمين وعن الشمال كانت هناك سلسلة طويلة من الصخور غير المنتظمة ، تواجه الجانب الغربى وترتفع على شكل جرف حادٍ يبدأ من السهل الموجود فى الأسفل ويصل إلى حافة الهضبة التى نقف فوقها الآن على ارتفاع يتردد بين ٦٠٠ و٨٠٠ قدم فوق مستوى ذلك الجرف ، وتبرز من ذلك الخط امتدادات أرضية ، بين الحين والآخر ، تمتد ناحية السهل ، وقد تداخلت مع بعضها

البعض ناحية الغرب على شكل بحر واسع من الرمال . وها نحن ومن أمامنا مضيق سقطة الذى يوجد ممر ضيق ووعر بين صخوره الشامخة وجلاميده الصخرية التى انخلعت من الجبال ، ويتجه ذلك الممر الضيق الوعر منحدراً انحداراً شديداً إلى السهل الموجود أسفله ملتوياً من حافة إلى أخرى . وهنا نزلنا عن ظهور الإبل لتبدأ عملية النزول ومعنا الإبل . هذا المضيق ، الذى يضيق عند مدخله ، بدأ يتسع تدريجياً ، وهنا كنا نشاهد الجرف المنحدر يزداد ارتفاعاً من فوقنا كلما ابتعدنا عنه ، وكنا نرى هنا وهناك جرفاً من الجلاميد والصخور الرسوبية وهى تمتد معلقة فوق ذلك الممر الضيق ، وعندما وصلنا منتصف الطريق شاهدنا مسلة مستدقة من الصخر وقد برزت من الصخرة التى عن شمالنا .

وأخيراً وصلنا سفح الجبل ، وعندما نظرنا إلى الوراء رأينا ما يشبه القلعة ذات الأبراج الناتئة ، شبه دائرة الصخور شديدة الصلابة بها ثلاثة عشر برجاً ناتئاً مستدير الشكل ، تمتد كلها من واجهة تلك القلعة . وهنا يبدأ جرف الطويق اعتباراً من نهايتى طرفى شبه الدائرة ، وهنا لم نعد نرى أى أثر لذلك الطريق الذى سلكناه ونزلنا منه ؛ هذا الحاجز يبدو غير منتظم ويصعب اختراقه . وعن يسارنا ونحن نواجه السهل ، نرى امتداداً أرضياً مجهول الاسم ، وفى الناحية الجنوبية كانت توجد سلسلة جبال الصقورية Suquriyya ، ومن خلف سلسلة جبال الصقورية شاهدنا ساحل عالية ، ومن الناحية اليمنى ينحرف هذا الجرف متجهاً صوب الشمال ليختفى عن أبصارنا . وأمام الصقورية توجد سلسلتان منخفضتين من الجبال تطوقان قريتى المغرافية -Magh rafiyya والمزاحمية Muzahimiyya المختفيتين على الطريق المؤدى من الرياض إلى الغطغط Ghatghat ، والذى يعبر سلسلة جبال الطويق عن طريق ممر أبا الجد Abaljidd. ومستوطنة الغطغط ، وهى إحدى مدن الإخوان الجديدة ، بنيت على موقع عاصمة مملكة اليمامة القديمة . والغطغط تقع على بعد عدة أميال غربى المزاحمية على حافة صحراء نفود جاو Nafud Jau . وفى المسافة بيننا وبين السلسلتين الجبليتين المنخفضتين شاهدنا أطلال قرية البليدة القديمة .

٣- عبور الطويق

كان جبل طويق من خلفنا ، كما كانت قريتا المغرافية والمزاحمية بعيدتان على نحو لا يسمح لنا بزيارتهما ، وعلى أى حال كان من الأفضل أن لا نزور مدينة الغطغط التى كانت بمثابة عش الزنابير فى تلك المنطقة . أما المزاحمية - موطن سعيد القحطانى - فكانت أفضل قليلاً من جارتها ، وعلى زعم كونها واحدة من القرى القديمة ، فإن القسم الاكبر من سكانها من أتباع المذهب الجديد ، الذى يعد سعيد واحداً من أتباعه أيضاً ؛ ففى السنوات الماضية ، حاول سعيد القحطانى أن يكسب عيشة من شواطئ اللؤلؤ فى الخليج الفارسى ، ومن تلك الشواطئ ذهب إلى شواطئ جزيرة سيلان سعيًا وراء تحقيق الهدف نفسه ، ووصل به التجوال إلى زنزبار ، وطوال فترة التجوال هذه تعلم سعيد القحطانى التسامح ، وجلب معه ذلك التسامح إلى مذهبه الجديد . وسكان القرى الداخلة ضمن منطقة العارض Aridh معظمهم من القحطانيين والعتيبية Ataiba ، وخليط من السبيع Subaa والسهول Suhul والدواسر ؛ ويتردد هنا أن سكان الغطغط يصل تعدادهم إلى عدد سكان الرياض ، ونحن نعتقد أن الرقم ثمانية آلاف لن يقل عن العدد الحقيقى لأولئك السكان . فى حين يقدر عدد سكان المغرافية والمزاحمية بحوالى ٥٠٠ نسمة لكل منهما .

والسهل ينحدر من سطح جبل طويق إلى وادى ضرمة Dhruma ، ويطلق عليه فى أغلب الأحيان اسم البوتين Butin ، والقسم الأول من هذا السهل مكوَّن من أشجار قصيرة وكثيفة ، ويطلقون عليه هنا اسم الروضة Raudha ، وعلى الجانب الأيمن يمتد جرف الطويق الذى يرى فى بعض أجزائه من خلال أحجار الدبش المتهدمة ، والتى تبرز واحدة منها بشكل واضح على شكل هرم مرتفع متوَّج بمسلة حجرية غريبة الشكل ، يسمونها الخُنصر Al Khunsar ، أو إن شئت فقل : "الإصبع" ، على الرغم مما يقوله البعض - الذين يدعون معرفة هذه البلاد ، والذين يدعم تامى رأيهم بخبرته التشريحية - إن الاسم الحقيقى لتلك المسلة هو زُب الحموض Zubb al Hamudh(١١). وإن الاسم الأخر (الخنصر) هو اسم مسمى بارز أخر فى المنطقة المجاورة ، مما يؤكد صحة

ذلك القول ، أما مسألة إن كان هذا الاسم أو ذاك هو الصحيح فهذا ما لا أستطيع أن أقطع به . وعلى كل حال فأنا أفضل الاسم المؤدب على الاسم القبيح .

ووصلنا بعد ذلك إلى منحدر صاعد لطيف تنتشر فيه كتل الأحجار الرملية ، ويسمونه حزم الصفيرية Hazm Sufairia ، ومن هذه المنطقة يمكن رؤية منحدرات الطويق الشاهقة بكل عظمتها على مرمى البصر من ناحية الشمال ومن ناحية الجنوب أيضًا . وعندما وصلنا إلى نهاية ذلك المنحدر الصاعد دخلنا منحدرًا قصيرًا آخر أوصلنا إلى البوطين Butin ، ذلك الوادى الرملى الذى يصل عرضه إلى حوالى ميلين ، وتحيط به من ناحية الغرب ثلاث سلاسل جبلية تمتد ناحية الشمال والجنوب على شكل خط متصل : أبو طلح Abu Talh فى أقصى الجنوب ، والمشامرة Al Mushamra فى الوسط ، ثم البرقة Al Barqa فى الشمال ، وإلى الشرق من البرقة توجد - عن بعد - بيارة نخيل ضرمة Dhruma شديدة الاخضرار ، ومن خلف تلك السلاسل الجبلية يوجد السد الرملى المتمثل فى نفود جاو Jau ، ومن خلف ذلك الحاجز الرملى توجد صخرة كبيرة من صخور البازلت يطلقون عليها اسم المعانيج Ma'anij . وفى الوادى الموجود عن يسارنا توجد مجموعة مبعثرة من البيوت الريفية الكبيرة ، ومجموعات صغيرة من المنازل المحصنة ، المقامة وسط غيطان القمح ، التى يجلبون لها مياه الرى من أبيار توجد داخل البيوت الريفية الكبيرة . وفى المجمل ، كانت هناك اثنتا عشرة مجموعة تنتشر على مساحة كبيرة ، وأهم تلك المجموعات هى الرِّقَّاى Riqai والصافاى Safai ، والجفران ، وأم الخُشيف ثم زنيقة Zunaiqa التى تقع بالقرب من سفح سلسلة جبال المشامرة ، أو إن شئت فقل أمام ريع Ria (أو الممر المنخفض) ، الذى يمر عليه الطريق المباشر المؤدى إلى المعانيج . ومع ذلك ، كنا نتشوق إلى زيارة ضرمة التى علمت - فيما بعد - أن سعدًا كان يغازل إحدى بناتها ، وهى التى تزوج منها فى النهاية . وهنا توجهت الحيوانات الحاملة للأمتعة ، إلى الطريق المباشر ومعها تعليمات بالانتظار فى المعانيج ، بينما توجهنا نحن إلى أعالى الوادى لزيارة ضرمة ، التى كانت تقف من خلفها شامخة كتلة من تلال القريدان على الحدود بين العارض والمحمل . وهنا بدأ

الطريق الرملى ينتهى إلى طريق مكوّن من اللّهم(*) ، ولم ينته إلا بعد أن وصلنا حزام نخيل ضرمة ، أو بالأحرى بعد أن تجاوزنا البيت الريفى الكبير المنعزل ، الذى يسمونه قصر شعلان القريب من سلسلة جبال برقة Barqa .

تتكون ضرمة من حزامين كثيفين من النخيل تقدر المسافة فيما بينهما بحوالى ربع ميل تقريباً ويقعان ناحية الشرق وناحية الغرب عبر الوادى ويصل طول كل حزام منهما إلى حوالى نصف ميل وعرضه نصف ميل أيضًا . وتنتشر بين النخيل مبانى الحدائق الشبيهة بالقلاع ، ولكن قرية ضرمة نفسها مربعة الشكل ويحيط بها سور به أبراج عند أركانه ، وبين الحين والآخر وعلى طول كل من السورين توجد فتحة من فتحات الحزام الشمالى ؛ ويصل طول كل سور من السورين إلى حوالى ٢٠٠ ياردة ، وعلى مرمى البصر لا أرى سوى بوابة واحدة عند الطرف الشمالى الغربى . والأرض الموجودة فيما بين حزامى النخيل فضلاً عن مساحة كبيرة أخرى من حولهما مخصصة لزراعة القمح ، وكل هذه الأرض تُروى من آبار داخل الحدائق ، التى هى أيضًا محاطة بالأسوار . وعندما وصلنا إلى حزام النخيل الخارجى ، تقدم إلينا رجل من سكان القرية التى لم نعتزم دخولها ، وشدد فى دعوته لنا لمشاركته تناول بعض المنعشات فى منزله . وكنا فى واقع الأمر ، قد توقفنا ، قبل وصولنا إلى هذا المكان ، وقفة قصيرة جرحنا خلالها صيامنا ، ولكنى استسلمت تماماً لإصرار ذلك الرجل ، نظراً لأن متاعنا كان قد سبقنا إلى قرية معانيج ، وبالتالى فليس هناك خوف من الإلحاح والضغط علينا لقضاء الليل .

وسبقنا عبد الله النفيسى مضيفنا سيراً على قدميه إلى الطريق المؤدى خلال حزام النخيل الأول ، ثم عبر الفضاء الذى يليه ، ثم أدخلنا من خلال بوابة القرية لنصل بعد ذلك إلى منزله ، حيث رحنا نرتب أنفسنا داخل غرفة بيضاوية الشكل شديدة الاتساخ ، كى يجلس من حول وجار القهوة على حصير متواضع . وبدأ مضيفنا عملية تحميص البن المملة ، ثم طحنه بعد ذلك ، ليسكب المسحوق فى دلّة القهوة ، ليصب

(*) اللَّهَمُ : بتشديد اللام وفتح الهاء هو "التربة المكونة من غرين ورمل وصلصال" . (المترجم)

القهوة من تلك الدلّة فى دلّة أخرى أصغر ، ويكرر العملية نفسها إلى أن يصبح المشروب جاهزًا . وصب المضيف القهوة ، وتلاها ظهور طبق كبير من التمر الممتاز ، وضعوا فى منتصفه سلطانية مملوءة بالإقط Iqt ، أو إن شئت فقل السَّمن Saman : وبدأنا نأكل ، وراح كل رجل من الرجال يتناول التمر ليغمسه فى السمن ثم يضعه بعد ذلك فى فمه ، على أن يقوم بإلقاء النوى على الحصير . أما أنا فقد فضلت أكل التمر بدون إقط ، بعد أن جربت التمر مغموسًا فى السمن . وراح عنا الجوع ، ثم رفع عبد الله النفيسى الصينية وجلس يعد لنا بديلاً عن الشاى ، أحد التوابل ، الذى يسمونه زنجبيل Zinjabil ، وهو عبارة عن خليط من الماء الحار المحلى بالزنجبيل - وهو عبارة عن مُسَهِّل - وانتهت القهوة بتمرير الطيب . وأدرك رفاقى ونحن جالسون فى المنزل دخول وقت الصلاة ، ولذلك همُّوا ناهضين من أماكنهم ، وفردوا بشوتهم على الأرض وراحوا يؤدون الصلاة ، فى حين بقى معى عبد الله النفيسى ومعه قروى أو قرويان (من الذين جاءوا للسلام على الزوار) ورحت أنا أواصل الحديث . وفى أثناء إقامة الصلاة لا تكون هناك احتفالات من أى نوع كان، ولا يليق الحديث أو الضحك عندما يؤدى الآخرون الصلاة . كان هذان القرويان قد أديا صلاة الظهر فى المسجد ، ولكن الوقت الآن كان بعد الظهر بحوالى ساعة ، ولم يكن وقت العصر قد حان بعد . والمسافر يتمتع برخصة التخفيف ، بأن يجمع الصلوات الخمس فى ثلاث فقط ، هى صلاة الفجر مستقلة ، وصلاة بين العصرين التى تجمع الظهر مع العصر وتصلى فى أى وقت بعد دخول وقت الأولى وقبل نهاية وقت الثانية ، ثم صلاة المغرب التى تُؤدى عند غروب الشمس ، وتجمع بين صلاتى المغرب والعشاء . وكل صلاة من الصلوات يجرى الدخول فيها بكل تفاصيلها ، وفى حالة الصلاة المزدوجة (الجمع) فإن طريقة صلاة الظهر والمغرب تجرى كما هو محدد لها(*)، ثم تختتم بالتسليم "السلام عليكم ورحمة الله" . وقبل البدء فى صلاة العصر والعشاء يسبقها الأذان "الثانى" ، الذى لا يجرى بواسطة المؤذن وإنما بواسطة الإمام ، وعندما يدخل وقت صلاة العصر ويكون المسافرون

(*) يجوز للمسافر الجمع بين صلاتىْ الظهر والعصر ، وصلاتى المغرب والعشاء ، ويكون الجمع مع الصلاة الأولى منهما أو مع الثانية . وتصلى المغرب ثلاث ركعات ، بينما يجوز قصر صلوات الظهر والعصر والعشاء إلى ركعتين بدلا من أربع لكل منها . (التحرير)

سائرين يقوم واحد منهم فيؤذن للصلاة ، والأذان هنا يختلف عن الأذان التقليدى ، وذلك بأن يضيف إليه المؤذن عبارة "لا إله إلا الله" مكررة مرتين فى نهايته(*) . وبعد أن يؤذن للصلاة ، يجرى انتقاء مكان مناسب لإقامة الصلاة ، ويجرى تبريك الجمال ، وبعد أن يتأكد الإمام من القبلة ، يرسم خطًا على الأرض بحيث يشير إلى اتجاه الكعبة ؛ ويتخذ الإمام لنفسه موضعًا خلف ذلك الخط ، ويصطف المأمومون من خلفه وهو يقيم الصلاة . والإقامة تختلف عن الأذان بإضافة العبارة أو الصيغة "قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة" للدلالة على أن المصلين قد دخلوا فى الصلاة فعلاً .

ولما كان عبد الله من مواطنى إحدى القرى التى اشتهرت بالروح القتالية ، فهو ينحدر من القلة القليلة المحسودة ، الذين "بيضت" شجاعتهم فى الميدان "وجوههم" ، إذ كان عبد الله أول رجل يعتلى أسوار الكوت (القلعة) فى أثناء الهجوم على الهفوف . والشجاعة العسكرية تجرى مكافأتها فى نجد عن طريق الإعلان عنها إلى الملأ بإعلان اسم البطل ؛ وفى تلك المناسبة أعلن ما يلى فى معسكر ابن سعود : "تم الاستيلاء على الكوت ، وكان عبد الله النفيسى أول رجل يعتلى أسوار القلعة الدفاعية ، بيَّض الله وجهه (فى الجنة)" . وإنقاذ الجريح من وابل النيران ، كما هو الحال عندنا ، يعد أيضًا من أعمال البطولة الجديرة "بالتبييض" . وأهل قرى العارض ، فى كل أنحاء الأراضى الوهابية ، هم دائمًا فى طليعة المقاتلين ؛ إذ لا مثيل لهم فى هذا المجال .

وعدد سكان ضرمة ، بما فى ذلك البيوت الريفية الكبيرة المنعزلة ، والتى لا يسكنها الناس إلا فى فصلى الشتاء والربيع عند بذر البذور وحصاد القمح والشعير ، لا يزيد بأى حال من الأحوال عن ٦٠٠٠ نسمة ، على الرغم من التباهى المحلى بأن الفرقة العسكرية الجاهزة فى ضرمة تقدر بحوالى ٢٠٠٠ رجل . والعنصر السائد بين سكان ضرمة هم من العنزة ، الذين ينتمى إليهم عبد الله ، أما بقية السكان فهم من بنى تميم ، ومن الدواسر ، والسبيع ، وقحطان ، وربما من عناصر أخرى أيضًا . وقرية ضرمة تقع على ارتفاع حوالى ٢٢٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر أو على ارتفاع يزيد بمقدار ٣٠٠ قدم على ارتفاع الرياض .

(*) لم يُعرف تكرار عبارة "لا إله إلا الله" فى نهاية الأذان . (التحرير)

والبـوتن Butin يصـرف ميـاهه فى اتجـاه الجنوب فـى شـعب أوسـاط Ausat[١٢] وشعب آل ها Al Ha ، وكلاهما يخترق سلسلة جبال الطويق من الغرب إلى الشرق ثم يصبّان فى وادى حنيفة عند الحائر Hair ، التى تمثل الطرف الجنوبى لمنطقة العارض ؛ ومنبع البوتن يقع فى منطقة المحمل ، التى تصب عندها بعض المجارى المائية القادمة من الطويق مياهها فى المصرف العام .

وبعد أن أمضينا ساعة فى القرية استأذنا من مضيفنا ، الذى لم يرفض أو يحتقر هدية مقدارها خمسة عشر ريالاً قدمناها له ، ثم وجهنا مسيرنا بعد ذلك شطر الجنوب الغربى فى اتجاه الرمال . وبعد ميل ونصف الميل وصلنا ريع البرقة Ri' al Barqa ، الذى هو غور فى سلسلة جبال برقة ، ومن خلف ذلك الغور دخلنا منخفضاً آخر هو منخفض جاو السيبانى al Saibani الذى بدأ سطحه رملياً فى البداية ثم تحول بعد ذلك إلى لهم تعلوه قشرة من الملح . وعدنا مرة أخرى إلى السير فى طريق الحج فى المسافة ما بين وسط نجد ومكة ، والذى يتجه جنوباً إلى ضرمة بعد أن يتجاوز حاجز الطويق عند ممر الحيسية . وعلى مسافة أربعة أميال من ضرمة تجاوزنا أبيار جاو السيبانى al Saibani الأربعة ودخلنا رمال نفود جاو . وبعد أن تخطينا منحدراً هيِّناً أصبحنا وجهاً لوجه أمام موجة الرمال الأولى ، ثم رحنا بعد ذلك نتجاوز الموجة بعد الأخرى إلى أن وصلنا قمة النفود ، التى ألقينا منها نظرة طيبة على الوادى من ورائنا وعلى حاجز الطويق الصخرى الطويل ، وعن بعد شاهدنا ناحية اليسار نخيل المزاحمية ومن خلفنا نخيل ضرمة ، وكان يوجد من أمامنا بحر لا نهاية له من الرمال لا يقطعه سوى كتلة معانيج داكنة اللون ، وهى ترتفع من وسط منخفض ضيق يكاد يكون تحت أقدامنا . ورغم أن مَنزَلَ الوادى كان أقصر من مطلعه ، فإنه كان أكثر انحداراً ، ورحت أنا بدورى أتعجب كيف تستطيع الإبل السير فوق ذلك المنْزَلَ . وعلى كل حال ، فقد كنت أزداد خبرة فيما يتعلق بركوب الإبل ، وكنت أتصرف وفقاً لما يقول به المرافقون لى ، إذ طلبوا منى أن أترك العنان لجملى حتى ينزل عنقه عند كل منحدر ، ثم أسحب عنقها إلى الأعلى عند قاع كل منخفض ، استعداداً للانحدار التالى . وواصلنا ذلك النوع من المسير ، مرة على شكل تقدم فى خط مستقيم ، ومرة أخرى نخوض فى كتل من الرمل ، ومرة ثالثة يدفع الجمل عنقه ليلتقط قطعة من العشب الذى ينمو فى الأجزاء الأكثر انخفاضاً ،

ويصل الجمل فى النهاية إلى القاع وأنزل من عليه وأتنهد غوثًا وارتياحًا . استغرق منا طلوع المطلع من الطرف الشرقى للرمال إلى أن وصلنا القمة خمسين دقيقة ، ولكن المنزل إلى معانيج لم يستغرق منا سوى خمس عشرة دقيقة فقط . ومعانيج تقع على ارتفاع ٢٢٥٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر ، ويصل ارتفاع قمة معانيج إلى حوالى ١٠٠ قدم ، فى حين تعلوها قمة النفود بحوالى ٢٠٠ قدم تقريبًا . وعرض النفود لا يزيد على ثلاثة أميال ، أما فيما يتعلق بالوعورة والانحدار فالنفود تفوق بدرجة كبيرة كل الأشياء التى رأيتها من هذا القبيل ، ويصل طول النفود من الشمال للجنوب إلى حوالى خمسة عشر ميلاً أو أكثر.

كانت السحب التى انقشعت فى أثناء النهار قد بدأت تتكاثر من جديد عقب تحركنا من ضرمة ، وأسفر ذلك عن سقوط قطرات قليلة من المطر بعد أن وصلنا المخيم ، وجاء الليل باردًا وشديد الرياح ، إذ كانت درجة الحرارة ٥٢,٧ْ فهرنهيتية عند الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً . وفى صباح اليوم التالى كان الجو مكفهرًا ؛ فقد سجل مقياس الحرارة ٤٩,١ْ فهرنهيتية عند الساعة السادسة صباحًا ، وكانت السماء ملبدة بغيوم من السحب الركامية الكثيبة ، فضلاً عن أن قطرات الضباب كانت تبعث فينا القشعريرة والإحساس بالبرد عندما بدأنا تحركنا عند الساعة السابعة صباحًا .

وبعد أن عبرنا منخفض المعانيج دخلنا نفود القنيفدة Qunaifida ، التى هى عبارة عن امتداد لبحر الرمال العظيم الذى يسير بحذاء الحد الغربى للوشم . ويصل عرض النفود فى هذه المنطقة إلى حوالى عشرة أميال من الشرق إلى الغرب ، والرمال هنا متموجة تموجًا لطيفًا يتجه نحو الأسفل ، وهى رمال صافية وخالية من السلاسل الجبلية العالية ومن الموجات الرملية ، ولا تشكل عقبة خطيرة فى وجه المسافرين . ونفود القنيفذة تمتد جنوبيًا إلى كتل الجرانيت أو البازلت فى كل من البخارة Al Bukhara وخشم الضيبى Khashm al Dhibi ، اللذين شاهدناهما فى أثناء النهار على بعد مسافة تقدر بحوالى عشرة أميال ، واللذين ينبع منهما شعب نساح Nisah ، الذى يعد واحدًا من مصارف المستوى العالى ، التى تخترق حاجز الطويق فى طريقها إلى الصَّحابة Sahaba . وبعد أن قطعنا أربعة أميال تقريبًا عبرنا منخفضًا واسعًا رأينا فيه عن يميننا ربوة الضويبان Dhuwaiban الجرانيتية . وبعد أن تجاوزنا تلك الربوة ، دخلنا من جديد إلى

منخفض الرمال المتموِّجة ، وواصلنا مسيرنا فى طريق غير واضح المعالم ، فى الوقت الذى بدأ المطر يسقط فيه على شكل رذاذ ليتحول بعد ذلك إلى سيل متواصل . وواصلنا المسير ، وازداد حالنا بؤسًا على بؤس مع كل خطوة كنا نخطوها ، إلى أن تشبعت ملابسنا وأمتعتنا بماء المطر ، لنصل بعد ذلك إلى الجانب الشرقى من النفود بعد الساعة الحادية عشرة صباحًا ، وهنا قررنا أن نضرب خيامنا طلبًا لقسط من الراحة . واخترنا للتخييم منخفضًا ضحلاً وسط الرمال ، وتركنا الإبل ترعى ، وجمع الرجال الحطب ونصبوا الخيام ، وتقدمنا لتجفيف أنفسنا قدر المستطاع ، وأمضيت بقيه النهار فى الراحة داخل خيمتى التى كانت ملجأً ومستكنًا لى أنا شخصيًا ، فى الوقت الذى كان المطر يتساقط طواله خارج الخيمة بلا انقطاع .

ثم انخفضت درجة الحرارة بعد الظهر مباشرة لتصل إلى ٥٤,٥° فهرنهيتية وذلك قبل الساعة الثامنة مساءً ، ثم انخفضت بعد ذلك إلى ٤٢,٨° ، ثم ارتفعت بعد ذلك لتصل إلى ٤٦,٤° عند الساعة الخامسة مساءً ، لتنخفض مرة ثانيه إلى ٤٢,٨° عند الساعة ٦,٤٥ مساءً . كان ذلك اليوم أبرد الأيام التى أمضيتها طوال تجوالى فى الجزيرة العربية ، ولا أعرف إن كان ذلك ناتجًا عن البرد أو الطعام غير المناسب الذى كنت أتحاشاه تمامًا بقدر المستطاع ، ولهذا دخلت للنوم مبكرا بعد شىء من النفاق المؤسف الذى أظهرته عند تناول العشاء ، وتناولت جرعة كبيرة من البراندى . كنت قد قررت قبل مغادرة الرياض أن أشارك المرافقين لى فى كل شىء ، وكنت قد تركت كل شىء ورائى قبل دخولى للنوم فيما عدا قارورة البراندى ، وقارورة من عصير الليمون ، وقارورة من أقراص الكينين ، بالإضافة إلى التبغ بطبيعة الحال ، تركت كل هذه القوارير ، باستثناء قارورة عصير الليمون وقارورة أقراص الكينين لتستعملا دواء فى آخر المطاف . وعندما وصلت إلى الساحل لم تكن قارورة عصير الليمون قد فتحت بعد ، أما زجاجة البراندى فلم ينقص منها سوى جرعة واحدة ، وكذلك قارورة الكينين لم ينقص منها شىء ، أما التبغ فقد نقص حجمه بشكل كبير ، ولم يكن ذلك كله من فعلى بطبيعة الحال .

كان المطر غزيراً بحق عندما دخلت للنوم ، واستمر المطر طوال الليل ، وعند الساعة السادسة صباحاً كانت الأمطار لا تزال تتساقط ، بعد أن أيقظونى بعد صلاة الفجر، وكانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ٤١,٩ْ ، وكانت تلك أدنى درجة حرارة سجلتها فى الجزيرة العربية . وهنا وجدتنى أقاوم رغبة شديدة تشدنى إلى البقاء فى الفراش ، ثم صفا الجو عند الساعة السابعة والنصف صباحاً ، ووجدتنى ألم أطراف شجاعتى لمقاومة التوسل بالمزيد من التأخير ، وهنا صممت على استئناف المسير . وقد فعلت ذلك ، على حق ، نظراً لأن المطر بدأ ينزل من جديد بعد ربع ساعة من استئناف المسير ، ولو جاء المطر ونحن لا نزال فى المخيم لما كنا قد تحركنا فى ذلك اليوم .

وبعد عشر دقائق من بداية مسيرنا تجاوزنا نفود القنيفدة ، ودخلنا سهل مروطة Maruta الواسع ، الذى يطلق عليه أحياناً اسم الجلّه Al Jilla ، ومشينا عبر ذلك السهل – فى مطلع منتظم ولكنه هين – مسافة عشرين ميلاً . كانت تربة ذلك السهل ، فى معظمها ، تربة رملية يتخللها الزلط الأسود من حين لآخر ، فضلاً عن سلسلة منخفضة من الصخور السوداء . وعلى ذلك ، بدأت تلك التربة فى الارتقاع التدريجى ناحية الغرب إلى أن وصلت إلى أعلى نقطة لها والتى تعرف باسم السديرة Sudaira، التى كان يوجد من خلفها منزل بسيط يؤدى إلى حافة نفود دلقان Dalqan . كانت الأمطار قد تركت آثارها على السهل ، الذى تحول فيه كل منخفض – سواء أكان صغيراً أم كبيراً – إلى بركة ماء ، ومن تلك البرك ملأنا قرب الماء ، نظراً لأن ماء المطر أفضل بكثير من ماء الآبار ، لأنها آتية من السماء ، ولأن مياه الآبار فى تلك الأجزاء من البلاد لها طعم مالح أو نكهة معدنية ، على الرغم من الاعتراف بعذوبتها .

وطريق الحج عبر ذلك السهل يتصل بلمس الماء عند أبيار طبراق Tubraq ، على بعد ثلاثة أميال من حافته الشرقية ، إذ توجد فى تلك المنطقة ثلاثة أبيار يستعمل الناس ماءها بصورة منتظمة . وماء تلك الأبيار يوجد على عمق لا يزيد على عشرين قدماً ، فى الوقت الذى جرى فيه حفر كثير من الآبار الأخرى ثم التخلى عنها . كما يلمس طريق الحج الماء مرة أخرى عند أبيار سديرة على بعد سته أميال تقريباً ، والتى

تجاوزناها فى مكان ما على الناحية اليمنى . كما يلمس طريق الحج الماء ، مرة ثالثة ، بعد عدة أميال ، عند مسقى دلقان Dalqan الذى تقع أبيار الأنجال Al Anjal عن شماله .

وقبل الساعة الحادية عشرة تقريبًا ، توقف المطر الذى ظل ينهمر علينا طوال ثلاثة ساعات بلا انقطاع ، وتوقفنا طلبًا للراحة فى مكان كبير يقال له أدغال الحمض Hamdh ، والذى جمعنا منه حطبًا ممتازًا لشب النار . وفى تلك الوقفة جرحنا صيامنا وجففنا ملابسنا ، وراح العرب يشكون مر الشكوى من البرد ، قائلين : إن ذلك يتعارض تمامًا مع الأعراف العربية الخاصة بالسير فى مثل هذه الظروف المخيفة . وأنا نفسى لم أكن أقل منهم يأسًا ، ولكنى شجعتهم قائلاً لهم : إن نصف الأيام فى بلدى تكون على هذه الشاكلة التى نحن عليها هنا .

كانت الحياة الحيوانية واضحة تمامًا أكثر من ذى قبل ؛ فقد شاهدنا الغزال يفر هاربًا عندما اقتربنا منه ، وها هو الحمام يندفع مرفرفًا من أعماق آبار طبرق التى أوى إليها ليحتمى بها من العاصفة ، وتلك هى طيور الماء وصوت فرارها يدوى من حول برك المياه ، وشاهدنا الغربان وهى تقفز متنقلة فى أنحاء السهل . وبين الحين والآخر كنا نمر على مجموعات من الأكواخ الصغيرة السوداء من الرعاة القحطانيين ، فهذا قطيع من الأغنام والماعز ، وذاك قطيع من النياق العشار ؛ إذ كنا فى مطلع فصل الخريف . ورأينا الحملان الصغيرة بالعشرات ، كما شاهدنا أيضًا صغار الجمال الوليدة التى لا يتجاوز عمر الواحدة منها أيامًا معدودات . وفترة الحمل فى النياق تستمر ثلاثة عشر شهرًا ، وهى لا تحمل إلا بعد عشرة أشهر أو أحد عشر شهرًا من الحمل الأول ، ويدون هذه الفترة يتدهور القطيع ويسوء حاله .

ومن ذلك المكان الذى توقفنا عنده طلبًا للراحة عند الظهر شاهدنا منظرًا واسعًا وعريضًا للريف من حولنا ؛ فعن يميننا توجد العلامات المميزة لكل من خشم الضيبى Dhibi والبخارة Bukhara ، وتلك هى كتلة جبلية أخرى فى أقصى الجنوب وإلى الشرق قليلاً من كل من خشم الضيبى والبخارة ، ويدعونها مركة Mirka للتشابه الذى بينها وبين عظمة كتف الجمل ، والتى لا تعدو أن تكون مجرد امتداد أرضى لصخرة

الطويق داخل الأراضى المجاورة لها فى الوادى الذى يمتد إلى كل من الحريق Hariq والحوطة Houta . ومن أمامنا نرى عن بعد ساحل سلسلة جبال أرض Ardh التى تقع إلى الخلف من نفود دلقان ، وفى الجهة الشمالية أرى منظراً مملاً لا يتغير .

ومن سلسلة جبال السديرة شاهدنا مرتفعات أرض Ardh والجبل ذى القمتين الذى يسمونه أذنين الشمال (أذنا الشمال) Idhnain Shamal ، اللتين تطلان على مرتفعات الأرض . وسلسلة جبال السديرة نفسها من الصخر الأسود ، ومن خلف جبال السديرة وعبر المنخفض الضيق يقع خط نفود دلقان ، الذى دخلناه مباشرة بعد أن تجاوزنا الأبيار التى يشتق اسمه منها . وأبيار دلقان عددها ثلاث أبيار ، باستثناء العديد من الآبار الأخرى المهجورة ، التى توجد مياهها على عمق ثلاثين قدماً وتتدنى نوعيتها عن نوعية مياه الآبار الثلاثة الرئيسية ؛ وكل بئر من تلك الآبار الثلاث ، محاط ببناية كما تحيط بتلك الآبار أيضًا دائرة كبيرة من الرمال ، التى اسود لونها لكثرة مخلفات الأغنام وروثها . وها هى مخلفات الحج النجدى العظيم من صيف العام السابق ، وقد تناثرت هنا وهناك فى كل أنحاء الدائرة الرملية المحيطة بالآبار ، والذى أمضى ليلة فى ذلك المكان . قال عظيمة البقمى Izmaia Buqumi ، الذى قام بإرشاد الحج Hijj ، مثلما يرشدنا حاليًا : "فى ذاك المكان ، نصبت خيمة محمد بن سعود ، وذاك هو المكان الذى كان فيه مسجده ، وفى ذلك المكان البعيد كان يوجد سعد ، ومخيم أمه وشقيقاته ، اللاتى كن يسافرن معه" . تلك هى الدوائر التى تخلفت عن نصب الخيام فى الأماكن التى أقيمت عليها ، وتلك هى آثار صفوف المصلين ، وذاك هو الرماد المتخلف عن حرق الحطب ، وتلك أكوام من الحطب الذى لم يستعمل ، كل ذلك يبقى بلا نسيان ليكون دليلاً على هذا المكان ومرشداً إليه ، وهم يقولون هنا : إن عدد من كانوا فى ذلك الحج يقدر بحوالى سبعه آلاف(١٣) . فقد بدأ عبد الرحمن والد ابن سعود الحج من الرياض ولكنه لم يتمه بسبب الرحلة المرهقة ، ويقال إنه عاد إلى الرياض ثانية من هذا المخيم أو من المخيم السابق له القريب من أبيار طبراق Tubraq. كان عبد الله أفندى أيضًا من ضمن أفراد ذلك الحج. وحج عام ١٩١٧ الميلادى يعد علامة بارزة فى تاريخ الجزيرة العربية .

ونفود الدلقان ، التى تعد امتداداً لنفود السر Sirr الواسع ، لاتعدو أن تكون مجرد ذراع آخر من الرمال الموجودة هنا ، وعرض النفود هنا لا يتجاوز الميل الواحد وليس بها موانع أو عقبات ، وهذا مدق واضح يمتد فوق تموجاتها الرملية البسيطة. وعندما وصلنا الجانب الغربى تحولنا صوب منخفض عميق خيمنا فيه لقضاء الليل . وكنا الآن قد أشرفنا على مضارب عتيبة Ataiba ؛ وبدءاً من ذلك الساحل واتجاهاً ناحية الغرب لم يعد من المحتم علينا الاحتياط أو التحرز أو إنكار وجودنا أو حتى حراسة مخيماتنا ؛ هنا كان الأمر مختلفًا ، والسبب فى ذلك هو ابتعادنا عن طريق المسافرين العابرين وكنا قد آثرنا التخييم فى مكان أجوف كى نستر النار التى سنشبها . وكان من بيننا أيضًا أربعة من رجال عتيبة ، وهم الذين تولوا ، عند هذه المرحلة ، مسئولية سلامتنا ؛ ومن حين لآخر كان أولئك الرجال الأربعة يندفعون إلى الروابى الرملية المحيطة بنا ، وينادى أحدهم قائلاً : "انتبهوا ، يا رجال عتيبة ، فأنا جرمان Jarman ، أحد أفراد البرقة Barqa ، وأنا أبلغكم ، أننا رجال ابن سعود قائمون بمهمة إلى شريف مكة ؛ وعليه لا تسمحوا لأحد بإزعاجنا ، وإلا ، إذا فعلتم ذلك ، فقولوا : إنكم لم تعرفوا من نكون نحن وما هى صفتنا" . ووصلت الدعوة عبر أذن الليل الصاغية ولم يزعجنا أحد .

٤- هضاب نجد العليا

نرى أمامنا سهل هضبة قضلة Hadba Qidhla المنبسط الذى يمتد ناحية الشمال وناحية الجنوب أيضًا ، حتى آخر مرمى للبصر فى المنطقة ما بين الخطين المتوازيين لكل من نفود دلقان من خلفنا وسلسلة جبال الأرض الطويلة المنخفضة من أمامنا . ومن داخل سلسلة جبال الأرض الطويلة المنخفضة ، تطل شامخة عليها القمتان التوأم ، اللتان يُقال لهما أذنان الشمال (أذنا الشمال) ، من ناحية الجنوب الغربى تقريباً ؛ وإلى الشمال من هاتين القمتين تمتد سلسلة من التلال المسننة إلى أن تختفيا على شكل سديم ، أو إن شئت فقل : ضباب خفيف . وفى الناحية الجنوبية يوجد سهب من

الحجر الرملى ، الذى لا يعترضه سوى تشرشر خفيف هو الذى يميز هذه النقطة ، وهذا التشرشر يوجد على مسافة أميال قليلة جنوبى القمتين التوأم ، وكان من المقرر لنا عنده أن ندخل نجد العليا عن طريق شعب القُوية Sha'ib Quaiyya . كان عرض السهل فى تلك المنطقة يتراوح بين خمسة عشر وعشرين ميلاً ، والسهل هنا ينحدر ناحية الجنوب ، كما ينحدر أيضًا انحدارًا خفيفًا ناحية الشرق .

تأخر إبراهيم ، الذى التهب حلقه نتيجه البلل الذى أصابنا مؤخرًا ، عند صلاة الفجر، ولم يوقظونى إلا بعد أن انتهوا من الصلاة ، على الرغم من تشديدى على إيقاظى قبل أذان الفجر . وراح رفاقى يدفئون أنفسهم ، عن طريق الاقتراب من نار المخيم ، وشرب القهوة ، فى الوقت الذى رحت ، أنا ، أستعد فيه للمسير ، وعند الساعة السابعة صباحًا كنا قد امتطينا صهوات إبلنا . كانت السماء صافية بعد سقوط المطر ، كما كان الهواء منعشًا على الرغم من أنه لم يكن باردًا ، وبخاصة أننا سرنا فى الاتجاه الجنوبى الغربى فى السهل الرملى ، وكانت الجمال فى أثناء المسير تأكل الكلأ الوفير فى هذه المنطقة ، ولكنه جف وذوت أعواده بسبب جفاف الخريف الذى استمر فترة طويلة ، والذى أغرقته مياه الأمطار الأخيرة ، الأمر الذى سيجعله يعود إلى الاخضرار مرة أخرى فى رحلة العودة . ونسينا جميعًا بؤس اليومين السابقين عندما انشغلت أذهاننا بفصل الربيع ، وراحوا يعبِّرون عن فرحتهم بالربيع ، وكيف ستسمن الإبل على رعى الأعشاب التى تطاول بطون الإبل والدواب ، وكيف ستسمن الإبل وأكفال الضأن ، وظهور الدواب . صحيح أن العربى متفائل دومًا ، وسريع النسيان ، تصيبه متاعبه الحاضرة بالاكتئاب إذا ما استمرت ، أما فيما يتعلق بالمستقبل فهو يراه كله خيرًا ؛ هالطول[١٤] hal tul . هذا هو ما يقولونه عن أعشاب الصحراء فى فصل الربيع ، مضيفين إلى كلامهم عن الصحراء إشارات تستثير فى ذهنى رؤى غابات كثيفة يصعب اختراقها مكونة من أعشاب سهول أمريكا الجنوبية التى تفوق كل إمكانيات الربيع الكامل المتكامل ، وإذا ما خاب أملهم فإنهم يقيمون سنام الجمل مثلما يقيمون الجسم البشرى ، ويصفون الربيع بأنه جنة ، وسنوات الجفاف لا تغير من رؤاهم فى أن الربيع هو جنة أو فردوس الإبل . وهل يحق لنا أن نتعجب منهم عندئذ عندما لا يستطيع أى شىء على وجه الأرض أن يغير من ، أو يهز ، إيمانهم الراسخ بجنة الإنسان ؟

وبعد مسير ثمانية أميال وصلنا إلى شريط ضيق من الرمل المنجرف ، أو النفود المُصَغَّرة ، التى يقولون لها هنا الدغيبيس Dughaibis ، التى تمتد امتداداً منحرفاً عبر السهل من المنطقة المجاورة لقمتى أذنى الشمال فى الجنوب الشرقى لتتصل بنفود الدلقان بالقرب من طرفها الجنوبى . وهنا استطلق منظر أدغال الأرطة Arta الجافة ، التى تعد أفضل أحطاب الوقود ، فى أفراد الجماعة صرخة طالبوا فيها بوقفة لطلب الراحة ، ولكن الصباح كان لا يزال فى بدايته ؛ مما جعلنى أصر على مواصلة السير . ولم يستغرق عبور شريط الرمال منا سوى خمس دقائق فقط ، لنسير فى امتداد الوادى نفسه صوب هدفنا الذى لا يزال بعيداً . وعند الظهيرة توقفنا عند منتصف السهل لتناول طعام الإفطار . وعند الساعة الثانية مساءً ، أى بعد أن قطعنا عشرين ميلاً ، خرجنا من سهل هضبة قضلة Hadba Qidhla لندخل فى سلسلة التلال المنخفضة عند سفوح سلسلة جبال أرض Ardhعند ملتقى اثنين من مجارى السيول هما : شعب حرمالية Harmaliyya الذى يحتضن أذنى الشمال Idhnain Shamal، ويواصل مسيره داخل السهل إلى مسافة عدة أميال ناحية الشمال فى تلك النقطة ، ثم شعب القويعية Quai'yya الذى يعبر حاجز الأرض من الغرب إلى الشرق . ويتحد الشعبان ليجريا تحت اسم واحد هو شعب حرمالية ، ليتجه جنوباً إلى قناة وادى سرة Wadi Sirra الرئيسية .

نحن نسير الآن فى مجرى شعب القويعية الذى تغطيه الأدغال القصيرة ، والذى يتراوح اتساعه بين ميل ونصف الميل فيما بين الصخور الرملية القاحلة المكشوفة للرياح التى يتراوح ارتفاعها بين ثلاثين وخمسين قدماً فوق مستوى سطح الوادى ، والذى يتحايل على ذراع بارزة من أذرع الجرف الموجود على شمالنا . وأشرفنا الآن على رؤية بيارات نخيل قرية القويعية نفسها التى تتناثر هنا وهناك ، ذلك المنظر الأخضر الساحر وسط هذا القفر وذاك الجدب . وشاهدنا هنا وهناك مجارى مائية ، أو إن شئت فقل · مجارى مائية من الزلط الأسود وهى تكسر ذلك اللون البنى الرتيب الذى يعم كل الصخور الرملية المحيطة بنا ، فى حين كانت البادرات الصفراء هى والسيقان داكنة الخضرة للأشجار التى تشبه أشجار الوزّال ، والتى يقولون لها القِرْضِى Qirdhi،

أول الأعشاب الصحراوية التي تنبت استجابة لأمطار الشتاء . كانت تلك البادرات وتلك السيقان تقف شامخة لتشكل غوثًا قويًا من اللون الرمادي واللون البني اللذين يكسوان أدغال أشجار السنط والأعشاب والحشائش الذاوية . وفي منتصف ذلك الوادي كان يوجد مسار ملتوٍ لقناة العواصف المكونة من الزلط والحصباء .

وقرية القويعية ، عبارة عن كتلة بيضاوية الشكل من المنازل القذرة المبنية من اللَّبِن ، ويحيط بها من الخارج سور فيه أبراج للمراقبة على كل ركن من أركانه فضلاً عن وجود برج أيضًا عند منتصف كل ضلع من الأضلاع الطويلة . والقرية تقع بالقرب من الضفة اليسرى للشعب وقد لا تزيد أبعادها المساحية عن ٢٠٠ ياردة طولاً في ١٠٠ ياردة عرضًا ، ويشرف على تلك القرية هرم صخري بارز يعلوه رَجَم(*) ، تسنده كتل كبيرة من الأحجار الملساء ، التي قيل لي إن صبايا وصبيان القرية يتزلقون عليها أيام العطلات والإجازات ، مثلما نتزلق نحن على الجليد ، وأنهم كانوا يشحمون تلك الصخور لزيادة نعومتها ، وأنهم كانوا يستعملون السمن في عملية التشحيم هذه ؛ ومن هنا يجيء الاسم زل ليلى Zill Lalla الذي معناه "مزلقة ليلى" . ومن الصعب التسليم بسماح الجيل المتدين الحالي بممارسة ذلك النوع من اللعب ، وأن الاسم ، في ظل جميع الاحتمالات ، لا يعدو أن يكون مجرد ذكرى من ذكريات مرح عالم قديم . وعند سفح تلك الزلاقة يقع أفضل بئر من أبيار مياه القرية ، والذي يطلق عليه اسم على مسمى بحق ، هو ريق البنات Riq al Banat ، أو إن شئت فقل : لُعَاب البنات .

والجبَّانة تقع ناحية الطرف البعيد من القرية ، وهي مقبرة وهابية بحق "وحقيق"-(١٥) وهي لا تعدو أن تكون غابة من أحجار البازلت التي على شكل شواهد للقبور ، أحدها للرأس والآخر للقدمين ، وهذه الشواهد هي الوحيدة التي تميز القبور ، إذ بغيرها يستحيل تمييز تلك القبور عن الأرض المستوية من حولها . وقد زرت هذه المقبرة مع سعد الذي تقاسمت معه غليوني مرة ثانية ورافقته في زيارته لتلك المقبرة ، ورأيته وهو

(*) الرُّجَم : تلة من الحجارة لتحديد موضع ما . (المترجم)

ينحنى على مقدمة سرج الجمل ، ويتمتم بتحية الموتى : "سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، يا من سبقتمونا إلى نعيم الجنة" ، إلى آخر هذه التحية . وعيادة الميت سواء أكان قديساً أم مخطئاً والتضرع لوساطتهم عند الله (سبحانه وتعالى) هى نوع من الشرك عند أتباع المذهب الوهابى ، ولكن لا ضرر من رحمة الله لأولئك الموتى لتنفعه يوم الحساب ، كما أن إذلال النفس البشرية ، بجعلها تتأمل المقام الأخير على الأرض ، يعد من الأمور المحببة والمطلوبة . والمسلم المتدين يضع الموت دوماً نصب عينيه ، وهو لا يذكر مطلقاً اسم الميت إلا وهو يردد قائلاً : "الله يرحمه" .

وفيما بين الجبانة والقرية توجد رقعة كبيرة من الأرض التى يزرع فيها القمح ، وهى مقسمة إلى مربعات صغيرة ، وزعت فى أنحائها أكوام صغيرة من السماد البلدى[١٦] المجهزة لفردها ونثرها على الأرض . وفى أعلى الوادى وأسفله ، وعلى امتداد مسافة تقدر بحوالى الميل ونصف الميل ، والتى يقع الجزء الأكبر منها مع مجرى الشعب ، توجد سلسلة من بيارات النخيل يقدر عددها بحوالى خمس عشرة بيارة ، وتتردد مساحة كل بيارة بين فدان واحد وأربعة أفدنة ، وكل واحدة مستقلة مسورة بسور منخفض من اللبن ، كما أن فى كل منها قصراً أو إن شئت فقل بيتاً ريفياً كبيراً محصناً ، يوجد بداخله جالب ، أو إن شئت فقل بئراً من الآبار التى يشيع وجودها فى نجد . والمستوطنة داخلة ضمن المنطقة الخطرة التى يقوم البدو فيها بالسلب والنهب ، والقصور هنا هى الملاذ الذى يحتمى به الفلاحون والزراع الذين يعملون فى تلك الأراضى فى حالة تعرضهم للخطر ؛ والبدوى لا يهاجم الجدران أو المبانى التى يقيم الناس خلفها أو داخلها ، يضاف إلى ذلك أن الآبار توجد داخل تلك القصور الأمر الذى يحول بين البدو وبين البقاء لحصار تلك الآبار أو الاستيلاء عليها . وعلى كل حال ، لم يكن أولئك البدو ، وإلى وقت قريب ، هم المصدر الوحيد للخطر الذى يتهدد سكان القويعية ، وبخاصة بنى تميم الذين ينتمون إلى بنى زيد ، والذين دارت بينهم وبين جيرانهم بنى خالد - الذين كانوا يقطنون فى قرية مزعال Maz'al المنافسة ، الواقعة فى أعلى الوادى - حروباً طاحنة ومستمرة أدت إلى تدخل ابن سعود بنفسه ليفرض على الطرفين التزام السلم ، وحلاً وسطاً ، جرى استبعاد قرية مزعال Miz'al بناء عليه من

حكم وسيطرة أمير القويعية ، ومنحها الاستقلال الذاتى لتكون تحت حكم شيخها ، فى حين تركت القويعية تشمخ بأنفها على الجزء الأكبر من المستوطنات المبعثرة فى سلسلة جبال الأرض Ardh .

كان إبراهيم ومعه نصف أفراد الجماعة قد توجه إلى القرية ، فى حين رحت أنا وسعد نتجول ، وعندما وصلنا وجدنا الجمال باركة خارج البوابة الجنوبية فى انتظار العلف الذى كان يجرى إحضاره إلى خارج البوابة ، فى الوقت الذى راح إبراهيم خلاله ، وبناء على تعليمات منى ، يجادل أمير القرية ، سليمان بن جبرين – وهو من بنى زيد – ويقنعه بأننا لن نتوقف نظراً لأننا يتحتم علينا مواصلة السير على الفور . واحتج الأمير على أن ذلك التصرف لا يمكن قبوله ؛ إذ كيف له أن يتحمل مرورنا بأبوابه المفتوحة لنذهب بعد ذلك لنتناول العشاء مع غريمه ؟ وجرى الاحتكام إلىَّ ، واستسلمت لرجاء الرجل ، مما أرضى وأسعد كل المرافقين ، ودخلنا القرية سيراً على الأقدام وسرنا عبر الشوارع الضيقة المتربة إلى أن وصلنا منزل الأمير . كانت قهوة الأمير مجرد غرفة صغيرة فرشت أرضيتها بالرمل وكانت خالية من الحصير والسجاد أيضًا ، وجلسنا ونحن نسند ظهورنا إلى جدار الغرفة ، على جانبى وجار القهوة ، الذى جلس مضيفنا أمامه ليقوم بتصليح القهوة والشاى لتقديمهما للضيوف . وفى الوقت نفسه كانت هناك ترتيبات أخرى تجرى على قدم وساق لإكرام وفادتنا ، وبعد أن جرى توزيع القهوة والشاى ، اختفى الأمير عنا لحظة ، عاد بعدها ليعلن لنا أن العشاء كان جاهزًا وينتظرنا . ثم قال الأمير وهو يسير أمامنا صاعداً درجاً قذراً ضيقًا يؤدى إلى شرفة فى الطابق العلوى تشرف على فناء المنزل الداخلى : "سَمُّوا" . وهنا جرى تقديم القهوة والشاى مرة ثانية بعد أن جلسنا وسندنا ظهورنا إلى الجدار ، وخلال لحظات قليلة ، ظهر عدد قليل من الخدم ، بعضهم يحضر حصيراً مستديراً كبيراً ، قاموا بوضعه فى وسط الشرفة ، فى حين كان البعض الآخر يحملون أطباقًا معدنية عليها أكوام من وجبة القمح يطلقون عليها اسم القيمى Qaimi(١٧) ومن فوقها لحم الضأن . والقيمى صورة طبق الأصل من وجبة أخرى يقال لها الجريش فى بعض أجزاء نجد ، كما أعتقد أيضاً أن تلك الوجبة لها علاقة بالوجبة التى يقال لها البرغال

في سوريا ، والبرغال وجبة كاملة من الثريد المخلوط بالخبز المقدد المنقوع في الحساء والمزين من أعلى بالسمن . وكنا قد "غيرنا ريقنا" قبل ذلك بفترة غير طويلة ، إضافة إلى أن الساعة كانت لا تتجاوز الثالثة مساءً ، وعلى الرغم من كل ذلك ، أقبل رفاقي على تلك الوجبة الكريمة ، ولم أفشل أنا بدوري في القيام بتلك المهمة ، وشعرت بالأسف لأن المضيف شغل نفسه بي وبإطعامي ؛ الأمر الذي لم يعطه متسعًا من الوقت للكلام .

وسكان القريه يقدرون بحوالي ٢٠٠٠ نسمة . وإلى أن تم التوصل إلى التسوية التي سبقت الإشارة إليها ، كان سليمان السلطة الإدارية الوحيدة – في منطقة الأرض Ardh كلها – المسئولة أمام ابن سعود ، فضلاً عن بعد المسافة التي بينهما ، الأمر الذي جعله، من الناحية العملية ، حاكمًا مطلقًا داخل منطقته المحدودة . يضاف إلى ذلك ، أن سليمان ليس راضيًا عن التقليل من سلطته وتحجيمها ، الذي فرضه عليه سيده ، وهو لا يخفي كراهيته وحقده على أمير مزعال . وبحكم موقع تلك القرية على طريق الحج الرئيسي المؤدي إلى مكة ، فهي تعد مركزًا تجاريًا لكل القرى المحيطة بها ، التي يفد أهلها إلى القويعية ، في المواعيد المحددة لمبادلة منتجات بياراتهم وحقولهم بالبضائع والسلع الخارجية التي تأتي مع قافلة الحج . وفي المواعيد الأخرى يندر الاتصال بالعالم ، على الرغم من مرور قافلة ، بين الحين والآخر ، قادمة من الحجاز في طريقها إلى شقراء ، ويترتب على ذلك حدوث شيء من الرواج في ذلك المكان .

وبعد أن واصلنا مسيرنا في اتجاه أعالي الشعب ، سرعان ما بدأت الأحجار الرملية تختفي مفضيةً إلى أحجار البازلت ، وهنا بدأ الشعب يضيق ليصل عرضه إلى حوالي نصف الميل أو ما يقل عن ذلك فيما بين القمم الصخرية أو الروابي المنفصلة التي يتردد ارتفاعها بين سبعين قدماً ومائة قدم . وبعد أن صعدنا ارتفاعًا طفيفًا في الوادي طالعنا منظر واحة مزعال ، أو إن شئت فقل : مكان الغضب . مثلما يقول الناس هنا(١٨) ، تأسيسًا على طبيعة ولع الناس هنا بالقتال والاضطرابات . وهذه المستوطنة قسم من أقسام العرافة Arafa' التي تنتمي إلى بني خالد ، وقد جرى نقل هذه المستوطنة من صحراء الأحساء منذ ما يقل عن عشرين عامًا بأوامر من ابن

سعود نفسه ، مستهدفًا من ذلك تقوية المستوطنين القدامى من تميم وقحطان ومعهم بعض العناصر الأخرى ، حتى يتمكن الجميع من الوقوف فى وجه عتيبة التى اشتهرت بالغزو والسلب والنهب . وعلى الفور بدأ الدم الجديد ، بقيادة عبد الله بن محمد العريفى ، بإشاعة الاضطراب أمام أهل القويعية ، الأمر الذى حتم على ابن سعود أن يتدخل بعد ذلك ، بالشكل الذى سبقت الإشارة إليه. ومن المحتمل تمامًا أن ابن سعود كان يعرف مسبقًا النتائج التى سوف تترتب على العمل الذى سبق أن قام به ، وأن هدفه الرئيسى من ذلك ، كان إقامة جماعة قوية موالية له في بلاد لا تستحق أن يتعب نفسه فى إخضاعها ، ولكنها تعد على الرغم من ذلك ركنًا مهمًا فى مواجهة الغزو الأجنبى ، والاضطرابات الطبيعية التى تثيرها عتيبة فى كثير من الأحيان ، ويحاول أعداء ابن سعود استغلالها والاستفادة منها(١٩).

والقرية فى حد ذاتها هى والقسم الأكبر من المزارع تقع كلها فى نتوء دائرى من الوادى ، وتنساب فى ذلك النتوء أربعة شعاب ، تنساب كلها من أكوام من أحجار البازلت المحيطة بذلك النتوء ، ويواقع شعبين من كل جانب من جانبى ذلك النتوء . وأكبر تلك الشّعاب هو شعب الناخور Nakhur ، والذى تقع القرية عند النقطة التى يلتقى فيها بالوادى . وشعب الناخور يأتى من الشمال فى حين يأتى شعب المخرّ Makharr من الجنوب عند مدخل النتوء ، أما الشعبان الآخران اللذان لم أستطع التوصل إلى اسميهما فهما يأتيان إلى ذلك النتوء الدائرى من الشمال ومن الجنوب كل على حدة .

وهناك قصران مهدمان يقفان حارسين على مدخل الواحة الشرقى ، ومن خلف هذين القصرين المهدمين توجد ثلاث بقع صغيرة من أشجار الإثل ، وفيما بين تلك البقع الثلاث والقرية توجد حوالى عشر بيارات من بيارات النخيل ، تشبه بيارات القويعية ، فيما عدا أن هذه البيارات تتداخل تداخلاً كثيفًا مع أشجار الإثل ، كما أن القصرين أكثر تهدمًا ودمارًا ، فضلاً عن أن بعضًا قليلاً من الحدائق ، وبخاصة حدائق الضفة اليسرى من الوادى ، إما ميتة أو مشرفة على الموت . يضاف إلى ذلك ، أن بعضًا قليلاً من الحدائق يخفى مصب شعب الناخور وينتشر إلى مسافة كبيرة من

مجرى الوادى . أضف إلى ذلك أن حلقة الروابى السوداء التى تحيط بالقرية ، وكذلك السيقان والجذوع السوداء المتبقية من النخيل الميت ، يثيران انطباعًا مفاده أن تلك القرية كانت ضحية لعملية انتهاك واستباحة صارخة ، ولكن الناس هنا يسوقون لذلك الخراب سببًا يتعلق بقلة الماء ونضوبه .

كانت القرية التى خيمنا فيها لقضاء الليل تقع على ارتفاع ٢٨٥٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر ومبنية على شكل مربع تقريبًا ، يصل طول ضلعه ١٣٠ ياردة ، ويحيط بها سور متواضع من اللَّبن ، تتخلله الأبراج من مسافة لأخرى . وبيوت تلك القرية وشوارعها من النوع القذر الحقير ، ولكن مقهى الأمير ، الذى دعينا إليه لشرب القهوة ، وليس لتناول العشاء ، كان مفروشًا بالحصير وبعض السجاد المفروش فوق أرضية المقهى المغطاة بالرمل . وقد حضر ذلك الاستقبال عديد من القرويين بما فى ذلك سليمان العريفى ، عم الأمير ، والذى كان يرتدى زيًا فاخرًا بعض مكوناته عبارة عن زابون مطرز ، وحزام يتدلى منه سيف فاخر ، وذلك على النقيض تمامًا من ابن أخيه ، الذى كان يخفى ثيابه البالية تحت بشت (عباءة) من النوع الشائع . وجلس العم فى مكان الشرف (الصدارة) بينما جلست أنا عن يساره وجلس ابن أخيه عن يمينه ليؤدى مهام عمل القهوة بالقرب من الوجار . كان الحديث بلا روح ومتقطع ، وظل الجميع يتجاهلوننى إلى أن دخل الأمير فجأة فى موضوع الحرب ، الذى لم يكن لديه عنها سوى معلومات قليلة بل وغير كاملة أيضًا . سألنى الأمير : "منذ متى والإنجليز يحتلون مصر ؟ ومتى طرد الأتراك منها ؟ الإنجليز هم أصدقاء ابن سعود ، إى بالله ، وأصدقاء وأعداء ابن سعود هم أصدقائى وأعدائى أيضًا ، ولكن إن شاء الله ، لن يمضى وقت طويل حتى يدخل الإنجليز جميعًا فى العقيدة الصحيحة" . وحاولت تنوير جهل الحاضرين ، فى الوقت الذى أضفى إبراهيم فيه مسحة رومانسية على الجلسة عندما قال : "مئات من العرب الذين انضموا إلى جانب شريف مكة تلقوا تدريبًا على فن الطيران ، إى بالله ، وأنا بنفسى التقيت الكثيرين منهم الذين عادوا إلى نجد وكانوا من الطيارين" . وهنا وجدتنى أغامر بسؤالى إياه عن مدى صدق ما قال به ، أو إن شئت فقل : مدى صدق هذه العبارة . ولكنه أكد للحاضرين أنه لم يقل إلا الحق .

وتساءل إبراهيم ، موجهًا حديثه للأمير : "هل لديك كاتب ؟" وهنا قاموا بإحضار "كاتب" القرية الوحيد ، وهو صبى أعمش ، ضعيف البصر ، يبلغ من العمر اثنى عشر أو أربعة عشر عامًا ، تناول القلم والورق ، وجثا على ركبتيه أمام إبراهيم وراح يكتب ما يمليه عليه بيد طفل وفى ضوء خافت ينبعث من مصباح يلفظ آخر أنفاسه . كان ذلك الذى يكتبه هذا الصبى مجرد رسالة إلى ابن سعود يبلغه إبراهيم فيها بسلامة وصولنا إلى آخر محطة فى رحلتنا . وحاولنا بلا جدوى شراء شاة لوجبة المساء المقبلة ، ولكننا نجحنا على نحو أفضل فى استئجار أربعة جمال أخرى لتشارك الإبل الأخرى فى حمل أمتعتنا التى أحضرناها معنا من الرياض، وبخاصة أن الجمال التى حملتنا من الرياض إلى هنا ، بدأت تكشف عن تعبها وإرهاقها ، بعد أن قطعت مسافة ١٥٠ ميلاً من المسير فى ظل ظروف مناخية غير مناسبة إلى حد ما. وسكان مزعال يقدرون بحوالى ٢٠٠٠ نسمة ، وقد دهشت تمامًا عندما اكتشفت جهل عبد الله المطبق ، وإنه شخص بليد الحس لا يهتم بشىء سوى بالعقيدة الصحيحة وبابن سعود .

كان الجو لا يزال مظلمًا عندما أيقظونى فى صباح اليوم التالى قبل صلاة الفجر . كانت السماء من فوقنا ملبدة بالغيوم ، وبعد أن استأنفنا مسيرنا حجب الرؤية عنا ضباب كثيف سرنا خلاله على طول الوادى إلى أن وصلنا مستوطنة صغيرة يقال لها ابن سعدان، وهى تشتمل على هجرتين (كفرين) صغيرتين أو إن شئت فقل مجموعتين من المنازل غير مسورتين لا يتجاوز عدد سكانهما ثلاثمائة نسمة ، ويبعدان حوالى ميل واحد عن قرية مزعال . وبعد أن تجاوزنا حوالى ثمانى بيارات صغيرة أو تسع من بيارات النخيل، وبعد أن سقينا دوابنا من غدير مصنوع من الحجر خارج أكبر بيارة من بين تلك البيارات ، والتى تحيط بها مساحة كبيرة من أراضى القمح الجاهزة لبذر الحبوب ، بدأ الوادى يتسع عند هذه النقطة متحولاً إلى سهل قحل على شكل مروحة ، تنتشر على جانبيه روابى البازلت المخيفة التى بدأت تتراءى لنا من خلال الضباب : وشاهدنا ثعلبًا رمادى اللون يفر هاربًا إلى ملاذه فى القفار الصخرية ، ومن خلفه كلبين طويلين كانا يطاردانه عند سفوح التلال ، ثم عادا إلى القرية . وعندما بدأت الشبورة تنقشع مع شروق الشمس شاهدنا جماعة صغيرة تسبقنا بمسافة قليلة تسير فى

الاتجاه نفسه الذى كنا نسير فيه ، وهنا انطلق تامى ليستطلع الأخبار ويتحرى الأمر ، وعاد إلينا بأخبار مفادها أن ذلك كان عريسًا عائدًا بعروسه من القويعية ، التى جرى فيها العرس فى اليوم السابق ، وأنه كان عائدًا إلى موطنه فى الرويضة Ruwaidha ، وكانت العروس أرملة ، وتحمل معها طفلها من زوجها السابق ، وكانت معها خادمة . والزواج[٢٠] فى وسط الجزيرة العربية شأن بسيط لا يجرى الاحتفاء به ؛ فالعريس يتوجه إلى قرية زوجته المستقبلية ، وفى فترة ما بعد الظهيرة ، أو إن شئت فقل : بعد صلاة العصر ، تجرى كل المراسيم الشرعية فى وجود شاهدين ، يمثلان الجانبين المتعاقدين . وزواج الشاب من فتاة عذراء يكون مصحوبًا ، فى أغلب الأحيان ، بعزيمة بسيطة ، تعد أبسط شكل من أشكال الترفية المعروف فى الأراضى الوهابية العنيدة التى تعانى من الجوع ، وفى المناسبات الأخرى ، التى لا تقام فيها مثل تلك العزيمة ، يدخل العريس على عروسه بعد صلاة العشاء .

وعرض الوادى فى هذه المنطقة يصل إلى حوالى أربعة أميال وتنتشر فيه الطبقات البارزة من صخور الأحجار الرملية ، ورحنا نمشى هنا وهناك فوق أو بين كتل كبيرة أو جلاميد من الصخور المسامية ، التى تآكلت بفعل الطقس والرياح متحولة إلى أشكال غريبة تمامًا ، والتربة فى هذه المنطقة يغلب عليها الغرين الذى تغطيه طبقة رقيقة من الرمل المختلط بالزلط ، وتنتشر فيها أدغال أشجار الحمض Hamdh الكثيفة ، فى حين كانت تكسو مجرى الشِّعب ، الذى يصل اتساعه إلى حوالى ميل ، أشجار السنط التى كانت تنتشر هنا وهناك ، وغيطان القمح التى جرى تجهيزها للزراعة من حول مجموعة من سبعة قصور ، أو إن شئت فقل : منازل ريفية كبيرة ، تحيط بها الأسوار ، كانت تشكل مستوطنة (قرية) قويع Quaia . وكنا نرى أمامنا سلسلة جبال الجد Al Jidd الجرانيتية ، التى يبدو أنها العمود الفقرى ، ومستجمع مياه أمطار منظومة الأرض Ardh ، وتمتد شمالاً وجنوبًا من قمتى أذنين الشمال Idhnain Shamal ، وتمر خلال كتل جبال المحيرقة Muhairqa ، وعمار Amar' ، وجفار Jafar ، لتصل بعد ذلك إلى قمة فورع[٢١] Fur'a البعيدة . ومع استمرار مسيرنا بدأت سحب العواصف تتراكم ويسود لونها فوق تلك السلسلة الجبلية ، وبدأ الذعر يصيب إبلنا على إثر دوىٍّ الرعد المنخفض الذى كان

يصلنا من بعيد ، فى حين كان البرق يومض من حول القمم العالية ، وبدا الأمر كما لو أن طوفانًا كبيرًا كان على وشك الحدوث . وعلى الرغم من ذلك ، واصلنا السير عبر الشِّعب مسرعين الخطى ، فوق الحشائش الخشنة الكثيفة وأدغال أشجار السنط التى كانت تغطى سطح أرض الشِّعب .

أخيرًا ، وبعد أن قطعنا مسافة اثنى عشر ميلاً من مزعال ، وصلنا حافة سلسلة جبال الجدّ وطريق الحج ، وبعد أن نزلنا إلى منخفض فى الصخر الصلب ، أفضى إلى مطلع متدرج ، خلال ممر ضيق يؤدى إلى سرج صخرى منخفض يصل قمة عمار عن يسارنا بتل مجهول الاسم عن يميننا . وأستطيع القول إننا عند هذه النقطة كنا على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم أو أكثر فوق مستوى سطح البحر ، يضاف إلى ذلك أن الكتل الجرانيتية على الجانبين ، وعلى جانبى المحيرقة - والتى كانت تقترب من بعضها البعض من فوقنا فى الناحية الشمالية - كان ارتفاعها لا يقل بحال من الأحوال عن ٧٠٠ قدم ، على حين كانت القمم البعيدة المهيبة من أمثال قمم أذنين الشمال ، وجفار ، وفورع يتردد ارتفاعها بين ما لا يقل عن ٤٥٠٠ قدم إلى ٥٠٠٠ فوق مستوى سطح البحر ؛ وهنا يمكن لنا أن نقول بشىء من الدقة إن الارتفاع العام لسلسلة جبال الجدّ يصل إلى حوالى ٢٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، وأن أعلى نقاط الارتفاع فى تلك الجبال يزداد عن ذلك بحوالى ١٠٠٠ قدم إلى ١٥٠٠ قدم أخرى . والجزء من تلك الجبال - الذى يقع بين أذنين الشمال ونقطة أخرى تقع إلى الجنوب من عمار - يصرِّف ماءه فى اتجاه الشرق عن طريق شعب حرملية Harmaliyya (حريملاء) وشعب القويعية ، اللذين ينبعان من جبال أذنين الشمال والكتل الجبلية فى المحيرقة ، ليصبا ماءهما فى الملتقى الذى سبقت الإشارة إليه، ثم بعد ذلك إلى وادى سِرَّة ؛ ويمكن القول أيضًا إن القسم الجنوبى من سلسلة جبال الجدّ يصرِّف مياهه مباشرة فى وادى سِرَّة Wadi Sirra نفسه ، أما القسم الغربى من تلك الجبال فهو يصرف ماءه فى وادى سردة Sardah ، الذى هبطنا إليه الآن عن طريق ممر يخترق غابة من الأدغال ؛ ومجرى وادى سردة يتجه جنوبيًا بحذاء سلسلة الجبال ، ويغلب عليه لون الحجر الصوان الشفاف[٢٢] متفاوت الأحجام ، فضلاً عن امتدادات صخور الصوان التى تظهر بين الحين والآخر ؛ وهنا

نصبنا خيامنا طلبًا لتناول طعام الإفطار ، وتمتعنا بمنظر أذنين الشمال الجميل فى الجانب الشمالى ، والذى كان يمتد جنوبيًا إلى حدود فورع Fur'a الخارجية التى بدت لنا غير واضحة المعالم بسبب بعد المسافة . وفى مجرى مائى رائق صغير ينزل إلى الوادى قادمًا من تل عمار Amar' يوجد بئر ماء مالح يحمل الاسم نفسه . وهذا الاسم ، العمارية Amariyya' يستعمله الناس فى هذه المنطقة بديلاً عن سلسلة جبال الجدٍّ ، الذى هو جزء منها ، بل ومن سلسلة جبال الأرض بكاملها ، ومع ذلك فإن الاسمين الأرض والجدٍّ هما الأكثر رواجًا واستعمالاً فى هذه المنطقة .

وبينما كنا نتناول طعام الإفطار ازدادت سحب العواصف تراكمًا واسودادًا ، ودوى الرعد من حول "أذنين الشمال" ، اللتين كانت كتلهما الهزيلة تبرز متميزة باللون البرتقالى ، والأزرق الداكن ، ومن خلفها ظلمة متزايدة . وأسرعنا الخطى ، وعندما وصلنا الجانب الآخر من الوادى دخلنا حزامًا من الصخور المتهاوية ومن الروابى يطلقون عليه اسم السُّريدة Suraidih ، وهو بمثابة حاجز لسلسلة جبال الأرض من ناحية الغرب . وبعد أن تجاوزنا سلسلة طويلة منخفضة من صخر الإردواز ، تعرف باسم أم الجيلات Ummaljilat ، نظرًا لبرك المياه التى تتجمع فى فتحاتها المنخفضة بعد سقوط الأمطار، أسرعنا المسير خلال متاهة كبيرة من صخور الصوان الشفافة ، وصخور الجرانيت الخضراء . وفاجأنا المطر ، ولكننا واصلنا المسير ونحن نضع البشوت فوق رءوسنا ، بحيث لم نكن نستطيع تبين الاتجاه الذى كنا نسير فيه . وسقط المطر وابلاً وبلل منا كل شىء ، فى حين بدأت مجارى المياه فى الصخور المحيطة بنا تفيض بالمياه . استمر الحال ، على هذا المنوال ، مدة ساعة تقريبًا ، ووجدنا أنفسنا بعد أن أصاب البلل كل شىء منا ، قد تجاوزنا متاهة سفوح التلال ، تاركين المطر وراءنا ، وبدأنا نطل على منظر جميل يسر الخاطر ، رأينا أمامنا واديًا واسعًا وعامرًا بالأدغال ، تترقرق فيه مجارٍ مائية صغيرة وبرك راكدة ؛ ومن خلف ذلك الوادى شاهدنا تلال الجرانيت حمراء اللون ، التى هى جزء من سلسلة الجبال الحمراء ، وهى تتلألأ فى ضوء الشمس بعد أن غسلها ماء المطر .

سلسلة جبال الأرض أصبحت كلها الآن إلى الخلف منا ، على بعد مسافة ثلاثين ميلاً على خط مسارنا الجنوبي الغربي ، وعلى بعد أكثر من عشرين ميلاً في خط مباشر من الشرق إلى الغرب وأهم ملمح من ملامح سلسلة جبال الأرض هو سلسلة جبال الجدّ الوسيطة المكوّنة من كتل الجرانيت الضخمة . وفي الجانب الشرقي توجد هضبة منخفضة من الأحجار الرملية ، تتخللها صخور البازلت بشكل كبير . وعلى الجانب الغربي يوجد وادي سردة Sardah ، وسفوح تلال سريدة Suraidih ، التي لا تزيد عن كونها كومة بالية من الأحجار الشبيهة بالجرانيت ، أو الشست ، ذلك الصخر البركاني الصفائحي ، أو صخور المرو الشفافة . والسلسلة كلها تميل جنوبيًا إلى وادي سرّة ، حيث تختفي في رمال نفود داهي Dahi ، من خط يقع إلى الجنوب قليلاً من الدوادمي Duadmi ، وتقع نهايته عند مياه الموصل Mausal والمغيرة Mughaira ؛ وإلى الشمال من ذلك الخط تقع ، حسب علمي ، موجات رمال نفود الشُّقَيِّجَة Shuqaiyija ، التي تمتد إلى أن تصل حدود القصيم . وسلسلة جبال الأرض قد يصل طولها من الشمال إلى الجنوب إلى حوالي ١٠٠ ميل ، وقد عبرنا هذه السلسلة الجبلية من المنطقة القريبة من مركزها ، على امتداد خط تتخلله الواحات الخصبة ، والقويعية ، ومزعال ، وابن سعدان ، والقويع . وإلى الجنوب والشمال من طريق الحج يقال إن هناك بعض المناطق الزراعية . والمناطق الزراعية الموجودة على الجانب الأيمن هي ما يطلق عليها اسم الرين Rain ، وهي عبارة عن مستوطنة جرت زراعتها مؤخراً ، وهي تخص إخوان عتيبة ، وهناك أيضًا مزرعة الحلوة التي تبعد حوالي ميل عن مزرعة الرِّين ، وتبعد مسافة تتراوح بين خمسة عشر ميلاً وعشرين عن جنوب مزعال ، في حين يبعد قصر السيح Saih عن تلك المزرعة حوالي عشرة أميال في اتجاه الجنوب ، والذي يقع حسبما يوحي اسمه ، على مجرى غدير من غدران الري التي تستمد ماءها من العيون ، والتي من المحتمل أن تكون منابعها في جوف سلسلة جبال فورع Fur'a . أما القريتان الأخريان فهما تقعان ربما في مجرى مائي يقع منبعه ربما على جناح من أجنحة جفار Jafar . وهذه المستوطنات ، أو إن شئت فقل القرى الثلاث ليست كبيرة ، وأشجار النخيل فيها ليست من النوع الكثيف.. وإلى ناحية الشمال من طريق الحج هناك

مجموعة من القرى التى تتجمع حول سفوح جبال قمتى أذنى الشمال ، وأهم هذه القرى قرية خانوقة Khanuqa فى شعب حرماليا (حريملاء) من ناحية الشرق ، وعلى بعد عشرة أميال من القويعية ؛ وفى الجنوب الشرقى توجد قريتا السديرى Sudairi والجزيلة Juzaila ، وفى الجنوب الغربى توجد قرية المحيرقة عند أسفل الواجهة الشمالية للتل الذى يحمل الاسم نفسه ؛ أما قرية النخيلان Nukhailan فهى توجد فى الشمال الغربى على مسافة اثنى عشر ميلاً من قرية مزعال ، وأخيراً قرية الداحس Dahis التى تقع على مسافة أربعة أميال أو خمسة إلى الجنوب الغربى من النخيلان . وكل هذه القرى يزرع فيها النخيل ، وبها أيضًا غيطان لزراعة القمح ، والذين يفلحون هذه الأرض نوعية من سكان الجبال العالية الأجلاف الذين يحسون دومًا بالخجل ، ولا يتصلون بالعالم الخارجى إلا نادراً ، ولا يعتمدون على الجمال ، إذ يستخدمون عوضًا عنها نوعًا من الأفراس ؛ صغيرة الحجم التى لا يزيد ارتفاعها على متر ونصف المتر ، كما يستخدمون دواب أخرى ذات أبعاد مماثلة . ويبلغ إجمالى عدد سكان قرى الأرض ، باستثناء الطريق المطروق ، حوالى ٣٠٠٠ نسمة ، وإذا ما صح ذلك التقدير التقريبى ، فذلك يعنى أن السكان الذين يستوطنون منطقة الأرض يصل عددهم إلى حوالى ٨٤٠٠ نسمة أو ٨٥٠٠ . وقد شاهدت قطعان الغنم السوداء وهى ترعى فى منطقة قويع ، Quai فى أثناء مرورنا عليها ، ولكن تلك كانت العلامة الوحيدة من علامات الحياة البدوية التى التقينا بها . يضاف إلى ذلك أن الأرانب البرية تكثر أيضًا فى هذا الوادى وفى وادى سردة Sardah .

قبل هبوب العاصفة كانت الجماعة سعيدة تمامًا ، وكان أفرادها يدخلون فى سباقات للسير مسافات قصيرة على الأقدام مقابل رهانات تتراوح بين ثلاثة وأربعة دولارات يدفعونها هم أنفسهم ، على أن أكون أنا نفسى شاهداً على ذلك الرِّهان ، ولكن الذى حدث ، أننى قمت بتقديم تلك المبالغ ؛ وتشجيعًا منى لهم فى تلك التسلية عرضت أن أدفع أنا الرهان عن الخاسر فى السباق الذى جرى بين تامى Tami وعظيمة Izmai ؛ وهنا بدأ الجميع يسلمون بأنى سوف أقبل تحمل المسئولية المالية عن المراهنات السابقة ، وبالتالى لم يكن من قبيل الشرف أن أخيب ظنهم فيما ذهبوا إليه ، ولكن ذلك حتَّم علىَّ أن أكون حازمًا عندما وجدت أن مسألة مسيرنا تهدد بتحولها إلى سلسلة من

مراهنات سباق السير على الأقدام ، ومع ذلك فقد لاحظت جشع أولئك الذين كانوا يرافقوننى ، ولذلك حاولت الاستفادة من ذلك الجشع فى المراحل الأخيرة من الرحلة ، بأن رحت أحدد مسافة معينة وأرصد لها مبلغًا ، على شكل جائزة لمن يكون أول من يقطع تلك المسافة ، كما رصدت جائزة ثانوية أيضًا لمن يكون أول من يقطع تلك المسافة بين الأفراد الذين يقودون الدواب الحاملة للأمتعة . والعربى ليس له السبق فى سباقات العدو لمسافات قصيرة ، ولكنه لا مثيل له فى سباقات جوانب التلال التى تنتشر عليها أحجار الصوان ، وقد دهشت أشد الدهشة عندما شاهدتهم وهم يتدافعون لتسلق صخرة وعرة خالية من الدروب والممرات دون أن يلقوا بالاً للجروح الفظيعة والدماء التى تسيل من أقدامهم ، وأنا لم أستطع قط إقناعهم بالدخول فى سباقات التحمل عبر المسافات الطويلة . ومن بين كل أفراد الجماعة ، كان عظيمة Izmai ، الذى كان يناهز الخمسين من العمر ، هو الأسرع والأخف حركة ؛ فقد كان هو مرشدنا الرئيسى ، أما سعيد فقد كان يجىء بعده فى المرتبة الثانية ، وذلك فى المسافة من نطقة حدود عتيبة حتى حدود الحجاز . عظيمة ، من مواليد منطقة بوقوم Buqum ، ولكنه هاجر منها وهو فى سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة إلى منطقة نجد ، ولم يزر مسقط رأسه إلا فى صيف عام ١٩١٧ الميلادى عندما اختاره ابن سعود ليتولى إرشاد الحج إلى مكة ، ومع ذلك ، وطبقًا لما قاله هو نفسه ، فإن المشاهد التى رآها فى صباه وطفولته انحفرت فى ذهنه الوقاد إلى حد أنه كان يرى العلامات والنقاط الإرشادية الأرضية كما لو كانت محفورة بالأمس فقط ، يضاف إلى ذلك أننى طوال فترة وجودى فى الجزيرة العربية لم أر قط مثيلاً لذلك الرجل فيما يتعلق بالخصائص الجغرافية ومعرفة التفاصيل المحلية ؛ كان عظيمة Izmai يعرف كل رابية باسمها ، وكل سلسلة من الجبال باسمها أيضًا وكل واد باسمه وبدقة متناهية . زد على ذلك أن عظيمة كان عضوًا من أعضاء دائرة الإخوان الوهابيين المقربين ، وتسبب فى إغضاب ابن سعود غضبًا شديدًا عندما اعترض على إدراجه ضمن المجموعة التى سترافقنى فى رحلتى ، ولما كان قد غلب على أمره واضطروه إلى مرافقتى فقد ابتعد عنى منذ بداية الرحلة إلى اليوم الذى وصلنا فيه إلى قرية مزعال ، وعلى الرغم من أنه كان واحدًا من الأعضاء البارزين فى الجماعة ،

فإنه كان يفضل الجلوس إلى مائدة الخدم بدلاً من تقاسم الخبز مع شخص كافر . ومع ازدياد حميميتى لدى أفراد الجماعة ، ومع اكتشافى لمؤهلاته الخاصة بوصفه مرشداً ، اضطررت إلى أن أشكوه لإبراهيم ، الأمر الذى أسفر عن وجود جمله إلى جوار جملى جنبًا إلى جنب اعتباراً من يوم الشكوى . وجاءت الريالات العشرة التى كسبها بسبب مهارته فى السباق بمثابة الخطوة الأولى فى عملية تعرفى عليه ؛ الأمر الذى أسفر بسرعة عن ود وصداقة سرعان ماذويا تحت تأثير الانفصال وعودته إلى جو الأراضى الوهابية المخدر . وانقضت عدة أيام قبل أن يخاطر عظيمة بأمثال خلاصه المرتقب ، بالجلوس لتناول الطعام معى ، وهنا اكتشفت أنه كان يستعمل يده اليسرى فى تناول الطعام ، نظراً لتشوه خلقى أصاب يده منذ مولده ، كما أنها كانت أيضاً بلا أصابع . يضاف إلى ذلك أننى أفدت من معلوماته غير العادية عن الأراضى المرتفعة التى كنا نمر عليها ، كما إكتشفت فيه أيضاً مفسراً ممتازاً للأفكار البدوية ؛ فقد قال لى عظيمة بكل بساطة وبكل جدية أيضاً : إن الرعد ينتج عن ملائكة يصيحون ويدقون أجراساً من حديد بين السحب كى يعجِّلوا سقوط الأمطار فى الأماكن التى يختارها الله (سبحانه وتعالى) .

هذا منحدر هين أودى بنا إلى منخفض وادى الجربوع Jarbu' الذى تكثر فيه الأدغال ونراه أمامنا ، ومن خلف وادى الجربوع توجد مجموعة قليلة من قمم الجرانيت المخروطية التى ترتفع بين الحين والآخر من بين التلال المهدمة وسلسلة جبال الحمراء Hamra ، وهذه هى زعبة Za'aba ناحية الغرب تحدد لنا مكان الرويضة التى نيمم المسير إليها . أما أم المدق Umm al Madaq ، والمغارة Mughara ، وكذلك الأخوار Al Khurs فهى تقع فى اتجاه الجنوب حسب ترتيبها ، وكل واحدة منها تنفصل عن سابقتها بسلسلة من الجبال المنخفضة التى لا يمكن تحديد أبعادها . كنا قد أصابنا البلل تماماً ، وتعالت بعض الأصوات مطالبة بالتخييم وشب النار حتى يتسنى لنا تجفيف أنفسنا ، ولكن الشمس الساطعة التى طلعت بعد العاصفة ، واحتمال تناول اللحم فى العشاء شجعنا على الاستمرار فى المسير .

ومنخفض الجربوع ، الذى يقل عرضه عن ميل واحد ويتجه جنوبًا ، كان فى الأصل عبارة عن لهم رملى وتنتشر فيه أدغال السنط التى تصل إلى ما يشبه الأشجار ، وعلى الجانب البعيد من منخفض الجربوع يوجد ممر واسع تنتشر فيه الأدغال ، ويؤدى إلى منحدر هين بين سلاسل الجبال ورواب من الشست رمادى اللون ، تؤدى بدورها إلى سلسلة من صخور الجرانيت المنخفضة ، يوجد بها شعبان هما : شعب الخانوقة Khanuqa وشعب الجربوع ، اللذان ينسابان عبر ذلك المنخفض من مسافة بعيدة ناحية اليمين ، فى وسط سلسلة جبال الحمراء ، ليصبا ماءهما فى وادى الجربوع . وقد علمنا بعد ذلك أن جماعة صغيرة من الغزاة القحطانيين كانت لا تزال موجودة فى شعب الجربوع فى الوقت الذى كنا نجتاز خلاله ذلك الوادى ، ومما لاشك فيه أن تلك العاصفة هى التى تسببت فى انشغال تلك الجماعة من الغزاة بتجفيف نفسها بعد العاصفة ، بدلاً من البحث عن ضحايا غير منتظرين ولا يتشككون ، ولو كنا توقفنا على الجانب الآخر من المنخفض وشببنا النار هناك لكنا قد استرعينا بكل تأكيد انتباه أولئك الغزاة فى أثناء الليل ، على الرغم من أن ما سمعناه عن تلك الجماعة كان يؤكد قلة عددها ؛ الأمر الذى يجعلها تفكر ألف مرة ومرة قبل الهجوم على جماعتنا التى تفوقها عدداً .

توقفنا عند سلسلة هذه الجبال لأداء صلاة العصر ، التى قتلوا بعدها ثعبانًا سامًا وهو يحاول الهرب إلى ملاذه بين الأدغال . والاسم داب Dab (الجمع ديبان Diban) هو اسم النوع الذى يطلق على الثعابين السامة كلها ، والتى يقسمها العلم المحلى هنا إلى حيَّة Haya وحنش Hanish ، والاسم الأول ، حسب علمى ، يطلقونه على الحيَّات السامة ، فى حين يطلق الاسم الثانى على الثعابين السامة الأخرى على اختلاف أنواعها ، هذا على الرغم من عدم قدرتى على الحديث باستفاضة وبدقة كبيرة حول هذا الموضوع ، والسبب فى ذلك أن العربى لا يعرف تماماً تلك الزواحف التى تنتشر فى كل أنحاء الصحراء التى يعيش فيها .

تلك هى قمم سلسلة جبال الجدّ ، وهى تبدو شاحبة وغير واضحة من خلفنا ، ونحن نواصل مسيرنا عبر سلسلة من الجبال المنخفضة ، التى يوجد من خلفها سلسلة جبال الحمرة Hamra التى تمتد من تل عروة Arwa' فى اتجاه الشمال بطول سلسلة روابى الجرانيت التى يعرفها الناس هنا باسم العريويات Araiwiyat'، كما تمتد من أمامنا أيضًا إلى تل الطُّهَىّ Tuhaiy المسنن ، ومنه إلى اتجاه الجنوب على شكل خط ملتو . ومن أمامنا مباشرة يوجد ممر زعابة Za'aba المخروطى الذى خرجنا منه إلى سهل كبير من اللَّهَم ، توجد فى منتصفه بيارات النخيل وقرية الرويضة Ruwaidha المحاطة بسور ، والتى هى عاصمة حمة الحمرة . وبيارات النخيل التى يصل عددها إلى عشر بيارات ، كانت كلها مشرفة على الموت ، وتنتشر على مسافات متباعدة حول القرية ، التى هى بدورها عبارة عن شكل بيضاوى صغير غير منتظم يصل طوله إلى حوالى ١٠٠ ياردة وعرضه إلى حوالى ٥٠ ياردة ، ولا يزيد عدد سكان هذه القرية على ١٠٠٠ نسمة . والنسبة الكبيرة من هؤلاء السكان من قبيلة سهول Suhul ، وهؤلاء السكان يمثلون البقية الباقية ، فى غرب نجد ، من ذلك المجتمع الرعوى الزاهر المستقر، الذى طرده القحطانيون Qahtan وأجبروهم على التجوال فى السهوب الموجودة شرقى الرياض . وقرية الرويضة يحيط بها سور ، وشوارعها ومنازلها شديدة القذارة ، على الرغم من أننى لم أتمكن من مشاهدة المنازل من الداخل نظرًا لغياب أمير الرويضة عنها فى زيارة إلى الرياض ، وبالتالى لم تجر دعوتنا على سبيل الكرم . أما فيما يتعلق بواجبات الأمير فى تلبية احتياجات المسافرين ، فقد قام بها مسئول من مرتبة أدنى من مرتبة الأمير ، يقال له النائب ، الذى أحضر لنا طَلْيًا وعلفًا لحيواناتنا على الرغم من سقوط الأمطار ، التى بدأت بصوت الرعد والبرق عقب وصولنا مباشرة واستمرت فترة من الوقت .

وسلسلة جبال الحمرة ينتشر فيها على مسافات متساوية مجموعة من القرى الصغيرة أو بالأحرى مجموعة من البيوت الريفية الكبيرة التى تحيط بها حقول القمح ، ومن بين هذه القرى الصغيرة قريتان ، إحداهما اسمها قرية الجربوع والثانية هى قرية الخنيفسة Khunaifisa ، والقريتان تقعان فى مجرى شعب الجربوع . وهناك قريتان أخريان هما : قرية الأخوار Khurs والمغارة Mughara ، اللتان تقعان خلف التلال التى

تحمل هذين الاسمين . وإلى الشمال من قرية المغارة توجد قريتان أخريان هما : قرية خريصة Khuraisa وقرية مشاش العرقان Mishash al 'Arqan . أما قرية قصر الطهى Tuhaiy فتقع مقابل صخور التهايى ، على حين توجد حقول القمح فى شمال غربى الرويضة والبيوت الريفية الكبيرة التى يطلق عليها اسم قصر الصاحب . وفى الناحية القريبة من الرويضة ، وعلى طريق الحج أو بالقرب منه تقع قرى القصورية Qusuriyya والحفيرة Hufaira ، والسعدية Sadiyya ، وقرية رقاى السعدان Riqai Sa'dan. هذا هو حسب تصورى بقدر المستطاع ، هو الكتالوج الكامل لكل مستوطنات الحمرة وقراها ، والتى يبلغ إجمالى عدد سكانها المستقرين ، بما فى ذلك سكان الرويضة ، حوالى ٢٠٠٠ نسمة .

وسلسلة الجبال تبدأ فى الاتجاه جنوباً من خط الشعرة Sha'ra – الدوادمى ، وهذان المكانان يقعان على مسافة تقدر بحوالى ثلاثين ميلاً فى اتجاه الشمال الغربى والشمال الشرقى من قرية الرويضة ، كما تمتد تلك السلسلة جنوباً أيضاً إلى أن تصل إلى جبل صابحة Sabha العالى عند الطرف الجنوبى من سلسلة جبال عروة – عريويات – تهايى . وقلعة الرويضة تقع على ارتفاع ٣٢٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، والقمم الرئيسية فى تلك السلسلة لا يزيد ارتفاعها عن ارتفاع قرية الرويضة بأكثر من ٥٠٠ قدم ، ولكن كتلة جبال صابحة المنعزلة لا يقل ارتفاعها عن ٥٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، وقد تكون أعلى من ذلك ، وعامة الناس هنا يقدرون ارتفاع تلك الكتلة على أنها أعلى قمم نجد العليا كلها . وسلسلة جبال الحمرة تمتد من الغرب مسافة ٢٠ ميلاً بحذاء الطريق الذى سرنا فيه من منخفض الجربوع إلى القصيرية ، كما تمتد مسافة أقل من هذه المسافة على شكل خط مستقيم ومباشر . كانت تلك الديار ، فى الأيام الحالية ، من ديار قبيلة مطير العظيمة ، كما كانت فيها أيضاً بعض عناصر من السهول Suhul والسبيع ، وكانت كل تلك العناصر تعيش فى سلام مع بعضها ، ولكن الضغوط التى وجهت إلى هذه الديار من القحطانيين فى الجنوب الغربى ، ومن عتيبة من الناحية الغربية، هى التى طردت هذه الجماعة ، وبذلك – وكما هو الحال فى الوقت الراهن – سقطت الأطراف الجنوبية من سلسلة جبال الحمرة وسلسلة

جبال الأرض ، بما فى ذلك صابحة وجبال حساة Hasat فى أيدى القحطانيين ، الذين كانوا يتحاربون دومًا مع العتيبة على التخوم المجاورة مباشرة لطريق الحج ، فى الوقت الذى يحتل العتيبة فيه بالفعل ذلك القسم من سلسلة مرتفعات الحمراء الذى يقع إلى الشمال مباشرة من ذلك الخط ، فضلاً عن احتلالهم أيضًا لكل سلسلة جبال الأرض إلى نقطة التقائها بسلسلة جبال الفورع Al Fura' .

كان المطر قد توقف عند الساعة التاسعة والنصف مساء ، غير أنه عاود الهطول مرة أخرى عند الساعة الثانية صباحًا ، مما ترتب عليه عدم إيقاظى مبكرًا حسبما تعودنا، وبالتالى توفر لرفاقى متسع كبير من الوقت كى يجففوا أنفسهم على نار الصباح ، وذلك قبل أن نعاود مسيرنا عند الساعة السابعة صباحًا . وتحول لهم السهل إلى مستنقع حقيقى ، وهنا ولأول مرة طول مسيرتنا تثاقلت خطى الإبل وكانت تجد صعوبة بالغة فى الحفاظ على توازن أقدامها . وبدأنا نصعد إلى الأرض التى بدأت تزداد تماسكًا بصورة متدرجة ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى مستجمع أمطار تلك السلسلة الجبلية ، التى بدأ المنحدر من خلفها يتجه صوب الغرب إلى سهل حاليبان Haliban . وهنا بدأ الطريق يسير بين سلسلتين منخفضتين من الجبال تقدر المسافة الفاصلة بينهما بحوالى ميل وتفضى إلى خليج صغير فى السلسلة الجبلية نفسها ، والتى تتحول عند هذه النقطة إلى دائرة واسعة تقع فى الناحية الغربية . وفى تلك الدائرة الواسعة تقع المنازل الريفية الكبيرة لمنطقة القصورية Qusuriyya ، وقد رأينا من خلال الفجوات التى كانت تتخلل سلسلة الجبال ، رأينا عن بعد الضلع الثالث فى منظومة الأراضى المرتفعة ، أو إن شئت فقل سلسلة جبال دمخ Damakh من خلف السهل ، و من تلك المنطقة استطعنا أن نرى جبل صابحة Sabha رؤية واضحة لأول مرة .

ومررنا فى طريقنا بإحدى الجبَّانات ، التى تعد شاهدًا على أن تلك المنطقة كانت مضربًا من المضارب القبلية فى الماضى ، وبعد أن تجاوزنا تلك الجبَّانة بفترة زمنية قصيرة شاهدنا عن بعد رجلين يركبان جملاً (ذلولا) واحدًا ويسيران فى اتجاهنا ، وبعد أن شاهدا ركبنا المهيب ، استدارا ووليا الأدبار بأقصى سرعة متجهين إلى

القصورية ، إلى أن تأكدا من ندائنا عليهما وصياحنا ، وهنا توقفا وراحا ينتظران قدومنا . ومن هذين الرجلين عرفنا أخبار الغزو القحطاني ، لأنهما كانا من العتبان ، الأمر الذي جعلهما يخلطان بيننا وبين الغزاة . وهذان الرجلان هما اللذان أعطيانا أخباراً سارة مفادها أن البقية الباقية من طريقنا أصبحت خالية من العناصر المزعجة .

ودخلنا القصورية بعد ذلك ، وهي عبارة عن مجموعة من ستة بيوت ريفية كبيرة ومحصنة تحصيناً جيداً وموزعة على مساحة من الأرض الزراعية ، التي كان منها قسم مجهز للزراعة الشتوية ، في حين كان القسم الآخر قد تم إخلاؤه من محصول السرغوم (الذرة العويجة) . وهذا مدق يفضي جنوبياً إلى قصور الحفيرة التي تقع مقابل الواجهة الغربية لسلسلة جبال الحمرة على بعد ثلاثة أميال ، على حين يؤدي الطريق الرئيسي إلى منحدر في اتجاه الجنوب الغربي . وعند قمة ذلك المنحدر وجدنا أنفسنا خارج منظومة الحمرة ، وجها لوجه مع سهل حاليبان الواسع ، ومن خلفنا سلسلة جبال ضمخ الطويلة . وفي الجانب الغربي من القصورية لا توجد مضارب لسكان مستقرين ، ويستمر الحال على هذا المنوال إلى أن وصلنا إلى الخرمة Khurma ، أي بعد مسير مسافة ٢٠٠ ميل استغرقت منا ستة أيام ونصف اليوم .

وسهل حاليبان يصل عرضه إلى حوالي خمسة عشر ميلاً في المنطقة ما بين سلسلتي جبال الحمرة ودمخ Damakh ، ثم يتجه جنوبيًا إلى وادي السِّرة ، ويتقاطع معه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مجرى سيل شعب حاليبان ، الذي ينبع من سلسلة جبال عريويات أو بالقرب منها ، ثم ينساب بعد ذلك إلى أبيار حاليبان عند الطرف الجنوبي لصخرة طويلة من البازلت يطلقون عليها اسم سمرة حاليبان Samra Haliban ، التي يتجه منها إلى وادي السِّرة . والسهل على جانبي مجرى الشعب ، وكذلك الشِّعاب الفرعية الأخرى التي تصب فيه من ناحيتي الشرق والغرب تزداد فيه كثافة النباتات التي تغطي سطح الأرض وأشهرها الشرر Sharr ، ومختلف أنواع أشجار السنط ، الذي يعد الوهت Wahat بأغصانه الجرداء وأشواكه التي تشبه المخالب أو الأنياب ، أبرز معالمه . وطريق الحجاج يتجه من القصورية في الجنوب

الغربى إلى منطقة الأبيار التى تبعد عن القصورية مسافة عشرين ميلاً ، ولكن سقوط المطر أغنانا كثيرًا عن الماء ، وجعلنا نسلك طريقًا مباشرًا غربًا فجنوبًا ، ثم غربًا مرة ثانية ، مخترقين بذلك سلسلة جبال دمخ Damakh . والإبل نفسها لم تحتج إلى السقيا ، وكنا نملأ قرب الماء من برك المطر التى نتجت عن العاصفة فى المنخفضات وفى التجاويف الصخرية .

ودخلنا سلسلة جبال ضمخ من ناحية الطرف الشمالى لسلسلة جبال سمرة حاليان ، وضربنا خيامنا لقضاء الليل فى تجويف رملى تحيط به روابى البازلت ، التى استطعت من خلال واحدة منها رؤية كتل الجرانيت فى السلسلة الرئيسية التى ظهر ظلها واضحًا ومن خلفها أفق الغروب العظيم . كنا هنا على ارتفاع يقدر بحوالى ٣٢٥٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر ، أما قمة سلسلة جبال سمرة فقد كانت على ارتفاع يقدر بحوالى ٣٧٠٠ قدم ، على حين كانت كتل الجرانيت الثقيل جداً فى كل من غرور Ghurur ، ونصيفة Nasifa ، وفى كحيلة Kahila ، وفريدة Farida ، بمثابة العمود الفقرى للسلسلة كلها ، وكانت مواقعها من الشمال إلى الجنوب ، إذ كانت صخور كحيلة تقع إلى الشرق من نصيفة ، وتمتد مسافة عشرين ميلاً تقريبًا ، وفى رأيى أن ارتفاعها يتردد بين ٤٥٠٠ و ٥٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، وكتلة صخور الغرور هى أكبر تلك الكتل . وفى أقصى الجنوب كنت أرى نهاية سلسلة جبلية عظيمة أو إن شئت فقل كتلة جبلية يطلقون عليها اسم إذقان Idhqan التى تقع جنوب غرب صابحة وسط رمال ضاحى Dahi ، ويشيع عنها أن ارتفاعها لا يقل عن ارتفاعات أعظم الجبال فى نجد العليا ، ولكننا ونحن ندرس التقديرات الوطنية لارتفاعات الجبال يتعين علينا ألا يغيب عن بالنا أن العربى يجهل تمامًا معيار مستوى سطح البحر ولا يعرف عنه شيئًا ، كما يجهل أيضًا انحدار الكتلة القاريَّة فى اتجاه الجنوب ؛ وبناء على ذلك ، فإن جبال صابحة ، التى يقال إنها أعلى جبال نجد ، تقع على بعد مسافة كبيرة فى اتجاه الجنوب . وعلى الرغم من أن قمة جبال صابحة تبدو أعلى من السهل ، عن قمة جبال الغرور ، فإنه القمة الأخيرة (الغرور) تقف على قاعدة عالية تمامًا ، ومن المحتمل ألا يكون هناك فارق كبير بين القمتين . وعلى أى حال ، فإن أية محاولة لتقدير

ارتفاع تلك القمم عن مستوى سطح البحر لابد من أن تقوم بالضرورة على التخمين ، وكان كل همى ينصب على عدم المبالغة مهما كانت الأحوال .

ونقلاً عن عظيمة Izmai ، الذى لم تتح لى فرصة اختبار صحة معلوماته عن ذلك الموضوع ، فإن جبل نير Nir العظيم الذى يزيد ارتفاعه على ارتفاع جبل شعرة Sha'ra فى الناحية الشمالية ، يبدو كما لو كان هو الأساس لكل من سلسلة جبال الحمرة وسلسلة جبال ضمخ ، كما أن سلسلة جبال العريويات التابعة لسلسلة جبال الحمرة ليست سوى امتداد فى الاتجاه الشمالى الغربى عن طريق سلسلتى جبال كل من المجيرة Mujaira وضعلان Dha'lan إلى قاعدة جبال نير ، فى حين إن البروز الجنوبى الغربى ، الذى تعد جبال ضمخ أعلى قممه ، يمتد إلى مسافة أميال قليلة فى اتجاه الطرف الشمالى لسلسة جبال غرور .

وفى صباح اليوم التالى ، الموافق السابع عشر من شهر ديسمبر ، بدأنا مسيرنا فى ساعة مبكرة ، وبعد أن مررنا خلال ممر ضيق بين روابى البازلت التى كانت تمتد فى اتجاه الشمال اعتباراً من نهاية سلسلة جبال سمرة Samra، دخلنا منخفضاً واسعاً عامراً بالأدغال ، يفصل هذه السلسلة الجبلية عن سلسلة الجبال الرئيسية . وواصلنا المسير عبر تلك السلسلة الجبلية فى اتجاه الجنوب الغربى إلى سرج منخفض يصل صخور نصيفة الشامخة بصخور فريدة الشامخة أيضًا . وفى هذه المنطقة وعلى فترات زمنية فى أثناء النهار شاهدنا الحياة الحيوانية الوافرة ، إذ شاهدنا الأرانب البرية وهى تفر هاربة بين الأدغال ، كما شاهدنا أيضًا قطعان الغزلان وهى تفزع هاربة من اقترابنا منها ، فقد وقفت تلك الغزلان لحظة احتجت خلالها على تعدينا على أمنها وسلامها ، ثم راحت تعدو هاربة بعد ذلك تعبيرًا عن استيائها من مجيئنا . وشاهدنا الغربان وهى تلعب حول برك الماء ، كما شاهدنا أيضًا اثنى عشر من الحبارى وهى تطير هاربة إلى وادٍ جانبى . ونباتات هذه المنطقة معظمها من أشجار السنط ، ونباتات الوهت ، ونبات السمار ، ونبات السلم Salam ، وأشجار الطلح الحاملة للصمغ ، والتى شاهدت عليها ولأول مرة ، وبكميات وفيرة ، الأعراف الحاملة للصمغ الكهرمانى الشفاف .

كما كانت تنتشر هنا وهناك أشجار الوزّال الصحراوية ، وشاهدنا واحدة من تلك الأشجار وقد نشرت سيقانها المزهرة من حولها ، الأمر الذى مكن ستة عشر جملاً من التجمع حول تلك الشجرة لترعى سيقانها العامرة بالسوائل والعصير ، وتأتى على كل تلك الأغصان ، ولم تكن حشائش الثُّمام هى وحزم العرفج Arfag قد نجت بعد من جفاف الخريف .

وبعد أن وصلنا السرج نزلنا إلى شريط واسع من الزلط الأسود يقع بين رافدتى نصيفة وفريدة ، وهنا شاهدنا جربوعًا يجرى من أمامنا طلبًا للاختفاء ، وهنا اندفع ستة من العرب يجرون خلف الجربوع ويحفرون الأرض بأيديهم وباستعمال عصى الجمال بحثًا عن ذلك الجربوع ، الذى أمكنهم إحضاره فى النهاية ، ولكن بينما كنا نناقش مسألة ذبحه على الفور لاستعماله فى الوجبة القادمة ، وبينما كان الرجال يتقاذفونه بين أيديهم سقط ذلك الحيوان الصغير على الأرض ، وفر هاربًا بأقصى سرعة ومن خلفه ستة من رجالنا العدائين . وعلى الرغم من غرابة البيئة المحيطة التى لم تكن فى صالح ذلك الحيوان ، وعلى الرغم أيضًا من متابعة الرجال له من نقطة إلى أخرى ، فإنه كان أمكر منهم ، إذ استطاع عن طريق السرعة وسرعة المناورة أن يهرب من الرجال ، الأمر الذى جعلهم يعودون بخفَّىْ حنين بعد ضياع تلك الوجبة اللذيذة رغم ضآلتها . والبدو جميعهم ، باستثناء قبيلة حرب Harb ، يأكلون الجرابيع ، ولذلك راح أفراد الجماعة الذين ينتمون إلى تلك القبيلة ، يستخفون بالبقية ، بأن راحوا يُعَنفونهم لأنهم يأكلون حيوانًا غير نظيف لا تبيح الشريعة الإسلامية أكله .

وهنا تجاوزنا حزامًا منخفضًا من سفوح التلال ووصلنا إلى مدخل سهل السِّرة Sirra ، ورأينا خلفنا سلسلة جبال ضمخ الداكنة ، التى يعد عمقها من الشرق إلى الغرب بمثابة خط مستقيم يصل طوله إلى حوالى عشرة أميال ، ومن خلف السهل يجىء حزام نفود السِّرة ، ومن فوقه الطبقات البارزة من صخور البازلت . وشاهدنا خلف الوادى أيضًا قرى مخياط بقممها المخروطية الخمس ، كما شاهدنا أيضًا جُنَيْح Junaih ، التى تشبه - وذلك من وحى اسمها - جناحى غراب مفرودين ، بعد أن سقط على أرض رملية جرداء . وشاهدنا فوق كل ذلك قرى أخرى كثيرة ، كانت خلفية كل

ذلك المنظر عبارة عن ثلاثة سلاسل طويلة من جبال البازلت ، فهذه سلسلة جبال علام 'Alam في الناحية الشمالية ، وتمتد ناحية الغرب من المكان الذى نحن فيه ، وتلك سلسلة جبال زايدى Zaidi شديدة الطول ، والتى تتصل بسلسلة جبال علام بعد منطقة رملية ، وتواصل امتدادها فى اتجاه الجنوب ، وتلك هى سلسلة جبال جرضاوى Jird-hawi فى الجنوب الغربى تحجب سلسلة جبال أذقان التى لا نرى منها سوى قمتها .

وبعد أن عبرنا الشريط المتوسط من السهل الذى ينتشر فيه الزلط الأسود بشكل كبير ، دخلنا مجرى شعب قحقا Qahqa الذى تنمو فيه الأعشاب والأدغال ، وسرنا فى ذلك المجرى الذى تصب فيه منحدرات ضمخ الغربية مياهها من ناحية الجنوب الغربى إلى أن يلتقى ذلك المجرى بوادى سرَّة ، الذى تنتشر فى قاعه تموجات طويلة من الزلط الأسود ، والذى وصلناه بعد مسير خمسة أميال . ووادى سرة العظيم يرتفع فوق جانب سلسلة جبال عَلاَم ، ويتجه جنوبًا بطول الحافة الشرقية لصحراء النفود ، التى تحمل اسم ذلك الوادى وتفصله عن سلسلة جبال زايدى Zaidi ؛ ويواصل وادى سرة امتداده إلى جرذاوى التى ينحنى عندها ليتجه شرقًا من جديد ، ثم يستمر بعد ذلك بطول الجانب الأيسر من سلسلة جبال صابحة والحساة Hasat ، لتتجمع فيه مياه الصرف القادمة من حالبان ، ومن جربوع ، ومن ساردة ، ومن حرمالية (حريملاء) Harmaliyya أيضًا ، ثم يمر الوادى بعد ذلك بكل من نفود ضاحى Dahi على الجانب الأيمن ، ودلقان ، والقنيفذة Qunaifida على الجانب الأيسر إلى أن يصل إلى حاجز الطويق Tuwaiq ، ويخترقه متجهًا إلى مخرج الصحابة Sahaba ، عن طريق قناة العبور الكبيرة فى شعب بيرك Birk[٢٣] وجهل الجغرافيين بوجود وادى السرة من ناحية ، وجهلهم أيضًا بعلاقة ذلك الوادى بتصريف الصحابة عن طريق شعب بيرك ، وعن طريق قنوات الأعجمى ، هذا الجهل هو الذى جعل الجغرافيين يزعمون وجود منحدر متسق يمتد من الشمال إلى الغرب فى شبه الجزيرة العربية ، وذلك تأسيسًا على معرفتهم لحقائق حالة واحدة مفادها أن شريانى الصرف الرئيسيين فى وادى سرة ، أى وادى ريمة Rima ووادى الدواسر Dawasir يمتدان فى ذلك الاتجاه . ولكن المعطيات المتوفرة حاليًا تحتم تغيير تلك الفرضية وذلك الزعم . وأولى تلك المعطيات تتمثل

فى أن وادى الدواسر لا يسير فى اتجاه شمالى غربى ، وإنما فى اتجاهٍ جنوبى شرقى . وثانية تلك المعطيات أن المنظومة النهرية العظيمة التى تضم كلاً من سَرَّة وبيرك وأعجمى A'jaimi والصحابة ، والتى تنساب فى اتجاه الشرق قادمة من قلب مرتفعات نجد ، من خلال حاجز الطويق لتنساب بعد ذلك إلى البحر فى منطقة الرأس البحرى بالقرب من قطر ، هذه المنظومة تجعلنا نفترض وجود انقسام بين تلك المنظومة وتصريف كل من وادى الدواسر وريمة على الجانبين . وثالثة تلك المعطيات تتمثل فى أن دراسة مستويات الوديان الثلاثة توضح أن منظومة السرَّة تقع على مستوى أعلى من المنظومتين الأخريين ، إذ يزيد ارتفاعها على ارتفاع ريمة بحوالى ٨٠٠ قدم ، وعن وادى الدواسر بحوالى ٤٠٠ قدم . وهنا يتعين علينا التوصل إلى نتيجة مفادها ، أنه إذا كان انحدار شبه الجزيرة الرئيسى من الغرب إلى الشرق ، أو إن شئت فقل : من جبال الحجاز إلى الخليج الفارسى ، فإن سلسلة من سلاسل الجبال الرئيسية تسير ، على حد معرفتنا ، فى اتجاهٍ شمالى غربى عبر شبه الجزيرة ، على امتداد خط تحدده سلاسل جبال هذب Hadhb الدواسر ، ومنخرة Mankhara ، وزايدى ، وعَلاَم ، تحدث انحرافًا فى المنحدر العام تجعله يتجه شمالاً وجنوبيًا على جانبى المنحدر العام ، ليصل إلى كل من وادى ريمة ووادى الدواسر . من هنا ، فإن انحدار شبه الجزيرة يتخذ طابع المبنى الجانبى ذى السطح المائل ، الذى تكون له قمة عريضة منبسطة ومستوية ولكن بها ميول لطيفة فى اتجاه الشمال والجنوب . أما المنحدر بكامله فهو يغلب عليه أن يكون من الغرب إلى الشرق ، أو إن شئت فقل : إن سطح شبه الجزيرة العربية يسير تقريبًا فى اتجاه الانحدار الرئيسى ، عن طريق ثلاثة وديان واسعة ولكنها ضحلة ، وإن وادى سرَّة هو أعلى تلك الوديان الثلاثة ، ويحتل موقعًا متوسطًا فيما بين الواديين الآخرين .

واعتبارًا من هذه النقطة سوف تشكل الأراضى المرتفعة مشهدًا من مشاهد الارتباك الفطرى الذى يصعب تمامًا فك رموزه . وهذا المشهد ، وعلى العكس من الوحدات الثلاث الأولى من منظومة الأرض المرتفعة ، والتى اجتزناها بالفعل ، والتى تتسم سلاسلها الجبلية باتجاهها من الشمال إلى الجنوب ، كما تفصلها عن بعضها البعض

وديان محددة المعالم ، هذا المشهد الرابع ، أو إن شئت فقل وحدة الزايدى ، إن جاز لنا أن نطلق عليها مثل هذا الاسم ، يمكن وصفها بأنها بحر واسع من الرمال المنقولة بواسطة العواصف ، وتتخللها على مسافات غير متساوية جزر طويلة أو إن شئت فقل صخور منعزلة من صخور البازلت . ويزداد هذا الارتباك سوءًا واضطرابًا ، نتيجة عناد العربى وإصراره ، وعدم اقتصاره على اختراع اسم لكل صخرة من الصخور وكل سلسلة من السلاسل الجبلية ، بل على حتمية تقسيم الرمال نفسها إلى مجالات ومناطق ، يطلق على واحدة منها اسمًا محددًا . والنفود التى نحن فيها الآن ، هى بلا أدنى شك نتوء شمالى من نتوءات منطقة رمال ضاحى Dahi الشاسعة التى تقع فى الناحية الجنوبية ، على حد معرفتى . كما أن تلك المنطقة الرملية الشاسعة تنتهى جنوب خط طول سجاع 'Sija . ومن الشرق إلى الغرب فيما بين الطرف الشرقى لنفود السرَّة وحتى الحافة الشرقية من وادى نعيم Na'im يصل متوسط عرض وحدة زايدى إلى حوالى أربعين ميلاً ، وبالتالى فإن الطريق الذى نسلكه والذى يتحتم أن يتبع الخط الأقل عوائقَ ويمتد بطول تلك المنخفضات ، لابد أن يكون أطول قليلاً من الخط المعتاد .

والحافة الخارجية لتلك الرقعة من الأرض تضم سلسلة جبال عَلاَم وكذلك الرمال التى تبرز منها تلك السلسلة فى الناحية الشمالية ، كما تشمل أيضًا نفوذ سرَّة التى يصل عمقها إلى حوالى ثلاثة أميال فى الوسط ، وأخيرًا سلسلة جبال جرذاوى فى الجنوب . وقد عبرنا ذلك الحزام عن طريق النفود ، التى لم تشكل سلاسلها الرملية الأربع أية صعوبات أمامنا ، وبخاصة عندما خيمنا عند سفح سلسلة جبال زايدى ، التى راحت الجمال فيها تنعش نفسها على أعشاب النصِّى Nussi الوفيرة ، تلك الأعشاب المغذية ، والتى تبحث عنها الدواب بكثرة أكثر من الأعشاب الصحراوية الأخرى ، والتى تنمو بوفرة وغزارة فى تلك الرقعة من الأرض الرملية ، إلى الحد الذى يجعل من ذلك المكان واحدًا من أفضل المراعى فى غربى الجزيرة العربية كلها . ومع ذلك ، فقد عبرنا تلك المنطقة بكاملها دون العثور على أية علامة أو إشارة من إشارات الحياة البشرية ، على الرغم من تأكيد المرافقين لى على أن الحياة سوف تبعث فى ذلك المكان بعد فترة وجيزة ، حينما تأتى إليها قطعان مواشى وأغنام قبيلة عتيبة .

وفى اليوم التالى شرعنا فى مناقشة الشريط الداخلى الذى يتكون من سلسلة جبال زايدى فى الجنوب ونفود سخة Sakha فى الجانب الشمالى . وواصلنا مسيرنا على طول الحافة الخارجية لسلسلة جبال زايدى إلى أن وصلنا إلى آخر نقطة من نقاطها فى الشمال، تلك النقطة التى هى عبارة عن كتلة من الجرانيت تشبه القنفذ ، ويطلقون عليها اسم خنزير Khanzir ، التى دخلنا من بينها هى ورابيه جُنيح Junaih قسمًا من سهل زلطى تحيط به رمال سرّه ؛ ونفود سخة Sakha بكل صورها ، تختلط ببعضها البعض على نحو يصعب معه الفصل بينها . وعن يسارنا شاهدنا أعلى قمة فى سلسلة أخرى من سلاسل الجبال البازلتية ، والتى يطلقون عليها اسم كرش Karsh[٢٤] ، وهى تقع على بعد مسافة قريبة من الخلف ، والمؤكد أنها تنتمى إلى القسم الثالث ، أو إن شئت فقل القسم الغربى من تلك المنظومة . ثم اجتزنا دارة الجنيح Darat al Junaih، وهذا هو الاسم الذى يطلقونه على ذلك السهل ، وصعدنا إلى ممر رملى تنتشر فيه هنا وهناك صخور خضراء تبرز من سطح الأرض ، الأمر الذى أضفى لمسة بهيجة من اللون على لون الرمال الأصفر الممل ، وعلى لون البازلت الأسود الممل أيضًا . ثم نزلنا بعد ذلك إلى منخفض مالح يقولون له جاو دهو Jau Dahu الذى يمتد ناحية الجنوب بطول الجناح الغربى لسلسلة جبال زايدى ، التى يوجد عند سفحها فى مجرى جاو Jau، على عمق حوالى عشرة أميال ، مجموعة أبيار المريفيق غير العذبة . وقد شاهدت ذلك المنخفض وهو يتلالأ لامعًا فى بعض أجزائه بفعل سقوط أشعة الشمس على أملاحه .

ومن خلف ذلك المنخفض توجد بعض الصخور السوداء المبعثرة التى تعد نقطة إشارية تدل على الموقع الذى توجد فيه أبيار سخة Sakha ، التى وصلناها خلال دقائق معدودات . وأبيار سخة تنقسم إلى مجموعتين تقعان وسط تجويف تحيط به أكوام الرمال العالية من كل جانب ، وهو على شكل حدوة الفرس[٢٥] ، وهذه بحق تمثل عينة فريدة لتلك الظاهرة التى تميز هذا النوع من السطح ، ولم أر لتلك العينة مثيلاً فى كل تجوالى . وسطح ذلك التجويف منبسط وناعم الملمس وتتخلله عند طرفه الشمالى صخور بارزة خضراء اللون ، وفى منتصف ذلك التجويف توجد سلسلة من الأبيار يصل عددها إلى ستة أبيار أو سبعة ، تحيط بها كتل من الصخور الخضراء وفيها مياه

وفيرة ولكن ليست عذبة ، وعلى عمق خمسة أقدام فقط ، وهى التى استحم الرجال فيها بعد أن سقوا الإبل . ومياه تلك الآبار ليست صالحة للاستعمال الآدمى ، ولكن الطبيعة تعوض ذلك ، فى الطرف الشمالى الغربى من ذلك التجويف ، حيث يمكن الحصول على الماء العذب ، عن طريق الحفر فى الرمل إلى أعماق تتراوح بين قدمين وثلاثة أقدام . وتوجد فى ذلك المكان حفر عدة غير مبطنة، جرى حفرها هنا على مر الزمن ، وتتوفر فيها المياه العكرة إلى حد ما ، والتى توفر مدداً لا ينتهى من الماء إذا تعذر الحفر على من يود الحصول على الماء .

وهذا التجويف ، الذى يبلغ من أطول جوانبه قرابة الميل ، يمتد من الشمال إلى الجنوب . ونظراً لزيادة انحدار الرمل وزيادة ارتفاعه عند منحنى حدوة الفرس فى الطرف الأيمن عنه فى الطرف الأيسر ، الذى تختلط عنده الصخور السوداء المنخفضة مع الرمل ، والتربة هنا طينية وخالية من الحياة النباتية اللهم إلا باستثناء بعض شجيرات الشرر Sharr . هذا على الرغم من عدم صلاحية ذلك المكان ، بأى حال من الأحوال ، للإقامة فيه بصورة دائمة ، إن قدر لنا أن نرى العرب يستوطنون بصفة دائمة مكاناً نائياً مثل ذلك المكان ، وبعيداً أيضاً عن المدينة والتحضر . وقد أوحت تلك الفترة لابن سعود ، بل وفرضت نفسها عليه ، عندما كان ينفذ مشروع مستوطنات الإخوان(*) ، ومع ذلك لم تحظ تلك الفكرة بالقبول من جانب البدو ، الذين لم يكن من بينهم أحد يستطيع استيطان تلك المنطقة ، سوى قبيلة عتيبة . وفى عام ١٩١٢ الميلادى ، اتخذ ابن سعود الذى لم يتوغل غرباً قط إلى ما بعد سخة[٣٦] Sakha ، اتخذ من تلك الآبار مرتكزاً له فى أثناء الهجوم الكبير الذى شنه على قبيلة عتيبة ، والذى عاد منه متوجاً بغار النصر ومحملاً بالغنائم . ومع ذلك ، ونظراً لعدم إحكام ابن سعود قبضته تماماً على تلك القبيلة ، لتنازعه هو وشريف مكة عليها ، فقد بقيت تلك القبيلة متأرجحة دوماً . وعلى الرغم من حصول حركة الإخوان مؤخراً على اهتمام كبير من قبل زعمائها ، فإن المزايا التى

(*) للمزيد عن مجتمعات الإخوان ومستوطناتهم وهجرهم ، راجع كتاب "الإخوان السعوديين" ، تأليف : جون حبيب ، ترجمة د / صبرى محمد حسن ، ونشرته دار المريخ .

تترتب على إقامة مستوطنة فى تلك المنطقة التى تتحكم فيها قبيلة عتيبة ، يجعل من صدق مثل هذه المستوطنة ومن ولائها ومن تشددها ، أمورًا تدور من حولها الشكوك والظنون .

وبعد أن تسلقنا المنحدر الرملى من الجانب الأيمن لتجويف سخة Sakha دخلنا على الفور سلسلة جبال مندسة Mandasa المنخفضة ، وسرنا بجانبها فى الاتجاه الجنوبى الغربى إلى أن دخلنا سهلاً رمليًا واسعًا يقال له شعب الردَّادى Raddadi ، الذى ضربنا فيه خيامنا لقضاء الليل ، فى جانب من جوانب صخرة بارزة من الصخور الخضراء ، بعيداً عن مهب الريح ، وتركنا إبلنا المرهقة ترعى وتأكل من عشب النصى Nussi الذى ينمو بوفرة فى ذلك الشعب .

وفى صبيحة اليوم التالى ، كنا جميعًا قد أعددنا العدة لاستئناف المسير قبل أذان صلاة الفجر ، وبينما راح رفاقى يؤدُّون صلاة الفجر شاهدت ولأول مرة الصليب الجنوبى الذى يقولون له هنا النُّعيم Nu'aim . ومن رأى عظيمة Izmai ، أن شعب الردَّادى الذى نجتازه الآن ، مجرد منخفض مسدود وليس مجرى من مجارى المياه ، وأن الماء الذى ينصرف إلى ذلك المنخفض من سلسلة الجبال المحيطة به إنما تمتصه الرمال، أو يهير كما يقولون هنا . وبعدئذ تجاوزنا الطرف الشمالى من سلسلة جبال كريش ، التى تمتد جنوبيًا لمسافة عدة أميال إلى أن تصل إلى القمة الرئيسة ، التى تقع أسفلها أبيار كويكيب Kuwaikib غير العذبة(٢٧) . ومياه هذه الأبيار ، شأنها شأن مياه أبيار مهْداث Mahdath التى تقع على بعد حوالى عشرين ميلاً شمالاً تحت صخرة كبيرة منعزلة ، والتى تقع أيضًا شمالى بديعة Budai'a على طريقنا ، يقال : إن لها تأثيرٌ مُضرٌّ على البشر ولكنها صالحة تمامًا للدواب . وفى الناحية الشمالية الغربية توجد سلسلة جبال عقَّار التى تمتد من الشمال إلى الجنوب . وبعد ذلك ، شاهدنا فى طريقنا سلسلة جبال البازلت التى تتخللها الرمال ، وهذه السلسلة يطلق عليها اسم البويبيات Buwaibiyat ، التى تركناها فى اتجاه الجنوب . وفى جنوب البويبيات تقع صخور ، أو إن شئت فقل سلسلة جبال وعلة Wala وأرويسة Arwisa ، وإلى الغرب من

هاتين السلسلتين توجد سلسلة جبال شعثان Sha'than ، وهذه السلاسل الثلاثة تشكل امتداداً متقطعاً لخط عقّار - البويبيات .

واجتزنا بعد ذلك سلسلة جبال مزدوجة يقولون لها أبو نبتَة Abu Nabta لندخل منها إلى نفود بشارة الشاسعة التى تمتد إلى ما بعد مرمى البصر فى اتجاه الشمال ، وسرنا خلالها فى اتجاه سلسلة جبال البُدَيْعة Budai'a وروابى الحمَّة Hamma وأم الجوير Umm al Jawair عن يسارنا . وشاهدنا منخفضًا طينيًا ضحلاً على الجانب البعيد من تلك السلسلة الجبلية ؛ وأبيار البُديعة تقع داخل المنخفض ، وتجاوزنا تلك المنطقة عن طريق السير حول الطرف الشمالى لسلسلة جبال البُدَيعة ، ثم نزلنا بعد ذلك منحدراً رمليًا أوصلنا إلى وادى نعيم Wadi Na'im . وهنا أصبح القسم الأخير ، أو إن شئت فقل القسم الرابع من مرتفعات نجد ، إلى الخلف منا . وبذلك نكون قد عبرنا ديرة عتيبة من أقصاها إلى أقصاها بلا منغصات ، وذلك باستثناء الرجلين اللذين هربا من أمامنا إلى قرية القصورية ، ولم نصادف أحداً على الإطلاق من أفراد تلك القبيلة .

عند الساعة الثانية من مساء اليوم الرابع عشر من شهر ديسمبر كنا قد تجاوزنا شعب حرمالية (حريملاء) Harmaliyya إلى نجد العليا ، وكنا أيضًا قد تجاوزنا نجد العليا ودخلنا وادى نعيم عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر ، بعد أن قطعنا مائة وخمسين ميلاً ، خلال خمسة أيام ، أى ما يزيد على أربعين ساعة من المسير الحقيقى . وأنا على امتداد هذه الصفحات قدمت وصفًا كافيًا إن لم يكن بالغ التفصيل للخصائص العامة لتلك الأراضى العالية متخلخلة السكان إلى حد كبير ، والتى لا تقل مساحتها بأى حال من الأحوال عن ١٠٠٠٠ ميل مربع[٢٨] . ها أنذا قد تجاوزت أراضى نجد العالية ، ولم أعد أرى منها شيئًا ، كما أشعر بالأسف والندم للسرعة فى السفر التى فرضتها علىَّ طبيعة الرحلة والمهمة التى كنت مضطلعًا بها ، والتى لم تسمح له بالابتعاد عن الطريق الذى يسلكه الحجيج منذ مئات السنين ، وهم يشدون رحالهم متعجلين مثلنا ، قاصدين المدينة المقدسة ، وأنا على يقين أيضًا أننى تركت لرحَّالة المستقبل كثيراً من المشكلات المعقدة بلا حل ، وتركت لهم أيضًا

ألغازًا كثيرة تحتاج الحل ، وذلك كله فيما يتعلق بمرتفعات نجد ، أو إن شئت فقل الأراضى المرتفعة حقيقة فى وسط نجد . تركت لهم ألغازًا كثيرة عن السلاسل الجبلية الثلاث العظيمة ، وعن هبوب أمواج الرمال ، وتداعى صخور البازلت ، التى تشكل الحاجز الرابع . وتكملة تركت لهم ألغاز هبوب العواصف على صخور الجرانيت الضخمة المتمثلة فى "أذنين الشمال" ، وتركت لهم أيضًا لغز الصخور الحمراء التى غسلتها الأمطار فى منطقة الحمراء ، وبخاصة عندما تتلألأ تلك الصخور فى ضوء الشمس ، وتركت لهم لغز تلك الجبال الهائلة غير واضحة المعالم فى أقصى الجنوب ، وتركت لهم ألغاز ومشكلات بيارات النخيل الجميلة ، والقرى القذرة ، والبيوت الريفية الكبيرة المنعزلة ذات الأبراج ، تركت لهم كل تلك الأشياء التى أحتفظ لها بذكريات لا تصفها الكلمات ولن يمحوها الزمن .

٥- مضارب السُّبيع

وادى نعيم ، عبارة عن منخفض ضحل يصل عرضه إلى حوالى ميل واحد ، وهو يفصل نجد العليا عن سهل الشِّفة Shifa الواسع ، الذى تتصل حافته الكئيبة بالأفق فى الجنوب وفى الغرب ومن ناحية الشمال أيضًا ؛ ولم نر فى ذلك السهل الواسع أية علامة أرضية ، سوى عدد قليل من الروابى المنخفضة التى كانت تنتشر فوق ذلك السهل الزلطى ، والتى طالعنا بعدها حاجز عرق السُّبيع الرملى ، ومعه فى الوقت نفسه ، قمم هضبة Hadhb الدواسر وسلاسلها الجبلية الكثيرة بحق ، والتى تتكون من الجرانيت ، وتمتد من الشرق إلى الغرب عبر نفود داحى Dahi ، كما تفصلها عن جبال السويداء - التى تقع بينها وبين الحساة Hasat - سهل الجمرة Jamra الزلطى ، الذى تقع فى مساراته المائية الضئيلة مستوطنتا قحطان الصغيرتان : قرعة Qara'a وعيفرة 'Aifara على مسافة تقدر بحوالى خمسين أو ستين ميلاً جنوب الطريق الذى نسير فيه.

والشِّفة Shifa التى يتمثل حدها الشمالى فى خط وادى ريمة Rima ، الذى ينحصر بين حرة كشاب Harra Kishab ، أو إن شئت فقل : حرة آل حرب كما يسميها الناس

هنا ، وبين قرية سجاع Sija' التى تبعد حوالى أربعين ميلاً شمال غربى المكان الذى نحن فيه فى وادى نعيم ، هذه الشفة ترتفع غربًا فى اتجاه السهل الواسع ارتفاعًا هيِّنًا متدرجًا . وعواصف الصيف والشتاء تمر على هذه بلا أية عوائق ، وهى قادمة من جبال الحجاز ومتجهة إلى نجد العليا (مرتفعات نجد) ، كما يسقط المطر فوقها ولكن على فترات متباعدة . والأمطار الغزيرة التى بللتنا مؤخرًا تركت منطقة الشَّفة جافة ، وقيل إن ذلك السهل الواسع الجاف لم تسقط عليه أمطار منذ سنين عدة . وهذا الجدب ، الذى يتمثل فى الزلط بألوانه المختلفة : الأسود ، والبنى ، والرمادى ، تراه فى كل مكان من ذلك السهل الجاف ، ويستحيل أن تجد فيه شجرة أو شجيرة أو حتى مجرد قبضة أو عود واحد من العشب . ومع ذلك ، يتحدث الناس هنا عن سنوات تتوافد خلالها قطعان مواشى البدو وأغنامهم على ذلك السهل لترعى العشب الفاخر الذى تستطلقه زخات المطر من تربة ذلك السهل البكر بعد أن تسقط عليها .

وبينما كنا ندخل إلى أرض ذلك السهل ، شاهدنا عن يميننا وعن يسارنا سلسلة جبال برقة نعيم Na'im وسلسلة جبال الصوان المنخفضة والقصيرة أيضًا ، وعند الظهر توقفنا عند روابى أوشيجيات Aushijiyat ؛ وبينما كنا نواصل المسير بدت لنا ، عن بعد ، فى اتجاه الشمال الغربى سلسلة جبال حُميَّة Humiyya ، هى وآبارها بمياهها غير العذبة ، التى تقع عند السفح . كما شاهدنا ، عن بعد أيضًا ، جبل أبو الحرَّان Abul Hirran ومخروطات الحتيميات Hutaimiyyat(٢٩) التى تنتشر هنا وهناك . وهنا خيَّمنا لقضاء الليل بالقرب من جبل مسيجرة فى سلسلة جبال حسيات Hasiyat ، ومن أمامنا على مرمى البصر نفود السبيع .

وهنا أصبحنا فى مأمن من الأخطار التى تنطوى عليها ثنيات جبال نجد العالية ؛ ففى أثناء النهار لا يمكن لأى عدو أن يقترب منا دون أن يعلن اقترابه عن وجوده فى الوقت المناسب ، ولكن فى الليل لا يمكن حجب رؤية نار المخيم عن قطَّاع الطرق واللصوص الذين قد يحوِّمون هنا أو هناك . وعلى امتداد أربعة أيام ، منذ أن غادرنا القصيرية وإلى يومنا هذا لم نر أحدًا من البشر ، ولكننا بانتهاء نهار اليوم شاهدنا

روث أغنام مضى عليه يوم أو يومان على أكثر تقدير ، الأمر الذى أكد لنا وجود بعض الرعاة على مقربة منا . وعند وصولنا إلى المخيم طالعنا جحفل من جحافل جراد الخريف ، ولكن الأمل فى الوليمة التى ساقتها العناية الإلهية تحطم بعد أن فحص الرجال تلك الحشرات الضعيفة ، وهنا جلسنا نتناول عشاءنا المكون من الأرز فقط ومعه صيد النهار ، الذى تمثل فى أرنب برى واحد ، اصطادوه بفتح النار عليه بينما كان نائمًا تحت كومة من العشب ، ووزّعوا لحمه على ثلاثين رجلاً . كم كان جميلاً الجلوس فى تلك الليلة ، وبخاصة فى أثناء الليل ، من حول نار المخيم ، ونحن جميعًا نشرب القهوة ، بينما كنت أنا المدخن الوحيد ، من بين أفراد المجموعة ، إذ غفروا لى هذه الخطيئة فى شخصى ، ورحنا نحكى عن الأيام الطويلة المرهقة التى أمضيناها ، ونتذكر أيضًا الأيام التى كانت تنتظرنا . وزجرنى الرجال على أوامرى القاسية التى كنت أفرضها على الرجال وعلى الجمال ، وقالوا لى : إن العرب متعودون على تحمل المتاعب إذا ما تطلب الأمر ذلك ، ولكنهم لم يصادفوا فى حياتهم من يستمرئ تلك المتاعب ويتمتع بها . وراح تامى يحكى لنا ذكرياته عن الرحّالة الإنجليز ، الذين قرأ عنهم ، والذين كانوا أكثر تعقلاً ، فى الوقت الذى كنت أرد عليه وعلى ما يثيره من نقاط ، عن طريق الاستعانة بالتقارير التى كتبها أولئك الرحّالة أنفسهم عن كسل وتراخى رفاقهم العرب . وتوقف الهزر على شفاهنا عندما سمعنا عواءً طويلاً يخترق الظلام من حولنا . قال أحدهم : "انتبه ، هذا ذئب ، ها هو يعوى من جديد" . وقال آخر : "ربما يكون كلبًا سلوقيًا فى مخيم من مخيمات رعاة الأغنام" ولكن العواء كان قريبًا منا ولم نر أية علامة تدل على الحياة البشرية عند غروب الشمس . وقال ثالث : "لا ، هذه إشارة يطلقها مستطلع بدوى ينادى بها عصابته ."

أطفأ الرجال النار وانصرف كل واحد منهم إلى سلاحه ، فى حين انصرف الرفاق عدواً إلى أركان المخيم الأربعة الواحد بعد الآخر ، وتركونى فى مكانى وزمانى لسكون الليل ، واستأنف الحراس عملهم فى أثناء الليل ، وفى صبيحة اليوم التالى اكتشف قصاصوا الأثر آثار أقدام الذئب ، الذى نغّص علينا حياتنا فى أثناء الليل ، بالقرب من المخيم .

وصعدنا بضعة أميال قليلة فوق قمة الشُّقة ، نزلنا بعدها منحدرًا لطيفًا مؤديًا إلى الرمال من جديد ، وشاهدنا صخور كبدة Kabda إلى الجنوب من تلك الرمال ، وصخور الشُهيلة Ashuhaila إلى الغرب منها . وهنا بدأت تطالعنا ، من حين لآخر ، فوق ذلك السهل القفر ، بعض الشجيرات وحزم الحشائش ، كما شاهدنا أيضًا قطيعًا من الغزلان ، وهى تعدو بجانبنا مسرعة إلى النفود ، فى الوقت الذى أبلغت المؤخرة فيه ، عن مشاهدة ركب بعيد يسير فى اتجاه الشمال ، وأن ذلك الركب كان مكونًا من ثلاثة أفراد ، راح أحدهم يعدو لإبلاغ القوة الرئيسية ، وأنهم لا يعرفون إن كان ذلك الإبلاغ عن وجودنا أو عن أى شىء آخر ؟ وهنا رحت أستطلع الأفق – مستخدمًا لذلك نظارة الميدان – دون جدوى ، والسبب فى ذلك أن ثنية من الثنيات الأرضية كانت قد ابتلعت الاثنين الآخرين من ذلك الركب ، وبعد قليل من التشاور قررنا استئناف مسيرنا . كنا فى ذلك الوقت ، قد بدأنا الدخول إلى منطقة حاجز الرمال فى منطقة عرق السبيع 'Arq al Subai' ، التى تمتد بطول المجرى الطينى الشهير الذى يصل اتساعة إلى قرابة الميلين فيما بين ضفتيه الرمليتين العاليتين عند المصب ، ثم يضيق بعد ذلك إلى ما يقرب من ربع الميل تقريبًا ؛ وهذا المجرى يشتق اسمه خدود Khudud من اسم سلسلة أو خط غير منتظم من جبال البازلت المنخفضة ، التى نسيها تمامًا الرمل القريب منها ، وتمتد فى اتجاه الجنوب والجنوب الغربى ، مسافة ثلاثة عشر ميلاً ، وبذلك تكفى المسافر مئونة الإرهاق الذى يترتب على عبور وسائد النفود الرملية وحواجزها الواسعة .

وهنا تركز انتباهنا على الراكبين الثلاثة والأخطار التى يمكن أن تترتب على وجودهم . لم أدر إن كان أولئك الثلاثة من الغزاة ويمارسون عملهم ، وبالتالى كنا نحن تحت رحمتهم ، وذلك من منطلق الافتراض بأن أولئك الثلاثة كانوا يعرفون طريقنا مثلما نعرفه نحن ، وأنهم كانوا فى موقف يسمح لهم بتعقبنا أو نصب كمين لنا فى منطقة متقدمة على طريقنا ، أو بالهجوم علينا فى أثناء الليل حسبما يتراءى لهم ، وأصبح من الواضح لنا ومن الحكمة أيضًا أن نسارع إلى أبعد حد ، وكان من رأيى السير فى الطريق نفسه ، أما إبراهيم الذى كان كل همه يتركز فى تناول الإفطار ، فقد كان له رأى آخر مختلف ، إذ قال إبراهيم : "اتركوا أثرنا خلفنا ودعونا نتوقف لتناول طعام

الإفطار في أقرب مكان" . ثم نادى إبراهيم على جرمان قائلاً : "يا جرمان Jarman اهبط إلى الرمل وخط وسماتنا(٣٠) على الطريق". وهنا فعل العتيبي ذلك الذي أمر به إبراهيم ، بأن خط شعار ابن سعود ، والشريف ، وفخذ برقة من عتيبة والسبيع . هذه هي طريقة الصحراء البسيطة التي يستعملها البدو في التفاهم والتواصل ، أو إن شئت فقل : هذا هو البديل البدوي عن الكتابة ، وهذا البديل كاف لينم عن امتلاك الماشية ، وكاف أيضاً للدلالة على شخصية الجماعة المسافرة ، وكاف أيضًا لجعل العصابات النارية تلزم الحذر عند اقترابها منا . وهنا وجدتني أتساءل : "إذا كنتم ترون أن ذلك الشعار كافيًا ، فما الذي يمنع أية جماعة من الجماعات المسافرة ، سواء أكان معها رفيق أم لا ، من انتحال شخصية مزيفة ، كي تستتر بها فعلتها ؟ أو ما الذي يمنع عصابة من الغزاة من فعل الشيء نفسه حتى لا توقع فريستها في الكمين ؟" وجاء الرد بسيطاً ومفحماً : "هذا الذي تقوله لا يحدث مطلقًا ". لأن ذلك إن حدث ، فإنما يعني اهتزاز بنية المجتمع البدوي وإشاعة الفوضى فيها ، لأن ذلك يعني خرق قانون الصحراء والخروج عليه .

ورأيت هنا ، ولأول مرة ، أشجار الغاضة Ghadha الرشيقة الشبيهة بنبات الحمض ، على الرغم من أوجه الشبه الكثيرة بينها وبين أشجار الإثل . رأيت تلك الأشجار تنتشر هنا وهناك فوق المنحدرات الرملية ، والإبل تضطر إلى أكل نباتات الغاضة في حالة غياب الأعشاب الأخرى ، ولكنها يذيع صيتها بين الناس لأنهم يستعملونها حطباً للوقود وبخاصة في القصيم وفي جنوب نجد . وواصلنا مسيرنا عبر منخفض خدود Khudud بعد استراحة قصيرة تناولنا خلالها طعام الإفطار ، وبحلول وقت الظهيرة كنا قد تجاوزنا الطرف الجنوبي لذلك المنخفض ودخلنا منطقة الرمال المتموجة ، وراح كل منا يستحث راحلته المرهقة في محاولة منا للوصول إلى السهل الذي يقع خلف النفود ، قبل غروب الشمس .

كان تامي ، ومعه حيلان Hailan العتيبي ، وأبو نورة الحربي ، يستبقون عظيمة Izmai بمسافة قليلة ويسبقوني أيضًا ، حيث كنت أسير خلف عظيمة ، في حين كان إبراهيم ومعه بقية الجماعة ، بما في ذلك الدواب الحاملة للأمتعة ، على بعد مسافة طويلة

فى المؤخرة ، أو بالأحرى عند سفح منحدر رملى طويل . كنا نلاقى صعوبة كبيرة فى صعوده ، ومن حولنا شاهدنا بحر الرمال القفر الخالى من كل شىء . وفجأة توقف قادة الجماعة ، وراح أولئك القادة يصيحون بنغمات مختلفة ومتباينة ويقولون : "صديق ، صديق ، صديق !" وكنت قد انضممت إليهم قبل أن أستطلع الخبر ، وهنا اكتشفت أننا أصبحنا مطوقين بحوالى عشرين بندقية على مسافة تقدر بحوالى عشرين ياردة . وعلى الرغم من كل الاحتياطات فقد وقعنا فى كمين من الكمائن ، وكانت بنادقنا معلقة فى أجناب سروج الجمال وغير محشوة (معمرة) بالرصاص ، وهذا يعنى أننا كنا تحت رحمة أولئك الذين فاجأونا ، فى الوقت الذى كانت قوتنا الرئيسية لا تزال فى المؤخرة ، وتسرع الخطى على أمل اللحاق بنا . وفى ذات الوقت ، لم يكن أمامنا ما نفعله سوى رفع أيدينا تحت تهديد مواسير البنادق ، وأن نهادن العدو ونتفاوض معه . ونشب بعد ذلك ضجيج وفوضى لم أسمعه قط طوال حياتى ، فقد نهض ثلاثة أو أربعة من أعدائنا ، كانوا حاسرى الرءوس ويرتدون ملابس رثة ، نهضوا واقفين من بين الأدغال ، بينما ظلت بقية الأعداء فى مكانهم بين الأدغال ، وأنا لم أفهم كلمة واحدة من المفاوضات التى دارت ، وراح كل واحد خلالها يتكلم بأعلى صوته . وهنا تقدم رفاق عتيبة إلى الأمام ليتدخلوا فى تلك المفاوضات ، وقالوا : "سلام عليكم" . وجاءهم الرد : "وعليكم السلام" . وبعد السلام والرد عليه هدأ كل شىء . ونادانى سعد قائلاً : "هيا معى" . وتبعته طائعًا لنقف على جنب ، على حين تجمع الأصدقاء والأعداء على قمة الجبل ليتآخوا . وهنا قال إبراهيم : "هيا بنا نتوقف هنا لقضاء الليل". ووجدتنى أرضخ لطلبه فى شىء من التململ لضياع أملنا فى الوصول إلى الجانب الآخر من النفود قبل غروب الشمس ، يضاف إلى ذلك ، أن ريح الشمال بدأت تهبُّ محملة بالرمال ، الأمر الذى أعجزنا عن رؤية الطريق من أمامنا .

وخيمنا مع عدونا السابق جنبًا إلى جنب فى تجويفين متجاورين ، واقترحت على الجماعة أن ندعو أعداءنا السابقين لمشاركتنا وجبة العشاء ، ولكن اقتراحى قوبل بالسلب (بالرفض) . أولاً ، لأن أولئك الأعداء لم يعرفوا بعد أن الجماعة التى نصبوا لها الكمين من بينها رجل إنجليزى ، واكتشافهم لوجود كافرٍ بيننا ربما يجعلهم

يندمــون علــى الاعتــدال والــوسطيــة التى أظــهروها فى لحظة تفوقهم المطلق ، وأنهم قد يعلنــون ، من قبيل النبالة ، عن مقـتلنا فى بقـيـة الرحلة . ثانيًا ، إن الطعام الذى كان لدينا لم يكن ليزيد عن الأرز والتـمـر ولا شىء غيـر ذلك ، فى الوقت الذى تناهى إلينا أنهم يذبحـون شـاة . ولم أستطع الرد على هاتين الحـجـتين ، وشـعـرت بالرضا والارتياح عندما عرفت أن هويتى كانت لا تزال غير معروفة للغرباء ، وهذا هو ما كنت أعمل له وأتمناه .

كانت مـجموعة العدو صغيرة ، ولا تزيد عن اثنى عشر رجـلاً ، وكلهم من تجار شقراء ، بما فيهم الحمالون والمرشدون . وكانوا عائدين من الخرمة Khurma ويحملون معهم بضاعة أجنبية جلبوها عن طريق الحجاز ، ونظراً لأنهم كانوا أكثر حذراً منا ، فقد حذرهم كشّافوهم من اقتراب ذلك الذى ظنوه جماعة من الجماعات الغازية ، التى ظنوا أنهم قادرون على مقاومتها بنجاح فى حالة الهجوم ، لقلة عددها ؛ ولذلك أرادوا الاحتفاظ لأنفسهم بالمبادأة من ناحية واتخاذ الوضع المناسب من الناحية الأخرى . وكانت بقية القافلة قد توكلت على الله وقررت أن تبيع أرواحها وبضاعتها بثمن باهظ ، أو تجتاز ذلك العائق ، إن أتاحت لها الظروف ذلك . واستطاعوا من خلال عدم اكتراثنا ، تحقيق نجاح كبير ، عندما اكتشفوا – وقد أراحهم ذلك كثيراً – أن هدفنا لم يكن ذلك الذى ذهب إليه خيالهم وأوهامهم ، بل إن هدفنا كان خيراً مثل هدفهم تماماً . تلك هى منغصات وأخطار الصحراء اليومية ، إذ رحنا نسير يوماً بعد يوم بحذر بالغ ويقظة ، وها نحن كنا قبل ساعة واحدة نلتزم الحذر فى وضع الاستعداد ، ولكن فى اللحظة الحرجة تخلّينا عن يقظتنا واستعدادنا ، ولكن فى ظروف أخرى قد ندفع ثمناً غاليًا جزاء أخطائنا .

قالوا لنا : إن البلاد من أمامنا فى حالة من الغليان ، وإن الطريق المؤدّى إلى مكة قادمًا من الخرمة Khurma كان مسدوداً فى وجه السبيع ، بواسطة قبيلة بقم Buqum وبأوامر من شريف مكة . وكان الأمير المحلى قد انضم إلى تشكيل الإخوان Ikhwan ، ووضع نفسه على رأس بنى ثور Bani Thaur ، فخذ من أفخاذ السبيع ، فى مقاومة

المحاولات التى تستهدف النيل من مليكه المستقبلى . وقالوا لنا أيضًا : إن الحرب والقتال قد يندلع فى أى وقت من الأوقات . كانت تلك أخبار سعيدة بالنسبة لنا ، وكافأناهم على معلوماتهم بأن حذرناهم من تفوق عتيبة والقحطان عليهم ، الذى سمعنا عنه الكثير ولم نر منه حتى الآن شيئًا فى المنطقة التى سنجتازها بواسطتهم . وفى الصباح تركناهم وهم يدفِّئون أنفسهم على نار المخيم من برودة الفجر ، وواصلنا مسيرنا بلا عقبات عبر الرمال .

ومررنا فى طريقنا ببعض المنخفضات الطينية والمالحة ، والتى صادفناها بعد ثلاثة أميال من المكان الذى خيمنا فيه ، وكانت تلك المنخفضات تبرز ، من آخر سلسلة من سلاسل الرمال ، مطلة على سهل واسع . هذا السهل الواسع الفسيح ، هو الذى يطلق عليه اسم عرق السبيع 'Arq al Subai' ، وهو عبارة عن شريحة من الرمل قد لا يزيد اتساعها على عشرة أميال أو اثنى عشر ميلاً ، على شكل خط مباشر يمتد من الشرق إلى الغرب ، على الرغم من أن الخط الذى سرنا فيه ، فى منخفض خدود هو والمنخفضات المجهلة الأخرى التى تقع خلفه ، ربما كان أطول من عرق السبيع . ويقال : إن منخفض خدود يمتد من سلسلة جبال بوكارة مسافة ثلاثين ميلاً فى اتجاه الشمال من هضبة الدواسر فى أقصى الجنوب – مسافة تقدر بحوالى سبعين ميلاً – ولدىَّ من الأسباب التى سوف أوردها فى فصل لاحق(٣١) ، ما يؤكد أن ذلك المنخفض يمتد على شكل حاجز صلب عبر الأجزاء المنبسطة بين ثنيات جبال وادى الدواسر فى الركن الشمالى الغربى من بحر الرمال الأعظم فى الربع الخالى . وقد بدت رمال العرق رمادية كالحة يشوبها قدر كبير من السواد ، الذى من المفترض أن يكون راجعًا إلى حبيبات البازلت .

طريقنا الآن يمتد من الجنوب إلى الغرب عبر سهل السبيع متجهًا إلى سلسلة جبال بعيدة منخفضة ترتفع على جانبى الوادى لتصل إلى كتلة مركزية يقال لها تين Tin ، وسلسلة جبال حيسان Hisan تمتد من الجنوب إلى الجنوب الغربى ، وفيها رابية صغيرة يطلقون عليها اسم الغريميد Ghuraimid ، وهى محصورة بين الجانب الأيمن من سلسلة جبال حيسان والكتلة الجبلية المركزية التى يطلقون عليها اسم تين Tin ، وفى أقصى الجنوب شاهدت تل الغرامين Gharamin بقمته المزدوجة . وفيما عدا ذلك ، كانت

الأرض في معظمها جرداء ، اللهم باستثناء سلسلة من الروابي البازلتية المنخفضة التي يطلقون عليها اسم الرُّغيلات Rughailat .

ويدأ سطح السهل يتباين تبايناً كبيراً من حيث التكوين ، فقد بدأ ذلك اللَّهَمُ الطيني الذي واجهناه عندما دخلنا السهل ، يتحول إلى شريط من الكثبان الرملية المنخفضة ، التي انتهت هي بدورها إلى مساحة من الحصى الذي تتخلله بروزات من صخر الإردواز ، انتهت هي الأخرى إلى مساحة واسعة من الطين الذي جففته الشمس ، كانت تغطيها بقايا غابة من أشجار الطرفاء ، أو إن شئت فقل أشجار القزمة ، التي خلعتها مياه السيول من جذورها وحرقتها أشعة الشمس . كانت الحياة النباتية وفيرة وعامرة في كل الأنحاء ، العرفج ، والحمض ، والغاضة ، والشجرة التي تشبة شجرة الوزّال ويطلقون عليها هنا اسم التنضام Tandham ، وهي من فصيلة شجرة القرضي Qirdhi ، فضلاً عن الأعشاب المعتادة الأخرى . وفي جانب من الجوانب شاهدنا كتلاً مبعثرة من أحجار البناء تشير إلى مكان مجموعة من الآبار التي رُدمت ونسي الناس أسماءها ، وبعد تلك الآبار بحوالي ثلاثة أو أربعة أميال ، توقفنا في أقصى جنوب الرُّغيلات في منطقة أشجار السنط . وعلى مسافة ميل واحد إلى الغرب من تلك النقطة ، شاهدنا بقعة من الحياة النباتية شديدة الاخضرار ، كانت بمثابة العلامة المميزة للطرف الشرقي من قناة وادي سبيع ، أو إن شئت فقل : الظُّلمة ، التي سميت بهذا الاسم نظراً لكثافة الغطاء النباتي السطحي الذي يخفي قاع الوادي تماماً من جانبيه . ومن ذلك المكان تنطلق المياه في موسم السيول هابطة من جبال عسير لتغمر ذلك السهل ، الذي تشهد فقافيع سطحه ، هي ونباتاته المقتلعة من جذورها ، على مرور الفياضانات والسيول في ذلك المكان ، والتي كانت تتجمع ، في مواسم الأمطار الغزيرة ، خلف حاجز عرق Arq' ، بل إنها كانت تخترق حافته الخارجية متجاوزة إياها لتنساب إلى المنخفض الذي يخترقه طريقنا ويسير محاذياً له .

ويعد مسير ثلاثة أميال أخرى وصلنا إلى نصب من أنصاب الماضي ، تلك كانت أنقاض قلعة القنصولية Qunsuliyya التي هجرها أهلها منذ زمن بعيد ، ترجع إلى أيام الإمبراطورية الوهابية ، يوم أن كانت تلك القلعة حصناً صغيراً يحرس الطريق

الموصل بين عاصمة سعود الكبير والمنطقتين البعيدتين التابعتين له فى كل من الطائف ومكة . ولم يعد يتبقى من تلك القلعة ، أو ذلك الحصن إن شئت ، سوى هيكل الجدران بلا سقف ، وجبانة صغيرة من الجبانات الإسلامية الأصولية ، التى أنشئت مؤخراً لتكون مثوى للحجاج الذين توافيهم المنية وهم فى طريقهم إلى مكة ، هذا بالإضافة إلى مجموعة من الآبار تضم سبعة أبيار ، يصل عمق الواحد منها إلى خمسة وعشرين قدمًا ، فى التربة الصخرية الطبيعية ، وهذه الأبيار غير مبطنة ، وماؤها وفير على الرغم من أنه ليس عذبًا . وعند ذلك الأثر طلب الرفاق وقفة حتى يتمكنوا من سقيا الجمال والدواب ، ولكى يملأوا قرب ماء الشرب من ماء ذلك البئر الذى يقال : إن ماءه من النوع العذب نسبيًا ؛ وتلك هى أسراب طيور طيهوج الرمال تتحلق حول رأس البئر ، وتلك هى الغربان ، التى أزعجها مقدمنا ، وراحت ، فى مضض ، تنتظر رحيلنا عن البئر وابتعادنا عنه مسافة معقولة ، كما شاهدنا الغزلان ولاحظناها فى أثناء مسيرنا ، وحاولنا صيدها دون جدوى مرات عدة .

وواصلنا مسيرنا بحذاء قناة وادى سبيع وعلى بعد مسافة قريبة منه ، ومن خلف تلك القناة برز لنا جبل بيرام المخروطى من بين السهل القفر . ومع مواصلة المسير ازدادت الأرض وعورة ، وزادت أيضًا تموجات الرمال ، كما زادت أيضًا كثافة أشجار الطرفاء التى اقتلعتها مياه السيول والفيضانات من جذورها ، وهذه البقعة التى يقال إنها تمتد بلا أية عوائق ناحية الغرب إلى منطقة التلال ، تختلف عن بقية السهل فى كونها يطلق عليها اسم آل طراف Al Taraf . وعلى بعد مسافة كبيرة بدأت تتراءى لنا كتل حرة النواصف Harrat al Nawasif البركانية السوداء ومن خلفها خط الأفق ، ومنظر تلك الكتل من المكان الذى نخيم فيه يوضح أنه يمتد مسافة أربعين درجة على البوصلة ، من الجنوب إلى الجنوب الغربى .

كان اليوم التالى يومًا مجهداً ومضنيًا ؛ إذ أمضينا ستة أيام لم نأكل طوالها شيئًا سوى الأرز والتمر ، ولم يتغير ذلك الحال إلا مرتين عندما اصطدنا أرنبين بريين ، ومن هنا اتفقنا جميعًا على الوصول للخرمة قبل حلول الليل . ومما زاد الأمر سوءًا أن

الذلول (الجمل) الذى كنت أركبه أصيب قدمه بجرح بفعل بعض الأحجار الحادة وأضحى يعرج بشكل سيئ للغاية ، وترتب على ذلك اختلال خطى الجمل وطريقة سيره ، هذا بالإضافة إلى إرهاق ذلك الحيوان بسبب مسير استمر أياماً عدة ، وقد أدى كل ذلك إلى إصابتى أنا أيضاً بالتعب والإرهاق والمعاناة ؛ وهنا وجدتنى أركب ثانية ذلك الذلول (الجمل) الذى سبق أن تخليت عنه فى بداية الرحلة بسبب خطوه غير المريح ، وعلى ظهر ذلك الجمل قطعت مسيرة زمنها اثنتا عشرة ساعة ونصف الساعة ، لم يتخللها سوى وقفة قصيرة واحدة مدتها أقل من ساعة ، وبدأت آلامى ومتاعبى تزداد مع كل خطوة نخطوها ، إلى أن وصلنا فى النهاية إلى محطة الوصول ، وهنا وجدتنى فى أشد حالات التعب والإرهاق .

لا يزال ذلك الجزء من البلاد الذى يسير موازياً ، بل ويكاد يطبق على خط ذلك الوادى ، وعراً ، أو إن شئت فقل : منحدراً هيناً من الزلط والحصى ، تتخلله ، بين الحين والآخر ، أنهار من الأحجار والصخور السوداء التى تتساقط من حرَّة النواصف ، كما يعبر ذلك الجزء أيضاً من الجنوب إلى الشرق فى اتجاه سلاسل جبال الحيسان Hisan والغرامين Gharamin ، فرعان غير رئيسيين من أفرع الوادى . ويطلق على هذين الفرعين اسم شعب مقصان Maqsan وشعب هثاق Hathaq ، اللذين يبعدان عن بعضهما البعض حوالى ميلين على وجه التقريب ، واللذين يغطيهما أيضاً غطاء كثيف من أدغال أشجار السنط الكثيفة ، كما تتخللها أيضاً بقع من أشجار الطرفاء الكثيفة أيضاً بين الحين والآخر . ولم يُغيِّر ذلك المنظر الممل سوى منظر بعيد لسلسلة جبال النواصف السوداء ، التى بدأت قممها تزداد صرامة وتجهماً كلما اقتربنا منها . وقد رأينا تلك القمم على الوجه الأفضل خلال وقفة الظهيرة التى أمضيناها فى غور مقصان Maqsan ، وأعلى نقاط هذه المنطقة من الجنوب إلى الشمال هى : قوس Qaus ، والصفيرة Sufira ، وخال ، والتى يبدأ منها وادى السبيع بلا أدنى شك .

وفيما يتعلق بالجمل الذى تخليت عنه ، والذى تأثرخفه بعد إخراج شظية الحجر منه، فقد أعطى لسعد ، الذى صبر على القلق والإزعاج الذى كان يلاقيه جراء ذلك ،

وراح يسير متأخراً فى ذيل الركب . أما ركوبتى الجديدة فكانت أفضل قليلاً من ركوبة سعد ، ووجدتنى أنضم إليه فى المؤخرة ، ولكن إبراهيم قرر ألا يتركنا وحدنا لآلامنا ، وكان يتوقف بين الحين والآخر ، انتظاراً لمقدمنا ، وبنيَّة خالصة تماماً كان يستحث ذلولى (جملى) على العدو عن طريق نخسه بالعصا ، أو تشجيعه بالكلام ، متغاضياً عن راحتى. وأعربت عن احتجاجى دون جدوى ، فقد أصر على تجاهله لذلك الاحتجاج ، وهنا وجدتنى أهيئ نفسى لتقبل أدائه لمهمته ، ومحاولاً رغم زيادة استيائى ، إظهار شىء من الاحترام والصداقة تجاه قائد الجماعة وزعيمها ، ولما كنت أعرف أن سعداً صديق حميم لظالمى (إبراهيم) وسمير من سمّاره ، فقد أسررت إليه – خلال فترات انفرادنا ببعضنا البعض – بشىء من مشاعرى ورجوته أن يتدخل بيننا ، قبل أن أجدنى مضطراً إلى الإمساك بناصية الأمور فى يدى . ومع أن بشرته السوداء ، كانت تخفى الطابع الزنجى الذى تنطبع به سلالته ، ومع أن أناقته كانت تفوق أناقة العرب ، ومع أنه كان يتباهى سراً بخصلات شعره شديدة السواد والممسوحة بالزيت ، فإن إبراهيم كان مثالاً لغرور العقل الفارغ والشهوانية الغليظة ، وحديثه الذى لا يقل فجوراً عن حديث تامى وبعض الرجال الآخرين ، لا يتخلله أى قدر من الألمعية أو الذكاء ، وسلوكياته تجعلك تتحاشى الجلوس إلى جواره ، فقد كنت أراه يجلس دوماً إلى جوارى . وفى كل ليلة ، عندما كنت أهجع إلى خيمتى طلباً للقراءة أو الكتابة ، كنت أجده يقتحم علىَّ وقتى ، ويضم طرفى باب الخيمة إلى بعضهما ، ثم يجلس بعد ذلك كى يدخن سراً ، متخوفاً من اكتشاف رفاق له ، ويروح ينفث الدخان مخرجاً إياه من أعماق رئتيه ، فى تمتع ظاهر مصحوب بالبصق والتفل ، وكان يصر على إطعامى فى أثناء تناول الطعام ، وعندما كنت أركب جملى كان يصر على مساعدتى . والأمر الوحيد الذى كنت أود منه أن يساعدنى فيه هو على وجه التحديد مسألة تهدئة الضجيج والصخب الذى كان ينبعث من رفاقى الذين كانوا يحبذون ، على العكس منى ، مسيرات قصيرة ومريحة ، فى ذلك الأمر بالذات ، كنت أجد إبراهيم يضم صوته إلى صوت الجماعة ، أى الأغلبية ، وكان إبراهيم يصفق كلما أبديت أنا ملاحظة ، وعندما كنت أخلِّص نفسى منه وأدخل فى حديث مع الآخرين كنت أجده

ينضم إلى الجماعة فى لمح البصر ويحتكر الحديث لنفسه فقط . وطوال تلك المحاولات ، على امتداد الأسبوعين الفائتين ، كنت قد وطدت نفسى على أن أتحمل فى صمت ذلك الوجود الطاغى والمسيطر من جانب إبراهيم ، وذلك من منطلق أنه كان أمير الجماعة المعين من قبل ابن سعود لتنفيذ تلك المهمة . أكثر من ذلك ، أننى تمالكت نفسى خلال ذلك اليوم الأخير ونحن فى طريقنا إلى الخرمة Khurma ، على رغم أن كأس الضيق والاستياء كانت قد أوشكت على الامتلاء .

وفى حوالى الساعة الثالثة مساءً شاهدنا هجرة (كفر) السليمية Sulaimiyya الصغيرة مستكنة بين أشجار النخيل وأشجار الطرفاء فى مجرى الوادى فى الجانب الأيمن ، فى حين كنا نرى نخيل الخرمة نفسها بلونه الداكن على بعد مسافة منا ، كما شاهدنا أيضًا أنقاض قلعة كونزان بين الاثنين ، على ربوة عالية على الجانب الأيسر من القناة . هذا القصر (البيت الريفى الكبير) ، كان فى الأيام السابقة ملكًا لفخذ بنى عمير من قبيلة السبيع ، من يوم أن طردهم بنو ثور Thaur ، حيث استقروا فى الخرج ، التى ذهبت إليها فيما بعد وشاهدت مستوطنة ضباعة Dhaba'a ، كما استقروا أيضًا فى شرقى نجد .

وهنا كنا قد وصلنا إلى قناة وادى سبيع الواسعة ، التى سرنا فيها على طول ضفته اليمنى داخل المجرى ، فى الوقت الذى كانت أشجار الإثل هى وأشجار النخيل تحدد مجرى قناة العواصف على يميننا . وبعد أن سرنا قرابة نصف الميل انحدرنا عبر الوادى ، وبعد أن عبرنا مجرى السيل ذا الرمال البيضاء دخلنا حزام النخيل الرئيسى . وهنا كانت جذوع النخيل الكثيفة بقممها الخضراء الداكنة تشكل ممرًا ظليلاً ، التزمنا مساره المتعرج لمسافة محددة إلى أن وصلنا إلى مكان واسع فيه قطع مربعة من الأرض شديدة الاخضرار ، أو إن شئت فقل : نباتات القمح ، والبرسيم الحجازى . ووسط تلك المربعات الخضراء كانت تقف قرية الخرمة المتخلفة عن الركب . وتجمع حولنا أطفال القرية ومعهم رجل أو اثنان من الرجال العاطلين ، كما راحت النسوة تنظر إلينا خلسة وعلى استحياء من الشوارع الجانبية ، ونحن نسير فى شارع من

الشوارع الخارجية ، موصل إلى مكان فسيح فى الجانب الشمالى من القرية ، وفى ذلك المكان بركّنا جمالنا وضربنا خيامنا فى الزاوية المحصورة بين سورين من أسوار الفناء ، وسط جمهور يتزايد عدداً واندهاشاً . كانت الشمس قد أوشكت على الغروب ، ولما كان الفضوليون من الناس يراقبوننا ويركزون علينا بصورة مستمرة ، فقد وجدت أن مخرجى الوحيد مما نحن فيه ، يتمثل فى التجوال لاستكشاف القرية من الخارج هى والأشياء المحيطة بها ، إلى أن أرخى الليل سدوله وحجب عنا أولئك الناس إلى الأبد ، نظراً لأننا كنا سنستأنف مسيرنا فى صبيحة اليوم التالى قبل أن يسلم الفجر الكاذب إلى الفجر الحقيقى . وقد جعلتنى أحداث العام التالى أندم تماماً لأن الظروف لم تتح لى فترة تجوال أطول فى الخرمة ، وفحص تلك القرية ودراستها دراسة دقيقة - على الرغم من عدم أهميتها من الناحية الظاهرية - لأهمية الدور الذى لعبته تلك القرية فى صنع التاريخ ؛ تلك القرية التى ربما كانت بمثابة القبر الدنيوى لنموذج الوحدة العربية القادم من المدينة الفاضلة ، ربما ، من يدرى ؟ وربما كانت الخرمة أيضاً بمثابة السندين الذين يمكن طرق ذلك النموذج عليه لتحويله إلى واقع . واسم الخرمة ، تلك الواحة الصحراوية الصغيرة التى لم ترها العيون الأوروبية سوى مرة واحدة فقط على امتداد العصور كلها ، كان يتردد خلال شهور صيف عام ١٩١٨ الميلادى ، فى مجالس وأروقة الحكومة البريطانية ، يوم أن خيمت على فجر العام سحب عاصفة هوجاء من عواصف العصور الوسيطة ، نظراً لأن الأطراف المتحاربة ، كانت تخدم - فى العصر الحديث مثلما فعلت فى الأزمان القديمة - عبادة الطموح السياسى خدمة خالصة ومخلصة بالقول والفعل ، فى الوقت الذى كانت تخدم فيه الرب الحقيقى بالأقوال ليس إلا ، فضلاً عن أن تلك الأطراف المتحاربة كانت قد شكلت قواتها بليدة الحس ، لخوض معركة بطول وادى السبيع .

ومسألة الصراع الدائر بين الشريف حسين من ناحية وجماعة ابن سعود الوهابية من الناحية الأخرى ، ليست من اهتمام هذين المجلدين ، نظراً لأن أول صدام مسلح بينهما حدث فى شهر يونيو من العام التالى ، وانتهى ذلك الصراع بهزيمة قوات الشريف حسين التى أوفدها لاستعادة سلطة الملك على تلك الواحة "المتمردة" . ويكفى

أن نعيد إلى الأذهان فى هذا المقام ، أن الاشتباك الأول تلاه ، خلال الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ، اشتباكات من الشاكلة نفسها وأسفر عن نتيجة مماثلة للاشتباك الأول ، مما زاد من حدة الأزمة ، على الرغم من الجهود التى بذلتها الحكومة البريطانية من أجل أن تجعل الطرفين يحتكمان إلى العقل . وفى شهر مايو من عام ١٩١٩ الميلادى تطورت حدة ذلك الخلاف إلى معركة خاضها طرفاها فى هدأة الليل ، وانتهت بانتصار الوهابيين انتصارًا كاسحًا ، لأنهم فاجئوا معسكر العدو وهم نيام ، وقتلوا كل من كان فى المعسكر ، واستولوا على بنادقهم ومدافعهم ، وعلى الذخيرة والمعدات . واستطاع عبد الله نجل الشريف حسين وقائد الحملة الهرب بملابس نومه ومعه بعض أفراد حاشيته ، مخلفًا وراءه ما يتراوح بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ قتيل من قواته فى ميدان القتال ؛ وخلفت تلك الهزيمة إحساسًا بالتوتر والقلق فى الطائف ، التى هرب سكانها بعد أن أصابهم الخوف والفزع تحسبًا للرعب القادم إليهم . هربوا جميعًا – كما تقول الرواية – باستثناء سيدة عجوز من أسرة الشريف حسين ، بقيت فى قصرها ، وأعلنت أنها تعرف الكثير عن ابن سعود وأنها لا تتوقع شيئًا سوى المعاملة الطيبة عندما تكون بين يديه . واقع الأمر ، إن ابن سعود لم يواصل انتصاراته ، كما أدى تراجعه إلى الرياض وانسحابه إليها ، إلى ترك مسألة الخرمة لتظل مصدرًا محتملاً من مصادر الاضطراب مستقبلاً فى الجزيرة العربية ، على الرغم من أنه عند تلك المرحلة كان يمتاز لا بامتلاك الخرمة وحدها وإنما بامتلاك واحة بقم Buqum أيضًا فى منطقة تربة Turaba .

وأنا نادم لأن الأسباب الجغرافية لم تمكننى من استكشاف مداخل ذلك الوادى العالية، ولكنى بعد أن غادرت الخرمة كنت قد قررت العودة إليها من الطائف عن طريق كل من تربة ورانية Ranya ، حتى أتمكن من كشف سر غموض أصل ومسار كل من وادى السبيع ، وقناتى تربة ورانية . ولكن ظروفًا خارجة عن إرادتى أفسدت تلك المخططات ، وبالتالى فليس أمامى هنا سوى التحدث عن الترتيبات الجغرافية لتلك الأماكن عن طريق التخمين فقط ومن واقع ما رأيته . ومن فوق كتل حرَّة نواصف فى الخرمة تراءت لنا قمتا أبو أشداد Abu Ashadad وريَّان Raiyan ، إضافة إلى القمم

الأخرى التى سبق أن شاهدناها ، هذا فى الوقت الذى تلاقى فيه خط سلسلة جبال حضن Hadhn مع تلك القمم من ناحية الشمال ، مكونًا بذلك زاوية ، يقولون : إن قرية وواحة تربة تقعان داخلها ، وعلى مسافة حوالى أربعين ميلاً جنوب غرب الخرمة . وأنا فى اعتقادى أن الخرمة مثل قرية تربة ، تقع فى وادى سبيع[٣٢] عند نقطة التقاء ذلك الوادى بالسهل ، قادمًا من وديان الحرة التى يبدأ منها . وإذا ما صح ذلك ، فهذا يعنى أن وادى السبيع لابد أن يهبط فى اتجاهٍ شمالىٍّ شرقىٍّ لمسافة تقدر بحوالى عشرين ميلاً أو ما يزيد على ذلك ، إلى أن يصل إلى أنقاض قرية الغريث Gharith وواحتها المهجورة ، التى تقع عند النقطة التى يسير فيها أحد فروع شعب شعبة Sha'ba محاذيًا للقناة الرئيسية . والقناة الرئيسية تواصل سيرها إلى الخرمة ، حيث تقع قرية الخرمة فى مجراها ، كما تنتشر القصور ، أو إن شئت فقل : البيوت الريفية الكبيرة أعلى وأسفل ذلك المجرى ، وتشغل مساحة ربما تزيد على أربعة أميال ، ثم تنحرف القناة ناحية الشمال الشرقى متجاوزة قلعة كونزان Qunzan وهجرة (كفر) السليمية Sulaimiyya ، الذى سبق أن أتينا على ذكرها ، لتصل بعد ذلك إلى منبعها فى كل غابة ضالمة Dhalma ، مارة فى طريقها بمجموعة أبيار الوتَّاع Wutta'، ومجموعة أبيار حنو Hunnu ، وشضو Shudhu ، وحجيف Hujaif ، وبريدة Barida وحانفة Hanfa ، لتصل بعد ذلك إلى ربوة بيرام . والتسمية المحلية هنا ، من باب الدقة أو – من وجهة نظرنا – من باب الغموض تقسم قناة الوادى إلى ثلاثة أقسام تعرف باسم : وادى تربة ، ووادى الخرمة ، ثم وادى السبيع . والاثنان الأخيران ، هما شىء واحد على وجه اليقين . وعلى الرغم من أننا يجب أن نأخذ بعين اعتبارنا أن قناة تربة قد تكون منفصلة عن وادى السبيع ، أو ربما تشكل المسار العلوى لرافد من روافد وادى رانية ، وإنه من المحتمل ، من وجهة نظرى ، ألا تكون تلك القناة سوى القسم العلوى فقط من وادى السبيع . أما فيما يتعلق برانية Ranya ، التى تقع واحتها ، إن صحت معلوماتى ، على بعد ستين ميلاً جنوب القنصولية ، فيكفى أن نقول هنا : إنها شأنها شأن وادى السبيع يرتفع منسوبها بين ثنيات حرة نواصف ، وإنها تبدأ فى الاندماج التدريجى مع وادى بيشة ومع التثليث Tathlith ليكونوا جميعًا وادى الدواسر .

قرية الخرمة ، تقع كلها فى مجرى الوادى ، ولكنها تقع فوق شريحة من الأرض ترتفع فوق مستوى قناة العواصف . ومنازل تلك القرية مكونة من عدة مجموعات من المساكن الطينية المتهاوية وغير المسورة ، وهو النوع السائد من المنازل فى نجد كلها ، ولكن قد نرى هنا أو هناك بيتًا مكونًا من طابقين ، شكله مختلف عن بقية المنازل ، مما يقلل من قذارة المكان ، ويوحى أن سكان مثل هذا المنزل أناس اعتادوا العيش فى أماكن أكثر ترفًا ورفاة من مساكن القرية الصحراوية . وقد ثبتت صحة ذلك ، نظرًا لأن تلك المستوطنة تضم من بين سكانها نسبة مئوية صغيرة ، أى ما يتراوح بين خمسين أو ستين نسمة كما قيل لى ، من التجار المغامرين الذين جاءوا من شقراء ، ومن عنيزة ، ومن أماكن أخرى فى نجد ، وجعلوا الخرمة مركزًا تجاريًا لهم ، بل إن شئت فقل : منطقة التخليص الجمركى فيما يتعلق بالتجارة بين نجد ومكة . ولكن الأحوال المضطربة فى البلاد فيما بين حدود الحجاز ومناطق نجد المستقرة تستبعد فكرة أن تكون مثل هذه التجارة كبيرة الحجم أو على نطاق واسع ، فى الوقت الذى ربما أدى الحصار الذى فرضه الشريف حسين عليها جعلها أكثر تأرجحًا من ذى قبل ، ولكن يجب ألا يغيب عنا أنه فى أوقات السلم المعتادة فإن أولئك التجار الأجانب يمارسون شكلاً من أشكال الاحتكار على التجارة المحلية ، فهم يشترون السمن والمنتجات الرعوية الأخرى من البدو لحساب سوق مكة ويجلبون للبدو الرحل هم والقرويين البن ، والسكر ، والبضائع الاستهلاكية والسلع الأخرى ، من المنطقة الساحلية . وهنا يجب التنويه إلى أن التبادل التجارى مع نجد ، التى تحصل على موادها التموينية المعتادة من الساحل الشرقى ، لابد وأن يكون متقلبًا وليس مستقرًا ، على الرغم من أن تجار الخرمة يهربون ويتاجرون فى قوارير ماء زمزم ، التى ليس عليها طلب كبير فى نجد ، ولكن لها قيمة كبيرة تمامًا فى منطقة الأحساء .

أما فيما يتعلق بالباقى ، أو إن شئت فقل سكان الخرمة ، فعدد سكانها الأصليين يصل إلى حوالى ٤٠٠ نسمة ، على الرغم من أن هذا العدد قد يزداد ويصل إلى حوالى ١٠٠٠ نسمة نتيجة توافد البدو على هذه المنطقة فى موسم حصاد التمر كل عام . وهؤلاء السكان مكونون من عناصر الأشراف الذين لايزيد عددهم بأى حال

من الأحوال عن ٢٠٠ نسمة ، ومن بينهم أيضًا رجال قبيلة السبيع شبه المستقرين ، ومن بينهم أيضًا العبيد المحررون ، الذين لم يعودوا عبيدًا ، على الرغم من أن الناس هنا مازالوا يطلقون عليهم اسم العبيد . أما الفئة الأخيرة من هذه الفئات فهى تشمل ثلاثة أرباع إجمالى عدد السكان المقيمين فى الخرمة ، وعلى هذه الفئة تقع مسئولية زراعة الأراضى الزراعية ، التى يسلمون نصف إنتاجها للأشراف أو ملاك الأرض من السبيع ، الذين يمتلكون بيارات النخيل وحقول زراعة القمح . وزرّاع الأرض هنا يطلقون عليه اسم الكدّاد . والسبيع الذين يقيمون فى الخرمة هم من فخذ بنى ثور ، هذا فى الوقت الذى يتمتع فيه الأشراف الذين استوطنوا الخرمة مثلما استوطنوا تربة منذ زمن بعيد ، بحقوق محددة توارثوها عن أسلافهم ، ويسيطرون بمقتضاها على المجتمع كله . والبدوى هنا يتجول العام بطوله هو وقطعانه فى سهل السبيع ، وفى رمال عرق السبيع ، وفى سهل الشّفة ذى النباتات الصحراوية ، إلى أن يصل إلى وادى نعيم ، والبدوى لا يزور مركز رئاسته إلا فى بداية شهر رمضان[٢٣] ويبقى فيه حتى انتهاء موسم حصاد التمر .

والأمير الحالى للخرمة هو خالد بن منصور بن لؤى ، وهو سليل أسرة عريقة من أسر الأشراف ، الذى خلف عمه أو أكبر أبناء عمه غالب بعد وفاته قبل أربع سنوات . وفى صيف عام ١٩١٧ الميلادى تسبب خالد فى إغضاب الشريف حسين – وأنا لا أعرف لذلك سببًا – وترتب على ذلك أن أودعه الشريف السجن فى مكة ، والذى أخرجه منه وساطة الشريف عبيد الله ، الذى ظل يعمل فى خدمته منذ ذلك التاريخ وإلى فترة قريبة جدا ، فى العمل الميدانى الخاص بحصار المدينة المنورة . وأنا لا أستطيع أن أقطع[٢٤] أنه كان لا يزال مع عبد الله فى أثناء زيارتى ؛ والمؤكد أنه لم يكن فى الخرمة ؛ نظرًا لأن أخاه سيف كان قائمًا بأعمال الأمير فيها ، أو بالأحرى كان يفعل ذلك ، إلى أن انضم إلى بنى ثور Thaur فى مواجهتهم لقوات بقم Buqum التى كان يقودها أمير تربة .

ثبت صدق المعلومات التى أعطانا إياها تجار شقراء ، وهذا يعنى أن القرية كان قد هجرها الرجال القادرون بدنيًا ، وذلك باستثناء قلة قليلة من التجار ، يضاف إلى ذلك أن الجمع الذى احتشد وراح يحملق فينا كان يتكون إلى حد كبير من الأطفال الذين كانوا فى مقدمة الصورة ، ومن النساء اللاتى كن ينظرن باستحياء ولكن بكل الفضول المتعلق بجنسهن فى خلفية الصورة . وقام نائب الأمير بتلبية متطلباتنا من علف الماشية والطعام ، كما اعترض طريقنا بعض التجار المقيمون وسألونا عن أخبار مواطنهم البعيدة . وكان من بين أولئك التجار رجل اعتاد الأسفار ، يبدو أنه خدم الحكومة التركية فى سوريا ، أو إن شئت فقل : خدمها فى طريق الحج ، بصفته جنديًا حسب قوله ، ولكن الأرجح أنه كان واحدًا من حُرّاس الحج ، وأبلغنا أنه عاد من الرياض منذ فترة قريبة ، وإنه سمع عن انتظار وصول بعض الزوار الإنجليز ، وبدأ يكشف عن شكوكه فيما يتعلق بشخصيتى ؛ مما أدهشنى أن شكوك ذلك الرجل أحبطت فضول القرويين الآخرين على الرغم من تأمل أولئك القرويين لطبيعة وعمل الوكيل ، أو إن شئت فقل وكيل ابن سعود - لأنهم كانوا ينظرون إلىّ بذلك المنظار - والذى كان يركب ذلولاً بمثل هذه الزركشة ، واتفقت مع إبراهيم على أن يوافق ذلك الرجل على أن يحتفظ بشكوكه لنفسه إلى ما بعد رحيلنا .

فى تلك الأمسية توقفت معاناتنا الطويلة التى كانت تتمثل فى تناول طعام متدن وغير مكتمل ؛ فقد أقاموا لنا وليمة ضخمة قوامها فخذ جمل كبير ومعه الأرز والخضراوات التى جلبوها من حدائق الواحة . وقد أسعدنا الحظ لأننا وصلنا فى يوم تتوفر فيه اللحوم عند القصَّابين ، نظرًا لأن ابتعادنا عن البدو يجعل الحصول على شاة أو ماعز أمرًا صعبًا ، يضاف إلى ذلك أن الناس الذين خلفناهم وراءنا فى القرية كانوا راضين عن ذبح بعير بين الحين والآخر ؛ وكان اللحم الذى تناولته فى تلك المرة ، وتذوقته للمرة الأولى ، ليس من اللحم الطرى ، ومع ذلك كان مرضيًا ولا يختلف عن الأنواع المتدنية من لحوم البقر .

أصبحنا الآن على بعد أميال قليلة من الحد الغربى للأراضى الوهابية ، وعلى ارتفاع مقداره ٣٦٥٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر ، وكنا نبعد عن الرياض أيضًا مسافة ٤٠٠ ميل . وفى اليوم التالى كان علينا أن ندخل نطاق الأراضى المقدسة فى

الحجاز. والماء وفير فى الخرمة[٣٥] ، ويوجد على عمق أقدام قليلة فى الأراضى المنزرعة الأكثر ارتفاعًا، وبالإمكان الحصول على ذلك الماء من أى مكان فى مجرى قناة العاصفة ، وذلك عن طريق الحفر إلى أعماق لا تتجاوز عدة بوصات فى الرمل . ومن حيث النوعية فالماء هنا ممتاز وعذب شأنه شأن الماء العذب الذى كنا نحصل عليه فى الطريق الذى قطعناه قادمين من الساحل الشرقى . أما درجة الحرارة ، التى ظلت ثابتة خلال الأيام العديدة السابقة عند متوسط ٥٥° درجة فهرنهيتية ، والتى كانت ترتفع أكثر من ذلك عند ساعات الفجر الباردة ، فقد انخفضت فجأة فوق سهل الطرف Al Ta'raf القفر إلى ٤١° درجة فهرنهيتية عند الساعة الرابعة صباحًا ، ولكن ذلك الانخفاض كان مؤقتًا ومرده إلى هبوب رياح شمالية حادة ، وعاد جهاز قياس الحرارة إلى معدله السابق خلال اليومين التاليين .

الهوامش

(١) كانا هما على وجه اليقين أول أوروبيين يقومان بزيارة تلك المنطقة ، مع احترامى الشديد لبالجريف . انظر المجلد الثانى ص ١١٧ .

(٢) يلفظونها عارجة Arja .

(٣) منفوحة ، انظر صفحة ٣٦٦ وما بعدها .

(٤) المقصود هنا قبل عصر محمد (ﷺ) ، وكلمة الجاهلية مستعملة هنا فى معناها القديم ، وليست فى معناها الشائع بين الوهابيين – أى الفترة التى قبل مجىء محمد بن عبد الوهاب . انظر هامش صفحه ٢٦ وما قبلها .

(٥) ابن معمر .

(٦) حدث ذلك الانهيار فى القرن الأول الميلادى .

(٧) يقولون لها هنا "أشجار الغاف" .

(٨) تقع مدينة سدوس فى وادٍ منفصل ، يبعد قليلاً عن المسار الرئيسى .

(٩) بعد رحيلى عن الجزيرة العربية استثار تامى استياء ابن سعود ، وطلب اللجوء إلى ملك الحجاز ، الذى مات وهو فى خدمته عام ١٩١٩ .

(١٠) من الرياض إلى بريدة .

(١١) "العضو الحار"

(١٢) تعرف الأجزاء المنبسطة من ذلك الشعب باسم شعب بُعيْجة : انظر المجلد الثانى ص ٣٠٠ .

(١٣) انظر صفحة ٨٥ وما بعدها .

(١٤) ينطقونها "هاطُولْ" ويقصدون بها "هذا الطول"

(١٥) انظر المجلد الثانى صفحه ٤٧

(١٦) يتكون من فضلات الدواب والروث الذى يجرى سحقه جيداً ، وهم يطلقون على مخلفات الأغنام اسم الديمال dimal .

(١٧) مبلغ علمى أن التسمية تتصل اتصالاً مباشراً بالحبوب (القمح) نفسه ، ولا علاقة لها بالوجبة المصنوعة منه ، فى حين تطلق كلمة جريش ، وبرغال ، على الوجبة نفسها .

(١٨) هكذا قيـل لى ، ولكنى يغلب علىّ اعتبار ذلك التفسير شكلاً من أشكال انتحال الأسباب والعلل ؛ وذلك أن اسم المكان ربما كان أقدم بكثير من تاريخ مستوطنة بنى خالد .

(١٩) استغل شريف مكة تلك الاضطرابات ذات مرة ، كما استغلها العرايف مرة أخرى عندما كانوا يطالبون بحقوق مزعومة . وكان ذلك فى حوالى ١٩٠٩ - ١٩١٠ .

(٢٠) انظر صفحة ٩٣ وما قبلها .

(٢١) توجد خلف هذه القمة سلسلتا جبال حساة Hasat قحطان التوأم اللتان تبرزان من بين رمال نفود داهى Dahi إلى ارتفاع يصل إلى حوالى ٥٠٠٠ قدم ، ولكننا لم نر تلك السلسلة بعد ذلك من أى مكان آخر على الطريق الذى كنا نسير فيه . والمفترض أن تكون صخور هاتين السلسلتين من الجرانيت .

(٢٢) يقولون له هنا "مرو" .

(٢٣) انظر المجلد الثانى ، ص ٢٨٢

(٢٤) فى أقصى جنوب تلك السلسلة توجد سلسلة أخرى وقمة أخرى ، يطلق عليها اسم إذن Idhn، وهى ترتفع من وسط الرمال .

(٢٥) هذه التجاويف التى على شكل حدوة الفرس يطلقون عليها اسم "فلج" ، وهى توجد بأعداد كبيرة ، وأغلب الظن أنها سمة مهمة من سمات النفود ، فى المنطقة شمالى جبل شمّر.

(٢٦) ومع ذلك مر ابن سعود فى شهر مايو من عام ١٩١٩ الميلادى بذلك المكان مرة ثانية وهو فى طريقه إلى الخرمة وتربة ، اللتين تقعان وراء ذلك المكان ، ليدير العمليات العسكرية التى أسفرت عن انتصاره على قوات الشريف حسين ، التى كان يقودها عبد الله ، ابن الملك .

(٢٧) يطلق البدو عليها اسم "هجج" ، (والهجج فى اللغة هو شرب الحيوانات) .

(٢٨) هذه الرقعة المرتفعة من الأرض ، فى رأيى ، ليست سوى الطرف الشمالى لسلسلة الجبال المستمرة - هضب Hadhb الدواسر ، ومنخاره ألخ - التى تبدو على شكل بروز جبلى لبلاد عسير وينحدر انحداراً واسعاً ناحية الشرق مع الاتجاه تدريجياً ناحية الشمال . وإذا كان الأمر كذلك ، فذلك يعنى أن نجد العليا تشكل مقابلاً جنوبياً للجبال الداخلة ضمن جبل شمّر ، والتى هى بدورها بمثابة ذراع بارزة يتجه شرقاً من جبال شمالى الحجاز .

(٢٩) أكبر تلك المخروطات ، هو برقة عرّادة Arrada' التى تقع عند الطرف الشمالى من تلك السلسلة .

(٣٠) المقصود بالوسمات هنا ، هو تلك العلامات التى يستعملها البدو ، أو إن شئت فقل : تلك الرموز البدائية التى تمكن الأميين من التمييز بين ممتلكات قبيلة عن القبائل الأخرى ، أو أسرة عن الأسر الأخرى .

(٣١) انظر المجلد الثانى ص ١٩٧ .

(٣٢) تعرف المداخل العالية من وادى سبيع باسم وادى تربة .

(٣٣) هذا يعنى أنه لا يعود إلى مركز رئاسته إلا عند حلول شهر الصوم ، أى فى أواخر فصل الصيف . وفى فصلى الشتاء والربيع عندما يتوفر الماء فى الصحراء ، يفضل البدو البقاء فى مناطق المراعى .

(٣٤) كان خالد بن منصور قد قام بزيارة للرياض في ذلك الوقت ، ومن المحتمل أن يكون قد تخلى عن الشريف عبد الله خلال الأشهر القليلة من ذلك العام ، ثم ارتد إلى ابن سعود يطلب منه مساعدته في الصراع الذي سينشب بينه وبين الشريف ، أو الذي بدأ بالفعل بالتهديد الذي جاءه من بقم ، والذي ترك أخاه يواجهه ويحمي القرية منه في أثناء غيابه .

(٣٥) يبدو أن سيلاً (فيضاناً) كبيراً قد انهمر على ذلك الوادي قبل وقت قصير من معركة تربة التي دارت في شهر مايو من عام ١٩١٩ ، وترتب على ذلك السيل (أو الفيضان) أن ظلت بعض أجزاء ذلك المجرى تحتفظ بقدر معقول من المياه ، وقالوا لي إن أسماكاً من أحجام معينة ظهرت في تلك المناطق التي ظلت تحتفظ بالماء

الفصل الخامس

الأراضي المقدسة

١- السهل الشرقى وسفوح الجبال

المسافة فيما بين الضفة اليسرى لوادى السبيع وشعب شِعْبة هى ما يعرف باسم الطريف ، وهى عبارة عن سهل قاحل من الحصى السائب الذى يتكون منه الجزء المقابل من الطرف على الضفة الأخرى من الوادى، والذى يمتد إلى عمق ستة أميال على الجانب الغربى من المسار الذى نسير فيه . وها هى كتل النواصف السوداء أخذت تتلاشى فى الخلف بعيداً عن أنظارنا ، فى حين بدأت سلاسل جبال حاصن تكبر أكثر فأكثر ناحية الأفق من أمامنا .

وهنا صاح عظيمة Izmai الورع وهو يتقدمنا ونحن نتزل المنحدر متجهين إلى شعب شعبة ، صاح الرجل قائلاً : "اذكر الله" . وهنا تخلى كل رجل من الرجال ، وهو يعبر الحدود ، عن طيشه المعتاد مكتسباً سيماء جادة ، مردداً اسم الله (سبحانه وتعالى) . وحوض الشعب الواسع ، الذى يصل اتساعه إلى ثلاثة أميال فيما بين ضفتيه ، والذى تزداد فيه كثافة أشجار السنط ، هذا الحوض هو الحد المعترف به بين قبيلتى السبيع وبقم Buqum ، ومع ذلك ، فإن الأمر مازال يدور من حوله كثير من الجدل والحوار الساخن بين كل من نجد والحجاز . ونحن حتى الآن مازلنا داخل أراضى القبائل التى تسرى عليها كلمة ابن سعود بلا جدال . ومن الآن فصاعداً ، كنا فى بلاد أجنبية ، وكنا غرباء قادمين من منطقة محاصرة ، ومعرضين للعرقلة والاعتراض لو قدرٌ لنا أن

ينهار ما بيننا وبين حراس المسيرة ، وهو ما بذلنا قصارى جهدنا فى ألا نصل إليه معهم . كنا نسير بحذر وبنادقنا ليست معلقة فى أكتافنا استعداداً منا لاستعمالها إذا دعى الداعى ، ورحنا نشق طريقنا خلال النباتات الغابية الكثيفة .

وبدأت شعبة تظهر أمامنا مثلما شاهدناها من وادى السبيع ، عند مستوطنة غارث Gharith التى أخلاها أهلها ، والشعبة ممر مائى له أهمية كبيرة فى إطار مشروع مسح الأنهار وتخطيطها فى الجزيرة العربية . ولما كان شعب الشعبة يمثل أقصى الروافد الجنوبية لمنظومة الصرف الشمالية الشرقية الضخمة ، والتى يمثل وادى ريمة المجرى الرئيسى فيها ، فإن ضفة شعب الشعبة اليمنى هى الحد الفاصل بين تلك المنظومة ومنطقة هائلة محايدة ، هذا إن جاز لنا استعمال تلك التسمية لتحديد منطقة لايوجد بها أى منفذ من منافذ الصرف ، مما يضطرها إلى التخلص من مياهها السطحية عن طريق الامتصاص ، وتقف مثل "خازوق" هائل بين تلك المنظومة والمنظومة الجنوبية الشرقية التى لا تقل عنها أهمية ، وتدخل ضمنها جبال عسير ، ومرتفعات نجد ، ومنطقة الدواسر ، والقسم الجنوبى من سد (حاجز) الطويق، ومنطقتا الأفلاج والخرج . وتنضم إلى مجرى الشعبة المائى بعض المجارى المائية الأخرى التى تتلقى مياه صرف الجانب الشرقى من سلسلة جبال حاضن ، ليواصل مسيرة بعد ذلك إلى أن يتصل بشعب جارين ، كما يتصل أيضاً بوادى المياه – وكلاهما يهبط إلى شعب شعبة من الأطراف الشمالية لكل من سلسلة جبال نجد وجبل نير Nir – ليصبوا فى النهاية فى وادى ريمة الذى يوجد ناحية الغرب من حدود منطقة القصيم . ومسألة ما إذا كان ذلك المجرى المائى يسهم فى فيضان وادى ريمة فى السنوات التى يزداد فيها معدل سقوط الأمطار ، أمر تدور من حوله الشكوك ، وأنا أرى ، من منطلق مقارنة مجرى ذلك الشعب بمجرى وادى السبيع فى الخرمة ، أن مجرى وادى السبيع فى الخرمة هو الذى يحمل القدر الأكبر من السيول التى تنزل من الحرَّة Harra ، على صدر سهل السبيع العريض ، إلى أن تصل إلى رمال عرقة ، تاركة وراءها مجرد مجرى مائى ضئيل ، ينساب فى قنوات صغيرة جدا لاتكاد تذكر من شعب شعبة ،

تبعث الحياة فى الغابات التى يجرى تقطيعها دوريًا عند أعالى ذلك المجرى المائى الضئيل .

وبعد ذلك دخلنا السهل الشرقى المتموج تموجًا خفيفًا ، ويمتد من الضفة الشمالية للشعبة حتى سفح سلسلة جبال حاضن ، وتتقاطع معه على بعد مسافات متساوية فى اتجاه الشمال الشرقى ثلاثة مجارٍ مائية هى : الأضعان Adh'an والعقطان Iqtan' ثم القرينات Qurainat ، وكلها تأتى من منحدرات سلسلة الجبال لتصب مياهها فى القناة الرئيسية . وسلاسل الجبال هنا تجدها أحيانًا من البازلت الصلب وأحيانًا أخرى من الزلط الأسود سواد الفحم أو من خبث المعادن ، ولكن أحزمة أدغال أشجار السنط العريضة هى التى تحدد مجرى تلك القنوات المائية ، وتخفف من كآبة المنظر .

وهنا صاح القادة قائلين : "ارجعوا إلى الوراء ، ارجعوا إلى الوراء ! انزلوا وسيروا بحذاء التجويف". وكشف لنا سراب الجدب الأسود عن أشكال غريبة تبعد عنا مسافة كبيرة . قال واحد من القادة : "انظروا إلى هناك ، هذا 'جوم Gom (قوم) ، إنهم يعدون بالمئات !" وسلمت نظارة الميدان إلى دليل آخر ، ويؤكد ذلك الدليل ازدياد سوء الحال قائلاً : "إى بالله ! جوم!" ثم يردف قائلاً : "إنهم لم يلاحظونا وها هم يسيرون قدمًا ." قال دليل ثالث : "انظروا ، ها هم قد توقفوا ، لقد رأونا ! انزلوا إلى الأسفل وسيروا فى اتجاه اليمين بحذاء التجاويف." ومضينا فى طريقنا ، مبتعدين عن المسار المستقيم ، فى حين راح كشّافونا يواصلون مراقبة أولئك المشكوك فى أمرهم ، وسلكوا فى ذلك الخط الكنتورى للمنحدر . وهنا عجلنا مرة ثانية كى نتحرى أولئك المشكوك فيهم . ومن وجهة نظرى كان ذلك الذى رأيته عبارة عن طابور طويل من الإبل التى كانت تسير بحذاء سلسلة منخفضة من الجبال . قال عظيمة بشكل قاطع ينم عن الفرح : "عرب نايرين الماء" (عرب قاصدين السقيا) . بعض الأدلاء ثبتوا على رأيهم الأول ، ولكنهم اعترفوا بأنهم مهما كانوا فإنهم كانوا يبتعدون عنا . والأرجح أنهم لم يشاهدونا ، ولو كانوا قد شاهدونا فهم يحاولون تجنبنا . وعاد كل شىء إلى ما كان عليه ، واستقرت أمورنا من جديد واستأنفنا مسارنا الأول . وبعد ذلك بساعة

مررنا بآثار إبل كانت ترعى بدأت تتحرك صوب مرعى جديد ، كانت مخاوفنا بلا أساس . وهنا أثارت فضولي مسألة التمييز بين كلمتي 'جوم' و'عرب' : فالكلمة الثانية تطلق تماماً على الرعاة والبدو المسالمين في مواطنهم أو قد ترتبط بأمتعتهم المنزلية ، أو بمعنى آخر تطلق على التجمعات المسالمة بشكل عام ، أما كلمة 'جوم' فهي تحريف لكلمة 'قوم' ، التي تطلق على القبيلة في حالة استعدادها واستنفارها العسكري ، وهذه الكلمة تستعمل استعمالاً غير محكوم للدلالة على 'الغزو' أو أية جماعة غازية في أثناء قيامها بالغزو ، ومعها مصباح هدايتها في أثناء الليل ، عندما 'تتأهب للعمل' . وهنا وجدنا آثار أقدام الأباعر وبعض أقدام الخيول تختلط بآثار الأقدام العميقة لماشية الحليب . لقد مرت تلك الحيوانات بذلك المكان منذ ساعة تقريباً ، وقد كتبت قصة تلك الحيوانات على أرض ذلك السهل حتى يقرأها كل من يمر بذلك المكان.

كانت هناك سلسلة من الصخور المنخفضة التي تغطي الرمال بعض أجزائها ، تقع بالقرب من مكان وقفة الظهيرة في شعب أضعان Adh'an ؛ ويطلق على تلك السلسلة اسم سلسلة جبال أضعان ، الذي يشتق منه الشعب اسمه ، ومن خلف تلك السلسلة وفي اتجاه الشمال كانت توجد عن يميننا سلسلة جبال الثويري Thuwairi وحزم الأحمر Hazm al Ahmar . وبعد أن مضينا في مسيرنا مسافة أخرى ، تجاوزنا ربوة منخفضة يطلقون عليها اسم الساق Saq ، وهي تقع عن يميننا على بعد مسافة قصيرة قبل عبور عقطان Iqtan' ، التي واصلنا المسير منها في اتجاه حاضن Hadhn ، التي توقفنا على بعد عدة أميال في اتجاه الشرق منها في مجرى شعب القرينات Qurainat ، قبل غروب الشمس بفترة وجيزة . و في أثناء نصب الخيام خرج كشافونا لاستطلاع البلاد في الصخور وسلاسل الجبال المحيطة بنا ، ورافقت واحدة من جماعات الكشف هذه إلى تل منخفض ، وبينما انبطحنا على وجوهنا لمزيد من الاستكشاف الدقيق ، استطعنا من خلال نظارة الميدان أن نتتبع تحركات جماعة صغيرة من الخيالة بالقرب من إحدى الصخور البعيدة . كان من بين أفراد تلك الجماعة خمسة يركبون الذلول ، وثلاثة يركبون خيولاً ، وأغلب الظن أن تلك كانت جماعة الاستطلاع في قوم من أقوام الغزو ،

وأنها كانت تقتفى أثر الإبل التى كانت ترعى وسبق أن تجاوزناها فى أثناء النهار ، والأرجح أن تلك الإبل تابعة لقبيلة السبيع ، فى حين كانت جماعة الاستطلاع تابعة لقبيلة بقم Buqum . والمؤكد أن جماعة الاستطلاع تلك لم يعد يراودها شك فى المصلحة التى تبتغيها أو فى مسألة وجودنا ، ولا يمكن لتلك الجماعة أن تعبر الطرق التى كنا نسير فيها قبل حلول الليل ، وهنا عدنا إلى مكان المخيم أملاً فى ألا يعثروا علينا بالمصادفة . وكان عظيمة ، الذى أصبح رفيقنا ومرشداً لنا ، يذيع من وقت لآخر كلمة المرور فى الصحراء ، وبالتالى لم يحدث لنا ما يقلقنا أو يعكر صفونا .

شهد النهار مزيداً من الخلط والتبديل فى الذلول التى كنا نركبها ؛ فقد بدأت المسيرة وأنا راكب على ظهر الجمل الذى ظللت أركبه إلى اليوم السابق . ولكن تبدى تعبى للجميع بشكل أجمع الكل معه على حتمية إحداث نوع من التغيير ، وبخاصة أن الظروف التى تغيرت لم تعد تحتمل أى شكل من أشكال التأجيل ، وهنا تنازل لى تامى Tami عن ركوبته ، وهنا أحسست ولأول مرة بميزة ركوب ذلول حقيقى بمعنى الكلمة . ركبت الناقة الحمرة Himra ، التى سميت بذلك الاسم بسبب وبرها الأشهب الذى يكتسى لون الرمل الذى لم يكن به عيب من العيوب ، تلك الناقة وحدها التى تولى تامى تدريبها على امتداد زمن طويل منذ طفولتها ، إلى حد أنها كانت تستجيب لمن يهمس باسمها فتدير عنقها طلبًا لتلقى الطعام من يد ذلك الذى همس باسمها ، وكانت كل الأشياء تستوى عندها ، بدءًا بقبضة من العشب ، أو قبضة من تمر ، أو شريحة من الخبز غير المخمور الجاف ، بل وأحيانًا قطعة من اللحم البارد الذى يقدم للجمال . كان خطو الحمرة كاملاً خفيفًا ، سواء كانت تمشى أو تجرى ، وفيما يتعلق بى أنا شخصيًا فقد كان يومى ممتعًا ، ولم يكدره سوى إحساسى بأنى نشلت من تامى ذلك الحيوان الذى كان يحبه حبًا جمًا . واعتباراً من ذلك التاريخ ، وإلى نهاية المرحلة لم أركب ناقة سواها ، وكنت فخوراً أننى ركبت أفضل حيوان فى الجزيرة العربية .

يصل عرض سلسلة جبال الحاضن إلى حوالى خمسة عشر ميلاً من الشرق إلى الغرب ، وهى تبرز من الحَرة فى المنطقة المجاورة لتربة Turaba وتمتد شمالاً إلى طريق

الحج الذى يمر بينها وبين امتداد شمالى ذى طابع مختلف إلى حد ما ، إذ يتكون من أكوام من سلاسل صخرية تغطيها الرمال وتتخللها وديان من الأدغال . فى البداية كنا نسير على أرض منخفضة تتخللها شظايا أحجار البازلت ، وتقع بين ثنيات ذلك المنخفض ربوتان بارزتان تسميان البريم Buraim والبرمة Bruma ، واللتان تتحصر بينهما أبيار البوريم . وفى أقصى الخلف على الجانب الأيسر من سلسلة جبال الحاضن ، التى لا يزيد ارتفاعها فى أى جزء من أجزائها على٥٠٠ قدم فوق مستوى السهل ، يقال إن مساقى الصُّلابة Sulaba والحراضة Haradha ، التى على شكل شعاب صغيرة تحمل الاسم نفسه ، كانت موجودة فى تلك المنطقة ، وإن تلك المساقى كانت تتصل بقناة الصرف الرئيسية فى البوريم وهى فى طريقها إلى قناة شعبة. وبعد أن عبرنا ذلك الشعب ، بدأت حمرة تعرج ، الأمر الذى ضايقنى ، وراحت تضرب رجلها فى الأرض لتخلص نفسها من شوكة مؤلمة انغرست فى خفها . وقد تمكن جرمان الذى كان يركب معى من إخراج تلك الشوكة بلا أية صعوبة مستخدما فى ذلك الأدوات البدائية التى يحملها الراكب معه لمثل هذا الغرض . وبينما كنا نتوقف لإجراء تلك العملية ، سمعنا من وراء التلال ، التى كانت تحجب عنا الأبيار ، أصواتًا مميزة لعرب جاءوا للسقيا من تلك الآبار . وقد عجبت لعدم إرسال أولئك الأعراب بعض المراقبين عند قمة ذلك التل تحسبًا للمفاجأة ، وعندما عادت الناقة الحمرة إلى حالها السابق ، راح جرمان وأنا معه نتسابق على أمل اللحاق برفاقنا ، الذين كانوا قد سبقونا بمسافة طويلة .

ومنطقة برقة Barqa التى اجتزناها الآن تتكون من سلسلة الجبال المنخفضة التى تغطيها الرمال وتسير موازية للضفة الشمالية من سلسلة جبال الحاضن هى وسلسلة من الكثبان الرملية التى تتجه ناحية الشمال فيما بين بروزات تلك السلسلة الجبلية التى تشبه أصابع اليد ، وأول تلك البروزات يمتد معترضًا مسارنا الذى تقاطع معه فيما بين جبلين كبيرين من الصخر والرمل ، ثم يتجه صوب الشمال الغربى ، مكونًا حاجزًا واقيًا للمنطقة كلها ، وإلى الشمال من ذلك الحاجز تقع تلال وصخور كل من سيساد Saisad وبتيلة Bitila التى تشكل علامة أرضية بارزة فى تلك المنطقة .

وبعد أن ارتقينا طرف الإصبع الثانى من أصابع السلسلة فاجأنا منظر مدهش ، وسرت الدهشة بين صفوفنا ؛ فهذا هو وادٍ أخضر واسع يمتد من أمامنا على مرمى البصر ، تتخلله الأدغال ، وتجزئه على مسافات متساوية بروازات السلسلة الجبلية الرئيسية التى تمتد على شكل مدرجات ، وعلى المنحدرات وفى المنخفضات كانت ترعى قطعان لا تحصى ولا تعد من الأغنام السوداء فى حراسة الرعاة ، كما كانت هناك أيضًا قطعان أخرى من الإبل المحملة التى كانت ترعى صغارها الوليدة ، كما كانت تنتشر هنا وهناك مجموعة من كبائن البدو السوداء . لقد وصلنا إلى بدايات حياة البقم المنزلية المستقرة ، فقد تجمعت كل تلك القطعان بالآلاف للتمتع بأعشاب الصحراء ، تلك الأعشاب التى سرعان ما تحولت إلى حياة جديدة بفعل أمطار الشتاء . وكما هو حال قطيع الغزال، عندما يتوقف ويروح يحملق فيمن يهدده ، ثم ينتهى توقفه ويشرع فى الجرى ، فبعد لحظة من ظهورنا المفاجئ ، خيمت علينا لحظات من السكوت أعقبتها حركة كبيرة فى الوادى ؛ إذ راح الرعاة ومعهم كلابهم يسوقون قطعانهم على هذا الجانب وذاك أعلى المنحدرات ، وخرج النائمون من الخيام واتجهت نحونا جماعة من راكبى الخيول . وبدا الحال كما لو أن الساحة قد أخليت استعداداً لنشوب القتال . وتقدم عظيمة ومعه اثنان آخران بدوابهما إلى الأمام لملاقاة الخيَّالة ، الذين تحدونا ، فى حين تحركت بقية المجموعة فى هدوء إلى جانب من جانبى الوادى وراحت تنتظر نتيجة التقاء هؤلاء بأولئك ؛ وبعد قليل رأيناهم يلتقون ويتخالطون تخالطًا وديًا وراحوا يعطون ويتبادلون أخبار المشرق والمغرب على النحو التالى : سلام عليكم يا مسلمين ! وعليكم السلام ! أهلاً ومرحبًا ، يا عظيمة ! شيف أنت ؟ شيف أنت ؟ شيف أنت ؟ حالك طيب ؟ لله الحمد على العدل . شيف حالك ؟ شيف (كيف) أنت ؟ وشن العلم ؟ شيف الأمير ؟[١] جاكم المطر ؟ أى بالله ضربنا فى نجد . وسش لون الخاد ؟ والله جيد ! سبيع ؟[٢] تلك هى التحية التى يتبادلها فى الصحراء رجل مع أى رجل آخر ، وهى تحية ودية بين الأصدقاء الذين يعرفون بعضهم بعضًا حق المعرفة ، وتتخذ الطابع الرسمى بين الغرباء الذين يحتفظون داخلهم بثأر الصراعات والمعارك القديمة ، ويبدو أنها تهدف لبيان المكانة . وهم يستوعبون كل تفصيلة من تفاصيل تلك التحية ، وعندما

يشرع الطرفان فى الافتراق يناقش كل منهما الآخر قائلاً : "هل شاهدت هذا المُهْر؟ والله ، حيوان كامل ! وهل شاهدت ذلول ذلك الرفيق ، ظبى[٣] حقيقى ، بل غزال" إلخ كل هذه العبارات .

تركزت الأعين كلها على المندوبين الذين كانوا يتحاورون ، والذين عاد الوادى إلى استئناف حياته المعتادة بعد افتراقهم كما انتشرت قطعان الإبل والأغنام فى المراعى من جديد . ومع استئناف مسيرنا ، كان الناس يتوافدون علينا طلبًا للأخبار ؛ كان الناس يتدافعون علينا من أماكن بعيدة دون تحية أو سلام ، وكانوا يسألونا عن الأخبار وهم يجرون إلى جوارنا ويحيوننا ، ويواصلون السير إلى جانبنا إلى أن نشبع نهمهم إلى الأخبار ، وعندها كانوا ينفصلون عنا فجأة ليعودوا لاستئناف المهام الموكولة إليهم . ودخلنا فى مساومة مع رجل رث الثياب كان معلقًا تعلقًا غير آمن بثفر(*) الجمل الذى كان يركبه وساقاه من تحت السرج . ودار الحديث بيننا وبينه على النحو التالى : قال الرجل : "بالله ، إنه يساوى مائة وعشرين ريالاً ، ولكنى أبيعه أو أقبل فيه مائة ريال ومرحبًا بك ." ورددت عليه قائلاً : "هذا كثير ، نحن بحاجة إلى شىء يتراوح ثمنه بين خمسين أو ستين ريالاً ." والجمل الذى تبيعه لا يساوى أكثر من ذلك . هيا ، وسنعطيك ستين ريالاً ." ودارت تلك المساومة طوال الوقفة القصيرة التى تناولنا خلالها طعام الإفطار ، ولكنها لم تسفر عن نتيجة مرضية ، وواصلنا مسيرنا ، وكان كل من تامى وسعد قد أوفدا لزيارة مخيم أمير تربة Turaba ، عبد الله ، الذى انضم إلى البقم ليقوم على أمر تنظيمهم نيابة عن شريف مكة ، فى الحملات التى كان يشنها على السبيع ، والذى عبر لنا من خلال مندوبينا عن أسفه الشديد لمرورنا بخيمته دون أن نعطيه الفرصة للقيام بالواجب نحونا .

أخيرًا وصلنا إلى آخر سلسلة من سلاسل جبال منخفضات برقة والتى كانت تطل على أرض جرداء واسعة من سهل ركبة Rakba ، الذى تنتشر فيه مخيمات عتيبة

(*) ثفر : بفتح الثاء وتسكين الفاء ، هو حزام وراء ظهر الحصان أو البغل أو الجمل . (المترجم)

السوداء اللون ، ورحنا ننظر إلى جبال الحجاز البعيدة التى بدأنا نيمِّم المسير نحوها ، ووجهنا مسيرنا شطر قمة تشبه ظهر السرج يقال إنها هى التى تشير إلى موقع الطائف وتحدده . وخلال مسير يومين استطعنا تجاوز منطقة البقم من الشرق إلى الغرب أيضًا . وفى اتجاه الحد الجنوبى للبقم كان يوجد النواصف Nawasif من حول تربة ، ومن ناحية الشمال كان هناك خط يمتد من الشرق إلى الغرب اعتبارًا من شعب شاعبة إلى الحد الشمالى لسلسلة من الجبال تجىء فى المقام الثانى بعد سلسلة جبال الحاضن . والمنطقة فى مجملها تكون السهل الشرقى ؛ أما سلسلة جبال الحاضن فقد تصل مساحتها إلى ما يقرب من ٢٥٠٠ أو ٣٠٠٠ ميل مربع ، ويصل عدد سكانها إلى حوالى ٣٠٠٠ نسمة من العرب الرحل ، ومثل هذا العدد من السكان المستقرين فى تربة ، وقبيلة البقم ، يشتمل على العنصر الزنجى وعلى أشراف تربة . ومن هنا يتضح أنها أصغر من قبيلة السبيع ، التى يمكن أن ننظر إلى حدها الشمالى على اعتبار أنه خط مستقيم إلى شرق وادى نعيم من الركن الشمالى الشرقى من مضارب البقم . ومن ناحية الجنوب ، حدودها عبارة عن خط يمر بغارث Ghartih عن طريق واحات رانية ليصل بعد ذلك إلى الطرف الجنوبى من العرق ؛ ومن حول هاتين القبيلتين تتمحور منطقة العتيبة الواسعة ، الذين يشتركون مع القحطانيين فى الحدود من ناحية الجنوب ، ومع قبيلة حرب من ناحية الشمال، ومع قبائل جبال الحجاز من ناحية الغرب . وهناك فخذ واحد ، هو فخذ الثباتة Thibata، يخترق تلك الجبال ، ويحتل سفوح التلال فيما بين الطائف ووادى الشامية .

وسهل راكبة الذى دخلناه حاليًا ، ونيمم المسير فيه صوب الجنوب الغربى ، عبارة عن أرض قاحلة رملية واسعة بها العديد من الأعشاب الصحراوية ، ويقع من أدغال أشجار السنط التى تمتد على شكل خط يربط كلاً من عشيرة 'Ashira ومرَّان Marran ناحية الشمال ، فيما بين سلسلة جبال الحجاز وسلسلة جبال حاضن ، ليصل إلى مرتفعات عسير ، التى نرى من بعد قممها التى تناطح السحاب . والجزء الجنوبى من ذلك السهل يسمونه الجراد Al Jarad ، ويقال : إنه مكوَّن من الرمل الأبيض الناعم الذى تغطيه قشرة رقيقة من العشب وليس الأدغال .

كان ذلك اليوم يوافق عيد رأس السنة الميلادية ، وضربنا خيامنا فى السهل على ارتفاع حوالى ٢٩٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، وتطل على المكان الذى ينبغى الوصول إليه ، وكانت تتحلق من حولنا مخيمات البدو سوداء اللون . كان الهواء بارداً ومنعشاً ، وكان القمر بدراً وينشر نوره البديع فوق الريف الهادئ المسالم ، الذى كان الرعاة يراقبون فيه قطعانهم ويحرسونها . ورغماً عنى حملتنى وأرجعتنى أفكارى إلى ما يزيد على ثمانية عشر قرناً خلت ، أو بالأحرى إلى مشهد من هذا القبيل ، عندما تلقى الرعاة البسطاء البشائر الأولى لحادث قدِّر له أن يغير تاريخ الدنيا . ولوجاء أحد بكلمة فى تلك الليلة مفادها أن عيسى بن مريم قد جاء إلى الأرض ليجمع المؤمنين الصادقين بربهم ، لوجاء أحد بمثل هذه الكلمة ، لصدقه رعاة العتيبة الذين يتجمعون حولى ، واتبعوه أيضاً ، إيماناً وبلا خوف أو وجل .

كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ٤١ْ فهرنهيت عند الساعة الرابعة صباحاً ، عندما استيقظنا فى صبيحة اليوم التالى استعداداً لرحلة طويلة كانت تنتظرنا ، نظراً لأننا كنا قد عقدنا العزم على الوصول إلى الطائف قبل غروب الشمس . وكنا قد تركنا أمتعتنا خلفنا ، لتتبعنا على مهل ، نظراً لأننا لم نعد نخشى عليها من خطر الغزاة ؛ وركبنا ومعنا اثنا عشر من أفراد الجماعة عند الساعة الخامسة صباحاً ، ورحنا نسرع الخطى طوال نسيم الصباح . وبدأ ساحل الحاضن يتراجع من خلفنا ، وإلى الجنوب الشرقى منا كانت توجد قمة رُقبة Ruqba التى كانت تشبه المسلة الوحيدة ، وتلٌ أخر يقال له عانت Ant' كان يرتفع من سهل الجراد عن بعد . أما مخروط الساق Saq فى الجزء الجنوبى من الحاضن فكان يمثل النقطة التى يخترق طريق الطائف عندها سلسلة الجبال المتجهة إلى تربة . وفى الناحية الجنوبية كانت توجد صخور طور الخضار Taur al Khadhar التى تعد أضخم صخور جبال عسير ، ومن أمامنا كنا نشاهد تل ظهر السرج بالقرب من الطائف ، كما كنا نشاهد أيضاً سلسلة جبال الحجاز كلها .

وبعد ذلك بثلاث ساعات توقفنا وقفة وجيزة لتناول طعام الإفطار المكون من لحم الضأن المبرد والخبز الجاف بالقرب من صخرة منخفضة يقال لها بارث Barth ،

ومضينا في طريقنا متجاوزين صخرة الجرانيت الوحيدة التي يسمونها الحمراء ، والتي توجد عند سفحها أبيار مبعوث Mab'uth . وعندما اقتربنا من حافة التلال بدأ السهل ينقسم إلى سهل فسيح متموج تموجًا خفيفًا ، ينتشر خلاله خط من الأدغال عن يميننا ، يحدد مسار وادي عقيق . ثم بدأت تظهر مجموعات صغيرة من النخيل في الثنيات الخارجية لسفوح التلال التي أمامنا . وأخيرًا ، وبعد أن قطعنا خمسة وثلاثين ميلاً خلال مسير دام ست ساعات ، وصلنا حافة الوادي ، الذي يخرج عند هذه النقطة على شكل مكان ضيق ليتصل بالسهل ، ثم يجري بعد ذلك فيما بين ضفتيه المنخفضتين في اتجاه الشمال متجهًا إلى عشيرة 'Ashaira ، ويستمر في مجراه ، ثم يتجاوز تلك النقطة إلى أبيار تنضوية ، على بعد ثمانية أميال ، ليصل بعد ذلك إلى سلسلة صخور بسيان Bisyan ، التي تقع على مسافة عشرين ميلاً جنوب مرَّان Marran . وتقلاً عن عظيمة ، الذي قاد الحج ذات مرة من نقطة تقع شرقي الخرمة وعن طريق عشيرة ، نقلاً عن ذلك الرجل فإن الماء يندر أن يتجاوز تلك النقطة ، بل إنه لا يتجاوزها مطلقًا ، ولكن الناس في الطائف يعتقدون أن وادي عقيق يجري أو يرسل على أقل تقدير فرعًا من فروعه في اتجاه الشمال إلى المدينة (المنورة) ، كما يعتقدون أيضًا أن الماء في سنوات الأمطار الغزيرة ينساب من وادي الطائف ليصب في تلك القناة ليصل الماء إلى مدينة قبر النبي . وإذا ما صحّت وجهة النظر المحلية هذه ، فذلك يعني أن وادي عتيق ، الذي يبدأ من التلال الموجودة خلف الطائف ، لابد أن يكون رافدًا من روافد صرف وادي حمض[٤] Hamdh ، وإن ذلك الرافد يتجه ناحية الغرب . ومن المعروف أن دوتي Doughty هو الذي اكتشف منبع ذلك الوادي ، في أثناء تجواله في حرَّة خيبر ، التي يبدأ منها أيضًا وادي ريمة Wadi Rima . كان عرض سهل راكبة Rakba حوالي أربعين ميلاً بحذاء الطريق الذي كنا نسير فيه .

هنا نكون قد خرجنا من صحراء الجزيرة العربية ، أو إن شئت فقل : المطلع القاحل الطويل المنحدر الذي يتكون من الرمال والسهوب الصحراوية مترامية الأطراف صحراوية النبوت ، لندخل حاجز التلال العظيم الذي يواجه البحر الغربي . وفي مقابلنا

مباشرة كنا نرى عبر حوض وادى العقيق الرملى ، وعلى ارتفاع ٤٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، بيتًا ريفيًا منعزلاً بالقرب من مزرعة من مزارع النخيل الصغيرة ، وكان ذلك البيت الريفى يتوسط مساحة تقدر بما يزيد على ثلاثين أو أربعين فدانًا مزروعة بالقمح ، ومقسمة إلى قطع صغيرة مربعة تحيط بها أسوار من الرمل وتروى من الآبار . وفى أعلى مجرى السيل شاهدنا مساحات أخرى مزروعة بالنخيل ، وشُيد فيها كفر صغير ، أو إن شئت فقل : قرية صغيرة . وهذه المستوطنة بدءًا بالبيت الريفى الكبير ومادونه يطلقون عليها اسم أخيضر Ukhaidhar .

وسرنا فى اتجاه أعالى الوادى إلى أن تجاوزنا بيارات النخيل إلى أن وصلنا إلى بركة صغيرة تتغذى من إحدى العيون ، وسقينا منها إبلنا العطشى ، وبالقرب من القرية الصغيرة ، كانت هناك مجموعة صغيرة من الأكواخ المتهالكة التى بناها أصحابها من الطين والحجر ، فوق منحدر رابية صغيرة . وكلما مضينا فى مسيرنا زاد المطلع انحدارًا ، وكنا نسير أحيانًا داخل مجرى السيل وأحيانًا أخرى خارجه أو بعيدًا عنه ، وكنا نجرى على المنحدر وسط مجموعة من التلال والسلاسل الصخرية غير المنتظمة . وعلى بعد ميلين فوق الأخيضر Ukhaidhar مررنا بقرية صغيرة أخرى يحيط بها النخيل وأشجار الفاكهة عند سفح تل صغير بنيت على قمته قلعة متداعية ، ومن بعدها مباشرة مدق منحدر تتخلله المنخفضات ، ينتهى إلى شرفة ضخمة يحيط بها سور من الصخر الصلب عند طرفه الأسفل . والسيول فى أثناء هبوطها تتعرض لامتصاصها من قبل التربة الموجودة فوق السد ، الذى تزرع من فوقه المحاصيل . ومضينا فى طريقنا ، عبر ومن حول الخطوط الكنتورية لمنحدر لطيف ، متجاوزين ، عن يسارنا ، بيارة نخيل وقرية صغيرة ، لنصل إلى قرية صغيرة تقع على الضفة اليمنى لوادى العتيق ، وسط منطقة واسعة من البساتين ، وبيارات النخيل ، والأراضى الزراعية . وعلى منطقة صغيرة مرتفعة على ضفة وادى العقيق اليسرى شاهدنا منزلاً جميلاً، مكونًا من ثلاثة طوابق ، واجهته مطلية بالجبس أو الأسمنت الأبيض ، يسكن فيه أحد الأشراف المحليين . وقد بدا لى ذلك المنزل جميلاً ، نظرًا لأن عيناى طوال الرحلة

كانت قد تعوَّدت على رؤية الأكواخ المبنية من الصلصال ومن الطين ، وقد شاهدت ذلك المنزل وهو يبرز من بين الصخور الداكنة ويتلألأ فى ضوء الشمس .

وهنا يكون إبراهيم قد ارتكب جنحة خطيرة . كان وقت صلاة العصر قد دخل ، وكان لابد من أداء الصلاة قبل الوصول إلى القرية ، ولم تكن مسألة الصلاة بدون وضوء عندهم أمرًا جديدًا عليهم ، نظرًا لأنهم كانوا يؤدون الصلاة مرارًا فى الصحراء بدون وضوء ، بالاستعاضة عنه بالتيمم ، ولكن إبراهيم فى تلك المرة أصرَّ على أداء الصلاة بعد الوضوء من بئر القرية ، ولم أعترض بأى حال من الأحوال ، نظرًا لحرصى على عدم التدخل فى أمور عباداتهم . وبرَّكنا جمالنا ، وسارع مرافقيَّ إلى بئر القرية حيث توضئوا منه واصطفُّوا لأداء الصلاة ، بينما اتكأت على الناقة الحمرة Himra بحثًا عن الظل تجنبًا لحرارة الشمس . وهنا بدأت أستشعر وجود القرويين ، رجالاً وأطفالاً ، وهم يتجمَّعون من حولنا ، وهم يتعجبون من ذلك الرجل ، الذى لا يصلى مع رفاقه ، وهنا لعنت إبراهيم لأنه هو الذى وضعنى فى ذلك الموقف المهين الذى لامبرر أو داعيَ له . وعقب انتهاء المصلِّين من صلاتهم مباشرة سارعت إلى ركوب الحمرة ، وبعدت عن ذلك المشهد ، مع كل من تامى ، وبدر ، ومناحى، وأناس آخرين . ولم يلحق بنا كل من إبراهيم، وسعد، ومن كانوا معهما قبل نصف ساعة، وهنا عرفت السبب الذى جعلهم يُصلُّون العصر بجوار البئر . فقد بدلوا ملابسهم المتسخة بأخرى تناسب دخولهم البلدة ، ومع ذلك ، كان إبراهيم مصممًا على أن يبدو شخصية بارزة أمام فتيان وفتيات الطائف عند دخولنا إليها . فقد مشط إبراهيم جدائل شعره الأسود ولحيته ؛ كان يرتدى رداء فاخرًا ، كما كان يرتدى سروالاً طويلاً ناصع البياض مثل الثلج ، أطول قليلاً من تنورة الزابون Zabun الذى كان يرتديه ، والذى كان "إبداعًا" جميلاً من القماش الأخضر الناعم ، المزين بعقد من قماش الكشمير البني الضارب إلى الحُمْرة ، ومن فوق تلك الملابس ، كان إبراهيم يرتدى مشلحًا أنيقًا لونه سكرى شاحب له باقة مطرزة بخيوط ذهبية ، وكان يفوح منه عبيق عطر شديد التركيز ، ولم يكن يخجل من ذلك أو يخشى منه . أما الآخرون ، فكانوا قد ارتدوا ملابس العطلات

كل حسب إمكانياته وموارده ، أما إبراهيم فكان مثاراً لحقد وحسد الآخرين . ومع ذلك ، فقد ظننت أن تامياً وبدراً ابن شقيق الدويش رئيس قبائل المطير كلها ، كانا يبدوان ، في ملابسهما القطنية المتسخة ، ومشلحيهما الباليين ، أكثر جمالاً في ذلك الرداء البسيط . والمعروف أن البدوى بحق يندر أن يرتدى الألوان المرحة ، وهى العلامة التى تميز عبيد وخلف بنى خضير ، الذين يحاكيهم فى ذلك غنادير الحضر أبناء الأسر سليلة المجد ، الذين يرون أن من الحكمة محاكاة سكان المدن الكبرى وتقليدهم . وقد آلى إبراهيم على نفسه أن يحاضرنى عن بساطة الملبس ، وعن بساطة ملابسى أنا بشكل خاص ، ولم يستوعب مطلقاً رفضى القاطع لنصائحه . ومن رأى إبراهيم أن الإنسان يقترف جريمة إذا ما دخل مدينة من المدن بملابس السفر المتسخة ، وكانت موارده المالية تسمح بغير ذلك أصلاً .

وهنا صعدنا إلى أعالى مجرى السيل وسط التلال والمنخفضات إلى أن وصلنا إلى سلسلة جبلية منخفضة تفصلنا عن قرى القائم Qaim وبعد أن درنا حول هذه السلسلة من جانبها القريب دخلنا ممراً ضيقاً بين تلال مرتفعة . ومن أعلى ذلك الممر ألقينا نظرة على وادى الطائف الجميل الذى كان يسبح فى غمامة من الغبار، ومن خلفه كتلتى باراد Barad وقرنيط Qarnait ، هاتان القمتان الهائلتان من قمم سلسلة الجبال الرئيسية واللتان كان ظلهما ينعكس بفعل ضوء شمس الغروب .

٢ - الطائف

سعدنا بحق عندما وجدنا هدفنا المبتغى أمامنا ، بعد أن قطعنا خمسة وأربعين ميلاً من السفر المرهق الشاق ، وركوب دابة دام أكثر من إحدى عشرة ساعة لم نتوقف خلالها سوى مرتين . كانت الشمس على مسافة قريبة فوق التلال ، وبدأنا نسرع الخطى أسفل المنحدر وفى أعالى الوادى ، ومررنا بقرى صغيرة محاطة بالبساتين والحقول . ولم يكن هناك كثير يستلفت أنظارنا المتعبة ، إلى أن وصلنا إلى قصر شبرا المكون من أربعة طوابق ومبنى من الرخام . هذا هو قصر على باشا ، الشريف الكبير

السابق ، وابن عم حسين بن على ، ملك الحجاز ، والقصر يطل متشامخًا على البساتين المحيطة به . وتعجبت لرؤية مبنى بمثل هذا الجمال - وله درج (سلم) فخم يؤدى إلى بابه الرئيسى ، وله نوافذ لها شيش دقيق جميل مزخرف ، فى الجزيرة العربية ، فى حين أصابت الدهشة رفاقى ، الذين لم يغادر الصحراء السواد الأعظم منهم ، ولذا وقفوا مبهورين أمام تلك العظمة . وقصر شبرا يقع على مسافة ميل تقريبًا إلى الشمال من المدينة على الطريق السريع ، الذى يجتاز عند هذه النقطة طريقًا مهلهلاً مشجرًا بأشجار التوت الأرضى .

وبعد أن قطعنا بضع ياردات فى طريق سيرنا استقبلنا حرس شرف من الشرطة المحلية ، يضم قرابة اثنى عشر رجلاً ومعهم رقيب يرتدون زيًا موحدًا أزرق اللون مصنوعًا من القطن ويتكون من سترة وبنطال ، ويحمل كل واحد منهما بندقية وحمالة جراب طلقات حتى يكتمل الطاقم . وتنفيذًا لأمر صدر ، على ما أذكر ، بإنجليزية مهلهلة ، قام حرس الشرف ، بأداء سلام السلاح بالطريقة الإنجليزية المعتادة ، ثم استدار الحرس بعد ذلك إلى جهة اليسار وسبقنا فى الطريق على شكل طابور ثنائى مهلهل . وحاولت بصعوبة كتم ابتسامة كادت أن تعلو وجهى ، من الدهشة التى أصابت من كانوا معى وانطبعت على وجوههم ، نظرًا لأنهم لم يشاهدوا قط مثل ذلك الشيء من قبل . ووضع إبراهيم نفسه متباهيًا إلى جانبى على رأس الموكب ، الذى راح يتزايد ويتوسع كلما مررنا بجمع من الأطفال الذين راحوا يتجمعون من حولنا لمشاهدة ذلك العرض . ومن بين ذلك الجمع شاهدت رجلاً له شقرة بشرتى تمامًا ، ولربما كان من بقايا الحامية التركية . وبذلك نكون قد دخلنا مدينة الطائف قبل غروب شمس يوم عيد الميلاد ، وقد دخلناها عن طريق فتحة فى السور بالقرب من ثكنات الجنود ، وخلال دقائق قليلة بركْنا جمالنا عند باب أحد المنازل ، الذى وضع تحت تصرفنا ، وذلك البيت مملوك لعلى أفندى، أمير الشرطة أو إن شئت فقل : مديرها ، الذى التقانا عند الباب فور نزولنا عن ظهر ناقتنا الحمرة .

ومن شعب القرنيات كنا قد أوفدنا زُبَر Zubar من حرب Harb ومعه حيلان العتيبى برسالتين تعلنان وصولنا ، ولكن مما يثير الضيق أننى اكتشفت أن ما يحدث حاليًا هو أول إعلان عن وصولى فى الزيارة التى أقوم بها ، والتى كنت أتطلع إلى إبلاغ السلطات المحلية بها عن طريق إرسال برقية من بغداد . واقع الأمر أننى كنت آمل أن يستقبلنى أحد الضباط البريطانيين موفداً من مصر ليرافقنى فى أثناء عودتى إلى نجد . ولكن آمالى تبددت فى هذين الأمرين ، وكان الأمير المحلى قد أرسل إلى مكة للوقوف على ما يمكن عمله ، كما جرى فى الوقت نفسه استقبالى باعتبارى ضيفًا من ضيوف الشرف، إذ جرى التعامل معى بمنتهى اللياقة والأدب وبمنتهى الكرم وحسن الضيافة من أولئك الذين استضافونى .

وصحبنا شخص عبر فناء ضيق ثم بعد ذلك خلال ممر قصير إلى صالة الاستقبال ، التى كانت عبارة عن غرفة مرتفعة مؤثثة تأثيثًا فاخرًا ومفروشة بالسجاد وفيها أرائك ومفتوحة من أحد أجنابها لتطل على فناء صغير ، تنمو فى وسطه بعض الأدغال ، وتحيط به من الخارج نباتات وضعت فى أصص . ومن خارج غرفة الاستقبال كانت هناك غرفة صغيرة خصصت لى كى أنام فيها ، وبجوار تلك الغرفة كانت غرفة أكبر خصصت لمن كانوا يرافقوننى ، وعلى الجانب المقابل للممر الذى دخلنا منه كان هناك حمَّام ، أرضية مصنوعة من الحجر وحوض من الرخام يجرى تغذيته بالماء البارد والماء الحار من صهريجين . وكانت هناك ستارة كبيرة حمراء معلقة على حلقات فى جانب من أجناب صالة الاستقبال ، ويجرى فرد تلك الستارة طلبًا لمزيد من الدفء فى أثناء الليل . كان ذلك ، هو حال المسكن الذى وضع تحت تصرفنا ، مسكن كامل ومريح جدا ؛ ولم أستطع أن أقطع إن كان ذلك المسكن يشكل المنزل بكامله ، ولكن يبدو أن ذلك المسكن لم يكن فيه أية وسيلة من وسائل الاتصال بالبنايات المجاورة ، التى كانت تعيش فيها ، حسب اعتقادى ، أسرة مضيفنا على أفندى .

ليس من شيم الكرم العربى أو بالأصح الكرم الشرقى أن يترك الضيف المرهق القادم من سفر طويل ، لحال سبيله ، وإنما على العكس من ذلك ، فإن الضيف لا

ينتظر منه مطلقًا أن يصل إلى مكان المضيف مباشرة بعد رحلة طويلة ، أو بمعنى أصح ، ينتظر من مثل ذلك الضيف أن ينظم سيره على نحو يسمح له بالتوقف ساعة أو ساعتين قبل مكان الوصول ليصل إلى المكان فى صبيحة اليوم التالى نشيطًا وجاهزًا لاستقبال الناس له. ونحن عندما وصلنا متأخرين نكون قد كسَّرنا القاعدة العربية وخرجنا عليها ، وتحملنا العقاب المترتب على ذلك ، متمثلاً فى تحمل الاستقبال السريع من قبل مضيفينا الأحباء من لحظة وصولنا حتى الساعة الحادية عشرة مساءً ، عندما استأذنت منهم طلبًا للراحة . وطوال كل ذلك الوقت لم أفلح فى الهرب منهم سوى نصف ساعة ، تمتعت خلالها بمباهج وترف أخذ دش ساخن فى الحمام .

وعلى أفندى ، بوصفه أميرًا للشرطة ، يقوم على أمر تنظيم وتدريب وتصريف أمور سبعة وعشرين شخصًا ، يكوِّنون قوة شرطة الطائف ، وهو الذى قام على أمر استقبالنا وإكرام وفادتنا ، وكان يعاونه في ذلك كل من سكرتيره عبد الله أفندى ، وسراج أفندى جابى الضرائب المحلية(٥) ، وسراج أفندى شخص بشوش بحق يوحى محياه بالغلظة والذكاء . ومن رأيى أن على أفندى كان يبلغ الخامسة والخمسين من عمره ، وهو رجل طويل يرتدى زيًا سكَّرى اللون يشبه أزياء القساوسة ، وهو بشوش وكريم جدا ، ولكنه ليس واسع المعرفة أو مرتفع الذكاء . أما عبد الله الذى ذكرنى تمامًا بخليل أفندى الذى لقيته فى الهفوف ، فهو واحد من موظفى الحكم التركى النموذجيين ، فهو ماكر وداهية على الرغم من معرفته الواسعة والمتنوعة . فقد كان هو الذى يحتكر الحديث، عندما يستعرض – مبهرًا رفاقه وأنا معهم – معرفته الواسعة والسطحية تمامًا بالنحو وقواعده ، وبالتاريخ ، والجغرافيا ، والسياسة ، والدين ، وما إلى ذلك من المعارف الأخرى . كان عبد الله أفندى شخصًا لطيفًا فى الحديث معه وفى السمر أيضًا ، وعندما كان يتحدث عن الأمور التى تتعلق بوطنه ، كنت أحصل من حديثه على كثير من المعلومات المفيدة عن الطائف والمناطق المحيطة بها .

وبينما كنا نجلس سويًا على وسائد الديوانية بعد وصولنا ، وبينما كنا نشرب القهوة والشاى ، دخل علينا ممثل لأمير الطائف يرحب بمقدمى نيابة عن الأمير . كان

ذلك الممثل يدعى محمد على ، وهو شخص قوى البنية أنيق فى منتصف العمر ، ويبدو أنه كان رئيس استقبالات الأمير . وخلال لحظات استأذن محمد على ، ليبلغ سيده أننا كنا جاهزين ومستعدين لاستقباله ، إذ ظهر الأمير بعد أن استأذن محمد على بفترة وجيزة . كان حمود بن زيد شابا يسر الخاطر يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا ، جاد ، ومن النوع الذى يفضل الصمت ، يستشعر الحرج ولا يتمتع بذكاء فى الأمور العامة . واقع الأمر أن حمود بن زيد لم يكن هو الأمير ، وإنما قائمًا بعمل الأمير خاله شريف شرف الذى كان بعيدًا عن الطائف ، ضمن حاشية الشريف فيصل الحربية . وكان لحمود شقيق أكبر يدعى شاكرًا ، كان من بين موظفى الشريف عبد الله ، والذى سوف يحتفل به فى العام القادم بوصفه قائدًا للعديد من الحملات التأديبية الفاشلة التى شنها على المتشددين الأشداء فى الخرمة Khurma . وكان لحمود بن زيد ثلاثة أشقاء يصغرونه سنًا كانوا يعيشون معه فى الطائف وهم : على الذى كان يصغره بعامين ، أما الأخوان الآخران فكانا لايزالان طفلين .

كان الحديث ، كما هو الحال فى مثل تلك المناسبات ، حديثًا رسميًا ؛ واعتذرت عن وصولى بلا سابق إخطار ، ولكن سلطات الطائف أكدت لى أنها تشرفت بالزيارة ولم تتضايق منها . وكنت قد انقطعت عنى أخبار الحرب منذ رحيلى عن البحرين قبل ستة أسابيع ، ثم تلقيت الأخبار السارة عن الانتصارات العظيمة فى فلسطين والاستيلاء على مدينة القدس . وكانت أعمدة جريدة القبلة Qibla – الجريدة اليومية التى كانت تطبع فى مكة وتصل الطائف بعد أربع وعشرين ساعة من طبعها – عامرة بالأخبار والتغيرات المثيرة التى حدثت على موقف الحرب ، وكان آخر عدد يصل الطائف من أعداد تلك الجريدة ، ذلك الذى ناقش مغزى أحداث هدنة طلبتها ألمانيا . وكانوا قد قالوا لى ، بطريق الخطأ ، إننى سوف أجد نفسى فى الطائف ، عند نهاية خط التلغراف وخط التليفون ، ولم يكن ذلك صحيحًا ، فقد أحسست أن من استضافونى لم يكونوا معزولين بأى حال من الأحوال ، عن الاتصال بالعالم مثلما كان حال المقيمين فى وسط الجزيرة العربية . هنا فى الطائف كان يجرى مع أضعف

الإيمان ، مناقشة الشئون العالمية ، ليس من منطلق الذكاء والتحليل ، وإنما باعتبارها أحداثًا معاصرة . وجلس رفاقي في أنحاء الغرفة صامتين لا يتكلمون ، ويشعرون بالحرج كما لو كانوا أطفالاً فضوليين يتعجبون من أولئك الناس ومن سلوكياتهم السهلة والبسيطة وأسلوب تعاملهم المريح ، مع أنهم عرب مثلهم ولكنهم متحضرون ، كما أنهم مسلمون مثلهم ولكنهم كانوا يحكمون العقل ويعملونه في التمييز بين أوامر العقيدة ومستلزمات راحتهم . وفي اليوم التالي سألني بدر قائلاً : "متى سنتحرك مبتعدين عن هنا ؟ إن هواء المدينة بارد وخانق ، وأنا مشتاق إلى الصحراء وإلى الجمال وإلى الخيام السوداء" . وضحكت من كل قلبي لأني كنت أعرف السبب الذي جعله يستشعر القلق والضيق . فقد كان بدر واحداً من الإخوان ولكنه بدأ يسترخي في الآونة الأخيرة ليشارك في لهو الجماعة التي كانت ترافقني . وقد سبق لبدر أن سافر مستقلاً ؛ ولذلك فإن مجرد مسكن صغير بين الحضر قد يسعده تمامًا ، والسبب في ذلك أنه من داخله كان مؤمنًا خالصًا . فروحه من الداخل ، كانت تستشعر الدفء بفضل اتصالها بالطبيعة في الصحراء ، هذه الروح تشربت العقيدة وتعيش بها . كان بدر شابا صغيراً يبلغ من العمر خمسة وعشرين صيفًا (عامًا) وله ذلك الصوت الجهوري الذي يتميز به المطير ، وهم يكنون بدر بأبي سبع ، أي طفل الأشهر السبعة ، نظراً لأنه ولد قبل الأوان الحقيقي لولادته . وأيام التجوال هذه مع كافر من الكفار ، وكذلك التسكع في المدينة الكبرى – لأنه زار في تلك الرحلة كلاً من : الطائف ، ومكة ، وجدة لأول مرة – كانت بمثابة مد الربيع الدافئ الذي راح يبدد الضباب من حول روحه . وخلال فترة وجيزة ، رأيت ذلك الرجل بالصورة التي كان عليها ، رأيته كما لو كان طفلاً في طباعه ، رأيته يترنح فيه إيمانه أمام مغريات الريح القبيح القذر والمتعة الحسية . ومن جدة عاد لينغمس في العقيدة السارية في أرضه ولم أره قط بعد ذلك .

وينسحب الأمير وبرفقته محمد علي ، في حين انسلَّ كل من عبد الله وسراج خارجين لتناول العشاء مع أسرهم ، في الوقت الذي أطلق علي فيه إشارة لتقديم الوجبة الخاصة بنا ، كما ترك لنا مراسلاً اسمه علي ، وهو عريف في حرس الشرف ،

ليقوم على تلبية احتياجاتنا وخدمتنا . وجرى إحضار حصيرين دائريين كبيرين فرشا على السجادة فى وسط القاعة ، ومن فوق كل حصير من هذين الحصيرين وضعت صينية معدنية، عليها كوم من أفخاد لحم الضأن فوق كومة من الأرز الحار الذى يتصاعد منه البخار ، والذى يتناقص بياضه الذى يشبه بياض الثلج مع ذلك الأرز بنى اللون بفعل التراب الذى اعتدنا على أكله مسلوقًا فى الصحراء . كان ذلك هو عشاء عيد الميلاد ، الذى تحلقنا حوله ، أنا ومعى اثنا عشر من الرفاق ، والذى لم نترك منه شيئًا سوى العظام بعد أن نهضنا لغسيل أيدينا واستئناف جلوسنا فى الصالة (الديوان) استعدادًا لشرب القهوة .

ولفترة من الوقت راح العريف على يسلينا ويحكى لنا عن انحداره من قريش ، وعن حصار الطائف فى الأيام الأولى من الثورة العربية ، وعن الصور الموجودة على الصخور فى الطريق إلى مكة ، وعن حقول القمح التى يزرعها سكان الجبال القرشيون والثقفيون وبخاصة على جناح وقمة جبل كورة Kura . وخلال أيام ما قبل استيلاء العرب على الطائف،والذين سبق لهم أن خدم معهم ، قال على إنه كانت هناك حامية تركية فى الثكنات العسكرية . وسألته إن كان قد سبق له رؤية الأوروبيين هنا ؟ أو أننى كنت أول أوروبى يراه فى حياته ؟ ورد على قائلاً : "نعم ، عندما كان الأتراك هنا ، كان الضباط الألمان يأتون هنا لتدريبهم ، كان منهم حوالى اثنى عشر أوروبيًا ولكنهم لم يخرجوا قط من الثكنات العسكرية فى أثناء النهار ، وكانوا مقتصرين على أنفسهم فقط . ونحن لم نكن نراهم إلا نادرًا، ولكنهم كانوا كفارًا ولا يصلون ولا يخافون من الله ، وعندما كان المؤمنون يولون وجوههم شطر مكة لصلاة العشاء كانت تنطلق من عندهم أصوات الموسيقى وضجيجها". وبعد ذلك ، وعندما وصلت جدة اكتشفت أن الشريف أصيب بصدمة نتيجة التعدى الذى قمت به على الأراضى المقدسة ، أوضحت له أن ذلك التعدى له سابقة أقدم عليها الألمان ولكن قصة على استنكرت استنكارًا تامًا باعتبار أنها لا أساس لها من الصحة . ومن المحتمل أن يكون ذلك العريف قد جنح به الخيال وظن أن الأتراك أصحاب البشرة الشاحبة وسكان هضبة الأناضول هم حلفاؤهم . وقد

أوردت القصة كما رواها على أمل أن تقوم حوليات ، أو إن شئت فقل سجلات الأركان العامة الألمانية بنفي تلك القصة أو تأكيدها بلا أدنى شك . وعلى أي حال ، فقد كانت زيارتي أول زيارة يقوم بها أوروبي إلى الطائف ، والسبب في ذلك ، أنني يتعين عليَّ أن أذكر شيئًا واحدًا لم أكن على علم به ، وهو أن تجوالي في الطائف صادف تجوال دوتي Doughty، الذي أحضر إلى هنا بوصفه مجرمًا ليمثل أمام القضاء ، قام الشريف الكبير نفسه بتكريمه وإكرامه منذ أربعين عامًا خلت ، ثم أرسله مكرمًا بعد ذلك إلى جدة . يضاف إلى ذلك أن مروري إلى الساحل كان في معظمه من الطريق الذي سار فيه دوتي . ومن قبل دوتي ، كان هنا هاملتون وهيرجرونجي Hurgronje وآخرون غيرهما زاروا العاصمة الصيفية(٦).

انضم إلينا على الأمير ، بعد تناول العشاء ، ولحق بنا عبد الله بعد ذلك ، ورحت أتكلم معهما إلى أن أوشكنا على منتصف الليل ، حيث بدأت أشعر بالتعب والإرهاق فآثرت الخلود إلى الراحة ، بعد أن أصدرت أوامر مفادها أني ليس لدي ما يستدعي إيقاظي في الصباح ، لأن سلسلة النهارات الطويلة والليالي القصيرة جعلتني بحاجة ماسة إلى النوم كيما تتحسن أحوالي . وإن هي إلا لحظات قليلة حتى رحت في سبات عميق في فراش عربي وثير ، وضع على أرضية غرفتي الصغيرة .

لم أستيقظ من نومي قبل الساعة التاسعة صباحًا لأجد الدنيا كلها أصبحت تقف على قدم وساق . فهذا إبراهيم انصرف لحسن الحظ وراح يتسوق في المدينة ، وبناء على طلبي ، قام سعد بإحضار الشاي ومعه صينية ، مجموعة من المأكولات الفاخرة – خبز مخمور مخبوز محليًا ، جبنًا طريًا ، وعسلاً بريًا طازجًا ، ورمانًا وسفرجلاً . ولن تغيب عن بالي مطلقًا مأكولات تلك الوجبة الفاخرة ، التي رحت أتناولها وأنا أدردش مع سعد عن آثام إبراهيم . وعندما علم مضيفي باستيقاظي دخل عليَّ ، ورحت أحادثه وأنا مازلت جالسًا في فراشي . ولم أنهض من مكاني قبل الساعة العاشرة والنصف صباحًا لآخذ حمامًا حارًا جيدًا وأبدل ملابسي . وأبلغوني أن قافلة الأمتعة التي خلفناها وراءنا في سهل راكبة قد وصلت عند الساعة الثامنة صباحًا ، بعد توقف

فى أثناء الليل دام ست ساعات عند سفح الجبل ، وبذلك تكون القافلة قد قطعت المسافة – التى قطعناها فى اثنتى عشرة ساعة – فى عشرين ساعة . وهنا استدعيت الجماعة كلها لأوزع عليها هدايا نقدية على كل فرد من أفرادها ، كل حسب درجته . وبعد أن انتهيت من توزيع الهدايا النقدية ، اقترحت على كل من إبراهيم وسعد ، أن يختار كل منهما لنفسه مشلحًا من بين المشالح التى كنت قد أحضرتها معى لتوزيعها على من يستضيفوننا على طريق سفرنا . ولم يخطر ببالى أن بالة المشالح كانت تحتوى على مشلح واحد فاخر علاوة على بقية المشالح الأقل منه جودة ، وحدث بمحض المصادفة أن وقعت يد سعد أول ما وقعت على ذلك المشلح الفاخر . وراح إبراهيم ، وهو يحسد سعدًا على اختياره ، يفتش البالة كلها بحثًا عن مثيل لذلك المشلح الفاخر ، ولكنه لما لم يجد مثيلاً لذلك المشلح ، نظر إلىَّ ببرود وهو يقول : "ما فيه شىء يجوز لى" (أى "ليس من بين هذه المشالح ما يعجبنى أو يروق لى") . ورددت عليه ، وأنا مشمئز تمامًا ، ومضيفًا نقطة أخرى إلى سجل تصرفاته غير اللائقة الطويل قائلاً : "كيفك"(٧) وأضفت إلى ذلك السجل نقطة أخرى عندما علمت فى اليوم التالى من سعد أنه عرض مشلحه ليسترضى به صديقه الغاضب ، ومع ذلك أمسكت عن الكلام تجنبًا لنشوب الخلافات فيما بيننا .

وبعد الظهر مباشرة قدمت لنا وجبة صباحية خفيفة مكونة من الخبز والتمر وفطائر الخضروات وأطباق من اللحم المفروم . كان مرافقاى قد تناولا إفطارهما مثلى تمامًا ، ولكننا عندما خلونا لأنفسنا ، لم يؤنبنا ضميرنا على انتقادنا وتعليقنا على الاقتصاد فيما قدِّم لنا . والعرف فى الطائف يقضى بتقديم وجبة واحدة رئيسية فى اليوم ، وهى وجبة الغداء على وجه التحديد ، تقدم فى أى وقت بعد غروب الشمس . وهم لا يتناولون بعد الاستيقاظ من النوم أو عند الظهيرة ، سوى بعض المأكولات الخفيفة فقط ، وقد رأيت فى ذلك نظامًا ممتازًا .

وفى فترة ما بعد الظهر ، أبلغنى أحد المراسلين أن وقت الأمير يسمح باستقبالى لرد الزيارة ، التى سبق أن أعربت عن رغبتى فى القيام بها . واصطحبت معى مضيفى

عليًا وسرنا في الشارع نفسه الذي جئنا منه . وبعد أن وصلنا أرضًا فضاء مثلثة الشكل هي بمثابة أرض المخيم التي تخيم فيها القوافل التي تصل إلى الطائف ، أو إن شئت فقل البرحة Baraha ، عند وصولنا إلى تلك البرحة ، شاهدت على الجانب الأيسر ثكنات عسكرية منخفضة تمثل قاعدة المثلث ، وعند رأس المثلث عن يميننا أو إن شئت فقل في اتجاه الشرق ، كان هناك مسجد له مئذنة طويلة تعلوها شرفة عُليا مستديرة للمؤذن ، ولها أيضًا ذروة مدببة تشبه مطفأة الشموع . والغريب أن تلك المئذنة لا تشبه الحلبة المنخفضة التي في المساجد الوهابية وعلى جانب ذلك المسجد كان هناك شارع واسع يؤدي إلى متاهة من صفوف المحلات والدكاكين ، تشكل في مجموعها ما يسمى بالسوق. ومن حول البرحة وفي مواجهتها كانت هناك بعض المنازل المبنية من الأحجار ويتكون كل منها من طابقين ، وكان السواد الأعظم من تلك المنازل مليَّس بالجبس الأبيض ، ومن بين تلك المنازل كان هناك منزل يواجه المسجد ، ويقع في بداية الشارع الشمالي ، ذلك هو منزل الأمير ، الذي وجدته واقفًا على باب منزله لاستقبالي . وبأدب بسيط وسلس أدخلني حمود إلى غرفة كبيرة نظيفة جدرانها مطلية أو إن شئت فقل : مليسة بالجبس الأبيض ، ومفروشة بالسجاد ، ومزودة بالوسائد في كل أركانها . وفي فجوة في ركن من أركان تلك الغرفة كانت هناك خزينة حديدية كبيرة مكتوب عليها بأحرف كبيرة إنها من صناعة إحدى الشركات النمساوية . وكان الثقاب (الكبريت) النمساوي لايزال يستعمل في الطائف رغم مرور سنوات عدة على نشوب الحرب ، وذاك معلم واضح من معالم السوق المحلية .

وبعد أن أجلسني حمود على الوسائد في ركن من أركان الغرفة ، جلس هو عن يميني بينما جلس عليٌّ عن يمينه ، في حين جلس شقيقه عن يساري . وقبل مضي وقت طويل وصل شخصان آخران آخرون ، كان أحدهما تاجرًا محليًا أما الآخر فكان سليل عشيرة الأشراف ، واسمه حسين بن جودي ، ومظهره يدل على أنه من أصحاب النفوذ والكلمة النافذة في المدينة ، وهو يجيء في المرتبة الثانية بعد الأمير . ولم يسبق لحمود السفر خارج الحجاز ، ولم يكن لديه شيء يقوله عن نفسه . قال حمود ، الأرجح أن السفر أمر لا يروق لأي مواطن من مواطني الطائف ، الذين وضعتهم العناية الإلهية

فى جنة حقيقية، وموقع مثالى ومناخ معتدل ، وبالتالى لن يفيدوا شيئًا من التجوال فى تهامة المزعجة ، أو الصحراء الجافة من حول الطائف . وأهل الطائف لا يعرفون إلا القليل عن تلك الصحراء ، ولا يهتمون بها ، لأن الشريف ، الذى كان حمود يشير إليه دومًا بلقب ينم عن التوقير والاحترام ، وهو سيدنا وسيد الجميع ، لم يشجع الأشراف على المغامرة بالسفر إلى الخارج . وسكان الطائف من الطبيعى أن يتضاعف عددهم فى فصل الصيف أو قد يصل إلى ثلاثة أضعاف عدد السكان ، مع تقاطر تجار مكة وأعيانها على الطائف هربًا من حرارة السهول الخانقة الشديدة ، ومع ذلك كان الشريف قد قطع زياراته السنوية اعتبارًا من تاريخ تمرده على الأتراك ، نظرًا لانشغاله بإدارة الحرب . وكان كلام قد قيل قبل الحرب عن وصل الطائف بمكة عن طريق خط تلغراف ، ولكن المشروع أرجئ تنفيذه بسبب الظروف الراهنة . وكانت غالبية المنازل الفاخرة التى تنتشر فى أنحاء المدينة وضواحيها غير مأهولة بالسكان عندما وصلت إلى الطائف ، وكان السماسرة هم الذين يتولون أمر تلك المنازل ، ولم يكن يسكن فى المدينة سوى العائلات المحلية ، ومعهم التجار والحرفيون ، الذين كانوا يعانون العوز والفقر بسبب وقف الغزو السنوى الذى كان يأتى من السهول ، واضطروا إلى الرحيل إلى كل من مكة وجدة لينالوا حظهم من فرص تجارة الحرب . والسكان المقيمون فى المدينة يقدرون بحوالى ٥٠٠٠ نسمة ، وهناك خمسة آلاف آخرون يعيشون فى القرى المجاورة للوادى كله ، وعلى سفوح الجبال المحيطة به . أما فى فصل الصيف فيتجمع فى الطائف عدد يقدر بحوالى ٢٠٠٠٠ شخص كيما يتمتعوا بمناخ الجبال المعتدل ، فى رحلة تستغرق اثنتى عشرة ساعة من مكة عن طريق مدق الأغنام الصعب والمباشر ، والذى تسير فيه البغال بحرص بالغ ، خلال مضايق جبل كورة ، الذى لابد من أنه يصل ارتفاع قمته - باعتبار أن تلك القمة هى أعلى قمم سلسلة جبال الشفا - إلى ما يتردد بين ٨٠٠٠ و ٩٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . وارتفاع الطائف نفسها فوق ذلك المستوى يقدر بحوالى ٥٤٠٠ قدم .

والغنم هى ونحل الجبال وكذلك أشجار فاكهة الوادى وسفوح الجبال ، كلها أمور جوهرية فى تجارة السكان المحليين . وعسل الطائف له شهرة واسعة وذائعة فى كل

أنحاء الجزيرة العربية . ولقد سبق أن تذوقت ذلك العسل فى الرياض ، التى لم تنته فيه كمية العسل التى أحضرها الحجاج العائدون معهم فى صيف عام ١٩١٧ الميلادى ، وبقيت إلى ما بعد شهر أغسطس من العام التالى ، وهو الموعد الذى غادرت فيه العاصمة مكة للمرة الأخيرة . والعسل عليه طلب كبير فى أسواق مكة ، وبين سكان مرتفعات الحجاز البؤساء الأجلاف ، وهو يحتل مكان التمر فى غذاء هؤلاء الناس . والعسل هو ولبن الغنم هما الغذاء الرئيسى لسكان الجبال ، مثلما يشكل التمر ولبن النوق الطعام الرئيسى فى صحراء الجزيرة العربية . والمنتجات الرعوية التى يجرى بيعها وشراؤها تتمثل فى اللبن والجبن ولحم الضأن . يضاف إلى ذلك أن بساتين الطائف تزود مكة بالسفرجل ، والرمان ، والخوخ ، والمشمش ، والعنب ، والبطيخ ، والقرع العسلى ، وأنواع كثيرة من الخضراوات ؛ كما توجد هناك أيضًا بيارات نخيل فى القرى المنخفضة مثل أخيضار ، والقائم ، والمريسية Marisiyya ، ولكن بيارات النخيل ليست موجودة فى مدينة الطائف نفسها ، كما تنتشر هنا وهناك أشجار البرتقال وأشجار الليمون ، ولكنها ليست غزيرة أو وفيرة . وفى فصل الربيع ، ومطلع فصل الصيف ، عندما تزهر أشجار البساتين لابد من أن يكتسى الوادى منظرًا جميلاً بحق ، أما فى منتصف فصل الشتاء ، عندما شاهدت الأشجار بعد أن نفضت عنها أوراقها الخضراء ، وذوت أزهارها ، فلابد من القول إن المنظر كان يوحى بالجدب ؛ إذ كانت قصور الأغنياء الفاخرة تقف مكشوفة للبرد والصقيع ومن ورائها خلفية كئيبة من السلاسل الصخرية .

وذرى القرنيط Qarnait الخيالية هى وكتلة ظهر السرج المظلمة فى برد Barad هى كل ما يمكن أن يراه الإنسان من منطقة الشفا Shifa الرئيسية من الوادى ، وجبل كورة الواقع خلف الشفا لا يمكن رؤيته من الوادى . وكنت قد اعتزمت زيارة قمة جبل كورة ، التى وعد الرقيب على أن يرينى البساتين وحقول القمح التى تكاد تتعلق بأطراف تلك القمة ، ولكن الترتيبات التى اتخذتها لم تضع فى الحسبان تنسيق الملك . وبقى ذلك المشروع بلا تحقيق . والقبائل التى تعيش هنا فى الجبال هى قبيلة قريش وثقيف وفخذ الثباتة من قبيلة عتيبة . والوادى فى معظمه يحتله الأشراف ، الذين ينتسبون إلى النبى (ﷺ) .

وبعد ان استأذنت من الأمير الذى أعرب لى عن موافقته الخالصة على أن أتصرف داخل ممتلكاته وأراضيه كما لو كنت فى وطنى ، أمضيت ساعات ما قبل الغروب فى نزهة قصيرة سيراً على الأقدام مع مضيفى على فى أطراف المدينة ، عدنا بعدها فى المساء ، إلى سكننا المريح ، الذى جرى فيه خدمتى قبل وبعد العشاء بطريقة لم تترك لدى أى شك فى ود وحميمية أصدقائى الجدد . وقد شرفت بصفة خاصة بزيارة إمام مسجد ابن عباس الكبير لى ، وهو واحد من رجال الدين الذين يتغذون تغذية جيدة ، والذى كان يدخن على الملأ من نرجيلة عجيبة الأجزاء ، وراح يحكى لى بين الأنفاس الطويلة التى كان يسحبها من النرجيلة ، قصة مهمته ، ويناقش معى شئون العالم بطريقة أوضحت لى أن إدارة المسجد ومسرى الخدمات الرسمية ، كانت ، وبلا أدنى شك ، تشغل كل وقته واهتمامه . والمسجد يقع خارج البوابة الجنوبية مباشرة ، وهو عبارة عن مبنى أنيق من الأروقة والأعمدة المتجهة نحو الداخل تشتمل على فناء واسع ، توجد فى منتصفه قبتان ، تقع إحداهما فوق ضريح عبد الله بن عباس[8] ، أحد أولياء الله فى الطائف ، أما القبه الثانية ، فهى فوق قبرين من قبور أبناء النبى ، عبد الله الطيب الطاهر ، ومحمد الحنفى. وعند ركن من أركان ذلك المربع توجد مئذنة سامقة تشبه المئذنة التى سبق أن وصفناها ، غير أنها أطول منها قليلاً . ومدخل المسجد الرئيسى فى الجانب الأيمن ، وهو عبارة عن عقد مزين بنقوش بسيطة وله باب رئيسى . ومن الواضح أن ذلك المسجد شيد على حساب أحد خلفاء الدولة العباسية وبمبادأة منة ، وهذا المسجد يتردد عليه كثير من الحجاج وبخاصة السيدات اللاتى تردن الزواج أو الأطفال ، ويقال إن بركات ابن العباس يندر ألا تصيب الزوجة العاقر التقية . وأنا لم أخاطر بدخول ذلك المسجد ، ولكن رفاقى النجديين قالوا لى على سبيل السر ، إن تلك الأعمال الوثنية التى يأتيها الناس فى ذلك المكان ، قد آذت مشاعرهم الرقيقة . ومما لاشك فيه أن البعض من أولئك الرفاق شاهدوا هنا ولأول مرة تلك الصلاة التى تؤدى من أجل وساطة آل البيت ، تلك الصلاة التى لُقِّن أهل نجد أنها خطيئة لا تغتفر .

وفى صبيحة اليوم التالى أيقظونى ليبلغونى أن الأمير قد أوفد من يسأل إن كنت قد استيقظت من النوم أو لا ؛ فقد وصلته رسالة من الشريف وهو يريد زيارتى ليبلغنى

محتوى تلك الرسالة . ولبست ثيابى بأقصى سرعة ممكنة ، واتجهت على الفور إلى الديوانية ، حيث كان يجلس حمود وبعض مرافقيه فى انتظارى ومن حولهم رجالى وأتباعى . وبعد أن تبادلنا التحية ، أبلغنى أنه تلقى أخباراً من الملك . وهنا تقدم إبراهيم والآخرون إلى الإمام كى يسمعوا ما يقال ؛ وأشرت لحمود بأنى أود أن يرحل عنا أولئك الناس ، وهنا أصدر حمود أمراً مشابهًا لرجاله ، وبذلك بقيت أنا وهو على انفراد . وهنا سلمنى حمود رسالة من سكرتير الشريف ، معنونة لى شخصيًا ، والتى جاءت ترجمتها على النحو التالى :

"سيدى المحترم ، نائب ومبعوث الحاكم السياسى والمدنى للعراق ! بعد السلام والتحية ! ثانيًا ، أبلغ أمير الطائف عن وصولك ومعك رفاقك إلى منطقة مجاورة للطائف، إلى صاحب الجلالة ، مولاى الملك ، الذى يعبر عن سروره ويأمرنى بإرسال هذه الرسالة إليك ترحيبًا بك وتعبيراً عن أمله فى أن تكون رحلتك سعيدة ومبشرة بالخير . وأنا أبلغك أيضًا ، أن حامل هذه الرسالة ، أحمد بن هزّاع ، قد تم تعيينه ليرافقك من الطائف إلى جدة ، ليوفر لك كل ما يمكن أن تحتاجه أو تطلبه ولحمايتك على الطريق . وإذ أراد رفاقك الشرقيون زيارة مكة المكرمة ، فمرحبًا بهم . وأنا أختم رسالتى بوافر احترامى وتحياتى. ١٢ من ربيع الأول من عام ١٣٣٦ الهجرى ، من مساعد مدير الترجمة ، نيابة عن وكيل وزارة الخارجية ."

كانت المعلومات التى تلقاها الأمير متفقة إلى حد كبير مع محتويات الرسالة فيما عدا التركيز بصورة تدعو إلى الريبة والشك ، على إرسال كل المرافقين لى إلى مكة ليكونوا برفقتى . وعندما فكرت فى مسألة عودتى إلى نجد عن طريق الطائف بدأت أشعر بعدم الارتياح لتلك الأوامر الواضحة ، التى تشككت على الفور ، وقد حدث ذلك فعلاً ، فى دوافعها . ولم يكن بمقدورى بطبيعة الحال ، التلميح إلى ذلك الشك أو الكشف عنه ، ولكنى قررت ، برغم كل ذلك ، ترك أمتعتى الثقيلة والقسم الأكبر من أتباعى فى الطائف . ومن حسن الطالع ، أن الرحلة الطويلة من الرياض قد تسببت فى إنهاك الإبل إنهاكًا تامًا، الأمر الذى يتطلب إراحة تلك الإبل فترة طويلة قبل أن نخاطر

بالقيام برحلة العودة . وبعد كثير من الاحتجاج والجدل رضخ الأمير لأفكارى السريعة ، وجرى عمل الترتيبات اللازمة لبدء رحلة الجماعة التى يقع عليها الاختيار ، فى صبيحة اليوم التالى متجهة إلى مكة ، على أن تبقى بقية الجماعة لتقوم على أمر تغذية الإبل من المراعى القريبة من الطائف .

كنت قد أنفقت القسم الأكبر من اليوم السابق فى التمتع براحة طويلة تحسبًا أن يطول مقامى أيامًا عدة فى أضعف الأحوال . وبالتالى لم يعد أمامى وقت أضيعه ، ولذلك أنفقت بقية اليوم فى استطلاع الوادى بكامله وبصحبتى كل من على ، والعريف ، وثلاثة من عساكر الشرطة ، الذين كانت طاقتهم التى لا تكل ولا تمل أمر يدعو إلى العجب . وعند غروب الشمس كنت قد تجولت حول المدينة وخلالها ، بل وزرت كل قرية من قرى الوادى ، كما أرونى أيضًا الثكنات العسكرية التركية القديمة . ومما أحزننى كثيرًا فيما بعد ، رغم أنى لم أكن عارفًا بوجودهما فى ذلك الوقت ، أننى فشلت فى زيارة صنمى اللات والعزى ، التى أورد دوتى Doughty[٩] وصفًا مسهبًا لهما ، واللذان بسببهما وبسبب الأضرحة التى سبقت الإشارة إليها ، ينظر الوهابيون إليها ، بل ويعتبرونها موطنًا للوثنية الحديثة والقديمة أيضًا .

وادى الطائف يشتمل على قسمين مميزين ، كلاهما بيضاوى الشكل تقريبًا ، ويربطهما ممر يصل عرضه إلى حوالى نصف ميل بين صخور دمّة Dimma ، والطرف الشمالى من سلسلة جبال شرقرق Sharaqraq ، والبيضاوى الأصغر الذى تقع فيه قرى قيم Qaim ، يقع فى الناحية الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية فيما بين ذلك الممر الذى نظرنا منه إلى الوادى عندما وصلنا إلى الطائف ، وامتداد سلسلة جبال شرقراق يحيط بذلك البيضاوى من ناحيتى الجنوب والغرب ، وهناك أيضًا حاجز مماثل من ناحية الشمال ومن ناحية الشرق . وينساب خلال ذلك البيضاوى وادى عقيق ، وتل الدمّة Dimma يدعم ذلك الوادى بأن يقرنه بوادى وجيه ، الذى هو بمثابة قناة الصرف الرئيسية فى منطقة الطائف كلها .

ومدينة الطائف نفسها تكاد تكون فى وسط القسم البيضاوى الأكبر ، الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب تقريبًا ، ويحيط به من الناحية الشرقية منحدر قفر منخفض

تتخلله سلاسل جبلية ورواب ، كما تحيط به سلسلة جبال شرقرق من الناحية الغربية ، ومن الناحية الجنوبية تلال منخفضة تنحدر ناحية سلسلة الجبال الرئيسية وتتصل بخط جبال شرقرق عن طريق أربعة روابى رئيسية تسمى ماضون Madhun وصخارة Sakhara، وأم العدم ، وأم الشَّياع ، وبنفس الترتيب بدءًا من الشمال إلى الجنوب . وخلف ذلك الحد الغربى وعلى بعد مسافة قريبة منه ترتفع سلسلة جبلية أخرى يطلقون عليها اسم الغمير Ghumair ، ويرتفع جبل البراد Barad على كتفها الجنوبى الغربى . وهناك رابيتان أو ثلاث منخفضة تكون خطًا يتجه صوب الجنوب ليكون امتدادًا لتل الدِّمة وصخورها وتبرز من واجهة جبال شرقرق سلاسل جبلية منعزلة فيما بين جبال شرقرق والطريق ، ومسرة Musarra عند ملتقى قسمى الوادى البيضاويين ، وريع الأخضر Ri' al Akhdhar و أكابير Akabir إلى الجنوب من شرقرق ثم أم الصحفة Umm al Sahfa على مسافة ربع ميل تقريبًا فى الاتجاه الشمالى الغربى من الطائف ، والتى تقع سلسلة جبال ريع الشهدا Ri' al Shuhada ، وسلسلة مجر الشاش Majarr al Shash وكذلك القراحين Qarahin إلى الجنوب الشرقى منها . تلك كانت التلال المحيطة بالوادى .

قناة الوجيه تبدأ من مرتفعات باراد Barad ثم تنقسم إلى قناتين عندما تصل إلى جنوبى الطائف ، ثم تهبط على جانبى الطائف لتصل إلى الوادى لتندمج مع قناة العقيق على حدود القيم Qaim ؛ وقناة العقيق تنحدر من جناع الغمير ، وتنساب خلال فجوة فى الشرقرق ، وتصل إلى ما بعد دمَّة Dimma لتنساب فى منطقة القيم ، ثم تواصل مسيرها على النحو الذى سبقت الإشارة إليه . ويضاف إلى خطوط الصرف الرئيسية السابقة خط رابع لمجرى مائى يطلق عليه اسم العين 'Ain ، الذى ينبع من سفح جبل البراد ، على شكل نبع دائم يجرى على شكل مجرى مياه سطحية متجاوزًا المدينة إلى حدائق شبرا والقرى القليلة التى توجد إلى الشمال منها ، وبذلك يوفر ذلك المجرى المائى ريًا دائمًا على مدار العام لأكثر أجزاء الوادى خصوبة .؛ ولم أجد من كل الذين سألتهم إجابة إن كان ذلك المجرى المائى صناعيًا أم طبيعيًا . وعلى طول ذلك المجرى المائى لم تكن هناك أية آثار لأبيار ، من قبيل الأبيار التى يمكن العثور عليها فى أية

منظومة من منظومات الكريز ، وأنا يساورني شك قليل في أن القناة التي ترتفع إلى مستوى الأرض على شكل فجوة مندفعة يصل اتساعها إلى حوالي قدمين وتمتد لمسافة نصف ميل جنوبي قصر شبرا ، هي من إنشاء إحدى الوكالات البشرية .

والقرى موزعة على شكل مجموعات صغيرة في أنحاء ذلك القسم الشمالي من الوادي . وفي أقصى الركن الشمالي وإلى الشرق من الطريق الرئيسي تقع كل من شبرا ، وأم الخبز ، وقملا ، وحزام ، ومليسة . وشبرا أقصى قرى الشمال بين تلك المجموعة لا تتكون من مجرد قصر شبرا العظيم الذي يقف بين حدائق فاخرة ومترامية الأطراف ، التي تبقبق في كل أنحائها قناة العين وقنياتها ، وكثير من الحقول هنا كانت تكسوها نباتات القمح الخضراء الصغيرة التي يصل طول الواحد منها إلى حوالي ستة بوصات أو أكثر فوق سطح الأرض ، أما البقية فهي عبارة عن غابة من أشجار الفاكهة الكثيفة التي يصعب اختراقها . وحراس القصر ، الذي كان مغلقًا لسوء حظنا ، ويصعب علينا الدخول إليه ، يعيشون في إسطبل من الصلصال ، كانت توجد في قسم منه أربع نعامات كبيرة خلف أسوار حديدية ، جرى تغذيتها من خلال القضبان الحديدية ، بواسطة كلاف عجوز ضخم الجثة ، يبدو أنه هو المسئول عنها ، وذلك من باب تسليتنا والترفيه عنا . هذه الحيوانات الضخمة التي من قبيل الطيور ، منها ذكران ريشهما شديد السواد ، وأنثيان ريشهما بني مرقط . وقيل لي إن ذلك النعام تلقاه علي باشا هدية من مصر قبل عدة أعوام . هذا ولا يزال النعام باقيًا في الأماكن الصحراوية في الجزيرة العربية ، وبخاصة في شمالي الحماد Hamad وفي الربع الخالي ، حيث يجري ويرتع مع المها والوعول ، ولكن أحدًا من مرافقي لم ير ذلك النوع من الحيوانات قبل الآن ، بل إنهم وقفوا مبهورين يتعجبون أمام تلك الوحوش الكاسرة السخيفة التي كانت تلتهم البرسيم الحجازي الذي كان الكلاَّف يلقي به إليها . لقد قالوا لي : الواقع أن ذلك الحيوان ليس سوى جمل برجلين ، أو إن شئت فقل : إن الجمل نعامة بأربعة أرجل . لا حول ولا قوة إلا بالله . وبالقرب من القصر كان هناك بئر لجلب الماء يعمل بمروحة هوائية . وكانت بقية القرى الأخرى الموجودة إلى الشمال من القصر عبارة عن مجموعة صغيرة من الأكواخ وحقول القمح والبساتين .

وفي اتجاه الغرب من الطريق الرئيسي وعلى بعد مسافة حوالى ربع ميل من قصر شبرا توجد قرية العقيق المنعزلة وسط مساحة كبيرة من حقول القمح التى تشكل زاوية منفرجة حول الوادى . كان القمح قد بذر مؤخراً ، وبدأت التربة بنية اللون تكتسى بلون البادرات الخضراء . وبينما كنت أتجول فى تلك المنطقة المحيطة اعترضنى صبى رث الثياب ودنا منى وراح يستجدى . ونظراً لأنى لم يكن معى ما أعطيه إياه ، فقد خلصت نفسى بصعوبة من ملاحقته التى تثير الضيق وتبعث عليه . وقد أبلغنى علىٌّ أن ذلك الرجل المسن كان من الأشراف ، بل ومقيم ومن ملاك الأرض فى العقيق .

وعلى بعد مسافة قصيرة من غرب الطائف نفسها كانت هناك مجموعة من قرى الضواحى . وأبعد تلك القرى من ناحية الشمال قرية نجمة التى تقع على رابية صخرة أم الصحفة . هنا كان عيون ، شريف من أشراف الماضى العظام ، والذى يتحدث الناس هنا عن عظمته وأبهته وهم يلهثون ، قد بدأ فى تشييد قصر لنفسه بالقرب من بئر يستمد ماءه من أحد الينابيع أو العيون ، ولكن من جاءوا من بعد ذلك الشريف لم يكملوا ذلك المشروع قط ، ولذلك فإن الأعمدة العارية والأعمدة نصف المبنية ، وكذلك الجدران التى بلا سقف ، كل ذلك كان يبدو كما لو كان أنقاضاً عظيمة من أزمان قديمة . وقرية قروة Qarwa فى الجنوب تتكون من فيلات مزخرفة بزخارف الجبس يسكنها تجار مكة الأثرياء ، وتحيط بها البساتين ، وإلى الجنوب من قرية قروة تقع قرية سلامة Salama ، وهى قرية لها طابع قرية قروة نفسه . وفى أقاصى الجنوب أيضاً وعند سفح تل سخارة Sakhara توجد قرية متينة ، وهى عبارة عن مجموعة من أكواخ مبنية من الطين والحجر .

على بعد مسافة ميل أو أكثر من جنوب الطائف توجد بساتين وقرى حُويع Huwai' وشهر Shahar ، التى تقع عند سفح تلال القراحين ومجرار الشاش . ويكتمل كتالوج الضواحي بمستوطنة اليمنة Yumana على الضفة اليمنى لمجرى سيل الوجيه . ومستوطنة اليمنة تتكون من مجموعة صغيرة من الأكواخ الحقيرة المبنية من الطين والحجر وصفائح الكيروسين ، ويسكنها أناس فقراء ، [منهم] مساكين المهاجرين اليمنيين ،

والحدادون الذين يشبهون الغجر ، والسماكرة ، أو الشحاذون ، الذين يلقبون هنا بالحجاج الدائمين . وبالقرب من تلك المستوطنة يوجد المجزر المحلى بعيداً تماماً عن المدينة ، ومما لا شك فيه أن ذلك معلم من معالم أزمان الأتراك ، والمجزر مشيد من الصلصال .

ومدينة الطائف نفسها عبارة عن مربع له أربعة أضلاع ، يصل طول الواحد منها إلى ما يقرب من ٣٠٠ ياردة . وقديمًا كانت الطائف محاطة بسور مبنى من الطين والحجر ، والذى تتناقص بقاياه تناقصًا غريبًا مع البيوت الأنيقة والمنازل الفاخرة الموجودة داخل محيط ذلك السور . والجزء الأوسط من المدينة عبارة عن سوق يفوق امتداده كل الحدود فيما يتعلق بمطالب واحتياجات السكان الدائمين، على الرغم من تصميمه لاستيعاب كل حركة الصيف التجارية بلا أدنى شك . ولم أجد فى شوارعها ولا فى حواريها غير المتناسقة أى شيء من النظام أو التوازى ، فالميدان الرئيسى شكله غير منتظم ويوجد فى نهايته مسجد ، يطلقون عليه اسم مسجد الهادى(١٠) ، ويوجد فيه أيضًا مكتب الأمير المتواضع وكذلك المحكمة الخاصة بالأمير . ومن حول السوق من ناحية الجنوب والشرق توجد الأحياء التى يسكنها الفقراء ، أما فى الشمال والغرب فتوجد المنازل الفاخرة التى يسكنها الأثرياء . وفى الجنوب الشرقى داخل محيط السور توجد جبانة قديمة لا تستعمل ؛ فقد بدأت تظهر مقبرة جديدة من حول ضريح ابن عباس خارج السور . والركن المقابل ، تشغله قلعة مشيدة من الصخور جاثمة على مرتفع طبيعى ، تعد أثرًا من الآثار التى تُذَكِّر بزمن الإمبراطورية الوهابية(١١) ، نظرا لأن ابن سعود الكبير هو الذى أمر ببناء تلك القلعة بعد غزوه للحجاز . والقلعة عبارة عن مربع كامل له أركان مستديرة ، وجدران بها مزاغل ، وعلى جوانب تلك القلعة توجد آثار الطلقات والقصف ، ومع ذلك فإن مدافع قوات الشريف لم تؤثر فى حصون تلك القلعة . وعلى الرغم من أن أسوار الطائف لم يعد لها وجود ، فإن البوابات الثلاث التى كان يسمح منها بالدخول إلى الطائف لا تزال باقية متمثلة فى بقاياها القديمة، وهى باب السيل فى الواجهة الشمالية ، وهو يؤدى إلى الطريق الرئيسى ، وباب الريع فى

الناحيـة الغربيـة ، وهو يؤدى إلى طريق مكة عن طريق جبل كـورة ، وأخيـراً باب ابن عباس الذى يفتح على الناحية الجنوبية ناحية مسجد ولى الله . وبالقرب من البوابة الأولى توجـد أطلال بيت الشريف ، وأطلال مـا يـسـمى بيت الحكم ، أو إن شـئت فـقل محكمة الجمهور ، اللذان فتح الأتراك عليهما النيران وقصفاهـما انتقامًا من الشريف لتمرده على سيده سلطان تركيا ، وذلك قبل تسليم المدينة للشريف عبد الله .

ولم يمل علىَّ قط من الحديث عن الحصـار العربى للطائف والاستيلاء عليـها ؛ ألم يكن علىَّ واحـدًا من أولئك الذين التـحقوا بالجـهـاد ؟ ألم يكن فى ذلك الوقت عريفًا فى حرس الطائف ؟ و فـى أثناء تجوالنا شـرح على تـفاصـيل الحصـار ، الذى نفـذ بطريقة الحصارات العربية العابرة ، والذى امتد إلى ثلاثة أشـهر اعتبارًا من أواخر الصيف وجـزء من خـريف عـام ١٩١٦ . فقـد سـقطت كل من مكة وجـدة فى أيدى قـوات الملك ، وأوفد الملك ولده عبد الله لسحق البقية الباقية من القوات التركية فى الجزء الجنوبى من الحـجـاز ، أو إن شـئت فـقل : لإزعـاج الطائف . وقـام العرب باحـتـلال شـرقـرق ، هـى وسلاسل الجبال الخـارجية ، كما احتلوا أيضـًا مواقع متقدمة للمدفعية على كل من تلال دمَّة وسـخـارة Sakhara ، فى الوقت الذى قصَّر الأتراك فيه خطوطهم عن طريق تكريس أنفسـهم للدفـا ع عن الطائف نفسـهـا ، وعن الثكنات والمواقع الخـارجـيـة فى كل من أم الصـحفة وأكابير ، والمعروف أن كلا من أم الصـحـفة وأكـابيـر كانت تتـصل بـالثكنات العسكرية عن طريق خندق عميق- راح مرشدى يشرح لى ظنا منه أنه سوف يترك لدى انطباعًا بالإعجاب بعجائب الهندسة العسكرية الحديثة - كان العدو يتمكن بفضله من التموين والاتصال بالمواقع الخارجية المتقدمة دون أن يتعرض فرد واحد لنيران القوات القائمة بالحصار . ومن المؤكد أن مهمة القوات القائمة بالحصار لم تكن سهلة وبخاصة فيمـا يتعلق بجلب مدافع الحصار من خلال الممرات الجبلية ، ومن خلال الحالة غير المنتظمة للثكنات العسكرية ، التى صبوا عليها القسم الأكبر من نيرانهم . هذا دليل حى على العمل الجيد الذى قام به رجال المدفعية المصريون . والثكنات عبارة عن حوش (فناء) بيضـاوى كبير تحـيط به غرف نوم مبنية منخفضـة وغرف الطعـام الخـاصـة بالحـامية ، وفى وسط ذلك الحوش(الفناء) يوجد مبنى مكون من طابقين ، ومن حجم

مناسب ، هو المكان الذى يتناول الضباط فيه طعامهم ، ولم تنج من ذلك المبنى مجرد غرفة واحدة من نيران المدفعية الكثيفة . ثم صعدت على كتلة من الحطام التى كانت تشغل مكان الدرج (السلم) القديم المؤدى إلى الطابق العلوى ، الذى وجدت فيه غرف بلا أسقف تنتشر فيها شرائح الأعمال الخشبية ، وكذلك كتل من المبانى التى سقطت على الأرض ، ومن حول ميس الطعام كانت توجد كبائن الضباط ، التى أصابها الدمار والتشوه أيضاً وسط أحواض تحاكى حدائق الزهور . وكان أمرالحامية قد اتخذ لنفسه سكناً فى أثناء الحصار ، فى القبو الموجود تحت الأرض ، والذى شيد بهدف الاستفادة من الكتل الصخرية الكبيرة عند ركن من أركان الثكنة العسكرية مربعة الشكل ، ولكن العرب ساعدهم بعض الخونة الذين كانوا موجودين داخل أسوار الطائف ، فضلاً عن أن علياً أشار وهو يتفاخر إلى فجوة فى سقف القبو حدثت نتيجة لدانة جيدة التنشين أطلقها رجال المدفعية المصريون . ومن سوء الحظ أن قائد الحامية لم يكن فى ذلك المكان عندما أطلقت الدانة ، وبعد أن هنأ نفسه على نجاته قرر عدم القيام بأية مخاطرات أخرى . ونقل أمر الحامية مركز رئاسته إلى الطابق الأرضى فى منزل واحد من التجار فى المدينة ، وبناء عليه قام أتباع الشريف بتبليغ ذلك الخبر إلى قائد المدفعية فى سخارة Sakhara . وانهار منزل التاجر على جثث أسرته ، ولكن القائد التركى لم يكن فى مركز رئاسته فى هذه المرة أيضاً . وفى صبيحة اليوم التالى استسلم الأتراك ، وأصبحت الطائف وإلى الأبد غير داخلة ضمن الإمبراطورية العثمانية (التركية) .

فى صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر ديسمبر ، وبعد الاستعداد بكل ما يلزم لبداية الرحلة ، أبلغت إبراهيم بأن يخرج الإبل ويتوجه بها إلى باب السيل لتكون فى مقابل المكان الذى كنا نبتغيه ، ثم رافقنى مضيفى لوداع الأمير . وقد وجدنا الأمير فى بيت الحكم فى السوق ، جالساً فى فتحة من فتحات النوافذ العميقة التى تطل على السوق، وفى غرفة صغيرة فى الطابق العلوى ، والتى كان فيها جمع يغلى من الناس أصحاب الإنسانية البدائية ، ينظرون فى غير صمت كما هو حال العربى عندما ينتظر دوره وهو يمثل أمام مقعد القضاء فى النافذة . كان حسين الجودى يساعد حمود

ويعاونه ، وكان الجودي يجلس عن يمين حمود في مقعد النافذة ، بينما كان يقف عن يساره شيخ ، أظن أنه كان من عتيبة ، يدعى قُلَيِّل Qulaiyil ، الذى كانت له صفات : خبير الشهود أو فى مجلس الدفاع أو الادعاء حسب الأحوال أمام الأمير . وبعد أن شققت طريقى بصعوبة خلال ذلك الجمع ، أجلست نفسى بناء على دعوة من حمود فى المكان ما بين حمود وحسين ، راجياً منه إنهاء القضية التى بين يديه قبل أن يعيرنى أى شيء من الاهتمام . وأجابنى حمود إلى طلبى ، وأعطونى حق امتياز مشاهدة قضية فى محكمة بدوية . كانت القضية التى ينظرها حمود قضية قتل . وكان المدعى والمتهم يقفان أمام منصة القضاء يجادل كل منهما فى موقفه ، وكان صوتاهما يصلان إلى قمة حدة الغضب ، وينخفضان فجأة إلى حد الهمس ، وكان يتخلل ذلك الجدل فترات قصيرة من الضحك المكتوم أو القفشات الخفيفة المسلية ، عندما كان كل طرف من الطرفين يباغت الطرف الآخر ، أو إن شئت فقل خصمه ، يرد فيه بحضور بديهة وذلاقة لسان . المسألة هنا لم تكن مسألة حياة أو موت ، وإنما هى مسألة تسوية على أساس من خطوط العرف العام الذى تمليه العادات البدوية ، وقليل ، كما قيل لى ، من رطانة سكان الأراضى المرتفعة غير الواضحة التى تستعدل فى سير القضية ، وكان واضحاً من ابتسامة الرضا أن الطرفين رضيا بقرار المحكمة والذى مفاده أن ممثل القتيل راض تماماً على أن يعيش القاتل ليدفع الدية لأهل القتيل . العين بالعين ، والسن بالسن ، مبدأ غير موجود فى عرف البدو ؛ وصراع الدم الذى يجره القاتل على نفسه يعطيه الحق فى أن يختار بين أن يدفع الدية نقدياً أو عينياً .

وشق رجل كبير السن طريقه بين الواقفين متجهاً صوب مقعد الأمير وبدأ يلقى قصيدة يثنى فيها على إدارة المنطقة الممتازة . وهنا رضخ الأمير رضوخاً لطيفاً لتلك المحنة ، وأخلى سبيل المتهم وأعطاه شيئاً قليلاً من العملات . ونهضت من مكانى كى أستأذن ، وهنا سبقنى حمود ومن بعده عبيدة الذين ينفذون أوامره تنفيذاً أعمى ، وأصر حمود على مرافقتى إلى البرحة ، التى ركبت منها ناقتى مع رفاقى لنتجه بعد ذلك صوب شاطئ البحر . وضاع أملى فى العودة إلى المكان الذى شهد تلك الإقامة القصيرة جدا والجميلة ، إذ لم أر الطائف بعد ذلك . كنت على استعداد لدفع الكثير

والكثير كي يسمح لي بزيارة الطائف مرة ثانية ، والتجول في الجبال بين رجال العشائر الفطريين ، الذين ألقيت عليهم نظرة خاطفة في تلك المحكمة المزدحمة . صحيح أنهم عرب بلا أدنى شك ، ولكنهم لا يتفقون إلا في القليل جدا مع عرب الصحراء الرُّحل ، وملامح هؤلاء البشر خشنة ، وشعرهم أشعث ، وأنوفهم مستقيمة بلا قناطر ، وأنا أرى أن أولئك البشر ينتمون إلى سلالة عريقة بدائية متوحشة لم تنتج عن التكاثر أو الاختلاط مع سلالات أرقى من قديم الأزل ؛ وتلكم هم آل قريش أقارب النبي .

٣- وادي فاطمة

وعدنا من جديد إلى الطريق الذي سرنا فيه منذ أيام قلائل ، متجهين إلى أسفل الوادي ، متجاوزين قصر شبرا لنصل بعد ذلك إلى أولى قرى القيم Qaim ، التي انحرفنا عندها عن مسارنا الداخلي ، لنسير بحذاء مجرى وادي عقيق ، الذي تقع فيه وعلى مسافات قصيرة متساوية مجموعات المنازل التي تتكون الواحدة منها من ستة منازل ، وتشكل في مجموعها مستوطنة القيم . وبعد أن صعدنا لمسافة قصيرة فوق سلسلة من الجبال التي تنتشر فيها كتل الصخر ، وصلنا إلى ما بعد بيارات النخيل وقرية المريسية Marisiyya ، التي اتخذت لنفسها مكانًا بين مجموعة من الروابي على الجانب الأيمن ، وبعدها بخطوات قليلة كنا قد عبرنا العقيق وتخطيناها ، وفي هذه المنطقة ، وعلى مسافة ربع ميل تقريبًا ، ووسط مجموعة من المنخفضات التي نراها لآخر مرة ، ومن أسفل قرية رغاض Raqhadh ، كنا نرى قمة سلسلة جبلية منخفضة في الجانب الأيسر . ومجرى السيل يبدأ من هنا متجهًا نحو الأسفل عبر سفوح التلال متجهًا إلى القرية التي أدى فيها رفاقي الصلاة في أثناء مسيرنا ونحن في طريقنا إلى الطائف . ومجرى السيل يستقبل عند قرية القيم مزيدًا من الماء متمثلاً في شعب يطلق عليه اسم القرية ، أو إن شئت فقل شعب القيم ، وبعد مسافة كبيرة يستقبل ذلك المجرى مزيدًا من الماء من شعب جديرة Judaira ، ومن الصرف السطحي الناتج عن السهل المغلق الذي تغطيه الأدغال ، والذي نراه أمامنا حاليًا رأي العين . هذا السهل

الذى ينحدر انحداراً خفيفًا من الغرب إلى الشرق ، تحيط به من ناحية الغرب سلسلة جبال الريهاب Raihab ، على بعد مسافة ميل تقريبًا ، وتحيط به من ناحية الجنوب التلال التى تطوق وادى الطائف ، ومن الشرق تحيط بذلك السهل سلسلة جبال قنَّة Qunna التى تقع خلف العقيق ، ومن ناحية الشمال ، أى من أمامنا مباشرة ، تقاطع سلسلة جبال وديرة Wudaira .

تقع الجديرة Judaira ، أخر مستوطنات شمالى الطائف إلى الخلف ، فى غابة صغيرة من أشجار السنط ، على مسافة ربع ميل على الجانب الأيمن ، على مقربة من المكان الذى عبرنا فيه المجرى الرملى للشعب ، الذى يخترق تلك الغابة لينضم إلى مجرى العقيق . واعتباراً من هذه المنطقة وحتى الجنوب الغربى طالعنا منظر جميل لمجموعة من تلال سلسلة الجبال الرئيسية ، ذلك هو منظر القرينات وأصابعها المجسمة تشير نحو السماء ، وهذا أيضًا منظر بارد وجبل ظهر السرج ، الذى اتخذناه مرشداً لنا ونحن فى سهل راكبة . وقد يكون ذلك الأخير هو كورة نفسها أو جزء منها ، ولكنى لم أستطع معرفة اسمها . وواصلنا مسيرنا إلى ربع الوديرة ، ذلك الممر المنخفض فوق سلسلة جبال وديرة ، التى يوجد خلفها مجموعة متشابكة من مجارى السيول ، وكتل الصخور المتناثرة بفعل الرياح ، التى توجد على شكل أكوام ضخمة وسلاسل صخرية ، ورواب . وسلسلة جبال الوديرة ، التى تبرز بزاوية قائمة من جبال الريهاب Raihab متجهة إلى المنطقة المجاورة للأخيضار ، تلك السلسلة تشكل مستجمع مياه مهم ، وكل السيول التى تهبط من الأطراف الشرقية لسلسلة الجبال الرئيسية الموجودة إلى الجنوب من هذا الخط تصرف ماءها فى مجرى وادى العقيق ، فى حين إن كل السيول الموجودة إلى الشمال من ذلك الخط تواصل مسيرها شرقًا ثم تنحدر متجهة نحو الشمال والشمال الغربى إلى سفوح التلال ، إلى أن تتحد كلها فى النهاية لتكوِّن قناة رئيسية هى قناة وادى فاطمة ، الذى له فى القسم الجنوبى من الحجاز الأهمية نفسها التى لوادى حمض Hamdh فى القسم الشمالى .

يقسم الجغرافيون المحليون الحجاز إلى خمسة أقسام طولية يسهل تعرفها وهى:
(١) منطقة البحر أو إن شئت فقل البلاد الحارة فيما بين البحر وسفوح الجبال ، وهو

ما يقال له التهام أو تهامة . (٢) سفوح التلال الغربية أو الصدور Sudur . (٣) الشفة Shifa أو إن شئت فقل العمود الفقرى الرئيسى للجبال العالية . (٤) سفوح الجبال الشرقية أو المناحى Manahi ، أو إن شئت فقل الأطراف البعيدة (٥) القسم الشرقى ، أو إن شئت فقل الصحراء الشرقية .

والبلاد الوعرة التى أمامنا الآن كانت تنمو فيها فى يوم من الأيام غابات أشجار السنط ، وكان يخترقها مجريان مائيان رئيسيان وعدد لا يحصى من المجارى المائية الصغيرة ؛ وسرنا فى البداية على امتداد مجرى العميزة Amaiza' المائى ، ثم بعد ذلك على امتداد شعب الراجفة Rajifa ، الذى سمى باسم كتلة ضخمة من جلاميد الصخر تكومت كما لو كانت معبداً كبيراً من سالف العصر والأوان تحول إلى طلل وحطام ، وعن يميننا توجد سلسلة من أكوام أخرى يطلقون عليها اسم الجلّة AlJilla . وبعد أن تجاوزنا تلك المتاهة المكونة من الصخور والسيول ، وصلنا فجأة ، وبعد مسير ثلاثة أميال ، إلى المجرى الرملى الواسع للسيل الصغير ، الذى يمتد من الغرب إلى الشرق ، مع انحدار متدرج نحو الشمال . كانت فى ذلك المكان وفرة الربيع من الأعشاب الخضراء ، والأحراج الزاهرة ، والزعتر الذى له زهور أرجوانية اللون ، والذى كانت رائحته الذكية تعبق الهواء الذى كان يستحم فى ضوء الشمس . وتوقفنا مدة ساعة تناولنا فيها غذاءً لذيذاً، مكوناً من الخبز والعسل والجبن والرمان ، تشمست بعدها فى ضوء الشمس ، متكئاً على الضفة المعشوشبة ، ورحت أدخن غليوناً هادئاً برفقة المسيِّس، أو إن شئت فقل المرشد والرفيق ، وشيخ الثباتة Thibata الذى كان يرشد القافلة ، والذى ينتمى إليه كل ذلك القسم من سفوح الجبال والتلال . كان ذلك الشيخ محارباً أشيب ، لا يقل عمره عن ثلاثة وستين عاماً ، ولا يزال جسمه بخيره ، وشعره أشيب ، ويفيض حناناً وظلاً خفيفاً. يزعم ذلك الشيخ أن الثباتة هى الأرومة الأصلية لعتيبة بكاملها ، التى لا تزال إلى يومنا هذا تسيطر على مناطق التلال فى البلاد ، وأن ذلك الجزء من البلاد هو الذى تكاثروا وتوالدوا فيه فى الماضى البعيد ، وبذلك يكون من حقهم أن تكون لهم الأولوية على عشائر الرعوقة Ru'uqa والبرقة Barqa ، التى تعيش فى سهوب غربى نجد . كان الشيخ يحمل معه غليوناً مصنوعاً من الصلصال الخام ،

وامتدح تبغى وأثنى عليه ، وبقى معى طلباً للتدخين ، فى الوقت الذى حفر فيه رفاقى بناءً على طلب منه حوالى ست بوصات فى الأرض الرملية ، بحثًا عن الماء الذى توضئوا منه واصطفوا لأداء الصلاة . ونظر الشيخ إلى أعلى عندما دخل الإمام فى الصلاة وراح يقرأ سورة الفاتحة ، ووجَّهَهُ ببساطة قائلاً : إلى الشمال قليلاً ، أى "لا تشملوا" (قاصداً بذلك "عدم الانحراف كثيراً ناحية الشمال") . وهنا غير الإمام اتجاهه دون أن يتوقف عن القراءة ، فى حين غيَّر الصف اتجاهه من خلفه أيضًا . وطبقًا للبوصلة التى كانت معى كان الاتجاه عبارة عن درجتين فى اتجاه الجنوب الغربى . هذا يعنى أننا كنا على بعد حوالى اثنى عشر ميلاً فى الاتجاه الشمالى الغربى من الطائف . وفيما بعد كان ذلك بمثابة نوع من الترويح لى وأنا أراقب رفاقى فى أثناء الصلاة . وفى المنطقة المجاورة للكعبة ضاع كل إحساسهم بالاتجاه ، وفى أحيان كثيرة كانوا يرجعون إلى المسيِّس أو أولئك الذين حملوا الشعلة من بعده ، طلباً لمشورته قبل أن يعينوا محرابهم . وطبقًا للمفاهيم الوهابية ، فإن الصلاة لابد من أدائها فى الاتجاه الصحيح ، وفى الوقت الصحيح ، وبعد الوضوء الصحيح ، والاتجاه (القبلة) هو أهم كل هذه الأمور ، نظراً لأن الخطأ فى قبلة الصلاة يفرغ الصلاة من مضمونها ، والوقت أهم من الوضوء ، والوضوء يمكن الاستغناء عنه كلية ، عندما لا يتوفر الماء دون أن يفسد ذلك الصلاة . وفيما يتعلق بوقت الصلاة ، مسموح بقدر كبير من حرية التصرف فى الزمن فى صلاة العصر ، وهذه الحرية ليست مكفولة فى صلاة الفجر أو صلاة المغرب ، حيث تجب إقامة الصلاة عند انبلاج الفجر الحقيقى ، وعندما تختفى أشعة الشمس الغاربة . معنى ذلك أن قرص الشمس المتوهج ينبغى ألا يكون ظاهراً فى أثناء الصلاة .

الضفة اليسرى من السهل الصغير مكونة من سلسلة من الصخور المكلكعة التى يطلقون عليها اسم النباع Naba' ، والتى يتردد ارتفاعها بين ١٠٠ قدم و ١٥٠ قدم فوق مستوى مجرى السيل . وتجاوزنا تلك السلسلة الصخرية عن طريق ممر منخفض يخترق منطقة صغيرة من التلال الوعرة ، التى اخترقناها فى اتجاه شمالى غربى ، على امتداد مجارى سيول عدة ، إلى أن وصلنا إلى شعب طلح Talh ، الذى هو عبارة عن

مـجرى رملى ، تتـخلله أشـجار السنط ، ويصل عـرض ذلك المجـرى إلى حوالى ثلاثين ياردة ، ويمتد ناحية الشرق إلى أن يتصل فى النهاية بالسيل الصغير ويتحد معه . وعند تلك المنطقة تركنا الشعب وصعدنا إلى أعالى وادٍ من وديان الروافد الصغيرة ، كانت تسد طرفه العلوى تماماً سلسلة جبلية تعترض طريقه .

كان ذلك هو الريع المنحوت Manhut ، أصعب الممرات على طريق القوافل المنتظم بين مكة والطائف . ومجاز الوصول إلى ذلك الممر من الجانبين عبارة عن وادٍ ضيق ، ومن حول ذلك الممر ، فى جميع الجوانب ، توجد مجموعة من التلال الجرداء الطاردة . وتستطيع فئة قليلة جداً من رجال القبائل ، مسلحة تسليحاً جيداً ، الاحتفاظ بذلك الممر فى مواجهة جيش كامل ، ومع ذلك لا يوجد فى هذا الممر حصن صغير أو حراس . قال المسِّيس : "لقد تغيرت الأزمان . قبل العصر الحالى كانت تلك الأجزاء تعج بالفوضى، وكانت القوافل المسالمة تمر من خلال ذلك الممر وتتجاوز تلك البقعة من الأرض عن طريق دفع الإخاوة لقبيلتين ، ولكننا حاليًا ننعم بالسلم فى ظل حكم سيدنا وسيد الجميع الشفوق". والقدامى لم يغفلوا القوة الطبيعية لذلك الممر ، فتلك قمة سلسلة الجبال التى عن يميننا ، وقد تناثرت عليها بقايا أحجار قلعة جرى تفكيكها ، والتى يستطيع الرائى مشاهدة بقايا أساساتها ، ومن أسفل تلك الأساسات ممر ضيق جرى شقه فى الصخر الصلب ، عن طريق النحت أو النسف ، وعلى جانبى ذلك الممر الضيق يمتد الطريق الموصل إلى الوديان الموجودة فى الأسفل ، والطريق مرصوف بكتل من الحجر ، ومسوَّر من جانبيه العمودى بِذُرْوة من الحجر ، والمطْلَعُ من ناحية الجنوب كان سلساً ومتدرجًا ، ولكن المنْزَل الذى يلى المطلع كان منحدراً ومقلقًا وخطراً . ولابد أن العرب عملوا المعجزات من أجل نقل مدافعهم عبر ذلك الطريق استعداداً لحصار الطائف ، والأرجح أنهم لم يحضروا سوى مدافع الجبال التى أحضروها إلى هنا محمَّلة على ظهور البغال ، والسبب فى ذلك أن الطريق لا يسمح مطلقًا بمرور المركبات ذوات العجل أو الدواليب أيًا كان نوعها ، كما أنه لا يسمح إطلاقًا للجمال أو الإبل بالسير فيه .

وعندئذ سرنا فى منزل شعب رقد Raqad السريع ، الذى يصل اتساعه إلى ما يتردد بين ثلاثين وخمسين ياردة بين صخور يصل ارتفاعها إلى حوالى ٢٠٠ قدم أو ما يزيد على ذلك . وبعد أن قطعنا مسافة ميلين نحو الأسفل ، تحولنا إلى الأعلى نحو مجرى سيل الغربان ، وبعد أن تجاوزنا قطيعاً من الأغنام سوداء الفراء التابعة لعتيبة ، داخل دائرة كبيرة من أشجار السنط ، انتحينا جانباً لنصعد منحدر قمر ريع الزلألة الذى تتناثر فيه كتل الأحجار . وأنا أزعم أن الصورة الصخرية المتآكلة التى شاهدها دوتى Doughty تقع عند بداية سيل الغربان Sail Ghurban ، ومن سوء الطالع فاتتنى مشاهدة تلك الصورة نظراً لأن المسِّيس كان مهتماً بوصولنا قبل غروب الشمس إلى محطة الوصول ، ولذلك حذف من جدول أعماله مسألة إخبارى أو إعلامى بوجود تلك الصورة ، إلى أن أصبح من العسير أو من الصعوبة بمكان تدارك ذلك الأمر . ويقال إن شعب الرقاد Raqad يصب فى السيل الكبير .

وبصعوبة بالغة استطاعت دوابنا ، وبعد مشقة كبيرة ، الوصول إلى قمة ممر الزلألة Zallala ، التى ألقينا منها نظرة على مجرى السيل الواسع الذى يجرى خلال أراضٍ منخفضة تحيط بها تلال سلسلة جبال دمَّة Dimma المرتفعة ، وسلسلة الجبال الرئيسية عن يسارنا . كان المنزل منحدراً وخادعاً من فوق كتل الصخر اللزجة ، وكانت إبلنا تتراقص من خطوة إلى خطوة أخرى لفقدانها توازنها ، إلى أن وصلنا القاع وتجاوزناه إلى منخفض رملى . كانت الشمس خلف قمم الجبال ، عندما وصلنا حافة السيل ، لنجد فى استقبالنا مبعوثى الملك ، الذين أوصلونا إلى مجموعة من الأكواخ الحجرية المتواضعة التى كان يحيط بها سور بدائى من جريد النخل فوق جزيرة صغيرة ترتفع بضعة أقدام فوق مستوى مجرى السيل . ومقابلنا على الضفة اليسرى لمجرى السيل شاهدنا قرية السيل ، التى هى مجموعة قذرة من الأكواخ المبنية من الحجر ، والتى يسكنها رعاة الأغنام من الثباتة . وعن يسارنا شاهدنا التلال المرتفعة التى يهبط منها السيل الكبير متجهاً شرقاً إلى سلسلة منخفضة من الجبال تبعد عنا عدة أميال ناحية اليمين ، والتى يمر من فوقها طريق حجاج نجد متجهاً إلى عشيرة Ashaira' التى تبعد عن هنا عشرين ميلاً . وأصبحت مسيرة اليوم حوالى ٢٠ ميلاً ،

نزلنا خلالها حوالى ١٥٠٠ قدم، نظراً لأن السيل يصل ارتفاعه إلى حوالى ٣٨٥٠ قدماً فوق مستوى سطح البحر .

كانت الجماعة التى التقيناها فى هذا المكان ، مكونة من أحمد بن هزاع ، الشقيق الأصغر لأمير المضيق Madhiq وابن عمة ابن سعد ، وكلاهما من الأشراف ، ومعهما حاشية تضم حوالى اثنى عشر رجلاً آخرين من بينهم عبد زنجى من حاشية الشريف الشخصية . ورحبوا بنا ترحيبًا حاراً وبذلوا كل ما فى وسعهم من أجل إراحتنا فى تلك الأكواخ الحقيرة البائسة . وقبل كل من أحمد وابن عمه ومعهما الزنجى دعوتنا لهم لتناول العشاء ، وأمضينا بصحبتهم أمسية جميلة . وكان أحمد قد أمضى عدة سنوات طالبًا فى دمشق ، التى عاد منها قبل نشوب الحرب مباشرة ، قاطعًا رحلة، مقدارها مسير أربعين يومًا على ظهر جمل ، وكانت فرائصه ترتعد كلما استعاد ذكريات تلك التجربة ، وكان من الواضح أنه عقد عزمه أن يمضى بقية حياته على نحو بديل أخر ، بين بيارات البرتقال فى قريته التى يسكنها فى منطقة مكة . وانصب القسم الأكبر من حديثنا سويًا على مسألة الإحرام ، فقد جاء رفاقى ومعهم فكرة مؤداها أن مسيرتنا إلى جدة ستكون عن طريق مكة وأنهم سيكون بوسعهم زيارة الضريح المقدس خلال الرحلة . والسيل هو المكان التقليدى (الميقات) الذى تُرتدى عنده ملابس إحرام الحجاج القادمين من نجد ومن جنوب الجزيرة العربية ، أى هو المكان الذى تبدأ عنده مراسم الحج . واعتباراً من ذلك المكان ، وبعد الوضوء من القرية القريبة من ذلك المكان ، يركب الحجاج راحلاتهم وهم حاسرو الرءوس ، ويبقون على ذلك الحال حتى انتهاء القسم الرئيسى من الحج (أو العمرة) وهو الطواف حول الكعبة سبع مرات ، وهنا يمكن للحجاج (أو المعتمرين) أن يتحللوا من ملابس الإحرام ويرتدوا ملابسهم المعتادة ويعودوا إلى ممارسة حياتهم المعتادة ، وفى أفضل الأوقات يعد ذلك الحج شاقًا ، إذ ينطوى على كثير من الإرهاق الجسدى ، نتيجة البرد فى الشتاء والحر فى الصيف . وبناءً عليه تقرر ارتداء ملابس الإحرام فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، كما تقرر أيضًا أن نصل إلى أقرب مكان من مكة ، والذى حددناه ليكون مكانًا لمخيم المساء ، ثم يذهب رفاقى من ذلك المكان للاعتمار وأن يعودوا بعد ذلك إلى مكان

المخيم وارتداء ملابسهم المعتادة مع حلول الليل . ومع ذلك ، فقد جاءت ترتيبات الشريف على العكس مما كانوا ينتظرون ؛ فقد تقرر لنا أن نسير فى طريق قرية مضيق Madhiq ونخيم فيها أيضًا لقضاء الليل ، وهذا المكان يبعد مسيرة يوم كامل عن مكة . معنى ذلك أن الرفاق تعساء الحظ كانوا مضطرين إلى القيام بمسير يومين فى أضعف الأحوال . ولما كان الرفاق محتارين بين الرغبة فى عدم تفويت فرصة الاعتمار والخوف من النتائج التى يمكن أن تترتب على تجاوز من ذلك القبيل ، فقد رفضوا رفضًا قاطعًا الامتثال إلى فكرتى التى مؤداها أن يتركونى أكمل رحلتى مع رجال الشريف ، وأن يقوموا هم بتنفيذ خطتهم الأصلية على أن يلحقوا بى فى مضيق . وابن سعود لن يغفر لهم عملاً كهذا ، ومع ذلك كان من المضحك إثارة مثل هذه الضجة بسببى أنا . وأنا كنت صالحًا مثل آخرين كثيرين فى مكة نفسها ، وإذا ما كان الأمر يتعلق بى أنا شخصيًا ، فإنهم سيكونون سعداء إذا ما دخلوا مكة بصحبتى . لم يكن أحد يعرف الخطط التى رسمها الشريف ، ولكن أحمد اقترح أنه ربما خرج من المدينة للقائى على الطريق . وهنا خطرت لإبراهيم ومضة من ومضات الوحى والإلهام . قال إبراهيم : "اسمعونى من فضلكم . غير مسموح لمن يحرم ويرتدى ملابس الإحرام أن يرعى أى إنسان أو يحيى أى إنسان إلا بعد أن يوفى بطاعة الله فى الحرم المقدس ، وإذا ما أخفق ذلك الإنسان فى هذا الجانب فذلك يعنى بطلان عمرته . ومع ذلك ، لو أن الشريف هو الذى خرج من مكة للقائنا فكيف يمكن أن نمتنع عن تحيته ؟ لا ، اسمحوا لنا بالتخلى عن فكرة العمرة كلية" . وقبل الجميع اقتراحى بتأجيل الاعتمار إلى رحلة العودة من جدة . وهنا لم تؤرق رفاقى أخلاقهم بأخذ حمام بارد فى أثناء الليل ، وبخاصة فى ساعات البرد القارس من صبيحة يوم من أيام الشتاء .

منظومة صرف منخفضات السيل معقدة بشكل غريب ، والقسم الجنوبى من تلك المنظومة ينحدر من الجانبين نحو الأسفل وصولاً إلى مجرى السيل الذى يسير شرقًا لمسافة أربعة أو خمسة أميال ثم يتحول شمالاً إلى المرور عبر كتلة من التلال المنخفضة، إلى أن ينضم إليه السيل الصغير عند نقطة معينة من مجراه ، وهو يتصل برافد حراضة Haradha فى وادى فاطمة . والقسم الأوسط من تلك المنظومة ، الذى يعرف

باسم بهيتة Buhaita ، ينحدر ، على النحو نفسه ، إلى الأسفل من الجانبين إلى أن يصل إلى مجرى السيل الرئيسى ، الذى ينحدر نحو الأسفل فى اتجاه الغرب ليصل إلى فجوة كبيرة فى سلسلة الجبال الرئيسية التى يقولون لها : إنسومين Insumain ، ويمر خلالها إلى وادى يمانية Wadi Yamaniyya ، الذى يلتقى بوادى فاطمة فى المنطقة المجاورة لمستوطنة سولة Saula، ثم يبتعد بعد ذلك عن تلك المستوطنة ليتجه غرباً ، لينساب بعد ذلك خلال فجوة فى سلسلة جبال المدرج Mudarraj ليصل إلى مكة . وقد سافر دوتى Doughty عن طريق ذلك الوادى إلى مستوطنة سولة عندما مر بوادى فاطمة وهو فى طريقه إلى جدة . وفى وادى يماينة توجد مستوطنة زيمة Zaima ومستوطنات أخرى . والقسم الثالث ، الذى تفصله عن القسم الثانى سلسلة التلال المنخفضة التى يطلق عليها اسم سنيفرة Sunaifira ، عبارة عن مثلث صغير تحيط به التلال وتطوقه من جميع الجوانب ، ثم ينحدر نحو الأسفل شمالاً ليتصل برافد حراضة .

والمسافة بين السيل Sail ومدخل حراضة لا تزيد على ثلاثة أميال عبر الأرض الرملية التى تغطيها الأدغال ، تلك الأرض التى اجتزناها فى صبيحة اليوم التالى ، عندما عبرنا سلسلة جبال سنيفرة القريبة من أعلى روابيها ، التى يسمونها سنفارة Sunfara، والتى يدللونها بإطلاق اسم جدة العبد Jiddat al 'Abid ، نظراً لأن الناس هنا يطلقون على العبيد اسم سُنَافرة Sunafira . والحراضة عبارة عن وادٍ رملى يتراوح اتساعه بين ٥٠ و ٤٠٠ ياردة ، وتحده تلال يتردد ارتفاعها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ قدم على الجانبين ، ويستمر الوادى على هذا الحال ، إلى أن يلتقى به سيل واسع من ناحية اليمين، على الرغم من أن قناة السيل تعرف عند هذه النقطة باسم وادى بعش Wadi Ba'sh . وعند تلك النقطة تجاوزنا منطقة الثباتة ودخلنا منطقة حضيل Hudhail ، التى تعد من جميع الجوانب مجتمعًا رعويًا جدًا تربطه علاقات وروابط بعيدة بقبيلة حرب Harb ويعيش فى ضيق وفقر شديد داخل أكواخ وكبائن رثة وقذرة تمامًا ومن النوع المُصَغَّر الذى ربما لا يزيد ارتفاع الواحدة منها عن ثلاثة أو أربعة أقدام وسط نبات صحراوى غير دائم . وتلك الأكواخ تمتد على طول وادى فاطمة إلى أن تصل إلى حدود تهامة ، وسكان تلك الأكواخ يربون النحل والأغنام ويمارسون شيئًا من الزراعة فى المناطق

التى ترويها السيول التى توجد على مسافات متساوية فى الوادى ؛ وهؤلاء السكان يربون أيضًا الإبل صغيرة الحجم ومن سلالة يندر وجودهافى الأراضى المرتفعة ، ويقال عن تلك السلالة من الإبل إنها تستطيع تسلق حواف التلال المنحدرة شأنها فى ذلك شأن الماعز تمامًا . وكان المسيِّس قد تركنا فى السيل لندخل فى بعض المساومات المالية التجارية ، وكان المسيِّس هو وخادمه قد قام بالرحلة من الطائف ، إذ كان المسيس يركب بغلة جيدة فى حين كان الخادم يركب جحشًا ضعيفًا تعثر عدة مرات فى أثناء النهار لأنه كان ينوء بحمل الأمتعة الكثيرة إضافة إلى راكبه .

وبعد مسير ميل واحد وصلنا إلى ملتقى الوديان ، أو إن شئت فقل : وصلنا الحراضة ، التى كنا نسير فيها بينما كان البرِّى Birri ، الذى هو مجرى سيل واسع نازل إلى الوادى من جهة الشرق ، ليتحد عند تلك النقطة مع وادى فاطمة أو إن شئت فقل ، وادى الشامية Wadi Shamiyya ، بسبب إطلاق ذلك الاسم وذيوعه بين الناس فى ذلك الجزء من الوادى ، ومن خلال ذلك الوادى يأتى الحجيج السوريون عامًا بعد عام وعلى مر العصور ، قاصدين بيت الله الحرام . والناس يتحاشون فى فصل الصيف الطريق الساحلى البديل ، الذى يربط المدينة المنورة بمكة المكرمة عن طريق رابغ Ra-bigh ، نظرًا لشدة الحرارة فى أراضى تهامة المنخفضة ، مع ذلك فإن مطالب الحضيل Hudhail الكثيرة وكذلك السلب والنهب الذى يحدث عندها على الطريق الداخلى ، أمور تجعل الحج الرسمى يضطر - فى بعض الأحيان - إلى اللجوء إلى الضرورة وركوب الصعب ، والمخاطرة بالإصابة بحمى الأراضى الساحلية تحاشيًا للأعمال البشرية المزعجة غير المتحضرة . وقد فشل الأتراك فشلاً ذريعًا فى مسألة إدارة القبائل العربية وفهمها ؛ ففى حائل ، وفى الفرات ، وفى الأحساء ، وفى اليمن ، وفى الحجاز ، وهذا مجرد غيض من فيض . كان العلم التركى يرفرف متأرجحًا فوق مشاهد من الفوضى ، واغتصاب ممتلكات الناس بالقوة ، والاضطراب وغياب النظام . ولكن السلام فى هذه الأيام يسود الأماكن التى لم تشهده قط من قبل ، هناك فرح عارم صامت فى كل مكان ، يتملك قلوب الناس ، ومفاده أن الأتراك قد ولوا ، ومعهم الاستبداد القاسى وجشعهم وطمعهم الرسميان. وها هو وادى فاطمة أصبح آمنا أمام المسافرين شأنه فى ذلك

شأن طرق الأحساء ، وفي العراق يسارع المتوحشون إلى إعمال سيوفهم في سن المحراث ، وفي اليمن لا يزال العفن والفساد موجوداً ، رغم أن أيامه أصبحت معدودة(١٢).

ومن النقطة التي دخلنا وادي فاطمة عندها كنا نبعد حوالي ثمانية أميال عن السيل Sail ، وكنا نبعد حوالي ثلاثين ميلاً - أو ما يقل عن ذلك - عن شمالي الطائف . ومن الآن فصاعداً فإن الاتجاه العام لمسيرنا بدأ يتجه صوب الغرب مع الانحراف قليلاً بين الحين والآخر صوب الشمال وصوب الجنوب . كان اتساع الوادي يتردد بين ٢٠٠ و ٥٠٠ ياردة ، كما أن التلال على الجانبين كانت ترتفع ارتفاعًا منحدرًا لتصل إلى ما يتردد بين ٤٠٠ و ١٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح مجرى الوادي . وبعد مسير ثلاثة أميال في اتجاه أسفل الوادي بدأت تطالعنا أولى علامات الزراعة في قرية أم الخير Umm al Khair ، تلك القرية التي تتكون من ثلاثة أو أربعة أكواخ، مبنية من الحجر، ومسقوفة بالطين، ومقامة على جانب واحد من رقعة كبيرة من التربة الطميية ، مقسمة بفعل البشر إلى حقول لزراعة القمح ، والتي كانت الأغنام ترعى فيها بقايا المحصول السابق . وحقول زراعة القمح تلك ، تعتمد اعتماداً كليًا على مياه السيول في عملية الري ، إذ يقوم أصحاب تلك الأرض بتحويل المياه إليها ، من الفيضان الذي ينزل من الجبال إلى مجرى العاصفة ، مستخدمين في ذلك التحويل حوافز من الطين والحطب . وعن طريق غمر تلك المربعات الزراعية بالماء مرة أو مرتين تصبح تربتها جاهزة لاستقبال البذور ، التي يجري بذرها نثرًا ، ثم يتركونها لتنبت وتنمو إلى أن يحل فصل الربيع ، عندما ينزل الزراع من الجبال ويحصدون القمح . وعند تلك النقطة ينساب العديد من مجاري السيول التي تصب في الوادي ، فهذا مجرى خاران Kharan قادم من الجنوب ، وذاك مجرى نمرة Namra وأم تاخر Takhr قادمان من الشمال ، وذاك أيضًا مجرى الطلاع 'Tala يجيء أيضًا من الشمال ، ساقطًا من تل عالٍ ، يقولون إن على قمته توجد قرية صغيرة اسمها حَلْيانة Haliana وسط بيارات النخيل .

وعلى مسافة تقل عن الميل بدأ الوادي ينحرف حول رابية كبيرة من صخور البازلت ، التي يطلقون عليها بحق اسم خشم الغراب(١٣) Khashm al Ghurab ، ويسير

فى اتجاه جنوبى غربى متجاوزًا رقعًا كثيرة من حقول القمح ، التى شاهدت فى واحدة منها أعمال التحويط، تسير على قدم وساق . فهذا زوج من الثيران الهزيلة معلق فى زحافة كبيرة وثقيلة ، يجرفون بها التربة السائبة لتكويمها فى المكان المطلوب ، وعملية الجرف تلك يتلوها دَوْس ذلك التراب إلى أن يكون قشرة صلبة . وواصلنا مسيرنا لمسافة ستة أو سبعة أميال أخرى ونحن على تلك الشاكلة ، وطوال مسيرنا كنا نشاهد بين الحين والآخر رافدًا من روافد السيل وهو يهبط ليصب فى الوادى ، فهذا رافد غلوة Ghulwa وذاك رافد إزعال Izh'al يأتيان من الشمال ، وهذا أيضًا رافد سامو Sammu يأتى من اليمين ، وفى أعالى مجرى ذلك الرافد توجد قرى وبيارات نخيل السُّوفية Sufaiya وقرضة Qirdha وقتبة Qutba من ناحية اليسار . ومن خلف تلك القرى توجد سلسلة بارزة من الجبال من الناحية اليسرى، الأمر الذى يجعل الوادى ينحرف إلى ناحية الغرب انحرافًا طفيفًا . ومن تلك النقطة التى تعد نهاية وادى الشامية وبداية وادى الليمون ، نظرًا لأن ذلك هو الاسم الذى يطلق على هذا القسم من وادى فاطمة ، بدأنا نرى طلائع نخيل قرية المضيف .

وبعد مسير خطوات عدة وصلنا إلى أحد البساتين ، الذى سقينا إبلنا عند ركن من أركانه من غدير ينبثق منه الماء ، يقولون له عين بردان Ain Bardan'، وهى عبارة عن مجرى من مجارى الرى المائية التى تنبع من التلال الموجودة عن يسارنا ، وهذا المجرى هو الذى يزود قرية المضيق بكل احتياجاتها من الماء . وبعد أن واصلنا مسيرنا اكتشفنا أن الوادى يعانى من منخفضات عميقة على الجانبين ، ثم بعد ذلك يتحول إلى عنق ضيقة يبرز بعدها مباشرة الجمال المدارى لوادى الليمون ، الذى بدأ يطالع أنظارنا المنبهرة ، فهذه بيارات البرتقال والليمون ، وتلك مزارع الموز ، وهذه حقول نباتات القمح ، وحقول البرسيم ، وقد تداخل اخضرارها واختلط ومن خلفها أراض برية مرتفعة . وعلى الجانبين شاهدنا الجبال وهى ترفع رءوسها غير المستوية إلى ارتفاع يصل إلى حوالى ١٠٠٠ قدم ، فى حين كانت تنتشر هنا وهناك رواب صخرية صغيرة تعلوها قرى مبنية من الحجر . ولم أر فى الجزيرة العربية كلها جمالاً من هذا القبيل ، وفى كل رحلاتى وتجوالى بعد ذلك لم أشاهد مثيلاً قط لذلك

الجمـال . هذا هو حـال الطائف فى فـصل الربيع ، ولكن الطبـيـعـة هنا على حـالـها الفطرى وبلا أى تزيين أو تجميل .

فى تلك المنطقة استقبلنا وفد كبير برئاسة الشريف حوضان ، أمير قرية مضيق ، والشيخ مساعد سكرتير الملك ، الذى كان يركب بغلاً متينًا وعفيًا . وبعد تبادل التحية الودية اقتادونا إلى أسـفل الوادى إلى سفح رابية كان مقامًا عليه القرية الرئيسية من قرى المستوطنة . وصعدنا ، عن طريق مجاز منحدر ضيق إلى منزل حوضان على قمة التل ، والذى نزلنا منه إلى المضيف Madif ، أو إن شئت فقل غرفة الضيوف ، التى هى مسكن بيضـاوى مزود بالوسـائد أو السـجـاد ، ومزين بطرف وشـرائط أوروبيـة عـديمة القيمة . وحوضان ، شيخ مـجامل من شيوخ القبائل ، وهو شخص جاهل تمامًا وغير مثقف ، ومقل فى كلامه ، كان مـقابلاً لأحمد من قديم الزمن . وانضم إلى ذلك الحفل فى المضيف بعض من أشقائه الصغار وبعض من كبار السن فى القرية ، ودار فى ذلك الحفل كالعادة حديث غليظ ورسمى إلى حد ما ، وفى ذلك الحفظل كان الميدان حكرًا على مساعد ، باعتباره العضو الوحيد المتعلم فى الجماعة ، والذى أعطى مقعد الشرف بالجلوس إلى جانبى وتولى مهمة تسلية الضيف الأوروبى والترحيب به . ونظرًا إلى أن ضيفان كان سوقيًا حتى أطراف أصابعه ، ونظرًا أيضًا إلى أنه كان من الدهمـاء حتى نخاعه ، فإن جسمه الممتلئ ، أو إن شئت فـقـل بدانتـه ، ووجـهه الذى يدل على رضـاه عن نفسه ، وكذلك تعليمه المهلهل ، وكذلك لكنته السورية ، وأسلوبه المستعلى ، كل ذلك يتناقض تناقضًا غريبًا مع الانضبـاط السـهل ، ونغمـات الحديث الراقى الذى يدور على ألسنة فلاحى القرية . ومن حـقيبة يد صـغيرة مـصنوعة من الجلد – التى يبدو أنها لم تكن تفارقه مطلقًا، والتى أوحى لنا بأهميتها ، عن طريق فحصه لمحتوياتها – راح يقلب أوراق الدولة بالغة الأهمية ، ثم أخرج من الحقيبة آخر البرقيات التى وصلت من وكالة رويتر ، كمـا أخرج من الحـقيبـة أيضًا جريدة أو اثنتـين من الجرائد الفرنسـية قديمة التاريخ . وراح يخاطبنى حول آخر تطورات موقف الحرب ، وعلمت منه ولأول مرة بوفاة الجنرال مودى Maude . وكان الموضـوع الرئيسى فـى الحديث ينصب ، بطبيعة الحال ، على الاستيلاء على مدينة القدس ، والأحداث التى ترتَّبت على ذلك فى فلسطين .

وسرعان ما سئمت صحبة مساعد ، وبدأت أنشد الخلاص من صحبته ولو لفترة قصيرة ، ولذلك اقترحت القيام بزيارة للبساتين . وهنا وكَّل أحمد ليكون مرافقًا لى ، وهنا رحت أتجول فى وادى الليمون إلى أن غربت الشمس . ووادى الليمون يمتد مسافة ميلين تقريبًا بدءًا من الحديقة التى دخلنا منها أول مرة ، إلى أن يصل إلى رابية مخروطية الشكل يطلقون عليها اسم اللُّويَّة Luwaiya ، التى تقع خلفها سلسلتان جبليتان ، هم سلسلتا جبال المدرج وحراض ، وهاتان السلسلتان واحدة منهما تقع إلى اليسار من رابية اللُّويَّة والأخرى إلى اليمين ، ومن بين هاتين السلسلتين يهبط وادى اليمانية متجهًا صوب مكة عن طريق فجوة ضيقة . ووادى اليمانية يصل اتساعة إلى قرابة نصف ميل ، وخلال ذلك الوادى تمر قناة العاصفة المكونة من الزلط والحصى ، وعلى جانب من جانبى تلك القناة يجرى مجرى عين بردان المائى مارًا خلال الحقول الخضراء وخلال البساتين إلى أن تنفد كل مياهه . والسمة الرئيسية التى تميز هذه الرقعة من الأرض تتمثل فى بيارات البرتقال والليمون الحلو التى تنتشر فى كل مكان ، على الرغم من أن تلك البيارات عانت فى العامين السابقين معاناه شديدة من هجمات أسراب الجراد . وكانت تتخلل بيارات البرتقال مجموعات من أشجار النخيل ونباتات الموز ، وأحواض من الفلفل الأحمر الحار، وأحواض من نباتات الباذنجان ، والبسلة والخضراوات الأخرى ، التى كانت تتلوها شرائح طويلة من الحقول المنزرعة بالبرسيم[١٤] والقمح . وكنا نشاهد هنا وهناك بقايا محاصيل الدخن التى جرى حصادها مؤخرًا . وسرنا خلال صفوف من أشجار الياسمين البرى ، أو متسلقًا آخر شبيهًا به ، كما شاهدت أشجار القطن بأعداد كبيرة . والقطن يمكن أن يزرع فى هذه المنطقة شأنه شأن المحاصيل الدورية ، ولكن الطلب عليه قليل جدا، والطلب يزيد فى مكة على فاكهة الطائف ، إلى حد جعل كل الناس هنا يركزون على الأماكن كلها، ويكرسون جل جهودهم فى زراعة الفواكة . والناس هنا يعتمدون فى رى حقولهم على عين بردان ، محدودة الطاقة ، وفى مواسم الفياضانات الكبيرة يقوم الناس بغمر الحقول البعيدة عن متناول الرى بالمياه ، ثم يبذرونها بعد ذلك بحبوب القمح كما هو الحال فى أراضى أعلى الوادى . ومن رأيى أن سكان قرية مضيق قد يصل عددهم إلى حوالى ١٠٠٠

نسمة ، وهم أصلاً من الأشراف ، الذين يملكون الحدائق والغيطان ، والمزارعون الذين يزرعون الأرض هنا هم من الزنوج المعتوقين ومن رجال القبائل وأناس آخرين . ومناخ الوادى هنا ، الذى يقع على ارتفاع ١٩٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، مناخ شبه استوائى ، فهو معتدل فى الشتاء ، وغير صحى ويدعو إلى الكسل والخمول فى فصل الصيف بفعل الحرارة الشديدة . والاعتقاد السائد هنا أن وادى فاطمة يحتوى على ما لا يقل عن ٣٠٠ نبع من الينابيع الجنينية فى ذلك الوادى ، وأن ما اكتشف من تلك الينابيع - وهو قليل جداً - لا يتعدى ، كما يقولون ، سبعة وعشرين ينبوعًا هى التى جرى تسليط الضوء عليها ، ولكن مساعد أبلغنى أن الملك كان يكرس كل اهتمامه الحثيث لمسألة التنمية الزراعية فى الحجاز . وقد جرى مؤخراً إنشاء إدارة للزراعة ، قد تحول أبحاثها وجهودها أراضى وادى فاطمة الجرداء إلى حقول غنية بزراعة القمح وحدائق الفاكهة .

وعندما عدنا وضعوا أمامنا وجبة مشبعة مكونة من الأرز ولحم الضأن والخضراوات وبعض فطائر ومعجنات مكة اللذيذة ، التى كان مساعد قد أحضرها معه عند قدومه . وبعد شرب القهوة تركونى مع مساعد وحدنا وعلى انفراد فى المضيف . وجلسنا مدة نناقش المسائل السياسية بشكل عام والسياسية فى الجزيرة العربية بشكل خاص . وكان مساعد يتحدث عن الشريف تارة بأنه جلالة الملك ، وتارة أخرى بأنه سيدى وسيد الجميع . ورحت بعد ذلك اتصفح وأفحص البرقيات والصحف التى أحضرها معه ، فى الوقت الذى راح هو يدون لسيده انطباعاته الأولى عنى . وفى الوقت المناسب ، لف كل منا نفسه فى فراش نومه ورحنا فى سبات عميق .

كان قد تقرر أننا ينبغى أن نخيم فى الوزيرية Waziriyya فى الليلة التالية ، والتى علمت من مساعد أنها ستكون جاهزة لاستقبالنا والترويح عنا . وتأسيسًا على ذلك ، استأذنا بعد الساعة الثامنة صباحًا من شريف حوضان وبدأنا رحلة النزول إلى الوادى . وبعد أن تجاوزنا مجريين من مجارى السيول ، هما مجرى شعبة ولويَّة ، اللذان يأتيان من الناحية اليسرى ، اتجهنا غربًا وسرنا محاذيين لسفح تل اللويَّة إلى

أن وصلنا إلى انتفاخ دائرى فى الوادى كان يحتوى على حقول القمح وأكواخ مبنية من الحجر تنتشر هنا وهناك ، هى التى تكون مستوطنة العين الجديدة Ain Jadida' ، التى سميت بهذا الاسم على أثر اكتشافها بعد العديد من العيون الأخرى ، التى تعتمد المنطقة عليها فى الرى . هذه العين الجديدة التى توقفنا عندها لنسقى إبلنا ، تنبثق عند الطرف العلوى للانتفاخ متحولة إلى بركة صغيرة صافية الماء ، مسورة من ثلاثة جوانب ، وانحدار لطيف متجه إلى الأسفل عند الجانب الرُّابع حتى يسهل على الحيوانات الاقتراب من العين. وعن يسارنا ، فوق كتف تل اللُّويَّة شاهدنا بيارات النخيل فى قرية سولة Saula فى وادى اليمانية ، الذى تقع فى أعاليه مستوطنة زيمة Zaima . وواصلنا مسيرنا بمحاذاة سفح سلسلة جبال حرض صوب الغرب . ومن خلف سولة فى اتجاه الجنوب رأينا مشهداً لا نهاية له من خلال الأشجار ، وكان ذلك المشهد امتداداً لا نهاية له من الجبال الممتدة ناحية جبل كورة . والوادى فى هذه النقطة يطلق عليه اسم وادى زبارة Zubara ، ويصل اتساع ذلك الوادى فيما وراء مستوطنه العين الجديدة إلى حوالى ٢٠٠ ياردة وتتخلله هنا وهناك الحقول الزراعية ، والأكواخ الحجرية من حين لآخر .

وبعد مسير ثلاثة أميال وصلنا إلى تلة مخروطية يقال لها أبو خساف Abu Khasaf، التى قالوا لى : إنه يمكن من قمتها رؤية مكة ، وإن الوادى يتحول عند سفح تلك التلة ناحية الشمال الغربى صوب سلسلة من الجبال المنخفضة مسطحة القمة التى يقال لها وضاف Widhaf . والوادى عند هذه النقطة يتصل به وادى ضرعة Dhara'a ، ويتحول عند هذه النقطة أيضاً صوب الغرب . وفى أعالى وادى ضرعة شاهدت ثلاث كتل جبلية كبيرة تسمى السودة Suda والتى ينتج سكانها الخجلون الذين يقيمون فيها أفضل أنواع عسل الحجاز . واسم تلك الكتل الصخرية يوحى بأنها من أصل بركانى وأنها تنتمى إلى منظومة الحرَّة Harra التى تمتد ناحية الشمال إلى المدينة المنورة وما بعدها . عن اليمين ، وبالقرب منا ، تلك هى قمة عقار Aqar' التى تبرز شامخة من بين التلال المتشابكة الأقل منها ارتفاعاً .

الوادى هنا يصل اتساعه إلى حوالى ٥٠٠ ياردة فيما بين وضاف Widhaf وسلسلة جبال نباع Naba' إلى عين مبارك Mubarak ، التى توقفنا عندها لتناول وجبة شهية من المعجنات والفواكه قدمها لنا مساعد ، الذى أساءه إصرارى على دعوة رفاقنا كلهم لمشاركتنا تلك الوجبة الشهية . وبعد أن تركتهم يتناولون قسطًا من الراحة ، تجولت خلال المستوطنة كى أرى العين التى كانت مسورة بمثل طريقة العين الجديدة نفسها ، كما شاهدت أيضًا حدائق الخضراوات الواسعة ، التى رأيت فيها البطيخ ، والجزر الأبيض، والبسلة، ونباتات أخرى كثيرة ، كما شاهدت هنا وهناك قليلاً من المنازل المبنية من الحجر ومجموعات صغيرة من أشجار النخيل .

واستأنفنا مسيرنا ، وتركنا الوادى يسير فى الاتجاه الشمالى الغربى ، واتجهنا نحن صوب الجنوب الغربى لندخل متاهة من التلال الصغيرة ، التى كانت قرية الريان Raiyan الصغيرة المبنية من الحجر تقع على حافتها ، وتجاوزنا خلف سلسلة الجبال تلك مخيم اللحيان Lahiyan الصغير ، وهو عبارة عن القسم المرتفع من قبيلة حرب Harb، وقد شاهدنا داخل خيام المخيم الصغير قليلاً من النسوة البائسات والأطفال البائسين أيضًا. وعند تلك النقطة مررنا خلال عنق ضيق يقال له ريع اللواب Ri' al Luwab لندخل منه إلى الشواتين Shawatin، التى هى عبارة عن سلسلة مترامية من التلال، تمتد من تلك المنطقة وبلا انقطاع إلى أن تصل إلى ضفة الوادى عند الوزيرية Wazi-riyya . وعن يسارنا ، شاهدنا سلسلة من جبال البازلت يطلقون عليها اسم سمرة Samra التى تنتهى بقمة يطلقون عليها اسم اللاسلوسية Laslusiyya . كانت مسيرتنا أطول مما كنا ننتظر ، ثم أسرعنا الخطى ومضينا قدمًا خلال فتحات واسعة عامرة بالأدغال والأشجار والغابات فى التلال ، فى الوقت الذى بدأت الشمس تميل فيه ناحية الغرب . وعند غروب الشمس ، وقفنا لأداء الصلاة ، ثم استأنفنا مسيرنا بعدها على هدى من ومضات الشمس الغاربة إلى أن وصلنا فى النهاية إلى وادى زبارة ودخلناه . ورحنا نبحث دون طائل عن الترتيبات التى سبق أن حدثنا عنها مساعد بمزيد من التأكيد والثقة ، وفى النهاية أقمنا مخيمًا على حافة مستوطنة الوزيرية التى هجرها سكانها ، بعد أن أوفدنا جماعة تبحث عن الرعاة وتشترى لنا طليًا (خروفًا صغيرًا) منهم

لنذبحه للعشاء . واقترح عليَّ مساعد ، دون خجل ، أن نتناول وحدنا بقايا وجبة الغذاء ، ولكني رفضت ذلك الاقتراح ، قائلاً له: إنني آكل أو أصوم مع رفاقي . وبعد ذلك وجدتني أجلس وأنا مرهق تمامًا بفعل ذلك المسير الطويل ، ورحت في النوم إلى أن جهز العشاء ، تاركًا إياه حائرًا أمام انهيار ترتيباته كلها . وعند الساعة العاشرة والنصف مساءً صحوت على نداء يعلن جاهزية الطعام ، ودام العشاء إلى ما بعد منتصف الليل ، حيث ذهب الجميع للنوم استعدادًا لبداية مبكرة في صبيحة الغد ، وبخاصة أنني أعلنت عن نيتي في السير على طريق الساحل بالفعل ، وهنا تأكدت من رفاقي كلهم ، بأن أعلنت عليهم أن كل من سيصل منهم إلى جدة قبل حلول ليل اليوم التالي سوف أعطيه بشتا (عباءة) هدية . وفي الوزيرية ، التي ترتفع عن مستوى سطح البحر حوالي ٧٠٠ قدم أو ما يقل عن ذلك ، كنا على مسافة تقل عن عشرة أميال تفصلنا عن شمال مكة ، وعلى مسافة حوالي عشرين ميلاً في خط مستقيم من قرية مضيق .

قلت عندما كنا نهبط إلى الوادي : "كل رجل مسئول عن نفسه ، ولابد أن نصل إلى جدة بأقصى سرعة ممكنة ، ولا تنسوا جدة والبشوت (العباءات)" . وهنا جرت حمْرة Himra مسرعة ، وتوليت أنا قيادة الطريق ومعي مرشدنا ، الذي كان واحداً من أهل مكة راكبًا على قعود سريع ، أو إن شئت فقل : جمل ذكر ، ومبلغ علمي أنه من سلالة عراقية . وكنا نحن الاثنين أفضل الراكبين بين الجماعة كلها ، ولذا تركنا رفاقنا وراءنا في المؤخرة ، يحاولون اللحاق بنا . وفيما بيننا نحن الاثنين ، لم تكن هناك خيارات كثيرة ، ونحن نمضي على الطريق ، فقد فكرت في شراء قعود ، كان صاحبه يفضل الموت جوعًا على بيعه ؛ فقد رباه صاحبه عندما كان صغيراً . وكان مساعد الذي كان مازال يركب البغل في نهاية المؤخرة يحاول اللحاق بالآخرين .

ظل الوادي وسيعًا على امتداد عدة أميال فيما بين سلاسل غير محددة من التلال المنخفضة ، وراح يضيق بعد ذلك تدريجيًا إلى أن وصل إلى مجرد نقطة بالقرب من قرية جموم Jumum ، التي ضاق الوادي عندها ليصل اتساعه إلى ما يقل عن ميل بين

سلسلة جبال منخفضة على اليسار وجبل سدار Sadar الذى يرتفع متشامخًا فوق قرية جموم على الناحية اليمنى . وعند هذه النقطة يقع طريق الحج الساحلى ، الوادى عند هذه النقطة من الشمال إلى الجنوب محددًا بذلك نهاية وادى زبارة Zubara وبداية القسم التالى من وادى فاطمة ، والذى يطلقون عليه اسم وادى المر Wadi al Murr. وهذا القسم من الوادى كان يحده من الناحية اليمنى ثلاث كتل جبلية هى : كتلة جبال سدار ، وكتلة جبال مكسر Mukassar ثم كتلة جبال ضعف Dha'f ، والتى يفصلها عن بعضها ممران منخفضان هما فقق الرميضى Faqq al Rumaidhi وفق الكارمى Faqq alKarimi ، فى الوقت الذى يمتد فيه الطرف الغربى من كتلة جبال ضعف إلى سلسلة جبال شيبة المنخفضة عند نقطة تقع عن شمالى حدَّة Hadda ؛ وعلى الجانب الأيسر تمر الحافة الخارجية لتلال مكة المنخفضة . وكانت كل من قرية جموم ، وأبو عروة ، وقرية حميمة Humaima وكذلك قرية مقوَّة Muqawwa ، بعريشها ، أو إن شئت فقل : أكواخها المبنية بالغاب ، وبيارات نخيلها الواسعة المترامية الأطراف ، تحاذى سفح كتلتى جبال سدار والمكسِّر ، فى حين كانت توجد فى منتصف الوادى الآبار المبعثرة وحقول المرشدية Murshidiyya ، التى يتكون القسم الرئيسى منها من قرى مبنية من الحجر، تحيط بفيلات الأشراف المدهونة باللون الأبيض ، والواقعة عند ملتقى وادى الشميسى Wadi Shumaisi القادم من التلال الموجودة على الجانب الأيسر ، ووادى المر .

وبعد أن سرنا من مكان توقفنا مسافة تقدر بحوالى اثنى عشر وثلاثة عشر ميلاً وقفنا أمام فيلا فاخرة ، يملكها الشريف محسن ، الذى عزمنا شقيقه ، ذلك الرجل كريم المحتد كبير السن ، وبعض من أقاربه الآخرين ، إلى تناول وجبة إفطار شهية من الفطائر والمعجنات والمُسَكَّرات Sweetmeat ، والشاى ، والقهوة ، واللبن الطازج ، وحاولوا جهد إيمانهم إقناعنا بالبقاء لتناول الوجبة الرئيسية . وعن يسارنا كنا نشاهد تلال الشميسى ، التى يمر خلالها طريق مكة جدة متجاوزا قرية الشميسى ، التى كانت بها حامية عسكرية صغيرة من قوات الشريف وعن يميننا وفى بعض التلال المنخفضة أسفل قرية ضعف ، كانت توجد بيارات نخيل الريكانى Rikani المتهالكة التى كانت ذات يوم مستوطنة مزدهرة ، ولكنها وصلت إلى ما هى عليه بسبب الفشل

الذى طرأ على المياه السطحية فى تربتها . وفيما بين هاتين النقطتين ، كان الوادى الذى يصل اتساعه هنا إلى قرابة ميل ، يكاد يختنق بفعل التلال الرملية ، التى كانت قناة العاصفة تتعرج وتلتوى خلالها بصعوبة بالغة . وكانت الرمال مغطاة بغطاء كثيف من الأدغال التى تغطى سطح الأرض .

وعند تلك النقطة يبدأ بحق ذلك الذى يسمونه وادى فاطمة الذى يمتد من الجنوب إلى الغرب ليصل إلى البحر ، فيما بين سلاسل جبلية وروابى يتناقص ارتفاعها تناقصًا شديدًا وسريعًا أيضًا . وعن يسارنا ، وعلى بعد مسافة ميل واحد من فيلا محسن ، يوجد طريق مكة جدة وخط التلغراف ، أول علامات الحضارة الحديثة التى رأيتها لأول مرة بعد أن نزلت على الساحل الشرقى للجزيرة العربية ، رأيتها وهى تبرز على الطريق الرئيسى . وسرعان ما وصلنا إلى حدَّة Hadda ، بيارة كبيرة من بيارات النخيل ، فيها بعض الأكواخ القليلة المبنية من الحجر ، وفيها أيضًا مسجد مهيب وقليل من الدكاكين المتواضعة . وواصلنا مسيرنا دون توقف ، إلى ما بعد الأركان الحجرية الأربعة التى تحيط ببئر أم القرون Umm al qurun. وبعد مسير ميلين وصلنا إلى قلعة بحرة Bahra ، ووقفنا فوق مكان مرتفع منعزل فى وسط الوادى ، والذى ما زال يحمل الندب التى أصابته جراء قصفه بالمدفعية من قبل قوات الشريف . وهنا توقفنا مدة نصف ساعة حتى يتمكن رفاقنا من اللحاق بنا ، وأمضيت ذلك الوقت بصحبة عامل التلغراف ، ورحت اتفقد الحامية المحلية الكبيرة ، التى خرجت من الأكواخ المبنية من الحجر ، التى كانت تستعملها ثكنات لها ، مما أفادنى وجاء لصالحى . ويصل مساعد ، ساخنًا ومغبرًا بالتراب ، ويبدأ يهاتف تلغرافيًا كلاً من مكة وجدة ليوافيهما بنشرات عن تقدمنا على الطريق . واقترحت على مساعد إرسال برقية إلى بغداد ، ولكنه عارض طلبى بما مؤداه أن الكافر لا يمكن أن يستعمل برق الأراضى المقدسة فى إرسال البرقيات . وفى النهاية ، وبعد كثير من الاعتراض والاحتجاج ، وافق مساعد على إرسال برقيتى ، وهنا تركت له برقية ليقوم بإرسالها إلى بغداد . وأنا لا أعرف حتى الآن إن كانت تلك البرقية قد وصلت إلى المكان الموجهة إليه .

وإلى الخلف مباشرة من القلعة كانت تقع قرية بحرة الكبيرة المبنية من الغاب ، والتى اجتزنا الشارع الرئيسى فيها ، نظراً لأن الشوارع كانت تبدو مكتظة بالمشترين ، الذين من المفترض أن يكونوا من رجال القوافل ، ومن المسافرين على الطريق فيما بين الساحل والمدينة المقدسة . والواقع أنه كان جمهوراً متنوعًا من بدو التلال ومن الحمالين العرب ، ومن الزنوج على اختلاف أنواعهم سواء أكانوا أحباشًا أم سودانيين ، ومن الهنود أيضًا بين الحين والآخر . وهنا شاهدنا مسجداً مبنياً ، يبدو أنه كان المبنى الوحيد المتين ، أما بقية المنازل فكانت عبارة عن عشش وأكشاك من حصير الغاب وألواح الخشب .

وبينما كنا نغادر القرية ، طلبت من الجميع بذل المزيد من الجهد فى القسم الأخير من الرحلة ؛ فقد تخلى مساعد عن البغل واستعاض عنه بذلول ، ورحنا نشد الخطى على نغمات الأغانى البدوية ، ميممين وجهنا تجاه الضفة اليمنى من وادى فاطمة . ومرة أخرى بدأت أنا والمرشد نتولى قيادة الطريق ومن خلفنا بقية القافلة . ثم تجاوزنا بيت السوديان Sudaiyan ، الذى كانت تسكنه حامية عسكرية صغيرة ، وبعده بحوالى ميل وصلنا موقع البجادية Bijadiyya ، تلك الحامية التى كانت تتولى حراسة المدخل المؤدى إلى مجموعة التلال الساحلية ، التى عبرناها وتجاوزناها لنصل إلى مدق (طريق) واسع منحدر انحداراً لطيفًا ، كان يشهد فى كل وقت وحين قوافل الجمال المحملة المتجهة إلى مكة . هنا ، وكما هو الحال فى التلال المحيطة بالطائف ، لاحظت أن القوافل لا تسير بالترتيب المتبع فى الصحراء ، وإنما على شكل سلاسل طويلة يكون الجمل فيها مربوطًا إلى الجمل الذى يسبقه ، أى بطريقه ربط الأنف بالذيل .

تجاوزنا بعد ذلك برجًا مستديراً من أبراج الحراسة يسمونه النقطة البيضة Nuqtat al Baidha ، نظراً لواجهة جدرانه البيضاء ، إلى أن وصلنا إلى صخرة عالية يسمونها كاثانة Kathana ، مقام عليها برج مراقبة ، عند ممر ضيق ، هبطنا من أعلاه إلى كهف غار Ghar السُّليَّة Suliyya عند سفح وادٍ يحمل الاسم نفسه ، ويمر خلال التلال إلى أن يصل إلى وادى فاطمة . وقد تعودت العصابات فى الأزمان السابقة ، أن

تتخذ لنفسها مكاناً بين أطراف الجبال البارزة ، يشبهونه بالكهف ، كي تفترس الحجاج . أما الآن ، وقد شاهدنا ذلك بأعيننا ، فإن المسافرين يسيرون فرادى ووحداناً وبدون أى حراسة ، كما أن النساء تتحركن بلا أية حراسة ، من مرحلة إلى التى تليها على طريق الحج بلا خوف أو فزع .

سرنا فى الوادى إلى أن وصلنا أعلى نقطة فيه ، والتى أقيم عندها مركز حراسة الريع الأحمر ، فوق رابية من الروابى ، والتى انتشرت من حولها كبائن صغيرة تبيع المرطبات لمن يمرون بها . تلك قافلة قادمة من مكة ، كانت قد توقفت هنا وكانت تستعد للرحيل عندما مررنا بها ، وهذا واحد منهم ، يبدو أنه من الأشراف ، استحث جمله ليقف إلى جوارى عندما كنت وحدى ، وسألنى قائلاً : "من أين أنت ، يا شيخ ؟" ورددت عليه بنفس النغمة قائلاً : "أنا من نجد" وتركته يصل إلى استنتاجاته بنفسه ، إذ من الحكمة ألا تفصح عن هويتك لكل سائل عابر . وسرنا مسافة ونحن راكبان ، واستطرد الشريف يقول : "الواقع أنك جئت من سفر طويل . ترى ما هى أخبار المناطق التى جئت منها ؟" ورددت عليه ، مؤكداً له أن ابن سعود كان بصحة ممتازة ، وأن المطر كان وفيراً ، وتركنى وهو يعرف عكس كل ما أراده ، ولم يدرك أو يعرف أنه تكلم مع كافر على الطريق المقدس . وسرنا فى مطلع واسع متجه إلى الأعلى أوصلنا إلى مزعال Miz'al ، برج المراقبة المحطم المقام على قمة سلسلة جبلية منخفضة . وفى تلك المنطقة بدأت التلال تتحول من أمامنا إلى سهل شبيه بالسهول ، ينتهى بسلسلة صخرية منخفضة ، مقام فوقها برج حراسة يقال له برج مراقبة بغامة Baghama . ومن خلف البرج ، ومن لا شىء ، كان هناك شريط ضيق أزرق اللون ؛ فقد استقرت ، أعيننا التى أرهقتها رمال الصحراء وسهوبها وصخورها ، على الأفق الناعم للبحر الغربى ، وأحسسنا بالسعادة والفرح ونحن نواصل المسير . كان من بيننا أناس ، من بينهم بدر ، لم يشاهدوا البحر مطلقاً من قبل ؛ وصاحوا قائلين : "لا إله إلا الله . لا حول ولا قوة إلا بالله" .

ومن رغامة Raghama ، التى كان يحتشد فيها جمهور كبير حول أكشاك القهوة ، ألقينا نظرة على قصور جدة المرجانية ، التى كان يغلفها الضباب الناتج عن حرارة

الظهيرة ، ورأينا أمامنا شاطئًا رمليًا واسعًا يشبه الرف . وكنا نحن الذين كنا فى المقدمة لا نزيد على ستة أفراد ، أما بقية القافلة فكانت متأخرة عنا بمسافة كبيرة . قلت لتامى Tami "أنشدوا المزيد من الأغانى التى قد تساعدنا على إسراع الخطى" . وهنا افتتح تلك الأغانى بأغنية المخيم التى يستجيب لها أشد الجمال تعبًا وإرهاقًا ، استشعاراً منه للراحة ، وطلبًا للمزيد من العلف عند التوقف . أخيرًا اقتربت المسيرة الطويلة من نهايتها ، وفى أواخر وقت عصر اليوم الأخير من العام دخلنا من بوابة مكة ، وتحقق بذلك هدفنا، ألا وهو عبور الجزيرة العربية من البحر إلى البحر .

٤- جَدَّة

أنا عندما أتحدث عن جَدَّة(١٥) مرفأ مكة البحرى كما يوحى اسمها ، المكان الذى دفنت فيه حواء ، أم الجنس البشرى كله ، أجد أن هناك من هم أكفأ منى الذين يستطيعون الكتابة أحسن منى ، ومع ذلك ، فإن تسجيلى لتجوالى فى الجزيرة العربية ، لن يكتمل دون أن أروى ذلك الذى حدث طوال الأسبوعين اللذين قضيتهما فى جدة ، ودون أن أتكلم عن الأعمال التى قمت بها خلال تلك الفترة ، وعن الانطباعات التى عدت بها من تلك المدينة التى تقع على شاطئ البحر الأحمر ، التى اشتهرت بين ملايين الحجاج المسلمين ، الذين شاهدوا من البحر منازلها التى تحيط بها الضباب والغمام ، ومآذنها التى توحى بأنها المدخل إلى بيت الله الحرام .

كنا قد ألقينا – من سلسلة جبال رغامة – نظرة على ظل المدينة ومن خلفها زرقة البحر ، فرحين أننا طوينا مسيرتنا ، ونحن الآن ، عندما نقترب من المدينة ، نجد أنفسنا بين مجموعة من الحطام الذى يميز الاقتراب من كثير من مدن الشرق . فتلك حفر على شكل فجوات تمتد إلى مسافات بعيدة ، وتدل على أن كثيرًا من أحجارها قطعها الناس على مر العصور لاستخدامها فى البناء ، وتلك أكوام من أحجار الدبش ومن البقايا ، وفيما بين تلك الأكوام والبقايا تشاهد الدكاكين وأكواخ الفقراء من الناس ،

التى أنشأها أصحابها فى أماكن واسعة ، حتى تتمكن القوافل من التوقف لتنزيل أو حمل أثقالها من السلع والبضائع . وعند حافة منتظمة التخييم قابلنا رجلاً بديناً يركب مهراً صغيراً جداً ، كان ينوء به وهو يجرى بجوار إبلنا سريعة الخطى . وقد نسيت ملاحظة اسمه ، بل نسيته تماماً ، ولكنه كان إنساناً مرحاً ، فى بحبوحة من العيش ، ومبلغ علمى أنه كان يشغل فى بلدة جدة منصباً لا يقل عن منصب المسئول عن الشئون الصحية ، والأنسب من كل ذلك أنه التقانا وسط منطقة نشاطه واهتمامه ، ألا وهى ذلك الصف الطويل من أكوام القمامة التى بلغت من الطول والارتفاع حداً استطاعت معه أن تحجب عنا رؤية أسوار المدينة .

ومن خلال صف من الدكاكين القذرة مررنا إلى وعبر العقد المبنى المتين لبوابة مكة ، ومنه إلى التشعبات الكثيرة لسوق شرقية واسعة مكتظة بالناس ، والتى أعادت إلى ذاكرتى أحياء المال والأعمال فى المدن الهندية . وبينما كنا نتجول في تلك السوق ومن أمامنا مرشدنا شاهدنا من يرحب بنا من شرفة واحد من المنازل الكبيرة . وشق مرشدنا طريقه، وهو يربت على أعناق كثير من الجمال بعصاه فى أثناء سيرنا . ثم دخلنا من باب ذلك المنزل الكبير ، الذى رحبوا بنا من شرفته ، وصعدنا طابقين ليرحب بنا ويقابلنا عند السلم شخص لا تقل منزلته عن حاكم المدينة ، هو الشريف محسن ، الذى تناولنا الإفطار صباح اليوم فى منزله الريفى فى المرشدية Murshidiyya .

وأمسك الشريف محسن بيدى وحيانى بقبلة طبعها على جبينى ثم اقتادنى إلى داخل الغرفة ، أو إن شئت فقل داخل غرفة استقباله الخاصة ، التى أجلسنى فيها إلى جانبه على المقعد المفروش بالوسائد وبجوار النافذة . وأشار بيديه إلى رفاقى بالجلوس فى أركان الحجرة ، ثم طلب القهوة وأمطرنا بوابل من الأسئلة والتحيات التقليدية فى المجالس العربية . والشريف محسن لحيته كاملة ، خطها الشيب الرمادى الذى يدل على تقدم العمر ، ومحياه يوحى بالشفقة مما يضفى عليه مظهراً موقراً ومحترماً ، يناسب صيته الذائع وأنه رجل قوى وطموح وفطن ، ونمر أيضاً قادر على حكم بدو جبال الحجاز الذين لا ينصاعون للنظام . وكاد يطير فرحاً بمظهرى وقال :

"والله ، شبَك عبد الله بن الشريف" وكان يعني بذلك : "حقيقه ، تبدو وكأنك ابن الملك ، عبد الله ؛ فهو يلبس ذلك اللبس فعلاً ، إذ يلبس الكوفية المرقطة ببقع حمراء ، ومن فوقها العقال الأبيض ، بل إن لحيته مثل لحيتك ، كل شيء ماعدا العينين ، أما بشرته فهي شقراء مثل بشرتك تماماً" . ثم تقدم نحو الهاتف ، وأعلن للملك في مكة من خلاله خبر وصولنا ، وتلقى من الملك تحياته لنا في المقابل . ودارت القهوة مرة ثانية ، ثم اتجهنا إلى دوابنا، وركبناها واتجهنا إلى الطريق المؤدى إلى الوكالة البريطانية British Agency ، التي تقع داخل سور المدينة الشمالي بالقرب من شاطئ البحر .

الكرم البريطاني واحد في كل أنحاء الدنيا ، ولهذا السبب وليس لأي سبب آخر من أسباب افتقاري إلى تذوق الترويح الذي أغدقوه عليَّ طوال الأربعة عشر يومًا التي تلت ذلك في "استراحة الحجاج" ، سوف أترك تفاصيل إقامتي تحت سقف الميجور (الرائد) باسيت Bassett نائب رئيس البعثة البريطانية ، هو ورفاقه ، لخيال القراء . ومرت الأيام سراعًا ، فقد كان أمامي عمل كثير لابد من إنجازه ، وأمور كثيرة ينبغي إعمال الفكر فيها ، فضلاً عن قلقي على العودة إلى ابن سعود بلا أدنى تأخير . وتولى الشريف محسن مسألة الإسكان ، والترويح عن مرافقيَّ في الرحلة ، الذين كنت أزورهم من حين لآخر بصحبة عضو من أعضاء البعثة البريطانية .

وانتهت السنة الماضية مؤدية إلى العام الجديد ، الذي كانت أيامه الأولى حافلة باحتمالات بالغة الخطورة والأهمية فيما يتعلق بالجزيرة العربية . فقد وصلت لتوي بعد محادثات جهيدة مع الحاكم الوهابي في أرض منافسه الرئيسي ، وإن الكثير يمكن أن يعتمد على المفاوضات التي يمكن أن تدور في تلك الأيام بين السلطات البريطانية الموجودة في المنطقة والشريف . وكان من المقرر للقائد دي . جي . هوجارث Hogarth، الذي كان في ذلك الوقت من بين هيئة العاملين مع المندوب السامي في مصر ، أن يحضر إلى جدة لإجراء تلك المفاوضات . وكان قد وصل بالفعل صباح اليوم السادس من شهر يناير ، ولكن الملك بعد أن أبقانا على أحرَّ من الجمر ونحن في انتظار مجيئه أو عدم مجيئه، على الرغم من وعده إيانا بصفة مبدئية أنه "سوف يحاول التغلب على كل

المصاعب - وبخاصة تلك المصاعب المتعلقة بصحته - التى قد تمنعه من مقابلة ضيوفه القادمين بالبر والبحر" ، لم يصل إلا بعد ذلك بيومين ، عندما بدأ فعلاً العمل الحقيقى الذى جئنا من أجله .

ونظراً لأن الملك لم يكن له قصر فى جدة - لأن المبنى العام الذى كان يطلق عليه اسم بيت الحكومة لم يكن يتكون إلا من غرف المحكمة وبعض المكاتب الحكومية الأخرى الخاصة بالإدارة المحلية - فقد جعل محل إقامته فى منزل فخم يملكه أحد الأشراف يدعى طه ، ويقع إلى الشرق من الوكالة البريطانية ، والذى توجهت إليه صباح اليوم الثامن من شهر يناير ، بصحبة القائد هوجارث Hogarth ، ومعنا مترجم فارسى فطن صغير الحجم يسمونه روحى Ruhi[١٦] كان يعمل فى خدمة هوجارث ، توجهنا كلنا لحضور أول اجتماع رسمى مع صاحب الجلالة . كان الاحتفال فخمًا نظراً لأن الملك استقبلنا فى غرفة مرتفعة شأنه فى ذلك شأن أى رئيس عربى فى مثل هذه الظروف . ولم يكن الاستقبال خاليًا من الطرف الملكية نظراً لمظهرى ، إذ نادانى الملك قائلاً "نجدى" بل إنه قال أيضًا "لورانس نجد" ، وفى مناسبات كثيرة كان يناديني "ابنى" ، وهذا شىء من الإعزاز الذى لم يسبغه على رفاقى . ودارت علينا القهوة مراراً ، ولكن القهوة التركية وليست العربية ، وقدمت لنا الحلوى ، كما قدمت لنا المشروبات الباردة أيضًا ، بينما كنا نجلس على الكراسى ولسنا جلوسًا على الأرض . كانت وقائع كل تلك الجلسة وقائع رسمية الطابع تمامًا ، أما الموضوعات الجدلية فلم يجر الاقتراب منها . وبدأ القائد هوجارث الحديث بإعلان مالى ، لابد من أن يكون قد شرح صدر صاحب الجلالة ، الذى قبل ممتنًا أيضًا علمًا أمريكيًا مصغراً أرسله معجب أمريكى تعبيراً منه عن امتنانه وتقديره للخدمات التى أسداها الملك للعالم . ورداً على ذلك ، أعلن الملك أنه برئاسته للثورة العربية بالشكل الذى فعله ، لم يدر بخلده أى شىء آخر سوى خدمة مصالح العالم كله ومصالح الإسلام بصفة خاصة ، وإنه مقتنع قناعة تامة أن ازدهار الإسلام سوف يعتمد دومًا على مساعدات بريطانيا العظمى وحسن نيتها . وانتقل الحديث بعد ذلك إلى خطط فيصل ، التى كان يجرى تجريبها بالفعل ، والتى كانت تهدف إلى التقدم شمالاً . وقال الملك إن دمشق قد تعمل لصالحه ، وهنا

يمكن تحقيق التواصل مع بغداد . وتكلمنا أيضًا عن ابن الرشيد ، الذى كان من المفروض أن يكون فى ذلك الوقت سجينًا بالفعل فى المعسكر التركى فى الحجر Al Hajr ، التى كان يجرى حصارها فعلاً بواسطة قوات الشريف، والتى على الرغم من ذلك، وبسبب الظروف المناخية غير المواتية ونقص الأعلاف المطلوبة للحيوانات ، اضطرت إلى الانسحاب إلى أرض أفضلية أحسن . وانتهت المقابلة فى جو مفعم بحسن النية والود ، بعد أن قدمت للملك تحيات السير بيرسي كوكس Percy Cox ، وبعد أن ناقشنا تفاصيل متاعب رحلة الملك من مكة إلى جدة خلال الليلة السابقة. وعلى الرغم من كبر سن الملك – إذ كان عمره فى تلك الفترة لا يقل عن الستين – فإنه كان ما يزال يحتفظ بحيويته وكأنه فى ربيع عمره ، وعلى الرغم من أنه فضل أن يركب بغلاً ، من منطلق أن ركوب البغل مريح عن ركوب الجمل ، فإنه استخف بالرحلة التى قطعها دفعة واحدة دون توقف .

وعلى الرغم من أن الملك حسين لديه نصيب كبير من الحياة البدوية، وعلى الرغم أيضًا من أنه كان يكشف فى أحيان كثيرة عن معرفته الواسعة بتفاصيل الحياة البدوية ، الجمال ، وأعشاب الصحراء ، وما إلى ذلك من الموضوعات التى كان يتحدث عنها بسرور بالغ ، وبطريقة تسر المستمعين ، فإنه من حيث المظهر والتصرفات والمشية كان يذكرنى بالمجتهد الفارسى أو المغنى التركى أكثر منه العربى . والملك حسين مؤدب دمث السلوك ، ولطيف ، وكلامه بطيء ، بل قد يتردد فيه أحيانًا ، وهو فى لحظات الانفعال القوى قد يظهر سلالته العربية الأصيلة ، عندما يضرب عرض الحائط بكل تعبيرات وعبارات التعظيم التى استقاها من التعليم التركى للأغراض المعتادة ، ويدخل فى موجة من الطلاقة والبلاغة العربية المدوية التى لا يمكن لأحد أن يسمعها إلا فى المجتمعات والتجمعات البدوية . فقد خاطبنا الملك بصيغة الجمع قائلاً : "حضرات الأفاضل" أو "حضرات الأعزة" وكان قد درَّب حاشيته وبلاطه على مخاطبته على الملأ بلقب أو كنية "جلالتكم" ، على الرغم من أن الشريف محسن هو وأمثاله من المدرسة القديمة لم تغب عنه العبارة اللطيفة المناسبة "يا سيدى" . أما الكلمات الوافدة مثل "أدابسيز"(١٧) فقد كانت تحدث فى أحيان كثيرة فى أثناء الكلام .

واعترافًا بثورة الملك حسين وتمرده على الأتراك أسبغت عليه الحكومة البريطانية لقب ومعاملة "ملك الحجاز" ، غير أن الحكومة البريطانية لم تعتبر ذلك وصفًا مناسبًا للدور الذى كان الملك حسين يتطلع إلى أن يلعبه فى أمور الجزيرة العربية ، وكان الملك حسين قد ادعى لنفسه بغير حق اللقب الشامل "ملك بلاد العرب" أو "ملك الديار العربية" ، وباءت كل محاولات زحزحته عن موقفه ذلك برد قاطع تمامًا مفاده أن من السهل أن يصبح ملكًا للعرب بفضل مخاطبته بذلك الاسم ، على أن يكسب الإنسان حق مخاطبته بذلك اللقب عندما يصبح ملكًا للعرب . ولم تسئ إليه دائرة السوء ، ولكنه كان يعترض بالفعل على السلطات البريطانية فى مصر وفى أماكن أخرى ، عندما كانت تخاطبه بلقب "ملك الحجاز" ردًا على المعاملات (المراسلات) التى كانت ترد منه موقعه بلقب "ملك البلاد العربية" . أكثر من ذلك ، إنه كان يعترض على ابن سعود الذى كان يرد على رسائله الموقعة بلقب "ملك العرب" ، بلقب "شريف مكة" . كانت مسألة تكوين إمبراطورية عربية تحت حكم الملك حسين حلمًا استحوذ على كل خياله ، ولكن العمر أمهله ليرى بنفسه أن تلك القلاع التى بناها فى الهواء تبددت ليس بفعل أولئك الذين عارضوه أو قاوموه هو ومطامحه منذ البداية ، وإنما بفعل ولده ، الذى عهد إليه بقيادة جيش الشمال، والذى بدأ اعتبارًا من يوم عقبة Aqaba' – إن لم يكن قبل ذلك – يصمم على أن يقتطع لنفسه من ملك أبيه مملكة مستقلة . وفى تلك الأيام كانت الوحدة العربية المثلى ، التى كان المرحوم السير مارك سايكس Mark Sykes يعلق عليها كل آماله ، لا تزال تبدو شيئًا مرعبًا وكبيرًا فى الأفق السياسى ، ولكن الشيخ كان قد بدأ يذوى ويختفى أمام الأيدى التى كانت تمتد طلبًا للإمساك به . ولم يعد يتبقى من ذلك النسيج القوى حاليًا سوى اللقب الملكى ومملكة الحجاز الجرداء القاحلة . والآن وبعد أن انتهى كل الشجار وكل الخصام ، بل وبعد أن انتهى الجدال ، لا يملك الإنسان إلا أن يتعاطف مع الملك حسين ويتأمل أن الملك حسين ربما استطاع تحقيق أحلامه لو أنه لم يتعلق بأحلام بعيدة جدًا عن متناوله .

وأعقب أول اجتماع رسمى لنا إلى الملك ، وفى مساء اليوم نفسه ، اجتماع تمهيدى طويل معه ، ناقشنا فيه الأسباب التى جمعت بيننا نحن الاثنين ، وتلت ذلك اجتماعات

أخرى مماثلة خلال اليومين التاليين . وعند ذلك الحد أصبح واضحًا أن كل الآمال المعلقة على تفاهم مرضى بين الملك وابن سعود أصبحت بلا طائل أو جدوى ، وبالتالى امتنعت عن حضور أى من الاجتماعات التى أعقبت ذلك إلى ما قبل يوم رحيلى مباشرة ، عندما اضطررت ، على غير رغبة منى ، إلى حضور الاجتماع الأخير لتوديع الملك .

وهنا أصبحت – عند تلك المرحلة – مسألة نظر الملك لابن سعود على أنه كان العقبة الوحيدة التى تقف فى طريق تحقيق الملك لمطامحه ، أمرًا لا يرقى إليها الشك . وليس من المفاجئ أو المدهش فى مثل تلك الظروف أن ينظر الملك إلىّ باعتبارى مندوبًا مفوضًا إلى البلاط الوهابى لمساعدة ابن سعود فى مسألة التحالف Allied Cause باعتبار أن ذلك كان الهدف الرئيسى من مهمتى ، وأن ينظر إلى ذلك من منظور الشك والبرود . ومن سوء الطالع أن خبر مجيئى لم يصل إلى الملك إلا بعد أن وصلت إلى الطائف ، وأنا ألتمس للملك العذر لأنه تشكك فى أن هبوطى على أرضه إنما كان نتيجة خطة متقنة من جانب الحكومة البريطانية للوى ذراع الملك . وعلى أى حال ، لم يكن الملك على حق فى غضبه منى عندما أوضحت له أن الحجة ، التى رفض بمقتضاها السماح لأحد الضباط البريطانيين السفر من بلاده إلى نجد ، كانت واهية وبلا سند ، وبالتالى كشف الملك عن استيائه من الموقف المتشدد الذى وقفه من تلك الاجتماعات التى كان يجرى فيها التحدث أو تناول الأمور المتعلقة بابن سعود .

وكشف الملك عن معارضته للاستفادة من خدمات خصمه وغريمه بأى شكل من الأشكال فى تطويرنا لخططاتنا ، كما كشف أيضًا عن عدم قناعته بالاعتماد على ابن سعود أو الوثوق به ، كما كشف أيضًا عن خوفه من أن تعاملنا مع وسط الجزيرة العربية قد ينطوى على تعديل فى التعهدات التى دخلنا فيها معه . ويبدو أن الملك كان لديه مفهوم متعاظم عن تلك المقررات[١٨] ، كما كان يسميها هو ، وأن ذلك المفهوم كان أكبر مما تثبته الحقائق أو تبرره . ورد الملك على كل الحجج التى سقناها والتى مفادها أن خدمات ابن سعود قد يستفاد منها فى تطوير وتحسين القضية العامة ، بأنه لديه بالفعل خططه ومشروعاته جاهزة وكافية لتحقيق الأهداف المرتقبة ، ورجانا الملك

أن نثق به وأن نوكل له الأمور وأن نثق بأن كل شيء سيكون على ما يرام في وقته المناسب . وليس من الضروري التحدث هنا عن تفاصيل المناقشات التي دارت بيننا ، ويكفينا أن نقول : إنه في مواجهة موقف الملك انهارت كل المفاوضات الخاصة بمهمتي انهيارًا تامًا ، ولم يكن أمامي من خيار سوى أن أطلب إذنًا من الملك بالعودة إلى المكان الذي جئت منه .

كنت قبل مغادرتي الطائف بناءً على دعوة الملك لي بالحضور إلى جدة قد احتطت للأمر ، بأن تركت نصف الحرس المرافق لي ومعه كل الأمتعة الثقيلة في الطائف ، وتركت لهم توجيهات مشددة وصارمة من خلال الرجل المسئول عنهم ، أن يبقوا إلى جوار تلك الأمتعة بصورة دائمة لحين عودتي . وهذا بدوره يمكن أن يؤدي إلى إراحة الإبل المرهقة ، وقلت لهم أيضًا : إن عودتي إلى الطائف أمر مؤكد . ومع ذلك فقد فشلت كل حساباتي الدقيقة أمام الظروف التي لا قبل لي بالسيطرة عليها أو التحكم فيها . وقد ثارت شكوكي حول مخططات الملك ، عندما أصدر أوامره إلى أمير الطائف ، وتأكدت أيضًا بملاحظة عابرة أبداها مساعد ، سكرتير الملك ، عندما التقيناه في قرية مضيق ، والتي مفادها أنني لم أفكر في مسألة العودة إلى نجد عن طريق البر وأن من المريح العودة بطريق البحر . وكان مساعد قد اقترح عليَّ بالفعل في تلك المناسبة ، أن أرسل في طلب بقية الجماعة ، ولكنني كنت قد أكدت له وأنا أرد عليه ، إنني مصمم على العودة بطريق البر مثلما جئت . وبقي الحال على هذا المنوال إلى ما بعد اليوم الثالث من وصولي إلى جدة ، عندما أبلغني إبراهيم بطريقة عابرة أن الشريف محسن تلقى إشعارًا تليفونيا من مكة مفاده أن الملك كان قد كتب لرجالي "يخيرهم" بين البقاء في الطائف أو زيارته في مكة ، وأنهم جاءوا بأمتعتهم وعفشهم إلى مكة في ذلك اليوم . وهذا العمل ليس له سوى معنى واحد ، كما تأكدت شكوكي أيضًا بفضل الحديث الذي دار بيني وبين مساعد في اليوم التالي ، والذي اقترح عليَّ خلاله أنه طالما أن الجماعة أصبحت كلها في مكة ، فقد يكون من الأفضل لهم أن يلحقوا بي في جدة . وأبديت احتجاجي على ذلك الإجراء الذي تم دون علمي وشددت على مساعد أن يتخذ الترتيبات اللازمة لعودة الجماعة إلى الطائف حتى يتمكنوا من إراحة الإبل قبل رحلة العودة ،

كما كتبت فى الوقت نفسه رسالة للملك شكرته فيها على حسن استقباله لنا ودعوته رجالى إلى مكة ، وأعربت له عن أملى فى ألا يكونوا قد تسببوا فى انشغاله ، ورجوته أن يعودوا إلى الطائف بأقصى سرعة ممكنة كيما يستعدوا لرحلة العودة .

ومع ذلك بقيت الجماعة فى مكة على الرغم من كل الاحتجاجات الرسمية التى تقدمت بها ، وأصبح واضحًا أن الملك لم يكن موافقًا على عودتى عن طريق البر من خلال أراضيه . ولكن ذروة التصعيد تجلت فى نهاية اجتماع العمل الثالث ، إذ بعد أن اتضح لى أن إجراء المزيد من المحادثات لن يسفر عن شىء ، استأذنت من الملك أن يسمح لى بالرحيل على الرغم من أن مقامى قد طال أكثر من اللازم فى جدة . وهنا كشف الملك عن حقيقته ، إذ إنه لم يكن موافقًا على عودتى من خلال أراضيه ؛ فقد خلق وصولى إلى بلاده تعليقات وانتقادات كثيرة وبدأ الناس يقولون : إنه باع بلاده للإنجليز . ورددت عليه قائلاً: "هذا بالضبط هو ما يقوله الوهابيون عن وجودى فى نجد ، ولكن ابن سعود يخرسهم بإعلانه عليهم أن وجود الرجل الإنجليزى فى نجد سوف يثبت أنه سيكون لصالحه ولمصلحته" . وكان من العبث الجدال مع شخص كان دافعه[١٩] الواضح هو النيل من ابن سعود ، فضلاً عن انتهاء الاجتماع نهاية مفاجئة إلى حد ما ، مع إحساس شديد بالتوتر الشديد فى كل ما كان يحيط بنا . وأنا فى حل من التركيز على ذلك الموقف أو المشهد الكريه إلى نفسى الذى لم أر الملك بعده قط ، إلى يوم أن ذهبت إليه لأودعه فى اليوم السابق مباشرة لرحيلى من جدة بطريق البحر . وفى تلك المناسبة ، وبعد أن جرى تجنب المسائل السياسية فى الاجتماع بموافقة الطرفين ، أعرب الملك عن أمله ، عندما هممنا بالانصراف ، أننا سوف يجىء اليوم المناسب الذى نقبل فيه رأيه فى عدم جدارة ابن سعود وعدم أحقيته . ورددت عليه قائلاً : "لقد أوفدتنى الحكومة البريطانية إلى نجد لكى أقف بنفسى على الأمور الجارية هناك ، ومن سوء حظى وطالعى أن ما توصلت إليه هناك من استنتاجات يختلف اختلافًا كبيرًا عن مرئيات جلالتك" . وبدا لى أن تلك الملاحظة كادت أن تؤدى بالتعجيل "بمشهد" آخر ، استدلاع القائد هوجارث Hogarth تحاشيه بحنكة وبراعة ، الأمر الذى أسفر ، عندما تقدمنا لمصافحة ذلك الطاغية العجوز الذى يتيه فخرًا أن خصنى بشرف طبع قبلة على جبينى . وقلت له : "أنا جد آسف لأن زيارتى إلى جلالتكم لم تسفر عن نتائج طيبة" .

ولم تترك لى المشاغل الرسمية الثقيلة فى تلك الأيام الأولى متسعًا من الوقت أستطيع معه استكشاف المدينة وما يحيط بها أو التعرف على أعيان السكان فيها وكبار زوارها ، ولكن النتيجة التى وصلت إليها اجتماعاتى مع الملك وبالصورة المعاكسة التى سبقت الإشارة إليها ، مكنتنى من التجوال فى المدينة خلال الأيام القليلة الأخيرة من إقامتى القصيرة بها . كان المنزل الجميل الذى كانت تسكنه البعثة البريطانية يقع ناحية الغرب فى المدينة وعلى الأخص إلى ناحية الغرب من البوابة الشمالية لمدينة جدة ، وكان ذلك المبنى يطل على سور المدينة وعلى خليج صغير فى اتجاه مجموعة من ثلاث أو أربع قرى مكونة من أكواخ مصنوعة من الغاب ، الذى يطلقون عليه هنا اسم الرويس Ruwais ، أو إن شئت فقل مستوطنة بذيئة السمعة ، باعتبارها وكراً من أوكار المهربين وتجار العبيد ، الذين لم يسيئوا فقط إلى الزوار وإنما ذاع عنهم أنهم كانوا يثيرون اشمئزازهم بشكل عنيف . وكان ضباط البعثة البريطانية قد أنشأوا فوق قطعة من الأرض البارزه فى الخليج الصغير ، ملعباً للجولف ، كانت حافته الشرقية محاذية لمتاهة من الخنادق التى حفرتها آخر الحاميات التركية ، يضاف إلى ذلك أن المشهد فى ذلك الجانب كانت تكمله الثكنات المحلية التى أصبح يرفرف عليها حالياً علم الشريف حسين المكون من شعار من أربعة ألوان ، بدلاً من العلم الذى يحمل الشعار العثمانى ، كما أن المشهد كان يكتمل هنا أيضًا بالجبانة (المقبرة) المسوَّرة التى كان ملمحها المميز يتمثل فى القبة الخضراء التى كانت فوق قبر حواء .

هناك طريق قصير من الأشجار التى تتنازع البقاء يصل ما بين البوابة الشمالية والقسم الأمامى من ثكنات الجنود ، التى هى عبارة عن مبنى حديث أبيض اللون طويل الأبعاد ، وضعت أمام أبوابه بعض المدافع التى تعمل أو لا تعمل . ومن داخل ذلك المبنى توجد مناطق إقامة الحامية المحلية وهيئة أركان الشريف العامة ، برئاسة اليوزباشى القيسونى ، الذى كان ضابطاً فى الجيش المصرى فى يوم من الأيام ، ولكنه يشغل حالياً منصب وزير الحربية فى الحجاز . ولقد أسعدنى أن أشرب القهوة معه فى مسكنه ، والتحدث معه باللغة الإنجليزية ، التى كان يتكلمها على نحو جيد . أما مسألة إن كان وزيراً كفئًا لوزارة الحربية فإننا لا أستطيع القطع بها أو تحديدها ، ولكنى ليس

لدى ما يجعلنى أشتكى من استقبالـه الحار ، أو من اهتمامه بالمصاعب والمشكلات السياسية فى ذلك الوقت ، إذ كان يتحدث عن تلك المصاعب والمشكلات بشكل مستقل ، وهذا أمر مدهش ويثلج الصدر من عضو فى وزارة الملك . وقد بلغ اليوزباشى القيسونى من الطيبة حداً جعله يعطينى بعضاً من الصور الممتازة لكل من مدينة مكة وكذلك المناطق المحيطة بها ، وأن يصحبنى إلى سطح الثكنات العسكرية ، حتى يتسنى لى رؤية جدة ورؤية الجبال التى تعزل شاطئها من ناحية الشرق . وتركت لديه التماسا مفاده أنه ينبغى أن يستغل مكانته عند الملك ويجعله يعيد النظر فى حكمه الخاص بمسألة عودتى عن طريق البر إلى نجد ، ولكنى عندما التقيته وأنا فى طريقى لمقابلة الملك للمرة الأخيرة همس فى أذنى بشكل سريع بما مفاده أنه حاول ولكنه فشل . وبشكل عام كان القيسونى فى رأيى من رجال الأعمال العظيمة والوعود العظيمة أيضاً ، وإذا كان ذلك الرجل من نتاج الجيش المصرى بحق فإن السلطات البريطانية فى مصر ينبغى لها أن تفرح للنجاح الذى أصابته طرقها وأساليبها . وهناك ضابط آخر من ضباط الشريف التقيته بمناسبة زيارتى لليوزباشى القيسونى فى الثكنات ، هو منير بن عبد الله ، أحد مواطنى بغداد ، الذى حارب ضد القوات البريطانية فى بلاد الرافدين فى موقعة كوت الزين Kut al Zain ، ثم جرى بعد ذلك أسره فى الناصرية . ثم جرى إطلاق سراحه من معسكر الأسرى فى بورما ، لكى يشترك فى القتال إلى جانب قوات الشريف ، الذى كان راضياً عن خدمته ضمن صفوفه أكثر من رضاه عن مصيره هو .

سطح الثكنات يشرف على الجبانة (المقبرة) التى قمت بزيارتها أيضاً كى أرى قبر حواء عن قرب ، وهو القبر الوحيد الذى له قيمة فى ذلك المسوَّر كله . والقبر يشتمل على مسوَّر طويل وضيِّق يحيط به جدار منخفض مغطى بالجبس الأبيض ، وقد يصل طوله إلى حوالى سبعين أو ثمانين قدماً من حيث الطول ، ولكن عرضه لا يزيد على أقدام قليلة ، وفى منتصف ذلك المسوَّر وعلى مثلث متساوى الساقين يقع القبر نفسه الذى من المفترض أن يحتوى على بقايا جسم أم البشرية كلها ، ويحيط بذلك القبر قبة يميل لونها إلى الاخضرار ويغطيه قرميدان من الحجر ، عليهما نقش يمثل سُرَّة navél حواء ، ومغطى بمظلة براقة مربعة الشكل من النوع المألوف فى المقابر الإسلامية . وعند الباب

كانت تقف راعية المقبرة وحارستها ، امرأة بطبيعة الحال ، كانت بصحبتها واحدة أو اثنتان أخريان ، من بينهما صبية وقحة - الواضح أنها من الزائرات العابرات - لم تتأخر عن طلب نصيبها المنتظر من الزوار الذين يزورون ذلك القبر، واللتان - مقابل ما أعطيتهما إياه - سمحا لى بنظرة خاطفة ألقيتها على ذلك الأثر الموقر .

ومدينة جدة محصورة بين أسوار صلبة من ثلاث جهات : الجهة الشمالية ، والشرقية ، ثم الجهة الجنوبية . وهذه الأسوار تستمر أيضًا من ناحية البحر ، وهى الناحية التى توجد فيها مبانى مصلحة الجمارك والمبانى الرسمية التجارية الأخرى ، وتلك المبانى فى معظمها عبارة عن إنشاءات حديثة ، وبدون تناسق ، وهى تمتد إلى منطقة الخطاطيف الموجودة على حافة البحر . هنا وفى صالة المدينة ، يقوم سليمان قبيل ، عمدة المدينة ، أو إن شئت فقل رئيس البلدية ، هو ورجاله من الموظفين بممارسة مهامهم وأعمالهم الرسمية . وفى هذه المنطقة أيضًا توجد الفنادق الكبيرة التى يقيم فيها الحجاج الذين يفدون من كل أنحاء الدنيا ، كل حسب جنسيته ، وذلك عن طريق وكلاء تجاريين من بلادهم ، طوال الفترة التى يقضيها الحجاج فى جدة فى رحلة الحج ثم العودة إلى جدة مرة ثانية . واقع الأمر أن جدة ميناء يعج بالحركة ، وأن عدد سكانها متغير دومًا ، الأمر الذى يصعب معه التكهن بعدد سكانها .

وخارج الركن الجنوبى الشرقى من المدينة توجد مستوطنة واسعة للتكارنة ، وهذه المستوطنة مكونة من أكواخ القصب والغاب ، ويقصدها العمال والحرفيون الذين يأتون من الساحل الإفريقى بحثًا عن لقمة العيش . وخلف مستوطنة التكارنة وعلى شاطئ البحر توجد الكنيسة ، وهذا هو الاسم الذى يطلقه العرب على المقبرة الصغيرة التى دفنت فيها أجساد الأوروبيين الذين وافتهم المنية من حين لآخر فى أثناء إقامتهم على ساحل المدينة الإسلامية المقدسة غير الصحى .

والمدينة من الداخل هى بحق خليط من الثراء والفقر ، فهذه منازل قباطنة التجارة الفخمة هى ومنازل أصحاب الأعمال بجدرانها المرجانية الصلبة والمساحات الكبيرة من المصنوعات الزخرفية الخشبية الدقيقة ، تراها جنبًا إلى جنب مع الأكشاك

الحقيرة التى أبلاها الزمن وأفناها طول عمرها ، وهذه مساجد منها الكبير ومنها الصغير، بمآذنها مستدقة الأطراف تشق عنان السماء وسط مباني واسعة مربعة الشكل ، وتلك أسواق شرقية تزدحم بالناس ، وتلك صفوف من الدكاكين غير المضاءة ، والتى تحميها من حرارة الشمس أسقف مركزية ، تصنع هنا من الخشب وقماش قلاع المراكب المقاوم للبلى والتآكل ، وتراها فى أماكن أخرى مصنوعة من الصاج المتعرج . وفى كل مكان من المدينة تستطيع أن ترى التقابل بين الظل والإضاءة ، وبين العظمة والفقر ، وبين التراب والأقذار ، ومن فوق كل ذلك تشاهد أعلام دول كثيرة[٢٠] وسط شعارات لا تحصى ولا تعد عن أمة عربية واحدة .

وفى النهاية وصل مقامى فى مدينة جدة إلى نهايته ، وفى مساء اليوم الرابع عشر من شهر يناير صحبنى رفاقى الذين جاءوا معى من الرياض إلى المرسى ، الذى فيه دوت كلمات وداعهم فى أذنى ، وهم تراودهم آمال واهية برؤيتى إياهم مرة ثانية . ومن رصيف الركاب ركبت لنشًا بخاريًا لنقلى إلى باخرة صاحب الجلالة التى يقال لها هاردنج Hardinge ، وانتظرت فى الميناء الخارجى كى تقلنى السفينة ومعى القائد هوجارث Hogarth إلى مصر . وأنا لم أجئ من العاصمة الوهابية من أجل ذلك الغرض ، وإنما لأن مرسوم الملك كان لارجعة فيه .

الهوامش

(١) يطلق البدو غير الوهابيين ذلك الاسم على ابن سعود وغالبًا ما يصحح لهم الإخوان الملتزمون هذا الاسم ويوبخونهم على استعماله على النحو التالي : قائلين لهم : "أى أمير؟" "لم ، ابن سعود" . آه ، أنت تقصد الإمام ... حسن ، إلخ ذلك الكلام .

(٢) "سلام عليكم أيها المسلمون ! وعليكم السلام ! أهلاً ومرحبًا ، يا عظيمة ! كيف حالك ؟ كيف حالك ؟ هل أنت على ما يرام ؟ نحمد الله ، أنا بصحة جيدة . كيف صحتك ؟ كيف حالك . ما هى الأخبار ؟ كيف حال الأمير ؟ هل جاءكم المطر ؟ نعم ، بالله لقد جاءنا فى نجد . وكيف حال البلاد ؟ رائعة بالله ! سبيع !"

(٣) ذلول معناها من أفضل السلالات ، وخفيفة وسريعة ، وهى غالبًا ما تقارن بالغزال ، المثل الأعلى عند العرب فى الخفة والرشاقة والسرعة . والظبى والظبية اسمان شائعان عند العرب ويطلقان على الإبل .

(٤) تأكدت تلك المعلومات عند د . جى . هوجارث ، بواسطة الشريف فيصل ، فى بحث ألقاه هوجارث مؤخراً أمام الجمعية الجغرافية الملكية .

(٥) يقول له الأتراك "كاتب التكريجية" .

(٦) جرى مؤخراً ، وبموافقة سابقة من الشريف ، زيارة مدينة جدة بواسطة العقيد فكرى Vickery المندوب البريطانى فى جدة ، وذلك فى صيف عام ١٩٢٠ الميلادى .

(٧) "كما تشاء" .

(٨) العباس ، هو عم النبى وسلف الأسرة المالكة العباسية ، وهو مدفون فى المدينة (المنورة) .

(٩) سى . إم. دى . المجلد الثانى ، صفحة ٥١٥-١٦ .

(١٠) وعلى سبيل الإجمال ، يقال : إن هناك أحد عشر مسجداً فى المدينة كلها ومدرسة واحدة.

(١١) هذا نقلاً عن ابن سعود ، على الرغم من أن ذلك الزعم ليس له سند ، وأن المبنى يبدو أقدم من ذلك بكثير .

(١٢) كتبت تلك السطور فى عام ١٩١٩ الميلادى قبل إبرام معاهدة السلام التى سحبت من اليمن التشريع العثمانى ، وقبل التمرد الذى حدث فى بلاد الرافدين الذى أفسد بصورة مؤقتة التطور السلمى الذى شهدته البلاد فى ظل فرض حماية بريطانيا العظمى على تلك البلاد .

(١٣) أى "أنف الغراب" .

(١٤) الأصل الإنجليزى لكلمة "برسيم" هو Lucerne ، وهذه الكلمة الغربية هى المستخدمة فى هذه المنطقة أما فى الرياض فهم يستعملون كلمة "جات" بدلاً من "برسيم" .

(١٥) الكلمة معناها "أم الأم" أى الجَدَّة .

(١٦) كان ذلك المترجم من مواطنى تبريز ، وأظن أنه كان بهائيًا ، وقد أدى خدمات عظيمة القيمة للحكومة البريطانية .

(١٧) هذه كلمة تركية adabsiz معناها "منعدم الذوق" .

(١٨) الاتفاقات أو الوعود .

(١٩) تحاشيًا للتفكير فى أن الملك كان لديه دافع آخر ، قد يكون من الضرورى هنا أن نقرر أن الملك نفسه كان قد سبق له فى صيف العام السابق دعوة بعض الضباط البريطانيين لزيارة الطائف ، بل إنه سمح أيضًا لواحد من الضباط البريطانيين بزيارة المكان نفسه خلال صيف ذلك العام (١٩٢٠) .

(٢٠) بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وهولندة .

الفصل السادس

أراضى ما وراء الساحل فى منطقة الفرات

١- الباطن

كان وداعى لابن سعود فى شهر ديسمبر مصحوبًا بتأكيد "إن شاء الله" مفاده أننى يجب أن أعود إلى الرياض بنهاية شهر ديسمبر على أكثر تقدير ، ولكن القدر شاء غير ذلك ، إذ تحولت الأسابيع إلى شهور من التعليق ، ، وبخاصة أننى رحت أمنى نفسى بين أطايب الحضارة وملذاتها ، بخيبة أمل مرة ، بل زادت مرارتها ، بل وازداد الطين بله أكثر عندما علمت أن مسألة عودتى خلال وقت قريب إلى الجزيرة العربية ، أصبحت تعتمد اعتمادًا كليًا على أمور لا قبل لى بها ولا سيطرة لى عليها . لقد شاهدت الكثير من الصحراء ومجتمعها الغريب خلال رحلة استمرت ستة أسابيع ، مرت سراعًا ، مما جعلنى أتحرق شوقًا إلى فرصة أخرى أستطيع من خلالها دراسة الصحراء ومجتمعها دراسة فاحصة وقريبة من خلال عينى شخص ، كان قد بدأ بالفعل يقف على عجائبها ، بصورة مبدئية ، مما جعلنى أتحرق من جديد شوقًا وقلقًا إلى تلك المساحات الشاسعة وهواء البرية النقى الذى لا يعرفه إلا أولئك الذين ابتسم لهم الحظ وهيأ لهم فرصة تمضية شىء من الوقت بعيدًا عن مشاهد العالم الحديث ، ووسط الصمت المطبق لرمال وصخور بلا حدود ، تفرض الطبيعة عليها سيطرتها بلا أى عون أو مساعدة من أحد ، مثلما بدأت وإلى أن تنتهى . ولكن على الرغم من "آلام الماضى ومخاوف المستقبل" ، لم يكن لدى ما يجعلنى أجأر بالشكوى ، فيا ليتنى لم أر القاهرة أول مرة بكل عظمتها وروعتها ، وترى مآذنها المخروطية المتنوعة ، ونيلها العظيم ،

وأهرامها القديمة ؟ يضاف إلى ذلك ، أننى زرت القدس أول مرة بعد أن تخلصت من استبداد الأتراك . ولكن نداء الصحراء لى كان قويًا ، كما أن صوت المؤذن الشجى ، وهو يؤذن للصلاة كان يقلل من شأن ذكرياتى العزيزة عن الخلاف القوى الذى كان يحرك هواء الرياض المستكن فى الوقت المحدد ، هو ومستوطناتها ، مثلما يعيد عواء الذئب إلى عقل الدوسرى المنفى ، وهو يرعى أغنامه فى مراعى العراق ، ذكريات صوت حبيب من الوطن :

صاحبى وادى الدواسر مقره

بالضلع الأسمر من ورا الرمال من غادى[1]

ومن سوء طالعى أن مخاوفى ثبت أنها كانت بلا أساس ؛ إذ صدر فى الوقت المناسب مرسوم ملكى يحتم عودتى على الفور إلى الرياض ، وهنا استقللت الباخرة إلى بومباى ثم البصرة التى نزلت فيها فى اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس استعدادًا للمضى قدمًا فى رحلتى إلى الرياض . كان فصل الشتاء قد دخل بالفعل فى فصل الربيع ، وهذا يعنى أن الربيع سوف يفضى إلى الصيف فى الوقت الذى أكون قد وصلت فيه فعلاً إلى الرياض . يضاف إلى ذلك أن مسألة تمضية الصيف فى "بلد من أشد بلدان العالم حرارة وجفافًا ، تخلو السماء فيه من السحب فضلاً عن أن الشمس تصب أشعتها على سهول الرمل الحارقة"[2] ، والأدهى من ذلك أن تمضية الصيف فى العراء تقضى على الاطمئنان وتبدده ، ومع كل ذلك كان لابد من الذهاب إلى بلاد العرب ، ومن حسن الحظ أننى اكتشف أن الوصف السالف كان أكثر من دقيق .

وبعد أن وصلت البصرة أبلغونى أن ابن سعود عندما سمع بعودتى ، ترك ابنه تركى يتولى قيادة معسكر تدريبه فى مرتفعات عارمة Arma' ، وحضر إلى الأحساء لمقابلتى . وبناء على تلك المعلومات وضعت الخطط اللازمة للقيام برحلة برية من الكويت إلى الجنوب ، ولكن حساباتى اختلّت بسبب وصول مبعوثين من ضار ابن طوالة

Dhari Tawala ، رئيس شمَّر ، الذى وصلته تقارير متضاربة عن الأماكن التى سأزورها من ناحية وعن نواياى من ناحية أخرى ، الأمر الذى جعله يعتقد أن الوقت قد حان أن يقوم بتحريات من جانبه ، وبالتالى يستطيع أن يفسر لسلطات البصرة أن إعانته الشهرية ، التى كنت أنا المسئول عنها ، قد تأخرت بسبب تحركاتى الخاطئة . وكانت مفاجأة مبعوثى الشمرى ، وهما ضيدان وحمدان بن سلطان ، عندما وجدا أن فريستهما كانت تستعد لافتراسهما فور وصولهما ، ولكن فرصهما كانت لا تزال أكبر من مفاجأتهما عندما اقترحت عليهما أن يعودا معى إلى خيامه ، بدلاً من أن يحملان منى رسالة رداً على رسالته ، وأن نعود إليه كلنا ومعنا أكياس النقود المتأخرة . يضاف إلى ذلك أن فرصة تمضية بضعة أيام بين الشمر فى ذلك المكان المهيب ، وفى جو بدوى لم يؤثر فيه تزمت وسط نجد أو تشدده ، كان لا يمكن التضحية بها تحت أى ظرف من الظروف، وهنا وجدتنى أصالح ضميرى بفكرة مفادها أننى يتعين على الوصول إلى ابن سعود على وجه السرعة عن طريق الباطن ، مثل أى مسار آخر ، كما توصلت أيضًا إلى ما مفاده أن لقائى مع ضارى كان ضروريًا لتنفيذ مخططاتى .

وقبل شهر نوفمبر من عام ١٩١٧ الميلادى ، عندما شرعت فى القيام بمهمتى إلى الجزيرة العربية ، كان الاحتمال الماثل فى ذهنى ، على الرغم من ضعف احتماله ، الخاص بشن هجوم على الخط الحديدى بين البصرة والناصرية ، سواء من جانب ابن الرشيد ، أو من جانب المنتفق Muntafiq الخارج على القانون ، فابن عجيمى السعدون ، الذى كان يتحكم فى الصحراء فيما بين الاثنين السابقين فيما يتعلق بالمنطقة غربى الفرات فرض على السلطات البريطانية العسكرية فى منطقة الرافدين ضرورة إقامة علاقات سياسية مع قبائل الحدود ، التى كانت بحكم موقعها المتوسط بيننا وبين العدو ، قادرة على المزايدة على الخدمات التى تقدمها من ناحية ، وكانت من الناحية الأخرى تبيع خدماتها للجانبين ، دون أن تبقى على أى منهما . يضاف إلى ذلك أن الاستيلاء على بغداد ، ثم تدعيم موقفنا فى المنطقة التى تقع إلى الخلف منها ، قلل من مخاوفنا وقلقنا على خط مواصلاتنا جنوبى الناصرية ، ولكننا لم نستطع فعلاً

فرض حصار مؤثر على حدود العدو إلا بعد أن وجدنا أنفسنا نسيطر سيطرة تامة على منطقة إنتاج الغذاء بكاملها فى العراق ، بعد أن طلبنا من القبائل التى كانت تجنى أرباحًا من وراء الدفاع عن الخط الحديدى أن تصبح جزءًا من الكردون أو الطوق الاقتصادى الذى كنا نعلق عليه آمال خنق تركيا ، على أن يكون ذلك مقابل استمرار المعونة التى كانت تقدم لتلك القبائل ، ونظير أيضًا اتفاق أفضلية فيما يتعلق بالسماح لتلك القبائل بالحصول على تلك التموينات والإمدادات اللازمة لها من الأسواق المحاصرة . ونظرًا لأن مصادرنا العسكرية كانت تقتصر على التشرذم فقد أنشأت تلك المصادر مراكز للحصار على مسافات متساوية ، وعهدت بها إلى القوات على امتداد تلك الحدود الصحراوية الطويلة المتعبة ، وأمام كل تلك الظروف وجدنا أنفسنا مضطرين إلى تأمين التعاون مع العرب الأصدقاء فى مسألة إحكام فرض الحصار ، ولكى نقف على مدى مضايقة ذلك التعاون لنا وعدم رضانا عنه ، يكفينا أن نقف على ذلك من خلال مثال واحد كان ابن سعود فيه هو الجانى الوحيد ولكن بصورة غير مباشرة . فى ذلك الوقت كانت قافلة من الشمر تضم ثلاثة آلاف جمل وصلت بجرأة وشجاعة إلى الكويت قادمة من حائل نفسها فى شهر سبتمبر من عام ١٩١٧ ، وكان عملاء العدو قد اشتروا البضاعة بعد نزولها مباشرة من السفن البريطانية ، يضاف إلى ذلك أن التحريات الرسمية لموظفى الشيخ فى الحصار جرى إشباعها والرد عليها بطريقة سهلة ، عن طريق الكذب الرسمى المدعوم بلا أدنى شك بأدلة كبيرة على حسن النية والطوية ، وبعد إنهاء الإجراءات استأنفت القافلة مسارها ، لا عن طريق حائل المتأرجح ، وإنما عن طريق القصيم . ولكن بعد أن وصلت القافلة إلى بريدة ، توجه قادة القافلة إلى مقر إقامة تركى Turki، الذى كان ابن سعود قد خلفه وراءه ليتولى قيادة قوة الحصار فى القصيم ، وبعد أن عبَّر قادة القافلة عن شكرهم واحترامهم لتركى قدموا أوراق اعتمادهم . التى تثبت دفع الجمارك لدى السلطات الكويتية ، ولم يطلب أولئك القادة التصريح لهم بمواصلة السير وإنما كانوا قد حصلوا بالفعل على تصريح بذلك . وبذلك أمكن تحويل شحنة كبيرة من البضائع البريطانية عن طريق الحصار البريطانى لحائل ، وبذلك يكون حلفاؤنا العرب قد وفوا بالدين فى واحدة

من المهام التى اعتمدت على حسن نيتهم. ولكن التفسيرات والاعتذارات التى أولت ذلك بأنه نجم عن عدم فهم نوايانا ، كانت قد فات أوانها ولم تستطع أن تصلح الضرر الذى كان قد وقع بالفعل . ولكن يجب ألا نسير هنا بافتراض مؤداه أن تلك كانت حالة مستقلة أو منعزلة ، أو أن الكويت كانت تمارس نوعًا من الاحتكار على توفير احتياجات العدو ومتطلباته ، ويجب ألا يغيب عن بالنا هنا السؤال الذى يقول : لمَ لَمْ تكشف سجلات تاريخ تجار سوريا هفوات وأخطاء إخوانهم الأزيونيين الجبريين Geber - Ezion ، وغيرهم من الذين كان يتعين عليهم أن يكونوا أعرف من ذلك ؟

ولكن هيًا بنا نترك ذلك الشأن جانبًا ونعود إلى سياق الحديث من جديد عن ضارى . ففى الوقت الذى رحلت فيه عن بغداد فى شهر أكتوبر ، كانت الشكوك قد بدأت تثور من حول أمانة ممثلى القبائل فيما يتعلق بفرض الحصار على خط الكويت البصرة الناصرية ، وكانت تعليماتى تقضى بانتهاز فرصة مقامى فى البصرة للاجتماع إلى الشيوخ المعنيين ، مستهدفًا من ذلك مراجعة الترتيبات القائمة وتنسيق عملياتهم بقدر المستطاع مع تلك العمليات التى كنا نتطلع إلى احتمال قيام ابن سعود بها من باب تقوية الهدف المشترك . وكان هناك سباق للخيل قد نظم فى البصرة ، ودعى إليه كبار العرب فى المنطقة ، ومن حسن حظى أن صادفتْ إقامة ذلك السباق وصولى ، وهيأ ذلك لى فرصة التشاور مع أولئك المعنيين بالأمر ، وذلك باستثناء واحد منهم فقط ، لأن سعود الصالح آل صُبْحَان ، رئيس شمَّر ، والذى كان بموافقة الجميع الشيخ "المحبوب" الأول فى مستنقعات الفرات ، بعد أن تخلى عن ابن الرشيد وربط مصيره بنا قبل عام تقريبًا ، بدأ خلال الأسابيع القليلة الماضية يبرز نفسه فى مسألة عملية فرض الحصار المربحة ، التى كانوا قد قدموا له إعانات سخية لمنعها ، إلى حد أنه ظن أن من الأفضل له أن يمثله فى ذلك السباق أخوه الأصغر غير المهم بدلاً من المخاطرة بظهوره هو شخصيًا فى ذلك السباق . ووقف سعود الصالح وهو يحس بالذنب ، يعانى من ضغوط الإعانة عليه وقد هجره أصدقاؤه ، الذين قيموا صداقتهم بثمن أغلى مما يقدر على دفعه سعود السلطان ، وقف ذلك الرجل شخصية

معزولة ونادمة فى الصحراء ، ليثبت أنه كان خائنًا للقضايا التى كان يساندها ويخدمها . وهنا لبس ضارى بن طوالة عباءة ابن صبحان ، وبخاصة أن ضارى بن طوالة الذى أدى ذيوع كرمه وإكرامه لوفادة زائريه إلى امتلاء مخيمه بالأفواه التى تعجز معونته التى يتلقاها عن إشباعها أو سد رمقها ، والذى أتاح له سقوط غريمه الفرصة كى يحقق مطامحه الخاصة ، ولذلك عجل بالتعاقد مع السلطات البريطانية على إظهار نشاط أكبر فى مساندة الحصار ودعمه مقابل زيادة راتبه الذى يتقاضاه ؛ الأمر الذى أسفر عن بعض النتائج التى سوف أتناولها عندما يحين وقتها . وأسند إلى قبيلة ظافر بقيادة كبير شيوخها ، حمود بن سويط Suwait ، الذى قام بدور طيب خالٍ من التباهى والتفاخر ، فيما يتعلق بحماية الخط الحديدى خلال الأيام الأولى من الحملة (الحرب) ، وكان تحالف الصحراء قد تم بالفعل فى تلك المنطقة ، عن طريق ضم كل من إبراهيم شيخ الزبير، بوصفه مرشداً وفيلسوفًا وصديقًا للأطراف المعنية كلها .

كان ضارى محوراً للترتيبات كلها ، أو إن شئت فقل حلقة الوصل بين الصحراء والأرض المنزرعة، وعلى الرغم من أن ضارى لم يحقق نتائج كبيرة طوال الأشهر الأربعة التى انقضت فيما بين رحيلى إلى الجزيرة العربية وعودتى إلى البصرة ، فإنه كان يزعم أنه قد وفَّى بنصوص عقده كلها عن طريق تجميع أكبر عدد من العناصر الصديقة ، والحفاظ عليها فى مخيمه المقام إلى جوار آبار الحفار Al Hafar ، ولذلك قررت زيارته فى عرينه اقتناعًا منى بفكرة حثه على المشاركة الفعلية والنشطة معنا فى عملية الحصار . وفى مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس كانت ترتيبات القيام بتلك الزيارة قد اكتملت ، وعندها توجهت إلى محطة قطارات البصرة الناصرية واستقللت مقعداً فى قطار الناصرية السريع . والسهل القاحل فيما بين البصرة والزبير غنى عن الوصف ولا يحتاج إليه ؛ إذ كانت أمطار الشتاء قد حولت الريف إلى مستنقع لا يصلح للتنقل أبداً ، فضلاً عن أن سطح الأرض فى القسم الجنوبى فى اتجاه رأس خور عبد الله كان قد تحول إلى شبكة من البحيرات الطينية . ومررنا بصعوبة خلال أنقاض مدينة البصرة القديمة ، المدينة الأولى ذات الأصول المحمدية الخالصة ، إلى أن

وصلنا إلى محطة الشعيبة التى نزلت فيها ، وبعد تحرٍّ جادٍّ عرفت أن بعض الجمال المتعبة التى كانت باركة على الطريق الرئيسى كانت مخصصة لحمل أمتعتى ، وأن عربة متهدمة من طراز فيكتوريا كانت تنتظر فى ساحة المحطة لتقلنى إلى الزبير . كان غطاء رقيق من العشب ، الذى كانت تتخلله هنا وهناك بقع مزروعة بنباتات القمح أو الشعير الصغيرة ، هو الذى يزين تموجات الطريق غير المنتظمة، وبحلول المساء كنت قد وصلت إلى باب الضابط السياسى المساعد فى منطقة الزبير ، واسمه الملازم أ . هـ . روبرتس Roberts ، الذى اتجهت معه على الفور إلى منزل الشيخ (إبراهيم) ، الذى كان قد دعانا لتناول العشاء معه .

كنت سعيداً لأنى عدت من جديد إلى عتبة الصحراء مرة ثانية ، وكان الشيخ إبراهيم مضيفًا ممتازًا ، وكان فى هيئة كرمه عدد كبير من الموظفين البريطانيين ، بل كثير من السيدات اللاتى من جنسنا واللاتى أتقنَّ أسرار الطعام والأكل العربى ، كما انخرطن أيضًا ضمن إخاء المجتمع العربى . وقد وجدت المسألة البريطانية فى الشيخ إبراهيم صديقًا وفيًا لم يختل ولاؤه مطلقًا ، اعتبارًا من ذلك اليوم المشئوم ، الذى شاهد فيه – وهو بين نارين – السيادة البريطانية وهى تفرض بصورة نهائية سيطرتها وسيادتها بشكل حاسم على ميدان الشعيبة . ولم يكن هناك أحد سوى الشيخ إبراهيم ، الذى كان يدرس بقلق بالغ تحركات البارومتر السياسى ، ولم يكن هناك أيضًا من هو أفضل منه فى رؤيته الواضحة لما كان يعده التسوية المثالية للشئون العراقية . وإذا لم يتوفر ذلك الحل المثالى ، فهناك بدائل أخرى كثيرة ، يتردد فى تفضيل بعضها على بعض ، مخافة أن تثبت التجربة خطأه . ولكن لماذا الاعتماد على التجريب والحجج والأسانيد العربية بسيطة ومباشرة ؟ والشيخ يحكم على نجاح أو فشل النظام الذى يعيش فى ظله بمعايير رفاهيته الخاصة أو شقائه وحده دون أن يغفل فى ذلك عن حال رفاقه ، وليس هناك أى معيار آخر غير ذلك المعيار فى مجتمع لا تبعد معاييره الاجتماعية البدائية عن تصور فكرة الصالح العام المثالية ؟ وبناء على ذلك ، ففى الوقت الذى نجد الكثيرين فيه يستنكرون ويستهجنون ، ويروحون يسترون استنكارهم واستهجانهم وراء المشاعر الدينية ، حلم الأيام الخوالى القديمة ، نجد هناك مجموعة

أخرى من صغار المسئولين الذين يعيشون على حساب الشعب الذى لا حول له أو طول ، وعلى حساب القبائل التى لا يحكمها قانون ، يروحون يتحدون جباة الضرائب معتمدين على حصانتهم . فى الوقت الذى نرى فيه هذا وذاك ، نجد أن هناك كثيرين - وإبراهيم واحد منهم - على استعداد بعدم السماح للمشاعر المريضة أن تؤثر فى إشباع نقصهم غير المحدود إلى هدايا النظام الجديد وعطاياه . كان إبراهيم يحكى لنا ، فى الوقت الذى يردد أخوه الصغير حمد المشاعر نفسها : "أيام الأتراك ، لم يكن هناك عدل أو أمن ، أما فيما يتعلق بى شخصيًا ، فقد أكون ميسورًا حينًا ومعسورًا فى أحيان أخرى ، نظرًا لأن كل شيء كان يعتمد على نزوة الوالى فى ذلك الوقت ، وكان الولاة يجرى تغييرهم بصورة مستمرة ، وبعض أولئك الولاة كان يحبنى والبعض الآخر لا يحبنى ، ولكن بعد أن قمتم باحتلال البلاد تبدلت الأمور ، وبفضل الله أصبحت فيما أنا فيه الآن وحكومتكم واحدة لم تتغير ، ومعاملتى لن تتغير بغض النظر عمن يكون مسئولاً فى البصرة أو هنا فى الزبير ، وأنتم إذا ما بقيتم هنا إلى الأبد ، فإن كل إنسان لديه ما يخاف عليه سيكون راضيًا ، ونحن مسرورون بصفة خاصة لأمر واحد فقط ؛ فأنتم لم تجبرونا على الخدمة فى الجيش مثلما فعل الأتراك ، أو مثلما يفعل الشريف عندما يتولى الحكم علينا ، أو مثل أية حكومة عربية أخرى . نحن لا نود من التدخل سوى السلام والحرية . وفيما يتعلق بالمستقبل ، فنحن لا نرغب فى بقاء الأتراك، وهذا أمر أكيد ، أما فيما يتعلق بالمدعين من بين العرب ، فإن شعب العراق يفضل أن يختار الشريف على أساس من ورعه الدينى ، ولكن الشعب تساوره المخاوف والظنون ، وابن سعود خارج هذه المسألة خارج حدود الصحراء ، وهو بدوره لن يعترف مطلقًا بسيادة الشريف" . وفيما يتعلق بمن يسمى سيد طالب Saiyid Talib[٢] الوغد الحقيقى فى دراما البصرة السياسية فيما قبل الحرب ، فقد راح يتكلم مستفيضًا بناء على تحريضى له ، واتضح لى أن هناك رابطة رقيقة بين الاثنين . قال إبراهيم عن سيد : "إنه ليس بذلك السوء الذى يحكى الناس عنه ، وإن القسم الأكبر من العربدة والمشاكسة التى تعزى إليه تتعلق باختلاق أمور مستغرقة فى الخيال والأوهام . صحيح أنه هو الذى رتب بالفعل لاغتيال فريد بك ، ومع ذلك فإن ضحيته كان يمكن أن

يتعامل معه بالطريقة نفسها لو تهيأت له الفرصة ، والذى لا شك فيه أن سيد طالب كان له نفوذ غير عادى فى شئون البصرة ، سواء أكان ذلك على مستوى المحاكم أم الولاة الذين تعاقبوا على البصرة ، ولكن الخطأ بالدرجة الأولى كان خطأ النظام التركى ، والسبب فى ذلك أن سيد طالب لم يتورع عن لعب دور الجاسوس على تصرفات كبار المسئولين لمصلحة إسطنبول التى وردت منها موجزات قصيرة تتعلق بالتقارير السرية التى كان يكتبها سيد طالب . من هنا ينتفى العجب عندما نراه يسيطر على الإدارة بما يخدم مصالحه ، وذلك عن طريق الابتزاز والتهديد بإبلاغ عيوب تلك الإدارة إلى السلطات المركزية . وعلى العكس من ذلك ، فإن شعب البصرة لا يريد من سيد طالب شيئًا أكثر من أن يصبح من جديد مواطنًا خالصًا مثل أى مواطن منهم . كان سيد طالب يشعر بالسعادة لأننى سمعت فى القاهرة شيئًا عن ذلك السيد الذى تدور من حوله الشكوك ، وبخاصة أن ذلك السيد كان يسرِّى عن نفسه فى القاهرة وطأة غيابه عن وطنه بالتمتع بمسليات المدينة الكبيرة .

خلدت إلى الراحة فى تلك الليلة ، راضيًا قبل كل شىء - على الرغم من وعود إبراهيم - ببداية متأخرة فى الغد ، والتبريز المعتاد قصير الأمد عوضًا عن مسيرة يوم كامل ، ولكن الشيخ كان صادقًا صدق كلامه تمامًا ، وكنت أنا هو الذى جعل القافلة تنتظر طوال فترة تناولى للإفطار وإكمال حزمى لأمتعتى . وعند الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس ركبنا مطايانا ، على شكل قافلة تضم ثلاثة وثلاثين شخصًا ، وبدأت القافلة مسيرها ، يصحبها الشيخان اللذان سارا معنا على امتداد الشوارع المتربة إلى أن أصررت على رجوعهما ، وبعدها وصلنا إلى البوابة الجنوبية لتلك البلدة الصحراوية ، وتجاوزناها لنبدأ المسير فى أرض قفر خالية . فى البداية سرنا فى أرض جرداء مرتفعة ووعرة ، كانت تتخللها هنا وهناك مساحات صغيرة مزروعة قمحًا . ورأينا من خلفنا ونحن نسير فى اتجاه الجنوب الغربى مدينة الزبير ، هى والبصرة ونخيل شط العرب وهى تخبو مختفية بين الضباب ، وعن يسارنا شاهدنا الشعيبة ، كما شاهدنا فى اليسار فى اتجاه الجنوب

جبل السنام Jabal Sanam الذى هو عبارة عن كتلة منعزلة من الحجر الجيرى ، واضحة المعالم الصحراوية ، ولكنها لم يهجرها الناس أو يتخلوا عنها بعد ، والسبب فى ذلك أن فرعًا من الخط الحديدى يمتد بالقرب من سفح ذلك الجبل، يضاف إلى ذلك أن جانبى ذلك الخط تخترقهما المحاجر اللازمة لخدمة الطريق الرئيسى . قبل ذلك بعامين كانت المسافة طويلة إلى جبل السنام ، عندما خيَّم ابن الرشيد فى مدينة صفوان ، ولكنه رُدِع عن القيام بالمزيد من المغامرات بفضل مفرزة الخيالة التى كانت فى الشعيبة . والآن ينظر عرب الصحراء بفضل جهودنا ، إلى منطقة ذلك الجبل باعتباره مصدراً من مصادر الترويح البرىء . والناس هنا يسألون المسافرين القادمين من الشرق : "ألا يزال الجبل واقفًا هناك ؟ وكم من الوقت سيمر إلى أن تتم تسوية ذلك الجبل بالأرض ؟"

وبعد مسير استمر ساعة وصلنا إلى قمة المنخفضات ، التى تنحدر الأرض عندها انحداراً سهلاً نحو غابات الأثل شديدة الخضرة التى يجرى قطعها دورياً ، ونحو حقول القمح الخضراء فى البرجيسية Barjisiyya ، التى هى عبارة عن مزرعة واسعة متخلفة عن ركب بقية المزارع ، وتقع فى قاع ضحل ، يحتمل أن يكون نهاية قناة الباطن نفسها أو إحدى نهاياتها . فى هذه المنطقة كان الأتراك قد أقاموا مركز رئاستهم فى عام ١٩١٥ الميلادى ، والذى أداروا منه معركة الشعيبة ، وكانت آثار الخنادق التى حفرها الأتراك فى تلك المنطقة لا تزال باقية ويراها الناس بين أحواض زراعة الشمام – نظراً لأن الزبير والمستوطنات المحيطة بها تشتهر قبل كل شىء بالشمام – وحقول القمح التى مررنا بها ونحن ننزل ذلك المنحدر . أخيراً ، وبعد أن سرنا حوالى خمسة أميال بعيداً عن الزبير ، وصلنا إلى الطرف الجنوبى من المستوطنة وتوقفنا فترة وجيزة بين حقول القمح الموجودة خارج البلدة لنسقى جمالنا من واحد من جوالبها الكثيرة ، أو إن شئت فقل آبارها . وشاهدنا الأكواخ الطينية التى يتكون منها ذلك الكفر الصغير الذى يقع بين أشجار الأثل ، وعلى بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الشمال ، وهنا شاهدنا جبل السنام بعيداً عنا فى الناحية الجنوبية .

وبعد الظهر مباشرة ، تركنا مستر روبرتس Roberts الذى كان لا يزال يصحبنا على الطريق ، ليعود إلى الزبير مرة ثانية ، ثم واصلنا مسيرنا فى الاتجاه العكسى

منحرفين بضع درجات قليلة ناحية الغرب من جبل السنام ، لنسير عبر سهل موحش يرتفع ارتفاعًا متدرجًا ، وهم يطلقون على ذلك السهل هنا اسم الراحة Al Raha . سرنا عبر ذلك الوادى إلى أن بدأت أحراج البرجيسية تختفى عنا فى الخلف داخل منطقة السراب ، وأصبحنا لا نرى سوى الجدب من أمامنا ، ومن خلفنا ، وعلى الجانبين ، ولم نكن نرى سوى ذلك "السنام" الذى كنا نهتدى به فى مسيرنا . ومع ذلك ، فالعرب هنا يقسمون تلك الأرض الخراب الخالية من السمات المميزة ، إلى وحدات رعوية أصغر - يسمونها النجمى Najmi والقريطية Quraitiyya ، على الرغم من أنى لم أستطع تمييز هذه أو تلك عمًا يسمونه البانية Baniyya ، التى يجمعون منها الحطب فى المنطقة ما بيننا وبين جبل السنام . كانت الأعشاب الصغيرة ، هى والنباتات المزهرة ومعها عشب منخفض يسمونه إضريس Idhris تغطى ذلك السهل فى بعض أجزائه . وكان الشىء الوحيد الذى طرأ على مَلَل تلك المسيرة وسأمها يتمثل فى مقتل حيَّة سامة حاولت النجاة دون جدوى ، بأن راحت تختفى داخل إحدى صفائح الكيروسين الفارغة الموجودة على جانب الطريق .

وواصلنا مسيرنا إلى أن قطعنا سبعة أميال ، وعندها طالعنا ارتفاع ملحوظ فى سطح الأرض ينذر بأن تلك كانت نهاية سهل الراحة المستوى ، ثم دخلنا إلى قطعة من الأرض يطلقون عليها اسم المفرش أو إن شئت فقل دلتا الباطن ، وتلك الدلتا عبارة عن مساحة واسعة من الأراضى المنخفضة المنتفخة انتفاخًا هينًا تتقاطع خلالها شبكة من المنخفضات ، التى كانت فى يوم من الأيام ، وبلا أدنى شك ، القنوات التى كانت مياه فيضان الباطن تتصرف خلالها متجهة إلى نهر الفرات أو البحر . والسبب فى ذلك أنه فى الأزمان القديمة ، وقبل أن تسفر عملية التجفيف عن خلق صحراوات شمالى الجزيرة العربية والرسوب الطميية للنهرين الكبيرين ، والتى أدت إلى تكوين مسطحات الرافدين الخصبة ، كان هناك نهر كبير يهبط من حرة خيبر فى أقصى الغرب بحذاء وادى الريمة ووادى الباطن ، اللذين يعدان فى واقع الأمر قناة واحدة ، هذا النهر لابد أنه كان ينتهى فى الخليج الفارسى ، الذى لابد من أن رأسه كانت قد وصلت إلى الشمال

من النقطة التى نحن فيها حاليًا ، بل كان يمتد إلى المنطقة المجاورة لمدينة أور ، موطن سيدنا إبراهيم . ومنخفضات المفرش التى تمثل تقابلاً من السلاسل الجبلية التى يغطيها الحصى والمنخفضات العشبية التى بدأت تكسوها بالفعل الزهور الصحراوية الصغيرة التى تظهر فى فصل الربيع بألوانها الأبيض والأصفر واللون الأرجوانى ، والتى تمتد إلى مسافة ستة أميال من حافة سهل الراحة ، أو تضيق بالتدريج إلى أن تصل الذروة عند نهاية قناة الباطن الأصلية ، التى تميزها رابيتان منخفضتان ، واحدة منهما على كل جانب من جانبى الفتحة، وهذان المنخفضان المستديران يطلق عليهما اسم الرتق الشمالي والرتق الجنوبي. وبعد أن شاهدنا وفرة نبات العرفج شديد الخضرة التي تحبه الجمال حبًا جمًا قررنا أن نخيم في ذلك المكان لقضاء الليل ، اقتناعًا منا بذلك الذى حققناه طوال النهار . وبعيداً عنا ومن خلفنا لم نكن نرى سوى قمة جبل السنام التى كانت تبدو لنا وحيدة معزولة ، وهى تختفى فى سديم الليل ، ومع ذلك فقد كانت تذكرنا أننا ما زلنا على اتصال بالحضارة . ومن أمامنا كان يجرى غدير واسع ضحل هو غدير الباطن ، والصحراء الجرداء على جانبيه ، تلفت انتباهنا إلى الغموض الذى فيما وراءنا . ومن خلف مخيمنا كانت قنوات المفرش تمد أذرعها التى تشبه المروحة نحو ذلك الذى كان بحراً فى يوم من الأيام .

كان الشيخ الطيب إبراهيم قد حذرنا أنه ليس من الحكمة أن يمضى الإنسان الليل فى المكان الذى توقف فيه لتناول وجبة المساء ، مخافة أن تكشف نيران المخيم موقع المكان لعدو يبحث عن فريسة ، ولكن نصائح ذلك الرجل الطيب غابت عن أذهاننا بفعل مسير اليوم الطويل المرهق ، وبقينا فى مكان المخيم نفسه ، ونحن نتناول فى راحة وهدوء الدجاج والأرز اللذين زودنا بهما ذلك الشيخ ، وتجمعنا بعد تناول الطعام ، حول النار لنسمر سويًا ونتناول القهوة . واحتل ضيدان Dhaidan القسم الأكبر من الكلام ، الذى انصب فى معظمه على فضائل سيده ضارى Dhari هو وجولاته ، كما تركز الكلام أيضًا، وبلا شك وبطبيعة الحال ، على خدمات شيخ الكويت ، الذى كان – إن صدق ما قاله الراوى – يستفيد استفادة قصوى من المهرَّبات وتجارة الممنوعات ، والذى كان من الطبيعى أن يحمل مشاعر ودية نحو الأتراك . كان هناك أيضًا من بين

أفراد جماعتنا عضو آخر اسمه عبد العزيز ، الذى سبق أن عمل فى خدمة ضابط سابق من الضباط السياسيين السابقين فى الزبير ، ألا وهو النقيب ر . مارز R . Marrs الذى كان معروفًا لكثير من رفاقنا ، وجعل نفسه محبوبًا من عرب الفرات وبخاصة فى المناطق الداخلية ، طوال فترة تجواله فى الصحراء مع بداية الحرب . وانطوت فترة المساء ونحن نتحدث حديثًا سارًا عن الماضى وعن الحاضر والمستقبل أيضًا ، وفجأة توقف ذلك الحديث بفعل دخول مجموعة من الرعاة بيننا ومعهم قافلة من الحمير ، كان أولئك الرعاة قد ذهبوا إلى صفوان لجلب الماء ودخل عليهم الليل فى أثناء عودتهم ، وحسبوا أن نيران مخيمنا هى نيران مخيمهم . ووسط كثير من الفوضى والصياح ، فهم أولئك الرعاة الخطأ الذى وقعوا فيه ، واقتادوا قطيعهم إلى خارج منطقة مخيمنا بحثًا عن مخيمهم . ومن خلال الضجيج برز صوت امرأة تغمغم لذلك الخطأ ، ثم بدأ ذلك الصوت يتلاشى تدريجيًا مع بعد المسافة ، وبذلك عدنا إلى راحتنا مرة ثانية . واتضح بعد ذلك أن أولئك الرعاة من قبيلة الجوارين Juwarin ، الشهيرة بتربية الأغنام والمواشى ، والتى تقضى فترة الشتاء على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، وتنتقل فى فصل الربيع إلى مراعى الصحراء .

واستيقظنا مبكرين فى صبيحة اليوم التالى ، وعجلنا بمسيرنا فى أعالى وادى الباطن الرتيب الخالى تمامًا من العلامات والسمات المميزة . ومن مكان إلى آخر على ضفتى حوض النهر اللتين تنحدران انحدارًا هينًا ، كان اتساع حوض النهر يتباين ، وكان ذلك التباين يتردد بين ميل واحد وأربعة أميال ، كما أن القسم الأكبر من حوض النهر كان إما داخل الضفة اليمنى وإما خارجها ، فضلاً عن أن الضفة اليمنى كانت تتخللها على بعد مسافات متساوية مجموعة من الشعاب الصغيرة ، وأن تلك الشعاب كانت أكبر قليلاً من قنيات الصرف ، وكانت تتجه منحدرة إلى المنخفض الرئيسى ، الذى كانت تغطى قاعه الغرينى الحشائش الخضراء ، ونبات الرمض Rimdh الملحى ، وتتخلله الرياض Raudhas ، أو إن شئت فقل مساحات صغيرة من شجيرات وأدغال السدر Sidr . وعند الساعة العاشرة صباحًا توقفنا لتناول وجبة الظهيرة فى شعب

رملى لا اسم له ، يقع فى منتصف الطريق بين اثنين من تلك الرياض هما روضة مترية Mutriba وحليبة Hulaiba ، اللتان لا يتجاوز اتساع الوادى عندهما ميلاً واحداً . ومن خلف ذلك الوادى دخلنا منطقة من المنخفضات . وفى المساء ، وبعد أن تجاوزنا متاهة من المنخفضات التى تحمل مياه صرف تلك المنطقة إلى وادى الباطن ، وجدنا أنفسنا مرة ثانية على الضفة اليمنى لوادى الباطن فى نقطة عند ربوة منخفضة اسمها الجريشان Jirishan وتقع فى منتصف الوادى ، كما أن سلسلة جبال المتياهة Mitiyaha الشهيرة كانت تشكل الضفة اليسرى لتلك الربوة . ونزلنا من تلك الربوة إلى المنخفض متجهين إلى روضة صوفَية Sufaiya ، التى توقفنا عندها بعد مسير خمسة وعشرين ميلاً ، لنعطى دوابنا فرصة التمتع إلى أبعد حد ممكن بنبات الرِّمض Rimdh والأعشاب الأخرى التى كانت تكسو أرض الوادى .

وأمضينا اليوم بطوله ونحن نرى المخيمات الرعوية تنتشر هنا وهناك فى أعالى الوادى ومنخفضاته ، ومن حين لآخر كنا نمر بقطعان الأغنام التى كانت تنتقل من مرعى إلى آخر . كانت معظم تلك القطعان من قطعان الجوارين ، الذين دخلت حميرهم إلى مخيمنا فى الليلة السابقة ، كما كانت تتخلل تلك القطعان بين الحين والآخر قطعان أخرى من البوصالح Albu Salih أما فى الجريشان Jirishan فقد صادفنا ممثلين للشريْفات Shuraifat ، الذين استطعنا أن نشترى منهم ، بعد شىء من المساومة ، خروفين طيبين بمبلغ اثنى عشر ريالاً كى نذبحهما فى العشاء . وفى إحدى المرات فى فترة المساء ، كنا نسير خلف جماعة كانت تنتقل إلى مكان آخر ، وفجأة قام واحد منها ، بعد أن تشكك فى نوايانا ، بإطلاق طلقة من بندقيته فوق رؤسنا ، مستهدفًا بذلك إبلاغنا أنهم مسلحون ، نظراً لأننا لم نأخذ ذلك بعين اعتبارنا ، على الرغم من التعجيل بأبعاد القطيع عن مسارنا تجنباً للضرر . وعلى العكس من توقعاتنا كان فصل الربيع عند هذا المستوى أكثر تقدماً وإيناعًا - إذا كان مخيمنا فى الصوفَية Sufaiya يقع على ارتفاع يزيد على ٤٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر - عما وجدناه عليه على حدود بلاد الرافدين ، وبذلك عوضتنى زهور الربيع التى كانت تنتشر بين الأعشاب الكثيفة التى كانت تغطى المنحدرات ومجرى الوادى ، عوضتنى عن رتابة المنظر وكآبته .

والعرب لديهم اسم لكل نبات من النباتات ، والعرب يثنون أو لا يثنون على تلك النباتات قياسًا على صلاحيتها أو عدم صلاحيتها علفاً للأغنام أو الإبل . ونبات العرفج يجيء على رأس قائمة تلك النباتات ، ويليه نبات الرِّمض . وهذان النباتان يندر أن يظهرا سويًا ، ولكن كلاً منهما قد يظهر فى مساحات شاسعة ، ولو أن الطبيعة نفسها أقرت أن أى حيوان لا يمكن أن يعيش على قبضات فقط من العرفج الجاف عديم الطعم ، دون أن يتــذوق من حين لآخر طعم الرِّمض المالح ، الأمـر الذى يجـعل نمو الرِّمض بكميات كبيرة أمرًا محفوفًا بالخطر والضرر . ونبات النُّوسى Nussi الغض ، الذى تفضله الإبل على سائر الأعشاب الأخرى ، لم نجد له أثرًا فى هذه المنطقة ، ولكن ينمو بدلاً منه عشب آخر يشبه الشعير يسمونه السَّمعة Sam'a . وتأتى بعد ذلك النباتات المزهرة ، التى كانت إبلنا تتغذى منها طوال مسيرنا ، فضلاً عن ميزة تنويع طعامها ، نبات الحوضان الأصفر الذى يشبه نبات الهندباء البرِّى ، والذى يقولون له : شن الأسد ، أو الطرحشقون ، أو نبات الجهويان الأبيض أو إن شئت فقل أقحوان الصحراء ، أو نبات الكحيل أصفر اللون، أو نبات الشقارة Shiqara أرجوانى اللون ، ونبات آخر له صفرة المستردة يطلقون عليه اسم الصُّفارة Sufara ، ونبات الخزام العطرى الذى يسمونه ضناب الناب Dhanab Nab ، ونبات الهمبيز Hambaiz المتسلق ، فضلاً عن نبات النق Niqq ، هو ونباتات أخرى كثيرة(٤). كان جميلاً حقًا أن نسير هكذا وأن نواصل المسير فى الصحراء عبر ذلك البساط الثرى من الزهور والحشائش ، التى كانت الأغنام هى وخيام الرعاة السوداء تبدو وكأنها طيور السلوى (السُّمانى) ، أو أرانب برية ، كانت ترتفع إلى الأعلى لتكون إلى جوار أقدامنا ثم تختفى بسرعة خاطفة عند حافة الوادى المنخفضة ، أو مثل أسراب طيور الطهيوج التى كانت تمر من فوق رءوسنا عائدة ، بعد أن ارتوت فى الصباح ، عن طريق ضفتى نهر الفرات ، أو مثل طيور الخطاف أو الصقور التى اندفعت أو حومت من حولنا . وهنا بدأت السمة المميزة لجبل السنام فى الاختفاء إلى الأبد خلف الأفق ، كما بدأت رياح الصحراء الباردة تهددنا استعداداً للنوم تحت سماء ملبدة بالغيوم ، كانت توحى بمزيد من الأمطار ، قبل دخول فصل الصيف علينا .

وسرعان ما تحقق الأمل ، إذ بدأت قطرات قليلة من المطر تتساقط من السماء رصاصية اللون عندما استيقظت من النوم عند الساعة الخامسة صباحًا من صبيحة اليوم التالي . وعلى الرغم من أن تلك الزخّة لم تتكرر في أثناء المسير ، الذي كان خاليًا من التضاريس مثلما حدث في اليوم السابق ، فإن المساء دخل علينا ونحن في مخيمنا ، على بعد خمسة وعشرين ميلاً على طريق سيرنا ، ثم راح يتساقط علينا رذاذ خفيف من المطر استمر طوال القسم الأكبر من الليل . ولم نر الشمس إلا لفترات قصيرة في أثناء النهار ، يضاف إلى ذلك المساحات الكبيرة من نبات الشيكارة الأرجواني اللون ، التي كانت تمتد عبر الوادي ، والتي خلفت لدينا وهما عن مرج كبير من مروج نباتات الخليج heather التي تنمو في المناخات الأكثر اعتدالاً . وكما كان الحال في اليوم السابق ، كان المنظر تنتشر فيه الخيام والقطعان التي كان الرعاة العرب يرعونها ، ولكن قطعان الإبل أصبحت هي الغالبة على المنظر مع استمرار مسيرنا . هذا يعني أن قطعان الإبل كانت تمثل الأغلبية بينما كانت قطعان الأغنام تمثل الأقلية ، زد على ذلك أن مسيرنا في الصحراء بدأ يتأكد أكثر وأكثر عندما دخلنا الأجواء البدوية ، أو إن شئت فقل جو ملاّك الجِمال الكبار ، سادة الصحراء ، وذلك بالمقارنة مع رعاة الأغنام المتواضعين . وخلال فترة الصباح مررنا بالمجموعات الأخيرة من فخذ الجوارين والنُّبهان من القبيلة ، لندخل إلى منطقة الظافر Dhafir ، التي قيل إن شيخها الكبير(٥) حمود بن سويط Suwait، لم يكن يبعد كثيرًا عن ربوة رحيل Ruhail في الصحراء ، تلك الربوة التي كانت هي وسلسلة جبال أضيبة Adhaiba يكسران ملل الضفة اليسرى من وادي الباطن في أواخر مسيرتنا ، والتي وجدنا بالقرب منها خيام فخذ العريف Araif' من قبيلة الظافر ، وفخذ التواثة Tawatha من قبيلة عنزة Anaza' ، التي تدخل ضمن العشائر الموالية لشيخ الكويت . وبالقرب من أضيبة Adhaiba حاولنا ، دون جدوى ، العثور على بعض البرك أو إن شئت فقل الثمايل Thamail(٦) التي قيل إنها مليئة بالماء في ذلك الموسم . ثم اتجهنا بعد ذلك إلى مخيمنا في الوقت المناسب ، كي تُنصب خيمتي قبل أن يبدأ سقوط المطر . كان ضيدان في أثناء المسير ، قد اكتشف عش أحد طيور الحبارى وبه ثلاث بيضات(٧) ، أحضروها لي لتكون بمثابة فاتح للشهية قبل تناول الطعام ، وتفوح منها رائحة نفاذة على نحو يجعل النفس تعافها .

وقد أشار رفاقنا بطريقتهم التقليدية إلى مسألة أننا الآن أصبحنا داخل حدود المنطقة البدوية التى يسود فيها قانون الفروسية ، وأن الغرباء الذين يحتمل مرورهم بتلك المنطقة ، يمكن اعتبارهم مجرد دمى فى لعبة الغزو النبيل والغزو المضاد ، اللهم إلا إذا راعى أولئك الغرباء قواعد قانون الفروسية والصحراء ، مراعاة تلك القواعد يكون بالإعلان عن شخصيتنا ونوايانا السليمة من خلال الأركان الأربعة فى مخيمنا وذلك على فترات طوال الليل . كنا فى ذلك الوقت لا تزال داخل نطاق قبيلة ظافر ، وبالتالى يحق لنا أن نعد أنفسنا ضيوفًا عليهم ، ومع ذلك كانوا يحتاطون لنوايا العصابات المعادية من الشمَّر Shammar أو المطير ، ولذلك يجب علينا أن نرعى أنفسنا فى حالة الهجوم من هذين الاتجاهين . واقع الأمر أن المطير كانوا على بعد مسافة كبيرة فيما وراء أبيار الحفار Al Hafar ، ولكن الشمًّ n كانت أراضيهم تتداخل مع أراضى قبيلة ظافر ، دون وجود حدود مميزة، وربما كانت مسألة الوقوع فى فخ معادٍ أمرًا يثير الضيق والاستياء.

وقَشَع فجر اليوم التالى ، الموافق للأول من شهر أبريل ، آخر سحاب الليل ، وبدأنا المرحلة التالية من الرحلة تحت سماء صافية ، وشمس غير حامية وريح جافة منتظمة قادمة من الجنوب الغربى تهب متقاطعة معنا . وهنا بدأ السطح العادى الواسع دومًا ، يتكسر كلما أمعنا فى الصعود والارتقاء ، وهنا بدأت المنحدرات على الجانبين تزداد انحدارًا عن ذى قبل ، متجهة إلى المنخفض الرئيسى ، الذى كان يتلوى بشكل حاد من جانب إلى جانب آخر . يضاف إلى ذلك ، أن عددًا من الشعاب الصغيرة ، وبخاصة خلال القسم الأخير من الرحلة ، كانت تهبط إلى المنخفض الرئيسى على مسافات متساوية من الأراضى المرتفعة على الضفة اليسرى ، ولذلك فقد أطلق الناس هنا على تلك الشعاب اسم الشوقيًات Shuqaiyat[8] . وفيما عدا تلك الشعاب ، فإن التضاريس الوحيدة والسمات المميزة التى التقينا بها فى مسيرة ذلك اليوم كانت عبارة عن بروز منخفض طويل على الضفة اليمنى ، يطلقون عليه اسم أبراق الحبارى Abraq al Hibari، وكذلك ربوة رملية صغيرة تعرف باسم هس وضابى Hiss Wadhabi ، فضلاً عن ربوة صغيرة بارزة من الصخر الأسود على ضفة الوادى

اليسرى ، والتى اشتق من لونها اسمها العبيد Al'ubaid الذى يعنى العبد الصغير أو الزنجى الصغير .

وإلى جوار تلك الربوة طالعتنا خيام سعود الصالح الصبحان الشهير بسوء سمعته ، والعبدة Abda' الموالون له ، وهنا وجهت ذلولى صوب خيمة الرئيس السوداء الكبيرة أملاً فى أن أجده هناك ، وأفرض عليه نوعًا من أنواع التعارف ، سبق أن تحاشاه فى شهر نوفمبر السابق . ومع ذلك ، لم يصبنى الحظ ، إذ كان سعود الصالح قد عاد منذ فترة قصيرة إلى الكويت - مبلغ علمى أن ذلك كان من قبيل التزلف لشيخ الكويت كى يحصل منه على موافقة بتمرير المؤن إلى حائل - وكان أخوه الأصغر محمد يتوقع عودته بين الحين والآخر . ومعروف أن محمداً هذا كان صبيًا غير فطن ، من النوع الصامت ، وقد سبق لى أن التقيته فى البصرة ، وهو الآن يدعونى إلى تناول القهوة وسط جمع كبير من أفراد حاشيته والموالين له . ولم يكن عدد أولئك الموالين يزيد على السبعين رجلاً بأى حال من الأحوال ، وإذا ما أضفنا إليهم عدد الأتباع المرافقين لسعود الصالح الصبهان ، فإن إجمالى عدد أولئك الأتباع يصل إلى حوالى مائة من الرجال المسلحين . ولم يستنكف ضيدان أن يبرز لى ذلك الرقم ، وقد كان إبراز ذلك الرقم كافيًا لتوضيح التحلل الذى أصاب قوة سعود الصالح الصبهان ، منذ أن كان - أى منذ وقت قريب - أهم شيوخ الشمَّر الذين كانت تربطهم بالبريطانيين علاقات ودية . وقد لعب بيت الصبهان دورًا مهمًا ومشرفًا فى تاريخ حائل العاصف ، فى الفترة ما بين عام ١٩٠٦ الميلادى ، عندما دخل الأمير الحاكم عبد العزيز بن الرشيد فى معركة ضد القوات الوهابية فى القصيم[٩] ، وعام ١٩٠٨ الميلادى ، عندما توجت الاغتيالات الملكية بقتل مغتصب الحكم بواسطة حمود الصبهان[١٠] ، واستعادة الإمارة إلى الحاكم الحالى ، سعود بن الرشيد ، ولد المرحوم عبد العزيز الذى يبلغ من العمر عشر سنوات ، والطفل الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من ذلك النسب الشرعى[١١] . وتولى حمود منصب الوصى على العرش ومستشار الحاكم الصغير ، وبعد وفاته فى العام التالى تولى ذلك المنصب عضو آخر من الأسرة اسمه الزامل Zamil ، ولكن توجيهات

ذلك الزامل الحكيمة لشئون الإمارة انتهت باغتياله فى عام ١٩١٤ الميلادى ، وسعود الصالح الصبهان ، الشيخ الذى أنا فى خيمته الآن ، كان واحداً من أولئك الذين ورطوا قوة الشمر وأدخلوها فى عداء مع بريطانيا ، وقد تخلى عن قوة الشمر وعاد إلينا لمآربه الخاصة فى نهاية عام ١٩١٦ الميلادى . وقد سبق أن تكلمت عن خدماته التى قدمها للحلفاء ، ولكن مما يؤسفنى حقًا أننى لم تتح لى فرصة الالتقاء به مطلقًا . وهذه الفرصة لا يمكن أن تتكرر ، والسبب فى ذلك أننى بعد أن غادرت الجزيرة العربية امتدت إليه يد الاغتيال أو يد العدو وأجهزت عليه ، ولم يذكر اسمه إلا بوصفه خائنا للجانبين اللذين لم يخلص فى خدمتهما .

كانت تلك الزيارة لمخيم سعود الصالح الصبهان يوماً حافلاً بالاهتمام الإنسانى . فمع مطلع اليوم شاهدنا عباءة سوداء منشورة فى الوادى فوق مجموعة من نباتات الرمض Rimdh ، وشرح لى رفاقى أن تلك كانت طريقة البدو فى الدلالة على أى موقع من مواقع المخيمات . والبدو عندما يأتون على المراعى المحيطة بهم يوفدون الخيالة بحثًا عن مكان آخر مناسب ، يكون قد تم حجزه بالطريقة نفسها ، وهنا يجرى إعطاء إشارة الانتقال إلى الموقع الجديد . وفى تلك المناسبة أسعدنا أن نرى فخذ الأفنان Afnan[١٢] من قبيلة ظافر وهو يتحرك برمته نحو أسفل الوادى فى موكب مهيب لمئات ، بل ، آلاف من الإبل ، القسم الأكبر منها من الحيوانات المدرارة ، والمواشى صغيرة السن التى تمثل الثروة المادية لذلك الفخذ ، فى الوقت الذى كان فيه عدد من الرجال ينتشرون هنا وهناك يتولون توجيه المسيرة التى كانت تتمركز حول طابور طويل من حيوانات نقل الأمتعة التى كانت تحمل النساء والأطفال ومستلزمات المخيم . كان ركب درويش بن ريضان Darwish ibn Ridan ، شيخ الفخذ ، والذى اشتهر بكنية راعى البويط ، أو إن شئت فقل : "صاحب الخيمة الصغيرة" ، التى عجز المرافقون لى عن تفسيرها ، رغم افتراضهم أن تلك الكنية ربما كانت اسمًا مصغراً كان يطلق على أسلاف حامل اللقب الحالى فى الوقت الذى كانوا يفرضونه على قبيلة ظافر بكاملها ، وكان ركب ذلك الشيخ يسير قريبًا من المقدمة . وثمة شخصية مهمة أخرى بارزة كانت ضمن تلك

الجماعة هى عجيمى Ajaimi' بن شُهَيْل Shuhail ، ابن عم حمود Hamud بن نايف بن سويط Suwait ، من الجيل السابق ، والذى انضم مؤخراً إلى الأفنان Afnan ، لسبب من الأسباب ، يغلب عليه أن يكون سبباً عائلياً . ولكن الملمح المميز فى ذلك الموكب كان يتمثل فى السلال غير الطبيعية التى كانت تركب فيها قرينات الشيوخ هن وأطفالهن . كانت تلك السلال تنقسم إلى قسمين : القن ، أو إن شئت فقل ذلك السَّبت غير المزين الذى يشبه الهودة Howdah، والمخصص للخادمات ، والنسوة الأقل مقاماً . ثم السَّبت غير العادى الذى يقولون له الكتاب Kitab(١٢)، وهو مخصص للزوجات المهمات ، وهو بمثابة عربة هزازة موضوعة فوق سنام الجمل ، لها هلال خشبى فى مقدمتها ، وهلال خشبى آخر فى المؤخرة ، وتبرز من هذين الهلالين قرون تمتد لمسافة أقدام عدة على الجانبين ، وتتدلى منها "شراريب" صارخة الألوان تكاد تلامس الأرض . ومبلغ علمى أن تصميم تلك العربات كان من قبيل الزينة ليس إلا ، وأن تلك الأجزاء الزينية لم يكن الهدف منها سوى زيادة آلام تلك الدواب التى كانت تحملها وأن هذين القسمين من السلال كانا يبدوان للوهلة الأولى غير مريحين لمن يركبون فيهما .

كان القسم الأكبر من الجماعة المرافقة لى من عناصر حضرية أو شبه حضرية ، وبالتالى لم تكن جماعة شيقة تماماً ، ولكن تحفظ (الحضر) عندما يكونون بين صحبة غريبة بدأ يذوب ، وانتهى نصب ذلك اليوم باستعراض لتقليد الأصوات ، كان غاية فى الجمال ، وقام به واحد من أفراد جماعتى . وبينما كنت أركب راحلتى فى المقدمة استرعت انتباهى نبرات صوت نسائى عالى الحدة ينبعث من الخلف يعبر عن الشكوى والأنين ، وعندما استدرت إلى الخلف لمعرفة ما يدور ، تبينت أن واحداً من خدمنا كان يقلد الكلام المعتاد لعرق غريب ، أو إن شئت فقل قبيلة غريبة ، قال إنها تسكن المنطقة التى وراء الشام (سوريا على وجه التقريب) ، كما قال أيضاً : إن تلك القبيلة تعرف باسم السُّكون Sukun أو بنى يخلب Yakhlib . وارتبك ذلك الرجل عندما وجدنى بين الضاحكين ، ولكنى عندما طلبت منه الاستمرار فى التقليد والمحاكاة ، راح يفعل ذلك بتلذذ واستمتاع ، ولكنى بعد محاولات كثيرة ، لم أتمكن من الحصول منه أو من غيره

على المزيد من المعلومات حول موضوع التقليد هذا ، سوى أن تلك كانت طريقة كلام أهل تلك القبيلة ، وأن طريقة الكلام تلك ، كانت شكلاً مبتذلاً من أشكال الكلام العربى ، يطلقون عليه اسم السِكنى Sikni ، وأن كل أفراد تلك القبيلة ، سواء كانوا رجالاً أو نساءً لا يرتدون من الملابس شيئًا سوى إزار يشد على الخصر لستر العورة . كانت المحاكاة (التقليد) تبدو صادقة ولكنى لست على استعداد للقول بأن ذلك الرجل لم يكن يحاول استدراجنا ، أو بإنه لم يخدع ، هو نفسه ، عندما بدأ يصدر صوتًا حاد النبرات يشبه أصوات المخصيين ، ويقول إنه صوت قبيلة من القبائل . وهنا تذكرت أن المرحوم الكابتن و . هـ . سى . شكسبير كان قد سجل ، نقلاً عن السماع ووجود فرع بدائى ، فى جبل رضوة Radwa وجبال الحجاز المجاورة له ، من قبيلة عتيبة التى لا يستعمل رجالها أو نساؤها الملابس إلا بعد الزواج ، ومع ذلك فقد فشلت كل تساؤلاتى عندما حاولت الربط بين أولئك وبين الصوت حاد النبرات الذى يقولون له : السُكون .

كنا ننوى التخييم لقضاء الليل بجوار برك مياه الرِّقاى Riqai التى تقع على حافة ضفة وادى الباطن اليمنى ، ولكن تأخرنا فى مخيم عبدة Abda' حال بيننا وبين ماكنا ننتويه ، إذ داهمنا الليل والظلام ، بعد أن قطعنا حوالى ثلاثين ميلاً فى أثناء النهار ، وكنا لا نزال فى منطقة الشوقيات ، أى بعيدين عن هدفنا إلى حد ما . وخيمنا فى ذلك المكان ، ونحن نعزى أنفسنا بإن إبلنا ، فى هذا الفصل من العام ، لا يمكن أن تكون بحاجة ماسة إلى الماء ، فى الوقت الذى كان لدينا منه ما يكفى للشرب وطبخ الأرز ، كان أرنب برى صغير ، هو الضحية الوحيدة التى أسفرت عنها المطاردات الكثيرة ، إذ كنا قد شاهدنا كثيراً من الأرانب البرية وكثيراً من الحبارى صغيرة الحجم فى أثناء النهار .

كان الليل صافيًا وباردًا ، وسجل مقياس درجة الحرارة ٤٥ درجة فهرنهتية عند الساعة الخامسة من صبيحة اليوم التالى ، عندما استيقظنا للقيام بأطول وأبشع مسير أقدمنا عليه منذ أن غادرنا الزبير . فى البداية كان سطح الوادى لا يزال يحتفظ بطبيعته الوعرة التى تنطبع به منطقة الشوقيات ، التى تحيط بها سلاسل جبال الخارجة Kharja[١٤] والضاريات Adhariyat ، من ناحية اليمين ومن ناحية اليسار كل على

حدة ، ولكن فيما بعد ذلك ، وإلى مسافة أميال قليلة من أبيار حفار Hafar، كان المنظر عبارة عن أرض جرداء وغير مأهولة ، ولا تعدو أن تكون منخفضًا واسعًا من الصلصال تتخلله بقع من الحشائش النحيفة ، ويعزله عن الصحراء في الناحية الشمالية سلسلة جبال الضرابين Dharabin المكسرة(١٥) . ومع ذلك ، فقد كنا نقترب من ذلك الذي يمكن القول عنه إنه كان من قبل جزءًا منزوعًا من الوادي ، وسبب ذلك أننا صادفنا عند نهاية الطرف العلوي لسلسة الجبال ، عددًا كبيرًا من بقايا بعض الأبيار المتصلة بمجموعة من الخزانات عن طريق قنيات مبطنة بالأحجار . والمنظومة كلها ، هي والبقية الباقية من بعض المباني القديمة ، كانت كلها مخربة ومهدمة ويغطيها التراب والحطام ، ولابد من أن يكون أهل تلك المنظومة قد هجروها منذ عشرات السنين ؛ إذ ليس هناك أي أثر يدل على ماضي تلك المنظومة ، بل إنها ليس لها اسم نطلقه عليها ، رغم أنها شيدت ، وبلا أدنى شك ، في الوقت نفسه الذي بني فيه ذلك البيت الريفي الكبير ، أو إن شئت فقل القلعة التي يطلقون عليها اسم قصر البلاَّل ، الذي لا تعدو بقاياه أن تكون مجرد كومة من الزبالة ، لا يمكن أن يميز منها سوى الإطار الخارجي ، الذي وقفنا ننظر إليه على بعد مسافة تسعة أو عشرة أميال في اتجاه أعلى الوادي . ويقال عن تلك القلعة الصغيرة إن الذي بناها كان بلاَّلاً Ballal ، أو إن شئت فقل عبدًا من عبيد الرئيس الذي حفر أبيار الحفر في الماضي السحيق والأرجح أنه بنى تلك القلعة لتكون موقعًا متقدمًا للدفاع عن تلك الأبيار من الغزاة القادمين من ناحية الشمال .

ومن خلف تلك القلعة استأنف الوادي شيئًا من طبيعته الوعرة المتموجة التي تنطبع بها منطقة الشوقيات ، فضلاً عن أن الأرض المعشوشبة المرتفعة كانت تتخللها قطعان ماشية وأغنام لأتباع ضاري بن طوالة نفسه ، الذي عرفنا ممن مروا بنا أن مخيمه موجود على بعد مسافة بعيدة في أعلى الوادي . وأسرعنا الخطى تصميمًا منا على الوصول إلى ما نريد قبل حلول الليل مهما كلفنا ذلك ، ولكننا لم نر الخيمة الكبيرة إلا بعد أن اقتربت الشمس تمامًا من خط الأفق ، تلك الخيمة التي قال عنها ضيدان إنها مضيف سيده ، أو إن شئت فقل صيوان الضيوف والزوار .

على الرغم من توسلات ضيدان لنا بالسماح له أن يسبقنا ليعلن قدومنا ، فقد أصررت على وصولنا بلا إعلان وعلى ألا نترك لمضيفنا المطمئن فرصة الاستعداد لاستقبالي. ومع ذلك فإن النبيل العربي معتاد دائمًا على استقبال الضيوف الذين يصلون فجأة أو بدون توقع ، وهو يكون مستعداً دومًا بتحية الصحراء البسيطة ، التي بوسع الأغنياء والفقراء تقديمها ، هي أنه يهيج أو يضطرب أو يعبر عن مفاجأته بوصول أي طرف من الأطراف سواء أكان أميراً أم خفيراً . ووصولي بلا إعلان مكنني من التهرب من استقبالي استقبالاً رسميًا من قبل مضيفي هو وأتباعه وهم يركبون خيولهم وبكامل مظهر الاستعداد للحرب ، ولكن الحقيقة التي مفادها أنني استطعت النزول من على صهوة حصاني عند أعتاب خيمة ضاري مثلما يحدث لأي عربي ، وأنني استطعت دخول الخيمة وعلى لساني التحية العربية الشائعة ، قبل أن يعرف ضاري هوية زائره الحقيقية . كل هذه الأشياء عوضتني عن استقبالي استقبالاً رسميًا . ووسط عرق يتمتع بمعايير الكياسة والأدب العالية - والشمَّر في هذا الصدد لا يسبقهم سوى العنزة النبلاء - أجد أن ضاري من بين طواله يتصدر ، من واقع تجربتي ، الصف الأمامي ، على الرغم من أنني من خلال تعاملاتي معه فيما بعد ، اكتشفت أنه فياض ومسرف في التعبير عن مشاعره إلى حد التزلف والتذلل في المداهنة . كان المشهد في تلك المناسبة مؤثراً على النحو الذي تمنيته ، إذ وقف ضاري من مقعده في ركن من أركان الخيمة ، كما وقف أيضًا ، في الوقت نفسه ، كل الجمع المكون من أصدقائه وأتباعه لتحية القادم الغريب . وعندما أجلسوني إلى جواره في مقعد الشرف ، وبعد أن قدموني إلى رئيس أولئك الجالسين ، تمكنت من النظر حولي في الوقت الذي كان يجري فيه صب القهوة وتقديم لبن النياق المحلي . كان قماش الخيمة الكبيرة أسود اللون يعطي مساحة كبيرة مقسمة إلى قسمين عن طريق ستارة من الصوف ، ذلك هو القسم الذي نجلس فيه ، والذي ضم جمعًا من الناس يقترب من المائتين ، ثم هناك القسم الخاص بالنساء اللاتي كن يتجمعن خلف ذلك الحاجز ، وهن تهمسن منفعلات ، وتأملن بلا أدنى شك في النظر ولو نظرة خاطفة إلى ذلك الزائر غير العادي . وعليه جلسنا نسمر إلى أن وصلت أمتعتنا ، ونصبوا خيمتي . وهنا سمحوا لي بالقيام

والاغتسال والراحة إلى أن يجهز الغداء ، وياله من غذاء عندما جاء . ومن مصلحتي أن الغداء قدم في المنطقة الخالية المجاورة لخيمتي ، كما أن ضاري نفسه انضم إلينا في تناول ذلك الغذاء ، أطباق كبيرة من الأرز عليها لحم ضأن ممتاز عوَّض رفاقي عن النقص الذي تحملناه في أثناء المسير ، كما عوضهم أيضًا عن الوجبات التي ستخلو من اللحم والتي سوف تفرض عليهم عند عودتهم ؛ إذ إنهم بعد أن حققوا المهمة التي عهد بها إليهم الشيخ إبراهيم ، كان لابد من عودتهم إلى بلادهم مع صبيحة اليوم التالي . وبعد أن تناولنا غداءً مشبعًا استأذنا ، في ساعة مبكرة ، طلبًا للراحة بعد مسير استمر قرابة الأربعين ميلاً في أثناء النهار .

كانت مسيرتنا عند تلك النقطة لا تزال تبعد حوالي ثمانية أميال عن أبيار الحفار ، قد قاربت على المائة وخمسين ميلاً بدءًا من الزبير ، وهنا قررت أن أقضي اليوم التالي ، الموافق للثالث من أبريل - المصادف ليوم مولدي - واليوم الذي يليه في التسكع بين خيام الشمر ؛ والسبب في ذلك أنني كان لدي كثير من الأعمال مع ضاري ، فضلاً عن الحسابات التي كان ينبغي على أن أسويها ، وكذلك الخطط التي يجب رسمها للمستقبل ، وأخيرًا وليس بآخر ، تعلم الكثير عن نزعات ومواقف القبائل التي كانت تحتل ذلك القسم من الصحراء . كانت خيمتي قد نصبت على بعد مسافة حوالي مائة ياردة من المضيف الكبير ، وجنبًا إلى جنب مع الخيمة البيضاء الكبيرة ، التي كانت السلطات البريطانية في العراق قد أهدتها إلى ضاري ، وكانت تلك الخيمة تستعمل مكتبًا للشيخ ، ومسكنًا مؤقتًا لسكرتيره الذي يدعى ملاً عبد الله Mulla Abdullah' ، أحد مواطني الموصل ، والذي سبق أن زار مصر ، كما ذهب إلى حائل مؤخرًا ، وكان قد دخل في خدمة ضاري منذ أشهر قلائل . والملاً عبد الله هذا ، لم يكن سكرتيرًا ماهرًا تمامًا ، أو حتى شخصية تسر الخاطر وتحظى بالقبول ، ولكني وجدته لا ضرر منه بشكل عام ، بل وجدت فيه في أغلب الأحيان وسيطًا مفيدًا ونافعًا بيني وبين سيده ، بل إننا عقدنا في خيمته كثيرًا من الاجتماعات ذات الطابع الحساس الذي يحول بينها وبين عقدها على الملأ وعلى مرأى ومسمع من الجميع .

كنت قد أصدرت فى آخر اجتماع بينى وبين ضارى فى شهر نوفمبر الماضى تعليمات تقضى بأن يقوم ضارى بتجميع أكبر حشد ممكن من الناس ، مستخدماً فى ذلك الأموال التى كانت موضوعة تحت تصرفه ، وأن يتولى القيام بدوره فى المنطقة المجاورة للحفار Al Hafar ، مستهدفاً بذلك قطع طريق مرور تجارة المهربات فيما بين الكويت – أضعف نقاط كردون الحصار البريطانى – وعناصر الشمَّر المعادية المتمركزة فى حائل من ناحية ، ومخيم عجيمى بن سعدون المتنقل . كان ضارى قد قام بالترتيبات الضرورية ، ونجح بلا أدنى شك فى تجميع عدد كبير من الأتباع والموالين الذين انخرطوا تحت رايته ، وهذا هو ما يشهد به تباين وأهمية الفخوذ والشيوخ الذين كانوا يخيمون حوله ، ولكنه خيب آمالى بعجزه عن تقديم المزيد من الدلائل القوية التى تؤيد نشاطاته وتدعمها أكثر من العبارات التى كان يقول من خلالها : إنه استولى على عدد من القوافل التى حاولت الإفلات من يقظته وانتباهه ، وإن تجارة المهربات اضطرت إلى أن تسلك طريق القصيم عبر أراضى ابن سعود . والعربى شخصية مراوغة يصعب التعامل معها عندما يتعلق الأمر بإسناد مهمة إليه لا يكون هو راضياً عنها ، ولكنى من خلال حديثى مع ضارى أوضحت له أننى إذا كنت على استعداد للتغاضى عن الماضى ونسيانه ، وإذا كنت على استعداد لأن أدفع له بشروط اتفاق الأشهر الماضية نفسها ، فإننى أتطلع إلى أن يحصل على أقساط إعانته المستقبلية نظير عمل مفعم بالحيوية والنشاط . وهو من ناحيته كان كثير الوعود فيما يتعلق بالمستقبل ، ولكننا سوف نرى فيما بعد أن ذلك الرجل أثبت أنه بوصة مهشمة ولا نفع منها .

كان التفاف العشائر حول الحفار Al Hafar فى ذلك الوقت يتكون من تشكيلة من العناصر المتباينة ، أهمها عشيرة ضارى نفسه ، وفخذ السلام من الشمَّر ، الذى يضم كلا من القسم الفرعى Subsection الأول من الطوالة Tuwala بقيادة ولدعمه سطام بن عجيل Satam ibn 'Ajil ، وبعضاً من عشيرة مسعود وعشيرة عايش من التومان Tu-man بقيادة جميِّل Jumail بن رضيمى Rudhaimi ، وكذلك القسم الفرعى من الفيد Faid بقيادة فهيد بن حيفان . كما كان ذلك التجمع يشتمل أيضاً على القسم الفرعى من الزميِّل Zumial من شمَّر السنجارة Sinjara بقيادة فهد بن ثنيان Thunaian ، الذى

كان يعاونه أربعة من الشيوخ[١٦] الأقل منه . وأخيراً فخذ الدهامشة Dahamsha من العنزة Anaza' ، أو بالأحرى جزء كبير منها بقيادة شيخها العتيد محمد بن مجلاد ، الذى أحضر معه ولده الصغير كيدة Kida كى يرانى . وذاع على الفور نبأ قدومى ، وسعدت باجتماعى إلى كل أولئك الشيوخ الذين أتيت على ذكرهم ، والذين حضروا لمقابلتى وبالتالى تسلم الهدايا النقدية كلا طبقًا لأهميته ، باعتبار ذلك إشارة إلى حسن نية الحكومة البريطانية . ونظراً لأن هؤلاء البشر كانوا منتشرين ، مثل مخيماتهم ، فوق مساحة واسعة جداً ، كان من المستحيل علىَّ أن أكوِّن فكرة عامة عن القوة البشرية التى كانت تحت إمرة ضارى ، ولكنى قدرت تقديراً مفاده أن ذلك الرجل يرجح له أن يعتمد على خدمات عدد من الرجال يتراوح بين ٦٠٠ أو ٧٠٠ رجل . كان ضارى قد تلقى هدية من السلاح تقدر بحوالى ٣٠٠ بندقية من سلطات الرافدين ، قبل عام تقريباً ، ولكنى لم أستطع تشجيعه أو العمل على تلبية طلبه لحوالى ٧٠٠ بندقية أخرى ، على الرغم من أنى أوحيت إليه باعتقاد مفاده أنه قد يحصل على كل ما يعن له لو أنه قدم لنا إنجازات كبيرة فى الاتجاه الذى نوده ونبتغيه . ولم يضع ضارى - شأنه شأن العرب كلهم - وقتًا فى طلب كل ما يريد ، والطريقة المثلى للحصول منه هو والآخرين ، تكون بإبراز طعم جذاب أمام أعينهم على ألا ينالوه أو يصلوا إليه إلا بالعمل .

وبينما كان ضارى فى الحفار Al Hafar يضطلع بمسئولية فرض الحصار الاقتصادى على العدو ، ورد تقرير يفيد أن ابن سعود كان موجوداً فى منطقة أبيار حفر العطس al Ats أو إن شئت فقل : فى شَوْكى Shauki ، التى ذهب إليها هو ومجموعة كبيرة من أتباعه والموالين له ، للقيام بالتدريب السنوى الذى يجرى فى فصل الربيع ، والذى تعشمنا فى تلك المناسبة ، أن يكون ذلك التدريب مقدمة للقيام بهجوم عنيف على جبل شمَّر ؛ ومع ذلك ، ترددت شائعة مفادها ، أن ابن سعود نفسه كان قد ذهب إلى الأحساء ، التى كان يتوقع لى أن أعود منها ، وأنه ترك وراءه قوته الرئيسية تحت قيادة ولده الشجاع تركى .

واكتمل خط الحلفاء من ناحية الشمال بفعل فخذ عمارات Amarat' من قبيلة عنزة ، بقيادة شيخها فهد بن هذَّال Hadhdhal ، الذى كان لا يزال نشيطًا رغم كبر سنه ،

والذى أسعدنى أن ألتقى معه قبل عدة أشهر فى أثناء زيارته لبغداد ، عندما أطلعناه لأول مرة على شيء من استعداداتنا العسكرية البرية والجوية والبحرية ، التى أدهشته وجعلته يشعر بالقلق وعدم الارتياح ، وبخاصة عندما أدرك فجأة أنه كان يشرب القهوة تحت مدفع ضخم من المدافع التى تحملها اللنشات المسلحة ، ومبلغ علمى أن ذلك اللنش كان اسمه مانتس Mantis . وورد تقرير يفيد أن هذّال كان فى منطقة لاساف Lasaf ، فى ذلك الوقت ، أى على بعد حوالى سبعين ميلاً جنوب غربى النجف Najaf بصحبة العقيد ليشمان Leachman ، يراقبان تحركات العجيمى المريبة ، الذى ورد تقرير عنه يفيد أنه كان فى القيصومة Qaisuma ومعه مجموعة من أتباعه من دهامشة العنزة بقيادة محمد بن تركى(١٧) ، وقسم فرعى من الشلقان Shilqan من سناجرة الشمّر بقيادة أباقيل Abaqil بن فالح . ربما كان العجيمى أعظم ، بل العبقرية العسكرية الوحيدة التى أنجبتها الجزيرة العربية فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فضلاً عن أن صفاته تستحق الثناء والإطراء . على الرغم من عداء ذلك العجيمى لنا فإننا لا يمكن أن ننكر إعجابنا بطريقة دفاعه عن قضية خاسرة بالفعل أو بسبيلها إلى الضياع والخسران ، إذ استطاع ذلك الرجل أن يتماسك تماماً طوال سنوات الحرب فى الصحراء فى منطقة ما وراء نهر الفرات ، ليكون دوماً شوكة فى جانبنا ، وعاملاً لابد من أخذه بعين اعتبارنا وأن نعمل له ألف حساب وحساب . والمؤسف أن الأتراك هم وحلفاؤهم لم يكن لديهم لورنس Lawrence أخر حتى يستطيع إدارة عمليات ذلك الرجل ، ومن حسن حظنا نحن البريطانيين ، أن الأتراك كانوا ينتظرون منه أن يبذل دوماً قصارى جهده بمساعدات السلاح الصغيرة التى كانوا يقدمونها له ، والمبالغ الصغيرة أيضاً التى كانوا يضعونها تحت تصرفه ، وذلك بدلاً من تشجيعهم له وتمكينهم له من شن عملياته العسكرية على نطاق خيالى ، وذلك عن طريق إغراقه بالمواد الضرورية وإغداقها عليه . وفى الوقت الذى أتكلم عنه الآن - وهنا لابد من اعترافى بالحلم المجنون ، الذى يرمى إلى إقناع ضارى بالقيام بإغارة خاطفة فى اتجاه القيصومة - كان العجيمى مزوداً تزويداً جيداً بالمدفعية والأسلحة الصغيرة بشكل يصعب معه مهاجمته دون الاستعداد لذلك ، يضاف إلى ذلك أن أمل الهجوم عليه هجوماً مباغتاً

ومفاجئنا كنا قد اسقطناه من حسابنا ، نظراً لأن العجيمي كانت لديه منظومة استخبارات ممتازة ومنظمة تنظيمًا جيدًا وتغطي منطقة صحراء الفرات كلها . وهذا غيض مما قاله ضاري عندما كنت أناقش ذلك الموضوع معه ، وليس لدى شك مطلقًا في صحة ما قال .

وفي أقصى الغرب من ناحية حائل وأبيار لينة Lina ، أي على مسافة ١١٠ أميال في اتجاه الشمال الغربي من الحفار Al Hafar كانت هناك عناصر معادية من عبدة Abda،[١٨] تقوم نيابة عن العجيمي باحتلال تلك المنطقة ، وكانت تشاركها في ذلك الاحتلال فخوذ من التُّمن Tuman ، في الوقت الذي كان يتولى فيه ابن خمسان السنجاري أمر موقع ابن الرشيد المتقدم في الحيّانية Haiyaniyya . في ذلك الوقت كان ابن الرشيد لا يزال في جانب الأتراك في منطقة الحجر Al Hajr أو إن شئت فقل مدائن صالح ، على طريق سكك حديد الحجاز ، ولكن نقلاً عن المعلومات التي وردت من ضاري ، في رسالة وصلت منه مؤخراً ، تقول إن ابن الرشيد يتعجل العودة إلى عاصمته ، التي كانت تتمركز فيها القوات العربية ، التي كان بوسعها أيضًا الاعتماد على مساعدة الشمَّر المحليين لها ، وبخاصة أن قوات الشمر تلك كانت تقدر بحوالي ٤٠٠٠ رجل ، كانوا جميعًا مسلحين ببنادق تركية ، ناهيك عن أربعة أو خمسة مدافع وقليلٍ من مدافع الماكينة . وخيل لنا أن الأتراك كانوا يحتجزون الرئيس نفسه في الحجر ، أو إن شئت فقل مدائن صالح ، باعتبار أن ذلك كان الوسيلة الوحيدة لتأمين النقل باستعمال الإبل ، الذي كان الأتراك بحاجة ماسة إليه ، والذي من أجله أرسلت الرسالة سالفة الذكر .

كانت غفيلة Ghufaila أحد فروع الشمَّر ، وبقيادة غضبان Ghadhban من ريمال Rimal[١٩] تسيطر على الحدود النوبية لجبل شمَّر على حين كانت المنطقة الواقعة بين الثماميTamami[٢٠] بالقرب من حافة الدهناء عند رأس وادي الباطن وعين ابن فُهيد Fuhaidعلى حدود القصيم ، تحتلها أقسام متباينة من قبيلة حربHarb[٢١] العظيمة ، التي تنقسم في ولائها بين الشريف حسين وابن سعود ، وذلك من منطلق - كما هو

واضح حاليًا – وجودها فى أرض هذا أو ذاك ، إذ إن منطقة القبائل تمتد من الدهناء إلى المدينة . وأخيرًا ، يجىء المطير ، الذين كانوا يقدرون بألف رجل من الأشداء ، الذين حققت حركة الإخوان(*) بينهم تقدمًا كبيرًا . كان أولئك المطير يتمركزون فى المستوطنة التى تأسست حديثًا فى الأرطاوية ، ويمتدون منها شرقًا عبر الصحراء فى اتجاه الكويت .

كانت الخلافات التى أدت إلى توتر العلاقات بين الشريف حسين وابن سعود فى تلك الفترة عبارة عن كلام عام كان يتردد فى الصحراء ، يضاف إلى ذلك أن الشيوخ المستقلين الموالين لضارى كانوا يظهرون أمام كل جانب من الجانبين بمظهر الصداقة والولاء من وراء ظهر الجانب الآخر ، وكانوا يلاقون مشقة كبيرة من أجل الحفاظ على ذلك المظهر . ومن المؤكد أن ضارى كان يحاول الحصول على نصيب من المبالغ الكبيرة التى كان الملك حسين يتلقاها ، ولكن ضارى أبلغنى بصراحة أن الشريف حسين على الرغم من سلالته العريقة والمحترمة ، فإن الولاء الذى يتمتع به فى الجزيرة العربية يرجع إلى المساندة البريطانية ، وليس إلى شخص الملك أو سلالته النسبية ، كما اعترف لى ضارى أيضًا ، فى الوقت ذاته ، أنه يعترف بأن يكون ابن سعود حاكمًا على وسط الجزيرة العربية كله ، ولم يكن ذلك خاليًا من تحفظ فكرى أو ذهنى لصالحه هو ، إذا ما استطاع وعلى وجه السرعة تحقيق هدفه الطموح فى الجلوس على عرش ابن الرشيد .

ومسألة نزولى ضيفًا مكرمًا على مخيم ضارى لم تكن عملاً بلا أجر أو مقابل ، والسبب فى ذلك أن مُضيفى – والذى لاحظت أنه يأكل دومًا بيده اليسرى وأنه فقد استعمال يده اليمنى بسبب جرح نتج عن إحدى الطلقات فى ساعد زراعه الأيمن ، وأن السلطات الطبية البريطانية فى البصرة قامت بعلاج ذلك الجرح ، وركبت له ساعداً

(*) للمزيد عن حركة الإخوان راجع كتاب "الإخوان السعوديون" ، ترجمة الدكتور / صبرى محمد حسن ونشر دار المريخ بالرياض ، المملكة العربية السعودية . (المترجم)

صناعيًا بدلاً من ذلك الساعد المبتور - كان يصر على أن يقدم لى أطيب قطع اللحم الموجودة فى الطبق مستخدمًا فى ذلك أصابعه ، كما كان يصر أيضًا على أن يقدم لى بنفسه كل فنجال يقدم إلىَّ من فناجيل القهوة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من مداهناته الزائدة عن الحد ، فقد وجدت فيه رفيقًا لطيفًا تمامًا ، لا يتوفر لديه ذلك القدر من الذكاء الذى كانت تنم عنه قسماته وملامحه . ومن بين مرءوسى ضارى أحسب أن فهد بن ثنيان بلغ من الغباء والبلاهة حدًا لا يستحق معه أن يكون من بين رجال ضارى ، أو منصب الرجل الثانى الذى ظهر أنه يشغله ، فى الوقت الذى شد فيه محمد بن مجلاد انتباهى لأنه كان يشعر بقليل من الخجل من نفسه لأنه سمح لمطايب وملذات حياة ضارى أن تغويه وتضله عن الولاء الطبيعى الذى كان يكنه للعجيمى .

كان اليوم التالى لوصولى بالحقائب التى طال انتظارها يومًا حافلاً بالمشاغل فى المخيم ، كما كان ملاَّ Mulla عبد الله مشغولاً تمامًا فى تسوية ديون سيده المستحقة لأتباعه ومريديه ، الذين تم سداد مستحقاتهم نقداً وبمستلزمات الحياة أيضًا ، كما كان المخيم مشغولاً ايضًا بإعداد القوائم بالبضائع والمخزونات التى يتعين إرسالها من الزبير ومن الكويت . وقد أطلعونى من بين تلك القوائم على قائمة يطلبون فيها إرسال ١١٠ أرطال من الأرز و ١٠٧ أرطال من التمر ، فى الوقت الذى تأكد لى بما لايدع مجالاً لشك أنهم كانوا قد أرسلوا بالفعل فى طلب ٨٠٠ رطل أخرى من المواد الغذائية . وكان من الطبيعى أن يتظاهر ضارى بعظم المسئوليات المناطة به ، كما حدث لدىَّ انطباع بضخامة عدد أتباعه ومريريه ، ولكن الأمر لم يستغرق منى وقتًا طويلاً فى الوقوف على جشع أصدقائى الجدد وطمعهم ، والذين كانوا من هذه الناحية لا يختلفون عن نظرائهم فى أى مكان آخر . بل إن اثنين من الشيوخ الصغار بلغت الجرأة بهم حداً جعلهم - بعد أن حصلوا على هداياهم - يطلبون منى المزيد بطريقة غريبة ، وكان السبب وراء طلب أولهما أنه تزوج امرأة جديدة ، أما الثانى فكان يعول والده . وبعد ذلك بوقت قصير جداً حضر إلىَّ قهوجى ضارى ليقول له : إنه يأمل ألا أكون قد نسيته أو نسيت قهوته الممتازة ؛ ولم يصل أى من أولئك إلى مكان يرنو إليه ، ولكن صبيًا صغيراً عاريًا ظهر أمام باب خيمتى بدون تكلف ولم يقل سوى كلمة واحدة هى "دراهم" (٢٢)

مع تحية من نوع آخر ، انصرف لحال سبيله سعيداً بعد أن أعطيته دولارين ، في حين كان ضعف ذلك المبلغ نصيب ذلك الصبي الذي أصر على أن أرعى سموقة[٢٣] جريحة ، وكشر تماماً عن أنيابه عندما قلت له : إن كل ما يريده هو النقود .

وعلى ذلك النحو سار مقامي في مخيم ضاري ، الذي صحا عن آخره عندما أيقظوني بين الساعة الرابعة والخامسة صباحاً في اليوم الخامس من شهر أبريل كي أستعد لمواصلة رحلتي . وكان قد تقرر أن يرافقني في تلك الرحلة كل من ضاري وحشد كبير من أتباعه إلى مخيم ابن سعود ، تحسباً لاحتياج الخطط التي رسمناها إلى مزيد من المناقشة ، وتقرر أيضاً أن تنتقل بقية المخيم إلى مرعى جديد في مكان يقع على مسافة حوالي عشرة أميال في اتجاه الجنوب . وبينما كنت أنتظر استعداد الآخرين للرحيل ، وجدت متعة كبيرة في مراقبة طي الخيام السوداء الكبيرة ولفها وتحميلها هي والأثاث المنزلي الآخر . وهذه المهمة موكلة بكاملها للنساء ، اللاتي بدأن العمل بهمة ونشاط وسط موسيقى مختلفة من زمجرة الجمال ، وأنينها ، وثغاء الغنم ، في الوقت الذي تجمع فيه أزواجهن حول نار المخيم لتناول القهوة ، ومناقشة الأهداف المستقبلية .

وفي النهاية أصبح كل شيء جاهزاً ، ثم صدرت إشارة بدء التحرك ، وركبنا دوابنا ويممنا المسير صوب الجنوب الغربي بطول منحدر ضفة الوادي اليمنى الوعرة . الواقع أن رَكْبَنا كان يتكون من أكثر من ستين جملاً ، كما أن رفاقي في ذلك الموكب ، بخلاف أتباعي ، كان من بينهم ابن عمة سلطان بن طوالة ، وضيدان وحمدان ، اللذان رافقاني في مسيرة القدوم من الزبير ، إضافة إلى الملاَّ عبد الله الذي لا يفارق ضاري ، في الوقت الذي رافقنا فيه فهد بن ثنيان مسافة نصف ساعة ، في حين ركب معنا محمد بن مجلاد مستهدفاً بذلك مرافقتنا إلى مخيم ابن سعود ، ولكنه استأذن متابعيه بعد مسير دام قرابة الساعة ، متعللاً بتوعك صحي .

استغرق وصولنا إلى أبيار الحافر قرابة الساعتين ونصف الساعة ، وعندها توقفنا وقفة طويلة لنأخذ فيها ماءً يكفي بقية المسيرة . ويصل عدد تلك الأبيار إلى عشرة آبار أو قد يزيد على ذلك ، وتصل إلى أعماق كبيرة ؛ إذ يقول العرب إن عمق الآبار

يصل إلى حوالى خمس وثلاثين قامة . وتنتشر على شكل حوض دائرى واسع ، يشكل نقطة رئيسية فى منظومة صرف الأراضى المحيطة به ، والسبب فى ذلك أن قناة وادى الباطن تطبق عليها فى تلك النقطة . ومن الجانبين القناتان المهمتان اللتان تفترقان باسمىّ الفُلَيِّج Fulaiyij الشمالى[٢٤]، والفُلَيِّج Fulaiyij الجنوبى ، اللذين تنساب منهما مياه الأمطار التى لا تمصها الأراضى المرتفعة على الجانبين . وهذان الفليجان يلتصقان بالوادى حول الحوض على شكل دائرة من الصخور المنخفضة ، يتخللها مصبًّا هاتين القناتين اللتين على شكل دلتا كبيرة . وغدير الماء الرئيسى فى وادى الباطن يدخل الحوض من الناحية الجنوبية الغربية ، وينساب عبره فى اتجاه الشمال الشرقى على امتداد القناة التى سلكنا طريقها إلى هذه النقطة قادمين من المناطق المجاورة للزبير . هذا الحوض ، الذى يعد ، منذ أجيال ، ملجأ للبدو من كل الأصقاع - نظرًا لقلة المساقى Waterings وتباعدها - قفر وخال من الحياة النباتية اللهم باستثناء قشرة خفيفة من حشائش السمعة Sam'a ويقع صغيرة من نبات له زهرة أرجوانية اللون يشبه الزعتر يطلقون عليه اسم القيصوم[٢٥] ، كما تتخلل الحوض هنا جبال مخروطية ، تجمعت بفعل الزمن حول فوهات الأبيار ، وتتميز ثلاث من تلك الأبيار بأن مياهها أعذب المياه . وهذه الأبيار الثلاثة هى البئران الموجودتان فى الطرف الشمالى ، والبئر الموجود . فى أقصى الجنوب ، التى يطلقون عليها اسمًا خاصا هو البرزان . وكل بئر من تلك الآبار معلق عليها عمود من الخشب[٢٦] مائل على فتحة البئر ، ومعلق به بكرة خشبية بسيطة ومثبتة فى رأس ذلك العمود بمسمار من الحديد ، ويحيط به حوضان من الطين ، يسكب فيها الماء بعد سحبه من البئر ، ومن هذين الغديرين ، أو إن شئت فقل : الحوضين ، تسقى الدواب ويملأ الناس قرب الماء . تلك هى الثوابت الرئيسية فى البئر ، أما الدلاء والحبال اللازمة لسحب الماء فيتعين أن تكون لدى كل من يريد الاستفادة من ماء البئر . والحبل الذى يتصل به دلو من الجلد مفتوح بواسطة قطعتين متصلتين من الخشب ، يجرى إنزاله فى البئر ثم يجرى بعد ذلك سحبه من الماء بواسطة جمل يصعد وينزل مُنْحَدَرا انحدارًا مائلاً يمتد من فوهة البئر مسافة تساوى

عمق البئر . وجلب الماء من أبيار لها مثل هذا العمق يعد عملية مشهودة ، ولكنها عملية مضنية ، يقبلها العرب قبولاً فلسفيًا باعتبارها مؤسسة عريقة من مؤسسات حياتهم الرعوية .

أخيرًا أنهينا مسألة السقيا والماء وبدأنا نواصل مسيرنا في اتجاه أعالي منتصف الوادي عبر شعب صغير يقال له رجلات Rijilat الصبَّاع ، إلى أن وصلنا رقعة من الأرض عامرة بأدغال السِّدر تعرف باسم حليبة Hulaiba ، والتي كانت بمثابة آخر حدود تقدمنا في وادي الباطن ، إذ إننا عند هذه النقطة تجولنا فجأة ناحية الجنوب . وبعد أن عبرنا الغدير وتسلقنا ضفته اليمنى ، أصبحنا نقف على قمة تلك الضفة عند حافة أرض قفر صخرية واسعة يقال لها الدبدبة Dibdiba . وبعد أن استدرنا لنلقي نظرة أخيرة على وادي الباطن ، شاهدت مصب قناة فاو الشمالي Fau Shamali،(٢٧) عند التقائها بالوادي على بعد مسافة كبيرة في الاتجاه الجنوبي الغربي ، وتتبعت أثر مجرى قناة وادي الباطن إلى الخلف في الاتجاه الشمالي الشرقي عن طريق ذلك الحزام الضيق من النباتات شديدة الاخضرار التي تشكل تناقضًا غريبًا مع الأخضر الفاتح على المنحدرات الموجودة على الجانبين . ثم توجهنا صوب الجنوب ، وبدأ وادي الباطن يختفي من خلفنا مفتقدًا سماته المميزة في الصحراء .

٢- الدبدبة والصُّمَّان

الجزيرة العربية عامرة بالأماكن الجدباء ، وقد نثير الضغائن عندما نستثني الدبدبة ونبرزها لتكون مثالاً على ذلك الجدب ، ولكننا ونحن نتجاوز التموجات الرملية اللطيفة الهينة التي تعتبر علامة مميزة لالتقاء الدبدبة مع وادي الباطن ، إلى تلك المنطقة الشاسعة الجرداء والجافة من الصخور والزلط ، والتي تتخللها هنا وهناك بقع من الحشائش المتناثرة والأدغال المنخفضة ، بدا الأمر لي وكأنني لم أشاهد شيئًا كريهًا مثل ذلك من قبل . ولابد أن من كانوا يرافقونني قد اعتراهم شيء من ذلك الإحساس ،

نظراً لأننا لم نكن قد قطعنا مسافة كبيرة ، عندما بدءوا يعربون عن رغبتهم فى عدم مواصلة المسير ، ونظراً لأن ضارى نفسه اشترك فى تلك الجلبة ، فلم يكن أمامى من خيار سوى الرضوخ والموافقة على التوقف ، على الرغم من أنى كنت أفضل المسير ولو لساعة أو ساعتين أخرين خلال بَرْد فترة المساء المنعش ، بعد نهار انقطعت خلاله أنفاسنا .

وبعد إطلاق الإبل لترعى ، رحنا نرتاح فترة المساء ، وبعد صلاة المغرب التى أدى فيها الملاّ عبد الله دور الإمام - ومن المؤكد أن لديه الصفات التى تؤهله لذلك ، إذ إن صوته عذب وتلاوته جميلة - قدمت لنا وجبة من وجبات الصحراء الفاخرة ، وسبب ذلك أن جماعتنا استطاعت خلال المرحلة الأخيرة من مسيرتنا أن تجمع بعضاً من الكمء(٢٨) ، الذى جرى تقديمه لكل من ضارى وأنا أيضاً بعد أن قام بطهوه وإعداده ذلك الملاّ متعدد المواهب ، الذى كشف أنه طباخ ماهر إضافة إلى كونه إماماً جيداً وسكرتيراً متمكناً . واقع الأمر أنا لم استسغ تماماً طعم الكمء ، ولكن مع ذلك ، كان بمثابة تغيير للطعام ، والعرب ينظرون إلى ذلك الكمء باعتباره نعمة من نعم فصل الربيع ، نظراً لأن الكمء يظهر فى كل أنحاء الصحراء فى ذلك الفصل .

وقد أدت تلك الريح القوية المحملة بالتراب والتى هبت علينا خلال مسير اليوم التالى خلال الريف إلى زيادة الملل والإرهاق إلى أبعد الحدود . وعلى بعد مسافة حوالى سبعة أميال من المخيم عبرنا منخفض الفاو الجنوبى ، الذى يقع على بعد مسافة قصيرة جنوب مستجمع المياه الذى يقسِّم صرف ذلك الفاو إلى فاو شمالى وآخر جنوبى . وقبل أن نصل إلى مستجمع المياه هذا شاهدنا عن يميننا عن بعد وأمامنا مباشرة جماعة من الجمَّالين ، رجَّح خبراؤنا - وكانوا صادقين فى ترجيحهم - أن يكونوا من فرع الوهاب Wahab من قبيلة الأسلام Aslam ، وبالتالى يصبحون من شيعة ضارى وأتباعه . وانفصل اثنان عن جماعتنا ليقوما بزيارة فى حين واصلنا نحن مسيرنا ، ولكننا بعد أن سرنا مسافة قصيرة شاهدنا أمامنا جماعة أخرى ، يبدو أنها لم تر مبعوثينا اللذين أوفدناهما للتآخى مع رفاقهم ، وقامت تلك الجماعة بإطلاق ثلاثة

أعيرة نارية فى الهواء تحذيراً لنا من ناحية ولرفاقهم من الناحية الأخرى ، وإن هى إلا لحظات حتى امتلأ الأفق بالغبار الأسود ، فضلاً عن إطلاق المزيد من الطلقات والأعيرة النارية ، التى انطلق أحدها بيننا أو خلالنا بشكل غير مريح ؛ نظراً لأنه كان على مقربة شديدة منا . وهنا تقدم بعض من جماعتنا مسرعًا إلى الأمام رافعين بشوتهم طلباً للهدنة ، وإشارة إلى نوايانا الحسنة ، فى الوقت الذى شاهدنا فيه جماعة مكونة من خمسة من الخيَّالة وهم يعودون بخيولهم ناحيتنا قادمين من الاتجاه العكسى . وهنا توقف إطلاق النار ، وبعدها وجدنا أولئك الخيالة الخمس مفتولى العضلات ، وأصحاب الملامح الصارمة ، الذين كانوا يمتطون خيولهم بلا سروج ، ومسلحين برماح طويلة مدببة الأطراف ، رأيناهم جميعًا فى وسطنا وبيننا ، وهم يرحبون بشيخهم ورئيسهم بالطريقة المعهودة والأسلوب المتبع بين أبناء الصحراء. وعندما وصلنا حافة الفاو شاهدنا كل فرع الوهاب Wahab وهو يتحرك فى اتجاه المنخفض فى اتجاه الجنوب وهم يرتدون زيهم الرسمى المكون من القينات Qins والكتابات Kitabs وهم يرعون النياق الحلوب . كان مسارنا يمر من بين تلك النياق عبر غدير الماء ، ولكننا أمضينا وقتًا طويلاً فى محاولة منا لفك أنفسنا منهم ، وسبب ذلك لم يكن مجرد الدردشة أو تبادل الأخبار ، وإنما لأن المرافقين لى وجدوا أن مقاومة تناول شربة مجانية من لبن النياق شديد الدسم أمر لا طائل من ورائه ، وبالتالى نزل الجميع عن دوابهم خلال لحظات قصيرة . وهنا وقفت تلك الدواب ، التى اعتادت مثل هذه الأمور ، فى مكانها بلا حراك ، وهنا راح اثنان من رفاقى فى كل مرة ، يحلبان تلك النياق فى سلطانية كبيرة ، وراحا يأتيان على ما فى السلطانية من حليب إلى أن أصبحا غير قادرين على شرب المزيد . كان منظراً مشهوداً - استعراض للنهم البدائى - ولكن العربى تراه دومًا جاهزًا لتناول الطعام ، سواء كان لبنًا أو لحمًا ، كما تراه مستعداً أيضًا للجوع والأيام العجاف ، وما أكثرها فى بلاده . والذى أدهشنى من رفاقى غير النهم والطمع هو ذلك الهدوء الفلسفى الذى كان أصحاب الجمال من الوهاب Wahab يولونه لحيواناتهم ، وهى يجرى حلبها من أولئك الضيوف غير المرغوبين . وقيل لى بعد ذلك ، رداً على تساؤلاتى ، إننى يحق لى أن أعجب من ذلك الذى رأيته ، نظراً لأن أعراف الصحراء

تتباين من قبيلة إلى أخرى ، وأن الشمَّر يجيئون على رأس قائمة الكرم والسخاء ، في حين تدخل القبيلة التالية التي مررنا بها في طريقنا ، وهي قبيلة المطير ، ضمن الأجلاف الغلاظ . كما حكى لي رفاق المسير أيضًا حكايات كثيرة ، عن أولئك المطير الذين لا يتورعون عن إشهار السلاح في وجه المسافر العطشان إذا ما تجرأ على الاقتراب من ماشيتهم ، في الوقت الذي يسارع خلاله الشمَّري ويقطع مسافة طويلة ليفرض كرمه على المسافر العابر ، وقد ينظر إليه على أنه عدو إذا ما رفض أن يشرب من لبن نياقه .

ومن حسن حظنا أننا استطعنا على الفور رد كرم الوهاب the Wahab العارض ، فقد توقفنا طلبًا لاستراحة الظهيرة على بعد حوالي ثلاثة أميال خلف الفاو ، وزارنا خلال تلك الوقفة ثلاثة من كبار رجال القبيلة يمثلون أبرز عشائرها ، كان أولئك الزوار : ظهير Dhahir بن شمالي Shamali ، شيخ شيوخ القبيلة بنفسه ، وحنيفس Khunaifis ممثلاً لوالده هيلم Hailim بن عقاب 'Aqab ، أما الزائر الثالث فكان عواد 'Awwad بن بدر . ولم يكن لدى أولئك الزوار الثلاثة أخبار كثيرة كي يبلغونا بها ، اللهم إلا باستثناء أن البلاد من أمامنا يحتلها المطير ، فضلاً عن عدم حدوث أي شيء يمكن أن يعكر صفو هدوء الصحراء في الأيام الأخيرة . يضاف إلى ذلك ، أن أولئك الزوار الثلاثة حرصوا بل ودأبوا على تحسين تلك المناسبة ، عن طريق التزلف والمداهنه ، أملاً في أن يحصلوا على ما يمكنهم من شراء مؤن من الكويت ، ولكني ضيعت عليهم تلك اللجاجة وذلك الإلحاف ، بأن أبلغتهم أن تلك الأمور كلها موكولة إلى ضاري ، ومبلغ علمي أن أولئك الزوار الثلاثة انصرفوا لحال سبيلهم وهم راضين عن الإعانة النقدية التي قدمتها لهم باسم الحكومة ، كما ناشدتهم ، في الوقت ذاته ، أن يتعاونوا تعاونًا جادًا مع ضاري في مسألة وقف تجارة المهرَّبات والممنوعات .

بعد أن تجاوزنا تلك النقطة بثمانية أميال تقريبًا كنا قد خرجنا بالفعل من منطقة الدبدبة الصخرية ودخلنا منطقة بئر شهيرة ، ما تزال تشكل قسمًا كريهًا من الصحراء ، ومنطقة البئر تلك عبارة عن أرض شاسعة من الطمي الناعم ، أو إن شئت فقل

الصلصال[٢٩] الذى تندر فيه الحشائش ويتباين على مسافات مختلفة فى مناطق صغيرة من الأدغال ، والناس هنا يطلقون على تلك المناطق اسم الجريبة Juraiba ويعتبرونها الخط الفاصل بين الدبدبة ومنخفضات الصُّمان Summan ، والتى خيمنا فيها ، على بعد أربعة أميال تقريبًا من نهايتها ، لقضاء الليل فى منخفض من الأدغال التى تسر الخاطر ، والذى كان يشكل واحة حقيقية فى ذلك المكان القفر ، ولكن كانت مساحته محدودة .

كان السهل القفر فى المنطقة السابقة لمنطقة المخيم يبدو زاخرًا بالغزلان وقطعان الغزال ، ولكن كل محاولتنا للحصول على لحم لطعامنا باءت بالفشل ، ولم نصادف حظًا أيضًا مع الحُبارى Hubara ، التى كانت تهرب مبتعدة عن طريقنا ، غير أننا عثرنا على بيضتين لذلك النوع من الطيور فى المنطقة المجاورة لمكان المخيم . وتأخر تناول العشاء عندما اكتشفنا ضياع ذلول (ناقة) ضيدان Dhaidan ، وذلك عندما أعاد الرجال الدواب من المرعى بعد فترة قصيرة لتكون بالقرب منهم وإلى جوارهم فى أثناء الليل . وهنا خرجت على الفور جماعة تبحث عن الذلول ، ولكنها عادت بخفى حنين ، وجلست لتتناول عشاءً باردًا ، لا طعم له ، وهى مكتئبة وعابسة ، نظرًا لأن ضيدان راح يصب علينا لعناته وتهديداته على مسمع ومرأى منى ؛ فقد اشترى تلك الناقة (الذلول) منذ أشهر قليلة ودفع فيها مبلغ ثمانية جنيهات إنجليزية نقدًا ، إذ كان الجمل يُشترى بمبلغ ١٠ جنيهات إنجليزية ، فى الوقت الذى كانت تباع فيه كل أربع عنزات بمبلغ أربعة جنيهات إنجليزية ، أى بواقع جنيه واحد لكل عنزة . ومن حسن الحظ ، أن عثرت على الجمل تلك الجماعة التى انطلقت فى صباح اليوم التالى بحثًا عنه . كنت فى أثناء النهار قد ركبت ذلول ضارى ، تلك الدابة الكبيرة ذات الوبر الفاتح اللون ، وجميلة العدو ، الأمر الذى جعلنى أستمتع بها كثيرًا . وقد أخبرنى ضارى أنه استولى على تلك الدابة فى أثناء غزو قاموا به على عبدة Abda'، وأنها تساوى حوالى ٥٠ جنيهًا إنجليزيًا ، ولكن ضيدان الذى لم يسمع رواية سيده ، ذكر أن ذلك الذلول جرى شراؤه مؤخرًا من عربى نظير مبلغ ٢٥ جنيهًا إنجليزيًا - وأنا لا أدرى من منهما كان يقول الصدق .

ودبت الحياة فى مسيرنا خلال الجزء المتبقى من الجريبة Juraiba فى صبيحة اليوم التالى بفعل إنذار تلقيناه ؛ فقد شوهد زوْل ، أو إن شئت فقل جسم يتحرك على مسافة بعيدة فى الجهة اليمنى قبل أن نشرف على حافة الصُّمان Summan ؛.قال أحدهم : "أدغال" . وقال آخر : "عرب" . أو إن شئت فقل : رعاة . وقال ثالث : "بدو". بمعنى غزاة ، وسار الحال على ذلك المنوال إلى أن وضعت نظارة الميدان لكل ذلك النقاش حداً ، بأن ذلك الشكل الذى تدور من حوله الشكوك لا يعدو أن يكون جماعة راكبة متجهة صوبنا . كنا قد تجاوزنا بالفعل الجزء الأخير من منطقة الشمَّر الأصدقاء ، ولم نكن قد وصلنا بعد إلى مضارب المطير ، ومن هنا كان الترجيح بأن تلك الجماعة إما أن تكون من العبدة Abda' أو من أى فخذ آخر من فخوذ الشمَّر غير الصديقة . وهنا شد الرجال أجزاء البنادق ثم عمروها وجرى إرسال بعض الأفراد للاستكشاف على الجانب الأيمن من أمامنا ، ولكن الجماعة التى لم تكن كبيرة العدد ، بدأت تدرك وجودنا وتعيه تماماً ، وهنا وفرت تلك الجماعة علينا الدخول فى المزيد من المتاعب بأن استدارت وولت هاربة في الاتجاه نفسه الذى جاءت منه .

وبعد أن وصلنا أول سلسلة جبلية ، سمعنا أصوات بعض الطلقات تدوى من أمامنا، وهنا اتضح لنا أن الكشافين الذين أوفدناهم للاستطلاع كانوا مشتبكين فى إطلاق النار . ووسط إصدار كثير من الأوامر والأوامر المضادة واصلنا المسير على غير هدى ، خلال فتحة ضيقة فى السلسلة الجبلية التى أوصلتنا إلى حوض دائرى واسع تحيط به حلقة من الجبال المنخفضة . كان تبادل إطلاق النار لايزال مستمراً ، وشاهدنا بعض رجالنا وهم يتجولون فى الأرض الفضاء الموجود خلف عين مياه البرجيسى ، التى كانت وسط تلك الأرض الفضاء . ويبدو أن العدو ، أيًا كان ، كان يكمن وراء الجبال البعيدة ، وأنه أصبح يتجمع الآن خلف جبل من تلك الجبال القريبة منا ، وهنا وفرنا غطاءً للإبل ، ثم اتجهنا بعد ذلك إلى تنسيق المعركة ، وجرى بعد ذلك إخراج الذخيرة وتوزيعها ، كما جرى تعيين حراسة على خط المرتفعات من أمامنا ، فى حين بقيت أنا وضارى ومعنا القوة الرئيسية فى التجويف ، أو إن شئت فقل المنخفض ، انتظاراً لما تسفر عنه الأحداث . كان الرأى السائد يقول إننا وقعنا على مجموعة من

العبدة Abda' ، استطاع كشافونا وحدهم التغلب عليهم وهزيمتهم ، ولكن مثلما بدأ الأمر فجأة ، توقف إطلاق النار فجأة أيضًا ، ووصلنى تقرير مفاده أننا كنا على اتصال بجماعة من الصلوبة Suluba – قبيلة غجرية غريبة من قبائل الصحراء الشمالية – كانت تقوم بإخراج الماء من العين عندما فوجئت بأولئك الذين حسبتهم جماعة غازية ، ثم تراجعت تلك الجماعة الغجرية إلى المنخفضات الموجودة خلف العين ، تاركين وراءهم بنادقهم كى يجذبوا أنظار أهليهم إليها بدلاً من التصارع على الأرض .

وبعد استعادة السلام ، تأكدنا أن العدو سالف الذكر كان عبارة عن جماعة صغيرة جاءت إلى البرجيسى Birjisi طلبًا للماء ، من مخيم يضم ٢٠٠ خيمة فى شعب مخيت ، ذلك المنخفض الذى لا يبعد عن هنا مسافة كبيرة ، وأن ذلك المنخفض يحمل مياه صرف القسم الشمالى من الصُّمان إلى وادى الباطن . وهنا دخل ضارى على الفور فى مفاوضات مع تلك الجماعة لاستئجار عدد من الجمال ، التى كنا بحاجة إليها ، وقررنا التوقف فى تلك المنطقة إلى أن يحين وقت الظهر ، بينما انصرف ضارى ومعه بعض من أتباعه قاصدين مخيم الصلوبة Suluba لإكمال الصفقة . ويبدو أن مخيم الصلوبـ ـــن قريبًا ، نظرًا لأننا بمجرد أن خلدنا إلى الراحة ، تركنا الإبل ترعى فى المنطقة ما بين المنخفضات ، ولم يغب عن بالنا تعيين حراسة على المرتفعات المحيطة بنا تحاشيًا للمفاجأة ، وما إن انتهينا من ذلك حتى زارنا شيخان من الصلوبة هما هويدى Huwaidi بن بادى ، وسويدان Suwaidan بن محارب Muharib ، ابن أخ وابن عم كل من مهدى Mahdi وخلف Khalaf ، من شيوخ عشيرة الغنيمان Ghunaiman من فخذ الجميل Jamil ، الذى نتصل به حاليًا . لم يكن سويدان يرتدى من الملابس سوى رداء واسع من جلد الغزال يصل إلى ركبتيه ، أما رفيقه فكان يرتدى لباسًا من الصوف الخشن مثل سائر البدو .

الصلوبة عرق مستقل ، حولتهم البيئة إلى عرب ، ولكنهم ليسوا منهم ، والصلوبة شكل من أشكال القبائل المفقودة ، الذى يحيط بأصله ضباب القدم . والصلوبة يحتقرهم العرب ، وهم أيضًا رعاتهم وحماتهم ، والصلوبة يدفعون للعرب جزية نقدية

وعينية أو خدمات من أجل الحصول على حق تنفس هواء الصحراء ، ومن أجل عدم التحرش بهم أو التعدى عليهم بفعل القانون الشفهى الذى يسير عليه العرب . والصلوبة يدركون مرتبتهم الاجتماعية المتدنية فى السلم الاجتماعى ، وهم لا يخجلون من الأسطورة الشائعة ، التى تقول إنهم أثر من آثار قبيلة مسيحية من قبائل الماضى ، هذا على الرغم من أن الصلوبة يتصرفون حاليًا كما لو كانوا مسلمين تمامـًا ، إلى حد أنهم يمارسون الختان أيضًا ، الذى لم يكونوا يفعلونه إلى وقت قريب جدًا . وأيًا كان أصل أولئك الصلوبة ، فإن موقعهم المتميز فى الصحراء يرجع إلى الحرف التى يحتكرون لأنفسهم ممارسة العمل بها ، فهم فضلاً عن كونهم صيادين لا مثيل لهم ، وفضلاً أيضًا عن كونهم مرشدين محترفين – وهم يعرفون أماكن سقيا فى الصحراء لا يعرفها أناس آخرون – فهم أيضًا سماكرة المجتمع البدوى وحدادوه وبالتالى فهم لا يمكن الاستغناء عنهم . والصلوبة ، فى هذا الصدد ، يذكروننا بالمجتمع السبئى فى وادى الفرات ، كما يذكروننا بيهود نجران فى أقصى الجنوب الغربى ، الذين يعود وجودهم وسط قبائل متوحشة لا ترحم ، إلى الخدمات التى لا يقدر عليها أحد سواهم ، والتى يؤدونها لجيرانهم فى زمن السلم وزمن الحرب . والصلوبة مقسمون إلى أفخاذ وعشائر شأنهم شأن العرب المحيطين بهم ، والفخذان الرئيسيان المجاوران لنا هنا على أية حال ، هما فخذ الجميل Jamil وفخذ المجيد Majid ، وهذان الفرعان يدخلان النشاط الرعوى ضمن أنشطتهما الأخرى . والصلوبة بفضل جدهم ومثابرتهم استطاعوا تكديس عدد كبير من الإبل والأغنام ، ناهيك عن سلالة غريبة من الحمر البيضاء الكبيرة(٣٠) ، التى يبدو أنهم يحتكرونها ، ويذيع صيتها بفضل سرعتها ، ولها قدرة كبيرة على حمل الأثقال ، وتحمل العطش والتعب .

وعقب انصراف زوارنا مباشرة بعد أن حصلوا على هدية من النقود قيمتها عشرة ريالات لكل منهم، زارنا شخصان آخران من الطائفة نفسها ، جاءا أصلاً وبصورة صريحة طلبًا للنقود ، وحاولت ، دون جدوى ، خداعهما فى الحديث . كان أحد هذين الشخصين يدعى خليفة Khulaifa ، أحد أولاد مهدى الصغار . وهنا بدأ رفاقى يحسون بشىء من القلق لوجود هذين الشخصين ، ولكنى طلبت لهما القهوه ، وأصررت على

استدراج ضيفىَّ ومعرفة ما لديهما ، ولكنهما تململا كما لو كانا فى عجلة من أمرهما . وأخيراً وجهت إليهما السؤال التالى : "لماذا جئتما إلى هنا ؟" وجاءنى ردهما الوجيز : "جئنا ، لنحييك" . وحاولت معهما مرة ثانية فسألتهما : "هل عاد شيوخكم إلى ديارهم ؟" وردًا علىَّ قائلين "نعم ، لقد عادوا وأخبرونا أنهم قابلوك ، وها نحن قد جئنا إليك ، وتركنا إبلنا وراءنا عند المسقى ، وليس هناك من يحرس تلك الجمال" . وأخيرًا بعد أن انتهيا من شرب القهوة ، وبعد أن فشلت كل المحاولات الأخرى فى أثناء الحديث ، أعطيت كلا منهما خمسة ريالات ، وهنا هبَّا واقفين وانصرفا دون القيام بمراسم الوداع . واستنكر رفاقى ذلك الاعتداد والاحترام الذى أوليته لهذين الزائرين . وهنا قال ملاً عبد الله : "ليس من الضرورى إعطاء النقود لمثل أولئك الناس ، إنهم ليسوا مثل الشمَّر أو البدو الآخرين ."

وعندما وصل ضارى بعد الظهر بفترة طويلة أصبح بوسعنا مواصلة مسيرنا فى قلب الصُّمان Summan ، الذى تزيد وعورته بصورة مفاجئة عما شاهدته منه فى الجنوب ، هذا على الرغم من أن الصمان يعد جزءًا من حزام المنخفضات الذى يمتد بصورة مستمرة بدون انقطاع إلى أن يصل جنوبيًا حتى منتصف الصحراء الشرقية عبر الطريق الذى سلكته فى أثناء الرحلة التى قمت بها من الأحساء إلى الرياض . وهنا اجتزنا سلسلة من الوديان القصيرة ، والمنخفضات شبه الدائرية ، التى تتخللها أو تحيط بها سلاسل جبلية منخفضة من الحجر الجيرى الرمادى الكئيب ، الذى تتخلله ، بين الحين والآخر ، بقع جيرية بيضاء . والجدير بالذكر هنا أن تلك السلاسل الجبلية كلها أثرت عليها عوامل التعرية مثل الطقس والرياح والأمطار . وسطح الأرض فى هذا الجزء من البلاد قفر ومكشوف للرياح[٣١] تمامًا ، ولكن المحقبة Muhaqqaba هى وسلاسل جبلية أخرى لا أعرف لها اسمًا ، والتى كانت تحجب عنا الرؤية وتحدها بينما كنا ننتقل من واد إلى أخر ومن منخفض إلى منخفض ، كانتا بمثابة تباين مقبول على الأفق الصحراوى غير المحدود وطوال الأيام التالية .

هذا القسم الشمالى من منخفض الصُّمَّان الذى يسميه الناس الدهول ، فى بعض الأحيان ، إشارة منهم إلى ظاهرة طبيعية غريبة ، تميز ذلك الجزء من المنخفض عن

القسم الجنوبى . والمنطقة كلها ، ولعدة أميال من حولنا تتخللها شبكة من الممرات الطبيعية الموجودة تحت سطح الأرض ، يمكن الدخول إليها فى أماكن كثيرة منها عن طريق ما يشبه رءوس أبيار المياه ، ولكنها فى حقيقة أمرها ليست سوى شروخ فى سطح الأرض تتراوح أعماقها بين عشرين وثلاثين قدماً ، ويعزوها الناس هنا إلى كتل معدنية أو صخرية تسقط من السماء وترتطم بالأرض أو إن شئت فقل النجوم المتهاوية . ومصطلح الدهل (وجمعه دهول) يطبقونه أو يطلقونه بحق هنا على تلك الرءوس العمودية ، التى يتجمع عند قاعدتها حسب اعتقادنا ، ماء المطر مكوناً بركاً وبحيرات من الماء ، شأنه فى ذلك شأن مروره فى تلك الممرات الموجودة تحت سطح الأرض والتى تتشعب متجهة إلى مسافات بعيدة ، أما مسألة إن كانت تلك الممرات متصلة لتكوّن منظومة دائمة من منظومات الصرف التى توجد تحت سطح الأرض - والبدو يعتقدون فى ذلك اعتقاداً راسخاً - فأنا لست فى موقف يسمح لى بالقطع ، ولكن تكرار تلك الرءوس ، أو النقاط الرئيسية قد يوحى بأن ذلك هو الحال ، فضلاً عن سماعى حكايات كثيرة عن استعمال العرب لتلك الممرات الموجودة تحت سطح الأرض فى الانتقال من دهل إلى دهل هرباً من العدو ، كما سمعت أيضاً حكايات أخرى عن أشخاص مغامرين اختطفوا بنفس الطريقة ، ولم يظهر لهم أثر بعد ذلك[٣٢]. وعلى كل حال ، فالأمر الأكثر قبولاً هنا هو أن العرب ينزلون إلى تلك المتاهة الموجودة تحت سطح الأرض بحثاً عن الماء ، كما سمعت أيضاً أن الماء عندما يوشك أن ينضب عند قاعدة رأس البئر ، أو إن شئت فقل : النقطة الرئيسية ، ويحتم عمل فتحة للوصول إلى القسم المخبأ منه ، فإن ذلك يجعل العرب يحتاطون لذلك بربط حبال حول خصورهم كى تهديهم إلى رأس البئر ، مرة ثانية بعد أن يكونوا قد ملأوا قرابهم ، ووجود مثل تلك الحبال يجعل من الصعب على المرء أن يتوه فى ذلك الظلام الدامس تحت الأرض .

كانت نقطة ، أو إن شئت فقل رأس البرجيسى Barjisi أول الدهول التى صادفناها ، ولكننا مررنا فى أثناء النهار بنقطة أخرى فى منخفض واسع يطلقون عليه اسم أم الضيان Umm al Dhian فى حين يقال : إن المنطقة المجاورة لسلسلة جبال المحقّبة ، تعج بتلك الرءوس والنقاط ، كما قيل الشىء نفسه عن ذلك الجزء من تلك

المنطقة التى اجتزناها فى اليوم التالى . كان ذلك الجزء من البلاد عامراً أيضًا بحيوانات الصيد ، وبخاصة الغزلان التى خدعتنا وضللتنا ، وكذلك الأرانب البرية ، التى استطاع واحد من أفراد جماعتنا اصطياد واحد منها عند رأس البئر عندما كان ذلك الأرنب نائمًا فى دغل من الأدغال . والمكان عامر أيضًا بطيور الحبارى ، التى استطعنا اصطياد واحد منها بعد مطاردة طويلة متأنية ، كما اصطدنا أيضًا سماقًا .

وقد ميز ذلول نفسه ، وأبرزها عندما هجرنا وذهب لحال سبيله فى فترة المساء ، وقد شاهدنا ذلك الذلول وهو يتحرك بخطى سريعة فى الصحراء ، فى اللحظة التى كانت الجماعة تصطف فيها لأداء صلاة المغرب ، وهنا نسى الناس الصلاة ، ونظموا مطاردة ساخنة لذلك الذلول الذى كان قد بدأ بداية طيبة فى اتجاه سلسلة من الجبال كانت تظهر عن بعد . وظللنا لفترة قصيرة نتمتع بمنظر مطاردة ذلك الجمل ، التى لم نرها من قبل ، إلى أن وصل ذلك الهارب ومن بعده مطاردوه إلى ما وراء سلسلة الجبال ، وبدأت ظلال ظلمة المساء تخفى ذلك المنظر عنا . ولم يعد أولئك الرجال الأربعة الذين انطلقوا لمطاردة ذلك الجمل إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، عادوا إلينا سيراً على أقدامهم ؛ فقد لاذ الجمل الهارب بالفرار ولجأ إلى مخيم من مخيمات المطير الأمامية ، وعندما فوجئ نزلاء ذلك المخيم بظهور أربعة رجال مسلحين من الشمَّر ، وفى وسطهم جمل هارب قرروا بعد أن استمعوا إلى المبررات غير المقنعة ، الاحتفاظ بالجمال الخمسة رهائن لديهم نظير القلق والاضطراب الذى أحدثه أولئك الرجال فى أثناء الليل ، كما قرروا أيضًا طرد الرجال . وقد حتم ذلك إرسال وفد آخر ، من بين أفراده واحد من المطير اسمه سعود ، الذى كان بصحبتنا منذ أن انطلقنا من الحافر ، واستطاع ذلك الوفد العودة منتصراً إلى المخيم ومعه الجمال .

وفى صباح اليوم التالى مررنا من خلال المخيمات المتناثرة هنا وهناك بلا أية أحداث أو عقبات - كانت خيام تلك المخيمات صغيرة الحجم بشكل غير عادى - يضاف إلى ذلك أن قطعان المطير التى كانت ترعى ، والذين تأكدوا من هويتنا بعد أن وصلتهم أخبارنا عن طريق الزوار الذين زارونا فى أثناء الليل ، تجاهلتنا تمامًا ، وكانت

مثار تعليقات غير طيبة من جانب المرافقين لنا ، نظرًا لأنهم كانوا يطيلون النظر إلى الحيوانات الحلوب من حولنا دون أن يتجرءوا على الاقتراب منها لحلبها والتنعم بألبانها ، ولكن صبر أولئك المرافقين سرعان ما أسفر عن نتيجة طيبة ، والسبب فى ذلك أننا مررنا برجل من حرب Harb كان يتجول ويرعى إبله مع المطير ، أصر على أن نشاركه فى حلب نياقه هو . كان أولئك المطير الذين مررنا بهم من فرع الأباسفة the Abassifa التابع لفخذ البريح Buraih ، الذين انضم عدد كبير منهم إلى صفوف الإخوان ، والذين لاحظنا بعض خيام الصلوبة ضمن خيامهم أيضًا .

وبعد ذلك بفترة وجيزة توقفنا بضع لحظات قليلة عند دحل الصقور Dahal Suqur ، على أمل العثور على الماء من رأس البئر ، ولكن أملنا خاب فى ذلك ، نظرًا لأن أحدًا لم يكشف عن رغبته فى النزول إلى الممرات الموجودة تحت سطح الأرض لاستكشاف الماء ، وبخاصة الممرات المتفرعة من قاعدة رأس البئر ، ثم واصلنا مسيرنا بعد أن قتلنا ثعبانًا خرج لنا من شق من شقوق الصخور الكثيرة[٣٣] التى تحيط بالدحل . ورأيت أيضًا بعض رءوس الآبار الأخرى التى كانت تطالعنى فى أماكن كثيرة من حولى ، غير أن بعض تلك الرءوس لم تكن على الطريق الذى كنا نسير فيه ، وكانت تلك الرءوس على وجه التحديد : رأس الفضيلى Fudhaili ، وأبو نخلة Nakhla ، ثم الرُقاص Raqqas ، وبعد ذلك بمسافة معقولة مررنا بالقرب من دحل حمد Hamad ودحل الشايب ، الذى دخلنا من خلفه إلى رقعة من الأرض يسمونها الربيدة ، تشبه الشكل العام والطابع العام للصمان Summan ولكنها تختلف عنها لأن تربتها رملية وتميل إلى الاحمرار ، كما تختلف تربة الربيدة عن الصمان أيضًا بظهور العرفج فيها بدلاً من الروثة Rutha التى تشكل الحياة النباتية فى الصمان . يضاف إلى ذلك أن طبيعة تربة الربيدة ليست مكسرة مثل تربة الصمان – إذ كان القسم الأخير من الصُمان نباتات الحجر الرملى الأحمر الصلب –[٣٤] كما أن سطح الربيدة تموجاته لطيفة وخالية من السلاسل الجبلية ؛ وعن بعد فى الناحية اليمنى ، ظهر أمامنا ذراع من أذرع منطقة الجريبة كان يمتد ما بين الصمان وسلسلة الجبال الخارجية من الدهناء التى رأيناها عندئذ لأول مرة .

يلى هذا التغيير مباشرة تغيير طفيف آخر فى طبيعة الأرض فى هذه المنطقة ، إذ دخلنا ما يسمى منطقة هتيفة Hatifa ، التى هى سهل من الطمى المنتفخ انتفاخًا هينًا ، تتخلله بين الحين والآخر منخفضات معشوشبة ، مليئة بالعرفج ، وعامرة بحياة نباتية أخرى من بينها شوك من أشواك الجمال ، يطلقون عليه هنا اسم السمنة Samna . وأكبر تلك المنخفضات هو ذلك المنخفض الذى يقولون له ، فيضة الروثة Faidhat Rutha ، الذى يوجد بالقرب من دهل Dahal آخر ، هو دهل أم القرون Umm al Qurun ، الذى شاهدنا خلفه غابة صغيرة من أشجار السدر التى يجرى تقطيعها دوريًا . وقد قام إخوان الأرطاوية مؤخرًا باقتلاع أشجار تلك الغابة لبناء مستوطنة لهم .

وهنا بدأنا نقترب من دخول العريق Araiq'، تلك السلسلة الجبلية المتقدمة من الدهناء ، ولكن الناس هنا لا يعترفون بأن هذه السلسلة الجبلية جزء من الدهناء ، على الرغم من أنها لها نفس طبيعة وخصائص الدهناء . يضاف إلى ذلك أن منظر سطح الأرض يحمل الاسم نفسه على الرغم من أنه ليس مثيلاً لطبيعة الصمان المكسرة فى المنطقة ما قبل المانشاريها Mansharīha أو إن شئت فقل : طريق القوافل الرئيسى من الكويت إلى الزلفى Zilfi ثم بعد ذلك إلى الداخل . سرنا فى الطريق حوالى ميلين إلى الشرق من النقطة التى يعبر الطريق عندها العريق Araiq' بالقرب من مجموعة من أشجار السدر يطلقون عليها اسم السوفَيَّة Sufaiya ، ولكن مسارنا كان يتجه صوب الجنوب خلف منطقة أو اثنتين من مناطق أشجار السدر ، وواصلنا المسير إلى ما يقرب من ثلاثة أميال قطعناها بعيداً عن الطريق ، إلى أن حان موعد استراحة المساء التى قضيناها عند حافة جبل رملى لنقف من جديد على أعتاب الدهناء .

٣- الدهناء

وصول المسافرين القادمين من الطريق الشرقى عند حافة الدهناء يمثل لهم نقطة تحول طيبة ومقبولة فى رحلتهم المرهقة ؛ إذ تكون قحولة الصحراء الشرقية من ورائهم، ويجدون أنفسهم يقفون أمام حاجز شاهق من الرمال يكاد يطوِّق قلب الجزيرة العربية .

واقع الأمر أن دخول العريق Araiq' لا تعد جزءًا من الدهناء الحقيقية ، التي كان حدها الشرقى لا يزال على مسافة تتراوح بين ستة أميال وسبعة فيما وراء سهل الجندالية Jandaliyya الرملى ، ولكن تكوين ذلك السهل هو نفس تكوين الكتلة الرئيسية ، التى يشبهها من حيث اللون ، ومن حيث الحياة النباتية ، وبالتالى يرجح له تمامًا أن يكون امتدادًا غير مباشر للدهناء . واتساع ذلك السهل لايزيد على نصف ميل ، ولكنه يمتد وبلا انقطاع من الركن الشمالى الشرقى من الدهناء فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى مسافة كبيرة ، على الرغم من أنه لا يصل إلى طريق الأحساء الرياض . ونصبنا خيامنا فى الثنية الأولى من ثنيات الطريق ، أحسست بالفرج عندما استلقيت على الرمل الدافئ الناعم وأنا أراقب خيالات إبلنا وهى ترعى بين الكثبان الرملية المتموجة طوال فترة اختفاء الشفق .

وفى صبيحة اليوم التالى ، وقبل أن تُطوى خيامنا بوقت قصير ، جاءتنا جماعة من الصلوبة مكونة من أربعة أفراد يركبون ذلولين ، ووقفوا بيننا . والسبب فى ذلك أن النفحة التى كنت قد وزعتها فى البرجيسى كانت قد أحدثت اضطرابًا فى مخيم الصلوبة فى مخيت Makhit، وبالتالى فإن زوارنا الجدد كانوا قد بدءوا رحلتهم اعتبارًا من صبيحة اليوم السابق وواصلوا مسيرهم فى أثناء الليل وهم يقتفون أثرنا مستهدفين من ذلك التعبير عن احترامهم وتقديرهم لشخصى . كانت تلك الجماعة تضم كلا من مهدى بن خلف ، وخلف بن مصلب ، شيخَىْ عشيرة الغنيمان ، ومعهما ولد خلف بن مصلب ورجل آخر . ومن الواضح أنهم كانوا يتعجلون العودة على الفور إلى أهليهم ومعهم الهدايا التى يمكن أن تسفر عنها تلك الرحلة التى قاموا بها ، ولكنى كنت أتعجل بنفس قدر الاستفادة من تلك الإضافة غير المنتظرة لممثلى تلك القبيلة إلى جانبنا ، يضاف إلى ذلك أن الأدب العام واللياقة اضطرتهم إلى الموافقة على اقتراح لى مفاده أنهم يتعين عليهم أن ينضموا إلينا فى مسيرنا عبر الدهناء ، على الرغم من أن خلف حاول محاولة مستميتة فاشلة ، كان يود بها الحصول على موافقة كريمة منى على عودته لأنه كان يحس بالقلق على أهله وذويه وناسه الذين تركهم بدون حماية كافية لهم من الأخطار التى كانوا يتعرضون لها ، أو بلغته هو "من الشمال ومن الجنوب" . كان خلف ،

فى ساعة سابقة من ساعات النهار ، قد أبلغنى أن عدد خيام مخيمه لا يقل عن ١٠٠٠ خيمة ، ومبلغ ظنى أن خلفًا كان قد وزن تمامًا المغزى الذى كنت أرمى إليه عندما قلت له إن غياب أو حضور أربعة أفراد يمكن أن ينزل الخطر بحياة مجتمع بأسره أو يؤمِّن تلك الحياة . وعلى كل حال فقد ساروا معنا طول اليوم وجزءًا من اليوم التالى وأثبتوا لنا أنهم فيض لا ينضب من المرح والتدريب والتعليم .

وصادف مسير اليوم عبور الدهناء ، التى أقدر عرضها - فى ضوء مسارنا الجنوبى إلى حد ما بدءًا من دخول العريق Araiq' إلى أن أقمنا مخيم المساء بالقرب من سلسلة جبال بترة Batra المتقدمة على الجانب الآخر - بما يقرب من خمسة وعشرين ميلاً ، على الرغم من أن حاجز الدهناء الحقيقى كان عرضه لايزال على ما يقرب من خمسة عشر ميلاً . وهذا الحاجز الرملى تخترقه على مسافات مختلفة مجموعة من الطرق والمدقات المطروقة التى تربط بين المساقى Waterings على جانبى الدهناء من أقرب الطرق المحتملة ؛ ومن بين الطرق والمدقات ، مدق المنشرحة Manshariha الذى يفضى من الكويت عن طريق أبيار صافة Safa عبر الدهناء فى الناحية الجنوبية الغربية ، إلى الأرطاوية ، وهناك مدق آخر ، يطلقون عليه اسم البيهص Baihis ، تكوَّن بفعل ملتقى الطرق[٣٥] الخارجة من أبيار حابة Haba وأبيار قرعاء Qara'a، ويخترق رمال الدهناء عند نقطة تقع إلى الجنوب من المخيم الذى نحن فيه الآن ، ثم يعبر هذه المنطقة موازيًا لطريق المنشاريها على مسافة تتراوح بين سبعة أميال وثمانية ، ثم يتفرع من جديد على الجانب الآخر متحولاً إلى ممرين يؤديان إلى كل من أبيار القيعية Qai'iyya وأبيار الديجانى Dijani . وفى موسم الربيع ، لا يضطر المسافرون إلى الإحساس بالقلق إزاء الفترة التى تكون بلا مياه ، فيما يتعلق بإبلهم ، نظرًا لأن تلك الإبل ، تجد من الرطوبة ما يكفى فى الحياة النباتية فى تلك المنطقة ، من هنا شعرنا بالاطمئنان من هذه الناحية عندما أرسلنا جماعة صغيرة إلى أبيار القيعية Qai'iyya لجلب الماء اللازم لاحتياجاتنا المسائية فى المخيم ، واستطعنا بذلك عبور الدهناء من الخط الذى يناسبنا ، ذلك الخط الذى أخذنا مباشرة من مخيمنا بالقرب من طريق المنشاريها على جانب الدهناء الشرقى إلى النقطة التى يبرز عندها مدق البيهص Baihis من بين الرمال على

الجانب الغربي للدهناء . ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن المسير كان ثقيلاً وصعبًا إلى حد ما على الإبل المحمَّلة ، فإننا لم نجد صعوبة كبيرة في عبور السلاسل الرملية المتتالية التي تطبق على تلك النقطة من الناحية الشمالية الغربية إلى الجنوب الشرقي ، فضلاً عن أن تلك السلاسل الرملية كانت تتقاطع مع مدقات الأغنام والإبل ، التي شاهدناها ترعى بأعداد كبيرة طوال مسيرنا ، والسبب في ذلك أن البدو في فصل الربيع ، وأنا أقصد بالبدو هنا مطير الأرطاوية والبلاد المحيطة بها ، ينتشرون في الدهناء لتغذية قطعانهم على الأعشاب الكثيفة التي تنبت من الرمال كل عام ، بفعل زخات قليلة من المطر . كانت آخر مرة أعبر فيها الدهناء قد حدثت في شهر نوفمبر ، أي عندما يكون سطح الدهناء قفرًا ، أو إن شئت فقل عندما يكون غطاءً خفيفًا من الأدغال والأعشاب الضارة الذاوية ، ولكني في هذه المرة شاهدت منظرًا مختلفًا تمامًا ، والسبب في ذلك ، أن الرمال ، باستثناء رمال المنحدرات شديدة الانحدار ، كان يكسوها غطاء كثيف من النباتات والأعشاب أكثر من أي مكان من الأماكن التي زرتها أو أذهبت إليها في الجزيرة العربية . وكان من بين تلك الأعشاب البارزة والوفيرة ثلاثة عشر نوعًا(٣٦) ، غير أن ذلك الرقم ربما كان قد تضاعف لو أتيحت لي فرصة أوسع وأكبر لإجراء المزيد من البحث والتقصي .

وقد أسفر غزو الأغنام لتلك المنطقة عن طرد حيوانات الصيد منها تمامًا ، ولكن الصلوبة أبلغوني أن تلك السلاسل الجبلية تعج بالغزال في أحيان أخرى . وسألت مهدي الذي كان يحكي لنا عن الأيام التي أمضاها هنا في الصيد والقنص في هذه المنطقة "هل تصادفون الوعول أو النعام في هذه المنطقة هذه الأيام ؟" ورد عليَّ مهدي قائلاً "منذ زمن بعيد كانت تلك الحيوانات موجودة بأعداد وفيرة في كل أنحاء تلك الرمال ، ثم جاء العرب إلى هذه المناطق" . وقد فهمت منه أنه يقصد حركة المرور الكثيف التي زادت خلال السنوات الأخيرة عندما زادت أهمية الكويت بوصفه ميناءً بحريًا . "وهنا تناثرت الوعول والنعام متجهة شمالاً وجنوبًا ، حيث توجد هناك في الخرائب الرملية الكبيرة . لقد اصطدت كلاً من الوعول والنعام بالقرب من الجوف ، وفي المرة القادمة عندما أذهب إلى تلك المنطقة سوف أحضر لك معي بعض صغار تلك

الحيوانات". وسألته "وما هو حال النعام فى الصحراء ؟" ورد على الرجل قائلاً : "والله يا صاحب ، إذا رأيت النعام عن بعد حسبته خيالات الإبل ، والنعام سريع الحركة مثل الريح ، وأنثى النعام تضع عدداً من البيض يتراوح بين عشرين بيضة وثلاثين ونحن نعثر على ذلك البيض فى أغلب الأحيان ونأكله ، وفراخ النعام بعد فقس البيض يكون حجم الفرخ منها مثل حجم الحبارى". ولكن النعام يتبع الغزال فى معظم الأحيان ، ومن الطبيعى لكل صلوبى عندما يقوم بحملة استكشافية أن يطرح من تلك الحيوانات عشرين حيواناً أو أكثر ، يستطيع تحويل لحمها بفضل قليل من الملح وبفضل حرارة الشمس الحارقة إلى جيلة أو إن شئت فقل : لحماً مجففاً أو قديداً يستعمله فى الاستهلاك المنزلى ويبيعه فى السوق أيضاً . ولحم النعام ممتاز جداً ، وهو أفضل ما يمكن أن يستعمله الإنسان فى المسيرات الطويلة ، والسبب فى ذلك أن اللحم إذا ما جرى تمليحه بأيدى ماهرة فإنه قد يظل صالحاً للأكل مدة شهر وأكثر فى فصل الشتاء ، كما يحتفظ أيضاً بنكهته اللذيذة .

كنت راكباً فى المقدمة ونحن نعبر سهل الجندلية Jandaliyya عندما استرعت انتباهى أصوات المرح التى كانت تصدر من مؤخرة القافلة . فقد كان خلف ، شيخ الصلوبة الثانى ، يلقى قصيدة يمدح بها ضارى ، وكانت همهمات الموافقة والإعجاب التى كانت تصاحب المقطوعات تدل على أن خلفاً كان يحظى بكثير من القبول والإعجاب . وحيًا جمهور المستمعين المقطوعة الأخيرة بعاصفة من الضحك ، التى طلب الشاعر فيها ذلولاً على سبيل الهدية ، ولم يكن أمام ضارى من خيار سوى أن يقطع على نفسه وعداً بتلك الهدية . كانت القصيدة من النوع الطويل ، ولقد اندهشت ، بل وتشككت إلى حد ما ، عندما أخبرونى أن الشاعر ارتجل تلك القصيدة ، ولكنى أعتقد أن زعم من حدثونى عن تلك القصيدة كان صادقاً تماماً ، وعلى أى حال ، فقد أعاد خلف إلقاء تلك القصيدة من بدايتها إلى منتهاها من أجلى ، ولكنه أضاف إليها بضع مقطوعات قليلة يلمح فيها أن الذلول لن تكون له قيمة كبيرة فى غياب بندقية من طراز موزر ، كى تستعمل فى الغزو . وفى المساء كرر خلف القصيدة كلها وأعادها على الملاّ عبد الله ، التى قام بتدوينها بناء على طلبى .

ولم يستغرق منا عبور دخول العريق 'Araiq سوى دقائق قليلة ، أما عبور سهل الجندلية فقد استغرق منا ساعتين كاملتين . وسهل الجندلية عبارة عن وادٍ رملى كبير تنتشر فيه الكثبان والجبال الرملية هنا أو هناك ، والتى شاهدنا واحداً منها فى الناحية الجنوبية من الطريق الذى كنا نسير فيه ، وتأكدنا أن ذلك الجبل الرملى كان يمتد مسافة كبيرة فى اتجاه مركز المنخفض ، ومن الأهمية بمكان أن يكون له اسم حرابة Haraba . وقد ازداد سطح السهل وعورة ، وبدأ يكشف عن صخوره البارزة فوق سطح الأرض ، وعن زلطه وعن حصاه كلما زاد اقتراباً من جانبه الآخر ، وعندما ارتقينا أول منحدر من منحدرات الدهناء الحقيقية ، والذى شاهدنا عليه مخيماً صغيراً من مخيمات المطير ، كان يضم ثلاثين خيمة . وبلغت جرأة بعض رجالنا حداً أن دخلوا واحدة من تلك الخيام بحثاً عن الكرم ، والسبب فى ذلك أن ما لدينا من الماء أوشك على الانتهاء ، كما أن شربة من الحليب يمكن أن تساعدنا على الاحتفاظ بما لدينا من ماء إلى نهاية المسير . وعلى أى حال ، فقد أضاعوا بسبب الحماقة تلك الفرصة التى سنحت لهم ، والسبب فى ذلك أن المطير بدءوا بالهجوم عندما اشتموا لحناً دنيوياً ، وطلبوا إلى أفراد تلك الجماعة الرحيل على الفور وإلا حدث ما لا تحمد عقباه . وأنا نفسى لم أشهد ما حدث ، ولكن ضيدان أكد لى أن المضيف الذى نزلت عنده تلك الجماعة تناول بندقيته وطلب إليهم التعجيل بالرحيل. وأنا لم أسمع خبراً خلال تلك الأيام عن المطير ، وعلى الرغم من أخذ الحسد الذى يكنه الشمَّر لجيرانهم الأقربين بعين الاعتبار ، وعلى الرغم أيضاً من المبالغة فى بعض عيوبهم التى تعد أموراً طبيعية فى مثل هذه الظروف ، فإنه كان من الواضح تماماً أن تلك الأقسام من القبيلة التى اتصلنا بها كانت تفتقر إلى سمات الكرم التى ترتبط بالبدو . كان ضارى يردد دوماً أنه لا يحب أن يكون بينهم أو فى بلادهم ، هذا فى الوقت الذى كان ضيدان ينتهز فيه الفرصة كلما سنحت له ليعبر من خلالها عن احتقاره لكلاحتهم وعبوس وجوههم ، الذى عزاه إلى عيوب فطرية فيهم من ناحية ، وإلى انتشار مفاهيم حركة الإخوان انتشاراً سريعاً بين أفراد قبيلة المطير . أضف إلى ذلك أن مصلياتهم الصغيرة التى يبنونها من الأحجار ، والتى توصل إليها طرق ضيقة محددة أيضاً ومؤدية إلى المخيمات ، كانت فى أحيان كثيرة محطاً

للسخرية والاستياء . أولاً وقبل كل شيء ، من هم أولئك الإخوان الذين يدّعون لأنفسهم كل رضا الله سبحانه وتعالى ؟ وهنا قال ضيدان قولة بارزة لاذعة حول هذا الموضوع ، وقد جاءت تلك القولة منصفة لأحاسيس ومشاعر رفاقه من رجال القبائل بشكل عام عن ذلك المذهب الكريه إذ قال "ماهم جايين من الله وشنهم شلاب" ("هم ليسوا من عند الله ولكنهم يشبهون الكلاب") .

كانَ القسم الأول من الدهناء عبارة عن منخفض هين يكسوه غطاء خفيف جداً من الحشائش ، ولكنه سرعان ما تحول فجأة إلى تموجات من الرمال ذات اللون البرتقالى الداكن ، التى يطلقون عليها اسم الجهام Jaham . وهذا الجهام يصل عرضه إلى حوالى ميلين ونصف الميل ، ويفصله عن القسم الثانى من الدهناء منخفض رملى ضيق أو إن شئت فقل خبٌ Khabb ، تغطيه طبقة من اللَّهَم أو الغرين والقسم الثانى من الدهناء يطلقون عليه اسم المريط Murait ويصل عرضه إلى حوالى الميلين . وهذا القسم الثانى من الدهناء يتميز عن القسم الثالث بوجود منخفض أيضاً . هذا القسم الثالث هو الذى يليه – أولهما مجهَّل وثانيهما يطلق عليه اسم المخَيِّط Mukhaiyit – يصل عرض كل منهما إلى حوالى ميلين ، ويفصلهما عن بعضهما منخفض واسع يسمونه خبُّ النوم Khabb Naum ، ويزيد عرض ذلك المنخفض على ميل واحد ، ويشكل إلى حد كبير أبرز أقسام الدهناء قاطبة . ورمال هذين القسمين أكثر تفككاً عن رمال الأقسام الأخرى ، إضافة إلى أن تموجات هذين القسمين الرملية والأكثر عمقاً تعطى انطباعاً بأنها تكونت بفعل بحر من العواصف ، فى الوقت الذى تتميز فيه قمم تلك السلاسل الجبلية الرملية وعلى مسافات متساوية بمخاريط هائلة من الرمال النقية ، ويصل ارتفاعها إلى ما يزيد على ٢٠٠ قدم فوق المستوى العام للأرض التى تحيط بها . وخلال وقفة الظهيرة التى خيمنا خلالها فى خبِّ النوم ، استطعت أن أحصى فى ذلك المكان عدد تلك المخاريط الذى وصل إلى ثمانية مخاريط فى كل قسم من هذين القسمين ، وكانت تلك المخاريط تمتد كما لو كانت قمماً لسلاسل جبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب ، ومما لا شك فيه أننى كان بوسعى أن أحصى المزيد من تلك القمم من باب الأبهة والمثل العليا . وهذه القمم الرملية يطلقون عليها هنا اسم تعس Ta's

(وجمعه تعوس Tu'us) ويقولون أيضًا للقمة الواحدة نقا Niqa (وجمعه نقيان Niqyan) ، كما يطلقون على تلك القمم أيضًا اسم الغرامين Gharamin، واسم البراخيس Barak-his، وأيضًا حومة النقيان Haumat al Niqyan أو قد يقولون لها المجالس Majalis ، والمصطلح الأخير مشتق من الترتيب الجماعى للقمم ، كما لو كانت تلك القمم شكلاً من أشكال تجمع مردة الصحراء . والقمم المنفردة تَشرُف هى الأخرى بأسماء خاصة ، أبرزها على سبيل المثال نقاع المطوَّع Niqa Mutwwa ، الذى هو عبارة عن مخروط يقع إلى الجنوب قليلاً من الطريق الذى نسير فيه ، والذى أطلق عليه أهل الصحراء كنية "المراقب" فى إشارة إلى الملمح الرئيسى للوهابيين . بدت لى صفوف القمم تلك وكأنها تمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، وهذا هو الاتجاه العام لحزام الدهناء فى هذا القسم . أما مدى ما يصل إليه ذلك الملمح الغريب فى اتجاه الشمال والجنوب على مدد شوفنا ، فأنا لا أستطيع أن أحدد أو أقطع به ، ولكن ذلك الملمح لا يصل فى الاتجاه الآخر إلى أبعد من طريق الأحساء الرياض ، ومبلغ علمى أن ذلك الملمح ينعدم عن خط الأرض فى الشوكى Shauki .

ومن قمة سلسلة جبال المُخيِّط شاهدت ذلك الخط المعتم الذى يميز السهل الموجود خلف الدهناء ، ومع ذلك كان لا يزال أمامنا ثلاثة أحزمة رملية ، كان يتعين علينا اجتيازها ، أولها كان مجهول الاسم ويفصله خبٌّ ضيق عن المخيِّط . أما الحزام الثانى فيطلق عليه اسم أرض عقال Ardh 'Aqal ، وذلك تيمنًا باسم عقال ، أحد الصيادين ، والذى اعتاد التردد على ذلك المكان . أما الحزام الثالث فهو مجهول الاسم أيضًا ويفصله عن أرض عقال منخفض واسع يطلقون عليه اسم خبٍّ الرضم Khabb al Radhm ، والذى أدى ظهور الحجر الجيرى فوق الأرض فى بعض أجزائه إلى الإيحاء إلينا بأننا أصبحنا على مقربة من الأرض الصلبة . كان عرض كل هذه الأقسام هى والمنخفضات التى تتخللها أقل من خمسة أميال ، وليس فيها علامات مميزة سوى أنها تتشابه فى خصائصها العامة مع الأقسام السابقة من الدهناء .

وهبطنا نازلين المنحدر الأخير من الدهناء ونحن نشعر بالغوث والارتياح عندما وطأت أقدامنا أرض مدق البيهص Baihis ، فى المنطقة التى يخترق فيها شريط

اللغاف Luqhaf ، ذلك الشريط الرملى الضيق الذى يفصل الدهناء عن سـهل عارمة ، عند نفس الحافة التى ضربنا عندها خيامنا بالقرب من سلسلة جبال باترة Batra الرملية ، أو إن شئت فقل : الجزء المقابل لدخول العريق على الجانب الآخر من الدهناء . وهنا أجد أن الدهناء قد خيبت آمالى وأصابتنى بالإحباط من جديد ، ومع ذلك فقد سعدت لأننى شاهدت ذلك التكوين المكون من سبعة سلاسل جبلية رملية ، الذى يميز تلك المناطق الرملية من الجزيرة العربية ويقتصر عليها وحدها .

الهوامش

(١) "حبيبى ، فى وادى الدواسر مسكنه ، فى الصخور السوداء ، بعيداً فيما وراء الرمال".

(٢) الجزيرة العربية وأنبياؤها ، كتيب (١٩١٩) صادر عن جمعية الأدبيات المسيحية ، لندن ، مدراس وكولومبو .

(٣) عين فى شهر نوفمبر من عام ١٩٢٠ الميلادى وزيراً للداخلية فى بلاد الرافدين ، ونفى فى جزيرة سيلان فى شهر أبريل من عام ١٩٢١ الميلادى .

(٤) منها على سبيل المثال نبات الكريش (الذى ينطقونه شاريش) ، ومنها أيضاً نبات الرغال ، ونبات الخاريت ، وتشكيله أخرى من نبات الكحيل أحمر اللون .

(٥) وصلنا ذلك الخبر عن طريق أحد أفراد فخذ الضرعان Dhara'an من القبيلة نفسها ، والذى زارنا فى مخيمنا خلال فترة المساء .

(٦) واحدها ثميلة .

(٧) عثرنا فى اليوم التالى على بيضة واحدة لطائر يشبه طائر الزقزاق ، أو إن شئت فقل طائر التمساح . يسمونه هنا السُماق Smaqq . كما مررنا أيضاً بعش نوع من أنواع عصافير الخضيرى ، فوق خصلة من عيدان نبات الرِمض . ومن الطيور الشائعة فى هذا المكان طائر يقال له رأس مرِضان Ras Marid-han، وهو طائر لونه خليط من الرمادى والأبيض ، وهو من فصيلة الصقور رغم أنه عديم النفع فى عمليات التصقر . ويجدر بنا هنا أن نشير أيضاً إلى أم سليم بطيرانها المتعثر العجيب ، وريشها خليط من اللونين الأبيض والرمادى مع شىء من اللون الأسود . والعرب يأكلون لحم طائر السُماق .

(٨) يطلق على كل شعب من تلك الشعاب اسم الشوقية Shuqaiya . وبخلاف تلك الشوقيات مررنا بشعاب أخرى تعرف باسم شق الوسيعة Shiq al Wasi'a على الضفة اليمنى ، ومررنا أيضاً بشعب أقفة Aqfa الذى يدخل الوادى من الضفة اليسرى من وراء منطقة العبيد Al 'ubaid .

(٩) فى روضة المنهاة .

(١٠) انظر صفحة ٣٨٢ وما بعدها .

(١١) ومع ذلك ، جرى قتل سعود فى ربيع عام ١٩٢٠ الميلادى ، وخلفه ابن عمه عبد الله بن متعب .

(١٢) كان فخذ الضويحى من القبيلة نفسها مخيماً فى المنطقة المجاورة لكل من حيس Hiss وضابى Dhabi ، وهما المكانان اللذان زارنا فيهما فى أثناء وقفة الظهيرة شيخ من شيوخ تلك الفخوذ هو حمدان بن الضويحى Hamdan .

(١٣) ينطقون تلك الكلمة شتاب Chit'b .

(١٤) مررنا بالقرب من تلك السلسلة الجبلية ببقايا بعض ثقوب وحفر المياه المهجورة (التى يقولون لها : جلات Jalat وواحدها جلة Jalta) من أزمان سابقة .

(١٥) مقابل تلك السلسلة على الضفة اليمنى يقع وادٍ يقال له جلة الحسو Jalta Hissu ، الذى به بعض حفر الماء ، ومن خلف ذلك الوادى وفى اتجاه الجنوب ولكن خارج نطاق رؤيتنا توجد سلسلة جبال المسنى Mu-sanna ، التى يقال إنها تمتد بين منخفض الشق الوسيع ومنخفض الفُلَيِّج Fulaiyij الجنوبى ، الذى ينساب فى وادى الباطن بالقرب من الحفار Hafar .

(١٦) كان أولئك الشيوخ : سلطان بن نويشى ، وحسين أبو قيران ، وصبيح بن نويشى ، وأخيراً عايش بن ضاوى . ولكن ابن عمه بيق B'iq بن ثنيان الذى لم يظهر فى ذلك التجمع ، كان معه فى مخيمه بالقرب من الجلط Al Jalt فى الناحية الشمالية .

(١٧) هناك شيخ آخر من شيوخ الدهامشة ، هو جزاًع بن مجلاد ، شقيق محمد الذى كان بصحبة ضارى ، كان على علاقة بخدمة الأتراك فى أقصى الشمال .

(١٨) ربما كان العبدة يشكلون الفخذ الرئيسى من الشمَّر ، وهو يضم الفخوذ والأقسام التالية : آل جعفر ، بقيادة وادى بن على وعباس بن على ، من سلالة أسرة على المالكة التى حكمت حائل ، باعتبارهم إقطاعيين تابعين لابن سعود ، إلى أن انتقلت الإمارة بواسطة تركى بن سعود إلى عبد الله بن الرشيد مقابل الخدمات التى قدمها له . وآل فاضل بقيادة متنى Matni بن شريِّم . ثم آل المفضل ، وينقسم ولاؤهم بين كل من ابن الرشيد وابن سعود ، أبرزهم الشيخ ملبس Mulbis بن جبرين ، وشيخ آخر هو برجاس بن عبيد ، بعد أن انضم للإخوان فى الوقت الذى كان فيه عقاب بن عجيل قد انضم إلى جانب العجيمى .

(١٩) من بين الشيوخ الأقل منه منزلة والذين كانوا معه عيبان 'Aiban بن مايق Maiq وعيادة 'Aiyada بن زويمل .

(٢٠) يقال إن الماء يوجد هنا على عمق ثلاث قامات (أى ثمانية عشر قدماً) فقط ، كما يقال أيضاً إن الماء يوجد فى منطقة عجيبَّة 'Ajibba ، خلف الدهناء على عمق أربع قامات فقط.

(٢١) نقلاً عن ضارى فإن الأقسام التابعة لقبيلة حرب والموجودة حاليًا على أراضى ابن سعود هى : بنى عمرو بقيادة ناهس Nahis بن ضويبى ، وبنى على بقيادة محسن الفيرم Al Firm ، والفريد بقيادة ابن حماد وابن هضيب ، وبنى سالم بقيادة ابن ناهيت Nahit، والوهوب Wuhub بقيادة ابن ساعدة ، فضلاً عن أقسام أخرى صغيرة .

(٢٢) واحدة درهم ، بمعنى نقود .

(٢٣) انظر ص ٢٤٧ حاشية (٣)

(٢٤) على بعد مسير حوالى خمس ساعات فى اتجاه منبع تلك القناة توجد أبيار الدليمية ، ومن خلف تلك الأبيار فى المنخفض نفسه وفى اتجاه الشمال يوجد مسقى الرُخيْميَّة ومسقى التُقيْد فضلاً عن مساقى أخرى . والفليج الجنوبى ليس فيه أبيار ، برغم كلام العرب عنه وكأنه يشكل جزءًا من المنخفض نفسه الذى تقع فيه أبيار الصفار ولكنى أشك فى ذلك .

(٢٥) هذا النبات له بعض الخصائص الطبية ، ولا تقربه الجمال إلا بمعدل قضمة واحدة بعد كل عشرين قضمة من النباتات الأخرى ؛ لأنه نبات حار حسبما قالوا لى .

(٢٦) كل جزء من البئر له اسمه الخاص : فهناك البير أو الجالب بمعنى : بئر ، مقام : عمود ، محالة : بَكرة ، مخطار : مسمار من الحديد ، جارو : غدير أو حوض ؛ دلو : جردل ، الراجى : الجزء المتصالب من الدلو ، الريشة : حبل ، مِجر : منحدر مائل .

(٢٧) هذه القناة ، شأنها شأن الفُليْج الشمالى ، التى تسير موازية له ، تحمل مياه صرف الجزء الشمالى من الدبدبة إلى وادى الباطن ، ومقابل نقطة دخول تلك القناة إلى وادى الباطن يوجد مصب مجرى الفاو الجنوبى المثيل المقابل للفلَيْج الجنوبى ، الذى يسير موازيًا له إلى أن يدخل وادى الباطن من ناحية الجنوب . والناس هنا يتكلمون عن هاتين القناتين ويقولان لهما الفيوان Al Fiwan ، وهاتان القناتان خاليتان من الآبار ، بالرغم من أبيار قُبَّة Qubba والجلط (حفر المياه فقط تبدو وكأنها واقعة فى روافد الفاو الشمالى) .

(٢٨) يقولون له هنا الفقع وينطقون القاف جيمًا (وهو نوع من الفطر الذى ينمو تحت سطح الأرض) .

(٢٩) كان لون التربة بنيًا يميل إلى الاحمرار ، وكان العشب الذى يغطى تلك التربة من نوع السمعة Sam'a فى معظمه ، مع قسم كبير من نبات شوكى ينتج زهورًا صفراء اللون ويسمونه النقط Niqt ، فضلاً عن عشب مثمر أخضر صغير يسمونه الهثارة Hathara ، وشجيرة جافة منخفضة يقولون لها الخضار Al Khudhdhar .

(٣٠) انظر صفحة ١٢ وما بعدها .

(٣١) لا تشتمل الحياة النباتية فى تلك الوديان إلا على عشب السمعة Sam'a ، ونبات آخر يسمونه الروثة ، تستسيغه الجمال ، وهو يشبه العرفج Arfaj ، فضلاً عن بعض الأماكن التى تنمو فيها أشجار السدر .

(٣٢) انظر صفحة ٤٧ وما بعدها .

(٣٣) يطلقون هنا على تلك الشقوق اسم خارْقة أو خَارِقة .

(٣٤) المصطلح الذى يطلقونه على ذلك الحجر الرملى الأحمر هو صليوخ ، وهذا المصطلح يستعمل أيضًا للدلالة على أحجار غريبة أسطوانية (مرجانية ؟) شاهدتها أو صادفتها فى أقصى الجنوب فى أثناء رحلتى إلى الرياض . انظر صفحة ٤٩ وما بعدها .

(٣٥) عند بقعة من الأرض تنمو فيها أشجار السدر ، ويطلقون عليها اسم الخمَّة .

(٣٦) العرفج والأرطة والقرضة والقاة Alqa الصغير ، وكلها من الأعشاب متعددة السيقان . والموساى والسبات وهما من الحشائش . والحماة ، والكراث والحماميس والخرشاف ، وهى من النباتات المزهرة . ويبدو أن الثعابين تكثر فى تلك المنطقة ؛ نظرًا لأننا قتلنا ثلاثة منهم ، اثنين من فصيلة الحنيش ، والثالث ثعبان له رأس تشبه الماسة يطلقون عليه اسم الحيَّه . أما مصطلح داب (وجمعه ديبان) فهم يطلقونه على الثعابين على اختلاف أنواعها .

الفصل السابع

زيارة الرياض مرة ثانية

١- هضبة عارمة

كانت المراعى من حول مخيمنا ترعى فيها إبل وأغنام ، أما الإبل بلونها الأسود فكانت تدل على أنها تابعة لبدو عتيبة أو لبدو حرب ، الذين يبدو أنهم يحتكرون ماشية داكنة الألوان ، أما أسباب ذلك وبخاصة عندما نجد أن الأغنام السوداء هى السائدة فى كل قطعان البدو ، وذلك على العكس من أغنام قبائل رعاة نهر الفرات ، التى تتميز كلها باللون الأبيض . واقع الأمر أننى لا أستطيع أن أقصع بالأسباب التى تقف وراء ذلك . هنا سرعان ما اكتشفنا أن معسكر جيراننا كـ ن يضم عناصر من حركة الإخوان من فخذ الربيعان من قبيلة عتيبة ، وأن تلك العناصر مستقرة فى ذلك الوقت مع المطير فى الأرطاوية .

كان الرجال الذين أوفدناهم لجلب الماء قد فشلوا فى العثور على معسكرنا ، واستمر ذلك الفشل إلى ساعة متأخرة من الليل ، الأمر الذى جعلنا نسقطهم من حسابنا وننام بلا عشاء ، والسبب فى ذلك أن ضيدان كثير التأمل كان قد استعمل حثالة الماء المتبقى من الماء الذى جلبناه من الحفر أو من البرجيسى فى عمل شىء من الشاى لى أنا شخصيًا، ذلك الشاى الذى اضطررت إلى شربه ، وعلى الرغم من عدم استساغتى له ، فإننى كان لابد أن أتظاهر بأنى أتمتع به بحق . ومع ذلك ، ومن قبيل إنصافى لنفسى ، ينبغى أن أقول إن غازى Ghazi ، وهو فرد من أفراد عشيرة

ضارى ، وكان أيضًا من بين مرشدينا فى أثناء الرحلة ، راح يسلينا طوال المسيرة ويحكى لنا كيف أنه هو ووالده من قبله كانا يخدمان بهذه الكيفية نفسها فى كثير من الغزوات التى كان الشمَّر يقومون بها فى الماضى ، وكيف أنهما استطاعا أن يكتسبا من ذلك معرفة واسعة وجيدة بكل أنحاء هذه البلاد . وهنا يتعين علىَّ أن أقول إن ذلك الغازى هو الذى أتى على الماء كله الذى كان فى قاروورتى . وعندما عادت جماعة الماء اكتشفنا غياب واحد منها ، وانتهى البحث عنه فى اليوم التالى بالفشل ، وهنا قلنا إما أن يكون قد ضل طريقه ، وأنه سوف يتجه مباشرة إلى مخيم ابن سعود ، أو أنه – وهذا من قبيل التشاؤم – وقع ضحية للعبة دنيئة من جانب ألاعيب خائن غادر من المطير ، نظراً لأن ذلك الرجل تصادف أن يكون واحداً من تلك القلة القليلة من بين جماعتنا التى اعتادت التدخين ، وقد بدأت عادة التدخين فى الاختفاء بشكل سريع فى الصحراء ، ويرجع السبب الرئيسى لذلك إلى النفوذ الذى تتمتع به الدعوة الدينية المتشددة . وعلى كل حال ، لم يكن هناك بد من شطب ذلك الرجل ، باعتباره مفقوداً فى الوقت الراهن ، ولم نبرئ المطير من مسئوليتهم عن نهاية ذلك الرجل المفاجئة إلا بعد ذلك بيومين عندما وجدناه سليمًا معافًى فى مخيم ابن سعود.

والناس هنا يتكلمون عن القسم الشمالى من هضبة عارمة ، الذى هو عبارة عن سهل قفر لطيف التموجات الرملية ، يمر فيه طريق البيهص Baihis الرئيسى الموصل إلى أبيار القيعية Qai'iyya ، ويتفرع منه طريق فرعى آخر يوصل إلى أبيار الدجانى Dijani فى أقصى الشمال ، الناس هنا يتكلمون عن هذا القسم فى بعض الأحيان ويطلقون عليه اسم الجلد Al Jalad أو قد يقولون له الصفرة Al Safra(١) ، وهذا المصطلح معناه الأرض الخراب أو الأرض القفر ، هذا على الرغم من أن ذلك القسم يختلف عن الأقسام الأخرى فى أن سطحه أكثر نعومة عن الأجزاء الجنوبية من تلك الهضبة . وبشكل عام ، تعد منطقة عارمة هضبة تنحدر انحداراً هيناً فى اتجاه الدهناء ، على شكل جرف متباين الارتفاع والانحدار متجهاً من المنطقة المجاورة للأرطاوية Artawiyya نحو الجنوب الشرقى محاذيًا للحزام الرملى ، وعلى بعد مسافة تقدر

بحوالى عشرة أميال من ذلك الحزام . وأقع الأمر أن ذلك المنحدر هو الأول ، بل والأكثر انخفاضًا بين سلسلة من المنخفضات التى تتكون منها منظومة الطويْق Tuwaiq ، ثم ترتفع تلك المنخفضات ارتفاعًا متدرجًا إلى أن تصل إلى سلسلة الجبال المرتفعة التى تمتد محاذية لقمة الصخور الشرقية من ذلك الحاجز الجبلى .

وأبيار القيعية تقع على مسافة عشرة أميال تقريبًا فى اتجاه الجنوب الغربى ، وموقع تلك الأبيار واضح ، ولا يخطئه أحد نظرًا لكثرة الرُّجم(*) المقامة فى الأماكن المرتفعة هنا وهناك ، ومن حول تلك الآبار ، ليهتدى بها الظامئون فى الوصول إلى مياه تلك الأبيار ؛ وهنا رجم من تلك الرُّجم على جانب من جانبى طريق البيهص Baihis ، ويبعد ذلك الرجم عن مخيمنا قرابة أميال ثلاثة ، والناس يطلقون على ذلك الرجم هنا اسم رجم المفرِّح Rijm al Mufarrih ، والسبب فى ذلك أن المسافرين القادمين من الشرق يفرحون عندما يرون ذلك الرجم ، لأنه يوحى لهم بأنهم أصبحوا قريبين جداً من هدفهم المبتغى ، وعلى مسافة بعيدة ألقينا نظرة عابرة على ساحل المجزَّل Mujazzal فى اتجاه الطويق .

والأبيار التى يصل عددها إلى حوالى ثلاثين بئرًا تقريبًا ، وعلى الرغم من أن بعضها مردوم أو لا يستعمل ، تقع فى منخفض دائرى ضحل عند قاعدة منحدر قادم من الحافة الخارجية للسهب ، الذى يوجد خلفه وادى البطين Butain . وهذه الأبيار يتراوح عمقها بين خمسة عشر قدمًا وعشرين فى الحجر الجيرى ، وهى مبطنة بكتل مقطوعة من الحجر الجيرى أيضًا ، ويصل ارتفاع هذه البطانة إلى حوالى ثلثى عمق البئر ، ومياه تلك الآبار غزيرة وممتازة ، كما أن إبلنا التى سبق أن سقيناها قبل خمسة أيام من أبيار الحفار راحت تعبُّ مياه أبيار القيعية عبًا ، الأمر الذى أثار دهشة أصحاب هذه الإبل ، الذين أقروا بأنهم لم يسبق لهم أن وقفوا على شغف الإبل بالماء وتطلعها إليه بمثل هذا النحو فى فصل الربيع .

(*) الرُّجم : بتشديد الراء وتسكين الجيم ، هو التل من الحجارة توضع لتحديد موضع ما . (المترجم)

وعندما وصلنا أبيار القيعية وجدنا بعض الرعاة يسقون قطعانهم ، ولكن توفر لنا بئران أو ثلاثة أبيار ، الأمر الذى جعلنا ننهى مهمتنا على أسرع وجه . كان الموقع المفترض لمخيم ابن سعود - وذلك بناء على التحويلة التى سرنا فيها - هو الجنوب الشرقى ، ولذلك يممنا مسيرنا صوب ذلك الاتجاه ، ومع ذلك ، كنا ننحرف فى أحيان كثيرة ناحية الشرق ، مستهدفين من ذلك وضع الدهناء بين أحضاننا ، وبخاصة أن مخاريطها الرملية العالية - التى يكسوها اللون الأرجوانى حاليًا - بدأت تلوح لنا فى الأفق .

وبعد أن تركنا السقيا ، أو إن شئت فقل منطقة الأبيار ، سرعان ما بدأنا نتجاوز هنا وهناك مجموعات صغيرة من الخيام ، غالبيتها من إخوان قبيلة عتيبة ، من جماعة القرينية Qurainiyya . كانت تلك المجموعات تضم مشاهد جميلة من السلام الرعوى، فتلك هى قطعانهم السوداء ، وهى مبعثرة ومنتشرة من حولهم ، أو تستلقى فى غير انتظام فيما بين الخيام ، وهنا سارعنا إلى واحدة من تلك الخيام طلبًا لشربة لبن رائب لذيذ ، أو إن شئت فقل لبن الغنم ، كل ذلك ونحن نشاهد تلك المرأة وهى تؤرجح تلك الخضّاضة ، أو إن شئت فقل السميل Samil التى تصنع من جلد الماعز ويستعملونها فى صناعة ذلك اللبن .

كان ذلك الجدب الشديد يتباين من حين لآخر بفعل ظهور بعض مساحات صغيرة من شجيرات الأوشاز وظهور أشجار الطلح من حين لآخر ، وكذلك أشجار السنط ، على حين كانت نباتات الرمض Rimdh ونباتات السِّيه Sih الشوكية ، وكذلك نباتات العرفج تكسو المنخفضات . وفى أواخر منطقة الجَلَد Jalad توقفنا عند الظهيرة طلبًا لشيء من الراحة ، وجاءت تلك الوقفة فى شعب ضحل يبعد أقل من ثلاثة أميال عن سلسلة جبال بطرة Batra ، التى أحصيت من خلفها ما يزيد على إحدى وعشرين قمة رملية . وفى أقصى الجنوب كانت سلسلة جبال بطرة Batra تنتهى إلى سلسلة جبلية أخرى يطلقون عليها اسم الأبواب Abwab ، يسير خلالها ممر ضيق يحمل مياه صرف عارمة إلى حافة الدهناء نفسها . يضاف إلى ذلك أن سلسلة جبال أبواب تسلم هى الأخرى فى أقصى الجنوب إلى سلسلة من الجبال الرملية التى يسمونها عريق خلف 'Araiq Khalaf ، والتى تتصل

هضبة عارمة عند أقصى طرفها الشمال بجناح من جناحى الدهناء ، وفى مقابل سلسلة جبال الأبواب Abwab يتميز الطرف الغربى من هضبة عارمة ببروز رجمين هما رجما الضيرين al Dhirain ، اللذين يشيران إلى مهبط يمكن اجتيازه من سلسلة الجبال وصولاً إلى السهل الموجود خلف ذلك الرجم .

وقبيل الغروب سعدت أنظارنا بمنظر عبارة عن خط طويل من الأشجار ، كان يمتد عبر السهل ويتعامد على الطريق الذى كنا نسير فيه ، وهنا سرعان ما بدأنا توجيه إبلنا إلى ضفتي شعب أصال Asal ، الذى هو عبارة عن مجرى ضيق من مجارى السيول ، والذى يبدأ بالقرب من سقيا الشهامة Shahama ، على بعد حوالي اثنى عشر ميلاً فى الجنوب الغربى ، على حافة هضبة عارمة ، ثم يسير مارًا بالمنحدر إلى أن يصل إلى حافة الدهناء ، حيث تضيع مياه فيضانه فى الأرض فى منخفض يطلق الناس عليه هنا فى لغاف Lughaf . اسم الحيرة Haira وأشجار السنط التى تكسو ضفاف شعب أصال وصل ارتفاع الواحدة منها إلى ثلاثين قدمًا ، وهذه إشارة تؤكد وفرة المياه ، شأنها فى ذلك شأن بعض ثقوب أو حفر المياه التى جرى حفرها مؤخرًا ، والتى أمكن الحصول على الماء منها على عمق لا يزيد على ثلاثة أقدام ، فى مجرى القناة . ومع ذلك ، وفى موعد وصولنا إلى هذا المكان كانت تلك الثقوب أو الحفر جافة ، غير أن الأشجار كانت تمثل أول الأشجار الحقيقية التى وقعت عليها أنظارنا منذ أن تركنا الزبير وراءنا منذ ما يقرب من أربعة عشر يومًا .

كنا قد أتعبنا ذلك المسير الذى قطعنا خلاله ثلاثين ميلاً ، وبدأ ضارى يشكو من صداع ، عالجته منه باستعمال أقراص الفيناستين Phenacetin ، كما نصحته بالتزام الراحة الكاملة وعدم أداء صلاة المغرب . والغريب حقًا أنه التزم بالتوصية الأخيرة التزامًا ضمنيًا ، الأمر الذى أدهشنى إلى حد ما ، والسبب فى ذلك أن الشمَّر رغم مبالغتهم فى التدين ، يواظبون دومًا على اتباع تعاليم دينهم وعقيدتهم ، وعلى الرغم من إعراب الشمَّر عن تململهم بين الحين والآخر ، من خلال الصمت وعدم النشاط ، فإننى سعدت عندما رأيت الصداع يختفى ، وضارى جالسًا يتناول عشاءه بشهية

مفتوحة . غياب المهارة الطبية تعد نقصاً خطيراً فيمن يترحل فى الجزيرة العربية ، وقد مرت بى مناسبات ندمت فيها على قلة خبرتى فى فن الشفاء ، الأمر الذى لا أتجرأ مطلقًا على تناول تلك المسائل الطبية والاقتراب من التعامل مع الأدوية اللهم باستثناء الأقراص والحبوب ذات الصيغة العامة والمعروفة للكافة ، وحتى وصفى لمثل هذه الأقراص وتلك الحبوب كان بحذر بالغ وبجرعات ضعيفة جداً . وفى المناسبة الوحيدة التى خاطرت فيها ونصحت باستعمال مرهم الزنك فى علاج أصبع أصيب بجرح ظل الضحية يشكو فترة من الوقت ، من آلام مبرحة زَحَفَت على ذراعه بكامله ؛ الأمر الذى جعلنى أحسب أننى أصبته بالتسمم . هنا أصبحنا وحدنا فى مخيم الظهيرة ، بعد أن أرسلت ضيوفنا من الصلوبة إلى حال سبيلهم بعد أن أعطيتهم الهدايا المناسبة ، وبعد أن وعدتهم بمزيد من الهدايا عندما يعودون إلىّ ومعهم النعامة والوعل اللذان وعدوا بإحضارهما لى ، وغنى عن القول أننى لم أر أولئك الصلوبة بعد ذلك .

وفى صبيحة اليوم التالى استأنفنا مسيرنا مبكراً فى تصميم منا على الوصول إلى مبتغانا قبل حلول الليل ، غير أننا لم نحقق هذا الهدف إلا بزيادة معدل مسيرنا ومسير دوابنا إلى ما يشبه الخبب ؛ الأمر الذى جعلنا نقطع ما يقرب من خمسة أميال فى الساعة الواحدة خلال فترة العصر . كان المسير هيناً على الهضبة الواسعة ، التى كانت تتدهور أمامنا ، كلما اقتربنا من خط شعب شوكى Shauki ، متحولة إلى منخفضات منحدرة إلى ناحية الغرب ومحاذية للحافة الخارجية للهضبة ، لتصل إلى سلاسل الجبال الوعرة التى تآكلت بفعل عوامل التعرية ، والتى ينبع منها الشعب ، والتى يهبط منها أيضًا على شكل مجرى ملتوٍ يتجه صوب الشمال الشرقى ، إلى أن يجرى امتصاص مياه ذلك الشعب فى منخفض يطلقون عليه اسم فيضة التنحة Tanha Faidhat عند حافة صحراء الدهناء . وفى الدهناء ، وانسجامًا مع هذا المنخفض ، يظهر مًا يمكن أن نسميه آخر المخاريط الرملية، الذى هو عبارة عن القمة الوحيدة التى يطلقون عليها اسم نقيعة التنحة Nuqi'at Tanha .

كان المسير على ما يرام باستثناء بعض الأحداث العارضة ، مثل مرورنا ببعض المخيمات العتيبية الصغيرة ، ومخيمات أخرى للإخوان ، والتى حظينا فى بعضها بالكرم

الذى تمثل لنا فى اللبن ؛ كما عثرنا أيضًا على واحد من أعشاش الحبارى وبه أربع بيضات ، وهذا عدد غير معتاد أو معهود فى رأى ضيدان ، الذى جزم بأن طائر الحبارى يندر أن يضع أكثر من ثلاث بيضات . كما شاهدنا أيضًا مجموعة من أشجار الطلح مكتملة النمو ، كانت تنمو فى شعب صغير يطلقون عليه اسم الوديع Wudai' . ولكن الأهم من كل ذلك ، فزَّاعة ، أو شىء شبيه بها ولكنه فى غرض مختلف تمامًا ، كان ذلك الشىء عبارة أبه Aba ، أو إن شئت فقل : مشلح عام مركب على عمود ليقوم مقام الراعى ، الذى ربما كان نائمًا أو يرتشف القهوة فى خيمته ، والسبب فى ذلك ، أن الراعى العربى شأنه شأن أمثاله من الرعاة ، ابتكر وسيلة الخيُّول Khaiyul – كما يسمونها – لتمنع تشتت قطيعه فى اتجاه غير الذى يريده هو ، إذ سبق لمثل هذا الراعى أن اكتشف من تجاربه ومن خبرته أن الحملان والجديان على الرغم من أنها ليست أغنامًا كاملة النمو يمكن أن تبقى ساعات فى مكانها ترعى هادئة وادعة من حول تلك الدمية ظنًا منها أن تلك الدمية هى راعيها . وفى ذلك كان العتبان يفطمون أولئك الحملان والجديان الصغار ويجمعونهم سويًا كى ينعموا بكونهم أغنامًا وماعزًا ، وقد كان لتلك القطعان شكل جميل بحق .

أخيرًا وصلنا إلى قناة شعب شوكى Shauki ، ونظرًا لأننا لم نكن على معرفة وثيقة بموقع مخيم ابن سعود ، كان لابد أن نسير فى منحدر وادى شوكى المتعرِّج . كانت الحياة النباتية الوفيرة والغزيرة فى الوادى تبعث روائح طيبة فى هواء المساء ، كما أن برك المياه الراكدة هنا وهناك كانت تشير إلى انتهاء موسم الفيضان منذ وقت قريب ، ولكن جزءًا صغيرًا من طريق تقدمنا كانت تعترضه سلسلة من البحيرات الصغيرة التى كانت تمتد من الضفة إلى الضفة الأخرى ، وكان عرض بعض تلك البحيرات يتراوح بين عشرين قدمًا وثلاثين ، كما أن طول الواحدة منها كان يصل إلى مائة ياردة بالتمام والكمال ، كما أن عمقها كان يصل إلى قدم واحد أو أكثر من قدم . وهنا توقفنا كى تشرب دوابنا من مياه السيول العذبة ، التى راحت تخوض خلالها وقد غطت ركباتها ، ثم واصلنا مسيرنا بعد ذلك صاعدين إلى أعلى المنحدر على الضفة اليسرى ، إلى أن وصلنا إلى قمة ذلك المنحدر ، ومنها بدأنا نرى

منظراً لمدينة حقيقية من قلاع المراكب ، إذ كانت خيام المخيم الوهابى تنتشر فوق مساحة كبيرة من المنخفض الذى أمامنا ، وفى وسط كل تلك الخيام كانت هناك خيمة بيضاء واضحة عرفنا أنها مركز رئاسة ابن سعود .

٢- الجوم الوهابى فى المخيم

بعد أن أصلحنا بشوتنا من حول أجسادنا - إذ من عادة العربى فى الصحراء أن يلقى بشته خلفه فى الطقس الحار ، على الجزء الخلفى من سرج الجمل ، على الرغم من أنه لا يحلم مطلقًا بدخول بلدة من البلدان أو مخيم من المخيمات دون أن يكون مرتديًا بشته بالطريقة الصحيحة - وضممنا صفوفنا فى أثناء نزول المنحدر ، ثم دخلنا بعد ذلك إلى الحدود الخارجية للمخيم على شكل طابورين يسيران كتفًا إلى كتف ، مع وجود كل من ضارى وأنا معه فى المقدمة . ولابد أن عددنا ، الذى كان ستين ونيفًا ، كان منظراً مشهوداً ونحن نشق طريقنًا متجاوزين الخيام الخارجية إلى مجموعة الخيام المركزية ، وكل العيون - أو هكذا بدا لى الأمر - مركزة علينا . وراودنى إحساس غريب بالانقباض ، وأنا أعلم أن ضارى هو وأتباعه كانوا يشعرون بالقلق بعض الشىء ، إزاء ظهورهم بلا دعوة أمام جماعة الوهابيين . ووقفنا على بعد مسافة معقولة من الخيمة الكبيرة فى المساحة الواسعة التى كانت تحيط بها ، وإن هى إلا دقائق معدودات قبل أن نفيق من حيرتنا ، حتى طالعنا منظر رجل يخرج من الخيمة متجهًا نحونا ، وكان ذلك الرجل هو إبراهيم .

تلك هى الملامح المميزة لذلك الرجل من بين أولئك الرجال الذين سبق أن رافقونى إلى جدة ، والذين أكن لهم كراهية شديدة ، اعتملت فى داخلى فى ظل ظروف وصولنا غير السعيدة ، وولدت فى داخلى أيضًا الإحساس بالعودة إلى الوطن بعد غياب ، وتبادلنا التحيات الحارة والودية أيضاً ؛ ووجهنا إبلنا مثلما طلب منا ، وبعد أن قدمت له كلا من ضارى وسلطان ثم الأعضاء المهمِّين من جماعتنا ، سار أمامنا بلا أى ترحيب

من أي نوع كان ، صوب الخيمة الكبيرة . ومن بين الحراس الذين شاهدتهم عند باب الخيمة تعرفت على سعد اليمينى al Yumaini الذى بدا عليه القلق والاضطراب لإصرارى على تبادل بعض كلمات التحية معه وإصرارى أيضًا على مصافحته قبل الدخول إلى الخيمة . كانت أرضية الخيمة كلها مفروشة بالسجاد ، فى حين كانت ، فى الجانب الآخر ، كنبة منجدة من السجاد ومخاد يصل سمك الواحدة منها إلى ما يقرب من القدم ، ووسط تلك المخاد كان يوجد سرج جمل مزركش ، كان ابن سعود يتكئ عليه عندما دخلنا الخيمة . ونهض ابن سعود من مكانه عندما دخلت وضارى يسير إلى جانبى ، ومن خلفنا بقية أفراد الجماعة ، وتقدم ابن سعود نحونا وحيًا كلا منا بتحية البدو البسيطة ، وبعدها جلسنا حسب أهميتنا فى أجناب الخيمة ، فقد جلست أنا ومُضيفى متكئين على جانبى السرج ، فى حين كان ضارى يجلس بعد ابن سعود على الجانب الآخر . وعلى الفور جاءت القهوة ، وبعد لحظات قليلة من الحديث الشكلى انسحب كل من ضارى ورجاله متعللين بالتحضير والاستعداد لصلاة المغرب ، وبقيت مع ابن سعود وحدنا حتى غروب الشمس ، عندما خرج هو أيضًا ليحتل مكانه فى الصف المزدوج الذى كان يضم المصلين ، الذين كانوا قد تجمعوا لصلاة مغرب الجمعة[٢] خارج الخيمة ، أما أنا فقد بقيت انتظارًا لنصب خيمتى . وأعقبت الصلاة خطبة أو موعظة طويلة ، ألقاها صاحبها بنبرات غليظة متشددة وولَّدت لدى انطباعًا – على الرغم من أننى لم أسمع ذلك الذى كان الخطيب يقوله – مفاده أن الخطيب كان يفضح الكفار كلهم ويدين أعمالهم السيئة .

لم يعد ابن سعود إلى الخيمة بعد الصلاة ، ولكن زارنى شخص أصبح فيما بعد من أصدقائى المقربين ، بل إنه كان عضوًا ضمن وفد وسط الجزيرة العربية الذى زار إنجلترا فى النصف الثانى من عام ١٩١٩ الميلادى ، وقدم عبد الله القصيبى نفسه إلىَّ باعتباره وكيل أعمال ابن سعود فى البحرين ، التى يشكل فيها هو وإخوانه الأربعة شركة رائجة تعمل فى تجارة اللؤلؤ والتجارة العامة ، ولها فروع فى كل من الهفوف وبومباى . كان ابن سعود قد ذهب فى موعد سابق إلى الأحساء ، حسبما قال لى ،

متوقعًا مجيئى إليها ، ولكنه منذ حوالى خمسة أيام واعتباراً من بدء رحلتى ، وصله خبر تلك الرحلة ، ولذا أصدر أوامره بالعودة فوراً إلى شوكى Shauki ، التى وصلوا إليها قبل ساعات قليلة فقط من وصولنا ، إذ سافروا على عجل عن طريق جبل جودى Mount Judi . كان عبد الله برفقة رئيسه ، الذى كان لابد من إنجاز كثير من الأعمال وهو برفقته ، وكان قد اقترح علىَّ الحضور إلى الرياض لقضاء أشهر عدة فيها قبل العوة إلى الشاطئ فى الطريق إلى بومباى . وفى الوقت المناسب أبلغونى أن خيمتى أصبحت جاهزة ، ثم انتقلت إليها كى أغتسل وأتناول الغداء ، ولكن على الرغم من الإرهاق الشديد فقد استدعونى بعد تناول الغداء مباشرة إلى خيمة ابن سعود ، التى بقيت فيها ساعتين ، تاركًا له حرية الكلام طوال ذلك الوقت ، قبل أن أخلد إلى النوم فى خيمتى . اصطبغ حديثى مع ابن سعود بالصبغة العامة ولم نتطرق إلى الأمور المهمة ، التى طلبت منه الاحتفاظ بها إلى الغد ، عندما أكون أكثر حيوية ونشاطًا .

امتدت رحلتى إلى شوكى من مساء اليوم الحادى عشر إلى صباح اليوم السادس عشر من شهر أبريل ، أى أنها دامت خمسة أيام لطيفة من أيام المخيمات ، كرست نفسى خلالها للأعمال المتعلقة بالمهمة الموكلة إلىَّ ، وقمت خلالها بمتطلبات الحياة الاجتماعية التى واجهتنى . وكانت الرحلات الاستكشافية إلى المناطق المحيطة بنا أمراً لا مفر منه ، نظراً لأن إبلنا ، بما فى ذلك إبل جماعة ضارى نفسها ، كانت كلها ترعى فى مناطق بعيدة عنا ، يضاف إلى ذلك أن الأمر لم يكن يغرى بالتجوال فى بلاد لا تختلف طبيعتها العامة اختلافًا كبيراً عن طبيعة المنخفضات التى اجتزناها أو مررنا بها بالفعل ، أو حتى طبيعة تلك الأراضى أو البلاد التى يُنتظر أن نمر بها ونحن فى طريقنا إلى الرياض . كانت القوات الوهابية قد أمضت القسم الأول من فصل الربيع فى المنطقة المحيطة بأبيار حفر العتس Hafar al Ats فى الناحية الجنوبية ، ولكنها جاءت إلى هذا المكان بسبب وفرة المراعى وسهولتها فى المنطقة المجاورة ، وبخاصة بعد أن تتخلف عن الفيضانات مياه كثيرة تكفى لمثل هذا الحشد من البشر والدواب فى منخفضات ذلك الشعب . والسبب فى ذلك أن تلك المنطقة لا يوجد بها أى نوع من

الأبيار ، وهذا الجزء من البلاد الذى يمتد إلى الجنوب من تلك النقطة إلى أن يصل إلى خط طريق البيهص Baihis يطلق الناس عليه هنا اسم الديرة ، أو إن شئت فقل منطقة قبائل السبيع Subai' والسهول Suhul ، التى تشترك فى حقوق الرعى فى مساحة كبيرة تمتد من خط وادى حنيفة شرقًا لتشمل هضبة عارمة والدهناء ثم تمتد بعد ذلك إلى سهوب الصُّمان .

كانت خيمتى الصغيرة التى تزن أربعين رطلاً ، منصوبة ضمن منطقة الخيمة الملكية مسدودة المسالك ، وبذلك كانت تبدو كما لو كانت قزمًا بين العمالقة ، على الرغم من أنها كانت على مسافة قصيرة من خيمة الملك ، ولكنهم كانوا قد خصصوا لى خيمة كبيرة أخرى كى أستعملها حسب الظروف حمامًا وغرفة للطعام . وعلى الرغم من كل ذلك الذى حدث ونحن فى الطريق إلى جدة ، فإننى وجدت إبراهيم من جديد مسئولاً عن كل ما يخصنى من ترتيبات ، فضلاً عن مسئوليته أيضًا عن تلك الجماعة الصغيرة من الخدم الذين خصصوا لتلبية طلباتى وأداء الخدمات المطلوبة لى . من هنا كان إبراهيم رفيقًا ملازمًا لى اعتبارًا من إحضاره الشاى لى فى الصباح ومعه البقسماط إلى أن أذهب للنوم، فضلاً عن وجوده أيضًا فى مواقيت تناول الطعام . أما سعد اليمينى ، المشغول حاليًا بالمهام المكلف بها ضمن هيئة الموظفين الخاصة بابن سعود ، فقد زارنى فى أحيان كثيرة ، وكان يفعل كل ذلك كلما سنحت له الفرصة بذلك ، من أجل التدخين سرًا أو إن شئت فقل خلسة ، وفى مثل هذه الظروف كانت تلك الخيمة الصغيرة وبخاصة بعد إسدال رفارفها تحسبًا للفت انتباه المارة ، ونحن الثلاثة مكدسين داخلها فى مكان ضيق ، تبدو وكأنها وكر من أوكار الرذيلة وسط معابد الصفوة . كان تجمعنا على ذلك النحو يجعلنا فى مأمن من فضول المتطفلين ، ولكن حدث ذات مرة أن راح ضيوفى يهنئون أنفسهمً على النجاة بأعجوبة من مأزق غريب . حدث أن كان هذان الضيفان يدخنان معى بينما كنت فى فراشى بعد تناول شاى الصباح ، وفجأة وصلنا مراسل يعلن قدوم ابن سعود بنفسه إلى خيمتى . ولم يكن هناك مفر أمام كل من إبراهيم وسعد إلا أن يضعا غليونيهما أسفل فراش نومى

ويخرجا مسرعين من الخيمة لتحية سيدهما ، وهنا ظهر ابن سعود على باب خيمتى ودخلها بدون رسميات . ومن حسن الحظ أن ابن سعود جاء لاستشارتى فى أمر ما ، فى تلك الساعة المبكرة من الصباح - واقع الأمر أن زيارة ابن سعود لمحل إقامتى سواء كان ذلك فى مخيم أو فى الرياض ، كان أمرًا نادرًا تمامًا - وكان ذلك الأمر مهمًا للغاية ، وعلى الرغم من أن عينىّ هما وخيالى اكتشفوا علب السيجار ، وعلب التبغ ، وكذلك غلايين التدخين ، وأعواد الثقاب فى كل ركن من أركان الخيمة ، فإننى واسيت نفسى بفكرة مفادها أنه إذا كان ابن سعود - على الرغم من عجالة الأمر الذى جاء من أجله - قد رأى كل هذه الأشياء ، واشتم هواء الخيمة الكثيف المحمل برائحة الدخان ، فإنه لن يربط بين وجود هذه الأشياء ووجود أولئك الرفاق . وعلى أى حال ، لم يتطور الأمر إلى أبعد مما وصل إليه .

ومن تتابع أحداث رحلتنا إلى جدة كان لهذين الاثنين - أو إن شئت فقل إبراهيم وسعد - رواية حزينة عن الآلام التى لحقت بهما وتتعلق بالرد على تساؤلاتى التى طرحتها عليهما حول بعض أعضاء الجماعة الآخرين الذين رافقونا إلى جدة . حكى لى سعد وإبراهيم أنهما بعد أن ودعانى على الرصيف ذهبا مباشرة إلى الشريف حسين وطلبا منه الرحيل عن طريق مكة ، وكان من الطبيعى جدًا أن ينتهز الشريف حسين فرصة زيارتهما المقترحة لعاصمته وأن يطلب من إبراهيم أن يحمل إلى مكة مبلغ ٤٠٠ جنيه إسترلينى ، كان الشريف يود إرسالها على وجه السرعة إلى هناك ، وسلمه الشريف فى ذات الوقت مبلغ ٦٢ جنيها إسترلينيًا أخرى لتوزيعها على الأعضاء الذين رافقونى ، على سبيل العطية . وعندما وصل إبراهيم إلى مكة قام على الفور بتوزيع المبلغ الثانى ، ولكن بدأ الناس يتهامسون بما يفيد أن سعدًا وإبراهيم لم يتصرفا تصرفًا سليمًا فى بقية المبلغ ، وأنهما اختلسا القسم الأكبر من عطية الشريف حسين . ربما يكون هذان الاثنان يقدمان أعذارًا لتلك الشكوك ، التى بنى عليها ذلك الاتهام ، مفادها أن السبب فى ذلك كان إسرافهما وحياتهما المنحلة فى المدينة المقدسة ، ولكن أيًا كان الصواب أو الخطأ فى مثل هذا الحال ، فإن عظيمة Izmai ، وبدر أبو سبع ،

ومعهم شاية Shaya ، قد تآمروا عليهما بإرسال رسائل لابن سعود حول هذا الموضوع من كل من مكة ومن القيعية فى أثناء رحلة العودة ، وجرى فى تلك الرسائل اتهام هذين القائدين بتبديد نقود الآخرين وصرفها على العاهرات والزانيات ، وعلى التدخين ، وإتيان أشكال أخرى من الرذيلة . وبعد أن تلقى ابن سعود تلك الرسائل ، وكان هو أيضًا حكى لى تلك القصة من وجهة نظره ، قرر أن ينزل أقصى العقوبات القانونية والعرفية على هذين الكافرين الملحدين الذين خانا ثقته بهما – وقد تقرر تقديمهما للمحاكمة عقب وصولهما أمام جماعة المصلين بعد صلاة العصر ، وأن يحلق شاربيهما ولحيتاهما ، وتنتف حواجبهما ، ويجلدا أو من حسن الحظ بعد ما أتيح لابن سعود وقت لتدبير الأمر ، قبل وصول هذين المتهمين ، الأمر الذى جعله يصدر قرار منحهما فرصة يستطيعان من خلالها تبرئة نفسيهما من تلك الاتهامات . ولم يجد هذان الاثنان صعوبة فى تفنيد تهمة الاختلاس فى الوقت الذى فشل فيه عظيمة ورفاقه المتآمرون فى الإتيان بما يثبت ذلك الاتهام أو الحياة المنحلة ، أو حتى ما يؤيد اتهام التدخين . وقلبت الموائد على المدعين ، الذين لقنوا درسًا بأن التلاعب بابن سعود خطأ كبير . وجرى تجريد هؤلاء المدعين من أسلحتهم على الملأ ، وطردوا من البلاد ، ورضخ كل من بدر وشاية Shaya لذلك الحكم، بأن انسحبا للعيش مع أقاربهم البدو ، بينما لجأ الأزمعى(٢) إلى بيت ابن سعود الخاص وبذلك يكون قد تحاشى الحكم بالنفى والطرد من البلاد ، وعاش عدة أشهر أيضًا ضيفًا على قاضيه ، إلى أن حصل عن طريق التدين والتزام حدود الدين ، على عفو سيده ، وموافقته على استئناف عمله ضمن حرسه الخاص . كنت قد التقيت عظيمة ذات مرة ، ولكنه مر من الجانب الآخر دون أن ينبس ببنت شفة أو يبدى أية إشارة من إشارات المعرفة . أما الاثنان الآخران فلم أرهما مطلقًا بعد ذلك . وحكى لى إبراهيم وسعد ، وهما يقشعران حكاية نجاتهما من ذلك المأزق الغريب . نظرًا لأنهما كانا مذنبين تمامًا . وبلا أى ظل من ظلال الشك ، ولكننى ابتسمت ابتسامة كئيبة عندما سمعته يعرب عن قناعته ببراءة هذين الشخصين فى كل الأحوال ، غير أن الأمر لا يعنينى ولا يهمنى أن أتدخل فى أمور العدالة العربية ، فى الوقت الذى كان تعاطفى فى غير صالح عظيمة هو ورفاقه ، وذلك

على الرغم من مشاعر الود التى أصبحت أكنها لهم خلال الرحلة التى قمنا بها سويًا . وفى تلك المناسبة سمعت أيضًا عن حالة أخرى من حالات دخول البيت هذه ، كنت أنا شخصيًا المسئول عنها ولكن بطريق غير مباشر . سبق أن قلت إن ابن سعود أجبر الأزمعى على مرافقتى إلى الحجاز على الرغم من أهوائه وتحيزاته العنيفة ، ولكنى سمعت الآن ولأول مرة أن شخصًا آخر من الإخوان ، اسمه ابن حُوَيِّر Huwair ، قد رفض صراحة إطاعة أمر من ذلك القبيل ، وأنه هرب إلى الأحساء حيث التجأ إلى عبد الله بن جلوى ، وبقى فى ذلك الملتجأ يتمتع بحصانة كاملة على الرغم من تهديد ابن سعود بقتله بلا رحمة إذا ما أمسك به بعيدًا عن ذلك الملتجأ . وبمناسبة زيارة الرئيس مؤخرًا للهفوف ، توسط عبد الله بن جلوى عند ابن سعود لضيفه غير المرغوب فيه ، ولم يكن أمام ابن سعود من خيار سوى أن يصفح ويعفو عنه عفوًا كاملاً ، ولكن ابن سعود عندما فعل ذلك انتهز الفرصة ليصدر تصريحًا شهيرًا يعبر عن موقفه إذ قال وهو يخاطب ذلك المذنب الذى صفح عنه : "انتبه ، أيها الكلب ، انتبه إلى الملابس التى ألبسها ، بل ، وإلى الطعام الذى آكله – كل ذلك ، أنا أحصل عليه من الإنجليز ؛ فكيف لك أن تتجرأ على الإساءة إليهم ؟ اذهب ، أيها الكلب ، لقد أنقذتك وساطة ابن جلوى من الموت" .

كان الطقس فى تلك الأيام متقلبًا وغير ثابت الأطوار تمامًا ؛ إذ كانت درجة الحرارة تشرح الصدر لأنها كانت تتراوح بين ٦٩ درجة فهرنهيتية عند الساعة السابعة صباحًا ، ومعدل لا يتجاوز بأى حال من الأحوال ٩٣ درجة فهرنهيتية فى فترة ما بعد الظهر ، ثم تعود مرة أخرى إلى متوسط مقداره ٦٧ درجة عند الساعة الحادية عشرة مساءً ؛ ولم يحدث سوى فى مرة واحدة فقط أن سُجلت درجة حرارة تزيد على المائة ، وكانت أقل قراءة قمت بتسجيلها هى ٦٥ درجة على الرغم من أنه من المحتمل أن تكون درجة الحرارة قد انخفضت إلى أقل من ذلك بضع درجات فى الساعات الأولى من النهار عندما كنت نائمًا . ولكن ، على الرغم من أن جهاز قياس الحرارة كان يعمل بالطريقة المعتادة طوال تلك المدة ، فإن الرياح كانت تنتقل من سيئ إلى أسوأ بشكل ملحوظ تمامًا ، يضاف إلى ذلك أن السماء الصافية كانت تحجبها السحب الرعدية ، كما تحولت النسمات الخفيفة إلى عواصف عاتية بشكل مفاجئ تمامًا . وفى إحدى

المرات عدت بعد اجتماع من ابن سعود، إلى خيمتى فى الوقت المناسب لأسدل رفارف الخيمة قبل أن تهب علينا عاصفة وسحب من الغبار غطت المخيم كله قرابة نصف ساعة وخلفت وراءها طبقة سميكة من الغبار والتراب فوق لحافى وفوق كل شىء كان داخل الخيمة ، كى نقوم بإزالته بعد أن هدأت الريح وبعد أن هطلت زخة خفيفة من المطر أسفرت عن صفاء الجو . وفى مرة أخرى كنت أقل حظًا من هذه المرة ؛ إذ كنت مستغرقًا فى قراءة كتاب من الكتب عندما حذرنى صوت الرعد من أن عاصفة سوف تهب علينا . وهنا نهضت واقفًا بأقصى ما وسعتنى سرعتى لأسدل رفارف الخيمة ، ولكنى ما إن أمسكت برفرفى الخيمة حتى انفجرت العاصفة بكل غضبها ، ولم يكن أمامى ما أفعله سوى أن أمسك الرفرفين بكل ما أوتيت من قوة تحسبًا وتحاشيًا لشدة العاصفة الهوجاء ، التى ملأت فمى وأذنى وشعرى وملابسى وكل ما كان فى الخيمة بالرمل ، وكسَّرت جهاز قياس الحرارة (الترمومتر) - ومن حسن حظى أن كان لدى جهازًا احتياطيًا آخر - إلى قطع صغيرة بعد أن جعلته يصطدم بالعمود الذى كان مثبتًا إليه ، حدث كل ذلك ، ويداى مشغولتان ، وأنا أشاهد الكارثة بلا حول ولا طول . ومن حسن حظى أن الأشياء القابلة للتطاير كانت موضوعة تحت شىء ثقيل يصعب على الرياح تحريكه من مكانه ، ولكن بعد أن انتهت العاصفة ، كان منظر خيمتى من الداخل يرثى له ، إذ كانت هناك طبقة سميكة من الرمل الأحمر الناعم فوق كل شىء . ومع ذلك ، فقد كان لدى ما يجعلنى أهنئ نفسى ، نظرًا لأن خيمتى الصغيرة واحدة من الخيام القلائل التى صمدت للعاصفة ، كما أن بقية المخيم تحولت إلى فوضى من الخيام المتساقطة على الأرض . وكان ذلك بمثابة أجمل المناظر التى شاهدتها نظرًا لأن إبراهيم أو واحدًا آخر من الزوار كان قد راح قبل هبوب تلك العاصفة مباشرة ، ينتقد صغر أبعاد مسكنى ، مما جعلنى فى موقف أستطيع أن أتباهى معه بتميزه على كثير من الخيام الكبيرة المبهرة . ومع ذلك لم يسقط على شوكى سوى قليل من المطر ، على الرغم من أن مناطق قريبة أخرى من مرتفعات الطُّوَيِّق Tuwaiq كانت تتساقط عليها أمطار غزيرة ، نظرًا لأن سحب العاصفة كانت تتجه صوب تلك المناطق يوميًا تقريبًا قادمة من الجنوب الغربى ، هذا يعنى أننا كنا بعيدين إلى حد ما عن الخط المباشر لمثل تلك العواصف .

كان عبد الله القصيبي هو وإبراهيم الجنيفي Junaifi من بين أولئك الزوار الذين كانوا يترددون عليَّ بصورة منتظمة . وإبراهيم الجنيفي واحد من سكرتيري ابن سعود الخصوصيين ، وهو سليل أسرة عريقة من سلالة بني تميم بكل فضائل ورذائل تلك السلالة النسبية ، يضاف إلى ذلك أن إبراهيم هذا كان يمتلك قشرة ثمينة من المعرفة الغربية ، ولكنى لا أعرف من أين اكتسب تلك القشرة ، الأمر الذى كان يجعل منه مكتبة شيقة ولكنها غير مناسبة تمامًا . كان إبراهيم الجنيفى قد اعترض ، فى مرحلة باكرة من تعارفنا ، على ملابسى وهندامى ، من منطلق أن ذلك الهندام لم يكن براقًا أو ملفتًا بما فيه الكفاية ، بل إنه عرض عليَّ إصلاح ذلك العيب على أن يكون ذلك من ملابسه الخاصة ، وقد رفضت ذلك العرض بحجة أننى لم يكن لدىَّ من الوقت ما يجعلنى أشغل نفسى بتلك المسألة . وواقع الأمر إننى كنت قد أوليت ذلك الموضوع ، منذ زمن بعيد ، قدرًا كبيرًا من اهتمامى وفكرى ، بل أننى كنت قد قررت بالفعل أن أسلك طريقًا وسطًا بين بساطة الطبقة الطيبة من البدو وعظمة العبيد ، والعبيد الذين يخدمون فى نطاق الأسرة الملكية ، الأمر الذى جعلنى أرتدى رداءً داخليًا أبيض ، أو إن شئت فقل : معطفًا بسيطًا قدر المستطاع ، وبشتًا أسود أو بنيًا ، وغترة فيها نقط حمراء فى أثناء النهار ، وغترة أخرى أخف فى ساعات البَراد ، ومن فوق تلك الغترة عقالاً بسيطًا أهدانى ابن سعود إيَّاه.

كان هذان الاثنان ، أو إن شئت فقل عبد الله القصيبى وإبراهيم الجنيفى ومعهما إبراهيم آخر هو ابن عمه حمود ، ومعهم إما ضيدان أو عضو آخر من حاشية ضارى يتناولون وجباتهم معى فى معظم الأحيان ، تلك الوجبات التى كانت بسيطة للغاية ، والتى لم تكن تزيد على لحم الضأن والأرز وكذلك الخبز ، والتى كان يجرى تنويعها بين الحين والآخر بتقديم أكلات حلوة جديدة مصنوعة من اللبن الحليب والشعيرية أو الكعك الصغير، بل حدث فى إحدى المرات أن قدم طبق من الجمبرى المجفف ، أو إن شئت فقل الربيان ، التى كانوا يجلبونها من ساحل الأحساء . يضاف إلى ذلك ، أن حليب النياق ولبنها كانا موجودين بكميات كبيرة بطبيعة الحال ، فضلاً عن أن الطباخين

الملكيين كانوا يعرفون طريقة عمل الحساء اللذيذ . زد على ذلك ، أن ابن سعود كانت لديه كميات كبيرة من مختلف أنواع البسكويت التي كانت تصله من الهند ، غير أن ذلك البسكويت لم يكن يظهر إلا مع شاى الصباح وشاى المساء . وكان كل من إبراهيم وسعد يحبان ذلك البسكويت حبًا جمًا . كانت كلفة المؤن المستوردة قد ارتفعت ارتفاعًا كبيرًا فى أثناء الحرب ، بفعل الأسعار التى تحركت فى بومباى من ناحية ، وارتفاع أسعار النقل بالجمال ارتفاعًا كبيرًا فى الجزيرة العربية من الناحية الأخرى . من ذلك على سبيل المثال أن ابن سعود أرسل إلى الكويت يطلب ١٠٠٠ جوال من الأرز ، محسوبة بمعدل ثمانية عشر ريالاً للجوال الواحد الذى يحتوى على موند Maund بصرى وربع الموند ، إضافة إلى خمسة عشر ريالاً أخرى هى تكلفة نقل الجوال الواحد بالجمال . أى أن التكلفة الإجمالية لجوال الأرز وصلت إلى حوالى ثلاثة وثلاثين ريالاً وهو ما يعادل ٧٨ روبية لكل جوال من الأرز يجرى تسليمه فى القصيم . وفى أثناء التخييم أو فى الميدان أصبح ابن سعود مسئولاً عن إعاشة قوته كلها، إلى حد تزويدها بمستلزمات الحياة - مثل التمر ، والدقيق ، والأرز - وفى الرياض يصل متوسط عدد من يتناولون الطعام على مائدة ابن سعود يوميًا فى قصره ما لا يقل عن ألف فرد عندما يكون فى القصر ، وما لا يقل عن ثلثى ذلك العدد إذا كان غائبًا عن القصر . واقع الأمر أن إعاشة الأسرة وإعاشة الجيش وكذلك إعاشة الضيوف تشكل القسم الأكبر من المصروفات الدورية .

فى حديثه معى لم يمل ابن سعود مطلقًا الحديث عن حال شئونه المالية . قال لى ذات يوم "والله ، كل ما أملك فى اللحظة الراهنة - خلِّى أحاشك" ، قال ذلك وهو يحاول منع أية مقاطعة له من جانبى ، وغير مستحسن الوصول بثقته إلى ذلك الحد "اسمح لى أقول لك ، إن كل ما أملكه من النقد السائل فى اللحظة الراهنة هو ٣٠٠٠ جنيه إسترلينى و ٤٠٠٠ دولار أمريكى ؛ ما الذى يمكن أن أسويه بمثل هذا المبلغ غير الحد من نشاطاتى العسكرية ؟ لعلمك إننى معى حاليًا ١٥٠٠ رجل" - ومبلغ علمى أن ذلك العدد لم يكن يتجاوز ١٠٠٠ بأى حال - "بوسعى أن يكون لدى عدد أكبر ولكنى مجبر على الاقتصاد فى ذلك إذ أعبئ قواتى بالتناوب ، بواقع فرقة واحدة تخدم

معي وعلى حسابي لمدة شهر في كل مرة ، ثم يجرى تسريح تلك الفرقة على أن تحل غيرها مكانها حسب الدور . وخزانة الرياض تتلقى مداخلها من ثلاثة مصادر رئيسية ، أولها الزكاة أو الضريبة على الغنم والإبل بمعدل شاة واحدة أو خمسة ريالات على كل أربعين رأس من الغنم ، وعنزة واحدة أو خمسة ريالات على كل خمسة رءوس من الإبل . وتأسيسًا على ذلك فإن من يملك سبعين رأسًا من الغنم أو ثمانية جمال لا يدفع سوى خمسة ريالات ، شأنه في ذلك شأن من يملك الحد الأدنى الذى تجبى عنه الزكاة ، كما أن من يملك ثلاثين رأسًا من الغنم لايدفع شيئًا ، كما أن من يملكون عشرة من الإبل أو أربعة عشر منها يدفعون مبلغًا واحدًا . هذه المنظومة غير الكيسة والتى تُفرض بطريقة جائرة تعود على الخزانة كل عام بمبلغ يقدر بحوالى ٢٠٠٠٠ ريال . وثانى تلك المصادر هو زكاة العروض [أوزكاة الزروع والثمار] al Arudh ، أو إن شئت فقل ضريبة الأرض ، التى تفرض بمعدل خمس المحصول أو معشاره من المحاصيل الرئيسية مثل التمور والحبوب ، التى تروى بالراحة والتى تروى برفع المياه إليها ، وهذه الزكاة تعود على خزانة الرياض بحوالى ١٩٠٠٠٠ ريال سنويًا معظمها من الأحساء والقطيف وحدهما ، أما الأماكن الأخرى فهى تعطى أقل من ذلك بكثير ، ولكنه لم يستطع إعطائى أرقامًا محددة . وثالث هذه المصادر هو القمرك Qumruk ، أو إن شئت فقل الرسوم الجمركية ، التى تفرض بمعدل ٨/١ فى المئة فى مرافئ الأحساء ، وهذا المصدر يدر على خزانة الرياض حوالى ٤٦٠٠٠٠ روبية ، وبخاصة فى أثناء العام الماضى فى ظل التجارة المقيدة . وهذه الأرقام تعطى دخلاً سنويًا تقريبيًا[٤] يقدر بحوالى ٧٠٠٠٠ جنيه إسترلينى . وربما يكون دخل ابن سعود من تلك المصادر حوالى ١٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى من تلك الأشكال المختلفة من الضرائب ، وقد يزيد الرقم عن ذلك قليلاً . ويردف ابن سعود قائلاً : "وأنا إلى وقت قريب جدًا ، تهيأت لى فرص سانحة لإضافة موارد أخرى إلى تلك الموارد عن طريق الاستيلاء على الثروة الحيوانية وغنائم الغزو الأخرى التى نستولى عليها من القبائل العاصية والمتمردة، ولكن الله شاء لبلادى أن تنعم بالسلام والأمان وبالتالى ضاع ذلك المصدر منى".

وسألت ابن سعود إن كان مرور الحجيج من مكة وإليها عبر أراضيه يعد مصدراً من مصادر الدخل . وأجابنى قائلاً : "طبقًا لشريعتنا الدينية حرام أن نحصل على أى شىء من المسلمين الذين يقصدون مكة مثلما يفعل ابن الرشيد والشريف حسين ؛ ومن ثم فإننا لا يدخل إلىَّ شىء من ذلك المصدر باستثناء الحجاج الشيعة ، الذين نعدهم كفاراً وبالتالى فنحن أحرار فى جباية الضريبة منهم مقابل الحماية التى نوفرها لهم ، أما المسلمون الحقيقيون فلا يدفعون سوى النفقات المتعلقة برحلة الحج". إنه لأمر غريب حقًا أن تكيف تعاليم الدين المتشددة هى وتقولاته نفسها مع الظروف ، نظراً لأن عدد الحجاج الأجانب من غير حجاج المذهب الشيعى ، والذين يستعملون الطرق النجدية ، يجرى التغاضى عنهم ، فى حين يجرى فرض الضرائب على الشيعة لأنهم من الكفار . وهناك مسئولية أخرى مماثلة من مسئوليات التكيف الدينى مع الظروف السياسية ، تتجلى فى مسألة الزواج : فقد أسرَّ ابن سعود إلىَّ ذات يوم : "ينبغى ألا أمانع فى أن تكون لى زوجة يهودية الديانة أو مسيحية الديانة أيضًا ، وأنها ينبغى أن يكون لها مطلق الحرية من حيث العقيدة والسريرة على الرغم من أن أطفالها سوف ينشئون مسلمين. واليهود هم والمسيحيون أصحاب كتاب ، ولكنى لن أتزوج امرأة شيعية أو امرأة من أهل مكة تحت أى ظرف من الظروف". وعارضته متسائلاً : "أليس أهل مكة هم والشيعة أيضًا أصحاب كتاب ؟" وأجابنى قائلاً : "لا ، صحيح إنهم قبلوا النبى وسلموا بتعاليمه ، ولكن نظراً لاتهامهم بالتردى فى الخطيئة ، ونظراً أيضًا لترديهم فى الشرك ، أو إن شئت فقل : إشراك أشخاص بعينهم فى عبادتهم مع الله ، أليسوا هم الذين يقدسون محمداً ، وعليًا والحسين وقديسين وأولياء آخرين ؟" وهكذا نرى أن الدين يخضع للأحقاد الشخصية والأحقاد السياسية ، كما نرى أيضًا أن الغريب البعيد الذى يصعب الوصول إليه يفضل على ابن العم وعلى الجار ، لأن ابن العم والجار يعدان منافسين فى الصراع من أجل الحياة والبقاء .

على الرغم من بلاغة استدلال ابن سعود وفصاحته ، فإنه كان ضعيفًا وموجهًا بشكل واضح نحو هدف معين ، ولكن ذلك يجب ألا يجعلنا نسلم بأن الاستدلال كان

خاليًا من الذكاء والفطنة السياسية ، أو من الصفات التى تخلق من الرجال قادة وزعماء . وعلى النقيض من ذلك ، فبينما كان ابن سعود يلوم دومًا خروج جيرانه المسلمين على الدين ويقرِّع خطاياهم ، لم يفطن أحد إلى ضرورة ممارسة شكل من أشكال التسامح القضائى مع من يسيئون إلى سمعته من بين أتباعه ومريديه ، وتاريخ الأحساء والقصيم فى ظل حكم ابن سعود خير مثال على حكمته وحنكته السياسية . حدثنى ابن سعود ذات مرة ، قاصداً بذلك المفهوم الوهابى للعقيدة الإسلامية فقال : "العقيدة تحقق تقدمًا مضطرداً فى الأحساء ، ولكننى لا أتعجل الأمور هناك ، فأنا أترك الشيعة والسنة فى الأحساء كلاً لمذهبه فيما يتعلق بالتعبد وفيما يتعلق بمساجدهم الخاصة بهم شريطة ألا تحتفل أى طائفة منهما بتقاليدها أو بهارجها ، وأمل أن يصلا بصورة متدرجة إلى أن يكونوا مثلنا". ولم يتطرق ابن سعود إلى أن التدخين مسموح به على الرغم من عدم التشجيع عليه ، ولم يتطرق أيضًا إلى أن بيع التبغ فى الخفاء فى كل من الأحساء والقصيم يجرى التغاضى عنه ، الأمر الذى أسفر ، فى اعتقادى ، عن التقليل من المجاهرة باستعمال التبغ عن الأعوام السابقة فى هاتين المنطقتين .

وثقة ابن سعود واقتناعه الكامل بصدق مبادئ مذهبه ، وعدم لجوئه إلى الحلول الوسط فى فرض تلك المبادئ وتنفيذها على رعيته ، هو الذى جعله ينظر إلى شئون العالم من حوله نظرة واضحة بعيدة المرامى ، يضاف إلى ذلك أن ميل ابن سعود إلى جعل تفسيره للنقاط الأساسية التى تدور من حولها الشكوك – سواء أكان ذلك من حيث المبدأ أم التطبيق – يتأثر بالدوافع السياسية ، هو الذى جعلنى أتساءل إن كانت سياسته الداخلية نابعة من قناعاته الدينية أكثر من طموحه السياسى ورغبته فى تجميع القوى البشرية الرئيسية فى الجزيرة العربية لتكون إمبراطوية قوية لنفسه ولمن يجيئون من سلالته من بعده . ومع ذلك ، فإن ظروف حياة ابن سعود العملية يمكن أن تعطينا إجابة كافية عن ذلك اللغز ، إذ يجب ألا يغيب عنا أن فترة طفولة ابن سعود بكاملها وكذلك فترة المراهقة أيضًا أمضاهما فى الجو المستنير لموانئ الخليج الفارسى وبخاصة الكويت فى عهد مبارك الطيب . هذه البيئة لابد أن تكون قد صبغت ذلك

الصبى بصبغة تلك الأصقاع التى كان لها اهتمام كبير بالسياسة . يضاف إلى ذلك ، أن والده لم يسمح له ، من ناحية أخرى ، بألا ينسى أنه ليس سوى مشرّدٍ موجود فى المنفى ، وأنه طالما بقى على ذلك الحال ، ستظل تركة أسلافه ودور العبادة الحقة لله فى أيدى الكفار غير المتدينين ، والسبب فى ذلك أن عبد الرحمن ولد فى العصور الوسيطة وتربى وسط ذلك الجو الخانق المتزمت فى بلاط فيصل ، وفضل عبد الرحمن النفى على الدَّنيَّة عندما تمت الإطاحة بالإمبراطورية الوهابية ، كما حمل عبد الرحمن معه إلى تلك الأراضى الأجنبية شعلة ذلك الالتزام الذى بعث الدفء فى شبابه ، والذى أراد أن يشعل به نيران الطموح فى ولده . وفى المنفى أيضًا ، بدأ كل من الأب والابن ينظران إلى الإمبراطورية البريطانية نظرة ممزوجة بمشاعر الود ، سرعان ما تحولت إلى علاقة وثيقة ، تحولت هى الأخرى، بعد إزالة العقبات كلها ، إلى تحالف رسمى وصريح مع بريطانيا العظمى عندما اندلعت الحرب بينهما وبين تركيا . من هنا ، يتعين علينا البحث عن أصل ذلك التحالف فى حادث مبهم وقع فى ثمانينيات القرن الماضى ، ويتمثل فى موقعة جودى Judi ، التى أطاحت بعرش الأسرة المالكة الوهابية المضمحلة وجعلتها تلجأ إلى المنفى كى تنقى نفسها من نكباتها ، وتمهد الطريق لاستعادة ملكها عن طريق فرع أكثر شبابًا حيوية . ولولا الدور الذى لعبه الحظ ، الذى أحكم نير جبل الشمَّر على عنق أراضى نجد فترة من الزمن ، لتولى الحكم ، حسب مجريات الأمور وطبيعتها ، بعد عبد الله بن فيصل ، أخوه ومنافسه المشئوم سعود ؛ لو حدث ذلك ، لما خرج عبد الرحمن وأولاده الواعدون إلى المنفى حتى يتسنى لهم تطوير تلك الرؤية السياسية الأكثر وضوحًا وشمولاً ، والتى تحكم الآن مصائر نجد ، بل والأكثر ترجيحًا أن الرياض ربما حذت حذو حائل عن طريق وضع مصيرها وأقدارها بين يدى تركيا مع اندلاع الحرب العظمى . وكان سيترتب على ذلك ، الإبقاء على احتلال تركيا للأحساء وربما القصيم أيضًا ، الأمر الذى يمكن أن يشكل خطرًا وتهديدًا لجبهتنا فى بلاد الرافدين ، وفى ظل حمايات ورعايات أخرى ، لم يكن مرجحًا للوهابيين أن تنمو لديهم تلك الكراهية الشديدة لجيرانهم المسلمين ، تلك الكراهية التى أعتبرها أنا أهم وأبرز صفات أولئك الناس .

ولم يمل ابن سعود الإطناب فى الحديث عن تفاصيل تنظيمه . وكان ابن سعود قد تكبد مؤخرا ، من أجل الدعاية الداخلية ، كثيراً من المتاعب والإنفاق على الترتيب لطباعة بحث كامل وشامل عن التاريخ الوهابى ، وهو العمل الذى قام به ابن غنام Ghannam ، فضلاً عن طباعة مجموعة مختلفة أخرى من الكتب الدينية ، من بينها رسالة أو أطروحة محمد بن عبد الوهاب نفسه . وعلى الرغم من ذلك ، فإن مشاغل ابن سعود الأخرى هى وبطء الطبَّاعين فى بومباى قد عطلت إلى حد ما المضى قدمًا فى تعليم الجماهير ، التى كان يطعمها فى الوقت نفسه من خلال الوكالات البشرية . يضاف إلى ذلك أن مسألة سعي ابن سعود إلى ربط الخلف المباشر لمؤسس المذهب الوهابى إلى أسرته الشخصية بصورة خاصة ، وأسرته المالكة بشكل عام عن طريق الزواج(٥) ، كانت تشكل محوراً مهما من محاور سياسة ابن سعود ، وتقليداً من تقاليد الدولة بدءًا من مركز رئاستها فى الرياض ، وله تقاليده الدينية التى لا تخضع لأى شكل من أشكال السيطرة أو التحكم . وتحت توجيه ذلك الخلف عهد بتثقيف البلاد وإدارتها دينيًا إلى هيئة من العلماء ، الذين توفر منهم فى ذلك الوقت ستة علماء فى الرياض ، وثلاثة علماء فى القصيم ، وعدد مماثل فى الأحساء ، ثم عالم واحد فى كل منطقة من المناطق الأخرى فى نجد ، وبلغ إجمالى عدد أولئك العلماء حوالى عشرين عالمًا . كان أولئك العلماء مسئولين ، إلى جانب مهامهم الإدارية عن تطبيق الشريعة ، كما كانت قراراتهم ملزمة للأمراء المحليين، الذين كانوا لا يفعلون أى شىء فى تلك القرارات سوى التوقيع عليها واعتمادها ثم تنفيذها ، وكانت تلك القرارات تخضع لإحالتها للتمييز على المستوى الأعلى ، أى على مشايخ الرياض وعلى ابن سعود نفسه ، وذلك فى الأحوال الحساسة والمهمة . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء العلماء كانوا مسئولين أيضًا عن تدريب المطوِّعين وإرشادهم وتوجيههم ، وبخاصة أن أولئك المطوِّعين ليسوا مكلفين بمهام إدارية أو قضائية ، وإنما موكول إليهم تثقيف البدو دينيًا ، وكان يجرى توزيع أولئك المُطَوِّعين على البدو بمعدل مُطَوِّع واحد لكل خمسين رجلاً من البدو . ومن بعد المطوِّعين تجىء هيئة أخرى يطلقون عليها اسم التلاميذ ، الذين يتطلعون أن يصلوا ، فى يوم من الأيام ، تحت إشراف المطوِّع ، إلى أن يكونوا مطوِّعين مثلهم أيضًا ، وبذلك يتسنى أن يكون لهم نصيب حقيقى فى فرض شرع الله بين الناس .

وسكان البلاد ينقسمون إلى ثلاث فئات طبقًا لمسألة الدين ، فهناك الحضر الذين يعتنقون المذهب الوهابى سبيلاً لهم ، بمعنى أنهم نشأوا وولدوا على ذلك المذهب . وهناك البدو ، أو مجموعة الجهّال ، أو إن شئت فقل الناس الذين لا يعملون العقل ، الذين لهم ميول وهابية بحكم ارتباطهم بجيرانهم ، رغم أن ممارستهم للدين لا تتفق تمامًا مع مفاهيم الدين الصحيحة . وهناك أيضًا الإخوان ، ذلك الإبداع الذى صنعه ابن سعود منذ سنوات قلائل ، عندما فكر فى تحويل فائض القوة البشرية المتمثلة فى جماهير البدو الرُّحل إلى قنوات تخدم مخططه العام الذى يرمى إلى تأسيس دولة قوية متجانسة ذات أساس دينى وعسكرى . وبانتهاء العقد الأول من حكم ابن سعود فى بداية القرن الحالى ، وجد نفسه حاكمًا معترفًا به على مناطق شاسعة ، عانت كل واحدة منها معاناة شديدة من فترة طويلة من الحروب والاضطرابات الداخلية . فى ذلك الوقت كان ابن سعود قد قام بدراسة تاريخ المناطق دراسة مستفيضة مستهدفًا من ذلك الوقوف على الدروس المستفادة التى يمكن أن يفيد منها ، ولابد أن يكون قد وقف على مغزى أهم نقطتين فى تلك الدراسة . وأولى هاتين النقطتين هى : أنه فى مطلع الحركة الوهابية ، أو إن شئت فقل خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كان سلفه سعود الكبير قد أسس إمبراطورية قوية ، تحت شعار قبضة دينية قوية ، غير أن تلك الإمبراطورية تأسست على رمال الصحراء المتحركة ، أو إن شئت فقل على اتحاد متباين من العناصر البدوية ، وأن تلك الإمبراطورية كانت بحاجة إلى مهندس معمارى يوجه إليها اهتمامه ويرعاها بصورة دائمة كى تظل متماسكة . وعندما اجتمع سعود مع والده تهاوى عرشه وتداعى على نحو سريع جدًا بفضل تدابير إبراهيم باشا ومكائده ، وبخاصة أن إبراهيم باشا كان يعرف جيداً كيف يتلاعب بالتنافس والأحقاد بين المجتمعات القبلية ، التى كانت ملتحمة إلى بعضها فى ذلك الوقت بفعل خوفها غير الطبيعى من الله (سبحانه وتعالى) . وكان محمد بن الرشيد ، أبرز أمراء جبل شمَّر ، قد وصل فى الجزيرة العربية إلى مكانة تتساوى مع مكانة سعود خلال السنوات الماضية ، وذلك عن طريق المراوغة الماهرة التى قامت بها قبيلة واحدة فقط ، ولكنها كانت قوية ومتحدة ، وترتبط ارتباطًا وثيقًا من حيث المشاعر والمصالح بالمركز العام ،

إن إن شنت فقل بمدينة حائل في مرتفعات جبل شمَّر ، ولكن عندما انسحبت اليد العليا المسيطرة فتر حماس الشمَّر العسكرى نظرًا لأنه كان يفتقر إلى الوحى والإلهام ، وهنا بدأت حدود إمبراطورية محمد بن الرشيد فى الانكماش السريع لتعود إلى أوضاعها القديمة على طريق التحلل والتفكك . كان سعود قد فشل لأن ولاء شعبه الشديد أفرغ من مضمونه لأن سعود كان يفتقر إلى جيش نظامى منظم ، أما محمد ابن الرشيد فقد فشل ولأن جيشه النظامى كان يفتقر إلى الوحى والإلهام اللذين يدفعان إلى القتال ، ولكن عبد العزيز بن سعود استقى من فشل الاثنين سر النجاح ، ثم بدأ بشجاعة وسرعة يضع نظرياته موضع التنفيذ ويختبر مصداقيتها ، بأن قام فى الأرطاوية ، تلك السقيا عديمة القيمة التى تقع على الطريق الذى يربط بين القصيم والكويت ، بوضع حجر الأساس لماسونية Freemasonary جديدة ، استطاعت تحت اسم الإخوان وعلى امتداد عقد واحد من الزمان تغيير طبيعة المجتمع البدوى ، بل وأثارت موجة من القلق فى كل أنحاء الجزيرة العربية .

لم تكن حركة الإخوان ، التى كانت مجرد إحياء شديد للحركة الوهابية ، سوى نتيجة ليست عارضة وإنما نابعة عن تخطيط دقيق ، كانت تستهدف أكثر من إصلاح نقائص الجنس العربى ، واكتشاف عمليات التحلل ، قبل فوات الأوان ، ثم إعادة بناء حطام ازدهار الماضى ليصبح بناءً راسخًا أكثر جمالاً وثباتًا من سابقه . وإذا كان التاريخ هو الذى استلهم فى عمل مخططات النظام الجديد ، فهو الذى سوف يحكم فى الوقت المناسب عن معيار الفائدة التى تحققت على يدى ابن سعود ، والنجاح الذى أصابه ذلك الرجل أيضًا ، غير أن معاصرى ابن سعود قد يتوقعون حكم التاريخ وقراره على النحو الذى يجعلهم يهنئون ابن سعود على الإثمار السريع لتلك التجربة الجريئة والجديدة ، بل إنهم قد يصلون أيضًا إلى حد تهنئته على تحقيق ذلك الحلم الذى كرس له نفسه ، هذا إن أمهله القدر ليصل إلى النهاية الطبيعية للعمر البشرى ؛ فقد اكتشف ابن سعود أن بلاده قد دمرتها الحرب والصراع الأهلى . وفقد استطاع خلال عشر سنوات فقط تأسيس ضعف ذلك العدد من المستوطنات(٦) ، استهدافًا لإصلاح الحطام والأضرار ، ولم يكن ينقضى العام إلا ويكون قد أضاف إلى عدد تلك

المستوطنات . واستعاد ابن سعود إرث أسلافه وذلك بمساندة حفنة من المغامرين . ولم تكن مستوطناته الجديدة سوى كانتونات لجيشه النظامى الذى كان يقدر بنحو ٣٠٠٠٠ رجل أو ما يزيد على ذلك ، فضلاً عن أن كل طفل ذكر كان يعد جندياً فى ذلك الجيش منذ يوم مولده . لقد وجد ابن سعود البدو ، مشردين ، فقراء ، بلا دين ، تتفشى بينهم لعنة النظام القبلى الذى كان يحول بينهم وبين الدخول فى العمل الموحد ، كما أدى أيضًا إلى حتمية نشوب الصراع والنزاع بين القبائل . وفى تلك المستوطنات الجديدة استطاع ابن سعود أن يجعل أولئك البدو يستقرون فى الأرض خوفًا من الله ، وتطلعًا منهم إلى الجنة ، وجعلهم يستبدلون أخوة العقيدة المشتركة بأخوة السلالة النسبية المشتركة ، وبذلك تتحد كل تلك القبائل فى موالاة عامة له باعتباره وليًا على تلك العناصر الإلهية غير القادرة على الاندماج فى ذلك الوقت . وشن ابن سعود ، فى ذات الوقت ، حربًا شعواء على الممارسات القبلية القديمة ، ومنع فى أراضيه اللعبة القديمة التى كانت تسمى بالغزو والغزو المضاد ، وبدأ كثير من القبائل تستشعر سطوة الرجل وغضبه لخرق قوانينه والخروج عليها ، وساد السلام الأماكن التى لم تعرف السلام من قبل ، ولم تضطرب أحوال السلام إلا على حدود الأراضى الوهابية بفعل الغزو والإزعاج الأجنبى .

وعلاوة على مستوطنات الإخوان التى جرى تنظيمها على تلك الشاكله ، نجد أن ابن سعود يدخل فى حسابه أيضًا ، وضمن الفئة نفسها ولأسباب عملية ، كل قبيلتى السبيع والدواسر ، وفخذ نجد من قبيلة قحطان ، بالإضافة إلى أقسام كبيرة من عتيبة ، وحرب ، والمطير ، هذا علاوة على تلك الأقسام من تلك القبائل التى جرى امتصاصها ضمن المستوطنات . ومع ذلك ، فإن العناصر التى من هذا القبيل ، على الرغم من إسهامها بشكل عام فى مبادئ الإخوان ، فإنها تحتفظ بالقسم الأكبر من تنظيمها القبلى ومحاباتها القبلية أيضًا ، ويمكن النظر إليها على أنها مجرد قوة غير نظامية لا تتيسر أو تتوفر فى كل الأوقات ، ولا يمكن التعويل عليها فى الاستعانة بها ، كما لا يمكن الاعتماد عليها فى كل الأحوال ، هذا فى الوقت الذى يتحتم فيه على البلدان وعلى القرى أيضًا أن تساهم بحصص ثابتة فى الخدمة النظامية . وكانت نسبة تلك

المساهمة تحدد فى ضوء عدد سكان تلك البلدان أو القرى ، وفى ضوء أهمية الحدث نفسه . أما الطارئ العام الذى يستدعى تلك المجتمعات ، هو ما يسمى الغزو العام Ghazu 'Am ، الذى يحتم استدعاء القوة بكاملها لصد خطر داهم . أما فى حالة الغزو الخاص Ghazu Khas فلا يجرى تعبئة سوى نصف القوة أو أقل من نصفها لصد ذلك الغزو ، وفى أثناء ذلك الغزو الخاص لا يجرى استدعاء سوى القوات المحلية الموجودة فى منطقة العمليات . قبل ذلك ، وقبل تأسيس حركة الإخوان ، كان عنصر الحضر هو بمثابة العمود الفقرى فى الجيش ، كما كان مقاتلو العارض يشكلون النخبة بين الحضر ، ولكن ابن سعود فى الآونة الأخيرة بدأ يكشف عن اعتماده أكثر وأكثر على فرق الإخوان ، التى تنضوى دائمًا تحت لواء البيرق الملكى . يضاف إلى ذلك ، أنه على الرغم من أن الزمن هو الذى سيثبت مدى نجاح تلك التجربة ، فإنها أسفرت عن نتائج ناجحة للغاية فى الحملتين المهمتين اللتين جرى فيهما تجربة تلك الفرق ، الحملة التى جردها ابن سعود على ابن الرشيد فى خريف عام ١٩١٨ الميلادى ، والحملة التى شنها ابن سعود أيضًا على الشريف حسين ، وتُوجت بنصر حاسم فى تربة Turaba فى شهر مايو من عام ١٩١٩ الميلادى . هذه الفرق ، هى وحرس ابن سعود الخاص ، المكون من عناصر مختلطة ، تشكل ما يسمى الجيش الوهابى ، أو إن شئت فقل الجوم(٧) ، كما يسميه الناس عندما تجرى تعبئة للخدمة النظامية .

المذهب الوهابى بسيط البنية ولا يعرف الحلول الوسط ويتشدد ويحتقر ذلك الفقه الذى حمَّل التعاليم والأوامر النبوية البسيطة بما لا تحتمل ، كما حجبها بأدبيات تفسيرية لا لزوم لها ، تلك التغيرات التى جعلت المؤمنين يسيرون فى طريق البدع والكفر . والمذهب الوهابى يقوم فى أصله على القرآن ، ولكنه يقر أيضًا ستة مجموعات من الأحاديث الثقات ، أهمها صحيح مسلم وصحيح البخارى ، كما يعترف المذهب الوهابى أيضًا بكتابين من كتب التفسير . هذه الكتب هى وأقوال - أو إن شئت فقل مقتطفات - محمد بن عبد الوهاب بمثابة المكتبة التى يرجع إليها الإخوان ، بل إن الإخوان يبحثون فى تلك الكتب عن المبادئ التى يهتدون بها فى حياتهم . وليس من

الشرع ، فى رأى ابن سعود ، أن يدرس المؤمنون التوراة أو الإنجيل ، أو أى منهما لتأكيد أو نفى العبارات التى يزعم بأنها منبثقة عنهما ، بل من الأفضل التزام الصمت ، نظراً لأن اليهود والمسيحيين "أصحاب كتاب" ، على الرغم من أنهما سمحا بتحريف كتابيهما ، ولا يستطيع أحد أن يقطع إن كانت عباراتهم الموجودة فى الطبعات الحديثة هى العبارات نفسها الموجودة فى النصوص الأصلية . ولكن هذا التسامح مع اليهود ومع المسيحيين ، أو بالأحرى مع المسيحيين وحدهم - نظراً لأن ابن سعود فى حالاته النفسية الخاصة يمكن أن يعبر عن كراهيته الشديدة لليهود - يعد مسألة حديثة ، وليس اختراعاً من عند ابن سعود نفسه ، ومع ذلك فبوسعه إثبات ذلك وتبريره من واقع سور القرآن وآياته . والشيعة يوسمون صراحة بأنهم كفار أو ملحدون . والوهابيون يحتفظون بسم كراهيتهم الزعاف لأتباع المذاهب السنية الأربعة ، والأتراك ، والمصريين ، والحجازيين ، والسوريين ، وسكان بلاد الرافدين والهنود وما إلى ذلك . والوهابيون لا يرضون بل ويدينون الاحترام والتوقير لذكر محمد (ﷺ) وصحابته ، ويعتبرون ذلك مظهراً من مظاهر الإلحاد ، كما أن موقفهم المختلف من أسماء الله وصفاته (سبحانه وتعالى) يدينه الوهابيون على أنه عيب فى الذات الإلهية ، كما ينظر الوهابيون إلى توسيط الأولياء والأنبياء بين الإنسان والله على أنه نوع من الكفر والإلحاد . وينظر الوهابيون إلى أهل مكة على أنهم نموذج أو عنوان للسنة المتزمتين ، وأنهم يرتكبون الجرائم التالية : يزنون ، ويخونون ، ويشربون ، ويتلاوطون ، ويشركون ، أى الجرائم على اختلاف أنواعها التى ترتكب فى حق الله وحق الإنسان . والشرك والإلحاد هو الكبيرة التى لا تغتفر ، أما ماعدا ذلك فهو من الصغائر على الرغم من أن الصغائر الخطيرة تترك لعفو الله وصفحه حسب مشيئته .

وعلى كل حال ، كان الدين واحداً من الموضوعات الكثيرة التى ناقشناها خلال تلك الأيام فى خيمة الجمهور الكبيرة ، ونحن نتكئ على سرج الجمل الموضوع فوق منصة من السجاد والمخاد وأنظارنا متجهة إلى المخيم وإلى الصحراء الشاسعة من خلفه ، نظراً لأن التندات الجانبية للخيمة كانت مرفوعة دوماً إلى الخلف على جانب

الخيمة البعيد عن الشمس حتى يتسنى للملك أن يتمتع بنسيم الصحراء البارد . وفى مثل هذه الظروف تكون نظارة الميدان موضوعة بجانب الملك ، وفى أحيان كثيرة ، كان الملك يقطع حديثنا فجأة ، بأن يروح يفحص الأفق باستعمال نظارة الميدان ، أو قد يستعمل تلك النظارة للتأكد من وافد جديد على المخيم ، والسبب فى ذلك أن الزوار القادمين والرائحين كانوا كثيرين .

سألنى ابن سعود ذات مرة : "هل صحيح أن البريطانيين بدءوا يواجهون مؤخراً المتاعب فى فلسطين ؟" وأجبته : "أبداً ، اللهم إذا كان ذلك خلال الأسبوعين الأخيرين بعد أن غادرت البصرة ، نظراً لأنى كنت أنا بنفسى فى القدس منذ حوالى شهرين ونصف الشهر ، واعتباراً من ذلك التاريخ كانت قواتنا قد استولت على أريحا وعبرت نهر الأردن". قال ابن سعود : "حسناً ، إذاً فما سمعته عبارة عن إشارة مضى عليها حوالى ثلاثة أشهر ، وعلى كل حال ربما كان من الأفضل أن تتقدموا صوب كل من حيفا ونابلس ، لأنهما النقطتان المهمتان". وتساءل ابن سعود : "كم ستدوم الحرب ، فى رأيك وكيف ستنتهى ؟" وأجبته وأنا أحلم بتتابع الأحداث التى يمكن أن تجعل العدو يركع على ركبتيه ، ولكن نظرتى إلى طريقة انتهاء الحرب كانت أكثر تفاؤلاً إذ قلت : "ربما استغرقت الحرب خمس سنوات أخرى . أنا لا أظن أننا يمكن أن نصل إلى سلام مع ألمانيا عن طريق الاتفاقات ، لأن أى اتفاق لن يعدو أن يكون مجرد وقف مؤقت للقتال ، ونحن لا نريد ذلك السلام الذى يمكن أن يؤدى إلى الحرب من جديد . وعلى العكس من ذلك ، فإن الطرفين سوف يحاربان حتى النهاية ، وفى النهاية سيكون النصر بقوة السلاح – إن شاء الله". قال ابن سعود : "أقول لك الحق ، إننى تنبأت باندلاع هذه الحروب عندما عبر النقيب شكسبير بلادى قبل أشهر قلائل" – كان ذلك فى ربيع عام ١٩١٤ الميلادى – "فقد أخبرته أن الألمان سوف يدخلون فى حرب معكم خلال فترة وجيزة ، وأن الأتراك سوف ينضمون إلى الألمان ، والسبب فى ذلك أن تلك الأخبار كانت قد وصلتنى من أشخاص موثوق بهم يشغلون مناصب رفيعة "– ربما كان ذلك من القومندان والضباط الأتراك الذين أسرهم ابن سعود فى الهفوف – "وكنت قد أبلغت النقيب شكسبير بالخطة التى أعددتها للهجوم على البصرة شريطة أن أكون

فى مــأمن من شروركم" ، بمعنى أن يكون فى مــأمن من التدخل البـريطانى ، "ولكن شكسبير أخبرنى أن البريطانيين لا يمكن أن يستسيغوا خطة كهذه وبالتالى تخليت عن تلك الخطة . ولكن من حسن الحظ أنكم استوليتم على البصرة بعد ذلك بفترة وجيزة ، وبذلك تكون همومى وانشغالى بالأتراك قد زالت" .

ومع ذلك ، كـان ابن سعود فى ذلك الوقت ، مثلما هو الآن ، مطوقًا بالأعداء من كل جانب ، فـهذا هو الشريف حسين من ناحية الغرب ، وذاك ابن الرشيد من ناحية الشمال ، وشيخ الكويت من ناحية الشمال الشرقى ، وتلك هى قبيلة عجمان المتمردة من ناحية الشرق . ومع ذلك ، فإن مشكلات الحرب العالمية غطت مؤقتًا على مشكلات الدول العربية الخاصة بالتنافس على تولى أمور الرعايا ، وراحت كل من الحجاز ، ونجد والكويت تحافظ على الود والصداقة من الناحية الشكلية فقط فى ظل حماية التحالف مع بريطانيا ، فى الوقت الذى وقف جبل شمَّر فيه إلى جانب صفوف العدو وراح يتلقى خلاله مساعدات متقطعة من العجمان الخارجين على القانون ، أو من فخوذ أخرى منهم لم توقع أو تشترك فى الاتفاق الذى جرى التوصل إليه مؤخرًا بين السلطات القبلية والسلطات البريطانية ، والذى تعهدت بمقتضاه السلطات القبلية أن تلتزم الهدوء والاستقرار فى المنطقة المحيطة بالزبير ، وأن يكون الهدوء والاستقرار تحت رعاية الحماية البريطانية طوال فترة الحرب ، وأن تترك تلك السلطات القبلية أراضى نجد وقبائلها لحال سبيلها . وقد اكتشفت أن ذلك الاتفاق كان مصدر سعادة لا تنتهى عند ابن سعود ، الذى هدَّأت من روعه أيضًا تلك التأكيدات التى استطعت نقلها إليه فيما يتعلق بالأمور التى يدور بشأنها خلاف بينه من ناحية وبين كل من الشريف حسين والسلطات الكويتية من الناحية الأخرى . ومن سوء الحظ أن التأكيدات وحدها لم تكن كافية لوقف سيل المتاعب التى قدر لها ، خلال فترة قصيرة ، أن تنشب بين حلفائنا العرب على شكل تبادل المهاترات بل وصلت إلى حد الاشتباك الفعلى ، الذى لم يتعد فى حقيقة الأمر العمليات قبلية الطابع ، ولم يتطور أو يتحول إلى ما هو أخطر من ذلك ، إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى .

كان رأى ابن سعود سيئًا فيما يتعلق بالشيخ سالم شيخ الكويت . إذ كان ابن سعود يرى فيه شر خلف لخير سلف ، الذى كان بإجماع الكل واحدًا من أهم الشخصيات التى شهدتها السياسة العربية فى العصر الحديث . كان الشيخ مبارك ، بكل تسامحه وسعة أفقه مع كل الآراء ، صديقًا خاصًا من أصدقاء الأسرة الوهابية فى السرَّاء والضراء . وابن سعود مدين للشيخ مبارك إلى حد كبير فى الوقوف على شئون العالم ، وتشجيع ابن سعود ومساعدته بصورة دائمة فى جهوده التى أسفرت فى النهاية عن إعادته إلى عرش بلاده . حدثنى ابن سعود فقال : "كنت أنظر إليه دومًا وكأنه والدى ، إضافة إلى أنه فى عصر مبارك كانت صداقتنا الوثيقة تحول بيننا وبين الحديث عن الحدود الثابتة أو حتى مشكلاتها ، والسبب فى ذلك أن أتباعى من شعبى كانوا على أرض الكويت يشعرون بأنهم فى وطنهم وأتباعه من شعبه كانوا يحسون فى بلادى وكأنهم فى بلادهم . كنت أتجه إليه دومًا طلبًا للنصيحة فى المصاعب التى كانت تواجهنى ، وفى واحدة من المناسبات ، وقبل طرد الأتراك من الأحساء ، توجهت إلى الكويت للقاء العقيد جراى Grey[٨] طلبًا للتمهيد والإعداد للتحالف مع البريطانيين ، ولكنى ذهبت أولا (للشيخ) مبارك ، الذى نصحنى بعدم الإقدام على تلك الخطوة . ثم سألته بعد ذلك عن مسألة التقرب إلى الأتراك ، ولكنه نصحنى بعدم الإقبال على ذلك أيضًا . وهنا وجدتنى حائرًا أمام موقفه هذا ، وظننت أنه ربما كان يحسدنى ويغار من قوتى المتنامية ، وأنه كان يود إبعادى عن إقامة علاقات مباشرة مع الدول الكبرى ، ومع ذلك ، كنت أشعر بكثير من المصاعب وأنا أستمع إليه ، وهادنت الأتراك ، الذين منحونى لقب والى نجد ، إضافة إلى تأكيدات بأنهم لن يتدخلوا مطلقًا فى شئونى الداخلية". وخلف (الشيخ) جابر (الشيخ) مبارك بعد وفاته فى عام ١٩١٥ الميلادى ، ولكن وفاة الشيخ مبارك المفاجئة تركت عرش الكويت بين يدى الشيخ سالم[٩] فى العام التالى للوفاة ، وكان الشيخ سالم قالبًا مختلفًا تمامًا . فقد استبدل الشيخ سالم بتراخى وتهاون من سبقوه تشددًا متعصبًا فى فرض تعاليم المذهب المالكى الصارمة التى تعد تعاليم المذهب الوهابى عدوًا لها . وبعد أن كان ابن سعود قد التزم بالفعل بالقضية البريطانية ، أو إن شئت فقل وقف إلى جانب بريطانيا والتزم

جانبها ، بدأ الشيخ سالم يزيد من تعاطفه مع الأتراك ، وعلى الرغم من أن موقف الشيخ سالم كان يجعل مسألة تحديه للبريطانيين أمرًا مستحيلاً ، فإنه من المؤكد أنه كان مقتنعًا ، أو فى أضعف الأحوال على علم بتهريب الإمدادات من أراضيه إلى حائل من ناحية وأن عملاء العدو كانوا موجودين على أرض الكويت . كان ذلك هو رأى ابن سعود ، الذى كان يعتبر الشيخ الحاكم فى الكويت غير جدير بثقة البريطانيين ، وصداقتهم ، كما جعله يستنكر تستر الشيخ سالم وإيوائه للعجمان الخارجين على القانون ، ويعتبر مثل هذا العمل من قبيل الأعمال العدوانية الموجهة إليه . حدثنى ابن سعود فقال : "إذا كنتم تريدون إحكام الحصار وزيادة فاعليته ، فلابد من عمل سور من الأسلاك الشائكة حول مدينة الكويت ، وأن تقوم قوات بريطانية على حماية ذلك السور المصنوع من السلك الشائك". وأجبته أن مثل هذه الخطة ليست عملية ، وأبلغته أنه إذا ما أراد أن يثبت تواطؤ منافسه أو تهاونه فى تجارة المحظورات ، فما عليه إلا أن يستولى على قافلة من القوافل وهى فى طريقها من مدينة الكويت إلى حائل ، وعندها سوف تعرف السلطات البريطانية كيف تتعامل مع الموقف . وقد أغضب تسامح البريطانيين الأعمى - مع تقصير الشيخ سالم فى أداء المهام المطلوبة منه - ابن سعود إلى أبعد الحدود ، إذ إنه إضافة إلى الفوارق الدينية التى كانت تباعد بينهما ، كان موقع الكويت الحاكم يشكل عقبة خطيرة أمام تطور المناطق الداخلية تطورًا اقتصاديًا حرًا ، وكان ابن سعود يعمل دائمًا على القضاء على تلك العقبة والتغلب عليها ، إذ كانت البحرين هى والكويت ، فى ظل تلك الظروف ، تمثلان المخرجين التجاريين المهمين للأراضى الوهابية ، وكلاهما لا يخضع للسيطرة الوهابية ، مما أسفر عن فرض ضريبة على الواردات كلها التى تتجه إلى المناطق الداخلية ، وأن تلك الضرائب كانت تجىء لصالح مجتمعات أجنبية ؛ فالبضائع التى كانت تمر قادمة من البحرين إلى موانى الأحساء كان يجرى فرض ضرائب عليها مرة ثانية فى تلك الموانى من قبل مسئولى الجمارك فى نظام ابن سعود ، من هنا كان التجار تحاشيًا لذلك الإزدواج الضريبى تفضل طريق الكويت ، التى تحول الظروف الصحراوية فيها بين إنشاء كردون جمركى محكم وبين المناطق الداخلية ، والتى يجرى فيها أيضًا دفع الرسوم

الجمركية مرة واحدة فقط ولكن تلك الرسوم كانت تذهب لصالح الخزانة الكويتية وحدها ؛ وهكذا كانت الكويت تثرى وتزدهر على حساب كل من البحرين ونجد ، وأن نجد بصفة خاصة كانت لديها شكوى لا يمكن لأى أحد إلا أن يتعاطف معها . كان شغل ابن سعود الشاغل هو علاج ذلك الوضع الشائن الذى لا يرضى عنه ، وكان من الطبيعى له أن يتطلع إلى موانئه الموجودة على ساحل الأحساء حلاً لتلك المشكلة . وإضافة إلى كل من الجبيل ، والقطيف ، والعقير ، ناهيك عن الموقع المهجور لميناء جيراً Gerra القديم الذى يقع إلى الجنوب من العقير ، كان لدى ابن سعود مرافئ طبيعية تنتظر التطوير إذا ما توفرت لها الأرصدة المطلوبة واللازمة لتعميق مداخل تلك المرافئ ، ولبناء المخازن اللازمة والتسهيلات الأخرى اللازمة لتقليل المسافة بين الساحل والداخل عن طريق إنشاء خطوط للسكك الحديدية . ومن سوء الطالع أن المبالغ المطلوبة لذلك غير متوفرة حتى يمكن استعمالها فى تحقيق تلك المشروعات الطموحة ، أو خط السكة الحديد فى أضعف الأحوال ، ولكن ليس هناك سبب يمنع مجىء القسم الأكبر من تلك التجارة الواردة إلى الداخل عن طريق موانئ الأحساء ، هذا إن كانت التحسينات المذكورة هنا قادرة على استرعاء انتباه كل من الملاحة البريطانية والملاحة الهندية أيضًا . ولم يخمد حماس ابن سعود لاقتراحى الذى مفاده أنه عندما يتم بحكم الضرورة ، ربط الكويت بالبصرة عن طريق خط حديدى ، فإن ابن سعود ينبغى عليه أن يحاول الحصول على امتداد لذلك الخط إلى الأحساء كخطوة أولى تمهيداً لربط مدن الأحساء بموانيه عن طريق خطوط حديدية فرعية . وابن سعود يرى فى مثل هذا المشروع ترسيخًا لاستقلاله المالى والاقتصادى عن الكويت ، ومع ذلك ، ومن وجهة نظره الخاصة ، فإن ظهور خطوط السكك الحديدية التى من هذا القبيل يستحيل أن تصبح حقيقة واقعة فى شرقى الجزيرة العربية أو وسطها ، وإن الأمر يحتاج إلى البحث عن ترتيب قابل للتحقيق يرضى الطرفين ويجعلهما يرضيان بتقسيم متحصلات الرسوم المستحقة للكويت بين ميناء الدخول وميناء الوصول . وعلى أى حال ، فقد اتضح لى أن ابن سعود وهو يتحدث عن مشروعات السكك الحديدية ، كان ينظر إلى المستقبل البعيد جداً ، وأنه عندما كان يستغرق فى تلك النظرة ، كانت تغيب عن باله فرضية عملية

تمامًا ، بدأت مزاياها تتضح أكثر وأكثر خلال حملة بلاد الرافدين ، نظرًا لأن النقل بالسيارات ثبت أنه هو الأنسب فى البلاد الصحراوية ، كما أن إدخال هذا النوع من النقل إلى الجزيرة العربية لاستخدامه فى الأغراض التجارية يقدم ، فى كل الأحوال ، ميزة مفادها أن هذا النوع من النقل يمكن البدء فيه على نطاق تجريبى بتكلفة مبدئية صغيرة ، ثم يجرى بعد ذلك تطويره بصورة مضطردة فى ضوء التجربة الواقعية إلى أن يحل فى النهاية محل قوافل الإبل المرهقة العاملة على طريق الأحساء الرياض، وعلى الطرق الأخرى أيضًا . سألت ابن سعود ذات يوم "كيف تقيِّم مشروعًا لإنشاء خط حديدى من السويس إلى الكويت أو البصرة مارًا بجزء من أراضيك ؟" وأجابنى ابن سعود قائلاً : "والله ! يا صاحب ، إحنا آمنون من طرف وغير آمين من طرف ، آمنون من طرف الإنجليز ولكن الترك والجرمان لا".(١٠) ومن المؤكد أن مسألة ثقة ابن سعود بالشرف البريطانى ، أو تصميمه على الارتباط بتحالف هو الذى اختار موعده ، لم يكن موضع شك أو تساؤل ، وكذلك كان تفاخره الصريح ، الذى يعزى إلى جده فيصل من ناحية ، وإلى "المعاهدة" التى وقعها فيصل مع العقيد لويس بيلى Lewis Pelly فى مطلع الستينيات من القرن الماضى (من ناحية أخرى) . والرواية التى كتبها بيلى عن معاملاته مع ذلك الملك العجوز المتزمت والمتشدد ، لا توحى ، على الرغم من كل ذلك ، بأن محادثاتهما أسفرت عن أى شىء يشبه الاتفاق الرسمى ، يضاف إلى ذلك أننى كنت شغوفًا جدًا بمعرفة إن كان أرشيف الرياض يحتوى على أية وثيقة تدخل ضمن الروايات الوهابية لما حدث فى الماضى . وبناء عليه سألت ابن سعود إن كانت لديه نسخة من المعاهدة المذكورة ، نظرًا لأننى لم أرها قط . وأجابنى ابن سعود قائلاً : "أنا ليست لدى نسخة من تلك المعاهدة ، ولكن حكومة الهند لابد أن تكون لديها نسخة منها ، وهذا يكفينى ، أن أعلم أنهم سوف يلتزمون بنصوص تلك المعاهدة وشروطها" . وفى إحدى المناسبات الأخرى أسكت ابن سعود المخاوف التى جرى الإعراب عنها بشأن موقف البريطانيين فى الاجتماع الذى دعا إليه ابن سعود للنظر فى موقف الشريف حسين ، بأن قال : "فيلبى أعطانى قولاً من طرف حكومته" . إننى قد أعطيته تأكيدًا من حكومتى ، وإن ذلك يكفى . كما أبلغنى ابن سعود أيضًا ، أنه قد يدعو المهندسين الإنجليز فى يوم من الأيام لدراسة

الموارد المعدنية فى بلاده ، ويستشيرهم فى مسألة حفر آبار إرتوازية لاستعمالها فى أغراض الزراعة . من المؤكد أن الماء وفير فى كل أنحاء الصحراء ، وذلك إذا ما أمكن الوصول إليه ، وليس هناك أى سبب يمنع جبال نجد من البوح بالخامات المعدنية المخبأة فيها شأنها فى ذلك شأن جبال مدين Midian فى الماضى السحيق ، وأن تلك الجبال يمكن أن تفعل ذلك مرة ثانية . وإلى جانب ذلك ، هناك أيضًا الينابيع الكبريتية ، وينابيع المياه المعدنية فى الأحساء والمناطق الأخرى ، والتى يمكن أن تؤكد قيمتها وأهميتها الاقتصادية ، ناهيك عن المصادر البترولية التى يتعين استكشافها والبحث عنها . هذا يعنى أن الأراضى الوهابية تقف الآن على أعتاب التطور والنمو ، اللذين أخرجتهما الحرب الأهلية والتحرشات الأجنبية ، واللذين يمكن أن يعطلهما التعصب الوهابى إلى أبد الآبدين . ولكن ابن سعود ليس متعاميًا عن إمكانيات واحتمالات مملكته الصحراوية ، كما أنه ليس متعاميًا أيضًا عن التزامه المالى العاجل للاستفادة من هذه الإمكانات وتلك الاحتمالات . وإذا ما بقى ابن سعود مالكًا لزمام الأمور فترة طويلة من الزمن ، فإن سفينة دولته سوف تتجه مسرعة صوب الهدف الذى سبق أن حدده هو لها .

وفى الوقت الذى كانت المصاعب التى تواجهه من ناحية الشرق ، فى معظمها ذات طابع اقتصادى ، نجد أن المصاعب التى كانت تحيط به من ناحية الشمال ومن الناحية الغربية أيضًا ذات طابع سياسى وإستراتيجى . إذ كان الأتراك حتى مطلع الحرب العالمية الأولى يتمتعون بسيطرة تكاد تكون كاملة على الحجاز وذلك من خلال وكالة شريف مكة ، وكانوا راضين أو قانعين بتأكيد هيمنتهم - دون اللجوء إلى القوة - على الولايتين المركزيتين فى كل من جبل شمَّر ونجد ، اللتين كانتا تتمتعان باستقلال كامل ومتساوٍ فى ظل حكم أميريهما . وعلى كل حال ، فإن الحرب العالمية الأولى التى كانت ثورة الحجاز العربية ، بتأييد من البريطانيين ، واحدة من أحداثها الباكرة ، أحدثت اضطرابًا كبيرًا فى ميزان القوى العربية ، ووجدت الإمارتان المركزيتان ، اللتان ظلتا لفترة طويلة تتصارعان على الصدارة وعلى الرئاسة فى الجزيرة العربية ، على مرأى ومسمع من حاكم تركى مطلق ضعيف وخائر القوى وعاجز عن التدخل ، وجدتا

نفسيهما في مأمن من مواجهة الأتراك ، الذين لم يعد لهم حول أو طول ، وإنما الذي كان يواجههما هو ذلك الرجل الذي كانا ينظران إليه باعتباره حديث نعمه أو إن شئت فقل دعي ، بدأ يكشف عن نواياه ومطالبه في السيطرة على البلاد العربية كلها ، عندما نصب نفسه أمام العالم "ملكًا على البلاد العربية" ، بعد أن اعترف البريطانيون به "ملكًا على الحجاز" . كان من الطبيعي لهاتين الإمارتين المركزيتين ألاَّ ترضيا عن ذلك التطور الجديد الذي طرأ على الأمور في المنطقة العربية ، ولكن بينما كان ابن الرشيد ، بحكم كونه حليفًا للأتراك ، قادرًا على استنكار وتحدي نوايا ومطالب الشريف حسين علانية ، كان ابن سعود في موقف صعب حتَّم عليه الترحيب بالملك الجديد باعتباره إضافة جديدة إلى صفوف الحلفاء ، كما راح ابن سعود في الوقت نفسه ، يسعى للحصول من الحكومة البريطانية على تأكيدات بأن نوايا ومطالب الشريف حسين لن تؤثر بأي حال من الأحوال على الاستقلال الذي كان يتمتع به ولن يتنازل عنه مطلقًا . أضف إلى ذلك ، أن مسألة دخول ابن سعود في معاهدة علاقات استقلال معنا فضلاً عن رفضه الواضح والصريح الاستجابة لمطلب الشريف حسين ، كانت مصدر قلق وازعاج لهذا الملك الجديد . وبينما كان ابن سعود يتألم تمامًا لإدراكه أن منافسه – بحكم مركزه الذي يمكنه من لعب دور بارز في حملة الحلفاء – كان قادرًا على التأثير في السياسة البريطانية بشكل لا يمكن لابن سعود أن يتوق أو يتطلع إليه ، يضاف إلى ذلك حقيقة أن الطرفين كان يراود كلاً منهما شك مقلق وغير مريح في دخول بريطانيا في معاهدة سرية تضر بالطرف الآخر .

ومع ذلك ، لم يحدث حتى ذلك الوقت ، شيء يمكن اعتباره خرقًا للأمن أو نقضًا للسلام بين الاثنين ، على الرغم من معرفة السلطات البريطانية بحقيقة الأمور معرفة تامة ، فإنه لم يتغير أي شيء في الأمل الذي كان يحدوها في أن يحافظ الطرفان على حسن النية المتبادل الذي يعد ركيزة أساسية في القيام بحملة ناجحة على عدو مشترك . واستطاع البريطانيون أن يوصلوا لابن سعود تأكيداً مفاده أنهم ليسوا موافقين على اللقب الذي أضفاه الشريف حسين على نفسه ، وبخاصة أن ذلك اللقب أغضب ابن سعود ، كما أفهموه أيضًا أنهم يقدرون قلقه على الحفاظ على الاستقلال الذي ضمنته

له معاهدة عام ١٩١٦ الميلادى ، وأنهم لم يضغطوا عليه ، على غير رغبة منه ، لقبول سلطة الشريف حسين وهيمنته . كما أبلغ البريطانيون ابن سعود أيضًا ، أنهم عندما يفرغون من مشاغل الحرب العالمية ، يسعدهم أن يضعوا مكاتب الصداقة البريطانية تحت تصرف الطرفين استهدافًا لتسوية كل نقاط الخلاف بينهما . وقد ساعدت الرسالة الودية التى تسلمها ابن سعود من السير ريجنالد وينجات ، المندوب السامى فى مصر فى ذلك الوقت ، والتى أشادت بالعداء الوهابى التقليدى للأتراك ، ساعدت على تمهيد الطريق أمام إعلان التأكيدات التى كنت مكلفًا بنقلها إلى ابن سعود نيابة عن الحكومة البريطانية ، ووجدته على أتم الاستعداد للاستماع إلى مقترحات بالهجوم على حائل التى تعد السبيل الوحيد ، الذى إن سار عليه فقد يتحقق له صيت وسمعة مساوية لصيت وسمعة الشريف حسين التى جناها من عملياته التى قام بها ضد الأتراك .

أوصلنا ذلك إلى مشكلة معقدة المسالك والحلول . ذلك أن تأخير عودتى طويلاً إلى ابن سعود جعله يمهد نفسه لتقبل الإحباط وخيبة الأمل فى ذلك الاتجاه ، كما أدرك ابن سعود أيضًا أن من العبث التظاهر بعدم الإحباط والفشل فى وأد البرنامج الذى قمت نيابة عنه بتبليغه للحكومة فى شهر ديسمبر من العام السابق ولكن ، يرجع الفضل إلى ابن سعود فى إدراكه أن إجراء المزيد من الحوار حول الموضوع أصبح أمرًا لا فائدة منه ولا طائل من ورائه ، بل إنه سرعان ما بدأ التفكير فى الموقف من جانبه العملى . أخبرنى ابن سعود أن "الاستيلاء على حائل هدف من أهدافى التى أحتفظ بها فى قلبى منذ سنوات كثيرة ، وهل تظن أنى يمكن أن أتركه إلى يومنا هذا لو كانت لدى الوسائل والموارد اللازمة لذلك ؟ حائل أجدار ونار (حائل جدران ونيران) وهاهو ابن الرشيد آمن خلف تحصيناتها ومدافعها ، وقد حباه الله بقبيلة موحدة سوف تقف وقفة رجل واحد للدفاع عن عاصمتهم ؛ فما الذى يمكن أن أفعله؟" وأجبته قائلاً : "أنت تعلم أن كوكاس[١١] Cokas ، وأنا أيضًا ، قد بذلنا قصارى جهدنا من أجلك ، حائل فى نظر الحكومة البريطانية لا تعدو أن تكون مجرد دمية تحركها أصابع خفية فى الحرب العظمى . ولكن حائل بالنسبة لك شىء آخر ، وظروف الحرب تمكنك ، هى والمساعدات البريطانية بالمال والعتاد ، من الاستيلاء على حائل ، وتجعل من

نفسك سيداً على وسط الجزيرة العربية كله ولكنك إن أضعت الفرصة السانحة لك حالياً وانتهت الحرب دون حدوث أى تغيير فى الموقف العربى فإنك لن تستطيع الاعتماد بعد ذلك على المساعدات البريطانية . الفرصة متاحة أمامك الآن ، وإلا فلا ، ولقد أبلغتك بمدى مساعدتنا لك". وهكذا كنا نتحاور حول أمر لا يقبل الحوار أو النقاش ؛ إذ إن مسألة اتخاذ قرار بالدخول فى معركة قد تجره إلى الدخول فى حرب بموارد غير كافية لم تكن أمراً سهلاً ، ولكن مسألة ترك الطعم يفلت من بين يديه لأنه يفتقر إلى الشجاعة اللازمة للإمساك به ، كانت أكثر صعوبة . وأردف ابن سعود قائلاً فى النهاية : "والله وبالله وتالله ! يجب أن تعلم أننى لا أفعل ذلك من أجل حكومتك ، وإنما أفعله من أجلك أنت وكوكاس . سوف أتحرك ، وبمشيئة الله سوف أُبيِّض وجهيكما . كنت أنوى تسريح قواتى ، ثم أذهب إلى القصيم لتيسير أمورى هناك ، ولكنى سوف أسرح قواتى إلى مواطنها لمدة شهر حتى يتسنى لتلك القوات تخليص الإبل من الجَرَب ، وبعد ذلك سوف استدعى تلك القوات مرة ثانية ، وبحلول شهر رمضان سوف أنزل إلى الميدان لمداهمة قبائل جبل شمَّر ، ولكن يجب أن تعلم ، أن حائل لا يمكن مهاجمتها ، ومع ذلك ، سوف لا أجعل الشمَّر ينعمون بالراحة ، وبمشيئة الله ، ستصبح حائل من أملاكنا خلال شهرين".

وعلى الفور بدأ تنفيذ البرنامج طبقًا لما جرى الاتفاق عليه ، وفى اليوم نفسه جرى عرض البرنامج على مجلس من الشخصيات البارزة فى المخيم ، وهى التى وافقت على البرنامج وأقرته بعد مناقشة حرة وصريحة فى ضوء الهجوم على حائل أو الهجوم على الشريف حسين ، وبخاصة أن العنصر المتشدد فى ذلك المجلس كان يفضل الهجوم على الأخير . وفى اليوم التالى ، أوفد مبعوثين إلى كل من الكويت والعقير لجلب طلبات كبيرة من المؤن والامدادات ، كما تقرر أيضًا استدعاء الإبل من مناطق الرعى وفك المخيم على الفور حتى يمكن لكل شىء أن يكون جاهزًا عندما يكون تركى Turki جاهزاً ليكون على رأس الجيش مع بداية شهر رمضان ؛ والسبب فى ذلك ، أن ابن سعود بعد إعمال فكره فى الأمر ، قرر تمضية شهر رمضان فى تسيير الأمور الدينية والإدارية فى الرياض ، فى الوقت الذى افتتح فيه ولده الأكبر ذلك الحفل بغزوة أولية قام بها عبر

الدهناء خلال ديار الشمَّر . وأنا لم أستسغ تماماً فكرة تمضية تلك الفترة بلا عمل أو نشاط فى الرياض ، ولكنى ناقشت ذلك الأمر بشىء من التخوف والارتعاد مع مضيفى . قال ابن سعود : "حسن ، أنا لا أريد للناس أن يظنوا أن العمليات التى أقوم بها ضد العدو هى من وحى البريطانيين ؛ الإخوان لن يستلطفوا ذلك ، وقد يكون من الأفضل ألا تكون حاضراً طوال فترة الاستعداد . ولعلك تسافر إلى الكويت وتبقى هناك إلى أن ننتهى من استعدادنا ، وعندها يمكن أن تنضم إلىَّ فى الميدان". كانت الكويت فى ذلك الوقت آخر الأماكن التى يمكن أن أمضى فيها فترة طويلة . وأجبت ابن سعود قائلاً : "أنا لا أستطيع عمل ذلك ، لأننى إن عدت ومعى حكايات عن عملياتك القادمة فسوف يسخر منى الجميع ويستهزئون بى . أنا لا يمكن أن أعود إلا لأعلن انتصارك ، وطالما أنك بحاجة إلى الوقت اللازم للتجهيز لذلك الانتصار ، فذلك يحتم علىَّ البقاء فى بلادك ، ولكنى أوافقك على أن رجالك ينبغى ألا يرونى دائمًا . ترى ، لماذا لا أقضى تلك الفترة فى بعثة إلى مناطقك الجنوبية ؟ أو بالتحديد إلى وادى الدواسر ؟ بوسعى أن أذهب إلى هناك بذريعة صيد الوعول". ودهشت لأن ابن سعود وافق على تلك الخطة . وهنا قال ابن سعود : "هذا أكيد ، سوف أوفدك إلى الجنوب بكل تأكيد ، وعندما تعود سوف تنضم إلى القصيم وتكون شاهداً على عملياتى" . وسألته : "أليس من الأفضل أن أبدأ تلك البعثة من هنا على الفور ، كى أوحى لرجالك بفكرة مفادها عودتى إلى الساحل عن طريق الأحساء ؟ "ولكنه لم يوافق على ذلك ، نظراً لأن بعثة من هذا القبيل تحتاج إلى بعض الاستعدادات ، علاوة على أن الحرس المرافق لمثل تلك البعثة لا يمكن توفيره إلا من الرياض . وعلى كل حال ، فقد كنت مقتنعًا تمامًا أنه قد أعطانى كلمة شرف بالفعل وقطع على نفسه عهداً . وواقع الأمر أننى لا يمكن أن أعزو ذلك الطالع الحسن إلى حصولى على موافقة ابن سعود بسهولة ويسر ، والسبب فى ذلك أنى كنت أعرف أن عدداً كبيراً ممن هم فى ذلك المخيم كانوا ينظرون إلىَّ شزراً ، كما كانوا يتساءلون أيضًا عن صبر ابن سعود فى معاملته لى بصفتى ضيفًا من ضيوف الشرف ؛ ولكن يبدو أن ابن سعود كان قد عقد العزم على تقوية علاقته بالبريطانيين إلى أبعد حد ممكن ، وأنه لم يكن ذلك الرجل الذى يمكن أن يهتز فى مواجهته للانتقادات . قال لى ابن سعود

ذات مرة ، عندما سألته إن كان يظن أن هناك معارضة حقيقية لبقائى فى بلاده : "لا ، إقامتك مفيدة لينا" (بقاؤك فيه فائدة لنا) . كان ابن سعود يتطلع دومًا إلى الأمام ، وهو عندما كان يفعل ذلك كان يعلم أن الحرب إذا لم تصل إلى نهاية حاسمة فإن الأتراك قد يساعدون ابن الرشيد فى الهجوم عليه ، نظرًا لأن الأتراك كانوا قد وعدوا ابن الرشيد بأن يكون سلطانًا لوسط الجزيرة العربية ؛ من هنا ، كان ابن سعود يرى فى التحالف مع بريطانيا ضمانًا لمنع حدوث هذا الهجوم .

قال ابن سعود : "أنت تعلم أنى لم أنس قط أننى يتعين علىَّ استعادة ولاء جبل شمَّر هو وشعبه لبيت سعود[١٢] ، ولكنى لم أبلغ بعد من القوة حدًا يمكننى من الهجوم عليهم . نحن دومًا فى صراع مستمر ، ولكن المشكلة تتباين من حين لآخر ، ومع ذلك ، فأنا أغفل من فترة طويلة مسألة بيت الرشيد إغفالاً سياسيًا دبلوماسيًا ، ولكن يوجد حاليًا من بين الشمَّر عدة أفخاذ تعلن صراحة أنها تقف فى جانبى ، كما هو الحال بالنسبة لابن جبرين Jabrin وأولئك الذين جرهم معه إلى حظيرة الإخوان ، أو الذين بينى وبينهم تفاهمًا سريًا يقضى بدعمهم ومساعدتهم لى عندما أبلى بلاء حسنًا . والآن وبعد أن عقدت العزم تمامًا على الهجوم على ديارهم وبلادهم هجومًا متواصلاً ، فأنا أقترح إرسال إنذار نهائىً إلى الشمَّر ، أبلغهم فيه بما أنتويه ، وأطلب فيه إلى أولئك الذين لا يودون الدخول فى معارك معى أن يتجهوا شمالاً إلى بلاد العنزة ، أو يقبلوا تكريمى لهم داخل حدودى وخلف خطوط القتال تمامًا . ويتعين على كل من يتبقى فى ميدان القتال بعد ذلك أن يعرف أنه يفعل ذلك من قبيل العداء لى ، وسوف أداهمه فى كل مكان بدون ندم أو إحساس بتأنيب الضمير" .

وطوال تلك المحادثات كان ابن سعود يعاود الحديث بشكل واضح عن موضوع الشريف حسين ونواياه . يضاف إلى ذلك ، أن وجود بعض المشايخ فى المخيم من قبيلة عتيبة أعاد إلى ذهن ابن سعود تدخل الشريف حسين غير المبرر إلى حد ما ، فى مسألة الغطغط Ghatghat فى شهر ديسمبر من العام السابق . ففى البداية ، قامت جماعة من عتيبة ، بقيادة شخص يدعى ابن الحميدى Humaidi ، بالهجوم على مجموعة

من الإخوان فى أثناء أداء الصلاة بالقرب من الغطغط . وانتقم الإخوان لأنفسهم بقتل ابن الحميدى ، الذى يئس أقاربه تماماً من الحصول على ترضية لهم على يدى ابن سعود ، فقرروا السفر إلى جدة ، يوم أن كنت أنا فيها ، ليقدموا شكواهم للشريف حسين، الذى استغل ذلك الحادث - بعد أن عجز عن فعل أى شىء - استغلالاً سيئاً بتبليغه إلى السلطات البريطانية باعتبار أنه حادث يدل على الوحشية والهمجية الوهابية . ولم يجن المدعون شيئاً من وراء ذلك ، وراحوا يأخذون حقهم بأيديهم عن طريق غزو الإخوان ، والاستيلاء على بعض إبلهم . ورد الإخوان على ذلك بالهجوم على المعتدين هجوماً شديداً بالقرب من نيفى Nifi على الحدود الغربية للقصيم ، وقتلوا ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين فرداً من أولئك المعتدين دون خسائر تذكر فى جانبهم . وعند هذه المرحلة فقط خطر ببال عتيبة أن تستنجد بقيصر ، الأمر الذى أسفر عن جلوس ممثلى الطرفين فى جلسة ودية لتسوية الحسابات فيما بينهم تحت إشراف ابن سعود على أساس أن العملية كانت من قبيل عمليات الثأر . وأسفرت تلك الجلسة عن دفع ٤٠٠ ريالٍ عن كل قتيل ، ونظراً لأن أهل الغطغط حصلوا على أفضل المبادلات من خصومهم - ما لا يقل عن سبعة وعشرين رأساً - فقد أُعلن أن إجمالى حقوق عتيبة فى التسوية النهائية للحسابات قد وصل إلى حوالى ١٠٨٠٠ ريال . وبدأت على الفور مفاوضات تسديد ذلك المبلغ على أقساط ، وهنا بدأ ابن سعود يجنى ثمار العدالة المحايدة . فى ذلك الوقت كان ابن سعود يشعر تماماً بالضيق والقلق من الرسالة التى وصلته من الشريف حسين الذى لم يألُ جهداً فى إرسال صور منها إلى مشايخ عتيبة كى يعرفوا محتواها ، ولكن من وصلتهم تلك الصور قاموا على الفور بتقديمها لابن سعود . وقد تضمنت تلك الرسالة كثيراً من الانتقادات المعادة وغير المبررة ، لسلوك الإخوان وتصرفاتهم من ناحية ولسياسة ابن سعود من الناحية الأخرى .

كان ابن سعود ، قد جهز فى ذلك الصدد رداً طويلاً ومحترماً ، عرضه علىَّ ، على انتقادات الشريف حسين له ، وركز ابن سعود فى ثنايا ذلك الرد على معارضته لتوجيه الرسائل مباشرة إلى مشايخ قبائل نجد ، بل وحتى إلى موظفى ابن سعود أنفسهم ، كما لو كان أولئك المشايخ وتلكم الموظفين يدينون للشريف حسين بالطاعة والولاء ؛

والسبب فى ذلك أن فهد بن مُعمَّر Mu'ammar حاكم بريدة ، كان قد تلقى رسالة أرسلها بالفعل إلى ابن سعود من الشريف حسين ، يعلن فيها فرض الحظر على مرور القوافل بين الحجاز ونجد لسبب مفاده أن النجديين بدءوا فى الآونة الأخيرة ، يسيئون استعمال التسهيلات المقدمة لهم بأن راحوا يهربون البضائع إلى أراضى العدو. ولم يقدم الشريف حسين فى رسالته دليلاً على صدق ذلك الاتهام ، واعتبر ابن سعود - وهو على حق فى ذلك - تلك الرسالة جزءًا أساسيًا من سياسة القمع التى بدأ الشريف حسين ينتهجها مؤخرًا ، ضد أولئك الذين كانوا يجاهرون بالولاء لغريمه ومنافسه . وقد وقع مؤخرًا حادث ينطبق على تلك الحالة ، إذ جرى منذ مدة إلقاء القبض على مواطنين من عنيزة Anaiza' وإيداعهما السجن ، وهما ولد وابن أخى شخص يدعى صالح الفضل ، كانا يقيمان فى جدة ممثلين لشركتهما العائلية . يُزعم أن صالح الفضل نفسه كان مقيمًا فى المدينة (المنورة) فى ذلك الوقت ، فى حين كان ينبغى عليه أن يكون فى طليعة ثورة الشريف حسين . وكان ابن سعود ، قد رفض التدخل فى ذلك الأمر أو التوسط فيه ، بعد أن طلب إليه ذلك أحد أقارب صالح ، والذى كان يقيم فى الهند ، متعللاً بأن استمرار وجود صالح فى المدينة (المنورة) هو بحد ذاته مبرر كاف للشكوك التى تثور من حول عائلته . ومع ذلك ، كان صالحًا ، قد وصل فى ذلك الوقت إلى عنيزة ، ولكن ولده وابن أخيه بقيا محتجزين فى السجن ، وقد أستبِق الأحداث وأقول : إنهما بقيا محتجزين إلى ما بعد الهدنة ، على الرغم من مثولى مرارًا ومثول ممثل السلطات البريطانية فى مصر استهدافًا لإطلاق سراحهما . وعن طريق الأعمال التى من هذا القبيل راح الشريف حسين يزيد من نقاط الاحتكاك الذى لا لزوم له بينه وبين ابن سعود ، وبذلك خسر تعاطف منطقة القصيم التى تعد أكثر المناطق النجدية استنارة .

حدثنى ابن سعود فقال : "حدود نجد من ناحية الحجاز معروفة تمامًا" ثم استطرد بطريقة عربية خالصة فى ذكر أسماء سلسلة من العلامات الأرضية الغامضة التى لا يمكن أن تقنع أية لجنة من لجان الحدود ، "من بيشة Bisha إلى رانية Ranya إلى الخرمة Khurma وكذلك إلى الحضن Hadhn ، تلك هى حدودى ، ألم يقل النبى -

عليه الصلاة والسلام - إن 'من رأى حضنان فقد أنجد' (عندما ترى الحضن ، فأنت فى نجد) . ولكن لعلنا ندعوا إلى عقد اجتماع لشيوخ العرب ، ابن الصُّباح ، وابن ثاني[١٣] ، والشيخ عيسى شيخ البحرين ، وما إلى ذلك من هذه الأسماء ، ولن يجد أولئك الرؤساء صعوبة فى تحديد خط يرضى عنه الجميع . وبعد ذلك تسمح لتلك الفخوذ من كل من عتيبة ، وحرب ، والقبائل الأخرى ، والذين يقيمون إقامة دائمة بأهلهم - أى مع عوائلهم - على أى جانب من جانبى ذلك الخط ، بأن يكونوا رعايا للحاكم الذى يعيشون على أراضيه . وهذا هو ما حدث لكثير من أهل نجد الذين خرجوا من حظيرتى بعد أن استقروا فى العراق بصورة دائمة ، وهكذا يمكن أن يكون حال أولئك الذين يختارون الحجاز . ولكن ، لعل القنصل البريطانى فى جدة ينوب عنى بالنسبة لأولئك الذين يقيمون إقامة مؤقتة فى تلك المدينة لأغراض التجارة . السبيع ينتمون إلىَّ ومن رعاياى وأجزاء منهم تقيم فى بعض المناطق من ناحية الأحساء ، ومع ذلك يجب أن نسمح لأهل الخرمة ووادى سبيع أن يختاروا ما يديرونه بأنفسهم ، وإذا ما أعلنوا اختيارهم للشريف حسين ، فسوف نسمح لهم بالانضمام إليه".

استحوذت خلال تلك الأيام المحادثات التى دارت بينى وبين ابن سعود على القسم الأكبر من وقتى ، والسبب فى ذلك أن ابن سعود كان شديد الحرص والاهتمام بأمور ولايته ، ولكنى لم أهمل الاستفادة من الفترات التى كانت تتخلل الاجتماعات ، إذ كنت أقوم بين الحين والآخر بزيارة خيام أعضاء الأسرة المالكة الآخرين الموجودين فى المخيم . ويجىء تركى فى المرتبة الثانية بعد والده ، وهو الذى يتولى القيادة العامة للجيش فى غياب والده ، كما أنه هو ولى العهد ، الذى اتضح لى أنه العضو الوحيد من أعضاء الأسرة المالكة المسموح له بتولى قسم محدد من إدارة البلاد ، والسبب فى ذلك أن تاريخ أسرة سعود المالكة علَّم ابن سعود خطر إسناد الأعمال التنفيذية إلى أشخاص آخرين غير الأشخاص الطبيعيين الذين لهم حق تولى العرش ؛ مخافة أن تجر أهواء أولئك الأشقاء الصغار والأشخاص غير الرئيسيين ، من أصحاب الخبرة الإدارية ، ومن الذين تهيأت لهم فرص التزلف إلى فخوذ القبائل ، البلادَ إلى حرب أهلية . كان لتركى حرسه الخاص وجناح خاص من الخيام أيضًا ، والتى أسكن فى واحدة منها

فتاة من البدو كان قد تزوجها ، ثم طلّقها في اليوم نفسه الذى جرى فيه فك المخيم . وتركى شأنه شأن والده لا تحظى النساء عندهما بجاذبية أو سحر خاص ، وقد أبلغنى تركى أن الحرب والصيد هما اللذان يحظيان عنده بعاطفة حقيقية أو حب حقيقى . وقد اندهشت عندما تعرفت على تركى أول مرة فى الرياض ، إذ بدا لى رقيقًا ولطيفًا للغاية ، واقع الأمر ، أن حاله تغير فى القصيم ، الذى عاد منه مؤخراً ، ولكنى فى ضوء خيمته الخافت أرى أنه طرأ عليه تحسن كبير ، فضلاً عن أنه كان فى غاية الأناقة . صحيح أنه كان أقصر من والده بكثير، ولكن ما تزال أمامه سنوات كثيرة من النمو ، كانت بنيته أخف من بنية والده ، كما أن وجهه النحيف الشاحب وعيناه شديدتا السواد الموضوعتان ضمن إطار من خصل الشعر المضفَّر التى تتدلى على كتفيه من خلف الغترة الحريرية ، التى تدل على بنية جسمية صغيرة تناسب البيئة الخشنة التى ولد وتربى فيها . ومع ذلك ، كان يعلو عيوب تلك البنية الرقيقة قلب جسور ، إذ إنه - على الرغم من أنه لم يبلغ الناسعة عشرة من عمره إلا منذ وقت قريب جداً - استطاع أن يقدم المزيد من البراهين المؤيدة لصفاته من خلال الحملات التى قام بها ، وبذلك أثبت أنه جدير بولاية العرش بعد والده . ولكن ، المؤسف، أن تركيًا كان يقترب من أجله المحدد ، لأن شبابه الواعد انتهى قبل أوانه ، قبل مرور اثنى عشر شهراً على وباء الإنفلونزا الذى انتشر فى كل أرجاء نجد فى شتاء عام ١٩١٨- ١٩١٩ الميلادى وحصد أرواح عدد كبير من أفراد الأسرة المالكة . وفى توالٍ سريع ، ورى تركى ومن بعده أخواه فهد وسعد ، ومن بعدهم زوجة ابن سعود المفضلة - ملكة نجد - التراب فى المدافن الملكية فى الرياض . أما أنا فأنتظر الأحداث وأترقبها هنا. فقد استقبلنى تركى استقبالاً صبيانيًا حاراً وتكلم معى بحماس بالغ عن هواياته المفضلة - الحرب والصيد - ونحن نجلس على البساط نشرب القهوة فى خيمته . قلت له : "آمل أن تزورنا فى البصرة أو بغداد فى يوم من الأيام ، ولعلك تواصل السفر وتذهب إلى إنجلترا لزيارة مليكنا". ورد علىَّ قائلاً : "ليتنى أفعل ذلك ، وأنا أعتمد عليك فى إقناع والدى بالسماح لى بالسفر . لأن كل ما أريده هو زيارة بلاد الدنيا ، التى أسمع الكثير عنها . نحن هنا مجرد أناس بسطاء ، ليس لدينا ما نفعله سوى المأكل والمشرب والقتال ، ولكن الناس

يقولون : إن بلادكم مختلفة تماماً عن بلادنا". ومن الطبيعى أن يكون تركى قد سمع عن شكسبير (الضابط) وتعرف عليه ، لأن تركى شارك بالرغم من صغر سنه فى معركة جراب Jarrab ، فضلاً عن التقائه بهاملتون Hamilton أيضًا فى القصيم قبل أشهر قليلة ، ولكن لم يحدث مطلقًا أن سافر تركى إلى خارج الجزيرة العربية .

ومن بين الذين كانوا فى المخيم أيضًا سعود ، ذلك الصبى الذى يناهز السادسة عشرة من العمر ، والشقيق الأصغر لتركى . كانت قسمات وجه سعود لطيفة مثل قسمات وجه أخيه ، الذى كان يبدو أنه أقل منه نضجًا من حيث السلوك والتصرفات ، بل وأقل منه قوة من حيث البنية ، أما من الناحية الفكرية فقد كان سعود لا يزال طفلاً فى ذلك الوقت . وسعود حاليًا ، هو وريث العرش بطبيعة الحال ، وقد بلغنى أنه يحرز تقدمًا حسنًا فى المهام العسكرية والمهام المدنية أيضًا التى بدأت تتراكم عليه بعد وفاة تركى . والناس تقول أيضًا إن سعوداً أطول من اللازم ، والأرجح أنه يطاول قامة والده . وأمضيت فى إحدى الأمسيات نصف ساعة من الوقت اللطيف معه فى خيمته ووسط حاشيته . وكان سعود قد حصل منذ وقت قريب ، على بندقية صيد جديدة من طراز مانليشر Mannlicher ، ولكن غاب عنه – فى الوقت ذاته – إحضار كمية مناسبة من الذخيرة التى تستعمل مع تلك البندقية ، وامتلأت عيناه سروراً وفرحًا عندما وعدته بإعطائه كل مخزونى من ذلك النوع من الذخيرة ، إذ كان لدى بندقية من الطراز نفسه ، هذا على الرغم من أنى كنت أحمل دومًا بندقية طراز ٣٠٣ من بنادق الجيش لاستعمالها فى الأمور العادية . يضاف إلى ذلك ، أن سعود شأنه شأن أخيه تركى لم يسافر خارج الجزيرة العربية .

قسم آخر من أقسام المخيم الملكى كانت تشغله خيام عبد الله بن عبد الرحمن ، الذى كان يمثل – على الرغم من صغر سنه الذى لم يتجاوز العشرين عامًا – جيلاً أكبر من جيل الأمراء أصحاب السمو ، إذ كان عبد الله بن عبد الرحمن الشقيق الأصغر لا بن سعود نفسه . كان عبد الله بن عبد الرحمن شاباً صغيراً يتميز بذكاء فطرى كبير ، ذاع صيته كثيراً باعتباره وهابيًا فى أشعار العرب القدامى وفى تاريخ بلاده بصفة خاصة . وهو

من حيث المظهر كان قريب الشبه بوالديه أكثر من أخيه الوسيم ، إذ كان قصيراً نوعاً ما ومربوع القامة ، وكان بلا لحية مثل السواد الأعظم من أفراد أسرته ، كما كان خجولاً في كلامه ، الأمر الذى كان يجعل جُمله مرتبكة ويعكسها ، وهذا كله كان يضفى على حديثه مسحة غريبة من السحر . تكلم عبد الله بن عبد الرحمن عن النقيب شكسبير ، الذى التقاه فى ثلاث مناسبات ، وكانت آخر مرة يلتقيان فيها فى الخفيسة Khufaisa فى أعالى البطين Butain، قبل حدوث معركة جرَّاب بوقت قصير ، كما تكلم كلاماً طيباً أيضاً عن الصداقة القائمة بين بريطانيا ونجد ، التى بذلت شخصية النقيب شكسبير الكثير من أجل توثيقها أكثر وأكثر . وأنا شخصياً تأثرت كثيراً بترحيبه الحاد بى شخصياً : فقد رجانى فى أثناء تقديم القهوة أن أتناول أنا الفنجان الأول ، وعندما أصررت - كما هى عادتى مع أفراد الأسرة المالكة - على أن يتناول هو الفنجان الأول ، وافق بعد التنازل عن كثير من التكريم . وعندما هممت بالانصراف ، نهض واقفا وقال : "لا تتخلف ، سير علينا" (لا تنتظر توجيه الدعوة لك ، وزرنا مرة ثانية) . وصدقته الوعد ، إذ قمت بزيارته فى خيمته مرة ثانية بعد أيام قلائل . وفى تلك المرة ، ومثل المرة السابقة ، وجدت عبد الله بن عبد الرحمن يجلس مع صديقى القديم ، أحمد ابن ثنيان الذى استطاع بحكم مولده فى القسطنطينية وإقامته بها فترة طويلة ، والتى استطاع أن يحصِّل فيها أيضاً معرفة واسعة باللغة الفرنسية ، استطاع أن يتبوأ مكانة فكرية تفوق مكانة أقرانه ، كما كان يحظى بثقة ابن سعود الكاملة فيه فيما يتعلق بأمور السياسة الخارجية . كانت السجادة التى جلسنا فوقها قد تبعثرت عليها الكتب ، التى كان أبناء عمه يقرءون فيها فى أثناء دخولى الخيمة ، فهذا كتاب عن التاريخ العربى للحرب ، جرى تجميعه فى مصر بواسطة أحد مراسلى جريدة المقطم - واسمه حسن رضا ، إذا أسعفتنى الذاكرة - وتلك مجلدات شعرية ، منها مجموعة شعرية ، أصر عبد الله - بعد أن عين لى وقرأ علىَّ بعضاً من قصائدها - على تقديمها هدية لى ، قائلاً إن لديه نسخة أخرى منها . وعندما هممت بالانصراف أصرُّوا على بقائى معهم بعض الشىء ، وأمضيت معهم بعض الوقت فى الحديث بشكل عام عن الدستور البريطانى وعن نظامنا البرلمانى . كان عبد الله بن عبد الرحمن قد ولد فى الكويت ، إذ يذكر أنه

رأى العلم البريطانى وهو صبى صغير ، وقد ارتفع إلى منتصف ساريته ، وراح يتعجب فى مغزى مثل هذه الظاهرة ، إلى أن أبلغوه أن العلم البريطانى منكس تأبينًا لذكرى الملك إدوارد ، بعد أن علموا بخبر وفاته .

بقى ضارى هو وأتباعه معنا ، وهم يريحون إبلهم ، ويستفيدون إلى أبعد حد ممكن من كرم ابن سعود إلى أن جرى طى خيام المخيم . كنت أتطلع ، بل إننى نوهت إلى ذلك عقب وصولنا مباشرة ، إلى أن يسمحوا لى بالبقاء بينهم طوال فترة إقامة المخيم ، ولكن ابن سعود كان له رأى آخر فى ذلك الموضوع ، يضاف إلى ذلك ، إننى قررت ألا ألح فى طلب ذلك خشية أن يسبب لهم شيئًا من القلق أو المعاناة . ومع ذلك ، فقد ركزت على مسألة زيارتى لهم مرارًا فى أجنحتهم ، كما ركزت أيضًا على دعوة ضارى بنفسه أحيانًا ، ومع الآخرين فى أحيان أخرى ، إلى تناول الطعام معى ، على الرغم من عدم ملاحظتى ، إلى قبول مثل تلك الدعوات بشىء من التردد الواضح والتوجس خيفة من الآثار التى قد تترتب عليها ، والسبب فى ذلك ، عندما كان يتناول الطعام معى لأول مرة أبلغنى أننى يتعين علىَّ أن أشرح الأمور بنفسها لابن سعود . والكرم العربى عادة لا يسمح بتأنيب الضيف أو عتابه أو لومه لخرقه أوسوء تصرفه ، ولكن معاملة ابن سعود لضارى كانت استثناء من تلك القاعدة العامة ، إذ كانت بلا أعذار ومتعمدة بشكل واضح وصريح . ومع ذلك ، كانت تلك المعاملة مفيدة ، ونذير شؤم على خطة التعاون التى كنت قد وضعتها نصب عينىَّ ، والسبب فى ذلك أنه فى الوقت الذى كان ضارى يشعر فيه بالاطمئنان إزاء تحالفه المستقل مع البريطانيين ، وفى الوقت الذى كان يضمن فيه استمرار المعونة المترتبة على ذلك التحالف ، نجد أنه كان على استعداد دومًا للحرص على العلاقات الودية ولكن على أسس متساوية ، فى حين نجد أن ابن سعود بلغ حدًا من التفاخر والتباهى جعله يستقبل ضارى كما لو كان أقل منه شأنًا ودونه منزلة . يضاف إلى ذلك ، وهذا حقيقة ، أن ابن سعود كانت تراوده ، إلى حد ما ، الشكوك حول ولاء ضارى وإخلاصه ، وقد أكدت الأحداث التى وقعت بعد ذلك صدق تلك الشكوك .

ومع ذلك ، لم أيأس فى تلك المرحلة من ترتيب الأمور على نحو يمكن أن يسفر عن شكل من أشكال التعاون بين كل من ضارى وابن سعود ، وعلى الرغم من أن ابن سعود لم يقبل انضمام ضارى إلى اجتماعاتنا ، فإننى اكتشفت استعداده التام لمناقشة الطرق والوسائل الكفيلة بإشراك الشمَّر "الأصدقاء" فى برنامج عملنا ، فضلاً عن أن ابن سعود لم يستنكف إجراء محادثات خاصة مع ضارى نفسه ، تحقيقًا للهدف نفسه ، هذا فى الوقت الذى ركزت فيه فى العديد من الاجتماعات مع كل من ضارى والملاَّ عبد الله على ضرورة التعاون الفعال فى إحكام الحصار إن أراد استمرار المعونات والمساعدات البريطانية. وبناء على ما تقدم ، تقرر أن يعود ضارى ، عقب رحيلى عن شوكى Shauki ، إلى مخيمه فى الباطن ، وشددنا عليه أن يرسل إلىَّ من عنده مندوبًا كل شهر ، يطلعنى على مدى تقدمه وعلى النتائج التى ترتبت على الجهود التى يبذلها . كان مطلوبًا من ضارى أن يقوم بغزو عبدة Abda' عندما تسنح له الفرصة بذلك ، كان مطلوبًا منه أيضًا منع مرور قوافل العدو ، على أن يقوم بإرسال الأسرى والإبل التى يستولى عليها إلى البصرة لتكون دليلاً عمليًا على تنفيذه للواجبات المكلف بها تنفيذًا دقيقًا ، وفى الوقت ذاته تقرر أن يقوم ابن سعود بالمحافظة على خط داخلى للحصار ، وسرعان ما أقنعنا ضارى بأنه كلما قل عدد القوافل التى تصل إلى ذلك الخط الداخلى كان ذلك أحسن وأفضل لصيته وسمعته .

وعززت مطالبى بمبلغ من المال أعطيته لضارى كى يوزعه على أتباعه ومريديه ، كما تسلم مبلغًا آخر للغرض نفسه من ابن سعود ؛ ولكن ضارى لم يكن ليتصرف أو يذهب لحال سبيله دون محاولة الحصول على مزيد من المال ، وفى مساء اليوم الأخير لنا فى شوكى قدم لى الملاَّ عبد الله فاتورة بمبلغ ٥١٤ ريالاً ، تمثل تقييمًا فضفاضًا لتكاليف إطعام الحاشية الكبيرة بلا مبرر ، التى رأوا من الأنسب اصطحابها معنا فى الرحلة إلى مخيم ابن سعود . كنت فى أثناء الرحلة قد رجوت ضارى أن يسمح لى بدفع ثمن الحليان (الخراف) والمؤن الأخرى التى يشترونها فى أثناء المسير على الطريق ، ولكنه كان يرفع يديه تأففًا وفزعًا من ذلك الرجاء . ومع ذلك ، فهذه الفاتورة التى يقدمونها إلىَّ اليوم لا تتضمن فقط ثمن الخراف التى جرى شراؤها والإبل التى

جرى استئجارها طوال تلك الرحلة ، وإنما اشتملت أيضًا على ثمن الأرز ، والقهوة ، والسمن ، وكذلك الأشياء الأخرى التى أحضروها معنا من مخيم ضارى . وعلى كل حال ، لم أعترض على تلك الفاتورة ، ثم وجهت الملاَّ عبد الله إلى صندوق كان يحتوى على مبلغ ١٥٠٠ ريال ، وطلبت إليه أن يحمل ذلك المبلغ إلى مخيمه وأن يوزع الباقى ، بعد خصم قيمة الفاتورة - أى حوالى ٩٨٦ ريالاً عوضًا عن ١٠٠٠ ريال كنت قد انتويت إعطاءهم إياها - على أفراد حاشيته وأتباعه ، مع تحياتى لهم - وطلبت إليه فى الوقت نفسه أن يقدم الكشف الذى وزع بمقتضاه ذلك المبلغ الأخير كى أرفقه ببقية مستندات حساباتى . قال لى ضارى فى أثناء مقابلة من المقابلات التى كانت تجمع بيننا : "شكرًا جزيلاً على هديتك الكريمة . الملاَّ لديه بالفعل ذلك الكشف الذى طلبته أنت ؛ لقد أعطيت كل رجل مبلغ عشرين ريالاً من ذلك المبلغ بالفعل". وأحسست أن تلك الإشارة كانت تنطوى على شىء من الإهانة والحدة ، وأن حساباته كانت تنطوى على شىء من الخطأ تحت أى ظرف من الظروف ، والسبب فى ذلك أن عدد أفراد الجماعة كان يصل إلى حوالى ستين فردًا تقريبًا ، ولذلك أرسلت فى طلب الملاَّ عبد الله ، الذى قدم إلىَّ دونما خجل كشف توزيع قيمته حوالى ١٥١٠ ريالات على شكل هدية أوهبة مقدمة منى . قلت له : "أنا لا أفهم ما يجرى تمامًا ، وماذا عن الفاتورة ؟" وأجابنى قائلاً : "هذا أمر لا يهم . هذا هو ما طلب إلىَّ ضارى عمله فى ضوء عدم وجود مبلغ يكفى إعطاء كل رجل نصيبه كاملاً ، أما فيما يتعلق بقيمة الفاتورة فقد أبلغنى ضارى أنه هو الذى سيدفع ذلك المبلغ بنفسه ، وأظن أن ذلك مناسب تمامًا". ورددت عليه قائلاً : "هذا ليس مناسبًا تمامًا كما تقول . اذهب إلى صندوق النقود الموجود هناك ، وخذ منه ٥٤٢ ريال ، وإلى اللقاء". وانصرف الملاَّ عبد الله وهو يهمهم بكلمات بأعذار لم أحفل بالرد عليها . قلت له : "إلى اللقاء" . عندما رجع إلىَّ ليقول لى إنه استلم المبلغ ، ولم أره بعد ذلك اليوم مرة ثانية . شاب افتراقى عن ضارى شىء من التوتر بسبب ذلك الحادث الصغير ، الذى وضَّح لى بتلك الصورة الوقحة أقبح سمات الشخصية العربية - شهوة الذهب - ورحت أعزى نفسى بفكرة مفادها أن كل بنس أعطيه لضارى بعد ذلك ينبغى أن يدفع ثمنه غاليًا من حبات عرقه .

٣- دعامة السحاب فى أثناء النهار

أبلغنى ابن سعود بعد أن استدعيت إلى حضرته فى صباح اليوم الخامس عشر من شهر أبريل : "سنرحل غداً ، وسيتحرك البيرق عند الفجر" . وهم يفعلون مثلما كان يفعل الساميون القدامى الذين كانوا يتحركون فى الصحراء ، مهتدين بهدى ربهم ، الذى "كان يسبقهم فى أثناء النهار على شكل دعامة من السحاب ، تهديهم إلى طريقهم ، وفى أثناء الليل على شكل نار ، تعطيهم الضوء"(١٤) وهذا هو ما تفعله جموع سكان الأراضى الوهابية ، إذ إنهم وحتى يومنا هذا يوجهون مسيراتهم ووقفاتهم باستعمال رمز لربهم ، بيرق الإيمان الحقيقى فى أثناء النهار ومصباح يرفع عاليًا فى أثناء الليل وهم يسيرون خلف ذلك الرمز ويتحلقون حوله ، "وعندما رفعت السحابة من فوق المعبد ، واصل أطفال إسرائيل المضى قدمًا خلال رحلاتهم . ولكن لو لم ترفع تلك السحابة لتوقف أطفال إسرائيل عن الترحال إلى اليوم الذى ترفع فيه"(١٥) . أساليب الصحراء لم تتغير سوى تغير طفيف خلال ثلاثة آلاف عام .

حدثت فى ذلك اليوم جلبة كثيرة وضجيج داخل أرض المخيم عندما جاءت الإبل على شكل قطعان تزمجر وتحدث أصواتًا تمهيداً لتصنيفها وتوزيعها على السرايا التى تنتمى إليها ، يضاف إلى ذلك أن المعدات والحزم المختلفة كانت موضوعة على شكل صفوف على الأرض استعداداً لتحميلها على ظهور الإبل . وفى الصباح أيقظونى مبكراً وأخلونى من خيمتى كى أشاهد الفجر وهو يزحف على مشهد من الفوضى والارتباك يعزُّ على الوصف ؛ إذ ترى فى كل مكان خيامًا ملقاة على الأرض بعد أن جرى طيُّها على شكل لفافات ، فى حين كان ينبعث صوت مميز يصدر من الإبل التى كانت تتأوه وهم يُحمِّلونها بالأشياء . كل العيون كانت متجهة إلى المنطقة الوسطى من المخيم ، التى شاهدتها فى ضوء الفجر الخافت ، تبرز منها كتلة داكنة كما لو كانت دفعة واحدة ، وراحت تندفع إلى الأمام ، بينما كان البيرق الوهابى ذو اللون الأخضر الفاتح يرفرف حرا فى مقدمة تلك الكتلة ، بفعل نسيم الصباح الجميل ، إيذانًا للمخيم بكامله أن ابن سعود بنفسه قد بدأ التحرك بالفعل . وفى أثناء تحرك الحرس الملكى

فى أنحاء المخيم وعبر غدير شوكى قاصداً المنخفضات الجرداء الواقعة خلف أرض المخيم ، سرت إثارة التحرك فى كل أنحاء ذلك الجمع القوى من البشر ، وراحت السرايا الواحدة بعد الأخرى تسير فى الدور المحدد لها خلف البيرق ، على أن تسير كل سرية من السرايا خلف العلم المحدد لها . وهكذا بدأ الطابور العسكرى مسيرته وتحركه ، "فى البداية كان علم مخيم أطفال يهودا ، موضوعًا فى الأمام طبقًا لجمعهم ... ثم بعد ذلك على مخيم ريوبين Reuben ، موضوعًا فى الأمام طبقا لجمعهم ... ثم بعد ذلك علم مخيم أطفال أفرايم موضوعًا فى الأمام طبقًا لجمعهم ... ثم علم مخيم أطفال دان Dan ، الذى كان فى مؤخرة كل المخيمات ، موضوعًا فى الأمام طبقًا لجمعهم ... هكذا كانت تحركات أطفال إسرائيل طبقًا لجموعهم ، ثم مضوا قدمًا"(١٦) . هكذا كان مسير الجموع الوهابية أمام عينىَّ فى ذلك اليوم المشهود ، اللهم إلا باستثناء قليل من التغيير فى أسماء القوات . وعادت بى أفكارى إلى العهد القديم حيث الرواية التى تتحدث عن مرور علم أثر علم فى إطار طابور على رأسه الفيلق ، فيلق الوشم ببيرقه الأخضر الفاتح ، والإفريز الأبيض الداخلى ، مثل بيرق ابن سعود نفسه ، ولكنه يصغره من حيث الأبعاد ، وهذا فيلق سدير ببيرقه الأحمر الذى له حواف خضراء ، وهذا أيضًا فيلق المحمل الذى له بيرق يشبه بيرق فيلق سدير ولكن ألوانه معكوسة ، وذلك هو فيلق الحوطة ، وبيرقه أبيض اللون له حواف حمراء ، وهذا فيلق الأفلاج الذى يتقدمه علم أبيض اللون . كانت تلك هى الفيالق التى كانت معبأة فى ذلك اليوم ، وربما قدر عدد رجالها بحوالى ألف رجل تقريبًا .

كانت الترتيبات التى جرى عملها تقضى بأن أسير مستقلاً عن "الجوم" ، ولم أركب دابتى وأبدأ التجوال خلال المخيم أنا ومن معى من الخدم المرافقين لى إلا بعد ابتعاد طابور القوات عنا مسافة كبيرة . وكان من بين المرافقين لى كل من إبراهيم ، وابن عمه حمود ، وشخص آخر يقال له حمدانى ، ورحنا نتجول فى المخيم المهجور من كل شىء اللهم إلا باستثناء قدر معلوم من المخزونات والأمتعة الثقيلة التى تقرر لها أن تعود إلى الرياض مباشرة ، من الاتجاه الذى حدده متخلفو القوة الرئيسية ، ومسئولو المؤن والأمتعة ، وخدم الخيول وسياسها ، وما إلى ذلك ممن يرافقون جيشًا من الجيوش

خلال تحركاته . ونظراً لأنى لم أكن مقيداً بالالتزام بحرفيات وتعاليم تحرك القوة الرئيسية ، فقد أتاح ذلك فرصة ملاحظة طرق تحرك القوات العربية فى أثناء التعبئة ، وسرعان ما تحول طابور السرايا التى كانت فى المقدمة إلى موجات متتالية من الرجال والإبل بدأت تشغل أوسع جبهة تسمح بها طبيعة الأرض ، وذلك نظراً لأن المنخفضات على الجانبين بدأت تزداد وعورة ؛ مما كان يسبب المتاعب للدواب من ناحية ، ويجعل خط الانتشار مقصوراً على ذلك السهل الذى بدأ يضيق تدريجيًا . وبعد أن أمضينا قرابة الساعة فى المسير بدأت ألاحظ انحراف موجة القيادة انحرافًا مفاجئًا إلى أحد الجوانب لندخل إلى خليج صغير فى المنخفضات ، والذى صدر منه بعد ذلك بدقيقة واحدة عمود من الدخان متجهًا صوب السماء ليعلن أن ابن سعود قد توقف لتناول وجبة الصباح (الفطور) . كان ذلك المنظر مشهوداً ومؤثراً ، إذ بدأت موجات الرجال واحدة إثر الأخرى تنتحى جانبًا للغرض نفسه، وراحت كل سرية تختار الوقت والمكان المناسب لها لتناول وجبة الإفطار . ولكن البيارق واصلت المسير فى طريقها تحاشيًا لمقاطعة الاستمرارية ، نظراً لأن أحداً لا يسمح له بالمرور من أمام البيرق الملكى سوى ابن سعود نفسه والأمراء أصحاب السمو ، إضافة إلى أن الخيمة الملكية لابد أن تكون قد نصبت بالفعل قبل وصول ابن سعود وأصحاب السمو إلى ذلك المكان المحدد .

وتجاوزت وأنا على ظهر راحلتى جماعات متفرقة ، منهم من يتناولون الإفطار ، ومنها من يحتسون القهوة حسب الأحوال ، وعند واحدة من تلك الجماعات وجّهوا لى دعوة خالصة صادقة للتوقف لتناول المرطبات ، وكان ضيفى المرتقب – لأنى لم أتناول سوى فنجان واحد من القهوة وأنا على ظهر راحلتى – رئيس فيلق سدير ، سليمان الحمد بن عسكر ، ابن شقيق عبد الله بن عسكر ، أمير المجمعة Majma'a . كان واحداً من أتباع ذلك الأمير قد التقى النقيب شكسبير فى أثناء مروره عبر أراضى سدير المرتفعة ، ومما لا شك فيه أنى حظيت بذلك الاستقبال الحار والودى من ذلك الشيخ الشاب بسبب ذلك الظرف .

لم يكن هناك ما يسترعى الانتباه فى البلاد طوال القسم الأول من المسير ، كانت المنخفضات التى مررنا بها فقيرة جدباء اللهم إلا باستثناء بعض نباتات العرفج التى كنا

نصادفها بين الحين والآخر فى تجاويف المرتفعات ، والتى كانت تتزايد بصورة متدرجة فى اتجاه الغرب على شكل حافة واضحة المعالم ، كانت تبدو أكثر ارتفاعاً من متوسط ارتفاع الهضبة ، أكثر من أى شىء من الأشياء التى سبق أن رأيناها إلى الشمال من شعب شوكى . ولكننا بعد أن قطعنا مسافة تقدر بحوالى خمسة أميال تغير المنظر بصورة مفاجئة ، وهذا أمر دائم الحدوث فى الصحراوات العربية ، ثم خرجنا بعد ذلك من تلك المنخفضات إلى حافة وادٍ يبلغ عرضه قرابة الميل ، يمتد بزاويا قائمة متعامداً على طريق سيرنا فيما بين السلاسل الجبلية المشهورة وطوال القسم الأكبر منها الذى يتراوح ارتفاعه بين ٥٠ و ١٠٠ قدم . وهنا تغير اتجاه مسارنا بصورة مفاجئة من الجنوب الشرقى إلى أقصى الجنوب الغربى ، وأمضينا بقية اليوم ونحن نصعد نحو أعالى ذلك الوادى فى هذا الاتجاه ، وهنا بدأت البيارق التى اقتربت من البيرق الملكى أو وصلت إليه ، تسير على شكل صف على رأس الموكب ، فى حين راحت بقية الحشد تسير فى المؤخرة ، سرية بعد سرية ، منتشرة عبر الوادى ، الذى بدأت تنتشر فيه هنا وهناك جماعات دواب الأمتعة ومعها الخيول . كان ذلك المشهد رائعًا وملهمًا ، مما جعلنى احتضن الأرض المرتفعة على طول سفح السلسلة الجبلية الموجودة على ضفة الوادى اليسرى .

الناس هنا يطلقون على ذلك الوادى اسم شعب العطس al Ats ، وهذا الشعب يعد أو كان واحداً من "الأنهار" الرئيسية الستة فى وسط الجزيرة العربية ، وأكثر تلك الأنهار اقترابًا من شمال الجزيرة العربية ، وذلك باستثناء وادى ريمة Wadi Rima ، الذى سبق لى وصف مجاريه المنخفضة تحت اسم الباطن ، والذى قدر لى أن أرى مجراه الأوسط فى القصيم . وشعب العطس ، الذى يتكون من التقاء قنوات الصرف القادمة من المحمل Mahmal الغربى فى سهل حمادة Hamada فى واحة القصب Qasab تحت جرف الطويق Tuwaiq الغربى المنحدر ، يشق طريقه عبر حاجز الهضبة الكبرى بطول الخط الذى يشكل حداً فاصلاً بين منطقة سدير من ناحية الشمال ومنطقة المحمل من ناحية الجنوب ، ثم يواصل مسيره إلى الباطن ، ليدخل بعد ذلك مباشرة إلى هضبة

عارمة 'Arma عن طريق فجوة فى جدارها الغربى ، ثم يواصل شعب العطس مسيره خلال الهضبة بنفس الطريقة - يتجه مجرى الشعب خلال الهضبة من أقصى الجنوب الغربى إلى أقصى الشمال الشرقى - إلى أن يصل حافة الدهناء Dahana ، لينتهى قبلها بمسافة قصيرة داخل الحوض الضحل الواسع ، الذى تقع فيه أبيار حفر العطس(١٧) ، التى سميت بهذا الاسم تمييزاً لها عن أبيار الحفر فى الباطن ، والتى تقع على بعد حوالى اثنى عشر ميلاً من النقطة التى دخلنا منها إلى ذلك الوادى .

هنا أصبحت رؤيتنا مقصورة على سلسلة الجبال المنخفضة الموجودة على الجانبين، التى أدت الانكسارات التى كنا نصادفها فيها بين الحين والآخر إلى تحويل صرف الأراضى المرتفعة إلى أرض الوادى المنخفض ، التى كانت قفراً ومسطحة ومعوجّة على امتداد ما يقرب من خمسة أميال ، وترتفع عن مستوى النقطة التى دخلنا منها إلى بروز واسع ، توجد عند مدخله رابيتان مخروطيتان تسميان الحنادير Al Handir وتبرزان فى وسط الوادى مثل خفيران يقومان بالحراسة . ومن خلف هاتين الرابيتن بدأت سلسلة جبال ضفة الوادى اليمنى تتخذ شكلاً مشرشراً وتحمل اسم الخناصير Al Khanasir ، مما يشير إلى بروزاتها الصغيرة التى تشبه الأصابع ، فى حين طغت مرتفعات الشمال - عند النقطة التى طلبت التوقف عندها لتناول الإفطار - على ضفة الوادى اليسرى ورسبت فوقه مجموعة كبيرة من الروابى خلف تلك المرتفعات فى الوادى نفسه . كانت الرماض Ramdhas (واحدتها رمضة) أو إن شئت فقل أدغال السدر، تنتشر هنا وهناك على شكل خلجان بين تلك الروابى من ناحية وبين سلسلة الجبال من الناحية الأخرى ، ولم يظهر من تلك الأدغال سوى اثنين فقط - إضافة إلى تلكم الأدغال التى لم نرها - كانا يحملان اسم روضة الحقاقة Roudhat al Haqqaqa على الجانب القريب من امتداد أرض محروثة تحمل الاسم نفسه ، وكذلك روضة نورا Raudha Nura فيما بين تلك الأرض المحروثة ووادى العطس . عند هذا الحد كنا نقترب من نهاية المسير المحدد لذلك اليوم ، وبعد أن استأنفنا امتطاء الدواب بعد تناول الإفطار شاهدنا بيارق مقدمة الجيش وهى تنال قسطاً من الراحة على بعد مسافة من أمامنا ،

وعندما أوشكنا على نصب الخيام كان ذلك فى المكان الذى اخترناه بالقرب من مصب رافد من روافد شعب العطس ، هو شعب أبو رمال Abu Ramal ، الذى سمى بذلك الاسم بسبب الرمل المتسرب الذى تكوّم على سلسلة الجبال وطمسها على الضفة اليمنى من الوادى . وبالقرب من الضفة الأخرى وربما على بعد ميل من المخيم كانت توجد مجموعة كبيرة من الأدغال التى يطلقون عليها هنا اسم روضة أبو ركبة Rukba ، التى يقال إن بها غديرًا ، أو إن شئت فقل حفرة الماء تصب ، وجف ماؤه الآن .

وعقب نصب خيمتى مباشرة انضم إلىَّ كل من سعد وإبراهيم ليشاركانى التدخين ، وأبلغانى فى ثنايا الحديث أن ابن سعود قد لا يحتاج إلى وجودى فى أثناء النهار ، لأنه سوف يتزوج بعد ظهر ذلك اليوم من فتاة من فخذ دامر Damir من قبيلة عجمان ، وأن تلك الفتاة كان متوقعًا وصولها إلى شوكى ، ولكنها تأخرت لسبب أو لآخر ، ولكنها وصلت فعلاً إلى منطقة المخيم . وبينما كان سعد وإبراهيم يتحدثان معى دخل علينا مراسل موفد من الخيمة الملكية ، يستسمحنى أن أستميحه عذرًا لطارئ مهم . وأخبرونى بعد ذلك باحتفال الزواج ، الذى تم بعد ظهر ذلك اليوم فى وجود ابن سعود بنفسه ، ومندوبين من قبل والد الفتاة ليهدياها بالشكل المناسب ، ومعهما الشيخ (المأذون) ، ولكن أعراف البلاد تقتضى بألا يدخل ابن سعود إلى خيمة عروسه إلا بعد الانتهاء من صلاة العشاء . كنت فى ذلك المساء ، بعد تناول العشاء ، أجلس فى خيمتى مع إبراهيم عندما جاءنى سعد . وسأله إبراهيم ، الذى كان يتطلع لسماع آخر أخبار المرح الطريفة من البلاط الملكى "هل دخل الشيوخ ؟" بمعنى "هل دخل الرئيس على عروسه ؟" وأجابه سعد قائلاً: "بعد - بمعنى ليس بعد - لقد كان مشغولاً طوال اليوم ، وما يزال مشغولاً فى عمله مع كل من الجنيفى Al Junaifi وابن سويدان Suwaidan - السكرتيران الرئيسيّان - يدونان ما يريانه مفيداً". كان لابد من تركهما يلهوان ، لأن ما أدهشنى وأدهشهما أيضًا أننى تلقيت أمرًا باستدعائى إلى خيمة ابن سعود ، التى وجدت فيها عندما دخلتها ، ابن سعود جالسًا إلى جوار سرج الجمل القديم ومعه سكرتيراه ، وقد جلسا على جانبيه ، وهو يملى عليهما رسائل فى موضوعات مختلفة وفى آن واحد بسرعة ودقة دهشت لهما . وحيانى ابن سعود بابتسامة حقيقية

ولكنه لم ينهض واقفًا من مكانه ، ثم أشار إليَّ بالجلوس فى مكان إلى جانبه ، أخلاه ابن سويدان ليجلس راكعًا على رجليه أمام سيده ، واعتذر ابن سعود عن انشغاله ، وواصل إملاء الخطابات على سكرتيريه ، كما راح يتحدث معى فى الوقت نفسه . ولم يكن ذلك كل ما حدث ، إذ مثلت أمامه وسط كل ذلك الانشغال ، قضية ، استطاع دون أى توقف فى حديثه معى أو فى إملائه على سكرتيريه ، أن يستخلص كل حقائقها من المدعى ، يطالب بتعويضه عن الإبل والغنم والنقود التى أخذها العجمان منه بطريق الغزو فى أراضى الكويت . وبعد أن حلَّف ابن سعود المدعى على صحة أقواله وعن قيمتها ، بدأ بعد أن انتهى أحد السكرتيرين من الكتابة ، يملى عليه رسالة أخرى موجهة إلى الشيخ سالم ، شيخ الكويت ، يطلب إليه فيها تحمل مسئولية المفقودات التى جرى الاستيلاء عليها داخل أراضيه ، ويطالبه أيضًا بتصحيح ذلك الوضع ، ويقول له : إنه إذا لم يفعل ذلك فإنه سوف يصدر تعليمات لمندوبه فى الكويت بدفع المطلوب ، وسوف يعتبر ذلك دينًا له عند شيخ الكويت . لم يسبق لى أن شاهدت ابن سعود وهو يصرِّف شئون دولته المعتاده ، وكانت تلك المرة الأخيرة أيضًا ، ومع ذلك فقد كانت تجربة لا تنسى . لابد أن الساعة كانت تقترب من التاسعة مساءً عندما ذهبت إلى ابن سعود أول مرة ، ولم ينته العمل إلا فى حوالى الساعة العاشرة والنصف عندما ذهب السكرتيران لحال سبيلهما ، ووجدت أن من اللياقة والذوق أن أنصرف أنا أيضًا فى الوقت نفسه ، ولكنه استبقانى ليناقش معى بعض الرسائل التى سبق أن أملاها على السكرتيرين . كانت إحداها ردًا على رسالة المندوب السامى والأخرى ردًا على السلطات فى بلاد الرافدين ، ولم استأذن من ابن سعود فى تلك الليلة قبل الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً . قال لى ابن سعود : "أبدأ المسير صباح باكر قبل طلوع النهار بساعتين ، وأنت لن تصحو فى تلك الساعة المبكرة ، وتستطيع أن تأتى بعدى عندما تصبح على استعداد لذلك". ولم يقل ابن سعود أى شىء عن تلك الزوجة الصغيرة التى كانت تنتظره على مضض ، ثم عدت إلى خيمتى وأنا أفكر فى إحساس تلك العروس التى سوف يهجرها زوجها عند الساعة الثانية صباحًا فى ليلة زفافها ، كانت تلك تجربتها الأولى مع الزواج .

حدث ذات يوم ونحن فى شوكى أن راح كل من تركى وعبد الله يتفاخران وهما في الخيمة الملكية بمزايا ركوبتيهما وسرعة كل منهما ، باعتبار أن هاتين الركوبتين تعدان عيِّنتان من الذلول العمانية ، وأنهما أفضل الإبل الموجودة فى الجزيرة العربية كلها ، وأنهى ابن سعود ذلك النقاش بتقديم جائزة مقدارها ٢٠٠ ريال لمن يفوز فى السباق من المخيم إلى الرياض شريطة ألا يزيد الوقت اللازم لقطع تلك المسافة على أربع وعشرين ساعة اعتباراً من بداية السباق . وقبل الأخوان ذلك التحدى ، وشارك حوالى اثنى عشر متسابقًا من بينهم تركى ، وعبد الله ، وسلمان العرفة al 'Arafa، الذين قدموا أنفسهم للمشاركة فى ذلك السباق ، الذى بدأ بعد تقويض المخيم . كانت المسافة إلى العاصمة تقدر بحوالى ثمانين ميلاً وذلك من الطريق الذى سلكته أنا ، وربما كانت أقصر من ذلك ، أى حوالى سبعين ميلاً ، من خلال الطريق المباشر ، الذى يتفرع من وادى العطس عند روابى الحنادير Hanadir ويسير من خلف سلسلة جبال الخناصير Khanasir إلى خفس Khafs التى يعاود عندها الاتصال بالطريق الرئيسى المعتاد . ويبدأ السباق فى هدوء ، وسار المتسابقون خلف البيرق إلى نقطة بداية السباق ، التى شهد ابن سعود منها بداية الصراع الحقيقى . كان ذلك السباق اختباراً لقدرة التحمل أكثر منه للسرعة إلى أن أرخى الليل سدوله ، وبعدها تناول المتسابقون عشاءهم الذى نالوا بعده قسطاً من الراحة قبل أن يدخلوا المرحلة الأخيرة ، ويبدءون سباق العودة إلى العاصمة . وجرت فى المخيم فى تلك الليلة تكهنات مهمة كثيرة حول نتيجة ذلك السباق ، وكان الكثيرون يفضلون الذلول الذى اشتراه عبد الله مؤخراً من المرَّة Murra مقابل ألف ريال ، بينما كان تركى يحظى أيضًا بثقة كبيرة . وقد أبدى أحد الحاضرين ملاحظة عندما قال "والله ! خيَّال !" . تلك عاطفة تبدو غريبة على الشفاه العربية ، والسبب فى ذلك أن اكتمال الفروسية أمر مسلم به فى الجزيرة العربية ، التى يركبون الخيول فيها منذ نعومة أظفارهم ، بل أن دوتى Daughty فى معرفته الحميمة بالعرب لم يسمع أحداً منهم قط يمتدح ركوب آخر للخيل . ومبلغ علمى أننى عثرت على استثناء لتلك القاعدة ، ولكنى سرعان ما نبهت إلى الخطأ الذى ارتكبته ، نظراً لأن الكلمات لم تعبر عن المعنى الذى كنت أقصده وجال بخاطرى ، وأننى كنت أقصد

شجاعة الولد ومهارته فى القتال أكثر من مجرد امتطائه صهوة الحصان . ونال تركى قصب السبق فى ذلك السباق - نجاح شعبى كبير - وجاء سلمان فى المرتبة الثانية ، فقد وصل الفائز الأول إلى الرياض قبل فجر اليوم التالى بوقت قصير جداً ، أى أنه أمضى ، كما يقولون ، اثنتى عشرة ساعة راكبًا على سرج الجمل . وأداء تركى هذا لم يكن أمرًا مستغربًا فى سباق كهذا من سباقات السرعة ، والسبب فى ذلك أن معدل ستة أميال فى الساعة الواحدة لا يزيد كثيرًا عن كونه شكلاً من أشكال العدو الجيد ، وكان القسم الأول من السباق قد أنجزه المتسابقون بالسرعة المعتادة ، ولكن السرعة فى المرحلة الأخيرة من السباق لابد أنها كانت فى حدود ما لا يقل عن عشرة أميال فى الساعة ، وتلك سرعة طيبة ، يدخل ضمنها أيضًا قطع مسافة ميلين فى رمال كثيفة فى عرق بنبان 'Arq Banban . وأنا ، بنفسى ، قطعت الطريق الأطول فيما يزيد قليلاً على خمس وعشرين ساعة من المسير المعتاد ومقسمة على أربعة أيام ، كما قطع ابن سعود مسافة الستة وأربعين ميلاً التى تفصل الخفس Khafs عن الرياض فى ثلاث عشرة ساعة ، بما فى ذلك الوقفات ، ولكن كل هذه الأعمال كانت من قبيل المفاخر بلا أدنى شك . وكان زبارة Zubara ومطيلج Mutailij ، وهما من بين من رافقونى فى رحلة جدة قد قطعا المسافة من مكة إلى الرياض عن طريق مرَّان Marran وشاعرة Sha'ra فى ثمانية أيام ، وكانا يركبان جملين مرهقين وقطعا المسافة من الرياض إلى جدة . كان العرض ممتازًا ، على الرغم من أنه لا يمكن مقارنته بمفاخر لورانس فى عالم الإبل خلال حملة الحجاز ، أو السرعات المدهشة الأخرى وقوة التحمل المسجلة لدى سلطات أخرى موثوق بها[١٨] .

أيقظونى عندالساعة الثالثة والنصف من صباح اليوم التالى لأجد ابن سعود قد برَّ بكلمته ورحل بالفعل تاركًا المخيم فى حالة من الهرج والمرج تجعل من أية محاولة للنوم أمرًا مستحيلاً . كان الجو لا يزال مظلمًا عندما دلفت خارجًا من خيمتى ، وهذا هو كوكب الزهرة يسطع نوره وسط هالة شاحبة بفعل انخفاض درجات لمعان غسق الفجر المعدنى، أو إن شئت فقل : الفجر الكاذب[١٩] كما يسميه العرب ، عندما يستسلم

أمام تلوينات الفجر الحقيقى المصغرة . وراح إبراهيم ، الذى كان قد شرب كأسًا من بول الإبل ، أملاً فى أن يشفيه من نوبة الإمساك التى عكرت صفوه وأتعبته طوال أربعة أيام ، راح يشكر ربه الذى شفاه مما ألم به ، وراح أيضًا يجمع جماعتنا الصغيرة لصلاة الفجر ، التى أنهينا بعدها كل شىء ، وركبنا دوابنا لنسير فى أثر الجيش ، الذى مررنا بمتخلفيه وحملة أمتعته ومؤنه على مسافات متساوية طوال السير .

وتصادف أن كانت جماعة من تلك الجماعات التى مررنا بها ، هى جماعة عروس الليلة الماضية وخدمها ومرافقيها ، وكان ابن أخيها من بين أفراد الجماعة ، وهو طفل فى العاشرة من عمره ، اسمه محمد بن مانع Mani' بن جماع Jima' ، الذى ربما كان واحدًا من وكلاء عمته فى حفل الزواج . ولما كان ذلك الطفل كثير الفضول وكثير التساؤل عن بقية من كانوا معه فى الجماعة ، التى كانت تسير موازية لنا ولكن تبعد عنا مسافة قليلة ، فقد اقترب منا بوجه بشوش ومن خلفه خادمه على الذلول ، ليقف على هويتنا ، نظرًا لأن الشراريب التى كانت تتدلى من سرج جملنا كانت توحى أننا من نوع أفضل . وتبادل ذلك الطفل – دونما خجل أو حرج – التحية معنا ، ودخل فى حديث مع إبراهيم بثقة حقيقية تعد إرثًا حقيقيًا أيضًا فى العرب، وبقدر ما تسعفنى ذاكرتى لم أر قط أحدًا من ذلك النوع ، على الرغم صغر سنه ، واثقًا بنفسه إلى هذا الحد فى مجتمع الكبار ، ودهشت مرارًا لرقة تصرفات ذلك النوع من البشر ، فى كل الأحوال ، سواء أكانت أحوالاً عامة أم أحوالاً خاصة . على كل حال ، لقد تملكه فضوله عندما لاحظنى ، ولم تغب عنى ملاحظة الهمسات الجانبية التى دارت بينه وبين إبراهيم، إلى أن أشبع فضوله بالمعلومات التى استخلصها من إبراهيم ، وهنا راح يستحث جمله طلبًا للسرعة ، وتركنا فجأة ليحكى لعمته بالقطع عن ذلك الكافر . ولكن ما أدهشنى بحق من ذلك الطفل الصغير كلامه فى الحديث الذى دار عن مزايا المهرة (الفرس) الجيدة ، التى تصادف أن مرت بنا ، والتى كان يقتادها سائس يركب جملاً ، فى اللحظة التى وصل فيها ذلك الطفل إلينا . واقع الأمر أن ذلك الطفل غابت عنه بعض الأشياء القليلة جدًا عن الفرس الجيدة ، فقد لاحظت أن الخيول الخاصة بابن سعود

وبأفراد الجيش الآخرين كانت جميعها مركب لها حدوات من نوع غجيب[٢٠] مكونة من قطعة من المعدن تشبه القلب ، مخرومة من الوسط - على حد علم إبراهيم - بفتحة زينة ليس إلا ، ولكنها باستثناء تلك الفتحة ، تغطى الجزء الأسفل من الحافر ، الذى ثبتت فيه بمسمارين فى كل جانب من الجانبين . واستعمال تلك الحدوة يعد أمراً ضرورياً فى نجد ، نظراً لطبيعة الأرض الصخرية ، التى يعد استعمال مثل ذلك الطراز من الحدوات أمراً تافهاً فى حماية أرجل الخيول ، ولكن الخيول لا يجرى تركيب حدوات لها هنا إلا عند استعمالها ، يضاف إلى ذلك أن مسألة نمو حوافر الخيول لا تجرى مراقبتها فى الإسطبلات أو المراعى .

وظل طريقنا يسير محاذياً لضفة الوادى اليمنى إلى مسافة تقرب من ثلاثة أميال ، وبخاصة أن سلاسل ذلك الوادى الجبلية بدأت تتفرق بصورة متدرجة على شكل انحدارات شبه دائرية واسعة ناحية الشمال وناحية الجنوب مع اقترابنا من وادى البطين Butain ، الذى أخذ سطحه الذى كنا نسير فوقه يتحول من صخور إلى رمال ، وكانت تتخلله بين الحين والآخر بقع منخفضة من الأرض ، كانت تكسوها الأدغال فى الوقت نفسه . وعلى بعد مسافة كبيرة من أمامنا على الجانب الأيمن ظهر أمامنا ساحل المجزَّل Mujazzal الطويل ، فى حين كانت سلسلة جبال خزة Khazza تمثل الحد البعيد للبطين وبداية مرتفعات منظومة الطويق . وهناك امتداد أرضى اسمه خشم على ديراب Khashm 'Ali Dairab ، الذى يجاوره مدق متجه إلى البطين قادمًا من اتجاه شعب آصال Asal ، هذا الامتداد يقع فى الناحية الشمالية الغربية عند التقاء ضفة الوادى اليمنى مع الجرف الغربى من هضبة عارمة ، فى حين كانت الضفة اليمنى تلتقى أيضًا بامتداد الجرف فى اتجاه الجنوب على شكل كتف بارز من التلال المفتتة ، التى يجرى بين ثنياتها شعبا السلح Silhوالرويغب Ruwaighib، اللذان يعرفان باسم شعب طيبات الاسم Taiyibat Ism ، أو إن شئت فقل قناة الأسماء الممتازة ، لينساب بعد ذلك منحدراً إلى وادى العطس فى المنطقة التى يعبر عندها وادى البطين . وعلى مرمى البصر ، وفوق كل تلك الأخاديد أو المجارى الطبيعية توجد - على حد قولهم - سقيا تحمل الاسم نفسه ، حوّلوها مثل رحيلى عن الجزيرة العربية إلى قرية مستوطنة [٢١] من مستوطنات الإخوان .

واعتباراً من النقطة التي يطلق عندها اسم سهلة الخفس Sahlat al Khafs على على غدير البطين ، تنساب مياهه لا في وادى العطس وإنما تتجه جنوباً إلى منخفض الخفس ، كما يجرى جرف عارمة ، منحدراً ووعراً متجهاً صوب الجنوب الشرقى وبلا توقف إلى المنطقة المجاورة لأبى جيفان وما بعدها . وفى الجانب الأيمن تقع سلسلة جبال خزة Khazza التى سبقت الإشارة إليها ، هى والجزء العلوى من وادى العطس الذى يرتفع متدرجاً إلى الأرض المرتفعة فيما بين طرفه الجنوبى المنحدر المنخفض غير المحدد ، الذى يتجاوز طرفه الجنوبى على سلاسل عرق نيبان الرملية العالية . وحدثونى عن الأرض المرتفعة فقالوا إنها تحتوى على قرى مبعثرة – عشيرة Ashaira ، والحسى Hassi ، ودقالة Daqala – التى خلفت أو عمّرت بعد مستوطنات سدير الزاهرة ، كما شاهدنا هنا وهناك جماعات البدو وهم يرعون أغنامهم ، وكانت غالبية البدو فى مخيم السهول الصغير الذى مررنا فيه بأصحاب البشرة البيضاء . والصخرة الموجودة على طول الطريق الذى نسير عليه ، يتردد ارتفاعها بين ٣٠٠ قدم أو ٤٠٠ فوق مستوى سطح السهل ، وقمة تلك الصخرة متآكلة بفعل الطقس والرياح ، الأمر الذى حولها إلى مجرد خطوط خارجية تحدد معالمها ، وضعت الطبيعة فى تجاويفها الصخور المتفتتة داخل ملاءة من الحطام لتظل مكوّمة على شكل أكوام مروحية الشكل من حول قاعدة تلك الصخرة ، وتحتضن من مسافة بعيدة نسقاً طويلاً من الامتدادات الأرضية، التى يطلق العرب على كل واحدة منها اسماً خاصاً . ثم قررنا التوقف لتناول وجبة الفطور بعد أربع ساعات من السير فى شعب خفس ، مجرى السيل الرملى الذى تغطى الأدغال ضفتيه ، وتنتشر فيه أشجار الطلح ، ونباتات الشرر Sharr ذات الأوراق العريضة ، والتى تبدأ أصلاً من مكان ما على قمة الهضبة وسط حشد من الجلاميد الصخرية العجيبة ، التى من بينها ذلك الجلمود المستدق الرفيع الذى يقف شامخاً فوق جلمود آخر ، والناس هنا يطلقون على هذا الجلمود اسم الإصبع 'Al Usba ، فى حين سرح خيالى مع الجلاميد الأخرى وصورها لى على أنها أعمدة تهاوت من معبد ضخم ، تقف فى وسطه صخرة هائلة منحوتة بفعل الزمن وليس بفعل الإنسان ، على شكل أبو الهول . كان المكان الذى تخيرناه لوقفة الصباح يبعد كثيراً عن المكان الذى

نحن فيه حاليًا ، ولم نكن نحن فى عجلة من أمرنا ، وكان جميلاً حقًا أن نجلس فى ظل أشجار السنط الباردة ، ونروح نبتلع وجبة الأرز الباردة ومعه اللحم ، تلك الوجبة التى جاءتنا من المطبخ الملكى نوعًا من الترفيه ، ثم ندخل بعد الأكل ونشرب القهوة ونحن مرتاحون بعد تناول الطعام .

وطوال تلك الأيام كنت ألتقى مراراً بأصدقائى القدامى ، وكلهم ممن رافقونى فى رحلة جدة ، ولكنهم نسونى ، إذ إن السواد الأعظم منهم كان يمر من أمامى دون أن يحيونى أو يكشفوا عن أية إشارة تنم عن معرفتهم لى ، هذا فى الوقت الذى لم ينحرف أحد منهم عن طريقة ليزورنى فى خيمتى . ذات يوم جاء ابن نصّار ، الطباخ ، ليقابل إبراهيم فى أمر ما ، وعندما رآنى معه ، راح يهمهم ببعض عبارات الاعتذار الضعيفة رداً على لومى إياه بأنه كان مشغولاً بكثير من الأعمال ، يضاف إلى ذلك أن كلاً من جرمان Jarman وزبارة Zubara التقيا بى وجهًا لوجه وكانا جافين إلى أبعد حد ممكن فى تحيتهم لى ، كما قابلت أيضًا كلاً من ضيف الله Dhaif al llah ، ومنور Minwar راعى الإبل ، وأبو نورة Nura ، ولكنهم كانوا يشيحون بوجوههم عنى طوال تلك المسيرة ، التى مررت خلالها أيضًا بعبد الله النفيسى، المحارب ، أمير ضرمة Dhruma، الذى استضافنى فى منزله فى أثناء زيارتى قريته ، ولكنه هنا لم يبد أية إشارة تنم عن معرفته إيَّاى . هؤلاء الوهابيون أجلاف فى بيئتهم ، ومع ذلك فهم يتشددون كثيراً فى ظروف أخرى ، وهنا لابد أن نعترف بأن هؤلاء الناس كرماء فى منازلهم ، أو أن من يلوح بأمل تقديم هدية يكتشف الود الكامن فى الجنس العربى . ومن بينهم كل هؤلاء الأصدقاء لم ينجح فى الاختبار سوى اثنين منهم فقط ، هما اللذان كانت لديهما الشجاعة على تحمل نقد الرأى العام ، وهذان الاثنان أراحا ضميريهما بالإفادة من تبغى (الدخان) فى نطاق خصوصية خيمتى .

وبعد استئناف المسير وصلنا فوراً إلى مخيم ابن سعود ، الذى نصب فى منتصف المسافة بين الصخرة وحافة سلسلة جبال عرق بنبان الرملية ، على قطعة كبيرة من الكثبان الرملية التى تغطيها الأدغال ، وتعرف باسم دكاكات الخفس

Dakakat al Khafs ، وما يسمى بغدير Ghadir أو بحيرة الخفس ، وهو منطقة مائية ضحلة تمامًا[٢٢] فى منخفض بالقرب من الغدير من الناحية الشمالية ، يقعان عند سفح الصخرة ، فى المنطقة التى ترتفع على شكل جرف هارٍ منحدر من الحجر الجيرى تعلوه طبقة سميكة من الحجر الرملى أسود اللون وأحمر اللون ، ويصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ٥٠٠ قدم . والبحيرة نفسها ، التى يعزو الناس وجودها إلى تساقط أحد النجوم ، تعد ملمحًا أساسيًا من ملامح طبيعة الأرض ، نظرًا لأنها تعد شقًا عميقًا فى الأرض يصل طوله إلى حوالى ٨٠ ياردة وعرضه حوالى ٥٠ بوصة ، ولها امتدادان يشبهان المخلبين ، مما يضفى على تلك البحيرة منظر سمكة الكابوريا Crab، كما أن مياه الصرف فى هذه المنطقة وبخاصة المنحدرات المحيطة بها ، تشق طريقها إلى هذا الخزان المتمثل فى هذه البحيرة. كان حوض هذه البحيرة فى العام الماضى مملوءًا بالماء الذى وصل إلى حوافها ، وذلك بفضل معدل سقوط الأمطار الممتاز ، أما فى هذا العام وفى أثناء تعبئة "الجوم" فى تلك المنطقة ، فقد انخفض مستوى الماء فى تلك البحيرة وأصبح يتردد بين قدمين و ٣ أقدام تحت حافة البحيرة ، والناس هنا يقولون إن عمق الماء فى وسط البحيرة يصل إلى ٣ قامات . وماء تلك البحيرة ، الذى شربت منه، بينما كان العرب والإبل تستحم فى الأجزاء الضحلة منها ، صاف وعذب مثل المياه الأخرى التى صادفتها فى الجزيرة العربية ، ولكن البحيرة هى والسهل الذى يحيط بها كله اعتبارًا من وادى العطس إلى جنوب المنطقة التى فيها المخيم تشكل خاصة ملكية ، أو إن شئت فقل "حِمَى" Hima، كما يسميها الناس هنا ، وهى مخصصة لرعى قطعان الأغنام الملكية والمواشى الملكية ، وكل من يتعدى على ذلك الحمى يحاكم محاكمة صارمة أمام محكمة ابن سعود نفسه . وهذه القيود الصارمة ، التى تعد أمرًا ضروريًا لتلك البقعة من الأرض التى تعتمد على المطر ، شأنها فى ذلك شأن مناطق "حِمَى" الرياض ، تزدهر فيها المراعى والعشب ، العرفج ، والرِّمض، ونباتات الرِّبلة التى لها قيمة كبيرة ، والتى تطلق فيها بين الحين والآخر الإبل الملكية كى ترعى بنفسها فى الفترات ما بين الغزوات والمهام الأخرى .

سألنى ابن سعود فى أدب واحتشام : "هل حدثوك عنه ؟" وتأملت ذلك السؤال وأنا أدخل خيمته بعد وصولى إلى المخيم مباشرة . ومن حسن الحظ أن إبراهيم كان بصحبتى وأنا ذاهب إلى خيمة ابن سعود ، ولم أكن أعرف إن كانت مسألة الكلام عن زواج سيده يمكن أن تؤذيه أو لا ، وهنا استطعت أن أتلكأ قليلاً وأعطيه فرصة الإجابة عن السؤال . قال ابن سعود : "والله ! لقد نسيت أن أخبره عن ذلك الموضوع". واصطنعت شيئًا من التشكك . قال ابن سعود : "تُرى ، ما هو ذلك الشىء ، لقد تزوجت زوجة جديدة الليلة الماضية ، ألم يبلغوك بذلك ؟" وأجبته قائلاً : "والله ! أنا لم أعلم بذلك ، ولكن إبراهيم أبلغنى أنك وصلك بالأمس خبر مولد ابنة لك فى الرياض ، وأنا أهنئك على ذلك الحادث السعيد" . كانت أرملة أخيه التعيس سعد قد حملت منه وأنجبت له طفلة . وأبلغنى بعد ذلك أن عروسه الجديدة لم ترضه بالقدر المطلوب ، وأنه تركها مع ساعات الصباح الأولى ، ونظرًا لأنه سوف يتحرك على وجه السرعة ، أو بالأحرى بعد انتهاء اجتماعه معى ، إلى الرياض ، وبالتالى لن يتوفر له الوقت الكافى للاحتفاظ بزوجة جديدة ، أو إن شئت فقل بدوية ، فقد رأى تطليقها على الفور . وهكذا انتهت حكاية تلك الفتاة المسكينة . لقد كانت ملكة بحق ولكن ذلك لم يدم سوى سويعات قليلة ، ويتعين عليها الآن العودة إلى خيام والدها ، وقد مر بنا موكب تلك العروس الصغير هى والقن Qin ، المغطى بالستائر ليخفيها عن أنظارنا ، مر بنا بينما كنا نتناول طعام الفطور فى الشعب ، كما أن رشيدًا أخا حسنة Hasana ، الذى كان مسئولاً عن أمور تلك العروس ، جاء إلينا ليلهو مع إبراهيم على حساب العروس . قال إبراهيم : "هل رأيت ذلك الرجل ؟" من باب تقديم رشيد إلىَّ . وأردف إبراهيم متسائلاً : "هل تعرف السبب الذى من أجله جعلوا ذلك الرجل مسئولاً عن هذه الفتاة ؟ السبب ، أن زوجته تود تطليقه بسبب عجزه الجنسى ؛ من هنا فإن ابن سعود يمكن أن يثق به فى مثل هذه الأمور". ورد رشيد بضحكة طريفة ، قائلاً: "لعنة الله عليك . إنه رجل حقير يا سيدى ، إنه كذاب". وينصرف الرجل بعد ذلك والكل يضحك مما قاله .

نصب الرجال مخيمنا وسط الكثبان الرملية لسبب بسيط ، هو أن الإنسان لا يمكن أن يأمن الطقس فى تلك الأماكن فى زمن الربيع ، نظرًا لأن مجرد زخة صغيرة من زخات المطر ، قد يعقبها دون سابق إنذار حدوث فيضان يبلغ من القوة حدًا

يستطيع معه اكتساح كل ما يمكن أن يعترض طريقه إلى البحيرة ؛ من هنا لم يكن من الحكمة نصب خيامنا فوق أرض السهل المفتوحة . ولكن الرمل أيضًا يضايق تمامًا - وقد حدث ذلك مرارًا - عندما تهب علينا ريح شديدة ، وقد وصلت متاعبنا إلى الذروة فى فترة المساء خلال واحدة من أسوأ وأشد العواصف التى شاهدتها فى حياتى كلها . ظهر السيل ، فى بدايته ، كما لو كان سحابة منخفضة تسير فوق هضبة عارمة قادمة من الشمال فى اتجاهنا ، ثم تحولت السحابة بعد ذلك إلى جدار عال من الرمال المتطايرة ، غطت الجرف وهى تتجه إلينا مباشرة . وأسرعت إلى الخيمة كى أحضر آلة التصوير ، وعندما أوشكت على تصوير العاصفة المتجهة إلينا تحول الإعصار إلى عاصفة من الرياح العاتية ، وإلى سحابة من الغبار حولت النهار إلى ليل ، وخلال لحظة انتهى ذلك الإعصار وتلك الريح مثلما حدثا تمامًا ، لتعقبهما موجات متكررة من الرياح، استمرت حتى غروب الشمس إلى أن أدت زخة شديدة من زخات المطر إلى سقوط رمل أبيض اللون فوق مرتفعات الطويق وتحولت السحب الحبلى بالماء إلى طوفان مصحوب بكثير من الرعد والبرق .

حدثنى ابن سعود فقال : "رأيت منامًا الليلة الماضية ، حلمت حلمًا تحقق إلى حد بعيد ، مفاده أن الله (سبحانه وتعالى) تكرم عليَّ برؤية المستقبل فى مثل هذه الأحلام . لقد رأيت فى منامى منذ سنوات مضت مئذنة عالية سامقة كان سلطان تركيا - أظن أنه كان السلطان عبد الحميد - يحاول تسلقها ، وفشل السلطان فى كل مرة حاول فيها تسلق تلك المئذنة ، وفى النهاية توقف الرجل عن المحاولة مهمهمًا بأنه ليست لديه القوة التى تمكنه من الوصول إلى القمة . وبعد ذلك الحلم بفترة وجيزة سمعت عن عزل السلطان عن العرش . وحلمت مرة ثانية ، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى بحوالى ست سنوات ، حلمًا رأيت فيه السلطان الحالى محمد رشاد وهو يسير فى حديقة غنَّاء ، ونظرت إلى الحديقة لأجدها تتحول فجأة إلى حطام . وسألنى السلطان عندما رآنى : 'ومن أنت ؟' وأجبته قائلاً : 'أنا ابن سعود' . وفى الليلة الماضية رأيت فى المنام مئذنة عالية سامقة بدت لى كما لو كانت مئذنة المسجد الدمشقى" - وبهذه المناسبة فإن ابن

سعود لم يزر تلك المدينة مطلقًا - "ورأيت أيضًا مجموعة من الناس تفتح نيرانها على تلك المئذنة ولكن دون طائل أو جدوى ، وبعد ذلك جئت أنا ورجالي وفتحنا نيراننا على تلك المئذنة فسقطت . ومن المؤكد أن ذلك الحلم يعني أن البريطانيين سوف يستولون على دمشق ، ولكن ذلك لن يكون بغير عون أو مساعدة مني".

وفي الخفس جرى حل "الجوم" ؛ إذ عاد ابن سعود على عجل إلى عاصمته ، وانصرفت الفيالق عائدة إلى مواطنها ، وتركونا مع معدات "الجوم" نشق طريقنا إلى الرياض على مهل . كانت المسيرة الأولى ومقدارها ثلاثين ميلاً إلى شعب المخر Makharr مرهقة بعض الشيء فقد قطعنا عشرين ميلاً في اتجاه الجنوب الشرقي على امتداد وادي البطين Butain وكانت سلسلة جبال عرق بنيان عن يميننا ، في حين كانت صخرة عارمة عن يسارنا ، بامتداداتها الأرضية الكثيرة - كان خشم الخفس هو أول تلك الامتدادات الأرضية ، بجوار البحيرة الكبيرة ، يليه امتداد المفيّخ Al Mufaikh ، الذي يوجد به مدق يؤدي إلى أبيار رومة Rumah على الهضبة ، ثم بعد ذلك امتداد عامية 'Amya الذي توجد جالطة Jalta عند سفحه ، ثم بعد ذلك امتداد طوقي Tauqi وحميّم ، وحمامة ، والثمامة Thamama على التوالي ، ومن خلف الثمامة يوجد امتداد سلسلة جبال البوبييات Buwaibiyat التي توجد فيها أبيار برشعة Barsha'a وكذلك أبيار البريشية Buraishiyya التي تتداخل مع الأخاديد . والوادي نفسه كان متموجًا تموجًا خفيفًا ، وتقسمه سلاسل الجبال المنخفضة إلى منخفضات تشبه فوهات البراكين ولكن بدون تواصل الصرف فيما بينها . ومنخفض الخفس نفسه هو أهم تلك المنخفضات، إذ يتغذى ذلك المستودع أو الخزان من مياه شعب يحمل الاسم نفسه ، ويهبط من هضبة عارمة ، كما يتغذى أيضًا من مياه شعب بلهام الذي ينبع من مرتفعات المحمل خلف الطرف الشمالي لعرق بنبان ، والمنخفض الذي يأتي بعد منخفض الخفس من حيث الأهمية هو منخفض روضة الطوقي ، الذي يقع - وذلك على العكس من بقية المنخفضات الأخرى - عند سفح سلسلة الجبال الرملية ويتغذى بالمياه التي تأتيه من شعب يهبط إليه من الامتداد الأرضي - الذي سمي باسمه ، ويلي ذلك حوض صغير

يحمل اسم خشم ثمامة ، وأخيراً يجيء منخفض روضة أم السلام ، تلك البقعة الكبيرة من الأرض التى تغطيها الأدغال ، وتقع عند النقطة التى يتشعب الوادى عندها إلى واديين ، والتى غادرناها أيضاً . وسطح الوادى هنا وهناك فى تلك المنطقة تتخلله بعض السلاسل الصخرية البارزة عن سطح الأرض، وتلك هى حشات Hishat أم السلام ، التى تقع بالقرب من الروضة التى تحمل ذلك الاسم ، وسلسلة صخور المويكة Muwaika التى تقع مقابل امتداد طوقى الأرضى .

وبعد وقفة قصيرة لتناول وجبة الغداء وقيلولة الظهيرة على الرمل الناعم بدأنا نتجاوز عرق بنبان نفسه ، الذى يرتفع صاعداً من الوادى نفسه على شكل أربع أمواج منحدرة من الرمل الكثيف ، ويزداد ارتفاع كل موجة عن الموجة السابقة لها ، الأمر الذى استغرق منا قرابة الربع ساعة ، وحتم علينا الإكثار من استحثاث الإبل كى تنهض بمهامها . وبعد أن وصلنا قمة عرق بنبان وجدنا أنفسنا فوق أرض رملية مستوية يزيد ارتفاعها عن ارتفاع أرض السهل بحوالى ١٠٠ قدم ويصل عرضها إلى حوالى نصف ميل تقريباً . ومن فوق تلك رأينا صخرة عارمة واضحة تماماً فى جانب من الجوانب ، كما شاهدنا أيضاً تل برومة Bruma الذى يشبه البقية جاثماً على قمة البوبيات Buwaibiya فوق سقيا برشعة Barsha'a ، كما شاهدنا على الجانب الآخر بقعة واسعة من التلال الرملية[٢٣] ، التى تدخل ضمنها أيضاً مخروطات نفاع[٢٤] الرملية المرتفعة ، وبخاصة أن مخروطى نفاع الشمال ونفاع الجنوبى يبعدان عن بقية المخروطات الأخرى . ومن خلف تلك الرمال يقع وادى شعب بنبان ، الذى يقع القصر Qasr (البيت الريفى الكبير) ، والذى يحمل هذا الاسم ، وسط أراضى القمح جيدة الرى ، ومن خلف أراضى القمح تلك شاهدنا سلاسل المحمل والعارض الصخرية القاحلة تتوالى سلسلة بعد أخرى .

كان نزولنا من تلك الأرض المنبسطة إلى الرمال المنخفضة شديد الانحدار ، فضلاً عن بطء السير بين التلال الرملية ، ولكن بعد أن تجاوزنا تلك التلال أصبح السير هنا فوق أرض كئيبة المنظر . وعلى بعد مسافات كنا نعبر شعاباً تجرى قادمة من الشمال

الغربى متجهة إلى الجنوب الشرقى ، مثل شعب الثُّميلة Thumaiyila ، وشعب طُليحة Tulaiha ، وأخيراً ، شعب المخر Makharr ، الذى توقفنا فى حوضه لقضاء الليل ، وكل تلك الشعاب عبارة روافد لوادى السُّلَىّ ، الذى يتكون من اتحاد كل هذه الشعاب بالقرب من روضة أم السلام ، التى يتفرع عندها ، كما سبق أن أشرنا ، وادى البطين إلى فرعين على جانبى مرتفعات الجبيل Jubail . ووادى السُّلى Sulaiy يسير على امتداد جرفه الغربى إلى أن يصل إلى حدود الخرج ، أما الفرع الذى يتجه نحو صخرة عارمة فيتحول إلى ما يعرف بوادى الترابى Turabi أو سهل الترابى . وها أنا ذا أعود مرة ثانية إلى الأسماء المعروفة لى والعلامات الأرضية المألوفة أيضًا من رحلتى الأولى التى قمت بها إلى الجزيرة العربية ، واعترتنى موجة من الإثارة والفرح عندما لمحت عن بعد ركيزة خشم العان Khashm al An وهى تنظر إلىّ عابسة عند عودتى مثلما فعلت معى عند مجيئى إلى الجزيرة العربية فى المرة الأولى . وعليه أمضينا آخر ليلة من ليالى المسير الطويل فى ظل شجرة عالية من أشجار الطلح ، ونصبنا خيمتنا وسط عشب الأرطة الكثيف والمختلط بالأعشاب الأخرى ، بالقرب من مجرى زلطى من مجارى السيول ، يسير متعرجًا بين ضفاف منخفضة تقدر المسافة فيما بينها بما يتراوح بين عشرين ياردة أو ثلاثين . هذه هى سحب العواصف تتضارب من فوق ظهر الطويق العريض الواسع ، وتنثر علينا قطرات قليلة من المطر ، ونحن يطبق علينا صمت القحولة والبرية من كل جانب .

المنطقة القفر المتموجة التى يطلقون عليها اسم حشاة البلاد Hishat al Bilad التى تفصلنا عن العاصمة والتى تجاوزناها فى الصباح التالى كانت عبارة عن منحدرات حجرية ، ترتفع ارتفاعًا متدرجًا تنتهى إلى سلسلة متوالية من السلاسل الجبلية الطويلة ، ومجارى السيول الصغيرة التى كانت تعترض طريقنا من ناحية وادى السُّلى ، وعن يميننا من الأمام فى اتجاه بنبان رقعة مماثلة من الأرض يطلقون عليها اسم المونسيَّة Maunnisiyya ، على حين كانت صخرة الجبيل (الجبلة) هى التى تحد الأفق من ناحية الشرق . وبعد أن قطعنا ميلين اعتباراً من بداية مسيرنا وصلنا إلى شجرة منعزلة من أشجار السنط ، التى يضفون عليها شيئًا من الوقار إذ يسمونها طلحة المقيل al Maqil

وذلك بفضل ظلها التى يستفيد منه المسافر المرهق ، وتلك الشجرة تنبت فى قناة فرعية صغيرة من قنوات شعب أبى الجرفان bul Jurfan ، الذى تجاوزناه بعد ذلك بفترة وجيزة . وسطح طمى ذلك المنخفض الذى تنبت فيه تلك الشجرة ، كان لا يزال طرياً بفعل الأمطار التى سقطت مؤخراً ، وكانت لا تزال توجد فى المجرى بحيرات من الماء الذى لم تنتشر به الأرض بعد ، ومن بين تلك البحيرات ، كانت هناك بحيرة صغيرة ضيقة لا يزيد طولها بأى حال من الأحوال عن ٢٠٠ ياردة ، ولكن عرضها لم يكن يزيد على بضعة أقدام قليلة . ومن تلك البحيرة الصغيرة روت الإبل ظمأها ، وواصلنا المسير لنعبر شعباً إثر آخر ، مثل شعب عقولة Aqula'، وشعب أبى المصران Abul Masran، الذى وجدنا فيه على قمة شجرة من أشجار الطلح ذات الفروع الكثيرة عشاً من أعشاش النسور ، وهم هنا يقولون له نسر Nasr ، كما شاهدنا داخل العش نفسه طائرين صغيرين ، راحت أمهما تحوم من حولهما مراراً وهى تراقب تحركاتنا. وهنا بدأت السلاسل الجبلية تزداد وعورة ، وفى أماكن تفتتت متحولة إلى مجموعة من الروابى المستديرة ، من بينها تلك المجموعة التى كانت على يميننا وتكوّن ما يسمى بالمغرزات Mugharrizat ، بينما كانت مجموعات الروابى الموجودة على يسارنا وإلى الأمام منا مباشرة تعرف باسم أبو مخروق Abu Makhruq . وعن طريق روابى أبى مخروق الصغيرة المبعثرة هنا وهناك غيرنا طريقنا صوب سلسلة من الجبال يزيد ارتفاعها على سائر السلاسل الأخرى ، التى شاهدنا من قمتها ، بعد أن تمكنا من الوصول إليها ، منظراً عن بعد لرواب قاحلة فوق واحة الرياض الداكنة . لا إله إلا الله ! ها هومرفأ وصولنا أصبح على مرمى البصر وها هى الرحلة الطويلة تنتهى ، وها هو الخط الأسود الطويل الذى تشكله أشجار النخيل من أمامنا وسط مرتفعات الطويق المكشوفة أمام الرياح .

وقبل أن نتمكن من قطع المسافة التى تفصلنا عن بوابات المدينة ، حان وقت أداء صلاة الظهر ، وبالتالى يتحتم إغلاق البوابات إلى ما بعد الانتهاء من الصلاة ، والسبب فى ذلك أن وصولى فى المرة الثانية إلى الرياض صادف يوم الجمعة . ولذلك قررنا أن من الأفضل لنا التوقف فى بقعة من البقع الظليلة انتظاراً للحظة المناسبة ، وكانت تلك

البقعة المناسبة فى متناولنا بالفعل ، إذ إننا استطعنا بعد أن سرنا خطوات قليلة الوصول إلى سفح تل المخروق Al Makhruq ، الذى يشبه المغارة أو الكهف ، والذى تستقى الروابى المحيطة به أسماءها من اسمه ، يضاف إلى ذلك أن ذلك التل يعد مسرحًا لكثير من الطلعات الملكية فى أمسيات الصيف البراد . وقفنا فى ذلك المكان ، وقيدنا جمالنا على الطريق ، وصعدنا التل على أقدامنا ، إلى ما يقرب من مائة قدم ، إلى أن وصلنا إلى فتحة الكهف أو إن شئت فقل المغارة ، وهى فتحة غريبة الشكل تشبه نفقًا يمر خلال قمة التل ، محدثة بذلك فجوة تشبه الكهف مفتوحة من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب أيضًا وعليها عقد من أعلاها مكون من سقف صخرى طبيعى . وفى تجاويف تلك الغرفة ذات الجدران الصخرية ، التى تتسع لجماعة كبيرة من الناس ، فردنا أجسادنا فوق سجادة لتناول قسط من الراحة التى امتدت إلى ما يزيد على الساعتين ، كنا خلالها نأكل ونشرب القهوة وننام ، حسب ظروفنا النفسية كل ذلك ونحن فى مأمن من الشمس ومن الرياح أيضًا . أما إبراهيم ، الذى كان مشغولاً بمسألة أن يترك انطباعًا طيبًا على السيدات من أهل بيته من ناحية وعلى شجعان المدينة من الناحية الأخرى ، فقد أمضى القسم الأكبر من وقته فى تشذيب لحيته وتزيين نفسه عن طريق الوقوف فترة طويلة أمام المرآة ، التى استعارها بعض آخر من أفراد الجماعة للغرض نفسه ، أما أنا فقد كنت معارضًا لجميع الاقتراحات التى تقول إن لدى فرصة لإحداث بعض التحسينات على شخصى ، وأمضيت جزءًا من وقتى مع نظارة الميدان فوق قمة التل ، ورحت أراقب منظر سطح الأرض من خلال تلك النظارة . رأيت أسفلنا ومن حولنا على كل جانب ، السهل مكتظًا بعدد لا يحصى من المدقات التى تطبق على الواحة من جميع الاتجاهات ، ورأيت تلك المدقات والطرق والحركة لا تهدأ عليها مطلقًا ، وبخاصة حركة الإبل الغادية والرائحة ، فهذه قافلة قادمة من الأحساء ، وتلك الإبل الملكية وهى ذاهبة إلى المراعى فى طريق عودتها من المخيم . ومن فوقنا ، شاهدت غرابين حومًا حول الصخرة التى كنا بداخلها ، وهما يلوماننا على تعدينا عليهما ، كما كانا يهمسان أيضًا ببعض النصائح الأبوية لصغارهما فى العش الذى بنياه على امتداد من امتدادات جدار الكهف .

أخيراً ، حان موعد استئناف المسير . وأوصلنا الطريق الذى سرنا فيه إلى ما بعد قصر المربع 'Murabba ، ومن بعده سرنا بحذاء بيارات النخيل في الشمسية إلى أن وصلنا إلى البوابة ، التى دخلتُ منها الرياض أول مرة قبل خمسة أشهر . كانت البوابة مفتوحة ووجدتنى أسير فى الشارع المعروف لى إلى أن وصلت إلى ميدان القصر إلى أن أشعرتنى تحيات ابن مسلّم Musalim ، رئيس الخدم ، هو وآخرين من أهل القصر ، أننى لست غريبًا على القصر . وطوال الأيام الثلاثة والعشرين التى انقضت علىّ منذ مغادرتى البصرة ، كنت قد قطعت ما يقرب من ٤٠٠ ميل ، كما كنت سعيداً أيضًا بأيام الراحة القلائل التى تنتظرنى قبل استئناف ترحالى وتجوالى .

٤- الرياض فى الربيع

أدخلونى على الفور مجلس ابن سعود ، الذى وجدته مشغولاً كعادته فى غرفة عمله فى الدور الأرضى . قال ابن سعود وأنا أهمُّ بالانصراف بعد أن أمضينا بضع دقائق فى الحديث ونحن نشرب القهوة : "انتظر لحظة . لقد أرسلت فى طلب الأطفال ليحيوك . أنت ، يا رجل ، اطلب إلى الأطفال الحضور بسرعة". تلك كانت أحسن المجاملات التى قدمها إلىّ ابن سعود ، أى أنه أعطانى شرف الترحيب بى فى القصر بواسطة أبناء الملكة ، أى أولئك الأمراء الصغار ، الذين يحبهم الملك حبًا جمًا من أجل عيون أمهم ، هذا الترحيب كان أكبر بكثير من تكريم المضيف لضيفه ، كان ذلك الترحيب بمثابة إشارة صريحة وواضحة إلى السماح لى بالدخول إلى دائرة العائلة ، كان ذلك الترحيب بمثابة اعتراف عام بتطوير علاقتنا من المستوى الرسمى إلى المستوى الشخصى . واعتبارًا من ذلك الوقت أصبحت أقيم فى القصر الملكى ، فى حين كنت قبل ذلك أعامل معاملة ضيف الشرف . ويظهر الأمراء الصغار فى غضون لحظات قليلة - محمد وخالد ، كان عمر الأول تسع سنوات والثانى ست سنوات -

وبينما كانا يدخلان وعندما نهضت واقفًا من مكانى لتحيتهما ، تقدما إلى الأمام بتؤدة وتأنٍّ ، وعلى نحو رشيق للغاية ، وقدما وجهيهما الصغيرين كى أقبلهما . واحتفيت بهما وسألتهما عن حالهما قبل أن أهم بالاستئذان والانصراف ، الذى رافقنى الخدم بعده إلى السكن نفسه الذى سبق أن أقمت فيه فى شهر ديسمبر . وقد مسح الاستحمام الذى كنت بحاجة ماسة إليه كل متاعب ذلك السفر الصحراوى الطويل ، وباستثناء تردد معارفى القدامى علىَّ بين الحين والآخر للترحيب بى ، وجدت أمامى متسعًا فى بقية اليوم كى أرتب أمورى وشئونى المنزلية .

وقد بقيت فى الرياض فى تلك المرة إلى اليوم السادس من شهر مايو، أى أننى أمضيت فى الرياض سبعة عشر يومًا ، تهيأت لى خلالها فرصٌ أفضل للاطلاع على الحياة المعتادة فى تلك المدينة ، ومشاهدة ضواحيها بصورة أكبر بكثير من المهام الثقيلة التى كنت محملاً بها فى الزيارة الأولى . كانت تلك الأيام آخر أيام الربيع الذى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، أيامًا مثالية من حيث سطوع الشمس وهبوب العواصف ، اللتين كانتا تتعاقبان تعاقبًا دقيقًا مثل الليل والنهار . فهذا هو الفجر يغرق الدنيا بفيض جميل من الشمس الساطعة الجميلة التى يلطف حرارتها نسيم شمالى بارد جميل ، ويتوقف النسيم الجميل مع اقتراب ساعات ما قبل الظهيرة إلى أن تبدأ الشمس تصب أشعتها الحارقة على الشوارع الخالية من الظل ، وتتحول الريح إلى نسيم جنوبى لطيف كلما انحدرت الشمس نحو المغيب ، وكانت تمر علينا قبل ذلك النسيم الجنوبى اللطيف مجموعة أومجموعتان من السحب المحملة بالماء ، ثم تهب بعد ذلك نفحة ريح مفاجئة إيذانًا بمجىء العاصفة ، ونرى عن بعد فى اتجاه الجنوب سحابة سوداء تدوِّى ، ومن حولنا هواء مترب راكد لا يتحرك ، ونرى الشمس وهى تغرب خلف الهضبة المائلة التى لها حافة مهلهلة فى وميض رائع تخترق أشعته العاصفة القادمة . ثم تسود الفوضى وتعم كل شىء ؛ تلك هى الريح والغبار يصرخان فى كل أرجاء المدينة ، تلك هى السحب السوداء المحملة بالمطر تمر من فوق ظهر الطريق العريض ، وهى تزمجر غاضبة فى أثناء مرورها فى اتجاه الشمال ، وبرقها يضىء تلك

الكآبة بومضات من الضوء الجميل ، وهذه زخة ثقيلة أو زختان من المطر ، تهدِّئان الغبار ، ثم تنتهى العاصفة فجأة مثلما بدأت ، تاركة خلفها مجموعة من النجوم الساطعة في سماء صافية . كانت الليالى كلها هادئة وصافية ، تلك كانت حالنا اليومية طوال تلك الأيام الأخيرة من فصل الربيع ، كانت بعض تلك الأيام صافية تمامًا ، ولكنها كانت قليلة ، كما كانت العواصف تهب علينا بواقع يومين من بين كل ثلاثة أيام . والرياض نفسها ، بحكم موقعها خارج المسار المباشر الذى يمر بقمة المرتفعات ، لا تسقط عليها سوى كمية صغيرة من المطر ، ربما لم يزد معدل سقوط المطر عن بوصة واحدة طوال الأسبوعين اللذين مكثتهما هناك ، ولكن التقارير الواردة من منطقة الخرج كانت تتحدث عن أمطار غزيرة ، فى الوقت الذى تشهد فيه سيول وادى حنيفة ، من وقت لآخر ، على أمطار المنطقة الشمالية الغزيرة .

كان محصول القمح ومحصول الشعير فى تلك الآونة قد وصلا مرحلة متقدمة وأوشكا على الحصاد فى كل أنحاء الواحة . هذه حقول القمح وعيدانه تتمايل انتظارًا للحصاد ، وتلك حقول أخرى أنهى الحصادون فيها عملهم ، وصفُّوا حزم عيدان القمح على شكل أكوام دائرية استعدادًا لدرسها بجعل الثيران تدوسها كى تفصل حب القمح عن سنابله قبل عملية الغربلة . ويبدو أن العمالة المحلية هنا عاجزة عن مسايرة كل الأعمال المنوطة بها، يضاف إلى ذلك أن ظروف الطقس هنا تحتم اتباع دورة زراعية تسمح بالتعامل مع حصاد كل منطقة فى الوقت المناسب لذلك ، وذلك تحسبًا للسيول والفياضانات التى قد تسبب إتلاف المحصول بكامله ، وهاهو القمح لايزال فى منطقة الدَّرس . والمحاصيل الدائمة ، على العكس من ذلك ، يمكن تركها إذ تستطيع مقاومة أخطار عواصف البرد التى تهب فجأة . لم تحدث كارثة من ذلك النوع طوال فترة بقائى فى الرياض ، إذ لا تصاب تلك المحاصيل بأية أضرار فى مسألة تساقط الحبوب من السنابل الناضجة . والنساء هنا تلعبن دورًا مهمًا فى عملية الحصاد ، وأجر المرأة عن يوم واحد من هذا العمل الشاق هو حزمة من عيدان القمح يتناسب حجمها مع قدرة ذلك الذى تستطيع مثل هذه المرأة أن تحمله على رأسها . وفى إحدى المرات كنت

خـارج السكن مع كل منْ مـناور Manawar وعطا الله على طريق الدرعـيـة ، وشـاهـدنا جماعة من تلك النسوة وهن عائدات إلى منازلهن من حصـاد مزرعة ميضار Maidhar التى تبعد عن الدرعيـة أميـالاً قليلة . وعندما رأتنا تلك المجموعة من النسـاء تقدمت صوبنا عجوز من بينهن ووقفت أمامنا رافعة ذراعها ناتئ العظام إلى السماء ، ودعت لى بطول العمر والغنى . ولم أفـهم المغزى التى كانت ترمى إليه إلا بعد فوات الأوان ، إذ فهمت بعد ذلك أنها حسبتنى أميرًا من أصحاب السمو الملكى – أمراء الأسرة المالكة – لأنها شاهدت عبيد الأسرة المالكة يرافقوننى . هؤلاء النسوة كن بطبيعة الحال من نساء الطبقات الفقيرة ، والسبب فى ذلك أن نسوة الرياض يندر أن تراهن خارج الرياض ، كما أنـهن منقبات بشكل يصعب معـه أن ترى أى شىء منهن . وفى بعض الأحيان ، وبخاصـة فى الأيام شديدة الحرارة ، وقد ترى عند ناصيـة شـارع من الشوارع امرأة وهى تسدل بسرعة على وجـهها وعلى جسدها أيضًا تلك العباءة التى ربما سـمحت بنزولها وانفتاحها طلبًا لحبة من الهواء ، ولكن مثلْ تلك المناسبات الخاطفة تعد أمورًا نادرة تمامًا . على كل حال ، فـإن نسـاء الطبقات الفـقيرة هـن اللاتى يكثـر وجودهن خـارج منازلهن ، سـواء أكان ذلك فى الشـوارع أم الحـقول ، وهن يلبسن عبـاءات بُنِّيَّة اللون ، تصل إلى مـا فـوق الرأس كى تغطى الجـسم بكامله إلى الركبـتين وذلك داخل حدود المدينة نفسها ، أمـا فى الخلاء وخارج حدود المدينة فهن تتخلين عن تلك العباءات حيث يقضى العرف والتقاليد بارتداء ثوب واسع فضفـاض ، غالبًا ما يكون أحمر اللون ، ويغطى القدمين ، كما تلبسن أيضـًا أغمارًا من قماش الموسلين الأسـود ، يغطى الرأس والجزء العلوى من الجسم ، ومن تحت الثوب الفضـفـاض تلبسن سـراويل طويلة سـوداء أو حمراء اللون . ومن المناظر الشـائعة التى شـاهدتها فى تلك الأيام جماعـات النسـاء اللاتى تجـمعن مـا تركـه الحصـادون ، وعملهن هذا لم يكن هـبـاءً ، نظرًا لأن العـرف فى نجـد يقـتضـى بـعدم تلقُّط فـضلات الحـصـاد فى أى حـقل من الحـقول ، بعـد أن يقـوم أصحابها بحصادها ، نظرًا لأن تلك الحبوب المتساقطة تعد رزقًا يسوقه الله للمحتاجين .

يلى البرسيم الحجازى ، من بين سائر المحاصيل الزراعية ، كلٌ من القمح والشعير من حيث الأهمية لا فى الرياض وحدها وإنما فى القسم الأكبر من واحة نجد ، والبرسيم الحجازى هو المحصول الوحيد الذى يزرع خصيصًا لإنتاج العلف ، الذى تحتاج إليه مراكز القوافل احتياجًا شديدًا لا لمجرد سد العجز فى الأعشاب الصحراوية التى تتأرجح فى بعض الأحيان ، والتى يجلبها الناس يوميًا على الجمال إلى الأسواق ، وإنما لتقدم طعامًا جميلاً ومقويًا لكل من الجمال والخيول التى تنهكها الرحلات الطويلة عبر الصحراء القاحلة ، أو الخيول والجمال منهوكة القوى نظرًا لطول فترة الجفاف وقلة الأعشاب . والناس فى الرياض يخصصون مساحات كبيرة لزراعة البرسيم الحجازى ، الذى لا يعد مربحًا للزراع وحدهم ، وإنما يتفق مع حب أولئك الزراع لذلك المحصول الذى يسترعى انتباههم من ناحية ، وسرعة ذلك النبات من ناحية ثانية والفترة الطويلة التى يعمرها فى الأرض ، إذ إن بذرًا واحدًا يعطى الزراع محصولاً وفيرًا مقابل لا شيء سوى الرى ، والبرسيم الحجازى ، كما يقول الناس هنا ، إذا ما بذر فى حقل من الحقول يستمر فى الإنتاج مرة بعدأخرى على امتداد العام ، وقد يصل عمر ذلك المحصول إلى سبعة أعوام ، شريطة أن يروى إثر كل حصاد . ولسبب فشلت فى سَبْر أعماقه أو الوقوف على حقيقته ، فالناس هنا يزرعون النباتات الذكور والنباتات الإناث بالتناوب فى مساحات منفصلة ، الأمر الذى يضفى على الحقول منظر البساط الأخضر الذى يسر الخاطر ، فتلك مساحة واسعة أرجوانية اللون ، فالزهرة الذكر أكبر وأعمق لونا من الزهرة الأنثى . ولم أستطع التوصل إلى إن كان ذلك الفصل يتم عند البذر أو عن طريق النقل فى مرحلة لاحقة .

وفى ظل إحدى بيارات النخيل اكتشفت مساحة كبيرة من الخضراوات ، كالبصل والبامية ، والزعفران الذى يسميه أهل الحضر هنا الخريَّة Khirriyya ، ويطلق البدو عليه اسم السَّمنة Samna ، وهو من أبرز الخضراوات هنا ، كما شاهدت أيضًا شجيرات القطن مزروعة على هيئة نباتات للحدود على طول قنوات الرى . ومن بين أشجار الفواكه شاهدت التوت ، والتفاح البرى ، والكروم ، والرمان ، والتين ، والخوخ ، والمشمش ، وما إلى ذلك . وبستنة السوق فى الرياض لا تخضع للعلم ، والسوق هنا أقل بكثير من سوق القصيم ، ومع ذلك تعطى التربة الخصبة هنا إنتاجًا وفيرًا نظير التسميد والرى

المنتظم ، سواء كان ذلك الرى من الآبار أو من مياه المطر أومياه السيول التى توجه إلى الحدائق لتوزيعها عليها من خلال قنوات تدخل كل واحدة منها بستانًا من البساتين عن طريق فتحة مؤقتة أسفل سور الحماية .

وطوال الأيام القلائل الأولى من مقامى فى الرياض كنت أعتمد على نفسى فى تدبير أمور الرفقة، فقد عين لى إبراهيم حمدانيًا Hamdani ذلك الشاب عديم الفائدة والنفع الذى كان وجهه ينطق بالخجل ، لتلبية خدماتى الشخصية بأن يصحبنى فى أثناء جولاتى خارج القصر أو يلبى طلباتى التى أطلب منه القيام بها ، ولكن ذلك الرفيق البائس لم يستر خجله من مشاهدة الناس له وهو بصحبتى ، من هنا فقد أمضى حمدانى القسم الأكبر من الوقت وهويسير بى فى الشوارع الجانبية والحارات غير المطروقة ، وكان يتجه دومًا صوب القصر بعناد وإصرار ، الأمر الذى ضايقنى وأقلقنى كثيرًا . وفى ظل مثل تلك الظروف يعد الحوار أمرًا مستحيلاً ، وعندما وجدت أنه لا يتمتع بصحبتى مثلما لا أتمتع بصحبته أنا أيضًا قررت التخلص منه ، وذلك عن طريق فعل العكس مما كان يقترحه أو يريده تمامًا . فقد كنت أوجهه فى معظم الأحيان إلى السوق(*) المزدحم ، وبالقرب من المساجد التى كان المؤمنون يتجهون إليها لأداء صلاة المغرب . يضاف إلى ذلك أنى كنت أجلس صابرًا إلى أن ينتهى من الصلاة ، كما كنت أرفض العودة إلى المنزل عندما كان يخبرنى أن موعد تناول الطعام قد حان ، بحجة أنى لست جوعان ، كما كنت أقتاده إلى سلسلة جبال منفوحة أو فى اتجاه الباطن كى أشاهد غروب الشمس أومجىء العاصفة . وحدثت الكارثة فى الليلة الرابعة ، إذ كنت قد طلبت من حمدانى أن يجىء إلىَّ فى الساعة الخامسة ، نظرًا لأنى عزمت أمرى على القيام برحلة أطول من رحلاتى اليومية المعتادة ، ولكن حمدانى لم يجئ فى الوقت المحدد ، وانتظرت على مضض إلى موعد العشاء ، إلى أن ظهر إبراهيم ليشاركنى الطعام ، ويجد نفسه فريسة رحت أصب عليها جام غضبى وأبلغته أنى لا أريد أن أرى حمدانى مرة ثانية . وفى صبيحة اليوم التالى تلصصت على الرياض

(*) المقصود بالسوق هنا هو الحمى أو الضاحية. (المترجم)

عندما رحت أسير خلالها لوحدى ، وعبرت السوق إلى أن خرجت من بوابة الضهيرى Dhuhairi ، التى انطلقت منها للتجوال حول السور الدائرى بكامله ، وبصحبتى البوصلة وكراسة الملاحظات ، ولابد أن تصرفى هذا قد بلغ ابن سعود ، فنظرًا إلى أنه لم يكن مسموحًا لى أن أترك القصر وحدى بدون مرافق فقد ظهر - فى مساء اليوم نفسه - أمام سكنى اثنان من عبيد القصر مسلحان تسليحًا جيدًا ومع كل منهما سيف وبندقية وحمَّالة لجراب الطلقات ، ليقولا لى إنهما اعتبارًا من تلك اللحظة ، وبأمر خاص من رئيسهما ، سيكونان تحت أمرى صباحًا وظهرًا وليلاً ، ليرافقانى إلى كل مكان أذهب إليه ، وأبلغانى أيضًا أن كل ما علىَّ هو أن أستدعيهما وسوف يلبيان ، وأننى إذا أردت التجوال أو التمشى فإن الخيل ستكون جاهزة ومستعدة . كان هذان العبدان صادقين صدق كلامهما ، وكان أحدهما أو كلاهما يرافقانى حيثما ذهبت وإينما حللت ، يضاف إلى ذلك أنهما كانا مخلصين إلى أبعد الحدود . واعتبارًا من ذلك الوقت بدأت جولاتى تصل إلى أبعد حدود الواحة والمناطق المحيطة بها ، بغض النظر عن الزمان وعن المسافة أيضًا . وعلى العكس من العرب ، ضرب أصدقائى الجدد المثل فى القدرة على التحمل ، مما أدهش ابن سعود وأثار إعجابه ، وفى أحيان كثيرة لم نكن نعود إلى القصر إلا بعد حلول الظلام . يضاف إلى ذلك ، أن حديث هذين العبدين كان مهمًا تمامًا ، لأنهما كانا يحبان أن يتحفانى بقصص عن خبراتهما الخاصة اعتبارًا من طفولتهما فى أظلم أجزاء إفريقيا المظلمة من ناحية ، وعن الجانب المنزلى من حياة القصر من ناحية ثانية ، وعن الأشخاص والأشياء بصورة عامة من ناحية ثالثة .

مناور Manawar وعطا الله كانا اسمين على مسميين ، إذ كان الأول نوبيًا والثانى تكرينيًا Takarini من سيندار فى أعالى النيل ، وكان الاثنان فى سن واحدة تقريبًا ، إذ كان عمر كل منهما حوالى عشرين عامًا ، ولكنهما كانت لهما خبرات واسعة وناضجة جمعاها من أراضٍ كثيرة حكى لى مناور أن "بلدى الأصلى" - وأنا أروى القصة بلسانه هو بلا أى تعليق - "أرض يطلقون عليها اسم أبيشا Abbisha ، وهى تبعد عن الخرطوم مسير عام أو ما يزيد على ذلك ، طبقًا لما هو متعارف عليه فى رحلات العبيد ، نظرًا لأن قوافل العبيد تتكون فى معظمها من الأطفال الصغار ، الذين يتحتم التوقف

بهم عدة مرات مخافة أن يخسر خاطفوهم أرباحهم بسبب المصاعب التى تواجه أولئك الأطفال . نحن لنا سلطان فى تلك الأرض واسمه جارمة Jarma ، والناس فى بلادى مسلمون ، وهم ، فى أضعف الأحوال يصلُّون ويصومون كما نفعل نحن هنا ، ويختتنون ، ولسانهم مثل لسان العرب ، وليس مثل لسان التكارنة ، الذى يتكلمه عرق آخر بعيد عنا ، والذى يجلب العبيد أيضًا ، ومنهم عطا الله. وفى بلاد بعدنا كان هناك عرق آخر يطلقون عليه اسم الجناجوا Janaguao ، وهم ليسوا من العرق الذى ننتمى إليه ، ورجال هذا العرق يمشون عراة تمامًا ونساؤهم لا يلبسن سوى فروة من فراء الأغنام ، تلفها الواحدة منهن حول خصرها ؛ وهؤلاء الناس يفترشون الأرض ، وهم إذا ما رأوا رجلاً مختتنًا تساءلوا عن أسباب قطع الجزء الأمامى من غلاف عضوه الذكرى . كنت طفلاً فى تلك الأيام وكنت أرعى أغنامًا فى الصحراء عندما أطبقت علىَّ عصابة من اللصوص – هم يطلقون على تجار العبيد اسم الجلاَّبة – وخطفونى ولم أر بعد إخوانى الثلاثة أو أمى التى تركوا لها الحزن من بعدى . وفى المحنة نفسها ، جئت أنا وأولاد وبنات أخريات على ظهور الحمير إلى أن وصلنا الخرطوم ومنها إلى مدينة سواكن التى نقلت منها عبر البحار إلى مدينة جدة . ربما حدث ذلك منذ ما يقرب من خمسة أو ستة عشر عامًا . وقد أخذنى الرجل الذى أحضرنى إلى مكة أول مرة مستهدفًا بذلك بيعى فى سوق العبيد ، ولكن لم يشترِنى أحد – وأحسب أن ذلك كان تخوفًا من الدولة – وعاد معى عمِّى إلى جدة حيث جرى ختانى وبقيت فى خدمته . كان عمى تاجرًا ، وبناءً عليه جعلنى مندوبًا للمبيعات ، ولكنه اتهمنى بتبديد أرباحه وضربنى . ثم قام هو بعد ذلك ببيع بضاعته بنفسه ، ولكنه لم يحقق الأرباح المطلوبة . وذات يوم وبخته على فشله ، وضربنى الرجل مرة ثانية ، ورفعت عليه قضية فى المحاكم التركية ، ولكن بلا جدوى ، وكسب سيدى القضية ، وفى المرة التالية أخذت حقى بيدى ، وأوسعته ضربًا ثم هربت إلى مكة . وطاردنى الرجل ، وقد أقسم أن يثأر لنفسه ، ولكن الشريف حسين حمانى ، وأصر فى النهاية على شرائى من عمى . وهكذا انتقلت ملكيتى إلى الشريف ، وأقمت فى مكة ثلاث سنوات أرسلنى عمى فى نهايتها ، أى منذ ما يقرب من ثلاث سنوات ، ومعى بعض العبيد الآخرين ، هدية إلى ابن سعود .

ووصلت الرياض عن طريق شاعرة Sha'ra خلال خمسة عشر يومًا ، ومن يومها وأنا راض وسعيد بخدمتى فى القصر ، وأرافق ابن سعود فى حملاته العسكرية ، فقد رافقته فى واحدة من تلك الحملات ، أى منذ حوالى عامين ، عندما جرد حملته على بنى مرة Murra جنوبى الأحساء ، ورافقته فى حملة ثانية جردها على الشمَّر فى العام الماضى، وفيها هرب الشمَّر أمام ابن سعود عندما شاهدوا عن بعد غبار قدومه . والعبيد يعاملون هنا معاملة طيبة ويقدرهم الناس حق قدرهم ، فلا يمكن أن تخلوا غارة أو غزوة من عبد من العبيد ، باعتبار ذلك إشارة من إشارات السلطات الملكية ، وباعتبار ذلك قيد أيضًا على القائد الآخر ، والسبب فى ذلك أن ابن سعود لا يعطى ثقته كاملة لأحد سوى العبيد الملكيين ، الذين يسمو إخلاصهم فوق كل الشكوك . ولم لا ، وابن سعود يطمح إلى أن يكون لديه عدد كبير من العبيد يسمح له بأن يؤسس لنا بيرقًا خاصًا بنا فى ساحة الوغى. لو قدر أن يكون لنا مثل ذلك البيرق فسوف نقاتل إلى آخر رجل فينا . ولكن عدد العبيد الذكور عند ابن سعود لا يزيد على ثمانية وثلاثين عبداً ، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من العبيد فى حوزة أثرياء الرياض . "عمى" – كما يحلو للعبيد أن يسموا سادتهم – "يعطينى عشرين أو خمسة وعشرين دولارًا كل شهر ، وقد أعطانى عبدة أتزوجها ، وقد أنجبت لى بنتا صغيرة ، أنا هنا على ما يرام ومن فى القصر يعاملوننى معاملة طيبة ، ولكن إبراهيم هو أفضل من فى القصر جميعًا ، فهو ليس متعاليًا مثلما يفعل البعض ، ولا يمانع فى الأكل مع العبيد أو فى التحدث إليهم ومعهم". هذا هو تاريخ واحد من أصدقائى الجدد . أما عطا الله فقد اختطف من وطنه وهو فى سن صغيرة ، وليس لديه ما يعرفه عن وطنه فى أعالى النيل ، أو إن شئت فقل مسقط رأسه .

يجب ألا يغيب عنا أن ميثاق عصبة الأمم الذى وقعت عليه كل من بريطانيا العظمى وملك الحجاز ، يفرض على أعضاء عصبة الأمم أن يبذلوا قصارى جهودهم للقضاء على الرق وتجارته فضلاً عن القضاء على الإساءات الأخرى المعروفة ، وأنه قد يكون من المهم أن نقف على الأثر العملى الذى يمكن أن يترتب على أمر من هذا القبيل فى ضوء الحقيقة التى مفادها أنه فى الوقت الذى تسيطر بريطانيا العظمى سيطرة

فاعلة على السودان ومواننه ، وفى الوقت الذى تسيطر بريطانيا فيه على طريق جلب العبيد من أفريقيا إلى الجزيرة العربية ، فإن عاصمة ملك الحجاز ، وهى مدينة مكة ، من المحتمل أن تكون أكبر سوق للعبيد والرق فى العالم الحديث . وكما سبق أن أوضحت فإن العبيد يعاملون معاملة طيبة فى الجزيرة العربية ، بل إنهم يشعرون فيها بسعادة بالغة ، غير أن هذه الحقيقة لا تكفى وحدها لأن تكون مبرراً لعمليات تجار الرقيق ، الذين تتمثل أبشع أعمالهم فى ارتفاع نسبة الوفيات ارتفاعاً مخيفاً بين أولئك الأطفال التعساء الذين اختطفوا من آبائهم وأجبروا على القيام بتلك الرحلة المضنية من قلب إفريقيا وصولاً إلى الساحل .

وفى مساء اليوم التالى لوصولى كانت هناك عزيمة كبيرة أقامها ابن سعود فى قصره بمثابة توديع لأعضاء "الجوم" ، الذين رافقوه إلى العاصمة . وقد أقيمت تلك العزيمة فى فناء المبنى الذى كان سكنى جزءاً منه - أو على وجه التحديد المربع السكنى الشمالى الشرقى من القصر - وقد صفت فى ذلك الفناء المربع الكبير حوالى ستين "صينية" أوسبعين يتصاعد البخار من اللحم والأرز الموضوع فوقها ، وقد رفعت كل واحدة من تلك الصوانى بضع بوصات عن سطح الأرض بواسطة حامل مصنوع من عيدان الخيزران ، وتحلقت حول تلك الصوانى مجموعات يتردد عدد الواحدة منها بين سبعة أفراد وثمانية للصينية الواحدة ، وكلهم خليط من البدو ، راحوا يتعاملون مع أطايب ذلك اللحم بشهية حبيسة مراراً وتكراراً . وبجانب الجدار كانت هناك جماعات أخرى تنتظر لتحل محل من يأكلون بعد أن يشبعوا من الطعام . كان عدد الحاضرين لا يقل بحال من الأحوال عن ٥٠٠ رجل فى ذلك اليوم ، وكان مضيفهم هو وكل أفراد عائلته يجلس معهم إلى الوجبة نفسها فى ركن من أركان ذلك الفناء . وبينما كان كل فرد ينهض عن مائدة الطعام وعلى شفتيه كلمات الشكر والثناء "أنعم الله عليك ، يا أبو تركى" ، كان يمضى بعد ذلك إلى فناء صغير يطل عليه مسكنى ، ووُضِع فى منتصفه إناء كبير مملوء بالماء ليغسل منه الجميع أيديهم وأفواههم قبل الانصراف .

ودعونى للنزول من مسكنى لمشاهدة العزيمة ، التى اتجهت بعدها للتعبير عن شكرى لوالد ابن سعود ، الإمام عبد الرحمن . لم يكن الرجل المسن فى مجلسه عندما

وصلت إليه ، ولكنه جاء بعد دقائق قليلة وحياني بتحية ملائمة، جلسنا بعدها – فقد جلس هو بين المخاد في ركن من أركان الغرفة وجلست أنا عن يساره – ثم قدمت القهوة على الفور . كان الإمام في حالة نفسية يقل معها الكلام إلى حد ما ، ولذلك اضطررت أنا إلى الحديث معظم الوقت ، وقد تركز الحديث حول التغيرات التي طرأت على بغداد خلال أربعين عاماً انقضت على أول زيارة قام بها الإمام إلى تلك المدينة يوم أن كان في ريعان شبابه . وتخللت حديثنا فترات من الصمت ، وبدأت أتطلع إلى الدور الثاني من القهوة حتى يمكنني الاستئذان بعد ذلك ، نادى الإمام على الخادم الذي كان قد أحضرني إلى هذا المكان ، وطلب منه أن يعيدني إلى مكاني السابق . وهنا وقف الإمام ومد يده ؛ وفعلت أنا الشيء نفسه وأنا أردد بصوت خفيض ضعيف "في أمان الله" ، ولم يرد الإمام على هذه العبارة .

والتقيت مع حمداني خارج البيت ، واقترحت عليه أن نذهب سوياً لزيارة الجنيفي Junaifi في منزله الذي كان في الشارع الذي يؤدي من سكن الإمام إلى القلعة وبوابة الشمسية على الجانب الأيسر من المدينة . كان باب المنزل مفتوحاً ودخلنا المنزل وراح حمداني يعلن حضورنا بأن راح ينادي باسم مضيفنا ، الذي ظهر في الحال في صالة المنزل ليدلنا على البهو ، أو إن شئت فقل المجلس ، الذي كان عبارة عن غرفة صغيرة بلا نوافذ أو أية وسيلة أخرى من وسائل التهوية غير الباب ، ولكنها كانت دافئة بما فيه الكفاية ومفروشة بالسجاد والمخاد . كانت المدفأة محفورة في الأرض في ركن من أركان الغرفة ومليسة جيداً ، ومن خلفها رف مركب في الجدار ، لتوضع فوقه فناجيل القهوة والأوعية الأخرى ، فضلاً عن استعماله مستودعاً للبن ، والشاي، والسكر ، وما إلى ذلك . ومن خلف المدفأة كانت هناك تسع من دلال القهوة دمشقية الصنع ، وكان القسم الأمامي من المدفأة مخصص للنار ولدلال القهوة المستعملة بالفعل ، هذا بالإضافة إلى الماشة والمنفاخ . كان الجنيفي ، الذي كان لديه زائران غيرنا ، هو الذي يقوم على أمر الوجار (المدفأة) ، وكان هو أيضاً الذي يقوم بتقديم الشاي والقهوة ونحن نناقش مزايا الشاي بدون سكر – طريقتي في شرب الشاي – فضلاً عن حديثنا في مواضيع أخرى ، إلى أن تغير مجرى الحديث بدخول صبيين صغيرين ، عمرهما

ست سنوات وخمس سنوات على التوالى ، كان اسم الطفل الأول عبد المحسن واسم الطفل الثانى سعداً ، وهما طفلى عبد الله بن جلوى من امرأة من القصيم ، تزوجها يوم أن كان أميراً على منطقة القصيم ، ولكنه طلقها منذ فترة طويلة جدا وهى على وشك أن يتزوجها الجنيفى . هذا يعنى أن الجنيفى سوف يتحمل مسئولية ولى الأمر فيما يتعلق بهذين الطفلين ، اللذين لم يعرفا والدهما ، لأنهما كانا طفلين رضيعين عندما ترك القصيم ليتولى إمارة الأحساء . وبعد أن أخذنا بغيتنا من الشاى والقهوة ، أحضر العود (البخور) وانفض الجمع ، وهنا صحبنى الجنيفى ومعنا حمدانى للقيام بنزهة سيراً على الأقدام خارج المدينة ، وعاد معى لتناول العشاء فى سكنى .

أقيم فى اليوم الثانى حفل ملكى بستانى فى بيارة الشمسية التى اشتراها ابن سعود لنفسه مؤخراً من أحد مواطنى الرياض ، واستمر ذلك الحفل من الساعة السابعة صباحًا إلى غروب الشمس ، وكان مرتبطًا بالاحتفال السنوى المهم الخاص بطب الإبل ، والسبب فى ذلك أن أعلاف الربيع الدسمة تتسبب فى إصابة الإبل بمرض الجرب ، الذى يصيب تلك الحيوانات على شكل وباء قد تترتب عليه كوارث ونتائج خطيرة ما لم تتخذ الإجراءات الكفيلة بمنع انتشاره على نطاق واسع منذ البداية . ويجرى فى ذلك الاحتفال جلب كل الحيوانات المصابة إلى مكان الاحتفال، ويتجه كل أهل الرياض كبيرهم وصغيرهم إلى ذلك المكان على شكل قوة واحدة للمشاركة فى ذلك العمل ، ويقوم أولئك المشهود لهم بالخبرة والمهارة فى ذلك الفرع من الطب البيطرى بالإشراف على عملية التطبيب ، وذلك كله تحت إشراف ابن سعود نفسه ، الذى نراه يختلط بالعمال ويسير بينهم مستحثًا هذا وممتدحًا ذاك طبقًا للظروف والأحوال . وعند الظهيرة تبدأ خيام المطابخ فى توزيع سيل من أطباق اللحم الساخن وأعداد كبيرة من أطباق الأرز، ثم يجرى وضع هذه الأطباق على الأرض فوق حصير من سعف النخيل ليتجمع حولها العاملون على شكل موجات كى تستحث فى العاملين شهامة العمل وشجاعته حتى ينهوا بقية العمل المطلوب . وفى تلك المناسبة تقوم الأسرة المالكة بدور المضيف فى أثناء تقديم الطعام ، ولا يغادر ابن سعود المكان إلا بعد أن يفرغ العاملون من تناول الطعام ، وهنا أمسكنى ابن سعود من يدى وسرنا ومن خلفه أفراد أسرته ، إلى

مسوَّر مبنى من اللبن داخل حديقة الشمية ليقدم لنا فيه الطعام . وواقع الأمر أن ذلك الاحتفال كان مهمًا وممثلاً لكل أفراد العائلة ، تركى وسعود ومحمد وخالد من السلالة الملكية ، ومحمد وعبد الله شقيقا ابن سعود ، وسلمان وآخرون من فرع العريف Araif ، وعبد المحسن وسعد طفلا ابن جلوى ، وفيصل بن الرشيد من الأسرة المالكة في حائل ، فضلاً عن أناس آخرين كثيرين . فى البداية جلسنا مستندين إلى الجدران ومتجاورين عند صب القهوة ، وأعقب ذلك تقديم صوانى التمر - تشكيلة من تمر الرياض يطلقون عليها اسم أمبوت Ambaut - وسلاطين من حليب النياق لفتح الشهية ، وبعد كل ذلك جاء اللحم والأرز ، اللذان جرى إعدادهما إعداداً جيداً ولذيذاً باستعمال التوابل ، وعلى شكل صوانٍ يجلس حول الواحدة منها ستة أفراد . وجلست أنا وفيصل على واحدة من تلك الصوانى باعتبارنا ضيوف الشرف على جانبى ابن سعود . وجرى تناول الطعام بلا أى شىء من الرسميات ، يضاف إلى ذلك ، أن الرئيس (ابن سعود) كان فى أحسن أحواله النفسية . تكلم ابن سعود موجهاً كلامه إلى أحد أفراد الأسرة : "مهلا يا رجل ، هل أتيت على التمر كله ؟" وجاء الرد سريعًا على السؤال إذ قال الرجل : "نعم ، لقد أتيت عليه كله ، حتى آخر حبة منه". قال ابن سعود : "ألم تترك لى ولو واحدة ؟". "لم أترك شيئًا ، سوى هذه ". وأمسك الرجل بتمرة متجعدة ومدها ناحية ابن سعود . وينادى ابن سعود على أحد العاملين تصادف أنه لم يكن يعمل عندما مر عليه ، ويقول : "هيا ، اشتغل يا رجل ، لماذا لا تعمل ؟" ويجيبه ذلك المذنب قائلاً : "أنا أعمل يا أبا تركى ، وأسعد الله صباحك ." كان احتفال تطبيب الجمال أمرًا بسيطًا ، ولكنه صارم وملتزم . كان يجرى سحب الجمال واحداً بعد آخر إلى مكان قريب من طست كبير يحتوى على غسول يميل لونه إلى اللون الأزرق - مركب من النورا ، أو إن شئت فقل الجير مضافًا إليه عقار يسمونه هنا الزرنيخ - ويجرى بعد ذلك ربط الجمل من رجليه الأماميتين ورجليه الخلفيتين ، ويجرى بعد ذلك إسقاط الجمل على الأرض على جانبه ، مع سحب رأسه ناحية اليمين فى اتجاه عموده الفقرى ، ويتم ربطها بالحبال ، ثم يجرى بعد ذلك وضع الغسول على جسم الجمل كله باستعمال مقشة مصنوعة من جريد النخل ، ثم يترك الجمل وعليه تلك الطبقة من ذلك الدهان

الأزرق الكالح إلى صبيحة اليوم التالى ليجرى دهان الأجزاء المصابة[٢٥]. وقد أخبرونى هنا أن حكيمًا (طبيبًا) يهوديًا ، اشتهر بخبرته ومهارته كطبيب بيطرى يعالج الجمال ، اعتاد أن يحضر إلى نجد قادمًا من دمشق فى فصل الربيع لعلاج الجمال ، ولكنه لم يعد يُرى مؤخرًا فى الرياض ، الأمر الذى ترتب عليه ارتفاع معدل نفوق الإبل ، إذ خسر ابن سعود ما يقرب من خمسمائة جمل .

وفى الليلة نفسها اتجهت بعد جولة قصيرة من المسير لزيارة إبراهيم فى منزله ، الذى كان يقع فى بداية حارة قذرة مسدودة من حارات المدينة . وبعد أن طرقت الباب فتحه حمود Hamud ، وارتقيت درجًا ملتويًا من اللبن إلى أن وصلت الطابق الأول ، حيث يوجد المجلس الذى كان يطل على شرفة داخلية تطل هى بدورها على الفناء ، التى كانت محجوبة عنه بستارة من الحصير . كان إبراهيم يتوقع وصولى ، ولذلك وجدت جمعًا كبيرًا فى الغرفة الصغيرة ، ناهيك عن حرارة نار المدفأة وناهيك أيضًا عن دخان التبغ الكثيف الذى شد انتباهى – فإن إبراهيم لم يفتح الباب إلا للتأكد من الطارق ، إذ جلست ألهث واتنفس بصعوبة وأتصبب عرقًا تحت تأثير تناوب الشاى والقهوة ، فكيف للعرب بتحمل مثل هذا التعب وليس أمامهم سوى الخروج من منازلهم للتمتع بدفء أمسيات الربيع الجميل ؟ ولكن العربى لا يجلس مطلقًا فى الهواء الطلق ، إذا ما تهيأت له فرصة الجلوس فى جو مفعم بدخان نيران القهوة، على الرغم من أن ابن سعود هو وآخرين يعدُّون استثناء من تلك القاعدة ، فقد حرَّم ابن سعود شب نار القهوة فى أى مجلس من مجالسه ، التى يجلب لها الشاى والقهوة من المطابخ مباشرة . وعلاوة على كل من إبراهيم وحمود اللذين كانا يشغلان منزلاً مشتركًا ، كان الجمع يشتمل أيضًا على كل من سعد وتامى Tami ، اللذين وصلا مؤخرًا من القصيم ، فضلاً عن طفلى إبراهيم الصغيرين ، طفل صغير يدعى حمود وطفلة صغيرة أخرى اسمها نورة Nura تبلغ من العمر ستة أعوام . كان الطفل غير سعيد مطلقًا بالجو أو الصحبة التى وجد نفسه فيها، وسرعان ما أعيد وهو يبكى إلى أحضان أمه ، أما الطفلة نورة فقد كانت أكثر أنسًا من الطفل، واستكنت إلى جانبى، ونحن نشرب القهوة ونتحدث وندخن . أما تامى الذى سئم السفر بين جدة ومكة ، والذى كان يتخوف من إرساله فى مهمة جديدة

عند عودته إلى الرياض ، فقد تحرر من القانون وتصرف بمحض إرادته هو، واتجه مباشرة إلى منزله في بريدة . وفي بريدة قدمت له زوجته طفلة وليدة ، أصيبت بالجدري منذ أيام قلائل ، ويجيء ترتيبها الخامس بين أطفاله - ثلاث بنات وابنين - لتموت وهي طفلة ، وتتركه مثلما كان من قبل بثلاث بنات، اثنتان منهما مازالتا طفلتين ، في حين تزوجت الثالثة وأنجبت طفلاً ذكراً . كان ابن سعود غاضباً تماماً لسفر تامي ، وأرسل إلى أمير بريدة في طلبه ، وترتب على ذلك إدخال تامي السجن الذي لم يطلق سراحه منه إلا قبل عشرة أيام أمر مشدد بحضوره فوراً ومثوله أمام ابن سعود ، ومن هنا كان مجيئه ، وكانت عصبيته فيما يتعلق بمثوله أمام سيده صباح الغد . وبعد أن أعربنا عن تعاطفنا مع تامي فيما ينتظره من عقاب توجهنا إلى سعد كي نهنئه بالحظ السعيد الذي كان ينتظره ، إذ كان سيتزوج من سيدة صغيرة من ضُرمة Dhurma، ومبلغ علمي أنها واحدة من أقارب الأمير ، وأنه سوف يتعين عليه أن يرحل في غضون أيام قلائل إلى عروسه . ولكني قلت له : "ولكنك ، أيها القلب ، لديك بالفعل زوجة واحدة . ألا تكفيك تلك الزوجة إلى حد أنك بحاجة إلى زوجة ثانية ؟ ولكن أين ستقيم تلك الزوجة وأنت ليس لديك سوى منزل واحد ؟" وأجابني سعد قائلاً : "هناك متسع كبير لكل من الزوجتين، ووالدي المسن وكذلك أمي، اللذا يعيشان معي . الزوجة التي معي حاليًا نحيفة جداً ولم تنجب لي طفلاً حتى اليوم؛ وعليه فأنا بحاجة إلى امرأة متينة لها مؤخرة كبيرة كي تنجب لي أطفالاً ، وإذا كان ذلك لا يروق لزوجتي ، فلها الحق أن تتركني". "ولكن ماذا عن الفتاة الأخرى ؟ فقد لا تكون بنفس المواصفات التي تريدها أنت ، وهذا من منطلق أنك لم ترها". ورد عليَّ تامي قائلاً : "ليس الأمر كما تظن . هل تعني بكلامك اليوم الذي توقفنا فيه للراحة في ضرمة Dhruma ؟ حسن ، لقد رآها في ذلك اليوم ، ولذلك فقد خطبها من أهلها هناك . وهم يقولون عنها إنها متينة وجميلة" . "إي بالله" قالها إبراهيم وهو يتنهد حاسداً صديقه على حظه السعيد . ويردف إبراهيم قائلاً : "إنه محظوظ بحق". في تلك الليلة تغدى معي كل من إبراهيم ، وسعد ، وتامي ، وعندما استأذنوا وهمُّوا بالانصراف تخلف سعد ليبلغني أن زواجه ربما أدخله في نفقات كبيرة . وأجبته قائلاً : "انتبه يا سعد ، لقد أعطيتك الكثير بالفعل ،

فهل أنت راض عن الطريقة التي تعاملني بها ؟ لماذا لم تدعني حتى لتناول القهوة في منزلك مثلما فعل الآخرون ؟" ورد عليّ قائلاً : "أنت تعرف ما يقوله الناس وما يظنونه ، يضاف إلى ذلك أن والدي المسن شديد التعصب ؛ لقد حزن والدي كثيراً عندما ذهبت معك إلى جدة ، وعندما عدت أبلغني بأنه سوف يترك بيتي إلى أبد الأبدين إذا ما حدث وعزمتك في منزلي". ورددت عليه قائلاً : "لا تطلب مني أي شيء من النقود" وخرج الرجل بعدها خائبًا محبطًا .

وفي يوم آخر ، وبعد أن دعاني جنيفي Junaifi إلى شرب القهوة مرة ثانية ، اندفعت خارجًا مع حمداني – كان ذلك قبل شقائنا – ولكننا عندما اكتشفنا أن مضيفنا لم يكن في منزله ، فضلنا السير في الحديقة على انتظاره في المجلس الخانق . وبينما كنا نخرج من المدينة عن طريق بوابة الشمسية وجدنا أنفسنا في أعقاب ابن سعود ومعه جماعة من أسرته يسيرون في اتجاه حديقة الحوطة ، وعليه انتحينا جانبًا وسرنا بجوار السور شمالاً وشرقًا إلى ما بعد بئر حاسي Hassi ومنطقة النخيل ثم مصلى العيد ، التي وجدنا سعوداً شقيق ابن سعود وحده بالقرب منه يتأمل ويتبصر . وسعود هو الابن الثالث للإمام (الملك عبد الرحمن) ، وقد عُرف عنه أنه كان كثير التنسك ، وأنه كان شديد التدين من داخله ، وكان من النادر أن يراه أحد بصحبة أي إنسان سوى نفسه ، ولكني عندما اقتربت منه تقدم نحوي بتحية فياضة المشاعر ، وصافحني واستوقفني بضع دقائق في حديث معه ، خرجت منها بأنه كان رجلاً عصبياً ، سريع الغضب ، يشعر بالخجل البالغ من المجتمع ، ولكنه يتطلع إلى أن يكون اجتماعياً ، بل إنه ربما كان غير متوازن إلى حد ما . ومن الناحية البدنية لم يكن جسمه على ما يرام ، وليست له الملامح الطيبة التي تميز الكثيرين من أفراد الأسرة المالكة . ومضينا في طريقنا ، تاركينه في تأمله . وعندما دخلنا المدينة من جديد عن طريق الممر الموجود في الطرف الشمالي الشرقي ، واصلنا المسير في طريقنا إلى أن تجاوزنا الإسطبل الذي يحفظ فيه محمد شقيق ابن سعود خيوله ، ومنه إلى شارع واسع يتجه جنوبياً ، ربما كان ذلك أقذر شوارع المدينة كلها ، إذ يبدو أنه كان يستخدم ولا يزال منذ فترة طويلة مرحاضًا عامًا ومقلبًا للمخلفات ، فضلاً عن أنه لم يجر تنظيفه منذ سنوات طويلة .

ومن ذلك الشارع ، وصلنا من خلال بوابة إلى اثنين من أزهى حدائق الرياض هما : الجيرى Jiri ، والوسيطة Wusaita ، وهما مملوكتان للإمام عبد الرحمن ، الذى يعد أعظم أفراد الأسرة وأكثرهم خبرة وعلما فيما يتعلق بالمسائل الزراعية ، فضلاً عن اهتمامه اهتمامًا كبيرًا بتطوير ضياعه وأراضيه الزراعية . وبينما كنا نتجول فى ظل النخيل الكثيف وسط أحواض الزعفران ، وأحواض الخضراوات ، تعرفنا على أحد معارف حمدانى ، يدعى إبراهيم بن مريكان Muraikan ، رئيس الأشغال العامة فى الإدارة الوهابية ، والرئيس المعترف به لكل البناة والبنائين فى العاصمة . وقبلنا بكل سرور دعوته الودية لنا إلى بيته فى إحدى بيارات النخيل المجاورة الموجودة خارج أسوار المدينة ، والذى أمضينا معه نصف ساعة فى مجلس بسيط مفروش بالبسط والسجاد ، وشربنا معه القهوة وتحدثنا معه ومع إبراهيم العبد الذى يقوم بعمل القهوة . كان الجو حارًا وخانقًا داخل المنزل ، وقد سعدت عندما أذن المؤذن يدعو الناس جميعًا باستثنائى أنا للصلاة ، ولذلك تركونى أتجول فى حارات البيارة الظليلة إلى أن يفرغ حمدانى من أعماله ويعيدونى إلى سكنى . ولكن سيرى فى تلك الحارات عكر صفوة المارة ، وهم يسارعون لأداء الصلاة ، بينما لا أفعل أنا الشيء نفسه ، إذ كان من الواضح أنهم لا يعرفون من أكون ، إلى أن جاء صبى لا يزيد عمره على اثنى عشر عامًا أو أربعة عشر ، وتقدم نحوى من الطريق العكسى ، وخاطبنى وهو مسرع ، "مُصلِّى ؟" (هل صليت بالفعل ؟) . وتمتمت بشيء غير مفهوم وواصلت المسير ، وأنا أتعجب إن كان ينتقدنى لعدم الصلاة ، أو أنه هو المتأخر عن أداء الصلاة . وعندما حكيت ذلك لتامى Tami قال إن الأرجح هو أن ذلك الصبى كان يدعوك للصلاة معه طالما أنه لا يدرك صلاة الجماعة .

وهكذا مرت الأيام فى هدوء تام بلا أحداث منغصة ، ولكن حدث ذات يوم أن مر على الرياض واحد من الناس ، كان متجهًا صوب الشمال ويبدو عليه أنه كان درويشًا قادمًا من الجنوب . وبصورة عابرة ، جرى إبلاغ ابن سعود بأمر ذلك الدرويش ، وهنا ازداد ابن سعود فضولاً لمعرفة المكان الذى جاء منه ذلك الدرويش ومعرفة الأخبار التى كان يحملها ، والهدف من مجيئه ، وهنا طُورد ذلك الدرويش واقتفى الناس أثره – إذ كان الرجل قدغادر الرياض منذ يومين – وأعادوه إلى العاصمة ، حيث جرى استجوابه

على نحو أمكن به معرفة حقيقة ذلك الدرويش ، الذى كان فى واقع الأمر ضابطًا تركيًا من حامية اليمن ، اسمه الحقيقى قدسى أفندى ، متنكرًا فى زى درويش ليشق طريقه سيرًا على الأقدام عبر نجد إلى المدينة المنورة ، ومن المؤكد أنه كان سينجح فى ذلك لولا المصادفة السيئة التى لفتت انتباه ابن سعود إلى تحركات ذلك الدرويش . كان ذلك الرجل يخبئ معه مبلغ ٣٤١ جنيهًا تركيًا على شكل أوراق مالية (بنكنوت) وعشر رسائل رسمية من السلطات العسكرية فى كل من منطقتى اليمن وعسير إلى القائد العام فى المدينة (المنورة) وإلى المسئولين فى الباب العالى ، وكما كان ذلك الدرويش يحمل أيضًا أكثر من ثلاثين رسالة خاصة من القوات فى هاتين المنطقتين البعيدتين إلى ذويهم فى تركيا يبلغونهم فيها أنهم لا يزالون على قيد الحياة . كانت الرسائل التى تفحصتها بمساعدة أحمدبن ثنيان ، عديمة القيمة من الناحية العسكرية اللهم إلا باستثناء أن تلك الرسائل كانت تحتوى على خبر الرحيل عن أبها Ipha عاصمة عسير ، قبل قدسى Qudsi ، أو إن شئت فقل قبل ضابط آخر متنكر فى زى مشابه يحمل رسائل إلى المدينة (المنورة) ، كان مفروضًا له أن يكون قد سافر بالطريق المباشر عبر بلاد عتيبة Ataiba ، ولكن مسألة عدم سماع أى شيء من ذلك الدرويش الآخر جعلتنا نستخلص أنه ربما يكون قد وصل إلى المدينة أو مات فى الصحراء . وكان قدسى نفسه قد حوكم عسكريًا فى صنعاء لتبديد المبالغ المخصصة لدفع مرتبات القوات ، ولكنه أعطى الفرصة بناء على طلبه لتصحيح خطئه عن طريق القيام بتلك المهمة المحفوفة بالمخاطر التى انتهت بأسره . كان قدسى قد سافر بناء على ذلك من صنعاء إلى أبها ومن الأخيرة إلى نجد عن طريق وادى الدواسر . كانت الرسائل تشير إلى المصاعب التى تواجهها القوات بسبب انقطاع الاتصالات تمامًا بين اليمن وتركيا . بعض آخر من تلك الرسائل كان عبارة عن كشوف حسابات ومطالبات مالية ، ولكن أهم ما فى تلك الرسائل كان جدولاً يوضح توزيع ١٩٢٠ بندقية على رجال القبائل المحلية للاشتراك فى الجهاد فى المنطقة المجاورة لمنطقة لحج Lahj . وهنا جرى حبس قدسى فى القلعة باعتباره خائنًا أومجرمًا عاديًا أكثر منه أسير حرب ، وذلك نقلاً عمًا استطعت استقاءه من أحمد الثنيان ، ولكنه عُومل بناء على طلبى ، باحترام كبير ، إذ

وفَّروا له إقامة مريحة ، وقدموا له الطعام والملابس من القصر كما وفَّروا له أيضًا خادمًا لقضاء احتياجاته ، وذلك على الرغم من منعه من مغادرة القلعة ، التى بقى فيها إلى ما بعد توقيع اتفاقية الهدنة . وقد أبديت رغبة فى زيارة ذلك القدسى ومقابلته ، ولكنه عندما أبلغوه برغبتى فى مقابلته ، رد عليهم بما مفاده أنه على الرغم من عدم قدرته على رفض إطاعة أوامر ابن سعود فى مثل هذه الحالة ، فإنه يفضل عدم لقاء كافر أوالاتصال به . وكان ذلك جزاء وساطتى طلبًا لراحته وعلى كل حال وجدت من الأفضل أن أتركه لوحدته ولم أقابله قط بعد ذلك .

كانت أفكارى طوال تلك الأيام لا تتركز مطلقًا على استعجال القيام بالعمليات العسكرية ضد الشمَّر، وعلى الرغم من أن ابن سعود كان قد وعدنى بالهجوم عليهم فى الفصل نفسه من السنة ، فإنه مخاوفى كانت تتزايد بصورة مستمرة مخافة إضاعة وقت كثير فى تجهيز الأرض للعمليات والقتال ، وبناء عليه شعرت بارتياح كبير فى يوم من الأيام عندما أبلغنى ابن سعود أن مبعوثين وصلوا الرياض للتفاوض بشأن التحالف ، نيابة عن مجيد بن عجيل ، شقيق عقاب Aqab الذى كان مع ابن الرشيد فى ذلك الوقت فى منطقة الحجر Al Hajr . كان مجيد هو وأتباعه من فخذ العبدة Abda ، ومعه عناصر من التومان Tuman ومن سنجارة Sinjara يتحكمون فى موقع من المواقع المتقدمة فى لينا Lina فى أراضى الفرات الداخلية ، وبدءوا كما يبدو ، يحسون بوطأة إحكام حصار الكويت فى الفترة الأخيرة . قال لى ابن سعود : "سبق أن قلت لك إن الشرف يحتم علىَّ تحذير الشمَّر من نواياى بالهجوم عليهم ، كى أتيح للعناصر الصديقة منهم فرصة الابتعاد عن طريقى ، والآن الفرصة مهيأة لتقديم ذلك التحذير . ترى ما الرد الذى يمكن أن أعطيه لمبعوثيهم ليعودوا به إلى ديارهم ؟ هل أقول لهم لا أريد صداقتهم ؟ أو أدعوهم إلى اتخاذ موقف محايد وعدم الوقوف فى طريقى والابتعاد عنه ، وليكن ذلك فى طوال الظافر ؟"(٢٦) واعترضت على الخيار الثانى من خيارات ابن سعود ، نظرًا لأن ذلك ليس تأمينًا كافيًا بعدم قيام طوال الظافر بعمليات معادية فى المستقبل ، وأبلغت ابن سعود أن السلطات البريطانية لن توافق بأى حال من الأحوال على تموين عناصر معادية فى أى مكان لا يمكن فيه التحكم والسيطرة على مثل هذه

العناصر سيطرة محكمة تمنعهم من إمداد أصدقائهم ، ولكنى اقترحت على ابن سعود فى الوقت نفسه ، أنه إذا ما أمكن إقناع مجيد هو وأتباعه بالبقاء ضمن سيطرة ابن سعود الفاعلة ، فقد يكون من المفيد استقبالهم من ذلك المنطلق ، وبخاصة إذا كان ذلك من قبيل تقليل أعداد العدو فى الحملة المقبلة . واقترح ابن سعود أن يكون ذلك مع طوال الظافر ، أى خط الأبيار الذى يمتد جنوبيًا من صفا Safa فى الصحراء الشرقية ، ووافقت أنا أيضًا على ذلك الاقتراح شريطة ألا يعطى لهم حق الدخول إلى الكويت ، وألا يكون لهم أى اتصال من أى نوع مع حائل . وهنا بدأ ابن سعود على الفور يملى رسالة بهذا المعنى إلى ماجد Majid وزملائه الشيوخ ، ثم جرى بعد ذلك بثلاثة أيام تسليم تلك الرسالة إلى المبعوثين فى اجتماع عام ، دعيت أنا لحضوره . كان منظرًا مشهودًا ، كان الدرج والممرات خارج المجلس مزدحمين بالخدم ، ولكن المجلس كان يغص من الداخل بمجموعة كبيرة من الحاضرين الجالسين على المخاد وعلى المقاعد المرصوصة بجوار الجدران الأربعة . وفى منتصف المجلس كان يقف إبراهيم باعتباره رئيس الاحتفالات والمراسم ، يوجه القادمين الجدد إلى أماكن جلوسهم داخل الاجتماع ، كلاً حسب رتبته . كان ابن سعود يجلس فى الطرف البعيد من المجلس ، والذى يقابل المدخل . وعن يمينه ويساره كانت هناك ثلاث مقاعد تركت شاغرة على الجانبين تحسبًا لوصول كبار الزوار ، واقتادنى إبراهيم بحفاوة بالغة إلى واحدة من تلك المقاعد الشاغرة على يسار الملك . وقد لاحظت أن كلاً من تركى وسعود الصغير كانا بعيدين عن أماكن الشرف ، فى حين لاحظت إلى جوار عمود من العمد الرئيسية ، أو إن شئت فقل العمود القريب من العرش على وجه التحديد ، أربعة رجال يجلسون على الأرض ، كلهم مستعدون للقيام برحلة طويلة . كان من بين هؤلاء الأربعة اثنان من مبعوثى مجيد ، وهما من الشمَّر ولهما وجهان صبوحان . صحيح أنهما متقدمان فى السن ، ولكنهما شديدان ومن المسئولين وإن لم يكونا من الشيوخ . أما الاثنان الآخران فكانا من رجال ابن سعود ، واسمهما ناصر وحربى ، واللذان كانا من بين من رافقونى إلى جدة وأماكن أخرى . وكان هذان الرجلان قد جرى اختيارهما ليرافقا مبعوثى الشمَّر إلى لينا . وهنا تقدم ابن سعود إلى المبعوثين ، وهو ينظر إلىَّ مرار نظرات جانبية ،

وبإشارات عابرة ومباشرة ، ليلقى خطابًا حماسيًا فصيحًا عن موضوع الحصار وعن طلب الشمَّر الخاص بالسلام . قال ابن سعود : "إذا كنتم تريدون صداقتى ، فهى أن تأتوا إلى هنا وتعيشوا وتستقروا بينى وبين قبائلى ، وادخلوا فى صدرى ادخلوا فى كبدى ؛ ولكن يجب أن تعرفوا" ، واستطرد ابن سعود فى حديثه وهو يشير إلى رجل من قبيلة حرب ، طرد مؤخرًا من الكويت لأمر يتعلق بعمليات الحصار ، "إن عداءكم للإنجليز سبب لى أنا وشعبى كثيرًا من المتاعب . أنتم جميعًا تعرفون عدائى للأتراك ؛ والله ! أنتم تعرفون من قبل أننى أكره الشريف كرهًا تامًا ، ولكن يجب أن تعرفوا أنه طالما يحارب الأتراك حاليًا فأنا صديق له . هل تعرفون ذلك الذى فعله سيدكم ابن الرشيد ؟ إنه يقف إلى جانب الأتراك ، ومن ثم فأنا عدو له ؛ وأنا أقولها لكم الآن إننى بكل تأكيد سوف أتألب عليه طبقًا لما جرى الاتفاق عليه هنا مع هذا الرجل" . وشدنى ابن سعود من كمى وهو يقول تلك العبارة . "إذا كنتم تريدون صداقتى ، افعلوا ما أقوله لكم ، وإلا ، فوالله سوف أقاتلكم . أنا لن أدخل نفسى فى خصام أو نزاع مع الإنجليز لحسابكم ، أو لكى تستفيدوا أنتم من المؤن التى تحت إمرتهم ، لأن الله أعطاهم السفن والمدافع والديناميت لينسفوا بها أعداءهم" . كان الخطاب ضافيًا ، وبعد الانتهاء من الخطاب جرى إحضار الرسائل وتسليمها إلى المبعوثين . وأردف ابن سعود قائلاً : "يجب أن تعلموا أننى أحذركم مما هو قادم والسبب فى ذلك أننى لا يمكن أن أهاجمكم دون إنذار منى لكم طبقًا لأعرافنا وقوانيننا" . وهنا طلب ابن سعود إلى المبعوثين أن ينصرفوا ، وبذلك تكون الحرب قد أعلنت على الشمَّر ، وهذا هو الهدف الذى من أجله بذلت الكثير من الجهد والعمل الدءوب .

وبعد ثلاثة أعوام ونصف عام من الحرب ، والتى لم تبذل خلالها أية محاولة للسيطرة على التجارة الداخلية فى الجزيرة العربية ، كشفت إحدى الدراسات التى أجريت عن إحصائيات تلك التجارة مؤخرًا حقيقة غير مطمئنة ، مفادها أن الصادرات من الكويت إلى داخل الجزيرة العربية زادت خلال تلك الفترة ، وبالأخص خلال الأشهر القليلة الأخيرة منها ، زيادة تفوق معدلها المعتاد بشكل كبير جدا ، وذلك قياسًا على الفترة المماثلة لتلك الفترة قبل اندلاع الحرب . ومسألة زيادة تلك التجارة

الداخلية يجب ألا تدهشنا ، وبخاصة إذا عرفنا أنه فى إحدى المناسبات ، وبخاصة فى شهر سبتمبر السابق ، قد قامت قافلة من قوافل حائل تضم ٣٠٠٠ جمل ، جرى تحميلها وحصلت على تصريح بالمرور من المسئولين المحليين على الرغم من كل الجهود التى بذلتها سلطات بغداد من أجل إيقاف تلك القافلة ومنعها من المرور . وقد قام العقيد هاميلتون بمطاردة تلك القافلة بلا جدوى ، ومع ذلك وصلت إلى محطتها النهائية بسلام ، ومن سوء الطالع أن تلك القافلة لم تكن الوحيدة من نوعها التى تحدت الحصار . يضاف إلى ذلك ، أن هناك حقيقة أخرى مفادها أن المناطق الداخلية من الجزيرة العربية كانت قد حصلت على تصريح من مراكز لم يعد من السهل الوصول إليها مثل دمشق ، والمدينة (المنورة) ، وبغداد ، والبصرة ، ناهيك عن مكة التى أغلقت بأوامر من الشريف حسين ، فى وجه نجد ، وكذلك موانئ الأحساء التى عانت الأمرين بسبب العجز فى حركة الملاحة بالإضافة إلى الأوامر التى أصدرتها السلطات البريطانية للحد من حجم الصادرات الداخلية والوصول بها إلى المعدل الذى كانت عليه قبل الحرب ، نظراً لأن الكويت وحدها كانت تشكل عقبة كبيرة أمام شعب ابن سعود من الحضر والبدو . وكان الشيخ سالم ، شيخ الكويت ، الشخصية الوحيدة التى اعترضت على القسم الأكبر من تلك الترتيبات الجديدة ، الذى حرم من العائدات الكبيرة التى كانت تدخل له من زيادة حجم التجارة فى مينائه ، سواء أكانت تجارة مشروعة أم محرمة ، والذى راح يعزى نفسه بأن راح يعزو إلى ابن سعود المسئولية عن كل تلك الإجراءات غير الشعبية والخسائر التى حاقت به ، وبالتالى راح الشيخ سالم يصب جام غضبه على مواطنى ابن سعود الموجودين فى الكويت . هذا فى الوقت الذى كنت قد ناقشت فيه مع ابن سعود فى منطقة شوكى كل ما يتعلق بالحصار مناقشة مستفيضة ، وتوصلت معه إلى ترتيب يتم بمقتضاه ، اعتباراً من شهر شعبان (حوالى ١٢ مايو) ، أن تحمل كل القوافل التى يسمح لها بالمرور عبر أراضيه وكذلك القوافل المرسلة من قبل ممثليه ، شهادات توضح مهمتها وكل التفاصيل الأخرى مثل عدد الجمال ، أو يكون بصحبتها موفودون من قبل ابن سعود . وبناء عليه ، جرى إرسال رسائل إلى كل الأشخاص المعنيين بالأمر ، تطلب إليهم الالتزام تماماً بالقيود

الجديدة ، التى حظيت بالرفض فى الكويت ، وكتبت أنا بدورى شارحًا الترتيبات الجديدة للسلطات البريطانية فى ميناء الكويت ، كما أبلغت السلطات أيضًا أنه فيما يتعلق بابن سعود وبأراضيه فإن الأمر يتطلب سياسة يمكن البدء فى تنفيذها بدون أى تحرش أو احتكاك . ولكن قبل وصول رسائلى إلى السلطات البريطانية نشبت أزمة على أثر عمل جذرى من جانب سلطات الحصار وسط كثير من الزمجرة والاستياء الشديد ، الذى وصلت أصداؤه الرياض على شكل شائعات لا يمكن تصديقها ومطالب ملحة بتفسير مقنع من الشيخ سالم لتلك الإهانة التى تسبب فيها لنجد كلها . فقد تناقلت تلك الحكايا والشائعات إعلانًا صدر باسم الشيخ سالم ، يطلب إلى كل النجديين مغادرة مدينة الكويت قبل صباح اليوم التالى ، وأنه كان هناك عدد كبير من المطير فى مدينة الكويت ، جاءوا إليها لشراء المؤن ، وأن رئيس أولئك المطير ، وهو عبد العزيز الدويش ، الصبى البالغ من السن خمسة عشر عامًا ، كان قد توجه إلى قصر الشيخ سالم لتحديد موعد لمقابلته ولكنه مُنع من الدخول . وهنا ترك ذلك الصبى الكويت هو وأتباعه ، ويقال إن القتال نشب بعد ذلك بين المطير وقبائل الكويت . كان الجو غير سار ، ولكنى رجوت ابن سعود أن يرجئ الأمر لحين تلقى المزيد من المعلومات . وفى اليوم التالى ، وبعد تلقى ما يؤكد الشائعات فى رسالة أرسلها عبد العزيز الدويش حضر ابن سعود قبيل حلول المساء إلى الفناء الذى يقع أسفل سكنى ، وبعد أن جلس بلا رسميات على مقعد من اللَّبن بارزًا من الجدار جرى بيننا حديث حميم عن الأمور بشكل عام . وبدأ ابن سعود بقوله : "أبا أحاشيك بالحرية" (أود أن أتحدث معك بصراحة تامة) من رأيبى أن يد سالم تقف وراء كل ذلك الذى يحدث فى الكويت ، وإذا ما ثبت أن ذلك من فعله فلابد أن أطالبه بتعويض ، أما إذا كان الخطأ من جانب واحد من الضباط البريطانيين فهذا الأمر لا يهم ، لأننى على ثقة من تصحيح ذلك الخطأ عقب وصول رسائلك مباشرة" . كانت جمرات غضب ابن سعود من الشيخ سالم تتقد ، فى انتظار أن تتحول إلى لهب بقليل من التحريض ، وحاولت الاستفادة من ذلك الوضع النفسى لابن سعود لأوحى له ضرورة التعامل الدقيق مع الموقف . وأكد لى ابن سعود قائلاً : "لقد أرسلت بالفعل أوامر للمطير بألا يتخذوا أى

إجراء دون موافقة منى ، وأبلغتهم أننى شخصياً أناقش الأمر معك" . وفى اليوم التالى لم يصلنى أى تقرير عن الحادث المزعوم ، ورجحت أن يكون ذلك البدوى قد بالغ تماماً فى أمر تافه (عمل من الحبة قبة) ، ولكن ذلك لم يكن رأى أهل الرياض . وأثيرت هذه القضية فى مجلس رسمي حضره ابن سعود ووالده وكبير القضاة وعبد الله بن عبد الوهاب ، وطرحت على بساط البحث مناقشة سياسة الملك الموالية للبريطانيين التى كان يدافع عنها دوماً ويؤكد على المزايا المترتبة عليها ، فى ضوء النتائج الخطيرة التى تولدت عن اتباع تلك السياسة ، وهذا دليل مهم على الروح الديمقراطية لدى العرب ، الذين يتعين على حكامهم الاستماع إلى الرأى العام إذا ما أرادوا الحصول على مساندته لهم وتأييده إياهم . وعندما التقيت مع ابن سعود فى المساء وجدته مهموماً ، وفى صباح اليوم التالى اتخذت تلك الشائعات شكلاً مزعجاً . كنت حتى تلك اللحظة بلا أى معلومات ، ولكن ابن سعود كان قد تسلم رسائل من الشيخ سالم ومن ممثله فى الكويت ، عبد الله النفيسى ، وأكد الشيخ سالم أن رفضه استقبال المطير كان سببه المرض ، فى حين أكد النفيسى أنه شاهد الشيخ سالم معافًى تماماً بعد الواقعة مباشرة . وراجت أيضاً بعض الشائعات، على الرغم من عدم معرفتى لمصدرها، ومفادها أن القوات البريطانية جرى إنزالها فى الكويت لتفعيل إجراءات الحصار سالف الذكر ، وأنه ترتب على ذلك انتشار الرعب والفزع بين البدو ، وأن عبد الله النفيسى ، من باب التخفيف من ذلك الرعب والفزع ، طلب مقابلة الشيخ سالم شيخ الكويت بدون جدوى ، كما روَّجت الشائعات أيضاً أن الضابط البريطانى المسئول عن العمليات قد أعفى من مهام منصبه بأوامر من بغداد . ولم أعرف كيف أتصرف مع ذلك الموقف ، وسألنى ابن سعود : "ما الذى حدث للسياسة البريطانية ؟" ولم أستطع الرد عليه إلا بأنه إذا كان الأمر كما هو قائم حالياً فذلك يعنى أن شخصاً ما قد أحدث شيئاً من التخريب . وفى اليوم التالى استدعونى إلى مجلس ابن سعود ، الذى قدمنى لرجلين كانا قد وصلا للتو من الكويت ومعهما آخر أخبار مسألة الحصار . وهنا قال ابن سعود : "انتبه ، هذا ابن منديل ، واحد من أهل الزلفى أصحاب السمعة الطيبة ، اسمع منه ذلك الذى حدث فى الكويت ، ما يقوله ابن منديل أظن أنه الحق" . ولم تؤيد رواية ابن منديل النغمة العامة

للشائعات السابقة ، وإنما أضاف الرجل أيضًا تفاصيل بشعة اضطروا إلى التزام الصمت بشأنها . وقيل أيضًا إن الأحداث التى يشتكون منها سبقها انعقاد مؤتمر ، حضره كل من المندوب السياسى البريطانى وضابط الحصار والشيخ سالم وكذلك طبيب أمريكى من البعثة المحلية ، وأن الزعماء النجديين تم استدعاؤهم وأمروا بمغادرة الكويت فى اليوم نفسه ، أما الحضر وليس البدو فقد سمح لهم بالبقاء إلى صبيحة اليوم التالى . كما قيل أيضًا إن مفرزة من القوات جرى إنزالها من إحدى السفن فى الميناء لتقوم بالإشراف على التفتيش بهدف منع تهريب البضائع المحرمة ، وأن تلك المفرزة بالغت فى التفتيش إلى حد فتح المرقاص ، أو إن شئت فقل مخدات الكتف ، كما فتحوا أيضًا سروج الجمال بحثًا عن المخبآت ، كما أيد المنديل أيضًا الإجراء العسكرى بأن قال : إن البريطانيين ركبوا أحد مدافع الماكينة فوق سطح الكابينة الموجودة فى الشويخ Shuwaikh . وعندما تأكدت أن تلك التفاصيل وهذه القصة مبالغ فيها ، أكدت بدورى لابن سعود أنه إذا كان قد حدث خطأ ما فى تنفيذ سياسة الحصار فذلك أمر يمكن تصحيحه ، كما أكدت له جازمًا أن العناصر التى جرى إخراجها من الكويت لو عادت إليه ومعها ممثل لابن سعود ، فإنها سوف تشترى كل ما تطلبه . هذا الضمان ، أو إن شئت فقل التأكيد الجازم ، الذى قدمته لابن سعود والذى أدى إلى تهدئه المشاعر التى كانت تتفاقم يومًا بعد يوم ، تحسن فى الكويت ، فى ذات الوقت ، استجابة للوساطة التى قمت بها ، ولكنى لم أصدق ذلك الذى كانت تراه عيناى عندما تسلمت التقارير الرسمية الكاملة عن الموضوع. كانت الشائعات التى وصلت الرياض عبر قنوات مغرضة، صادقة فى تفاصيلها الأساسية، ولكن شخصًا ما، مثلما توقعت، كان قد أحدث شيئًا من التخريب الخطير . على كل حال، كل ما هو خير ينتهى بخير أيضًا . وشعرت بارتياح كبير عندما انقشعت تلك السحابة بعد أن أحدثت ذلك القدر الضئيل من الضرر ، وقد خدم ذلك أيضًا هدفًا آخر مفيدًا ، إذ أقنع أهل نجد بل وابن سعود نفسه بالحقيقة التى مفادها أن السلطات البريطانية مهتمة تمام الاهتمام بموضوع الحصار .

وصلتنى من المندوب السياسى فى الكويت شكاوى مفادها أن تاجرين سوريين أو عقيلين ' Aqil كما يسميهما الناس هنا ، وهما بالاسم قاسم بن رواف(٢٧) ومحمد بن دُخيِّل Dukhaiyil كانا يقومان بشراء كميات كبيرة ، بشكل مثير للشكوك ، من البضائع باسم عبد العزيز بن عثمان ، ولد أمير الزلفى ، الذى انسل إلى سجلات المندوبية السياسية عن طريق استقبال العقيد هاميلتون هو وجماعته استقبالاً حافلاً فى مدينة الزلفى فى أثناء مرورهم عليها فى طريقهم إلى القصيم . وقد ذكَّرت ابن سعود بذلك الأمر من باب لفت انتباهه إلى مصداقية ذلك المرءوس ، وانتابتنى الدهشة إلى حد ما عندما بدأ ابن سعود يعبر على الفور عن شكوكه البالغة فى أمانة ذلك الرجل . قال ابن سعود : "إنه وغد ، وأنا لست على وفاق معه ، وأنا كنت أنوى طرده من خدمتى منذ وقت طويل ، وربما كان هذان العميلان يعملان باسمه لحساب الأتراك ، لأنهما سوريان . سوف أطرد عثمان من خدمتى على الفور" . وفى اليوم التالى أطلعنى ابن سعود ، على رسالة كان على وشك إرسالها إلى ذلك الأمير المسيء . تقول الرسالة : "من عبد العزيز ابن عبد الرحمن الفيصل ، إلى عثيمين(٢٨) . حقًا ، لابارك الله فيك ، ولا فى نسلك . ألم أستحلفك ، يا عدو الله ، يا أيها الحمار ، وأقسمت بالله أمامى ؟ ثم أرسلت ابنك بعد ذلك برسالة إلى هاميلتون مفادها أن ولدك يود شراء طعام وبضائع ، ثم جلست بعد ذلك أنت وهو ، لتستفيدا من ذلك . أنت لا تستطيع تمييز الخير عن الشر ، إلى أن حدث ما حدث لأهل نجد من جراء أفعالك . هذا ، تآمرك الشرير ، سيظل فى ذاكرتى . وأنت مطرود من خدمتى . لن تصبح حاكمًا مرة ثانية ، لا أنت ولا أى أحد من بيتك فى الزلفى إلى أبد الآبدين . اذهب على الفور إلى بلد يخطر ببالك فيما عدا بلادى ، إلا إذا أذنت أنا لك بذلك، أو عليك بالتوبة والندم وتستقر أمام عينىَّ فى العارض . واعلم أنك إذا توانيت أو تأخرت فى تنفيذ ما أمرتك به ، فوالله ! ما هى إلا ساعة ، إذا ما بقيت بعدها أنت أو أى أحد من بيتك . واعلم حقيقة العلم أننى لن أكون حاكمًا لهذه البلاد إذا ما بقى أثر منك بعد ذلك ؛ احذر وانتبه واطلب العفو والصفح" . ولم أعرف قط ماذا كان مصير ذلك الرجل الذى تلقى تلك الرسالة المهمة ، فلم يكن ذلك الرجل بالزلفى عندما مررت بها بعد ذلك بستة اشهر ، ووجدت بدلاً منه سلمان Salman بن بداح Baddah من أصحاب الميول الإخوانية .

وفى اليوم الأخير من شهر أبريل ، وبعد أن زرت كل ضواحى الرياض ، وبعد أن أصبحت أشعر بالملل من طول انتظار إكمال ترتيبات الرحلة الجنوبية التى سبق أن وعدنى بها ، صارحت القصيبى فيما بينى وبينه ، واشتكيت له من أن دائرة معارفى كانت ضيقة ومحدودة سواء كان ذلك بقصد أو غير ذلك . كما قلت له أيضًا أنا لا يمكن أن أبقى فى الرياض إلى أجل غير مسمى إلا إذا سُمِحَ لى بحرية الدخول إلى مجتمعها . وكانت لى محاولات مماثلة سابقة مع إبراهيم ولكنها باءت بالفشل ، وكنت على قناعة تامة من أن إبراهيم كان يهاب طرح مثل هذا الموضوع أمام سيده ابن سعود . ومع ذلك، كان القصيبى رجلاً له طابع مختلف عن إبراهيم ، ولابد أنه اتجه على الفور إلى ابن سعود ليخبره بالأمر ، وعلى أى حال ، جرى فى مساء اليوم نفسه استدعائى إلى مجلس ابن سعود ، حيث وجدته هو ومجموعة كبيرة من أفراد الأسرة المالكة على وشك القيام بجولة تفقدية للمساكن والمبانى الجديدة التى يجرى إنشاؤها فى القصر . وبعد أن دعانى ابن سعود لمرافقتهم فى تلك الرحلة ، استدار واتجه إلى إبراهيم ، وعنفه على مرأى ومسمع من الجميع لفشله فى تقديمى إلى مجتمع أوسع ، وأصدر أوامره اعتبارًا من ذلك اليوم بأن أزور من أشاء . كما صدرت الأوامر إلى شلهوب Shilhub – مسئول الخزانة ، الذى كان حاضرًا ليرافق الجماعة إلى المبانى الجديدة – صدرت له الأوامر بأن يعزمنى على شرب القهوة فى المساء نفسه ، وهنا بدأت أحس بالخجل لأنى تسببت فى كل تلك المتاعب ، ولكنى وجدت الحياة أصبحت بعد ذلك أكثر سلاسة عن ذى قبل .

كان ابن سعود يتباهى بالبنايات الجديدة ؛ ففى كل ركن من أركان القصر كان البناءون مشغولين بالهدم هنا والتعمير هناك ، ومما سمعته بعد أن غادرت الجزيرة العربية ، يؤسفنى القول بأنى لن أستطيع تعرف طريقى حاليًا خلال القصر ، بسبب التغييرات الكثيرة التى حدثت هناك ، ومن بينها تمديد استقامة واجهة القصر ، التى كانت تبدو لى دومًا ، بشكلها التى كانت عليه ، أفضل أجزاء القصر ، فضلاً عن كونها نبذة معمارية مثل أى نبذة أخرى فى نجد . واصطحبونى بعد ذلك لمشاهدة المجلس الجديد ، مبنى بيضاوى واسع تمامًا ذى تصميم بسيط ليس به من النوافذ سوى ثلاثة

فقط ، فضلاً عن نافذتين كانا فى الجوار الخارجى لا نفع منهما سوى التهوية فقط . كان سقف ذلك المجلس محمولاً على أعمدة مطلية بالجبس تبعد عن بعضها مسافات متساوية على طول خط منتصف المجلس ، أما أرضية المجلس فكانت مفروشة بالسجاد ، الذى كان خليطًا مدهشًا من النفيس والرخيص ، أما سقف المجلس هو والدعامات المصنوعة من خشب النخيل فكانت مغطاة بقماش مبهرج ، فى حين كانت المخاد المربعة الشكل مختلفة الألوان والمصنوعة من قماش السقف نفسه مرصوصة إلى جوار جدران المجلس . كان المجلس جاهزًا للاستعمال ، كما كانت هناك أسفله غرفة مماثلة أخرى فى الطابق الأرضى خصصت لتركى لتكون له مجلسًا عامًا ، إذ بدأ الآن يتبوأ دورًا متزايدًا فى الإدارة ، وعهد إليه والده بتصريف الأمور الثانوية ، كان ذلك بمثابة تدريب ممتاز له، وحمل عن ابن سعود جزءًا كبيرًا من حمل أعماله الثقيل . كما أطلعونى أيضًا على غرف أخرى مختلفة مخصصة لكبار الزوار : "أمثال جنابكم" كما أوضح ابن سعود . وأنا شخصيًا وجدت أن تلك الغرف لا تناسب الغرض الذى أنشئت من أجله ، نظرًا لقربها الشديد من المجالس العامة من ناحية ، وأنه لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال جموع الخدم الذين يقومون على أمر تلبية احتياجات سيدهم من ناحية أخرى ، فى حين كان السكن الذى أنزل فيه أكثر صلاحية . وعلى كل حال ، فأنا لم أعرب عن رأيى هذا ، وتركونى فى جناحى الخاص طوال فترة إبقائى فى الرياض ، على الرغم من أنه حاليًا – وهذا من خيالى ومن عندياتى – ربما يكون قد أحيل مع بعض المساكن الإضافية التى يجرى بناؤها حاليًا ، إلى أن يصبح سكنًا للعاملين فى المنزل هم وأسرهم . كان يجرى أيضًا بناء إسطبلات ودور للضيافة فى الجناح الغربى من القصر ، الذى أشار لى ابن سعود ، من فوق سطحه ، إلى الاتجاهات التى ينوى أن يكون توسع الرياض فى اتجاهها ، ويبدو أن تلك العملية كانت تتضمن إزالة بعض من أفضل بيارات النخيل خارج الركن الجنوبى من العاصمة .

وسارعت ، بعد نزهة قصيرة سيرًا على الأقدام فى الحدائق ، بالعودة إلى منزل شلهوب تلبية لدعوته لى لشرب القهوة . كان المنزل ، كما أبلغنى شلهوب ، منزل زوجته المفضلة ، سيدة صاحبة ذوق ، وذلك من منظر مجلسها الصغير الأنيق الموجود فى

الطابق الأول ، والمفروش فرشاً جميلاً بالسجاد والمخاد المصنوع من القماش الهندى المنقوش . وشاهدت فى الوجار ثمانية دلال لامعة من دلال القهوة ، وإلى جواره شاهدت رفًا تناول مضيفى منه مدخانًا ، كان من الواضح أنه مصنوع فى عنيزة ، وكان إطار ذلك المدخان مصنوعًا من خشب الإثل ومزين بحواف من النحاس الأصفر ، وقطع من زجاج المرايا ، علاوة على أربعة شرائط من القصدير ، واحد على كل جانب من جوانب المدخان ، ومرسوم على كل شريط من تلك الشرائط زورق سباق له ثمانية مجاديف ومكتوب عليه "صنع فى النمسا" . كانت الصحبة فى منزل شلهوب تضم كلا من القصيبى وإبراهيم وحمدانى وعدة أفراد آخرين ، ودار الحديث بصفة رئيسية عن زواج القصيبى من أرملة أحد خدم ابن سعود الذين وافتهم المنية ، ذلك الزواج الذى جرى الاحتفال به فى مساء ذلك اليوم ، على أن تتم مراسم الزواج طبقًا للعرف المعمول به هنا ، بعد صلاة العشاء . كان الحديث جافًا وعقيمًا فى الوقت ذاته . وفى أثناء عودتى للمنزل داهمنى الوابل، وابتل جسدى وابتلت بشرتى قبل أن أصل القصر .

وقرية منفوحة هى وواحتها ، التى تفصلها عن القرية سلسلة من الجبال ، تشكلان جزءاً لا يتجزأ من واحة الرياض . وقد قمت بزيارة واحة منفوحة عدة مرات طوال تلك الأيام ، وهذه الواحة تقع على بعد حوالى ثلاثة أميال فى أقصى الجنوب الشرقى من العاصمة، ويمكن الوصول إلى قرية منفوحة وإلى واحتها من العاصمة، عن طريق مدقين . أحد هذين المدقين (الطريقين) يسير بحذاء قناة فيضان أو سيل الشمسية متجاوزاً المقابر الملكية ، على الجانب الأيسر على بعد مسافة نصف ميل شرقى المدينة ، ويتخلل ذلك الطريق سلسلة الجبال سالفة الذكر ، ليخرج منها إلى غدير ضحل يقع بين سلسلة الجبال تلك ومنحدر دربيات النخيل . وهناك بقعة من الأرض الزراعية فيها عدة أبيار قليلة وتقع خلف الطريق مباشرة وتبعد عنه حوالى ميلين ، ويعد تلك البقعة مباشرة يدخل السائر فى ذلك الطريق إلى منطقة خربة تعد بداية لما كان مدينة عظيمة فى يوم من الأيام ، تضارع الرياض بل ربما كانت أعظم منها . والمدق (الطريق) الثانى يبدأ من البوابة الجنوبية للعاصمة متجهًا جنوبًا عبر بيارات النخيل ، ثم يخرج منها ، ليستمر مسافة ميل بعد ذلك ، ثم يعبر سهلاً تنتشر فيه بقايا موقع متقدم قديم ،

أو إن شئت فقل ضاحية خارجية قديمة ، ثم يصعد الطريق بعد ذلك إلى سلسلة الجبال التى تعترضه ، والتى يستطيع المرء من فوق قمتها أن يرى نخيل الرياض رؤية واضحة جلية فى الناحية الشمالية ، ونخيل الباطن فى الناحية الغربية ، فى حين يرى منفوحة نفسها هى وبياراتها الشاسعة فى الناحية الجنوبية .

أنقاض منفوحة القديمة تحيط بالقرية الحديثة وتمتد على شكل خط طويل يمتد بطول الجانب الشرقى من حزام النخيل ، ولكن المتبقى من تلك الأنقاض قليل جداً إلى الحد الذى يصعب معه إعادة تجميع صورة للمدينة القديمة ، التى ازدهرت وانتعشت فى زمن كانت الرياض ما تزال فيه كفراً hamlet صغيراً . كان أمراء منفوحة من أمثال دحام Daham بن دوّاس Dawwas هو وأجداده منافسين لآل سعود فى الدرعية . ومن أنقاض أحد أبراج القرية القديمة المحطمة نظرت من علٍ إلى القرية التى حلت محلها ، هذا فى الوقت الذى راح مناور Manawar يستعد فيه لصلاة المغرب بعد محاولة فاشلة لاصطياد ثعلب دوّخه بين مرتفعات ومنخفضات الأرض المكسرة المحيطة بنا ، وفى الوقت الذى بدأت السماء فيه تزداد سواداً من ناحية الغرب بفعل السحب الرعدية الكثيفة التى كانت تتقدم العاصفة الوشيكة، وتحذرنا من التأخير أو التلكؤ . والقرية الجديدة ليست سوى قرية صغيرة بائسة مهلهلة مكونة من أكواخ حقيرة مبنية من اللّبن ومعظمها من طابق واحد ، والقرية يحيط بها سور مبنى من اللبن أيضاً . وبوابات السور السبعة – باستثناء قلة قليلة منها – كانت مجرد فتحات فى السور، كما أن السواد الأعظم من أبراج ذلك السور كانت متحللة . زد على ذلك ، أن منارة (مئذنة) المسجد الرئيسى التى لا تسر الناظرين تبرز مرتفعة إلى أعلى فوق الأكواخ التى تحيط بها فى منتصف المستوطنة ، التى كانت خلفيتها عبارة عن غابة كثيفة من النخيل جيد النمو ، تمتد على شكل خط يصل طوله إلى حوالى ثلاثة أميال ، ويصل عرضه إلى ما يقرب من ربع الميل . وقبل العودة إلى سكنى كنت قد مررت حول القسم الأكبر من ذلك السور الدائرى ، الذى على شكل سداسى غير منتظم يصل قطره إلى حوالى ٣٥٠ ياردة ، ويضم من البشر حوالى ٢٥٠٠ نسمة ، لا يوجد من بينهم – على حد قول الناس هنا – أثر للبيت الحاكم القديم[٢٩] . وعندما تجاوزت البوابة الجنوبية لاحظت شارعاً

واحداً جيداً، فيه قليل من المحلات التى تصل ذلك الشارع بالقرية ، أما بقية أحياء القرية فكانت عبارة عن حارات ضيقة وملتوية . وسكان منفوحة مثل سكان الرياض ، عبارة عن خليط ، وغير مزدهرة مثلها أيضًا . ولسبب من الأسباب تحصل الخزانة الملكية على ربع إنتاج التمور والقمح الذى تجرى زراعته فى واحة منفوحة ، ولعل السبب فى ذلك هو وقوع منفوحة فى المجرى المباشر لسيول وادى حنيفة ، واستفادتها من مياه تلك السيول عن طريق منظومة ممتازة من قنوات الرى ، ولكن يبدو أن ابن سعود ، من الناحية الفعلية ، يكتفى بضريبة حكومية عينية مقدارها ٥ فى المئة فقط كما هو الحال فى الرياض وبقية الأجزاء الأخرى فى نجد والتى لا تروى أراضيها ريًا دائمًا . والطريق المؤدى من منفوحة إلى الرياض عبر سلسلة الجبال تتخلله أبراج الحراسة المهجورة ، التى تذكر الناس بذلك الزمن الذى جرَّ على الجانبين الخراب والدمار الذى تشهد عليه تلك الأنقاض . وهناك ممر ضيق يخترق حزام النخيل مقسمًا إياه إلى قسمين ، البيارات الشمالية التى تنتمى إلى منفوحة ، فى حين تنتمى البيارات الجنوبية فى وسطها إلى قرية مصناع Masana' ، التى هى مستوطنة صغيرة تضم ٤٠٠ نسمة ، ويحكمها أمير غير أمير منفوحة يقال له ابن زيد Zaid ، وعند الطرف الجنوبى لهاتين البيارتين توجد قلعة كبيرة تسمى مزعل Miza'l ، من الواضح أنها بنيت خلال حكم عبد الله العنيف منذ حوالى نصف قرن ، لحماية مدخل العاصمة من ناحية الجنوب .

وإذا كان مجرى سيل الشمسية يمتد وراء الجانب الشمالى من العاصمة متجهًا صوب الشمال الشرقى وراء واحة منفوحة كى يتصل بوادى حنيفة عند طرفه الجنوبى ، فهناك فرع ثانوى من ذلك المجرى أيضًا يمر خلال البيارات الموجودة شرقى وجنوبى الرياض ، ليتصل هو الآخر بقناة وادى حنيفة عند نقطة ينحرف عندها عن مجراه الصخرى عبر هضبة الطويق ، لينحنى انحناءة مفاجئة ناحية الجنوب بطول المنحدر الخارجى للأراضى المرتفعة . وفيضان وادى حنيفة المحاصر هذا ، يجعله يندفع بين الحين والآخر خلال فصلى الشتاء والربيع بكميات كبيرة تندفع شرقًا ، ويمكن لها إذا ما سارت الأمور سيرها الطبيعى ، أن تكتسح وبقوة هائلة تلك المنطقة الواسعة التى تغطيها بيارات الرياض الجنوبية ، وحزام نخيل منفوحة قبل أن تستقر فى النهاية

فى الوادى الواسع بين مرتفعات الطويق من ناحية ودريبات الخيل من الناحية الأخرى ، لولا تدخل الإنسان لاعتراض مجرى ذلك السيل لخدمته والانتفاع بها . فالضفة اليسرى من القناة ، أو إن شئت فقل مجرى السيل ، جرت تقويتها اصطناعيًا كى تتحمل الصدمة الأولى لاندفاع السيل من المرتفعات ، وذلك عن طريق سد طويل منحنٍ من قطع ضخمة من الأحجار غير المنتظمة ، التى استطاع الناس عن طريقها تعطيل السيل وتحويله عنوة إلى قناة تتجه جنوبيًا، تسير بحذاء قاعدة منحدر الطويق . وعلى مسافة ميل بعد ذلك ، جرى عمل سد آخر من الصخور نفسها ليخرج من المنحدر بزاوية قائمة على المجرى نفسه ، وعبره إلى نقطة تقع خلف ضفته اليسرى ليخدم غرضين فى آن واحد أى يؤدى وظيفة السد ويعمل عمل الهدّار (أى السد الصغير) . وهناك حاجز يصل ارتفاعه إلى قدم أو ما يزيد قليلاً على ذلك ، فوق مستوى القاع ، هو الذى يوجه مياه الفيضان العادى إلى قناة جانبية ، تتفرع عنها قنوات صغيرة تسير فى اتجاهات مختلفة قاصدة حزام النخيل فى منفوحة ، فى الوقت الذى يسمح فيه ذلك السد أيضًا بذهاب فائض المياه ، فى حالة الفيضانات غير العادية ، بالهرب من فوقه إلى مجرى السيل الرئيسى الذى يوجد فارقًا بين قسميها المرتفع والمنخفض يقدر بحوالى أربعة أقدام . وأساسات ذلك السد ترتكز على الصخر الصلد الموجود أسفل مجرى السيل الذى يغطيه الزلط والحصى ، والذى تعرى بفعل التنظيف والمسح الشديدين فى منطقة المجرى الواقعة مباشرة أمام الحاجز ، كما توجد أيضًا فى تلك المنطقة بعض التجاويف الكبيرة التى يوجد الماء بها طوال القسم الأكبر من العام ، والتى كانت مملوءة بالماء إلى حوافها يوم أن زرتها . واقع الأمر أننى كنت تعيس الحظ تمامًا فى تلك المناسبة ، إذ فاتنى أن أرى وادى حنيفة وقد امتلأ عن آخره بالماء فى غضون دقائق قليلة . كنت قد سبق لى أن ذهبت مع مناور وعطا الله سيرًا على الأقدام إلى منفوحة ومنها إلى ذلك السد المنخفض ، الذى أمضيت عنده نصف ساعة اتفحص مصنعيته الماكرة ، فى الوقت الذى راح فيه رفيقاى يتوضآن ويستعدان للصلاة . وفى ضوء الغسق ، أو إن شئت فقل ظلمة أول الليل ، رحنا نتجول ببطء فى القناة وصولاً إلى السد العلوى ، ومنه أسرعنا عائدين إلى مساكننا مستخدمين فى ذلك الطريق

المباشر الذى يخترق بيارات النخيل دومًا ، وما إن وصلنا بوابات المدينة ، حتى داهمنا رجل يركب مهرًا ، لابد وأن يكون قد مر بالسد ، لقد جاء من الباطن بعد عشر دقائق من مغادرتنا لها . أقسم الرجل قائلاً : "هل رأيتم السيل ؟" "والله ! الله كريم !، لقد عبرت الوادى فى الوقت المناسب ، إذ رأيت السيل من خلفى يندفع على شكل مجرى سريع" . وأكد الأخبار التى حملها ذلك الرجل شخص آخر وصل من الدرعية ، وما إن عبر بإبله مجرى السيل من المكان نفسه وفى الوقت المناسب ، حتى رأى المنطقة وقد أغرقها السيل بكاملها ، ولو تأخر ذلك الرجل لحظات لتعين عليه الانتظار حتى صباح الغد ، نظرًا لأن الوادى عندما يفيض لا يجرؤ أحد على عبوره . كان ذلك أعتى فيضان وآخر فيضان فى ذلك الفصل من العام .

وداخل ثنيات الطويق ولمسافة ميل فى اتجاه أعالى مجرى السيل اعتبارًا من مخرجه ، يعرف وادى حنيفة فى ذلك الجزء باسم الباطن ، وتتخلله على الجانبين بيارات النخيل الكثيفة ، كما يوجد به شريط ضيق أيضًا من الرمل الناعم والزلط ويحيط به خط من الغرين . والتربة الخصبة هنا ، التى تتجدد كل عام بفعل الرسوبيات الجديدة التى تجلبها السيول معها وتتركها وراءها فى كل خليج وفى كل ثنية من ثنيات القناة المتعرجة ، تحول عددًا من أفضل البيارات الموجودة فى الواحة كلها بالإضافة إلى أراضى القمح والخضراوات والبطيخ ، ولكن تلك المنطقة خالية من المستوطنات الدائمة اللهم إلا باستثناء بعض الأكواخ التى يسكنها فلاحو ابن سعود وفلاحو البيارات الآخرون . والباطن منتجع مفضل لدى مواطنى الرياض وبخاصة أفراد الأسرة المالكة فى أيام الأجازات والعطلات ، إذ يسارعون إلى منطقة الباطن بأعداد كبيرة ومعهم خيولهم ليسمروا هناك بمباريات الرماية ، والعروض الراكبة ، والرياضات الأخرى طوال اليوم من مطلع الفجر حتى المساء ، ويأكلون ويشربون القهوة ويصلون ، وكل ذلك فى الأوقات المحددة أو المناسبة .

وما إن غادر مبعوثو الشمّر عائدين إلى بلادهم يحملون رسائل ابن سعود إلى رئيسهم حتى سمعت عن وصول وفد موقر يضم شخصًا هو العجيمى Ajaimi نفسه ،

وحمل أفراد ذلك الوفد رسائل لابن سعود من شيخهم فضلاً عن هدية من الخيل لتقديمها لابن سعود - أربعة أفراس وحصان فحل للاستولاد - وكانت تلك الهدية مقدمة من كبار قادة العجيمي وهم : محمد بن تركي بن مجلاد ، أكبر مشايخ عنزة الدهامشة ، وفهد بن دغيم الذى ينافس فهد بن هذَّال على رئاسة فخذ عمارات Amarat من العنزة . كان المبعوثون أنفسهم ذوى شأن ومكانة وتقدير ، وهم نايف بن دغيِّم Du-ghayim شقيق مهم ، على ما أعتقد ، وبدر بن مجلاد ولد عم محمد . كانت الرسائل تدل دلالة واضحة ، من صياغتها شديدة التأدب ، ومن كلماتها وتعبيراتها الودية ، على أن كاتبى تلك الرسائل كان يستشعرون آثار فرض الحصار الصارم ، ولكن العربى على استعداد أن يلفظ آخر أنفاسه بدلاً من أن يخسر كرامته وكبرياءه . وبصفته رجلاً حراً يراسل رجلاً حراً آخر ، كتب العجيمى لابن سعود ما معناه أن وجود العجيمى فى صحراء الفرات - من الواضح أنه كان فى منطقة مجاورة للرخيمية رغم أنه لم يشر إلى ذلك - سببه الرئيسى اعتبارات الرعى ليس إلا ، وأعرب عن سعادته إذا ما سمح له بالوصول إلى أسواق القصيم . وكتب ملازمو العجيمى فى الاتجاه نفسه، ولكن بإشارات واضحة إلى مللهم من الصراع الطويل ، كما أشاروا بصفة مباشرة إلى رابطة الدم ، التى أدت إلى تطابق مصالحهم مع مصالح ابن سعود الزعيم الطبيعى للمسلمين فى مواجهة الكفرة والملحدين . قال لى ابن سعود فى أثناء مناقشتنا للرد الذى يمكن أن يعطيه لأولئك المبعوثين : "منذ سنوات وأنا أحاول اللجوء إلى كل الأساليب الدبلوماسية لجذب أو انتزاع أنصار العدو وجعلهم يقفون إلى جانبى ، وها هى جهودى بدأت تثمر وتؤتى أكلها . لقد رأيت الرد الذى أرسلته إلى مجيد ، كما رأيت أيضًا الإعلان الذى أصدرته لشيوخ الشمَّر . وأنا سوف أرسل للعجيمى هو وأتباعه ومريديه رداً مماثلاً ، ولكن يجب ألا يغيب عنك أن وقت العمل آخذ فى الاقتراب، وأنا أود أن أتأكد أن الحكومة البريطانية لن تسحب تأييدها ومساندتها لى عندما تدور عجلة العمل . وأنتم إذا تخليتم عنى فسوف ألجأ إلى الدبلوماسية ، وسوف تكون القبائل كلها بمشيئة الله معى فى خلال سنوات قلائل ، ولكنك تطالبنى حاليًا بإسراع الخطى عن طريق العمليات الفاعلة.ويجب أن تعلم أننى إذا ما بدأت فلن أتراجع" . ورددت عليه :

"لقد أعطيتك وعداً وكلمة شرف ، وأنا لن أتحلل من وعدى ولن أسحب كلمة الشرف التى أعطيتك إياها ، ولكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أن الحكومة البريطانية سوف تحكم على الأمور من الأفعال والنتائج وليس من الكلمات والوعود" . ورد ابن سعود قائلاً : "حسن ، سوف أفعل مع هؤلاء الناس ذلك الذى فعلته مع الشمَّر . سأقول لهم : 'إذا كنتم ترغبون فى صداقتى ، فأنتم أبناء عمى ، ومرحبًا بكم ، ولكن يجب عليكم أن تفعلوا أمراً واحداً من الأمرين التاليين . مسموح لكم بالمجىء إلى هنا والعيش على أرضى وتحت يدى ، أو قد تفضلون الذهاب إلى البريطانيين فى بغداد وتنضمون إليهم فى مواجهة الأتراك . وهنا سوف أعطيكم الرسائل التى تزكيكم لديهم . ولكنكم إن كنتم لا تريدون هذا الطريق أو ذاك ، فاعلموا أنى عدوكم وسوف أقاتلكم فى كل مكان ألقاكم فيه'. ولعلكم تعرفون أن المثل العربى يقول : إذا وعدت فأوفِ ، وإن هددت فنفذ ؛ لأن من يعد ولا يفى لا يثق به أحد ، ومن يهدد ولا ينفذ لا يخافه أحد أو يخشاه . لقد أرسلت بالفعل أمراً إلى القبائل بالتجمع هنا فى الرياض فى منتصف شهر شعبان ، إذ سيتولى تركى قيادتها لتقوم بالغزو مع بداية هلال شهر رمضان ، يضاف إلى ذلك أننى استدعيت جمعًا كبيراً من الإخوان للحضور إلى هنا بعد عدة أيام قلائل ، كى أشرح لهم الأمور وأبث فيهم حماساً كبيراً . يا الله ! يسر لى جمعًا كبيراً ونتائج طيبة . منذ يوم أو يومين كان الشيخ عبد الله القاضى يناقش معى مسألة الشريف حسين ، وحثنى على العمل فى ذلك الاتجاه ، ولكنى قلت له : 'اصبر قليلاً وسترى الشريف حسين يتغلب بنفسه على نفسه'" . وانعقد اجتماع الإخوان فى اليوم السابق لرحيلى إلى الجنوب إلى حديقة عتيقية 'Ataiqiyya' فى القسم الجنوبى من الواحة ، الذى جرى فيه، بعيداً عن صخب العاصمة وهمومها ، حديث من القلب إلى القلب بين الملك الوهابى من ناحية وأكثر الناس تديناً فى شعبة من الناحية الأخرى ، كما مهد ذلك الحديث الطريق للجهاد ، أو إن شئت فقل الحرب المقدسة القادمة . وفى مساء اليوم السابق لذلك الاجتماع وبينما كنت جالساً معه فوق سطح القصر نناقش الأمور سوياً ، سمعت نغمات موسيقية صادرة عن صوت يرتل آيات من القرآن ، ثم التعليق بعد ذلك على تلك الآيات أمام جمع كبير من المؤمنين ، ترك معه ابن سعود ولده الكبير كى يشرف عليه

فوق سطح المجلس العام . وتعجبت كيف يمكن أن تكون العقيدة من صنع السياسة ، وأن جمار التشدد والتعصب يجب أن تتحول إلى لهب فى قضية علمانية أو دنيوية . وفى تلك المناسبة طرحت على مضيفى (ابن سعود) السؤال التالى : "ما هو موقف الإخوان الحقيقى من تحالفك مع البريطانيين ؟" وأجابنى ابن سعود : "ليس صحيحًا أن الإخوان معادون لكم ، لأن عقيدتنا تقول إنكم أهل كتاب ولستم مشركين أو كفارًا ، لأن كراهية الوهابيين لا تنصب إلا على المشركين والكفار . ولكن هناك الكثيرين من أفراد شعبى ، وبخاصة الحضر وسكان المدن ، الذين سافروا إلى الخارج أو تعلموا هناك ، يتعاطفون مع الأتراك باعتبارهم ممثلين للإسلام ، وبالتالى فهم يعادون البريطانيين ، ولكنهم هنا لا يلقون أذنًا صاغية ، وقد عاقبت مؤخرًا اثنين من تلك النوعية ، على إفصاحهم عن آرائهم والتعبير عنها" .

وفى صبيحة اليوم الذى تزوج فيه القصيبى التقيته فى غرفة استقبال شلهوب العامة ، غرفة كبيرة فى الطابق الأرضى فى منزل يقع فى أحد الشوارع المؤدية إلى البوابة الجنوبية الشرقية ، ويجرى تقديم القهوة فى تلك الغرفة على حساب الدولة لكثير من الزوار،الذين تحتم عليه مهام عمله وزيرًا للخزانة مقابلتهم والترحيب بهم . سألت القصيبى : "حسن ، ما رأيك فى العروس ؟ أهى جميلة مثلما يقولون ؟ وهل أنت راض عنها ومقتنع بها ؟" ورد على القصيبى : "معقولة ، إنها بين بين ، إنها تساوى عشر إناث فى الروبية[٣٠] وليس أكثر من ذلك ، ولكن أنتم تبذلون جهدًا فى اختيار زوجاتكم بعد أن تروتهن . أما نحن فالكثيرون منا يكتشفون فى ليلة الزفاف أنهم قد خدعوا بالفعل" . وفيما يتعلق بالقسمات القليلة التى لديه فهو يعد نفسه دنجوان **Don Juan**، وكان من الواضح أنه قد أصابه قليل من الإحباط بالخيار الذى اختاره له ابن سعود نوعًا من العزاء له فى وحدته فى الرياض . وشلهوب يستعين على أداء عمله المضنى فى تنظيم شئون الخزانة ، يستعين بكاتب له معرفة قليلة باللغة الهندية تمكنه من تهجى الأرقام والكلمات فى الفواتير التى تصله من بومباى ، ولكن دفاتر الحسابات التى قدموها إلىَّ على سبيل التسلية والترفيه ، يندر أن تشهد بكفاءة هذين الرجلين . وقد أبلغنى شلهوب أن له ستًا من الأبناء تتراوح أعمارهم بين الطفل الرضيع وأربعة عشر عامًا .

وذات ليلة وبينما كنت أجلس على السطح مع ابن سعود والسماء صافية من فوقنا ، تجرأت - بناءً على قوة التحركات الخاطئة للبارومتر المعدنى الذى أحمله معى - وتوقعت أن تكون الليلة عاصفة ومضطربة . ورد علىَّ ابن سعود قائلاً : "الله أعلم" . قالها وهو منزعج قليلاً من دخولى إلى منطقة الخطر ، إذ من المعروف بين الوهابيين ، أن الخوض فى أسرار بعينها أو محاولة معرفتها أمر ممنوع تمامًا ، وأن معرفة تلك الأسرار - وذلك طبقًا للرواية - حجبها الله عن محمد (ﷺ) نفسه مخافة أن تؤدى المعرفة الكاملة إلى أن يرفعه البشر إلى مرتبة الإله . والأشياء الخمسة المخبأة هى يعلم : علم الساعة ، وما فى الأرحام الطفل ، ولا تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، ولا بأى أرض تموت ، وسقوط المطر(*) . والله لم يعط معرفه تلك الأشياء لأحد من البشر ، ولا يجوز لأى إنسان أن يتجرأ على معرفتها . ولكن تنبُّئى ثبتت صحته ، إذ كان الليل عاصفًا تمامًا ، وأجبر أولئك الذين تجرءوا على النوم على السطح ، على الدخول إلى المنازل والنوم فيها . وفى صبيحة اليوم التالى وبينما كنت جالساً مع عبد الله بن عبد الرحمن فى المجلس الكبير ، تصادف أن رآنى ابن سعود فى أثناء مروره بنا ، ووقف ليعلن علىَّ دقة توقعى ويعترف أنه خسر نومه لأنه تغاضى عن ذلك التوقع ، وفيما بعد عرفت أن توقعى الذى لم يرتكز على أية أسباب ، جرت مناقشته على نطاق واسع فى أثناء النهار ولقى قبولاً حسنًا . ناهيك عن القول أننى كنت حريصاً تمامًا أن أعزو الفضل كله "لماكينتى الصغيرة ، التى تستعمل فى الحكم على الجو".

كان عبد الله بن عبد الرحمن أول من استجاب لأوامر أخيه العامة باستضافتى والترحيب بى وإكرام وفادتى . واعتذر عبد الله عن استقباله لى فى المجلس ، بدلاً من منزله ، الذى يجاور منزل والده مباشرة ، والذى تصادف أن كانت تجرى به بعض الإصلاحات والترميمات ، كما أعرب عبد الله عن أمله ، بعد الانتهاء من تلك الإصلاحات، فى أن يستقبلنى فى مكان لائق . واستأنفنا حوارنا حول الأدب وموضوعاته المحببة التى كنا بدأنا الحديث فيها يوم أن كنا فى مخيم شوكى . ومن

(*) فى القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان/٣٤)

رأى عبد الله بن عبد الرحمن أن أعظم شعراء نجد المحدثين هو الشاعر سليمان بن سهمان - أحد مواطنى الرياض - والذى جرى جمع أعماله وأرسلت مؤخراً لطبعها فى بومباى . وأهم قصائد ذلك الشاعر قصيدة دينية الطابع ، هى تفنيد لادعاء الأتراك بأنهم مسلمون حقيقيون . وأبلغنى عبد الله بن عبد الرحمن أن كثيراً من المخطوطات الشعرية والمؤلفات الدينية مازال يجرى العثور عليها فى مكتبات والده وفى مكتبات الكثيرين من علماء العاصمة ، وذلك على الرغم من السلب والنهب والتدمير الذى ترتب على الاحتلال الرشيدى ، وبخاصة عملية نقل مكتبة أسلاف ابن سعود الملكية إلى حائل . وعندما ألمحت له عن سعادتى إذا ما اشتريت أية مخطوطة من المخطوطات المتوفرة ، سارع الرجل ليؤكد لى أن مشروعاً من ذلك القبيل أمر صعب المنال والتحقيق ، نظراً لأن بيع الكتب الدينية يعد أمراً غير لائق ، فى حين يعد الاتجار فى المؤلفات العادية أمراً نادراً فى الرياض وفى كل مناطق نجد الأخرى . وناقش عبد الله بحرية كاملة موضوع العبد ، وموضوع الحرب ، وحياة البدو بصورة عامة، وحياتهم أيضاً فى الأدب . وقد أبلغنى عبد الله أن أكثر أنواع الغزال شيوعاً فى صحراء الدهناء هو الرِّيم Rim ، الذى يميل لونه إلى البياض ، وهو أكبر قليلاً من غزال السهول ، الذى يطلقون عليه اسم الظبى Dhabi ، أو إن شئت فقل الإدمى Idmi' .

وفى اليوم نفسه وبعد صلاة الظهر أوصلنى إبراهيم إلى منزل سعود بن عبد الرحمن ، أو إن شئت فقل شقيق ابن سعود الناسك ، الذى التقيته مصادفة فى مناسبتين خلال تنزهى خارج القصر . كان سعود فياضاً فى مشاعر استقباله لى ، وأغرقنى فى الارتباك عندما أصر تماماً على أن أتناول أنا أول فنجان من القهوة، الأمر الذى اضطرنى إلى الاستسلام وتناول الفنجان على الرغم من قاعدتى الثابتة الراسخة التى تقضى بعدم قبول القهوة قبل أى عضو من أعضاء الأسرة المالكة يكون حاضراً فى المجلس . ولما كانت تلك الزيارة هى الأولى من نوعها التى أقوم بها إلى سعود ، فقد اتخذ حوارى معه شكلاً رسمياً ، ولكنى اكتشفت أنه يعرف - على غير العادة - أموراً كثيرة متنوعة ، وأذكى بكثير مما سمعته عنه . وأبلغنى سعود أن والده المسن ، أمضى حياة عزلة كاملة تصل إلى حوالى سبعة عشر عاماً لا يخرج من منزله سوى مرة واحدة فى الأسبوع لأداة صلاة الجمعة فى المسجد الكبير . وفى صلاة الجمعة يوم

الشيخ عبد الله ، كبير العلماء الوهابيين المصلين ، ويقف ابن سعود خلفه مباشرة فى منتصف الصف الأمامى ووالده عن يمينه ، فى الوقت الذى يحتل فيه بقية أفراد الأسرة المالكة أماكن غير بارزة فى المؤخرة أو فى وسط المصلين ، الذين يشكلون كل سكان الرياض الذكور بدءًا من ست سنوات فما فوق . وقد أبلغنى جنيفى أنه فى إحدى المرات عد حوالى ثلاثين صفًا من المصلين داخل المسجد ، كما عد أيضًا عشرة صفوف أخرى فوق سطحى الإيوانين Liwans ، وأن كل صف كان يحتوى ، حسب تقديره ، على ٢٠٠ فرد . وبالتالى فإن هذه الأرقام تقدر سكان الرياض الذكور الذين تزيد أعمارهم على ست سنوات بحوالى ١٢٠٠٠ شخص ، غير أن تلك الأرقام لا يجوز الالتفات إليها أو الاهتمام بها فى ضوء الحقيقة التى مفادها أن طول المسجد ، لا يزيد على ٧٥ خطوة ، وهو ما يسمح بوجود ما يتردد بين ١٢٠ إلى ١٥٠ فرد فى الصف الواحد ، ولا يزيد عن ذلك مطلقًا . وإذا ما تعمدنا الرقم الأكبر من هذين الرقمين فإن عدد الذكور الذين فى سن الذهاب إلى المسجد يمكن أن يصل إلى حوالى ٦٠٠٠ شخص ، يضاف إليهم الأطفال الذكور الرضع وكذلك النساء والبنات . وأنا أرى دومًا أن تقدير عدد سكان الرياض بحوالى ٢٠٠٠٠ نسمة يعد تقديرًا مبالغًا فيه بعض الشىء ، نظرًا لأن سكان العاصمة يقترب فى جميع الاحتمالات من الرقم ١٨٠٠٠ نسمة .

وتحدث سعود حديثًا مستفيضًا عن أيام وجود أسرته فى المنفى ، والتى أمضى والده منها حوالى عامين فى البحرين وفى قطر قبل أن ينتقل إلى الكويت ، التى حظى فيها ، وعلى امتداد ست سنوات ، هو وأسرته التى كانت تتزايد بشكل كبير ، بكرم محمد بن الصباح Subah إلى أن جرى اغتياله على يدى شقيقه ، الشيخ مبارك الشهير ، الذى وُفِّقت بفضل حمايته أسرة نجد المالكة فى التحضير للانقلاب ، الذى أعادها من جديد إلى عرش الرياض . وقد أدهشنى إلى حد ما وجود تامى فى مجلس سعود عندما وصلت أنا إليه ، واندهشت أكثر عندما وجدته فى مزاجه الطائش ، وهو يضفى النكات على مجريات الحديث . ولا أعرف من أين يأتى بتلك الطرف ، التى يرويها عن القبائل المتوحشة والشعوب الغريبة الأخرى . وقد أبلغنا تامى أنه سمع مؤخرًا أن العمال الصينيين فى البصرة قتلوا ضابطًا بريطانيًا وأنهم يثيرون الكثير من المتاعب فى نواح أخرى . حكايات خائبة يجرى نسجها ربما فى أسواق الكويت ، التى

كانت فيها عصبة صغيرة من أبواق الدعاية الموالية للأتراك ، شغلت نفسها فى تلك الأيام من الحرب باختلاق أشياء فى غير صالح الحلفاء وبخاصة البريطانيين ، الذين كانت إجراءات حصارهم ، عند ذلك المنعطف من الحرب ، بمثابة الموضوع الرئيسى المعرَّض للدس والتجريح . وقد سبق لى أن أشرت إلى الشائعات الطائشة التى لا أساس لها(٣١) والتى دارت حول المتاعب التى كنا نلاقيها فى فلسطين فى تلك الفترة ، وكذلك الهزائم التى حلت بنا هناك ، وهذا شىء معقول إذا ما قارناه بالدعاية المضادة لبريطانيا ، التى ترتبت أو أعقبت وصول خبر إلى الرياض عن وجود متاعب فى الحصار فى الكويت ، الأمر الذى أقلق ابن سعود تمامًا بشأن حقيقة الأوضاع فى أوروبا ، والسبب فى ذلك ، أن ابن سعود مثل شعبه وليس شعبه وحده ، كان يتشكك دومًا فى الأخبار التى كانت تمر من خلال الرقابة البريطانية ، يضاف إلى ذلك أن ابن سعود بلغ من الحكمة حدًا منعه من رفض الأخبار التى كانت تصله من مصادر أخرى دون تمحيص . وهل النفيسى أبلغك بإجراءات الحصار الموجه ضد أهل نجد ؟ الواقع أن هذا شىء مضر بالناس ، ولكن حكمك وتقديرك أفضل وأهم . الصحف فى هذه الأيام مليئة بأخبار الناس الذين يفدون إلينا من دمشق ومن بغداد ومن البصرة . وهم باختصار يتحدثون عن زيادة كبيرة فى عدد القوات فى فلسطين ، وأن القسم الأكبر من تلك القوات من الألمان ومن النمساويين . وهم يقولون أيضًا إن ابن ليلى Laila(٣٢) عاد إلى سوريا ، حيث استقبله الأتراك استقبالاً حافلاً ، وحمَّلوه بالهدايا والعطايا ، بما فى ذلك البنادق والمدافع وأشياء أخرى . ولكن كل هذه الأخبار لابد من أن تكون قد وصلتك بالفعل . والصحف القادمة من مصر تتكلم عن زيادة التوتر الحربى فى فرنسا ، وعن الدمار والخراب الذى نزل بإيطاليا ، كما تتحدث أيضًا عن السلام مع روسيا ، يضاف إلى ذلك أن الرئيس الأمريكى قد عرض سبعة عشر شرطًا للسلام ، جرى قبول البعض منها ورفض البعض الآخر . وتقول الصحف نفسها ، هى وصحف أخرى من سوريا إن الحرب فى فرنسا [وإيطاليا] تدور فى المنطقة المجاورة لباريس وروما ، كما تقول أيضًا: إن الفرنسيين نقلوا عاصمتهم إلى مكان آخر داخل أراضيهم على بعد مسافة تقدر بحوالى سبعين ميلاً من باريس على ساحل البحر المتوسط . ونحن نسمع أيضًا أن

التعزيزات المرسلة إلى سوريا لا يقل عددها عن مليون جندى تقريبًا ، كما نسمع أيضًا عن تقدم الأتراك وقطعهم خطوط الانسحاب على البريطانيين فى القدس ، ونسمع أيضًا أن فيصلاً ، ولد الشريف حسين انهزم بالقرب من كراك Karak وبلقه Balqa ، ونسمع أيضًا أن قوات الشريف حسين قد هربت وجرى قتل أسرى الحرب جميعهم ، ونسمع أيضًا أن الأتراك يتقدمون فى هجومهم على الإنجليز ، وإنهم يقتربون حاليًا من كل من غزة ويافا. أما فيما يتعلق بهزيمة ولد الشريف حسين ، فهم يقولون: إن ٣٠٠ شخص من الحويطات قد قتلوا ... هذه الأخبار أخذناها عن الصحف وعن تقارير وصلتنا من أناس فى دمشق وفى بغداد وفى أماكن أخرى ، يضاف إلى ذلك أن البريطانيين قد انهزموا فى المنطقة المجاورة لبغداد . لقد وقفنا على إشارات إلى كل هذه الأمور فى الصحف التى وصلتنا هنا للاطلاع عليها والاستفادة منها . والسلام عليكم" .

ونظراً لأن اليوم التالى كان يصادف يوم الجمعة ، فقد تركونى وحدى إلى ما بعد صلاة الجمعة ، إلى أن جاءنى إبراهيم وأخذنى لزيارة شلهوب،الذى وجدت كلاً من القصيبى وحمدانى مجتمعين فى مجلسه. كان المجلس حاراً وجوُه خانقًا ، وسرعان ما بدأت وجوهنا تنضح عرقًا ، وكان مقعدى بطبيعة الحال فى موقع الشرف ، أى كان أقرب ما يمكن إلى النار المشتعلة . وكان رفيقاى ، اللذان أرهقتهما الصلاة ، قد بدءا الطعام الجميل المكوَّن من التمر والحليب الذى قدمه لهما شلهوب ، أما أنا فلم أحس ميلاً إلى الطعام فى ذلك الجو الخانق . كانت القهوة من أحسن الأنواع ، البن اليمنى الحقيقى ، الذى لا يقدم فى مجتمعات الرياض إلا للشخصيات البارزة وكبار الزوار الذين يقدون من الجنوب ، والذين يعدُّون تقديم القهوة الهندية إهانة لهم ، إذ يعتبرون البن الهندى مقصوراً فقط على عامة الناس . وراح الحاضرون يتكلمون عن النبوءة التى أطلقتها أنا بخصوص الجو . تحدث مضيفى عن ذلك الموضوع فقال : "أنتم أبخص فى مثل هذه الأمور ، أنتم تعرفون أكثر مما نعرف ، ولكن عقيدتنا تتشكك (تستنكر) فى بعض الأشياء ، التى تعد مقصورة على الله وحده" . ورددت عليه متسائلاً : "إذن ، كيف تحددون فصول السنة ؟ أنتم تقولون إن فصل الصيف يدوم أربعين يومًا ويسبقه الربيع ، ويتلوه القيظ . فكيف تقولون ، إن الله قد يغير نظام هذه الفصول حسب

مشيئته ؟ نحن نزن الجو باستعمال الآلات ويمكن أن نتنبأ بسقوط المطر أو حدوث الجفاف ، بواسطة تلك الآلات وطبقًا للعلم نفسه ، الذى تستعملونه أنتم بشكل آخر". كانت محاولتى ترمى إلى تحييد تقولات أولئك الغرباء الذين كنت أعيش بينهم ، وأن أبدو أمامهم مثل واحد منهم يبحث عن الضوء الذى يأتى من المعرفة ، ولم أضيع فرصة واحدة تفوت إلا وعزوت خلالها بدايات علوم الغرب إلى العرب أنفسهم، أو الزعم بأن آلاتى إنما انحدرت عن تلك الآلات التى كان الفلكيون والعلماء الآخرون فى بغداد أيام أن كان مجلس الخليفة وبلاطه مركزًا من مراكز العالم المتحضر . وفى مناسبة أخرى شعرت بالفرح عندما جاءنى مراسل جاء خصيصًا من عند الإمام عبد الرحمن ليسألنى إن كانت الشمس سيعتريها الكسوف أم لا . كان النهار غير صاف وكانت الشمس خافتة من خلال سحابة كثيفة من الغبار، ومع ذلك أحسست أن من واجبى الاستفادة من تلك الفرصة إلى أبعد الحدود . وأمام ذلك المبعوث الذى كادت أنفاسه أن تنقطع ، قلبت صفحات كتابى المعنون التقويم البحرى ، وبعد أن أعلنت أن السجلات خالية من أى تسجيل لكسوف الشمس فى هذه الفترة ، ثم مشيت ومعى آلة السدس **Sextant** لفحص الشمس ذاتها وأكدت صدق ودقة كتبنا العلمية عن طريق الملاحظة الفعلية . وأسرع المراسل عائدًا ومعه الأخبار الطيبة ، نظرًا لأن كسوف الشمس يعد علامة ونذير شؤم عند الوهابيين، ويترتب عليه أداء صلاة خاصة طمعًا فى رحمة الله ، وقبلوا النتيجة التى توصلت إليها قبولاً نهائيًا . وفى مناسبة لاحقة بعد ذلك جرى تبرير مهارتى التى كنت استخلصتها من كتاب التقويم البحرى ، تبريرًا كافيًا أمام حشد كبير من المتشككين (المستنكرين) ، ولكنى أحتفظ بتلك القصة لمناسبة أخرى .

فى مساء اليوم نفسه عزمنى القصيبى أنا وقليل من الأصدقاء فى منزل زوجته التى تزوج منها حديثًا ، وانتقلنا بعد ذلك لزيارة محمد بن عبد الرحمن ، أى شقيق ابن سعود الأكبر ، الذى يطل منزله على سور القصر الملكى من الناحية الشرقية ويفصل بينهما الميدان الرئيسى . وقرأت على الباب الخارجى نقشًا يقول : بيت خالد ، بمعنى أن ذلك المبنى كان سكنًا لأم أكبر أبناء محمد ، الذى كان اسمه خالدًا ، وبعد أن طرقنا الباب دخلنا بلا رسميات ، وتجاوزنا الممر إلى مجلس بيضاوى تزيد أبعاده على الأبعاد

العادية. وسقف ذلك المجلس كان محمولاً على صف من الأعمدة المركزية ، وكانت جدرانه المطلية بالجبس مزينة برسوم مختلفة الأنواع ، كان القسم الأكبر منها عبارة عن دوائر متحدة المركز من اللونين الأحمر والأزرق ، وعجلات وسلاسل أو أوانٍ تحتوى على ما يمكن أن يستعمل فى تربية النباتات أو الأعشاب . يضاف إلى ذلك أن الفتحات الدقيقة كانت محاولات غير جيدة لتمثيل المساجد والمنارات (المآذن) مجتمعين فى خطوط بلا أى تنظيم أو منظور ، ولكنى دهشت تمامًا لرسمين لسفينتين كبيرتين مبحرتين إحداهما مزينة بأعلام مرحة . ومسألة خلو الديكور من صور المخلوقات البشرية كانت أمرًا شديد الوضوح ، الأمر الذى اكتمل بطلاء العمد المليَّسة بالجبس بطلاء حلزونى من الألوان الأحمر والأبيض والأزرق يمتد من الأرض إلى السقف . كانت الغرفة شأن الغرف المثيلة الأخرى مفروشة بالمخاد والسجاد ، غير أن وجار القهوة كان أكبر من أى وجار آخر شاهدته فى مدينة الرياض ، وكان عليه تسع من دلال القهوة ، كانت إحداها أكبر من كل مثيلاتها الأخريات التى شاهدتها فى الرياض أيضًا .

كان محمد ، الذى كان يختلف اختلافًا كبيرًا عن أخيه الأكبر من حيث الوجه والشكل، لا يشارك بأى دور خامل أو فعال فى سياسة البلاد أو إدارتها ، كما كان يحيا حياة اعتزال إلى حد كبير ، ويعيش حاليًا فى حدائقه فى الجزء الجنوبى من الواحة ، حديقة العلايقية 'Alaiqiyya من ممتلكاته ، تلك الضيعة التى حصل عليها مؤخرًا فى المنطقة المجاورة لضرمة Dhruma ، ويندر أن تجده وسط صخب المدينة وجلبتها . واكتشفت أن ذلك صموت ومفاجئ فى أسلوبه ، وحتَّم ذلك علىَّ أن أكون أنا المتكلم طول الوقت، ولكنى حاولت ذات مرة إخراجه عن صمته بأن لزمت الصمت أنا بنفسى . وتكلم الرجل فجأة ، عبَّر عن رأيه بحدة قاطعة قبل أن أجيبه أو أرد عليه ، وسألنى : "ما رأيك فى الشريف حسين ؟ مُخَبَّل (معتوه) ولا خير فيه". وأردف قائلاً يحدثنى عن حج العام السابق ، عندما قاد ١٧٠٠٠ نجدى - حسبما قال - عبر بوابات مكة ، التى لم يرها إلا نادرًا ، اللهم إلا باستثناء زيارة رسمية قام بها للشريف، ولم يكن يترك سكنه إلا للتردد على مناسك الحج . ومع ذلك ، كان محمد بن عبد الرحمن يتطلع

للحج مرة أخرى حينما يسمح له ابن سعود بذلك ، وأن يكون ذلك بطريق البحر إن أمكن وبصحبة والده ، الذى يستحيل عليه حاليًا تحمل متاعب ومشاق الرحلة البرية الطويلة . ووعدته بأن السلطات البريطانية ستأخذ رغبته بعين اعتبارها ، عندما يود القيام بتلك الرحلة .

هكذا كان أفراد منزل عبد الرحمن ، كلهم عبارة عن شخصيات مختلفة ، ولكن لكل واحد منهم شخصية خاصة به - فرد الحرس والناس والأديب - الذين استطعت أن أقيم مع كل منهم علاقات شخصية أكثر حميمية عما كان بوسعى أن أفعله فى جو الشك والتحفظ الذى يسود حياة العاصمة الوهابية كلها . وباستثناء شخصية ابن سعود الطاغية ، وباستثناء التفتيش الاجتماعى الذى له سطوة كبيرة على حرية العلاقة والاتصال بالكفار ، وهذه العوامل بحد ذاتها كافية أن تفرض على زعماء المجتمع الحذر والاحتياط فى علاقاتهم وفى حديثهم معى ، كنت أحس دومًا أن هناك عند كل منعطف مثلبة من المثالب التى تحاول الأسرة إخفاءها ، وبالأخص مثلبة تاريخ السلالة الملكية المؤرِّق ؛ إذ لا يمكن لابن سعود أو لأى أحد من أفراد الأسرة أن ينسى الماضى الذى يمكن أن يعيد نفسه فى أية لحظة من اللحظات فى المستقبل . فمن بين تقلبات السياسة العربية وتقولاتها نجد ابن سعود وحده - مجرد إنسان واحد - هو الذى يتخذ موقفًا وسطًا بين النظام والفوضى . وقد اتخذ ابن سعود ذلك الموقف لا من موقف الحق ، وإنما من موقف الفضيلة التى كانت فيه، فضلاً عن أن ابن سعود لم ينس مطلقًا أن عرشه أقيم بجوار بركان ومن حوله كل الأدوات اللازمة للاشتعال والاحتراق . كانت مهمة ابن سعود تتمثل فى السيطرة على القُوى نفسها ، تلك القوى التى أسفر فشل أجداده فى السيطرة عليها عن تحطيمهم وتدميرهم ، كما كان يعرف أيضًا أن نجاحه أو فشله لا يعتمد عليهما عرشه وحده ، وإنما مستقبل البلاد كلها . وقد ذاع عن ابن سعود ، فى ظل هذه الظروف أنه كان يوجِّه ضربات سريعة وقاسية إلى جذور المتاعب المحتملة ، ومن الطبيعى أن إخوته - بحكم وجود مراكز الاضطراب المحتملة بالمصادفة - يقشعرون خوفًا من فكرة جر شكوك واستياء ابن سعود عليهم ، ولذلك فقد فضلوا راحة البال ، وأسلموا الكثير من حرية الفكر والسلوك ، وتلك خاصية

بارزة في المجتمع العربي . أبلغوني - وأنا آسف أشد الأسف أني لم أحظ بامتياز مقابلته أو لقائه - أن سعداً Sa'd ، الذي كان ضحية غبائه وخيانته في الحملة التي جردها ابن سعود على العجمان ، كان توأم ابن سعود من حيث الشخصية ، وإلى حد ما من حيث المظهر والشكل ، وأن الحب الذي كان يجمع بينهما كان مثل حب سول Saul وجوناثان Jonathan .

وعلى كل حال ، إذا كانت الاعتبارات السياسية تحول إلى حد ما دون اتصالي الحر بأشقاء ابن سعود ، فإن مثل هذا العائق لم يكن موجوداً أمام تطوير العلاقات الودية ، مع شخص كان ضيف شرف مثلي على البلاط الوهابي وكان دائماً يعامل من قبل مضيفه باحترام كبير ؛ الأمر الذي يبرزه أمام ناظري ، في بعض التطورات التي كانت تحدث في وسط الجزيرة العربية ، وأنه سيكون الحاكم المناب على جبل شمَّر. كان ذلك الشخص فيصل بن الرشيد ، وهو رجل في متوسط العمر ومتوسط الطول أيضاً وجهه يتهلل بشراً وفيه قليل من المكر والدهاء وسلوكياته ملكية تماماً ، وهو في ضوء ما سمعناه ، من بقايا مجتمع حائل بشكل عام ، ذلك أن صوته الرخيم الناعم ، ونطقه الجميل لكلام جبل الشمَّر ، ذلك الكلام الفصيح في نقائه ، والذي يتميز باستعمال التنوين بكثرة ، وهو ما يستعمل في الأماكن الأخرى ، كما تنعدم في كلام حائل خاصية النطق بملء النفس ، وذلك على العكس من كلام العارض ، كما تغيب عن كلام حائل خاصية اللثغ ، أو إن شئت فقل نطق السين كالثاء التي تميز كلام المطير ، كان تامي ، الذي كان يرافقني في زيارتي لفيصل ، بمثابة الأنموذج لكلام الشمَّر وأنموذجاً أيضاً للطلاقة الطبيعية التي تميز تلك القبيلة عن بقية القبائل ، يضاف إلى ذلك أن مؤلفات تامي الشعرية ، وانسياب كلماته انسياباً طبيعياً في أثناء الحديث المعتاد تستحق مني دوماً عظيم الثناء .

استقبلني فيصل استقبالاً حاراً ورحب بي عند تناول القهوة ، وأصرَّ على أن أشرب قبله ، وحكى لي نكات عن التاريخ الدامي لأسرة الرشيد المالكة . ففي أيام السيطرة الوهابية العظيمة على الجزيرة العربية كلها ، أقرت كل من حائل وبلاد الشمَّر

بصولجان سعود الكبير وسلطته هو ومن جاءوا بعده ، وكانت تدار بواسطة أمير يعين من الرياض من بين كبار رجال الفخذ الأول من الشمَّر ، أو إن شئت فقل من فرع على من فخذ جعفر من قبيلة عابة ' Aba ، وبمرور الزمن ، وانتكاس القوة الوهابية انتكاساً مؤقتاً على أيدى الأتراك ، قامت السلطة المحلية فى حائل ، والتى كانت تتناوب التبعية بين الأتراك تارة وأسرة سعود المالكة تارة أخرى ، من الناحية العملية بالاستقلال إلى حد كبير عن السيطرة الداخلية ، وفى ضوء التفاصيل غير الواضحة للتاريخ العربى ، أى خلال العقد الثالث من القرن الثامن عشر ، يوم أن استعاد تركى ابن سعود عرش أسلافه من الأتراك المغتصبين كان بيت علىٍّ مستقلاً تماماً فى حائل . كانت مسألة تولى تلك الأسرة الحكم فى حائل محل نزاع وتنافس مع فرع آخر من الفخذ نفسه ، هو فرع الرشيد ، الذى كان يمثله عبد الله بن الرشيد ، الذى خدم تحت قيادة تركى ، الذى كان حاكماً اسمياً لحائل . وفى الوقت المناسب ، سنحت الفرصة لعبد الله بن الرشيد بقلب الموائد على أبناء عمه ومنافسيه . إذ طلب إليه تركى بن سعود أن يحدد مكافأته على العمل الفذ الذى اداه للقضية الوهابية ، وهنا طلب عبد الله من تركى بن سعود أن يعطيه الإمارة على مدينته على أن تكون له ولورثته من بعده ، كيما يتم استبعاد بيت على إلى الأبد . وقبل تركى بن سعود عبد الله بن الرشيد حاكماً منابًا على حائل تحت ولاية تركى . ولكن مع مرور الوقت ، وبتشجيع من العمليات الحربية الطويلة التى دارت بين الأتراك والحكام الوهابيين ، ونظراً أيضاً لتأرجح سلطة الحكام الوهابيين فى الرياض ، نسف عبد الله بن الرشيد كل مظاهر التبعية وأسس البيت الملكى لجبل شمَّر ، الذى حكم حائل تحت اسم ابن الرشيد حكماً مستمراً اعتباراً من ذلك التاريخ ولمدة بسط خلالها صولجانه على القسم الأكبر من الممتلكات الوهابية . كان عبد الله قد تجمع مع والديه ، وخلف وراءه أعداداً من الأبناء يكفى لتولى العرش الذى أوجده من بعده . ولكن عبد الله كان له أخ أيضاً ، اسمه عبيد ، كان هو بدوره أيضاً متطلعاً غير ناجح إلى الأمجاد الملكية ، وهو أيضاً مؤسس سلالة من المطالبين بالعرش أيضاً ، والذين أدت مطامحهم إلى تضميخ حائل بالدماء الملكية . وفيما بين عبد الله وحفيده سعود الذى يحكم حائل(٢٢) حالياً ، جلس على عرش حائل

ما لا يقل عن ثمانية ملوك (أمراء) ، وكلهم ماتوا نتيجة العنف ، باستثناء واحد - هو أعظمهم جميعًا - هو محمد بن الرشيد ، واحد من أعظم الرجال الذين أنجبتهم الجزيرة العربية . وقد زار دوتي Doughtyحائل في ذلك الوقت، ولمن يريدون أن يعرفوا شيئًا عن تاريخ شمالي ووسط الجزيرة العربية حتى ذلك اليوم ، والذين يودون أن يعرفوا كيف استطاع ولد عبد الله الثالث ، "الذى تشبه ملامحه التى تشبه ملامح الطير ، ملامح شخص نجا من أمراض الدنيا كلها ، واحتمالية أن يكون أميرًا ؟" أن يجلس على عرش حائل ، أنصح كل هؤلاء بقراءة الصفحات المطولة التى يحكى دوتي فيها القصة التى رويت له عن المآسى التى حدثت فى بيت ابن الرشيد [٣٤] ويكفينا هنا القول إن عبد الله بن الرشيد خلفه ولده طلال الذى أمات نفسه بنفسه ، بدلاً من مواجهة الضعف البطيء الذى يترتب على الإصابة بمرض عضال ، ثم خلف طلال أخوه الثاني متعب . وبعد ذلك بعامين تآمر ولدا طلال ، بندر وبدر ، على قتل عمهما ، وبعد أن نجحت عملية الاغتيال عن طريق فتح النار على الملك فى أثناء حضوره اجتماعًا من الاجتماعات العامة ، جلس بندر ، الذى كان فى التاسعة عشر من عمره ، على عرش البلاد . كان بوسع بندر أن يواصل بقاءه فى الحكم سالمًا آمنًا ، لولا شكه وحماقته اللذان دفعا وحرضا عمه الوحيد محمد ، على وضع حد لكل هذه الشكوك والحماقة مستعملاً فى ذلك خنجر القاتل المأجور. ويصل محمد عن طريق فعلته تلك إلى اعتلاء عرش لم يكن يناسبه مطلقًا ، "ويقولون أيضًا ، إن الحكومة لم تكن كفاءً مطلقًا فى أدائها" . ودام حكم محمد بن الرشيد طويلاً ، وكان عهدًا زاهرًا ، ولما كان القدر قد حرم محمد بن الرشيد من الذرية ، فقد ترك بعد وفاته فى عام ١٨٩٠ الميلادى ، لعبد العزيز بن متعب بن الرشيد ، إمبراطورية شاسعة منظمة ، كانت تضم وسط الجزيرة العربية كله بما فى ذلك وادى الدواسر فى الجنوب . لم يكن عبد العزيز من نوعية أسلافه نفسها ، ولكن سميَّه وقاهره كان لا يزال يعد طفلاً فى المنفى ، وكان لابد من بقاء نجد عقدًا آخر ترزح تحت نير الحكم الأجنبى قبل أن يتم تخليصها منه . وفى عام ١٩٠١ الميلادى انتزع عبد العزيز بن سعود الرياض من قبضة المغتصب ، واستطاع خلال السنوات القليلة التى تلت ذلك مد صولجانه ببطء وثقة إلى أملاك

أجداده إلى أن شكلت القوات المعادية نفسها فى عام ١٩٠٦ الميلادى استعداداً للكارثة النهائية فى المعركة النهائية التى شنتها على بيارات النخيل فى روضة المهنا فى القصيم . وتمت الإحاطة بقوات عبد العزيز بن الرشيد ، بل وقتل الأمير نفسه ، وعندما وصل الخبر إلى حائل عن طريق الخيالة الهاربين ، تم القبض على أبنائه الصغار متعب ومشعل ومحمد وأُعْدموا على يدى سلطان بن حمود ، الذى جلس على العرش الشاغر ، وبذلك يكون أول أفراد أسرة عبيد الذين وصلوا إلى العرش . وقُتِل المغتال وخلفه شقيقه الأصغر سعود ، الذى قتل هو بدوره بعد عامين بأيدى قتلة مأجورين تآمروا عليه بتوجيه من حمود بن سوبهان Subhan[٣٥] مستهدفًا بذلك استعادة العرش إلى سلالة عبد الله بن الرشيد ، الذى لم يتبق منها سوى سعود ، ولد عبد العزيز حاكم حائل الحالى ، والذى لم يكن سوى طفل صغير فى ذلك الوقت . وهنا تولى حمود - الذى كان خالاً لسعود ، ومتزوجًا من شقيقة سعود الكبرى - تصريف الأمور باعتباره وصيًا على العرش نيابة عن سعود ، وخلف حمود بعد وفاته فى ذلك المنصب أحد أبناء عمومته واسمه زامل بن صبحان Subhan الذى قتل بدوره مع بعض أفراد الأسرة فى عام ١٩١٤ الميلادى .

هذا باختصار هو تاريخ أسرة الرشيد المالكة . وكان فيصل ، الذى روى لى تلك القصة ، واحداً من أبناء حمود بن عبيد ، ومن ثم يكون شقيق الحاكمين القاتلين للغير : سلطان وسعود[٣٦] ، ولكن فيصل كان أصغر سنًا من سلطان وأكبر سنًا من سعود . وبعد اغتيال كل من سلطان وسعود بأيدى المنتقمين فى مأساة عام ١٩٠٦ الميلادى استطاع فيصل والبقية الباقية من سلالة عبيد ، بما فى ذلك ابن عمه الأول وأخوه غير الشقيق ، ضارى بن فهد ، أن ينقذوا أنفسهم ويبقوا على قيد الحياة ، عن طريق الهرب . وقد أمضى كل من فيصل وضارى ، وهما ابنان من أم واحدة ولكن من أبوين مختلفين ، هما بدورهما أخوان غير شقيقين ، أمضيا السنوات الأولى من المنفى فى منطقة الجوف قبل أن يستقرا فى الرياض ، التى انتقل منها ضارى ، فى العام السابق للزيارة التى قمت بها إلى مكة ، ليعيش فيها فى ظل حماية الشريف حسين . وظهر أن فيصلاً ، الممثل الرئيسى المتبقى على قيد الحياة من بيت عبيد 'Ubaid كان

مقتنعًا بالحياة الرغدة السهلة والمترفة في بلاط ابن سعود ، إلى أن يحين الوقت الذي يرتفع إلى مركز حاكم حائل الذي لا يحسد عليه كل من يتولاه . ويعود فيصل بذكرياته إلى أيام محمد بن الرشيد ، يوم أن التقى هوبرHuber في أثناء ترحاله ، ويذكر أيضًا أنه التقى مؤخرًا كلاً من السيد بتلر Butler والسيد إيلمر Aylmer خلال العام الذي أمضاه في الجوف Jauf . وقد زار فيصل كلاً من مكة والبصرة والخميسية Khamisiyya وسماوة Samawa ، غير أنه لم يتجاوز مطلقًا حدود الجزيرة العربية ، ولم يسبق له أن رأى البحر مطلقًا . وكان ابنه الوحيد ، في ذلك الوقت ، صبيًا اسمه حمود . وأنا لا أعرف شيئًا عن ضاري ، سوى أنه يعتبر نفسه المُعَين الذي اختاره الشريف حسين لتولي إمارة حائل ، إذا ما حدث وأصبح ذلك المنصب من ضمن عطايا الشريف حسين .

ومن بين الصحبة التي تجمعت في مجلس فيصل بن الرشيد ، تعرفت على شاب وسيم يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا ، اسمه فيصل الجبر al Jabar ، الذي يُعد هو وأخوه الأكبر سلطان الشخصين الوحيدين الباقيين على قيد الحياة من فرع ثانوي من بيت الرشيد يعرف باسم الجبر Al Jabar . ويبدو أن فيصل الجبر جاء مع والده إلى الرياض، ومعهم أعضاء آخرون من الأسرة نفسها ، في الوقت نفسه الذي وصل فيه كل من فيصل بن الرشيد وأخيه ضاري إلى الرياض ، وللأسباب نفسها . ولم يشارك فيصل الجبر في الحوار أو الحديث مشاركة كبيرة ، ولكنه عندما هم بالانصراف ، توقف أمامي ليرجوني أن أقبل دعوته لي لشرب القهوة في منزله ، وقد كنت سعيداً ، في حقيقة الأمر ، لقبول تلك الدعوة . وقبولاً لتلك الدعوة توجهت في الحال إلى منزل فيصل الجبر ، وفي منزله استقبلني كل من فيصل وسلطان ، ذلك الشاب الوسيم الذي يبلغ من العمر حوالي ثلاثة وعشرين عامًا ، وأمتعوني بالقهوة وحديث فياض ، تركز القسم الأكبر منه على معركة جرَّاب Jarrab[٣٧] ، التي شاركا فيها ، والتي أصيب فيصل فيها بجرح كبير ، كما قتل فيها أيضًا كل من والدهما وشقيقهما الأكبر ، عبد الرحمن . كانت الأسرة كلها تخدم في خيَّالة ابن سعود التي كانت قد حملت في ذلك اليوم على قوات ابن الرشيد الراكبة ، لتكتشف أن مشاة ابن الرشيد ، التي ساعدها الهروب الخائن لفيلق العجمان في اللحظة الحرجة من المعركة ، قد أجبرت مشاة ابن

سعود على الدخول فى طريق محدد وحدت من حركتها واستولت على معسكره ومؤنه ومخزوناته . ويواصل فيصل كلامه قائلاً : فى تلك المعركة مات النقيب شكسبير ، والمندوب البريطانى مع ابن سعود ، نظراً لإصراره على الذهاب مباشرة إلى خط المشاة على الرغم من تحذيره مراراً من الخطر الذى يمكن أن يجره على نفسه إذا ما ذهب إلى ذلك الخط . ولكن فيصل لم يكن شاهد عيان فى تلك المعركة ، وقد استطعت الحصول على كثير من التفاصيل الكاملة والدقيقة التى جعلت عائلة ذلك الضابط الشجاع ترضى عن الطريقة التى جربها الموت على نفسه - وهو خسارة فادحة لا تعوض لكل من بلاده ولصديقه العظيم ، ابن سعود - ومن فم واحد كان مرافقًا بالفعل للنقيب شكسبير فى ذلك الوقت ، واسمه حسين ، والذى كان يعمل رئيسًا لطاقم مدفع مع القوات الوهابية . قال ذلك المرافق وهو يروى أحداث شهر يناير من عام ١٩١٥ الميلادى : "عندما رفع ابن سعود بيرقه ، إشارة للتقدم والزحف على ابن الرشيد ، لم يكن لدينا سوى مدفع واحد ، كنت أنا المسئول عنه . واقتربنا من منطقة جرَّاب ، ثم انقسم الجيش إلى قسمين ، وتولى ابن سعود بنفسه قيادة الخيَّالة كلها ، بحثًا عن العدو الذى وردت تقارير تفيد أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى ، هذا فى الوقت الذى تركت المشاة فيه الجمال والأمتعة فى المعسكر ، وسارت فى طريق مختلف بحذاء الشعب . وبمدفعى الوحيد رافقت المشاة ومعى شيزهبير Shaishpeer " - هكذا ينطق العرب ذلك الاسم الذى يحظى بكثير من التشريف والتكريم فى الجزيرة العربية - "الذى رجاه ابن سعود فى الليلة السابقة للمعركة أن يذهب إلى مدينة الزلفى Zilfi ، نظراً لأن ابن سعود كان يرى أن معركة الغد تدور من حولها الشكوك ، ولكن شكسبير رفض رفضًا باتًا الذهاب إلى الزلفى وأصر على مرافقتنا والذهاب معنا . وفجأة اكتشف كشافونا أن العدو كان يتقدم فى اتجاهنا ، وهنا سحبت مدفعى إلى موقع حاكم لأفتح النيران على العدو . وعلى الفور بدأت إطلاق النار بينما وقف شيزهبير على صخرة صغيرة يراقب العدو من خلال نظارة الميدان ويبلغنى بالاتجاه الذى أوجه إليه نيران مدفعى . وناديته وطلبت منه عدم تعريض نفسه ، ورجوته أن يخلع غطاء رأسه Topi، لأنه لم يكن يرتدى ملابس مثل ملابسنا ، وإنما كان يرتدى زيًا بريطانيًا ، ولكنه

لم يعرنى أى انتباه وواصل توجيهى إلى الأهداف التى أفتح عليها نيران مدفعى . وبعد فترة قصيرة أصيب الرجل بطلقة بندقية فى فخذه، ولكن على الرغم من عدم قدرته على الحركة ، استمر فى عمله وراح يوجه نيرانى إلى أن تلاقت القوات المتعادية ودخلت قتالاً متلاحمًا . وهنا توقفت عن الرماية وجلسنا على الأرض نشاهد المعركة . وبعد فترة وجيزة ، شاهدت قواتنا تتراجع . وهنا قلت له : "هيا بنا ، لقد انتهى كل شىء ، هيا بنا نهرب عن طريق الشعب" . وبعد ذلك سحبت أجزاء المدفع المتحركة ، ودفنتها فى الرمل ، ورحت أجرى فى الاتجاه المشار إليه . وقال الرجل شيئًا عن سلوك طريق مختلف ، ولكنى لم أنتظر نظرًا لأن رجالنا كانوا يجرون حفاظًا على حياتهم" . فى أعقاب تلك الضربة التى وجهها لنا عدونا، نظر حسين إلى الخلف ، فشاهد جمَّالة العدو ، وهى تهجم على شكسبير ، الذى وقف على الرغم من إصابته ، وراح يقاتل إلى أن سقط ميتًا ، ولم ير حسين أكثر من ذلك . وفى الوقت نفسه كانت خيَّالة ابن سعود قد تمكنت من طرد خيالة العدو أمامها وراحت تلاحقها ، ولكن العجمان بعد أن رأوا ذلك الذى حدث للمشاة ، فروا كى يسلبوا المخيم وينهبوه ، وخسر ابن سعود المعركة ، وادعى ابن سعود النصر فى ضوء النجاح الذى أصابته خيَّالته ، ولكن شرف الانتصار كان للعدو ، الذى لم يكن – على الرغم من كل ذلك – فى موقف يمكنه من القيام بمحاولة أخرى ، وتراجع ورضى بغنيمة المخيم الذى جرى تخريبه . واستطرد حسين قائلاً : "وبعد ذلك بشهرين رجعت إلى مكان المعركة كى استعيد أجزاء المدفع التى كنت قد دفنتها فى الرمل ، وشاهدت أرض المعركة وقد تناثرت فوقها جثث العدو والصديق ، تركت كلها بالشكل الذى كانت عليه ، ووجدت بينهم شيزهبير (شِنُّه انقتل أمس) كما لو كان قتل بالأمس ، وإلى جواره شاهدت شمَّريًا Shammari ، وبالقرب منهما شاهدت جملاً ، وعلى بعد مسافة قصيرة ، شاهدت جثة بدوى من البدو التابعين لنا . والله ! يقولون إن مالا يقل عن ٣٠٠٠ رجل سقطوا فى تلك المعركة" . هذا التقدير للخسائر ، مبالغ فيه تمامًا بطبيعة الحال ، والمرجح أن خسائر الجانبين لم تزد على ٣٠٠ قتيل ، ولكننا عندما نحكم على تلك المعركة من نتائجها ، نجد أن معركة جرَّاب كانت واحدة من المعارك الحاسمة على مسرح العمليات الحربية فى الجزيرة العربية ، كما أن وفاة

شكسبير ، التى أعقبها التخلى عن كل المحاولات الرامية إلى استغلال ابن سعود فى توسيع نطاق الحملة التى يجريها البريطانيون على الأتراك ، وضعت حداً على الفور وإلى الأبد لكل الآمال التى كنا نعلقها على التعاون العربى فى الحرب ، ولم تنتعش تلك الآمال من جديد إلا بعد ذلك بثمانية عشر شهراً ، وقد انتعشت وحيت من جديد فى منطقة مختلفة وأسفرت عن نتائج بارزة ومهمة . وعهد إلى لورانس وجيش الحجاز بتحقيق ذلك الذى كان يمكن أن يحققه ابن سعود هو وشكسبير فى ظل ظروف أفضل ، بقليل من الحظ ، وقليل من الخيال من جانب السلطات المسئولة عن سير حملة بلاد الرافدين .

تحت قبة سماء الجزيرة العربية التى تزينها النجوم يرقد جثمان شكسبير مثلما سقط فى ميدان جراًب ، صديقاً مخلصاً للعرب ، وهذا هو كل ما يعرفه كل عربى فى وسط الجزيرة العربية . وفى يوم من الأيام ، وبالمصادفة ، وبمبادأة من جانب عائلته ، فإن ذكرى تضحيته ، يمكن تخليدها على الأرض التى لقى عليها حتفه ، بأحسن النصب وأبسطها ، مجرد بئر من آبار الجزيرة العربية يطلق عليها اسمه . وأفضل الأشياء جميعاً هو الماء(*).

(*) هذه العبارة وردت باللغة اليونانية وترجمها الأستاذ ديمترى من السفارة اليونانية بالقاهرة . (المترجم)

الهوامش

(١) هناك اسم آخر لتلك المنطقة على الطرف الشمالي منها حتى وادى عطس Als في الجنوب ، وهذا الاسم هو عُرَيْمة (بضم العين وتسكين الياء) ، وهو تصغير لكلمة عارمة ، ومع ذلك فننا شخصياً لم أسمع ذلك الاسم .

(٢) حسب معرفتنا هو مساء الخميس ، نظراً لأن أتباع محمد يحسبون بداية اليوم من غروب الشمس ، أما في المدن فإن صلاة الجمعة تقام في موعد صلاة الظهر ، أما في الصحراء فهي تبدأ عند غروب شمس اليوم السابق (أي الخميس) .

(٣) دخل إلى بيتي ، حسب تعبير ابن سعود ، بمعنى "احتمى ببيتي" .

(٤) باعتبار أن الجنيه الإسترليني يساوي (كان معدل صرفه في ذلك الوقت) ستة دولارات أو ١٥ روبية .

(٥) من ذلك على سبيل المثال أن فيصلاً الشاب الذي زار إنجلترا في عام ١٩٢٢ الميلادي، هو أحد أبناء ابن سعود من إحدى بنات الشيخ عبد الوهاب ، الرئيس الحالي للأسرة الوهابية .

(٦) بعض تلك المستوطنات (الهجر) هي الأرطاوية ، والغطغط ، وداخنة ، ودهينة ، والمبيّض ، والفريثان ، وساجر ، وضايعة ، وسلّة ، والروغيب ، وسيح ، وخوف ، والرين ، ونبض .

(٧) هذه الكلمة تحريف لكلمة "قوم" Qaum التي تساوي كلمة "قبيلة" ، من حيث المعنى ، وهم لا يستعملون هذه الكلمة إلا للتعبير عن الهيئة العسكرية (سواء كانت قبلية أو غير قبلية) وهي تسير في طريقها إلى ميدان القتال .

(٨) كان يومئذ ممثلاً سياسياً لدى الكويت .

(٩) توفي الشيخ سالم في شهر فبراير من عام ١٩٢١ الميلادي ، وخلفه أحمد بن جابر ، ابن أخيه .

(١٠) "والله ، أيها الصاحب نحن نثق في جانب ونخاف الجانب الآخر . نحن نثق في الإنجليز ، أما الأتراك والألمان فلا" .

(١١) هو الميجور جنرال السير بيرسي زد . كوكاس ، الذي كان يومئذ مفوضاً مدنياً لبلاد الرافدين ، ثم بعد ذلك وزيراً مفوضاً لدى طهران ، ويشغل حالياً منصب المندوب السامي لبلاد الرافدين .

(١٢) كان للأحداث التي وقعت مؤخراً (١٩٢٠) في حائل أهمية خاصة في ذلك الصدد . إذ كان ابن الرشيد قد قتل في فصل الربيع من ذلك العام ، ويصعب علينا تحديد ما إذا كان ذلك الاغتيال لأسباب خاصة أو سياسية . وهناك شائعة تقول : إن الحاكم الجديد ، أو بالأحرى الوصي على العرش - إذ كان قاصراً - أبرم معاهدة مع ابن سعود ، مغزاها هو إجبار جبل شمرٌ على العودة إلى وضعه الأصلي تابعاً للدولة الوهابية . ولكن المعلومات التي توفرت بعد ذلك (في عام ١٩٢١) تفرغ تلك الشائعة من أي تحالف من ذلك القبيل ، ويتضح أن ابن سعود كان يقوم بتجميع قواته للهجوم على حائل .

(١٣) حاكم قطر .

(١٤) سفر الخروج ، ١٣-٢١ .

(١٥) سفرالخروج ، ١١-٣٦ و ٣٧ .

(١٦) سفر العدد٩-١٤ و ١٨و ٢٢و ٢٥ و٢٨ .

(١٧) يقال إن أبيار حفر العطس يصل عمقها إلى ٣٠ قامة ، في حين يصل عمق أبيار أبو جيفان في أقصى الجنوب ، والتي سبق أن مررت بها من قبل وأنا في طريقي من الهفوف إلى الرياض ، إلى ما يقل عن قامتين . وبين هاتين النقطتين تزخر هضبة عارمة بالسقى Waterings .

(١٨) انظر المجلد الثاني ص ١٢٦

(١٩) يقول له العرب : "الصبح الكذاب" .

(٢٠) الحدوة مشكلة على هذا النحو : الجزء غير المظلل مسامير :
والمظلل يمثل اللوح المعدني .

(٢١) انظر صفحة ٢٩٩ وما بعدها . (النص الإنجليزي)

(٢٢) كان طول ذلك الغدير حوالي ٤٠ ياردة وعرضه حوالي ٢٠ ياردة في منطقة سطحية لا يزيد عمقها على بضع بوصات .

(٢٣) يعرف الناس تلك التلال باسم معيزيل Ma'aizil .

(٢٤) يطلق الناس عليها أيضًا اسم الجبيلة Jibila .

(٢٥) هذا الغسول يزيل الجلد بكامله ، ويعقب الدهان الأول دهان ثان بعد ذلك بأيام قلائل .

(٢٦) المقصود هنا مجوعة الأبيار المحيطة بالرخيمية في منطقة قبيلة الظافر القوية .

(٢٧) ينطقون هذا الاسم هنا "جاسم" بدلاً من "قاسم" .

(٢٨) تصغير "عثمان" تعبيرًا عن الاحتقار والازدراء .

(٢٩) أمير القرية هو ابن خراشي Kharashi ، ومبلغ علمي أنه من بني تميم .

(٣٠) هذا تعبير هندي أصله من بومباي .

(٣١) انظرلصفحة ٣٠٢ وما بعدها . (النص الإنجليزي)

(٣٢) هذا الرجل ، هو الضابط السياسي التابع لابن الرشيد مع الألمان .

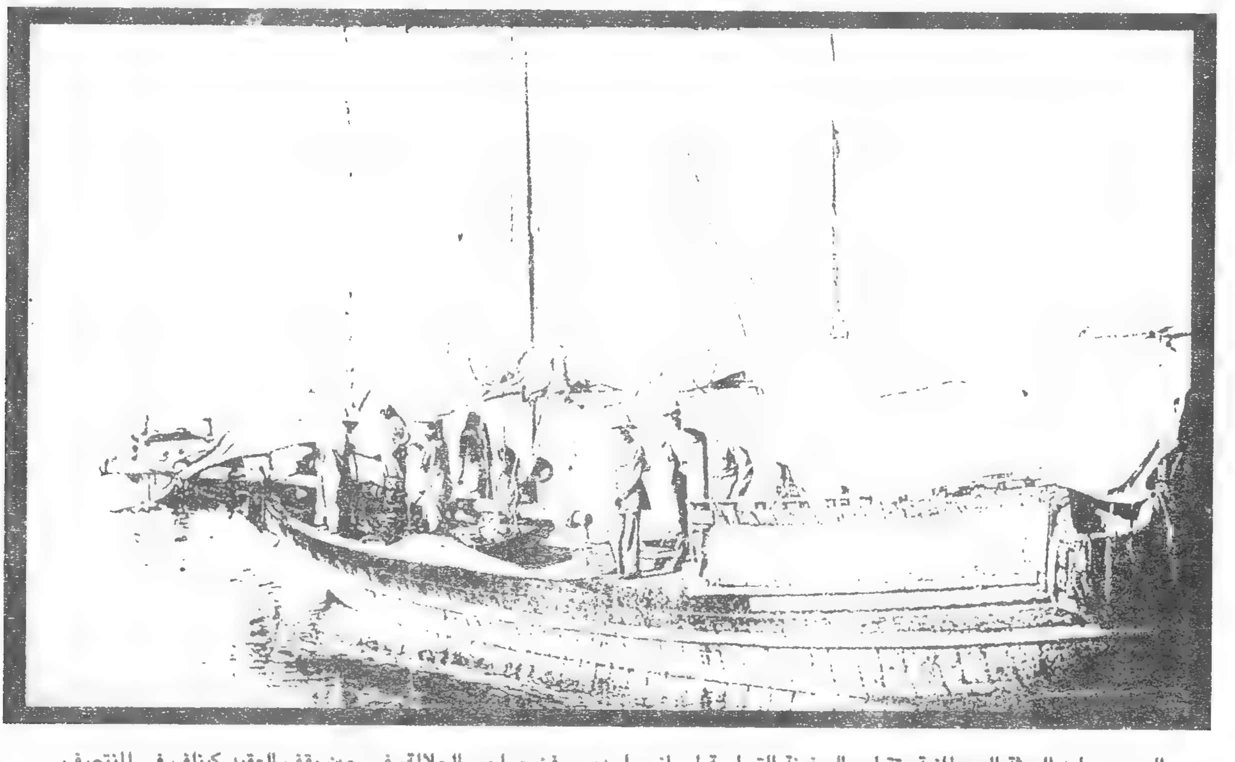
(٣٣) حافظ سعود على سمعة عائلته لأنه قُتل مؤخرًا (في شهر أبريل من عام ١٩٢٠) ، وعمره واحد وعشرون عامًا ، على يد عبد الله بن متعب ، الذي كان شابًا مراهقًا ، وابن عم ضحيته .

(٣٤) س . إم . دي . المجلد الأول ص ١٣ وما بعدها . دبليو . اس . بلنت Blunt زار حائل أيضًا في الفترة نفسها تقريبًا (١٨٧٩) .

(٣٥) انظر صفحة ٢٤٩ وما بعدها .

(٣٦) كان ثلاثتهم من أمهات مختلفات .

(٣٧) يناير ، ١٩١٥ .



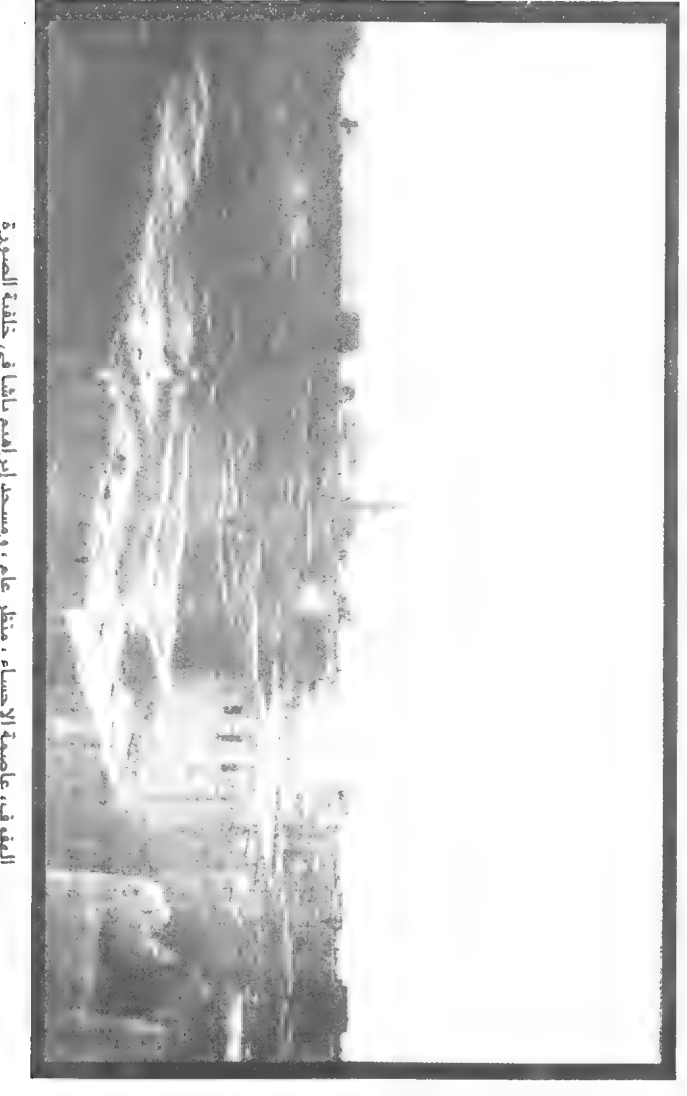
الدهو، وعليه البعثة البريطانية، تقطره السفينة التجارية لورانس إحدى سفن صاحب الجلالة، فى حين يقف العقيد كينلف فى المنتصف



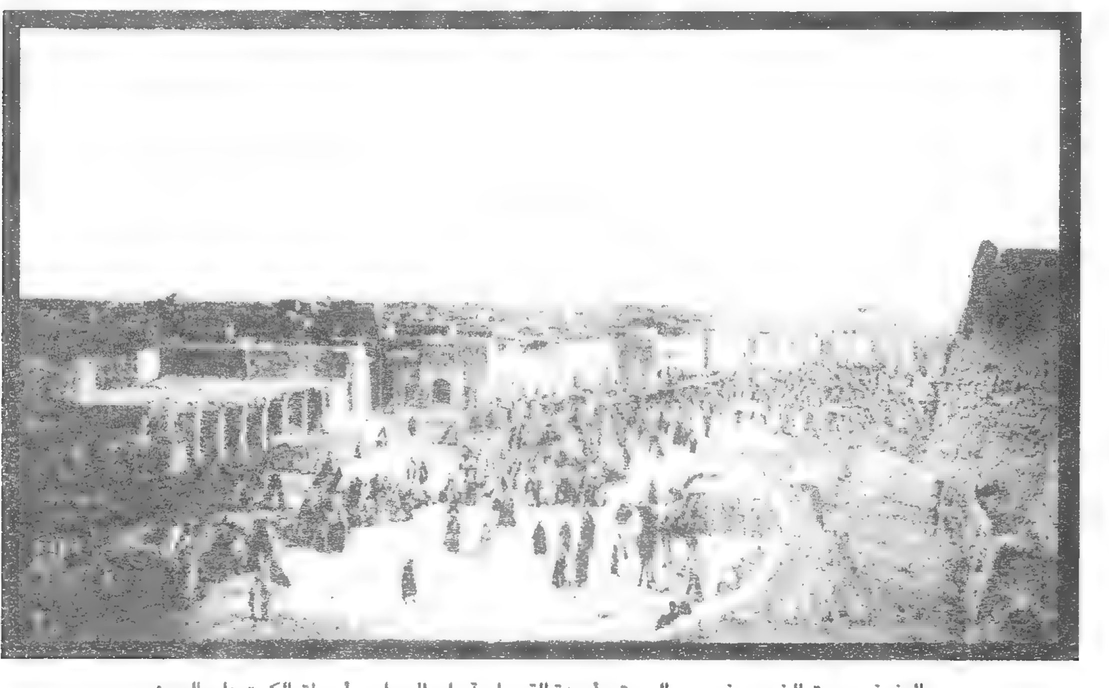
العقير- جيتي، المخازن والميناء



جلوي وابنه سعود، والمراسلون واقفون في الخلف



الهفوف، عاصمة الإحساء، منظر عام، ومسجد إبراهيم باشا في خلفية الصورة



الهفوف: سوق الخميس في يوم السوق وأعمدة القيسارية على اليسار، وأسواق الكوت على اليمين



الهفوف: مسجد إبراهيم باشا، خليل أفندي على الجانب الأيسر، وسليمان الحريقي إلى جواره ومراسلون على الجانب الأيمن



العين الحارة: العين السخنة بالقرب من المبرز



مؤلف الكتاب

وادي الشجرة: وقفة لأداء صلاة العصر



وادي وأبيار أبي جيفان

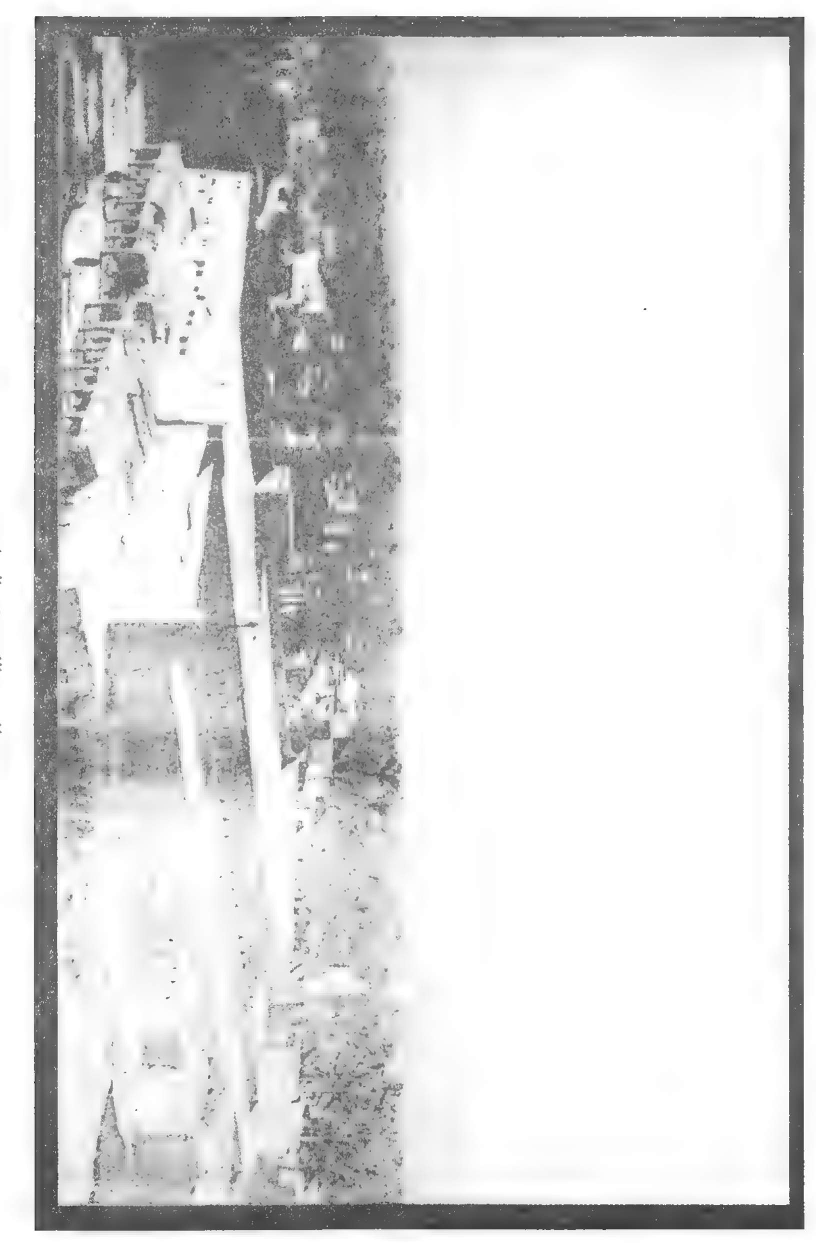
خشم أوساع: معسكر العاصمة في سهل الترابي



العقيد ر .أى .إه هاميلتون فى اليسار ومعه فهد، من الحرس الملكى فى الرياض



القصر الملكي في الرياض



المسجد الكبير في الرياض



قلعة الرياض ومنظر عام من [illegible]
في [illegible]

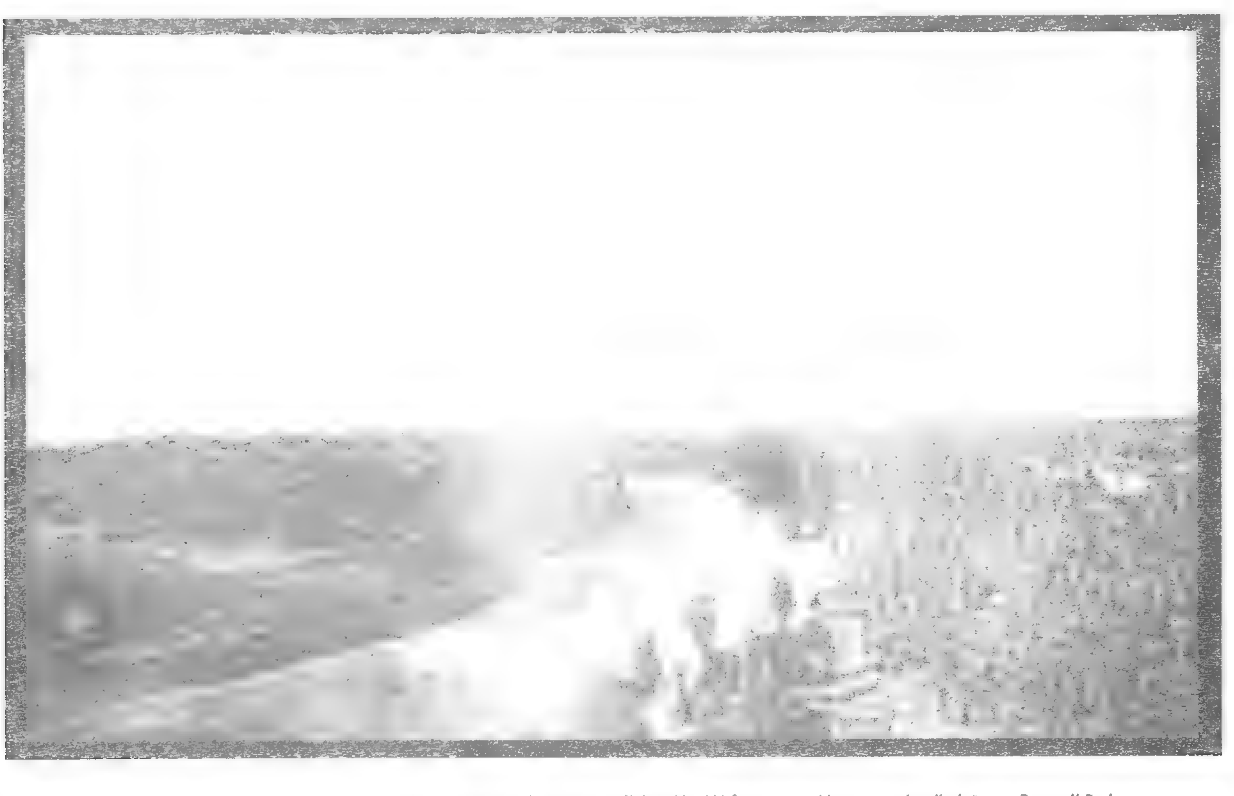
بستان فى واحة الرياض: عبد الله أفندى جالس على السور



جماعة فى الرياض، الأطفال الملكيون فى المقدمة، ويقف خلفهم من اليسار إلى اليمين . فيصل بن هاشر، وفيصل بن الرشيد، وابن سعود بنفسه، وسعود بن عبد العزيز العرافة، وتركى بن سعود، وسعود بن عبد الرحمن بن سعود، وعضوان آخران من أعضاء الأسرة المالكة



بعض ممن صاحبوا المؤلف فى رحلته التى قام بها عبر الجزيرة العربية، الوقوف من الشمال إلى اليمين هم :
مطيليخ، وتامى، وإبراهيم، والمؤلف، وسعد ازماى، وحيلان، وبدر، الجلوس : شايا، وسعيد ؟ وابن نصار
أبو نوره، وجرمان



واحة الدرعية، مع قناة العواصف فى المنتصف، وأطلال المدنية القديمة جهة اليسار وهجرة ملوى والضهارة والغصيبة جهة اليمين



ممر سقطة في جبل طويق



واحة القويعية فى مرتفعات الأرض،ومدافن وهابية فى مقدمة الصورة

جبل فريدة في سلسلة جبال دمخ

سهل سيرا. يطل من ناحية الشرق على [illegible] اليمن [illegible] اليمن



قرية الخورمة



قصر شبرا في وادي الطائف

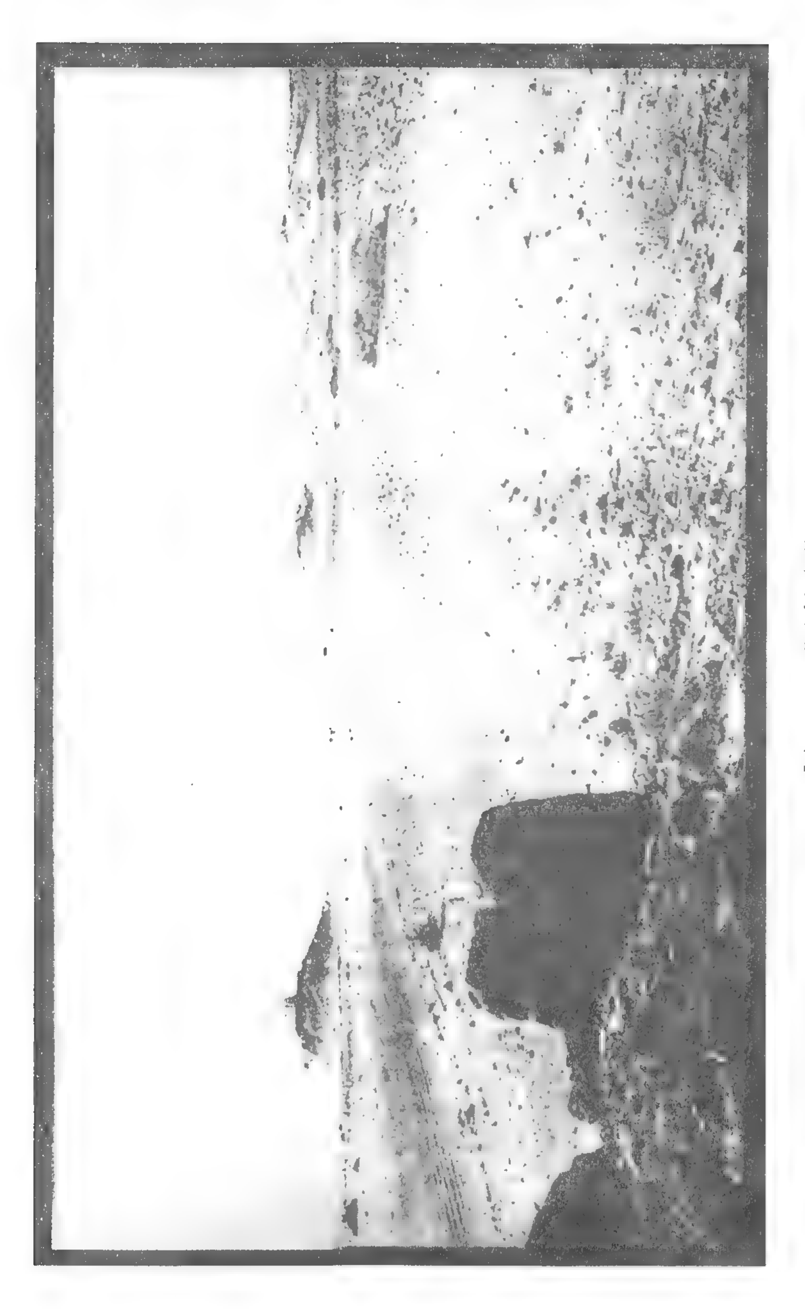


الطائف

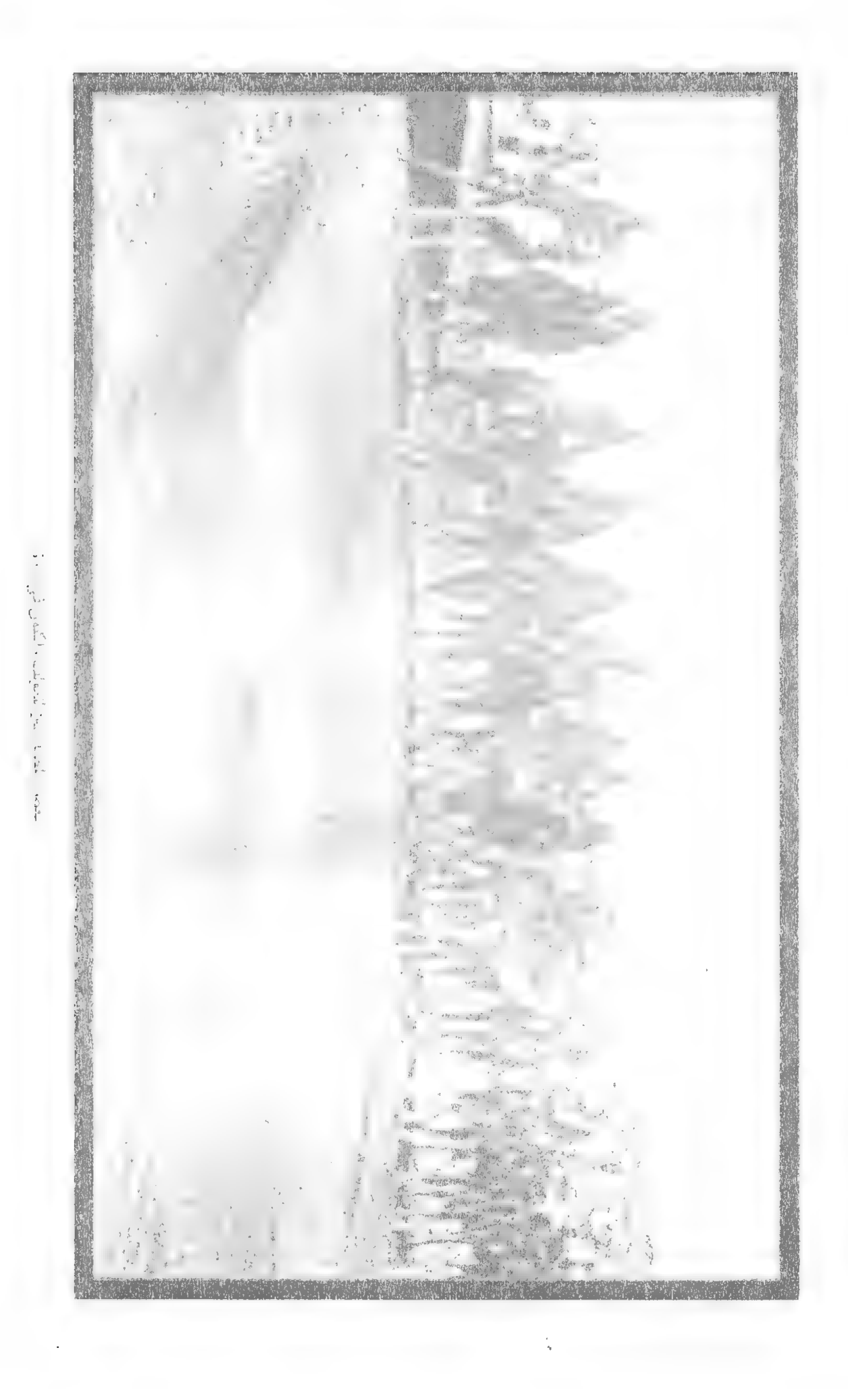
قصر الملك حسين في الطائف - مقر الأتراك قبل سقوطه [illegible] في عام ١٩١٦ الميلادي

واحة الشامية « فاطمة» عند مصب حراضة، إبراهيم، وعبد الملك، ومبعوثه راكباً، ومن خلفه الخادم

خط تلغراف وطريق قوافل مكة جدة، عند النقطة البيضاء في تلال الحافة

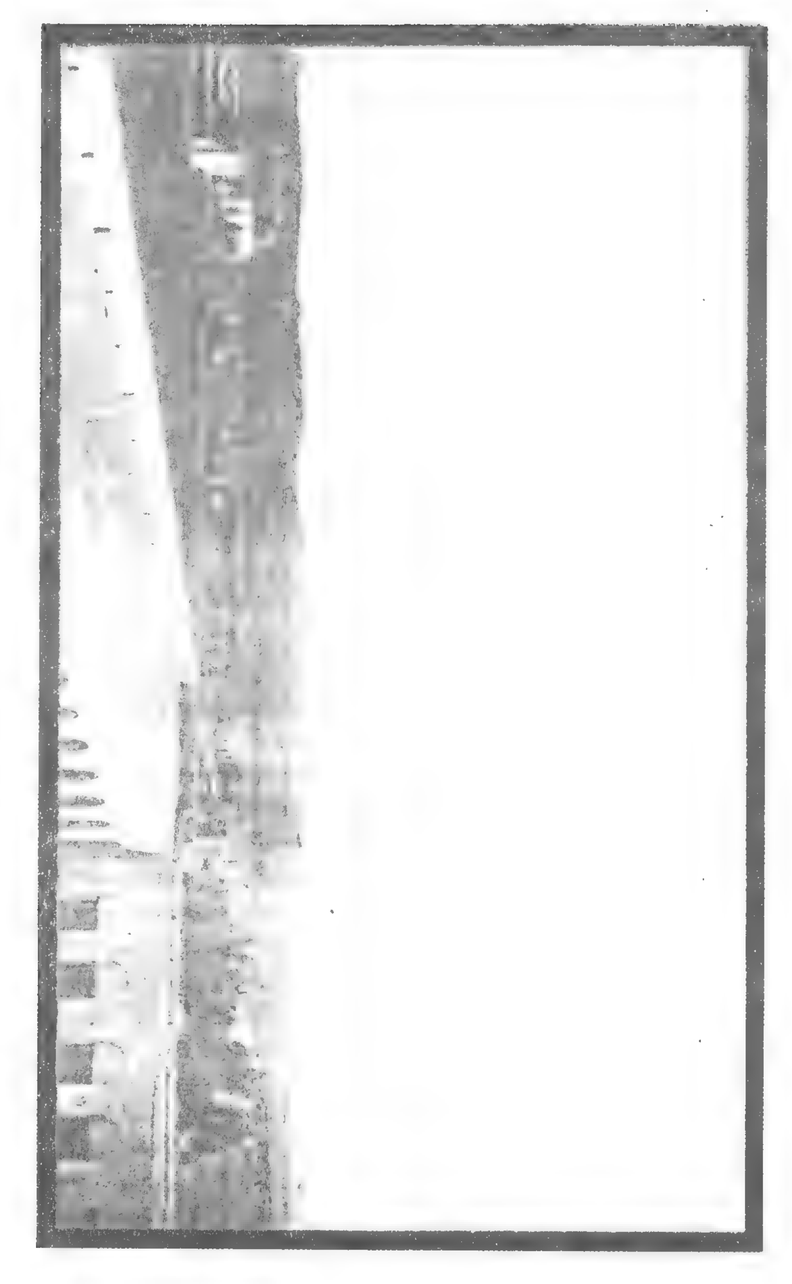


المنظر الأول للبحر في رغامة





جدة بوابة مكة



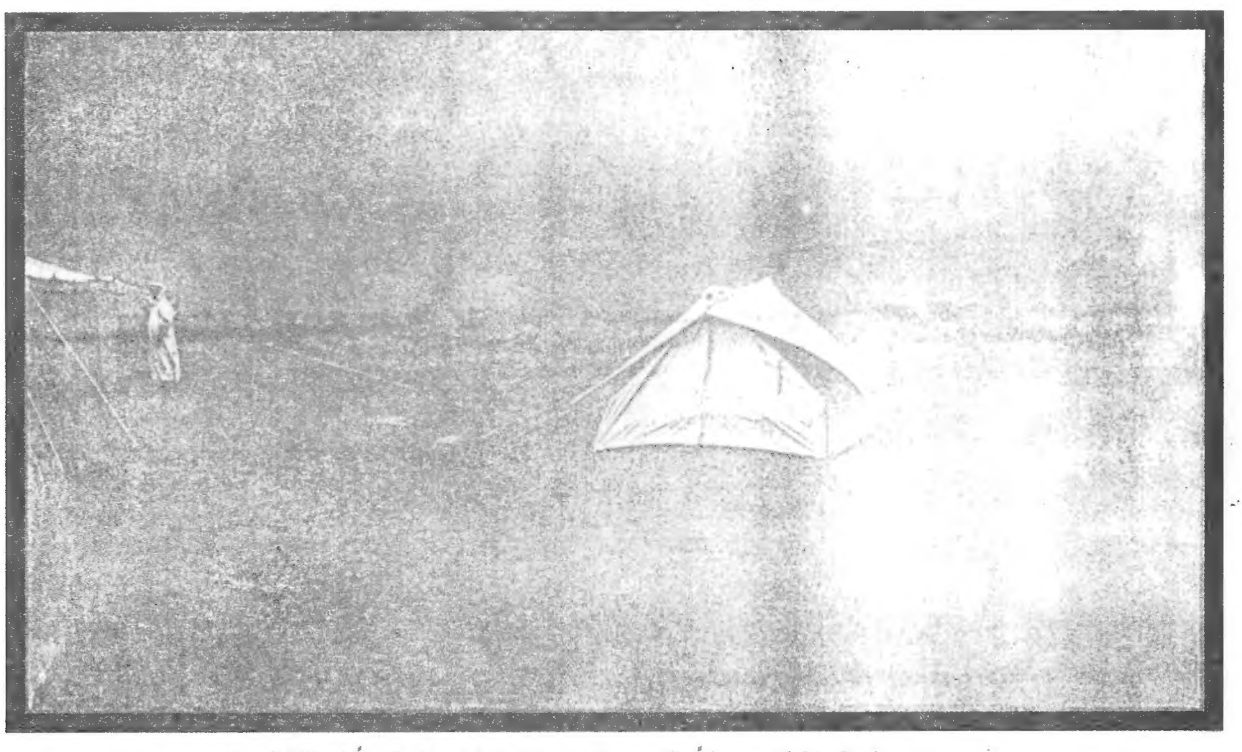
جدة: التكايا الشريفة في مقدمة الصورة وقبر حواء في الفترة الخلفية



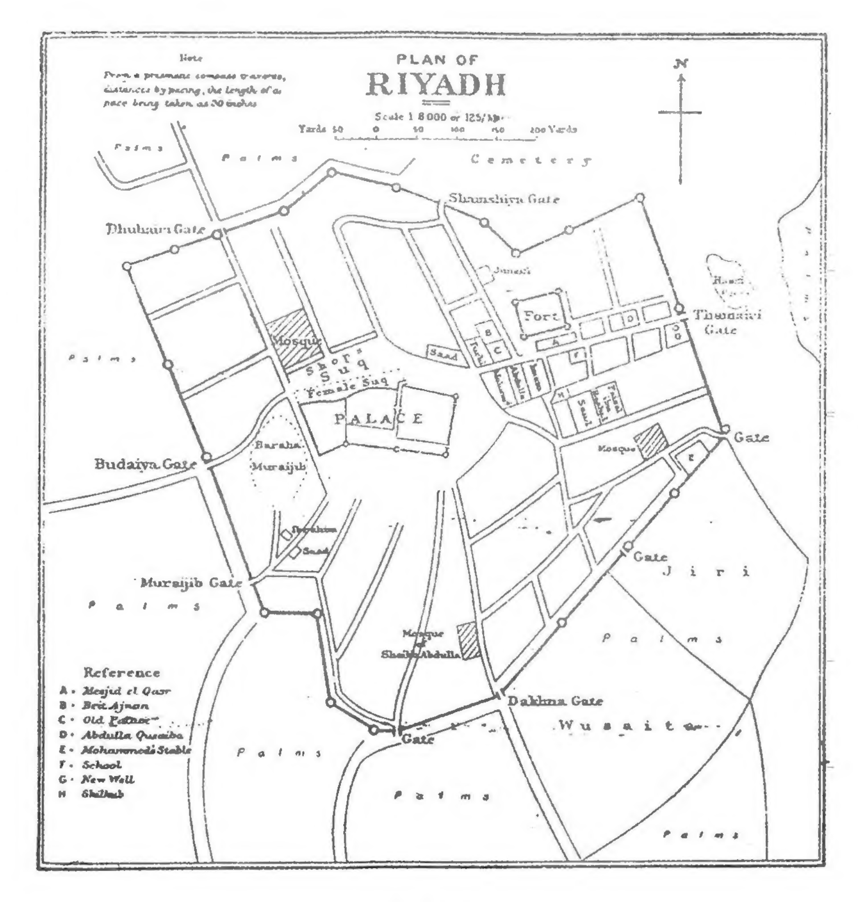
مجموعة من مشايخ الصحراء، من اليسار إلى اليمين محمد بن صالح الصبحان، والشيخ إبراهيم بن الزبير، وضارى بن طوالة بن سويق



أبيار حفر الباطن وجمال لجلب الماء



عاصفة رملية تكتسح معسكراً بالقرب من خفس. صخرة عارمة غير واضحة تماماً في خلفية الصورة


PLAN OF
RIYADH
Scale 1 8000
Yards 50 0 50 100 150 200 Yards
N
Palms
Palms
Cemetery
Shamshiya Gate
Dhuhairi Gate
Fort
Mosque
Suq
Female Suq
PALACE
Saad
Gate
Mosque
Baraha Muraijib
Budaiya Gate
Ibrahim
Saad
Gate
Jiri
Muraijib Gate
Palms
Mosque of Shaikh Abdulla
Palms
Dakhna Gate
Gate
Palms
Palms
Palms
Reference
A - Mesjid el Qasr
B - Beit Ajman
C - Old Palace
D - Abdulla Qusaiba
E - Mohammed's Stable
F - School
G - New Well

مخطط الرياض

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســن كامــــل